أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين

١٧٨٩ - ١٩٥٠

تأليف

أ. ج. جرانت　　هارولد تمبرلي

ترجمة
بهاء فهمي

مراجعة
الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

الناشر
مؤسسة سجل العرب



أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين

بإشراف
إدارة الثقافة العامة
بوزارة التربية والتعليم

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

اهداءات ٢٠٠١

الأستاذ الدكتور / عبد الفتاح منصور

أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين

١٧٨٩ - ١٩٥٠

تأليف

أ. ج. جرانت
أستاذ التاريخ بجامعة ليدز سابقاً

هارولد تمبرلي
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة كامبردج سابقاً

ترجمة
بهاء فهمي
الملحق بجامعة الدول العربية

مراجعة
الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
أستاذ التاريخ الحديث بجامعة عين شمس

الناشر
مؤسسة سجل العرب

أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين
١٧٨٩ — ١٩٥٠

تأليف

أ. ج. جرانت · هارولد تمبرلى

راجعت النص الإنجليزى وأضافت إليه ونقحته

ليليان م. بنسون

دكتوراه فى القانون

دكتوراه فى الآداب

أستاذة التاريخ الحديث بجامعة لندن

ترجمه إلى العربية

(عن الطبعة السادسة المنقحة)

بهاء فهمى

راجع الترجمة

الدكتور احمد عزت عبد الكريم

تنويه

ورد في هذا الكتاب بعض آراء شخصية للمؤلفين ، وذلك حين تعرضا للسياسة البريطانية في منطقة الشرق الأوسط .

وقد أشرنا الى هذه الآراء وبينا وجه الحق فيها وسجلنا ذلك في هوامش الكتاب .

هذه ترجمة الجزء الاول من كتاب :

Europe in the Nineteenth and Twentieth Centuries.

تأليف

Grant and Temperley.

المحتويات

الجزء الأول

الثورة الفرنسية ونابليون

الفصل الأول

الصفحة

الفصل الثانى

الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الصفحة

الجزء الثالث

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر

الصفحة

الصفحة

الفصل التاسع عشر

الفصل العشرون

الخرائط

كلمة تصدير للطبعة السادسة

بقلم

مراجع النص الانجليزى

ان هذه الطبعة تمثل محاولة فيها شىء من الجدة . فلقد أضفنا الى الكتاب حتى وصلنا به الى يونيو ١٩٥٠ جريا على سنة المؤلفين الأصليين اللذين حاولا دائما المضى بالكتاب قدر المستطاع حتى يلحق بالأحداث الجارية وقت ظهور طبعاته الجديدة . ولقد أتاحت المادة الجديدة التى ترتبت على هذا العمل الفرصة لا لتعزيز الاضافات التى أدخلت على على الطبعة السابقة فحسب بل أيضا لاعادة النظر الى حد بعيد جدا فى الجزء الأخير من الكتاب . فان مرور الزمن وظهور وقائع حرب ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ على الأخص قد استلزما تنقيح ذلك الجزء من الكتاب الذى يتناول الفترة التالية لعام ١٩١٩ تنقيحا كبيرا . على أننا قد حرصنا فى الوقت نفسه على الاحتفاظ ما أمكن بصياغة الكتاب الأولى صيانة لطابع الكتاب الأصلى .

لقد وافت المنية المؤرخين العظيمين اللذين قاما بتأليف هذا الكتاب بعد ظهور طبعته الخامسة فى ١٩٣٩ . فقد توفى الأستاذ تمبرلى فى يوليو ١٩٣٩ أى قبل أن تؤدى الأحداث التى كانت محل اهتمامه البالغ، الى كارثة تلك السنة بأسابيع معدودة . أما الأستاذ جرانت الذى كان يكبره بسنوات فقد عاش حتى مايو ١٩٤٨ فشاهد بالتالى انقضاء سنوات الحرب والمراحل الأولى للعصر الجديد الذى تلاها . وبذلك

تيسر لى ، وقد كنت على صلة وثيقة بكلا المؤلفين الأصليين فى ميدان العمل التاريخى ، أن أبحث مع الأستاذ جرانت ما أحدثته من تعديلات فى هذه الطبعة .

ان اجتماع هذين المؤلفين بخبرتهما الواسعة — على اختلافهما — وتخصصهما المشترك فى التاريخ الأوروبى ، قد أكسب الكتاب خاصتين يتميز بهما ، هما الفردية والأصالة الفكرية . ولقد كانا يرغبان فى أن تظهر للكتاب طبعات متتالية تحتفظ بقسط على الأقل من هاتين الخاصتين مع مراعاة اختلاف زاوية النظر بحلول عصر جديد .

وقد نوه المؤلفان فى الكلمة التى صدرا بها الطبعة الخامسة بخبرة الأستاذ تمبرلى الشخصية فى هيئة أركان حرب الامبراطورية البريطانية ابان الحرب العالمية الأولى ومفاوضات الصلح . وأشادا بمعاونة عدد من أصدقائهم الشخصيين وبعض هؤلاء غابوا عنا فلم يعد الرجوع اليهم مستطاعا . ووجها الشكر على الأخص الى الفيلدمارشال لورد بيردوود Field-Marshal Lord Birdwood لما أبداه من انتقادات على الفصل الذى يتناول حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، والى المستر (اللورد فيما بعد) ج . م . كينز J. M. Keynes لمعونته فى الكتابة عن القسم الخاص بالتعويضات والقسم الاقتصادى من معاهدة فرساى . كما نوها بمشورة السير أرنولد ولسون فى كل المسائل المتصلة بما كان يعتبر حينذاك التاريخ الحديث للشرق ، وبتعقيب المستر ل . س . امرى L. S. Amery على القسم الذى يتناول بناء الديمقراطية من جديد بعد الحرب العالمية الأولى ، وبمشورة الماجور جنرال ا . س . تمبرلى (شقيق أحد المؤلفين) فى تاريخ نزع السلاح والتطورات الأخيرة فى عصبة الأمم .

كما اعترف المؤلفان فى تلك الكلمة بدينهما للمستر ريموند

بوستجات Raymond Postgate لتوليه كتابة جزء من الفصل الذى يتناول الماركسية وروسيا . ومازال هذا الدين قائما لأننا قد انتفعنا الى حد بعيد من الفصل الذى ساهم فى تحريره . الا أنه كان من الضرورى اعادة النظر فى هذا الفصل وتوجيهه وجهة جديدة نوعا ما على ضوء الأحداث التى وقعت منذ اعداد الطبعة الخامسة .

وانى أود أن أزجى الشكر لا الى الذين قدموا العون للمؤلفين الأصليين وحدهم بل أيضا الى مس وينيفرد بامفورث Winifred Bamforth الحاصلة على درجة الماجستير فى الآداب ، لمعونتها العظيمة فى أعمال البحث التى تطلبها اصدار هذه الطبعة الجديدة . فلقد ساهمت بنصيب جوهرى فى اعداد الكتاب للمطبعة وفى المراجعة الشاملة للاشارات والاقتباسات .

يوليو ١٩٥٠ — ليليان . م . بنسون

مقدمة الطبعة السادسة المنقحة

ليس من المستطاع ضغط تاريخ القرن ونصف القرن الماضيين حتى حرب ١٩٣٩ وما بعدها ليحتويه مجلد واحد من ستمائة صفحة [1] . وليس بوسع هذا العدد المحدود من الصفحات أن يضم فى أحسن الفروض أكثر من صورة تقريبية اجمالية أو بضعة انطباعات وخطوط عريضة . الا أنه يمكن ، كما فى الصور اليابانية ، احداث التأثير العام المطلوب باستخدام الخطوط الصحيحة . ولقد قدم المؤلفان الأصليان هذا الكتاب الى جمهور القراء على أنه تصوير للكيفية التى تتداخل بها — فى حسبانهما — وتتشابك ، الخيوط الرئيسية للفترة التى يتناولها حتى تؤلف نسيجا منمقا كاملا . ان الخطة التى وضعاها للكتاب باقية كما هى دون تعديل جوهرى وهى تسير وفقا للأسس التالية : يزيح الجزء الأول الستار عن انفجار عظيم هو انفجار الثورة الفرنسية مفصلا لنا كيفية امتداده الى سائر أنحاء أوروبا وما أبقاه نابليون وما نبذه من ثمار هذه الحركة الروحية والقومية الكبرى . ثم يأتى الجزء الثانى فيرسم لنا كيف راحت الدول العظمى الأربع فى أوروبا تجاهد عبثا بعد اسقاط نابليون لاقامة نظام للحكومة العالمية وكيف أصبح فشل تلك المحاولة مؤكدا بسبب كاننج الذى كان يفضل قيام حكومات قومية قوية ويصف النظام الجديد بأنه خطير وسابق لأوانه ،

---

[1] صدرت الطبعة السادسة فى مجلد واحد يضم ستة أجزاء الا أن هذه الترجمة للكتاب تصدر فى مجلدين يشمل أولهما ، وهو الذى نقدمه الآن لأول مرة الى القارىء العربى ، الأجزاء الثلاثة الأولى وينتهى بالفصل الحادى والعشرين وموضوعه انشاء الجمهورية الفرنسية الثالثة ؛ أما الأجزاء الثلاثة الأخرى فيشملها المجلد الثانى الذى يصدر قريبا باذن الله .

كما يرسم لنا ظهور الحكم الدستورى فى فرنسا وأسبانيا واستقلال بلجيكا وصراع القومية الدفينة المكبوتة فى بولندة وايطاليا . ويبدأ الجزء الثالث بانتشار الثورة فى وسط أوروبا وغربها فى ١٨٤٨ ثم يسرد لنا قصة حرب القرم وما تمثله من خطأ مفجع وقصة الوحدة الايطالية وانتصارات بروسيا المذهلة فى الدبلوماسية وفى الحرب . ثم تنتهى الفترة التى يتناولها ببعث فرنسا .

ويبدأ الجزء الرابع بالحرب الروسية التركية وانطلاق العواطف العنيفة فى البلقان ابان السنوات ١٨٧٦ — ١٨٨٦ . ثم يتناول الفصل الثالث والعشرون تطور الاستعمار ونمو الامبراطوريات فيما وراء البحار طوال القرن . وتلى ذلك قصة انشاء شبكتى الاحلاف الأوروبية الكبرى ، وكيف تجمعت الدول العظمى تدريجيا فى معسكرين متخاصمين . ثم يبين لنا الفصل الخامس والعشرون كيف بدأت انجلترا نفسها تتخلى عن عزلتها فدخلت فى حلف مع اليابان وفى اتفاقين مع فرنسا وروسيا . ويتناول الفصل التالى أوروبا عشية الحرب فيحكى لنا قصة كل من أزمات الجزيرة الخضراء والبوسنة وأغادير ، وأخيرا يبين لنا كيف زادت حروب البلقان الاحتكاك بين الاتفاق الثلاثى والحلف الثلاثى وكيف انغمست دول أوروبا فى النهاية وسط المشاكل المتزايدة فى غمار الحرب .

وفى الفترة التى يتناولها الجزء الرابع ، وهى التى تمتد من ١٨٧٨ الى ١٩١٤ ، كما فى الفترة التى يتناولها الجزء الخامس ، عولجت الموضوعات علاجا أوفى بعض الشيء وأضيفت الاشارات الى بعض الوثائق التى يمكن الرجوع اليها . وقد رؤى أن المرغوب فيه فى مؤلف مثل هذا المؤلف الاشارة ما أمكن الى الكتاب الذى يكون أدنى الى متناول القارىء ، ولكن هذا لا يعنى أن المؤلفين لم يستعينا

فى اعداده بالمصادر غير المنشورة كذلك .

ويتناول الجزء الخامس حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ومعاهدات الصلح وظهور القوميات الجديدة . وقد خرج المؤلفان فى الفصل التاسع والعشرين وعنوانه « الحرب » على القاعدة التى اتبعاها فقدما للقارىء خطة لمعركة حربية ، هى معركة المارن فى سنة ١٩١٤ ، مصحوبة بدراسة خاصة لهذه المعركة . اذ أنه رؤى أن أهمية تلك الأزمة تبرر هذا الاستثناء . فان دراسة خطط ألمانيا العسكرية التى فشلت فى المارن ليست دراسة شيقة جدا من الوجهة العسكرية فحسب بل ان لها أيضا مضمونا سياسيا وأدبيا بالغا . ومن المفيد بنفس الدرجة استعراض وجهة نظر فالكنهاين فى الموقف العسكرى خلال عامى ١٩١٥ — ١٩١٦ وقراره أن يضرب أولا ضد روسيا ثم فى فيردون ، ثم تتبع الوجهة التى وجه اليها الاستراتيجية الألمانية « هندنبرج » و « لودندورف » واستقصاء الأسباب التى حدت بهما الى الاقتناع بشن حرب الغواصات بلا هوادة . ومن المهم كذلك تقدير السبب فى فشل استراتيجية لودندورف ونجاح استراتيجية هايج وفوش فى ١٩١٨ . فاذا انتقلنا الى الفصل الثلاثين رأينا أن الاستراتيجية قد أصبحت استراتيجية السلم لا الحرب . والواقع أن دراسة طباع ولسن ولويد جورج وكليمنصو المتباينة ليست أمرا شيقا فى حد ذاته فحسب بل هى أيضا المفتاح الحقيقى لمغاليق معاهدة فرساى . فهذه الدراسة تساعدنا كثيرا على تفسير أهمية ميثاق عصبة الأمم ، ونشأة نظام الانتداب ، وصرامة الشروط المفروضة على ألمانيا .

أما الفصل الحادى والثلاثون فيعالج تكون الأمم فى أوروبا الحديثة . ان موضوعه الأمم لا الرجال ، ان نشأة هذه الأمم وطباعها تميط اللثام عن التطورات الغربية فى شخصيتها القومية . وقد وجهت العناية فيه كذلك الى المشاكل التى أثارتها الأقليات العنصرية والدينية المتفرقة فى

أنحاء الكثير من الدول الجديدة . كما يعرض نفس الفصل للحرب الأهلية الروسية . وينتقل الفصل الثانى والثلاثون بنا الى الشرق فيحاول أن يبين لنا كيف أثرت انتفاضة أوروبا فى آسيا ؛ انه يحكى لنا كيف أصبح الأتراك شعبا جديدا وكيف بقى للأرمن وجود بعد الكوارث المروعة التى أنزلها بهم الأتراك ، وكيف شق العرب طريقهم من مكة الى دمشق وكيف بدأت بلاد الفرس والصين واليابان ترسم مصائرها الغربية .

أما الجزء السادس فقد روجع مراجعة كبيرة وأطيل ليتناول سيرة دول أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى وسنوات مابين الحربين ثم الحرب العالمية الثانية وأعقابها .

وفى الفصل الثالث والثلاثين نجد بعض التكرار الضرورى للأحداث السالفة الذكر بقصد معالجة الحركات العامة لتلك الفترة . وقداختص الفصل بعنايته بعدد قليل من بين الحركات العديدةالتىكانيمكن تتبعها فتضمن دراسة لتطور الماركسية لأن هذه الدراسة تلقى ضوءا يساعدنا على اقتفاء تطور الاتحاد السوفيتى منذ الثورة حتى اندلاع الحرب فى ١٩٣٩ . ويلى تلك الدراسة وصف لطبيعة النظم الدكتاتورية فى ايطاليا وألمانيا وللأحداث التى أدت الى نموها . كما يعالج الفصل نفسه الحكومات البرلمانية فى فرنسا وبريطانيا ويعرض لافتقار فرنسا الى الاستقرار السياسى ، ذلك الافتقار الذى يعد من العوامل المؤديةالى انهيارها فى ١٩٤٠ .

ويبدأ الفصل الرابع والثلاثون بالمشاكل التى واجهت عصبة الأمم مسجلا المحاولات المتتالية التى بذلت لعلاج هذه المشاكل . وبعد فترة العشرينيات الحافلة بالاستبشار والأمل ، يأتى الاستعداد للحرب فى الثلاثينيات والتخلى عن مشروعات نزع السلاح وعن المثل العليا لعصبة

الأمم . فالأزمات الدولية تتعاقب واحدة بعد أخرى حتى تجد أوروبا نفسها قد اشتبكت فى الحرب الكبرى الثانية فى القرن العشرين ، وهى التى يتناولها الفصل الخامس والثلاثون .

ثم يعالج الفصل السادس والثلاثون أعقاب الحرب ويعرض لما تم من تسويات سياسية فى أوروبا منذ ١٩٤٥ وللمبادىء الكامنة وراء معاملة الحلفاء للدول التى كانت معادية . أما البحث الخاص بالحركات الهادفة الى تحقيق التعاون والوحدة على الصعيد الأوروبى والدولى ، وهو الذى كان يشكل فى الطبعات السابقة جزءا من الفصل الرابع والثلاثين ، فقد أفردت له الخاتمة بعد أن روجع مراجعة كبيرة وأضيف اليه بحيث يشمل هيئة الأمم المتحدة .

كما أضيفت الى الكتاب خرائط جديدة تمثل شمال أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط عند اندلاع الحرب فى ١٩٣٩ ، والمدى الذى بلغته الفتوحات الألمانية حتى يناير ١٩٤٢ ، وأوروبا بعد انتهاء الحرب فى ١٩٤٥ ، وتقسيم ألمانيا الى مناطق فى ١٩٤٥ .

وقد وجهت عناية خاصة للتأكد من صحة التفاصيل ومراجعة التواريخ والبيانات ، غير أنه لا مفر مع ذلك من تسرب بعض الأخطاء .

الجزء الأول
الثورة الفرنسية ونابليون

الفصل الأول
أوروبا الحديثة

ان كلمة أوروبا ليست مجرد اصطلاح جغرافى ، فهى لا تدل على رقعة محددة من سطح الأرض فحسب وانما تشير كذلك الى لون معين من الحضارة . ففى مفاهيم الدول الأوروبية المتعلقة بالحياة الاجتماعية والحكم والدين والفن والعلم ، تشابه معين يكمن وراء كل ما بينها من فروق — تشابه قد يصعب تعريفه ولكنه يبدو مؤكدا لاشك فيه اذا ماقورنت هذه المفاهيم بأفكار الحضارات القديمة فى آسيا أو بالأحوال فى أفريقيا أو العالم الجديد . وهذا الأساس من الأفكار والسنن المشتركة ليس نتيجة لوحدة الجنس ، فان أجناس أوروبا عديدة وبعضها بعيد كل البعد عن البعض الآخر ، وانما هو نتيجة للتطور التاريخى للبلاد الأوروبية . فجميعها قد ورث علم الاغريق وفنهم وفلسفتهم وان تفاوتت الدرجة . وجانب كبير منها اندمج فى الامبراطورية الرومانية . وقد كان لقوانين روما ولغتها ونظمها أثر عظيم حتى فى البلاد التى ظلت خارج الامبراطورية . الا أن العصور الوسطى هى التى شاهدت أعظم التقدم نحو ما يمكن أن يسمى بالوحدة الأوروبية . اذ تابعت الكنيسة المسيحية — سواء فى صورتها الشرقية أم الغربية — مهمة روما وان يكن ذلك على صعيد مختلف تماما . وأصبحت الآراء المسيحية فى العقيدة والأخلاق والعبادة تلقى قبولا عاما فى جميع أنحاء أوروبا . وقد ظلت هناك حقا اختلافات كبيرة بين الشرق والغرب وبين الأمة والأخرى ، ولكن دعائم التفاهم المشترك قد أرسيت ولم تقو الثورات المقبلة على القضاء عليه قضاء تاما .

غير أن وجود هذا الأساس المشترك من الثقافة فى أوربا لم يساعد فى شيء على اقرار السلام بين دولها وأجناسها المختلفة ، فان تاريخ أوربا انما هو سجل لحروب متصلة منذ القرن الثانى الميلادى فصاعدا . حقا ان تعاليم الكنيسة الرئيسية كانت تعترف بوحدة الانسانية وتشيد بفضائل السلام ولكن النظم المدنية التى تشجع هذه الأفكار تشجيعا فعالا لم توجد ولم تكن هنالك هيئة تستطيع أن تفرض تطبيقا . ومع ذلك فيجدر بنا أن نذكر هنا أيضا أن أقوى الجهود التى بذلت لتحقيق وحدة أوربا ، كجزء من الوحدة الانسانية الكبرى ، قد بذلت فى أثناء العصور الوسطى ، فالامبراطورية الرومانية المقدسة — التى لاقت مالاقت من سوء الفهم والنقد الجائر — انما كانت تأكيدا للفكرة القائلة بوجوب اجتماع أوربا فى تنظيم سياسى واحد وخضوعها لسلطة عليا تسمو على الدول المختلفة وتستطيع أن تفصل بينها ، ولكن هذه الامبراطورية أخفقت اخفاقا مزريا فى سعيها لبلوغ هذا المثل الاعلى ولكن مجرد احتفاظها به حيا كان شيئا يستحق الذكر فى حد ذاته . كما أن تنظيم الكنيسة كان حتما دولى الهدف والطابع ، وكانت لنظم الاقطاع والفروسية والمنظمات النقابية والجامعات صفة دولية الى درجة لا مثيل لها فى العالم الحديث قبل القرن التاسع عشر .

وقد اقترن زوال دنيا العصور الوسطى — كعلة ومعلول معا — بنمو الشعور القومى وتأكيد فكرة استقلال كل دولة . وهذا أوضح بين الامم التى سبق أن فصمت رباطها بروما ولكن الظاهرة شائعة فى الواقع بالنسبة للجميع . فان استقلال أسبانيا وفرنسا عن السيطرة البابوية لم يكن يقل تقريبا عن استقلال انجلترا وألمانيا . كانت الأفكار الدولية التى سادت العصور الوسطى قد أخذت تتلاشى من مدة فاختفت الآن من العالم تماما حتى كمجرد الهام نظرى . فنحن لا نكاد

نحشر — من نهاية القرن الخامس عشر الى نهاية القرن الثامن عشر — حتى على مجرد صدى لتلك الآراء التى كانت فيما مضى شائعة — أيا كانت غرابة الصورة التى اتخذتها — والقائلة بأن الأمم المسيحية تؤلف كلا واحـدا وبأنهـا يجب أن تصطنع من النظم مايؤكد هذه الوحـدة ويصونها ، أللهم الا عند مفكرين فرادى من أمثال السير توماس مور ورابليه وسولى وليبنيتز وكنت وروسو .

كانت الدول الأوربية على ذلك يواجه بعضـها بعضـا مواجهـة الخصوم المدججين بالسلاح الذين لا يأمن الواحد منهم للآخر فهى لا تعترف بأية قاعدة للسلوك سوى مصلحتها الخاصة ، والمحالفات التى تدخلها وقتية تدفعها اليها عوامل الخوف أو الرغبة فى الكسب . وقد أطلق على هـذه العلاقات الوقتية غير المسـتقرة بين دول أوربا اسم التوازن الدولى Balance of Power

وقد مجـد البعض هـذا « التـوازن » باعتبـاره كفيـلا بضمان السلم الأوربى وحماية العـالم من الاستبداد ، واستنكره البعض الآخر ووصفوه بأنه السبب فى حروب أوربا . والحق أنه لم يكن هذا ولا ذاك ، وانما هو مجرد تسمية مناسـبة للطريقـة التى تتصرف بها الدول حيال بعضها البعض عندما يخلو الجو من نفـوذ يحملها على الاتفاق أو قوة تكرهها عليه اكراها ، أو بلاط معين تكون هذه الدول جميعها على استعداد للاعتراف بسلطانه . وتطبيق هذا النظام — وان لم يكن فى الحقيقة نظاما — يشاهد فى أوضح صوره بين الدويلات اليونانية فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . وهذا النظام نفسه هو السر فى الأحوال السياسية الدائبة التقلب بايطاليا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، حتى اذا جاء القرن السادس عشر وجدناه ينتقل من ايطاليا الى مجال أرحب ، هو أوربا التى نظمت

على أساس الدول ذات السيادة (١) وان كنا نستطيع أن نشاهد عمل نفس القوة — قوة التوازن الدولى — فى كثير من الأحيان أثناء العصور الوسطى نفسها ، فان أبرز سمات النظام الأوربى القائم على الدول ذات السيادة تحت تأثير فكرة التوازن الدولى ، هو تحالف الدول الأضعف — من وقت لآخر — ضد أية دولة تعقد لنفسها لواء الزعامة فى أوربا أو تطلب هذه الزعامة . وعلى هذا نرى فى القرن السادس عشر مجموعة من الدول على رأسها انجلترا وفرنسا تناهض قوة أسبانيا . وكما شهد القرن السابع عشر نهوض فرنسا الى مكان الصدارة فى أوربا نراه قد شهد أيضا اتحاد أعدائها ضدها ، الى أن شاهدت السنوات الأولى من القرن الثامن عشر اندحارها . وهناك أوجه من الشبه بين المثلين اللذين قدمناهما وبين الاتحاد بين القوى التى تمكنت فى القرن الثامن عشر من كسر شوكة السيادة البحرية لبريطانيا — الى حين — وأدت الى استقلال الولايات المتحدة .

وتكاد السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر تخلو من أى أثر للأعمال أو الأمانى الدولية . ولكن عصر الجهود الدولية يبدأ من جديد بمجىء الثورة الفرنسية (ولهذه الملاحظة أهميتها) ويستمر فى أشكال مختلفة — بالرغم من الحروب التى يمتلىء بها سجل القرن التاسع عشر — حتى ينتهى الى تلك المحاولة الجريئة التى تتمثل فى عصبة الأمم .

ونحن اذ نسرد قصة بلاد أوربا المختلفة فى هذا الكتاب سنحاول تجنب أن يصرفنا الجزء عن متابعة الكل ، وسنعمل على أن نولى عناية خاصة لدراسة القوى التى أدت من وقت لآخر الى اقرار السلم أو اشعال الحرب .

---

(١) State System of Europe

ويجدر بنا أن نبدأ أولا باستعراض أحوال الدول الأفريقية في أواخر القرن الثامن عشر ، ولن تكون بنا حاجة الى الافاضة في الحديث عن بريطانيا بالذات ، فيكفي أن نذكر أنها كانت لا تزال تعد من أعظم الدول بالرغم من المهانة التي حاقت بها نتيجة لفقدان مستعمراتها الأمريكية . فقد استعادت بحريتها قواها بعد خسوفها الوقتي ، كما أن الثورة الصناعية التي بدلت حياتها قد جلبت لها ثراء عظيما ، ممكنتها من تحمل عبء صراعها الطويل مع فرنسا ونابليون . وكانت حكومتها رغم ما أطلق عليها من أسماء حكومة أوليجركية محدودة ، غير أنها كانت تحكم بالاشتراك مع برلمان كانت قوته تتزايد باطراد منذ نهاية العصور الوسطى . كما أنها أتاحت لصحافتها حرية أوسع مما تمتعت به أية صحافة أخرى في أوربا ، وكانت عموما على اتصال أوثق بقطاعات هامة كبيرة من الأمة من أية حكومة أخرى في القارة الأوربية ، والتأييد الكبير الذي كانت تتمتع به هو الذي يفسر لنا سر صمودها في الوقت الذي أطاحت فيه عاصفة الثورة بجميع حكومات القارة تقريبا .

أما فرنسا فكانت قد فقدت مكانتها العسكرية عندما ألحق بها تحالف بريطانيا مع بروسيا هزيمة منكرة في حرب السنوات السبع . وكان الملك لويس الخامس عشر الذي توفي عام ١٧٧٤ نموذجا كاملا لانحطاط الملكية . فقد كانت الملكية الفرنسية مدينة بقوتها لزعامتها الايجابية للأمة في الحروب ، ولكنه كان غارقا في مباذله عاطلا عن أية حمية عسكرية أو حماسة دافقة ، فحاقت بالأمة في عهده هزائم كبرى لم تقو على علاجها من بعده . وقد خلفه حفيده لويس السادس عشر عام ١٧٧٤ ، وحالف التوفيق رايات البلاد من جديد في حرب الاستقلال الأمريكي . ولكن خزينة فرنسا كانت خاوية الى حد مزعج ، وقد فتت المعارضة الارستقراطية في عضد نظامها الملكي وكذلك فعلت الطبقة

الوسطى المتزايدة القوة والسخط ، والآمال والعواطف الجديدة التى نشرتها كتابات كبار كتـاب العصر فى شتى أنحاء البلاد . واذ هبت عاصفة الثورة أول ماهبت بفرنسا أصبح من المألوف أن ينظر الناس الى دستورها وحياتها الاجتماعية على أنهما مثل فريد فى نوعه تماما للجور والعجز والأدواء الاجتماعية . بيد أن الكثير جدا ممـا كان بفرنسا حينذاك لم يكن الا نموذجا للأحوال السائدة فى شتى أرجاء أوربا . فهاهى ذى ملكية قامت بأعمال عظيمة من أجل تأمين سـلامة فرنسا ورخائها . ملكية أطاحت بشتى منافسـيها على السـلطة من الأرستقراطية الاقطاعية الى رجال القضاء والهيئات النيابية المركزية والاقليمية والبلدية جميعا ، وراحت تحكم بمقتضى « الحق الالهى » وحده ودون أن تعترف بأية تبعيـة لمجموع الأمة أو مشـاركة له ، وتمسك بزمام الأمور وحدها عن طريق موظفيها الرسميين وبيروقراطيتها الخاصـة . انها أوسع ملكيات أوربا ثراء وأكثرها فخـامة وأقواها نفوذا ولكن جيوبها قد استنفدت وقواها قد تبددت الى حد بعيد . ويرجع ذلك جزئيا الى أخطـاء لويس الرابع عشر وهزائمـه ، والى مباذل لويس الخامس عشر وطيشه ، غير أن نظام الملكية الاستبدادية نفسه لم يعد متجاوبا مع آراء العصر وحاجاته . فقد كان للمثال الذى قدمتـه حكومة بريطانيا — بنجاح — تأثيره الضخـم طوال القرن ، وسرعان ماسيأتى الوقت الذى يصبح لزاما فيه على جميع الحكومات أن تشرك الشعب معها على نحو أو آخر . وعندما حلت عشية الثورة كان نظام الحكم القديم فى فرنسا قد فقد جميع أنصاره تقريبا . اذ كان هنـاك تطلع يكاد أن يكون عاما الى شيء جـديد . وقد مست الروح الجديدة كافة الطبقات فى صور مختلفة بل ان الملك نفسه كان يعطف على الكثير من آراء العصر الانسانية . أما ماهية هذه الآراء الجديدة فهذا ما سنتناوله بالبحث بعد قليل . ومن الجلى أن انتصار

للملكية التام على كافة خصومها قد ساعد بذاته على اسقاطها وتحقيق الفوز الكامل للثورة . اذ أن سقوط الحكومة المركزية قد وضع حدا لكل مقاومة . فقد كان المدافعون عن النظـام القديم — الذى يطلق عليه عادة اسم العهد البائد — معدودين ، ولم تكن لهم هيئـات أو تنظيمات يسـتطيعون العمل بوساطتها ، فكأنما كانت تسـيطر على فرنسا كلها قلعة واحـدة ما ان سـقطت حتى آذن ذلك بانتهـاء كل مقاومة .

وللنظام الاجتماعى الذى كان قائما بفرنسا الكثير من الخصائص المشتركة مع العديد من دول أوربا ، وله كذلك بعض الخصائص التى تنفرد بها فرنسا وحدها . فالسكان كانوا ينقسـمون — شأن معظم سكان البـلاد الأوروبية — الى طبقتى الممتـازين وغير الممتازين . الطبقة الأولى تتألف من رجال الدين والنبلاء وذوى الصلة بالبلاط ، وتعيش فى عالمها الخاص الذى تغلق أبوابه دون سائر سكان فرنسا . حقا ان هذه الطبقة لم تكن تحكم فرنسا ، فقد وجـدت الملكية فى النبلاء أخطر منافسـيها فأبعدتهم عند انتصـارها عن أهم المناصب الادارية . ولكن هؤلاء النبلاء كانوا يتمتعون هم ورجال الدين والبلاط بامتيـازات اجتمـاعية هائلة . فقـد كانوا معفين من ضرائب كثيرة يدفعها غير الممتازين ، وكانت الرتب العليا فى الجيش مقصورة عليهم ، ومنهم كان يتألف بلاط فرساى بكل ماعرف عنه من رونق وأبهة . وقد عفت آثار معظم هذه الأحوال فى القرن العشرين ولكنها كانت توجد فى ذلك الحين — مع بعض التعـديلات — فى جهات شتى من أوربا : فى أسـبانيا وايطـاليا ومعظم الولايات الألمانيـة وبولنـدة وروسيا . فلم تكن أحوال الشـعب الفرنسى الاجتماعية على هـذا فريدة شاذة لا من حيث نوع المظالم ولا مداها . كان عبء الضرائب الأكبر يقع على كاهل سكان القرى والفلاحين ، فقد كان الفلاحون

ملاكا لاراضيهم الى حد كبير جدا ، فلئن كانت الثورة قد زادت من ملكية فلاحى فرنسا للأراضى فانها لم تكن بحال من الأحوال المصدر الأول الذى نشأت عنه هذه الملكية . وهذه الطبقة التى أصبحت منذ الثورة طبقة محافظة بل وأكثر طبقات فرنسا رضاء بحالها ، كانت قبل الثورة مفعمة بالمرارة والسخط . فالفلاحون كانوا يملكون أراضيهم حقا ولكن كواهلهم كانت تنوء بعبء الضرائب الفادح . وقد كان العبء فادحا لان الطبقات الممتازة كانت تأبى حمل نصيبها العادل من هذه الضرائب . وقد كان على الفلاحين فضلا عن ذلك أن يؤدوا كثيرا من الواجبات ذات الأصل الاقطاعى التى كانت تمثل فى وقت من الأوقات العلاقة القائمة بينهم وبين سادتهم الاقطاعيين ، فأصبحت الآن بعد أن فقدت كل معناها الاجتماعى مجرد أعباء مثيرة للسخط . فالفلاحون وحدهم هم الذين كانوا يدفعون ضريبة عقارية على المساكن والأراضى هى ضريبة الـtaille ثم كان هناك احتكار الملح المعروف باسم gabelle أما من حيث الواجبات الاقطاعية فقد كانوا يدفعون حصة عينية من محصولاتهم فضلا عن الرسوم المفروضة على عصر أعنابهم وطحن غلالهم الى غير ذلك من الأعباء . كان وضعهم كملاك أحرار لأراض مثقلة بالضرائب والفروض التى لا معنى لها مثيرا للاستياء بوجه خاص ، وهو يفسر بسهولة الدور الذى لعبوه فى مشاهد الثورة الأولى . ولكن علينا أن نعقب مرة أخرى على هذا كله بالقول بأن وضعهم لم يكن فريدا فى نوعه بالمرة فقد كانت له نظائر فى معظم الدول الأوروبية . بل ان حالة الفلاحين فى بعض هذه الدول ولاسيما بولندة كانت أسوأ بمراحل . وقد كان لسكان المدن الفرنسية شكاواهم الخاصة أيضا : فقد كانوا يجدون فى نظام طوائف الحرف المتداعى الفاسد عائقا فى سبيل تقدمهم . وكانوا اذ يشاهدون ماتحققه الطبقات التجارية فى انجلترا من تقدم سريع فى طريق الرخاء يحسبون

بغيرة طبيعية ، فلما بدأت الثورة كان لهم النصيب الأكبر فى توجيهها واستخدامها .

كان الخصم العنيد لفرنسا قبل ١٧٨٩ هو البيت النمساوى أو بعبارة أدق مجموعة البلاد المتعددة الصفات والمنشأ التى كانت تخضع لحكم بيت الهابسبورج العظيم مع تفاوت كبير فى الطريقة التى تحكم بها ودرجة السلطة التى يمارسها عليها هذا البيت . وكان الناس يتحدثون فى بعض الأحيان عن فرنسا والنمسا باعتبارهما قطبى التوازن الدولى ، فان حروبهما وخصوماتهما تملأن جانبا ضخما من تاريخ أوروبا ابتداء من سنة ١٥٠٠ ، ولقد وجدت فرنسا فى النمسا ألد خصومها منذ نشوب حروب الثورة حتى سقوط نابليون . ان هذه الأراضى النمساوية تؤلف قائمة طويلة متنوعة وسكانها ينتمون الى قوميات ولغات وأديان عديدة . وقد جمعت هذه الأراضى بعضها الى بعض عوامل شتى من الارث الى الزيجات الدبلوماسية والحرب بل والشراء . وفيما يلى بيان بتقسيماتها أو مجموعاتها الرئيسية :

(١) نواة سلطة آل هابسبورج ويوجد فى الأراضى الألمانية المتاخمة لفينا والواقعة جنوب غربى هذه المدينة ، ولم يكن ثمة فارق هام من حيث اللغة أو الجنس بين هذه الأراضى وتلك التى يطلق عليها فى العادة اسم ألمانيا .

(٢) بوهيميا ومورافيا الكائنتان شمال العاصمة ويسكنهما أساسا شعب تشيكى كان قد لعب دورا كبيرا فى تاريخ أوروبا ولكنه منذ نهاية حرب الثلاثين عاما فى القرن السابع عشر يبدو قانعا بالخضوع للهابسبورج الألمان .

(٣) مملكة هنغاريا المجرية العظيمة الممتدة الى الشرق حيث يتحكم المجريون فى أجناس عديدة من رومانيين وكرواتيين وصربيين . وكانت

هــذه الأجناس المنقسمة على نفسها دينيا تعيش فى مجتمع ذى طابع اقطاعى وتدين بالطاعة على مضض لملوك الهابسبورج .

(٤) دوقية ميلان الغنية الآهلة بالســـكان الى جنوب الألب حيث كان ملوك الهابسبورج يحكمون جمهرة من الايطاليين الغرباء عنهم جنسا وطباعا .

(٥) تلك الأراضى الوطيئة المتطرفة فى غرب أوروبا التى نطلق عليها الآن اسم بلجيكا والتى خضعت للنمسا بحكم مصادفة المولد أولا ثم نتيجة للحرب . وسكانها — وبعضــهم فلمنكيون والبعض الآخــر فرنسيون جنسا ولغة — يختلفون اختلافا بينا عن سكان بقية الممتلكات النمساوية .

وكان حكم هذه الأراضى المتناثرة المتباينة مشكلة عويصة ، ومع أن القرن الثامن عشر لم يكد يعرف ذلك الشعور الحديث بأن الأمة والدولة يجب أن تكونا متطابقتين بقدر الامكان ، الا أن صــعوبة حكم هذه العناصر المختلفة كانت قد تجلت بالفعل . فرغب الامبراطور جوزيف الثانى (١٧٦٥ — ١٧٩٠) — تمشيا مع اتجاه العصر — فى ادخال شكل من أشكال الحكومة المركزية الموحــدة فى ممتلكاته . وحاول أن يجعل الألمانية لغة رسمية فى كل مكان ، وأن يضع جميع أجزاء ممتلكاته تحت حكم موظفيــه المباشر ، وأن يدخل التســامح الدينى ويقيم المســاواة بين جميع رعاياه تحت حكمه الشــخصى . وكانت المحاولة طيبة المقصد ولكنها تحطمت تماما على صخرة العزة القومية والتعصب الدينى لشعوبه العديدة . ولم تبلغ الاصــلاحات التى اعتزمها جوزيف الثانى من الثورية مثلما بلغت بالنسبة لبلجيكا حيث أزمع التخلص — علاوة على ماسبق — من القيود التى فرضتها غيرة بريطــانيا وهولنــدة طــوال ما يربو على قرن كامــل على الملاحة فى نهر شيلد والتى نجم عنها القضاء على ازدهار ميناء أنتورب

العظيم ، ومع ذلك فان مشروعات جوزيف الثانى لم تلق من المقاومة العنيدة مثلما لقيت فى بلجيكا . فقد هب هذا الشعب الذى تدين غالبيته بالولاء للكنيسة الكاثوليكية يحتج احتجاجا عنيفا على مقترحات اغلاق الأديرة وانتزاع التعليم من سيطرة رجال الدين ، وانضم أنصار التحرر الى صفوف الثوار بدافع النفور من مشروعات الامبراطور الاستبدادية . وبلغ الأمر مبلغ الحرب الصريحة التى أخمدت ظاهريا عام ١٧٨٨ فلم تلبث أن شبت من جديد عام ١٧٨٩ ولم تخمد هذه المرة . وعندما مات جوزيف الثانى عام ١٧٩٠ كان المطلب الذى ينادى به البلجيكيون عن طريق مندوبيهم ببروكسل هو اقامة جمهورية فيدرالية . وقد خلف جوزيف ، ليوبولد الثانى الذى كان يقف بحرصه وتمسكه بالنسق القديم للأمور على النقيض من طباع سلفه المندفع الميال الى التجديد ، فانتهج السياسة النمساوية التقليدية فى المحافظة على النظام عن طريق اثارة المصالح المتعارضة ضد بعضها البعض وأحرز فى ذلك نجاحا كبيرا . ومع ذلك يجدر بنا أن نذكر ، عند انتقالنا فى الفصل التالى الى الثورة الفرنسية العظمى ، أن هناك ثورة أخرى قد شبت قبلها فى الأراضى البلجيكية المجاورة وأنها — رغم اختلافها الكبير عما حدث فى فرنسا — كانت ثورة على أية حال أدت الى اضعاف سلطة النمسا وتشجيع الفرنسيين على الاعتقاد بأنهم سيجدون حلفاء لهم على حدودهم الشمالية .

لقد أطلقنا على جوزيف الثانى لقب الامبراطور . واستحقاقه لهذا اللقب يرجع الى أنه كان يرأس الامبراطورية الرومانية المقدسة . الا أن هذا اللقب القديم البراق لم يكن فى الواقع يتعدى الولايات الألمانية . ولعل من الأهمية أن نسجل هنا أن جوزيف بوصفه امبراطورا كان يتحمل ، ومن بعده خلفاؤه ، قدرا من المسئولية عما يحدث فى ألمانيا . ولكننا نستطيع على أية حال أن نسقط هذه

الامبراطورية من حسابنا عند تناولنا العلاقات الدولية فى القرن الثامن عشر رغم أن لقب امبراطورها كان يعتبر أسمى الألقاب فى أوربا ، ورغم أن سخرية فولتير الذائعة فى وصفه لها بأنها « ليست امبراطورية ولا رومانية ولا مقدسة » تنطوى على تجن على عظمتها السالفة ومثلها الأولى . ونحن اذ نسقطها الآن من حسابنا انما نفعل ذلك لأنها لم تكن تملك آية سلطة ، فلم يكن بوسعها أن تجند جنديا أو تجمع فلسا واحدا فى صورة ضريبة الا بموافقة الدول الألمانية المختلفة ، والى هذه الدول ينتقل بنا البحث .

لقد وصفت ألمانيا فى القرن السابع عشر بأنها « فوضى شاءتها العناية الالهية » وكانت تشمل فى ذلك الزمان مايزيد على ٣٠٠ دولة . وهذه الفوضى وان رجعت جزئيا الى أخطاء الدول الألمانية نفسها الا أنها كانت كذلك من تدبير وصنع الساسة الفرنسيين المتعاقبين . وقد بلغت الفوضى ذروتها فى غرب ألمانيا . فلم تكن ثمة دولة قوية تسيطر على الراين أو تراقب مدخل ألمانيا من ناحية فرنسا . وقد وقعت الألزاس واللورين فى يد الفرنسيين منذ أواخر القرن السابع عشر . فكنت لاتجد على الحدود الغربية الا أطلال ولايات كانت تبدو هامة فى الماضى ولا سيما ورتمبرج وبادن . بيد أن أبرز مظاهر تلك الفوضى كانت تتجلى فى الولايات الكنسية الواقعة على نهر الراين أو بالقرب منه حيث كان الأساقفة يحكمون حكما لايتسم بالجور أو القسوة وانما يتسم بالافتقار التام الى الكفاية ، ويصرفون الأمور على نحو لايهيىء فرصة كبيرة لمقاومة أى غاز . فاذا اتجهنا الى الشرق وجدنا دولا أقوى وأحسن تنظيما مثل هانوفر عند مصب نهرى ويزر والب التى كانت متصلة ببريطانيا بالنظر الى أن « ناخبها » كان فى الوقت نفسه ملكا على بريطانيا ، وكذلك سكسونيا على مجرى الألب الأعلى ، والى الجنوب عند أعالى

لدانوب بافاريا الشديدة التمسك بكاثوليكيتها والتى تغار من جارتها الشمالية بروسيا . أما بروسيا فقد مرت بمحنة قاسية فى حروبها مع نابليون فبدا فى وقت من الأوقات أنها قد تنهار . ولكن مصير ألمانيا يكاد يرتبط قبل ذلك بقرن كامل وبعد ذلك بأكثر من قرن بمصير بروسيا . ولم يكن لبروسيا أية مزايا جغرافية « فان الطبيعة لم تكن قد تنبأت بظهور بروسيا » . كانت نهايتها تقع عند المجرى الاوسط لنهرى الألب والأودر ، وعاصمة هذه النواة برلين ، وكانت « مجدبرج » و « فرنكفورت » على نهر الأودر المركزين الأمامين ذوى الأهمية الكبرى على نهرى الالب والاودر . ولما كانت بروسيا محرومة من الحدود الطبيعية الصالحة للأغراض الدفاعية فقد تعين عليها أن تعتمد على القوة العسكرية للمحافظة على كيانها . وعلى هذا ظهرت فيها منذ القرن السابع عشر التقاليد العسكرية التى تتسم بالصرامة والكفاءة وهى التى تساعدنا على تفسير التقدم المطرد الذى حققته هذه الدولة . وقد كان لبروسيا حكام عظام قبل فردريك الاكبر (١٧٤٠ — ١٧٨٦) ولكنه هو الذى ارتفع ببلاده ، من دولة من الدرجة الثانية الى دولة من الدرجة الاولى . فقد استخدم بنبوغ عظيم الجيش الممتاز الذى ورثه عن أبيه ، فحارب حربين طويلتين ضد حلف من الدول الأوروبية وقفت فيه النمسا موقف العدو الدائم ، بينما حالفته فرنسا أولا ثم بريطانيا . لقد كسب بحد السيف وادى الأودر الأعلى الغنى بالخيرات الذى يسمى سيليزيا ، وبالدبلوماسية كسب فى ١٧٧٢ الجزء الشمالى من بولندة وهو الذى يصل ما بين أراضى براندبرج الوسطى وبروسيا الشرقية ، كان هذا الضم الخطوة الأولى فى عمليات تقسيم بولندة التى ستوجه اليها عنايتنا فيما بعد . وهكذا صار لبروسيا بعد ١٧٧٢ كتلة ضخمة متماسكة من الأراضى فى أوروبا الشرقية ولكن هذه الكتلة ظلت منعزلة عن أراضيها

الواقعة على نهر الراين أو بالقرب منه (مارك وكليفيز ... الخ) . وفى الفترة التى يتناولها هذا الكتاب سنشاهد كيف تم الالتجاء للسيف البروسى لتحقيق الاتصال بين الجزأين . وقد كرس فردريك الجانب الأخير من حياته للادارة السلمية النشطة فازداد رخاء البلاد ازديادا كبيرا وعلت مكانتها فوق مكانة أى بلد آخر فى أوروبا بحيث أصبح الحكام من أمثال جوزيف الثانى والكتاب من أمثال فولتير يعتبرون بروسيا نموذجا لما ينبغى أن تكون عليه الدولة . كان يبدو أن جيشها يملك سرا خفيا يكفل له النصر ، وقد حققت بروسيا هذه الانتصارات دون اشراك الشعب أو الاعتراف بالحاجة الى الحرية . وباستثناء نفر قليل من المراقبين أمثال ميرابو الذى سيكتسب شهرة كبيرة فيما بعد فى قصة الثورة الفرنسية لم يكن ثمة من يرى أن عظمة بروسيا انما تعتمد على المواهب الشخصية لمليكها أو يتنبأ بظهور المتاعب عند زوال يده القوية وانطفاء عقله الجبار .

كانت الدول العظمى الرئيسية فى أوروبا هى بريطانيا وفرنسا وبروسيا والنمسا وقد تأثرت جميعها بنشوب الحرب مع فرنسا عام ١٧٩٢ تلك الحرب التى سنتجه اليها بأفكارنا بعد برهة . أما روسيا فتقل بعض الشىء فى أهميتها عن هذه الدول وان ازداد أثرها — المباشر وغير المباشر — باشتداد الصراع . فان سكانها الكثيرين الذين كان يعوزهم التنظيم لم يكونوا داخلين فى نطاق الحضارة الأوروبية الا بصعوبة . فالهوة بين روسيا وأوروبا الغربية من حيث الطباع والآراء كانت دائما واسعة ومازالت كذلك . ولكن روسيا كانت قد اعتنقت فى العصور الوسطى المسيحية فى صورتها الشرقية أو الأورثوذكسية فاستقرت تقاليدها وآراؤها فى أعماق الضمير القومى ، ثم جاء فى القرن السابع عشر ذلك العبقرى الفذ والشرير فى بعض الأحيان ، بطرس الأكبر ، فوسع حدودها حتى بحر البلطيق من

ناحية وحتى البحر الأسود — الى حين — من الناحية الأخرى فهيأ لها بذلك أسباب الاتصال البحرى الذى يعد من وسائل نشر الحضارة ثما فرض على أرستقراطيتها طرفا من المظاهر الخارجية لحياة أوربا الغربية بل وشيئا من لغتها وعلمها . انه ليتعذر على المرء فعلا أن يستبعد روسيا تماما من نطاق أوروبا فى وقت لعبت فيه دورا هاما متصلا فى العلاقات الدولية الأوروبية ، وفى تقدم أوربا الفنى والفلسفى . وقد واصلت القيصرة كاترين الثانية الألمانية المولد التى جلست على العرش الروسى من ١٧٦٢ الى ١٧٩٦ ، الجهود التى بذلها بطرس الأكبر فى سبيل التوسع الاقليمى وصبغ البلاد بالصبغة الأوروبية .

وثمة مسألة كانت تحظى بعنايتها الخاصة هى مسألة بولندة . كانت بولندة تحتل مساحة كبيرة على خريطة أوروبا فى مطلع القرن السادس عشر . وكانت قريبة الشبه بروسيا من حيث اللغة والجنس الا أننا نلاحظ أن بولندة تقدم لنا — فى الوقت الذى كانت تمضى فيه روسيا قدما نحو الوحدة السياسية والتوسع الاقليمى — صورة للتدهور السياسى والعسكرى لايكاد يوجد لها نظير فى تاريخ أوروبا كله .

وليس بوسعنا هنا أن نتصدى لتشخيص «مرض بولندة» وحسبنا أن نقول اننا اذا مانظرنا اليها قبيل نهاية القرن الثامن عشر رأينا دستورها يضفى الصبغة القانونية على الفوضى اذ يعطى لكل من النبلاء سلطة الاعتراض (الفيتو) على أى تشريع ، ووجدنا نظامها الاجتماعى يحتفظ من النظام الاقطاعى بأبشع مساوئه دون مسراته أو مزاياه التى عرفت عنه فى العصور الوسطى ويقضى بالأخص على سكانها الفلاحين بالعيش فى حال من الرق أسوأ من كل ماكان مشاهدا فى فرنسا ، ولمسنا فى سواد الشعب تدهورا خلقيا كبيرا دون أن نعثر لدى طبقات المجتمع العليا الا على النزر اليسير من الميول الذهنية

و لفكرية . ولم تكن لحدود بولندة تحصينات دفاعية طبيعية ولكن حكومتها لم تحذ حذو بروسيا التى عالجت هذا النقص بانشاء جيش قوى ، فكانت النتيجة وقوع الاختيار عليها لتكون لقمة سائغة لجاراتها . وقد حدث أول تقسيم لبولندة عام ١٧٧٢ فكان نموذجا صادقا لدبلوماسية ذلك العصر . وقصته أن خطر نشوب الحرب بين النمسا وروسيا فى شبه جزيرة البلقان قد ظهر فى الأفق ، فأسرع فردريك ملك بروسيا يتدخل فى الأمر مقترحا اشباع شهية الدولتين بأراضى الدولة البولندية التى لم تقترف اثما أو جرما ، وأن يأخذ هو نفسه لبروسيا نصيبا متساويا مع الآخرين وفقا لما تمليه فى مثل هذا الموقف فكرة التوازن الدولى . ولقد بقيت لبولندة حتى بعد اتمام هذا التقسيم أراض واسعة تجذب الأنظار . ولم تشبع شهية جاراتها بما التهمت فراحت تفكر فى تقسيم جديد بل تقسيم نهائى أخير . فشرعت بولندة التى بدأ يساورها أخيرا الانزعاج الحقيقى تحاول جاهدة أن ترتب شئونها الداخلية تحت حكم آخر ملوكها ستانيسلاس بونياتوفسكى . وعندما نشبت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ كانت المسألة البولندية هى أهم المسائل فى نظر بروسيا وروسيا والنمسا . فقد كانت هذه الدول حريصة على مغانمها تغار من بعضها البعض وأخشى ماتخشاه كل منها أن تفوقها الأخرى حيلة ومكرا . ولسوف نجد فى التفاعل بين المشكلة البولندية والثورة الفرنسية مفتاحا يرشدنا الى الكثير مما قد يستغلق علينا من دبلوماسية السنوات التالية .

أما الدول الأوروبية الصغرى فلا حاجة بنا الى أن نسهب فى الحديث عنها رغم أنها قد ساهمت بالكثير فى بناء حضارة أوربا ورغم أن تيار الثورة الفرنسية وحروب نابليون قد جرفها جميعا ودون استثناء . كانت أسبانيا قد تنحت فيما يبدو عن حركة التقدم الأوروبى

التى لعبت فى وقت من الأوقات دورا كبيرا فيها ، ولكن شعبها لن يلبث أن يلعب مرة أخرى وقبل فوات زمن طويل دورا عظيما فى قصة أوربا . وقد كانت ملكيتها تعانى من الارهاق والعجز درجة تفوق كثيرا كل ماعرفته فرنسا . وكان بيتها المالك فرعا من أسرة البوربون التى تحكم فى فرنسا وكان مصير البلاد قد ارتبط مؤخرا ارتباطا وثيقا بمصير فرنسا . أما ايطاليا فكانت مقسمة الى عدد من الدويلات المستقلة اسميا هى جمهوريتا البندقية وجنوا ، ودوقيات ميلانو وبارما ومودينا وتوسكانا ، والولايات البابوية الدينية ، ومملكة نابولى ، ولكن هذه الدول كانت خاضعة فى الواقع لنفوذ البيت المالك النمسوى الذى كان يعد ميلانو ضمن أراضيه ويمارس نفوذا عظيما غير مباشر على بقية شبه الجزيرة الايطالية . أما هولندة والدول الاسكندناوية فكان يسكنها قوم مسالمون يعيشون حياة تتسم بالرخاء والنشاط ويخلو تاريخهم من الأحداث البارزة فى الفترة الأخيرة ، ولسوف نراهم يدفعون هم أيضا تدريجيا وبالرغم منهم الى حومة الصراع الأوربى .

وهكذا تمثل أمامنا دول أوروبا عشية الثورة الفرنسية دولا مستقلة متفرقة تسعى كل منها وراء مصلحتها الخاصة وحدها ولا يساورها أدنى شك فى أن ثمة طريقا أخرى تستطيع أن تسلكه فهى تعقد المحالفات الوقتية وفق ما تمليه مصلحتها المباشرة وفكرة التوازن الدولى ، وتنبذ فى حياتها العامة أية سيطرة للدين أو التزام نحو البشرية . الا أن أوربا عرفت فى الوقت ذاته تيارا فكريا قويا ومتزايد القوة ذا لون مغاير تماما . ولعل أبرز الظواهر الثورية فى ذلك العصر هى ذلك التناقض بين تصرفات الساسة من ناحية وآراء خيرة رجال الفكر وأقواهم نفوذا من الناحية الأخرى . ويجدر بنا أن نعمل على ايضاح الخصائص العامة لهذا الفكر بايجاز شديد .

كانت فرنسا تحتل المكانة الأولى فى عالم الفكر . والحركة الفكرية تعالج عادة كما لو كانت فرنسية صرفة ولكن الفرنسيين كانوا فى الواقع مجرد قادة لحركة عامة بدأها منذ زمن رجال من أمثال بوك وليبنتز ، فان هيوم وجيبون وروبرتسون فى انجلترا ، وليسنج وكنت وجيتة وشيلر فى ألمانيا ، وبنجامين فرانكلين فى أمريكا انما هم جزء من نفس الحركة شأنهم فى ذلك شأن فولتير ومونتسكيو وديدرو وروسو . فهل عسانا نستطيع أن نحدد الخصائص العامة لهذه الحركة الواسعة الانتشار الى هذا الحد ؟ انها أولا وقبل كل شيء عالمية فى نظرتها وهى بذلك تقف فى جلاء على النقيض من الطابع الغالب على سياسة العصر . فنحن لا نجد الأدب ينحى فى أى من البلاد التى ذكرناها منحى وطنيا أو قوميا ، لقد اشتبكت فرنسا مع انجلترا فى حروب استغرقت معظم القرن الثامن عشر ولكن رغم هذا كان الاتصال الفكرى بين البلدين فى ذلك الوقت أدوم وأنفع للجانبين منه فى أى وقت آخر ، ولقد حرك فردريك ملك بروسيا أوتار الوطنية فى النفس الألمانية فردد أدب ذلك العصر — ولا سيما أدب شيلر — بعض أصداء هذه الدعوة ولكن النظرة العامة لهؤلاء المؤلفين الألمان العظام الذين ذكرناهم تظل مع ذلك نظرة عريضة وانسانية قبل كل شيء . فان الخاصية العامة الثانية للفكر فى ذلك العصر هى انسانيته .

وهذا الاتجاه الانسانى لم يحدث أن اختفى تماما فى أية فترة من فترات عصر المسيحية كله بل وقبل ذلك العصر ولكننا نراه فى القرن الثامن عشر يحتل مكان الصدارة والأهمية . فالاهتمام الرئيسى الذى وجه الى الدين والى الحكومة والى التقاليد الاجتماعية هو افتقارها جميعا الى الانسانية ، ولهذا السبب قبل غيره كانت تدان . والخاصية الثالثة والأخيرة هى أن فكر ذلك العصر كان ينظر بعين النقد بل والعداء لدعاوى الكنائس والديانات القائمة . حقا ان بعض هؤلاء

الكتاب كانوا من ذوى الطبيعة الدينية ولكن أحدا منهم لا يندرج فى عداد أنصار أية هيئة أو عقيدة كنسية معينة .

ويمكننا اختيار فولتير ومونتسكيو وروسو لنتحدث عنهم باعتبارهم أكثر هذه المجموعة من الكتاب نفوذا وأصدقهم تمثيلا لها . كان فولتير بالذات أشهرهم وأكثرهم قراء . ان تفكيره لم يتسم بالعمق قط وهو لم يضف أى جديد هام الى أى جانب من جوانب الفكر الأوربى ولكنه كان صاحب الأثر الأكبر فى ترويج أفكار كانت معروفة فى أوربا من قبل . وكانت أمضى سهامه موجهة الى آراء الكنيسة وأفعالها . وهو لم يكن من الوجهة السياسية نصيرا للتحرر أو الديموقراطية بل كان يعتبر ملكية فردريك الأكبر المستبدة المخلصة الخيرة شكل الحكومة الذى ينبغى أن يحتذى . وقد هاجم فى كتاباته وأعماله التعصب الدينى فى عصره قبل أى شىء آخر . كانت أيام محاكم التفتيش المهولة قد أصبحت حقا فى خبر كان ولكن البروتستانت ظلوا يعانون فى فرنسا من مظالم قاسية تودى بهم أحيانا الى الموت نفسه . ويمكننا أن نصف فولتير بأنه كان — فى احتجاجه على هذا كله وفى عدة نواح أخرى — متحدثا بلسان الضمير الانسانى . ونحن نلمس طوال القرن الثامن عشر والثورة الفرنسية آثار لوذعيته وسخرياته وأسلوبه الصافى ودعوته الانسانية .

وكان مونتسكيو باحثا متعمقا فى المسائل الدستورية ومحافظا بطبعه . وكتابه « روح القوانين » انما هو بحث عام فى أشكال الحكومة . وقد صار هذا الكتاب المعين الذى يتزود منه بالأفكار أولئك الذين انصرفوا الى مهمة البناء السياسى لبلادهم وهى مهمة ستصبح شائعة فى السنوات التالية . وقد تأثر به دستور الولايات المتحدة الأمريكية الى حد بعيد . على أن الكتاب نفسه متأثر الى حد بعيد بدوره بالدستور الانجليزى ، الأمر الذى يعترف به عن

طيب خاطر مونتسكيو نفسه الذى كان معجبا بهذا الدستور الأخير أيما اعجاب شأن الكثيرين من الفرنسيين فى زمنه . فمونتسكيو يشيد بالحكومة المقيدة التى تخضع فى تصرفاتها لمجموعة من الضوابط والمراجع ويعجب فى النظام الانجليزى بوجه خاص بما أسماه « فصل السلطات » أى استقلال فروع الدولة الثلاثة — التشريعية والتنفيذية والقضائية — عن بعضها البعض وان كنا نرى الآن بجلاء أنه قد أخطأ فى ظنه أن السلطتين التنفيذية والتشريعية فى انجلترا منفصلتان احداهما عن الاخرى .

أما روسو فهو بين كتاب عصره الذى أثار أشد المشاعر تباينا من حب وبغض ولم تتفق الآراء بشأنه حتى يومنا هذا ، ان مزاجه العاطفى التأملى لا يكاد يمت الى عصره ، ورغم أنه يمثل من عدة أوجه احدى القوى الكبرى فى التيار الرئيسى لعصره الا أنه يبدو من أوجه أخرى كما لو كان يلقى بنفسه عكس هذا التيار ويحاول أن يسبح ضده . وأسلوبه المؤثر يفتقر الى الوضوح الذى تتسم به كتابات فولتير . وقد كان شديد الميل الى الدين بطبعه ولكنه لم يكن كاثوليكيا ولا مسيحيا . كان يحس بشرور عصره وآلام الناس ولكنه لم يمنح رضاءه لأى من الحلول المقترحة . وكتاب «العقدالاجتماعى» الذى نشر عام ١٧٦٢ يلخص آراءه فى الحكم ولكنه يفعل ذلك على نحو جعل الناس يختلفون على حقيقة مراده حتى يومنا هذا . وهو يبدأ باحتجاج صارخ على طغيان عصره « ولد الانسان حرا فما باله مكبلا بالأغلال فى كل مكان » ، ثم يؤكد أن الدولة مدينة بوجودها للشعب وأنها تمت اليه وحده دون سواه وأن من حقه دائما — وبالرغم من جميع المعاهدات أو الدساتير — أن يعدل أو يلغى أشكالها . ومع ذلك فهو لا يرى أن الديمقراطية ممكنة الا فى الدول الصغيرة الحجم ويؤمن بأن اللجوء الى ديكتاتور قد يصبح لازما ، ويختم بتأكيد

ضرورة الدين فى أى دولة داعيا الى فرض صورة مدنية بسيطة منــه على الجميع ، بل ومعاقبة الخارجين عليه بالاعدام اذا اقتضى الامر . وقد امتد تأثير آراء روسو وعبـاراته الى أبعـد من دائرة دارسى مؤلفاته بكثير . والثورة الفرنسية تحمل من أولها الى آخرها آثار تفكيره .

حقا انه مامن كتاب فرنسيين من كتاب ذلك العصر حظوا من الأجيال التالية بمثل هذا الاهتمام الذى ناله هؤلاء الثلاثة : فولتير وموتنسكيو وروسو ، ولكن ثمة جماعة أخرى كان لها تأثير عظيم بين معـاصريها وكانت لها صلة هامة بأعمال الثورة ، وقد عرفت هذه الجماعة باسم الاقتصاديين أو الطبيعيين Physiocrats ، وقد تأثر هؤلاء الى حد بعيد بكتابات الاقتصـادى الانجليزى آدم سميث . وممثلو هـذه الجماعة الرئيسيون فى فرنسا هم ميرابو أبو السياسى الذى ذاع صيته فى الثورة ، وساى ، وقبل هؤلاء جميعا كويزناى المفكر الحقيقى فى هذه الحركة الذى وصف بعضهم كتابه الغامض المعقد « الجـدول الاقتصادى » «Tableau Economique» بأنه الدواء الناجع لمتاعب فرنسا . وكتاب هذه الجماعة لم يحفلو كثيرا بتأملات العصر النظرية المجـردة ولم ينـالوا استحسان فولتير ومنتسكيو . ويمـكننا أن نستخلص من كتاباتهم الضخمة المبادىء التاليـة باعتبارها تعـاليم أساسية : استخدام العمل فى الأرض هو مصدر كل ثروة . العمـال هم فى الحقيقة أكثر الطبقات انتاجا بل وربما كانوا الطبقة المنتجـة الوحيدة . تدخل الحكومة يجب أن يقل الى أدنى حد : الاصـلاحان الاساسيان اللذان يلزم تنفيذهما فورا هما اطلاق الحرية الـكاملة للتجارة وانشاء نظـام عام للتعليم : جميـع الضرائب يجب أن تلغى وتتركز فى ضريبة واحدة هى ضريبة الأرض . فميرابو يرى أن هـذه المبادىء كفيلة « باصلاح كل مافسد واعادة عصر سليمان » وقد بذل

تيرجو الذى كان تلميذا حصيفا من تلامذة هذه المدرسة جهودا ضخمة لتطبيق تعاليم كويزناى كمفتش فى الأقاليم (intendant) ثم كوزير للمالية . وقد كان لهؤلاء الاقتصاديين أثر محسوس فى مجرى الثورة الفرنسية ولكن أهميتهم لا تقرب مطلقا من أهمية أتباع روسو وفولتير .

ولما حانت ساعة التغير العظيم بلورت الثورة أهدافها فى الشعار الثلاثى : الحرية والمساواة والاخاء . ومن العسير أن نجد تعريفا دقيقا للكلمات الثلاث عامة والكلمتين الاوليين خاصة ، وقد اتسعت معانيها مع سير الحركة ومازالت تتسع . الا أن الفرنسيين كانوا يقصدون بالحرية بادىء الامر تأمين الفرد ازاء تصرفات الدولة ، وبالمساواة ، المساواة فى الحقوق أمام القانون والغاء الامتيازات الخاصة . أما الاخاء فقد كان فى نظرهم هو الاخاء بين الافراد خاصة وقد تمثل فى عدة اجتماعات حماسية عقدت عشية ١٧٨٩ وتآخى فيها النبلاء والفلاحون . ذلك أن مفكرى العصر لم يعنوا كثيرا بالشئون الدولية ولا بالاخاء بين الدول ، ولكن ثمة مفكرين هما كنت وروسو لمسا خطورة المشكلة وتناولاها بالبحث . فقد كتب روسو فى ١٧٥٦ رسالة عن « السلام الدائم » بناها على مؤلف قديم لسان بيير ولكنه ضمنها آراءه ومشروعاته الخاصة . وفى هذه الرسالة نراه يتطلع الى قيام تعاهد أوروبى يكفل الأمن من أهوال الحرب ويشيد ذلك السلام الذى يتحدث عنه بشعور نبيل . فهو يدعو الى قيام تحالف دائم لا رجعة فيه بين عواهل أوروبا ، وانشاء برلمان دائم يضم مفوضيهم ؛ والى ضمان الجميع لسلامة كل دولة من الاعتداء على حقوقها وأراضيها ، واعتبار أية دولة تقدم على مثل هذا الاعتداء خارجة على القانون فى أوروبا ومن ثم تتولى سحقها قوات أوروبا ، كما دعا الى عدم اكتفاء هذا البرلمان بالعمل على المحافظة على السلام بل عليه أن

يعمل كذلك من أجل الخير العام للجنس البشرى . وقد أعاد كنت فى عام ١٧٩٥ صياغة هذه المقترحات فلم يدخل عليهـا تعديلا جوهريا يذكر ، ولسوف نتبين كيف تعين على هذه الدعوة أن تنتظر مايربو على قرن ونصف قرن قبل أن تظهر أول محـاولة لتحقيقها فى « عصـبة الأمم » .

الفصل الثاني
الثورة الفرنسية قبل نشوب الحرب العامة

اعتلى العرش في سنة ١٧٧٤ لويس السادس عشر آخر ملوك فرنسا الذين حكموا في ظل العهد القديم ، وأعدم بالمقصلة قبل انصرام عشرين عاما على ذلك التاريخ . وان من الخطورة بمكان أن نسمح لهذه المأساة وكل ماترمز اليه بالتأثير على حكمنا على السنوات الخمس عشرة الاولى من عهد هذا الملك . فلقد يخيل الينا أن فرنسا كانت تستأثر في تلك الفترة باهتمام أوروبا ، وأن الجو كان منذرا بالعاصفة المقبلة . ولكن الواقع أن الشخصية التي كانت تتعلق بها أنظار أوروبا قبل غيرها كانت شخصية فردريك البروسي ، فان حروبه كانت قد انتهت مخلفة له ولدولته صيتا ذائعا من حيث النظام والقدرة على احراز النصر . وكانت أطماع بروسيا العسكرية والاقليمية قد أشبعت في الفترة التي نتحدث عنها ، فقد خرجت بروسيا من تقسيم بولنده الذي نفذ في ١٧٧٢ دون اللجوء الى السلاح بمغانم أكبر مما خرجت به من صراعها الطويل الحاد في حرب السنوات السبع . ولما ظهرت في ١٧٧٨ مشكلة عويصة اصطدمت فيها مصالح النمسا بمصالح بروسيا ، هي مشكلة ولاية الحكم في بافاريا ، سوى النزاع بطريق المفاوضة . وهكذا أمكن لفردريك أن يكرس جهوده للنهوض بالتجارة والصناعة في بلاده وانشاء النظام الادارى البروسى ، وهو نظام أوتوقراطى يتسم بالاستقامة الصارمة ويتصف بأعظم قدر من الكفاية يمكن أن يتصف به نظام لا يعترف بضرورة الحرية . وقد صادفت آمال العصر الجديدة قبولا طيبا في ألمانيا . كان فولتير مقيما منذ فترة ببلاط الملك فردريك ، وكان كتاب فرنسا يستثيرون في جوته وشيللر ومفكرى

ألمانيا الرغبة فى المحاكاة تارة ، والمعارضة تارة أخرى . أما الملك البروسي فقد مضى فى سبيله صارما هازئا فى أسلوبه وحديثه وان أضمر الكثير من العطف على الآراء الجديدة .

وفى فرنسا كان اعتلاء لويس السادس عشر للعرش يبدو بشيرا بعهد أفضل . فجميع طبقات فرنسا تقريبا تنفست الصعداء لانتهاء حكم لويس الخامس عشر الذى لم يكفر عن خلاعة بلاطه بتحقيق أية انتصارات خارجية . ومع أنه كانت لفرنسا فى الخارج مكانة هائلة بفضل كتابها ، الا أن البلاط والحكومة لم يستفيدا من تلك المكانة لان الفكر الفرنسى كان مناوئا لنظام لويس الخامس عشر بقدر ماكان ميالا لحكم سلفه لويس الرابع عشر . وعلى هذا قوبل مجىء الملك الجديد بالترحيب لانه كان يمثل تغييرا على أية حال ، بيد أنه كانت هناك أيضا أسباب كثيرة تؤهل لويس السادس عشر لأن يكون ملكا محبوبا . فقد كان هو نفسه متأثرا بآمال العصر الانسانية ومستعدا لتعديل النظام السائد . وما فتىء يعلن فى السنوات الأولى من حكمه والساعات الأخيرة من عمره أنه « أحب الشعب » ، ولا يرى التاريخ مبررا للطعن فى صدق دعواه . كانت زوجته مارى انطوانيت أميرة نمساوية وابنة لماريا تيريزا . وكانت امرأة ذكية طيبة القلب رائعة الحسن . وكان أصلها النمساوى وبالا عليها وعلى زوجها فقد جلب عليها كراهية البلاد عندما اشتبكت فرنسا من جديد فى صراع مع النمسا (فى أثناء الثورة كان الأهالى يرمزون اليها باسم « المرأة النمساوية على سبيل الازدراء) ، وقد حال ذلك الأصل بينها وبين فهم فرنسا أو العطف — كزوجها — على الآراء الجديدة ، بينما جعلتها ارادتها الأقوى والأوضح بكثير من ارادته مستشارته النافذة الكلمة على خطورة آرائها ساعة الأزمة . ولكن هذه الاعتبارات تمت الى فترة متأخرة عما نحن الآن بصدده . وحسبنا أن نقول هنا انه قد

بدأت فى فرنسا باعتلاء لويس السادس عشر للعرش جهود متصلة صادقة بزعامة الملكية لتعديل طبيعة الحكومة وهدفها . وقد صادفت تلك الجهود بادىء الأمر تأييدا حماسيا من الطبقات الحاكمة والمثقفة .

وكان للاعتبارات الانسانية دخل كبير فى هذه الجهود ، غير أن النظام القديم كان على أية حال فى موقف لا يسمح لأحد بالدفاع عنه لسبب بسيط هو أنه كان عاجزا عن العيش بدون استدانة . وكانت التجارة والصناعة فى غاية التخلف بالقياس الى التقدم الملحوظ الذى أحرزته انجلترا . كانت أراضى فرنسا غنية منتجة ولكن نظام الامتيازات ــ الذى كان يعفى النبلاء ورجال الدين والمنتسبين الى البلاط من جانب كبير . وان لم يكن من كل الضرائب التى يجب أن يتحملوها ــ جعل من المستحيل على الحكومة أن تستخدم هذه الثروة لمجابهة تبعاتها . ومن الجائز أن « الثورة » ــ أو أن ثورة ما ــ كانت ستدخل الى فرنسا من أى باب ولكن عجز الدولة المالى كان هو الباب الذى دخلت منه فعلا . ذلك أن الاجراءات التى اتخذت لمواجهة تكاليف حروب القرن الثامن عشر الكبرى كانت قد ألقت بالنظام المالى لفرنسا فى حال من الفوضى ميئوس منها . كانت الحاجة الرئيسية هى موازنة الدخل والمصروفات ولسوف يتبين أن ذلك أمر صعب المنال مالم تتغير نظم الحكم الفرنسية تغييرا كاملا .

وقد أعطى لويس السادس عشر أكبر مناصب وزارته الأولى لـ « موزيباه » ولكن الاسم الذى سيحظى بالنصيب الأوفر من الاهتمام هو اسم « تيرجو » المراقب العام للمالية الذى كان من أتباع الاقتصاديين . وكان صيته قد ذاع من قبل بفضل شخصيته وكتاباته . وكان قد اكتسب خبرة قيمة كناظر لمقاطعة ليموزين . وقد بقى فى منصبه الوزارى نحو عشرين شهرا لاغير ولم يكن لجهوده أثر دائم

كبير ، ولكن الناس ظلوا يرجعون بأبصارهم الى تلك الفترة القصيرة باعتبارها الفترة التى كان لايزال فيها ثمة أمل فى أن تؤدى الاصلاحات المرسومة بحكمة والمنفذة بعزم وهمة الى تفادي وقوع كارثة «الثورة» . كان تيرجو راغبا فى ادخال الأمانة والكفاية الى دوائر الخدمة العامة — وتلك ثورة بحق — وعازما على الحد من سلطة الكنيسة الضخمة الى درجة خطيرة وعلى ايجاد نظام عادل للضرائب ، وتوفير حرية التجارة داخل وخارج حدود المملكة . ولم يكن يرى ضرورة لاشراك الشعب بدعوة أى مجلس للأمة وان كان بعض زملائه قد أشاروا عليه بذلك . وقد انكب على اعداد مشروعاته بغيرة وحماسة لأفكار العدالة والانسانية . ولكن مقترحاته أثارت انزعاج الطبقات التى اشتمت فيها تهديدا لمصالحها ، فتآمرت عليه عصبة من أفراد البلاط ساهمت فيها مارى انطوانيت بدور ، ولم يكن للويس من قوة الشخصية مايسمح له بمساندة وزيره بعد أن فقد محبة البلاط ، فأعفاه من منصبه وعين (نيكر) مراقبا للمالية بدلا منه .

كان نيكر مصرفيا بروتستانتيا ، فأثار تعيينه مراقبا للمالية بعض الصعوبات التى تم التغلب عليها بالرجوع الى حق الملك فى ممارسة اختصاصاته وقد سهل هو بدوره الأمر على الملك بتنازله عن المرتب المخصص للوظيفة . وقد ظل لفترة طويلة — حتى ١٧٩٠ — محبوبا أكثر من أية شخصية أخرى من الشخصيات العامة بفرنسا . ومن أسباب ذلك نكرانه لذاته وأمانته ، وصلته القوية بعالم الفكر . والاعتقاد السائد بأنه يمثل الأمانى العامة لعصره . وكان طويل الباع فى الشئون المالية ولكنه لم يكن سياسيا عظيما . وقد قبل النظام المالى والادارى فى فرنسا على علاته آملا فى أن تسير شئون الحكم دون احداث تعديل جوهرى وذلك بالتوفير وعقد القروض التى يسرت له خبرته وسمعته المالية الحصول عليها بفائدة أقل من ذى قبل . ولم

تترك كل هذه الجهود أثرا دائما كبيرا فى تاريخ فرنسا ، وهى تقع خارج نطاق هذا الكتاب . ذلك أن حادثا عظيما كان له تأثير قوى على مجريات الأمور فى أوربا وقع فيما وراء الأطلنطى فى أثناء عهده . فقد أسفرت حالة التوتر التى كانت قائمة بين الحكومة البريطانية والمستعمرات الأمريكية عن نشوب تمرد صريح عام ١٧٧٥ . وكان العداء شديدا بين حكومتى فرنسا وبريطانيا خلال القرن الثامن عشر . وقد خسرت فرنسا فى حروبها مع انجلترا معظم مستعمراتها فى أمريكا والهند . فكانت فرنسا بسبب ذكرى تلك الهزائم مهيأة لانتهاز فرصة الانتقام التى سنحت الآن بجلاء . وقد ترددت الحكومة بادىء الأمر خوفا من التكاليف ومن قوة غريمتها البحرية ، ولكن الأعمال الفردية عوضت الى حد ما عن توانى الحكومة . اذ قاد لافاييت الشجاع الرومانتيكى العامر القلب بالعطف النبيل على القضية الامريكية ، جماعة من المتطوعين . ولم ينس الأمريكيون قط تلك المغامرة الكريمة التى مافتئت ذكراها تجذب الولايات المتحدة الى صف فرنسا . وسرعان ما أرغم الرأى العام الحكومة الفرنسية على مؤازرة مجهود لافاييت بمجهود الدولة . وللتطورات التالية أهميتها القصوى فى تاريخ العالم وأثرها الهام فى الثورة الفرنسية . فقد ساهمت معونة فرنسا بصورة حاسمة فى فوز القضية الأمريكية . وانضمت أمم أوربية أخرى فى الاعتراض على سيادة بريطانيا البحرية . وتحققت هزيمة الأسطول البريطانى على يد الفرنسيين بالقرب من الساحل الأمريكى وكان من نتائج تلك الهزيمة المباشرة سقوط يوركتاون ، وانشاء عالم جديد بمعنى الكلمة . وقد ترك الكثير مما حدث فى هذا الصراع انطباعا عميقا فى أذهان الفرنسيين . فقد تمكن جيش من المواطنين من انزال الهزيمة بجنود انجلترا « المرتزقة » وكان العمل يجرى لوضع دستور الولايات المتحدة وكانت الخطوة الأولى هى اصدار اعلان

الاستقلال الذى زدد آراء روسو ترديدا واضحا لا يكاد يخطئه أحد ومضى العمل فى وضع الدستور متأثرا بكتاب (روح القوانين) لمونتسكيو (أما دين الدستور الامريكى الاكبر للدستور الانجليزى فقد ترك بطبيعة الحال بعيدا عن الأضواء) فهاهى ذى الحرية التى طالما كتبت عنها فرنسا وحلمت بها وتكلمت تنهض أخيرا ظافرة رائعة فيما وراء الاطلنطى ، فيعزز ذلك الايمان بأن أرض فرنسا يمكن أن تشهد حركات وانتصارات من نفس النوع .

على أن أثر الحرب الأمريكية الخطير المباشر انما كان على مالية فرنسا . فقد عجزت تدابير نيكر الاقتصادية الحريصة عن مواجهة نفقات الحرب ، فأصدر بيانه المعروف الذى شرح فيه الموقف المالى فى فرنسا . ولقد أثيرت الشبهات حول دقة ماجاء فى هذا البيان والدوافع الكامنة وراء نشره ولكنه كان أشبه بنداء للرأى العام تخطى حدود الاوساط الادارية العادية التى كان الاهتمام بالمسائل المالية مقصورا عليها حتى ذلك الحين . وقرأ الناس البيان وناقشوه فرأت طغمة الملك أن لهذه الخطوة خطورتها مما أدى الى طرد نيكر من منصبه (١٧٨١) — حتى عاد اليه مرة أخرى عندما أوشكت العاصفة أن تهب . . . .

ولا تزال أمامنا ثمانية أعوام قبل مجىء الثورة وليس فى حالة فرنسا مانع بعينه يحول دون تدارك الأمر واصلاح مالية الحكومة . فثروة البلاد لم تستنفد بحال ، وقد سبق أن ذكرنا أن لا محل للاعتقاد بأن فرنسا كانت تنفرد ببؤس سكانها وفاقتهم عن سائر البلاد الأوربية . كانت الملكية كنظام لا تزال تلقى قبولا من الجميع تقريبا ، بل انها كانت تتمتع فعلا بحب جانب كبير من شعب فرنسا . وقد أظهر فردريك الأكبر ملك بروسيا مايمكن أن يفعله ملك قدير حازم فى موقف أسوأ بكثير من ذلك الذى يتعرض له لويس السادس عشر . ولكن لويس

السادس عشر كان نقيضا على التمام لفردريك الأكبر . فقد كان وديعا ورعا طيبا تعوزه تماما حيوية فردريك الخـارقة . وكان يعرقل سير دولاب الحكم فى فرنسا تراث طويل من الاثرة والفساد ، فما أشد حاجة شاغل العرش الفرنسى الى تلك الارادة الحديدية التى تستطيع وحدها أن تسـخر ذلك الدولاب من أجل غايات قومية ! ان الاتهام الذى طالما وجه الى لويس السادس عشر بأنه قاوم الثورة بأكثر ممـا ينبغى فتسبب بذلك فى نهايته المفجعة ، انمـا يكاد يكون عـكس الحقيقة تماما،ذلك أن آفة لويس كانت ضعف ارادته لا النقص فى مرونته فقد سمح للثورة بأن تأتى مدفوعا الى ذلك بضعفه وعاطفته الانسانية الصادقة ، فلما أتت الثورة وجاء شكلها مغايرا تماما لما توقع تآمر عليها فى خيانة وضعف . ومن ثم جاءه الخلع والسجن والاعدام على أعواد المقصلة .

تولى كالون وزارة المالية فيما بين ١٧٨٣ — ١٧٨٧ . وكان محبوبا فى البلاط لا يحاول المساس بمباذله الباهظة التكاليف لايمـانه أن انبلاط الباهظ النفقات ييسر الاستدانة ، وكانت حياته قائمـة على الاستدانة بفوائد متزايدة الارتفاع . وقد تبين حتى لكالون أن الملكية لن تستطيع حل مشكلتها المالية دون اطلاع جانب من الأمة على حقيقة الموقف ، فرجع الى تقاليد الملكية فى القرنين السادس عشر والسـابع عشر ودعا مجلسا من «الأعيان» ، وهؤلاء رجال كان يستدعيهم الملك وقتما شاء لابداء المشورة فى أى موضوع يعن له أن يطرحه عليهم ، وهم لا يشكلون مجلسا دستوريا وليست لهـم أية صـفة نيابية ، وينتسبون الى الطبقـات المميزة ، وكان المأمول أن يقترحوا فرض الضرائب على طبقتهم ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل أشاروا بوجـوب دعوة مجلس طبقـات الأمة باعتبـاره وحـده القـادر على معالجة احتياجات فرنسا .

كان مجلس طبقات الأمة هيئة تمثل رجال الدين والنبلاء والعـامة فى الدولة كلها ، مما يميزه عن مجالس المقاطعات التى تضم ممثلين لكل مقاطعة على حدة ، ولم يكن مجلس طبقات الأمة قد دعى للاجتماع منذ سنة ١٦١٤ ولذلك فان أحدا لم يكن يعلم شيئا عن حقيقته اللهم الا المؤرخين هواة الآثار . والواقع أن هذا المجلس كثيرا ماتحدى سلطان الملكية ابان ضعفها الى أن أدى انتصارها على يد ريشيليو الى اختفائه من الوجود . وفى الوقت الذى تتحدث عنه كانت الحماســة كبيرة لفكرة اجراء انتخابات عامة وقيام التمثيل النيابى فكان من الطبيعى أن يتجه الفرنسيون بأذهانهم الى المؤسسة القومية الوحيدة فى ماضيهم التى تجمع بين الشيئين . ومع ذلك فان مجلس طبقات الأمة لم يكن بالذى يصلح فى شكله التقليدى لمواجهة الأزمة . فقد كانت طبقاته الثلاث : رجال الدين ، والنبلاء ، والعامة ، تجتمـع فى ثلاث قاعات متفرقة . وبذلك يكون للطبقات صاحبة الامتيازات غرفتان بينمـا لا يملك العامة الا غرفة واحدة . بل الأهم من ذلك أن هذا المجلس لم تكن له أية سلطة فليس له الا أن يقدم المطالب والمقترحات . اذ أن حكومة فرنسا لم تكن قد سلمت له فى أى وقت من الأوقات بأى نصيب فى فرض الضرائب أو سن التشريعات . كان كل عضو يحمل معه من دائرته بيانا بالشكاوى (Cahiers des doléances) ، وكانت مهمة كل « طبقة » هى اعداد بيان عام برغباتها وتقديمه الى التاج بصورة منفصلة . فاذا تم ذلك انفض المجلس ولم يعد له عمل آخر . فمـا أضخم الفارق بين هذا المجلس والبرلمان البريطانى المعاصر ولا نقول المؤتمر الوطنى الواسع السلطات الذى سيقدر له بعد آونة قصيرة أن يوجه مصائر الثورة الفرنسية !

سقط كالون عام ١٧٨٧ فخلفه الكاردينال « دى بريين » الذى كان آخر اسم فى قائمة طويلة من الساسة الكرادلة الذين استخدمتهم

الملكية الفرنسية القديمة ، فنادى بسياسة كان يمكن أن تؤدى الى النجاح لو انتهجت من قبل ونفذت بهمة وعزيمــة . فقــد اقترح اللجوء الى السلطة الملكية لفــرض الضرائب على الطبقات صاحبــة الامتيازات . ولم يكن فى فرنسا فقيه دستورى يستطيع أن ينكر أن فرض الضرائب يدخل فى حدود السلطة الملكية . ومع هذا فقد فشل مشروعه ، اذ كانت هناك هيئة من رجال القانون تحمل اسما غريبا هو برلمان باريس . وكانت مهمتها هى تسجيل المراسيم الملكية ، وهذه لا تصبح نافذة الا بعد تسجيلها على هذا النحو . وقد رفض «البرلمان» تسجيل المراسيم الخاصة بالضرائب مطمئنا الى قوة التأييد العام له فى موقفه ، فلجأ الملك الى كل الوسائل التى كانت لها قوتها فى الماضى ولكن دون طائل ، اذ أن الرأى العام قد أصبح قوة سياسية حقيقية على نحو لم تشهده فرنسا من قبل ، فقد أثار فولتير ورفاقه فى الشعب الفرنسى الشعور بقوته . ولو أن الجالس على العرش كان ملكا قويا مثل هنرى النافارى أو لويس الحادى عشر أو لويس التاسع لأمكن للملكية أن تخرج من الأزمة وقد تبدلت وقويت فى آن معا . ومع هذا فقد اتخذ لويس السادس عشر خطوة حكيمة فى مواجهة الانفعــال الشعبى والمعارضــة الشعبية ، فطرد دى بريين واستدعى نيــكر من جديد وأعلن عن اعتزامه دعوة مجلس طبقات الأمة الى الانعقاد ، وقد وجهت الدعوة بادىء الأمر لاجتمــاع المجلس فى ١٧٨٨ ، ولــكن الاجتماع الفعلى لم يتم الا فى مايو سنة ١٧٨٩ وذلك فى فرساى على مسافة تقرب من اثنى عشر ميلا من باريس .

ان افلاس البلاد قد اضطر الملك الى دعوة ممثلى شــعبه لابداء الرأى ، وليس فى هذا الموقف بذاته ما يحتم وقوع كارثة أو يفتــح بالضرورة صفحة جديدة فى تاريخ العالم ، فلقد أظهرت انجلترا كيف يمكن للملكية وممثلى الشعب أن يعملوا معا لصالح البلاد . فمــاذا يمنع فرنسا من بلوغ نفس الهدف ؟

لم تشهد الثورة الفرنسية أوقاتا عصيبة كتلك الأسابيع الأولى لمجلس طبقات الأمة . لقد دارت مناقشات كثيرة حول تكوين المجلس واجراءاته ، وبتأثير نيكر حصل العامة على نحو ستمائة مقعد بينما تقرر أن يكون لكل من رجال الدين والنبلاء ثلاثمائة نائب . ولكن بقيت مسألة عويصة من مسائل الاجراءات هي كيف يجلس الأعضاء الـ ١٢٠٠ ويتناقشون ويصوتون ؟ أيجلسون في قاعات ثلاث فيكون البت في المسائل بأغلبية القاعات أم يجلسون معا ويكون البت بأغلبية أصوات الأعضاء ؟ ان الطريقة الأولى كفيلة باعطاء أصحاب الامتيازات أغلبية قاعتين ضد قاعة واحدة ، بينما الطريقة الثانية تضمن الحصول على أغلبية ضخمة للاصلاح لان بعض النبلاء والكثيرين من رجال الدين كانوا يعطفون على العامة . ثم هنالك مسألة أخرى : أيشكل هؤلاء كما في سالف الأزمان ، مجلسا لمجرد اسداء المشورة أم يشكلون جهازا حقيقيا من أجهزة الحكم ؟ واذا قدر لهم أن يحكموا أيصبحون أداة في يد النبلاء أم الأمة بأسرها ؟ ولو أن الملك اتخذ قرارا في الأمر لكان من الجائز أن يقبل قراره في البداية ، ولكنه لم يكن قد استقر على رأى عندما اجتمع المندوبون بفرساى .

لقد عقد النصر الكامل للعامة فما ان حل أول يوليو سنة ١٧٨٩ حتى كانوا قد حققوه . ويمكننا أن نسجل في تلك الأسابيع السبعة ، المراحل الحاسمة التالية .

أولا رفض العامة التعاون مع الحكومة بأى شكل من الأشكال حتى تسلم لهم بمبدأ اجتماع الطبقات الثلاث في قاعة واحدة و « التصويت بالرأس » . وأبوا حتى اتخاذ الخطوات الأولية اللازمة لاثبات صحة انتخابهم قبل أن ينضم اليهم مندوبو الطبقتين الأخريين . واستمرت هذه المقاومة السلبية حتى ١٠ يونيو . وقد عانى الملك ومستشاروه من القلق البالغ في تلك الأسابيع ، فالبلاد كانت في

طريقها الى هاوية سحيقة من الفوضى ، والضرائب لم تكن تدفع ، وقد كان بوسع الملك أن يفض المجلس بتهمة التمرد والعناد ، ولكن الضائقة المالية ستظل على ماهى عليه من جسامة . وعلى هذا لم يفعل الملك شيئا . ووطد توانى الحكومة من ثقة العامة بأنفسهم ، وبدأوا يتعرفون على زعمائهم ويتفهمون سلطاتهم .

وفى ١٠ يونيو قدم الأب سييز — وهو أحد نواب الطبقة الثالثة اشتهر بدراساته فى الأشكال الدستورية — اقتراحا بتوجيه دعوة أخيرة لرجال الدين والنبلاء للانضمام الى العامة فى قاعة واحدة ، على أن يعلن العامة تشكيل المجلس منهم وحدهم اذا مارفض رجال الدين والنبلاء الاستجابة لدعوتهم ، وأن يتصرفوا دون حساب لهم . كان العامة قد عقدوا العزم على ألا يرضخوا للطبقتين الأخريين ، فقد شعروا بأنهم من القوة بحيث يستطيعون السيطرة عليهما وقد صمموا على الحصول لأنفسهم أيا كان قرار رجال الدين والنبلاء على نصيب ضخم من حكم فرنسا ، واصطناع اسم من شأنه أن يعلن على الملأ السلطة التى يطلبونها لأنفسهم . وفى ١٤ يونيو بدأت مناقشة حول اختيار هذا الاسم فاقترح سييز عليهم اسم « الجمعية الوطنية » ليكون فى ذلك اعلانا لحقهم فى التكلم باسم الأمة والتصرف نيابة عنها حتى وان لم ينالوا تأييد الطبقات الأخرى . وكان البعض ولا سيما ميرابو يؤثرون التسمى باسم ينطوى على تحد أقل ، ولكن الموافقة على اسم «الجمعية الوطنية» تمت فى ١٧ يونيو بأغلبية ساحقة (٤٩١ مقابل ٩٠) . وهذا القرار يعد صورة مصغرة للثورة الفرنسية ، فهاهم العامة يزعمون لأنفسهم حق التصرف باسم الأمة رغم أنف الملك والطبقتين صاحبتى الامتيازات . فهل تراهم ينتقلون حقا من الأقوال الى الأفعال ؟ لقد تيقظ الملك وأعوانه أخيرا الى الخطر الذى يتهددهم . واقتنع الملك بأن عليه ، كى يفرض على العامة

العدول عن سياستهم ، أن يلجأ الى اجراء كاد يطويه النسيان . ففى قديم الزمان كان يتعين على مجلس طبقات الأمة أن يطيع كلمة الملك ان هو توجه اليه بنفســـه وعقد « جلســـة ملكية » وعلى هذا قرر نويس أن يعقد الآن جلسة ملكية يعلن فيها مشيئته فتتقبلها فرنســـا كلها . ولكن الخطة فشلت فشلا ذريعا ، ذلك أن العـــامة لم يكونوا على استعداد للتسليم . فلما حالت الاستعدادات التى كانت تجرى للجلسة الملكية دون اجتمـــاعهم فى غرفتهم التقوا فى ملعب مجـــاور للتنس ، وأقسموا على الاستمرار فى اجتماعاتهم رغم أية معارضـــة يلقونها من أى جهة كانت الى أن « يضعوا دستورا » (٢٠ يونيو) . وقد وجدوا تشجيعا من رجال الدين الذين كانوا متفاوتين فى أصلهم الاجتماعى منشقين على أنفسهم فى موقفهم من دعاوى العامة . لقد درج البعض على اعتبار الكنيسة ألد أعداء الثورة ، غير أن رجال الدين قرروا فى ١٩ يونيو بأغلبية صوت واحد الاتحاد مع العامة . وفى ٢٢ يونية ـــ عشية الجلسة الملكية ـــ انضم مايقرب من نصفهم فعلا الى العامة . وقد أعلن الملك فى الجلسة الملكية التى انعقدت فى ٢٣ يونيو عن اصلاحات هامة عديدة فى الشئون المالية والادارية ، وقبل اعتبار مجلس الطبقات جزءا دائما من النظام الأساسى للدولة ، ولكنه أصر على أن تجرى المناقشة والتصويت على طريقة « القاعات الثلاث » . وبهذا اســـتسلم للطبقتين صاحبتى الامتيـــازات لا للأمة . وكان فى موقفه هـــذا تحد للعامة ، وقد عززه بتهديد يكاد أن يكون صريحا باســـتخدام القوة لســـحق المعارضـــة . الا أن ماتلا ذلك كان بالغ الغرابة . فعندما قاوم العامة ورفضـــوا اخلاء غرفتهم لم يتبع الملك أقواله بالأفعال بل ناشد رجال الدين والنبلاء الخـــروج على أوامره السابقة والانضـــمام الى العامة ! وفى ٢ يوليو اجتمع جميع ممثلى الطبقات الثلاث الحاضرين (كان هنالك عدد كبير من المتخلفين) فى

عرفة واحدة حيث يستطيع دعاة الاصلاح أن يطمئنوا الى الحصول على أغلبية محسوسة . والسببان الرئيسيان لهذه النتيجة المفاجئة هما شجاعة زعماء العامة وحكمتهم من ناحية ، وحاجات العرش المالية من ناحية أخرى . بيد أنه كان لتضارب الرأى بين مستشارى الملك أثر هام كذلك . وكان بين هؤلاء من يؤمن بأن من الأوفق الرضوخ فى تلك اللحظة الى أن تسنح الفرصة فيما بعد لتسديد ضربة أقوى .

لقد أصبحت هناك الآن قوى ثلاث رئيسية فى فرنسا . فهناك أولا البلاط وعلى رأسه الملك الذى سلم للعــامة ، وثمة عناصر فى هــذه الجماعة أسفت لاضــطرار الملك الى الاســتسلام ، وراحت تترقب الفرصة لكسب الارض المفقودة من جديد ، ولا نحسب أننا نجانب الصواب اذا عددنا من هذه الفئة الملكة مارى انطوانيت والــكونت دارتوا شقيق الملك الأصغر . ثم كانت هناك « الجمعية » التى تسمت بثلاثة أسماء مختلفة فى أوقات مختلفة . فقد كانت تدعى أولا مجلس طبقات الأمة ثم تحولت كما رأينا الى الجمعية الوطنيــة . وسرعان ما اعتبرت وضع الدستور مهمتها التى تفوق فى أهميتها جميع المهــام الاخرى فأطلقت على نفسها اسم الجمعية التأسيسية . وقد اســتمر عدد كبير من رجال الدين والنبــلاء فى حضور جلساتها ، الا أنهــا كانت واقعة تحت سيطرة العامة . وكان ممثلو العامة جميعا من أبناء الطبقات المتوسطة ، والكثيرون منهم من أبناء البورجوازية التجارية الميسورى الحال بل والأثرياء ، وكان رجال القــانون ممثلين تمثيلا قويا ، ولم يكن هناك عمال أو ممثلون للطبقات العاملة بالذات . وقد صمم الأعضــاء على وضع دســتور ســياسى وكانت لهم أفكارهم الواضحة الى حد بعيــد عن سمات هذا الدســتور العامة . ولكن اهتمامهم بالمسائل الاجتماعية كان أقل بكثير ، وقلما ساروا فى هذا الصــدد الى أبعد من التعميمات الغامضة والعاطفية نوعا ما . هاتان

اذن هما القوتان الظـاهرتان ، ولكن ثمة قوة ثالثـة هامة وان كان يصعب تعريفها : وهذه القوة كان يرمز اليها فى بعض الأحيان باسم غامض هو « الشعب » أو « شعب باريس » وتسـمى أحيانا أخرى «جيش الثورة» . فقد شل انتصار العامة أجهزة الحكومة الفرنسية ، فلم تعـد الضرائب تدفع ، ووقعت فى الريف عشرات الاغارات على مساكن السادة والنبلاء ، وسـاءت أحوال التجارة وتفشت البطالة ، وأصبحت باريس تضم أعدادا ضـخمة من العمـال الذين يكادون يموتون جوعا ، وهم الذين حضروا اليها فى بدء الثورة . وكان هؤلاء بؤساء ساخطين ، أثارتهم أفكار العصر وان لم يدركوا كنهها . وكان مطلبهم الأول هو الغذاء وتحسين أحوال معيشتهم بصفة عامة . وقد زودوا دعاة الثورة بسلاح قيم وخطير فى آن واحد ، سلاح يصعب التحكم فيه ، ولكنه يستجيب بسرعة فى بعض الأحيان لما يراد منه . والتحالف غير الرسمى بين الجمعية التى كانت فى جوهرها مجلسـا للطبقة الوسطى وبين تلك القوة هو الذى قاد الجمعية الى النصر .

وقد قرر الملك أن يضرب ضربته (ويسـتخدم هنا لفظ الملك كمرادف للفظ الحكومة ، فانه ليتعذر على المرء أن يحدد دور لويس السادس عشر الشـخصى فيما حدث) . فصدرت الأوامر للقـوات بالتقدم نحو باريس ، واسـتمر زحفها بالرغم من احتجـاج الجمعية الوطنية . وفى ١١ يوليو سـنة ١٨٧٩ تأيدت المخـاوف والهواجس بوصول الأنباء من باريس الى فرساى باعفاء نيكر معبود الشعب من منصبه . لقد صار من الجلى أن انقلابا ملكيا يوشك أن ينفذ ، ولم تكن باريس فى مزاج يسمح لها بالانتظـار حتى يقع . ولم تكن فى باريس اذ ذاك حكومة بلدية بمعنى الكلمة ، ولكن « الناخبين » ـــ أى أعضاء اللجنة الكبيرة التى كان لها الرأى الأخير فى اختيار أعضاء مجلس طبقات الأمة ـــ اجتمعوا وشرعوا يؤلفون حكومة . وقـد

أنشأوا أيضا حرسا مدنيا سرعان ما كبر وتحول الى الحرس الوطنى ذى الأهمية البالغة . وكان هذا الحرس عبارة عن مجموعة من الرجال هم وسط بين الجنود والشرطة ، سلحوا ودربوا للدفاع عن حقوق شعب باريس وأملاكه . وقد اقتحم هؤلاء دار السلاح المعروفة باسم « أوتيل دى انفاليد » واستولوا على كميات كبيرة من الأسلحة المخزونة هناك . وبذلك أصبحت باريس تملك بعض وسائل الدفاع عن نفسها . وثمة قوات أخرى كان لها نفع حقيقى أكبر من الحرس الوطنى هى قوات « الحرس الفرنسى » التى تتألف من جنود نظاميين كانوا معسكرين بباريس وقد تشربوا روح الثورة فانضموا الآن علانية الى أهالى باريس . وفى ١٤ يوليو هاجمت الباستيل قوات باريس الصاخبة بزعامة كميل ديمولان — اذا صح القول بأن أحدا قد تزعمها — وهو محام شاب وكاتب لامع وخطيب قوى التأثير رغم مايشوب نطقه من التلعثم . وكان هذا الحصن المنيع قد فقد كل أهميته العسكرية ولم تترك به الا حامية صغيرة تفتقر الى المئونة . ولكن اسم الباستيل بقى رمزا للطغيان القديم ، ومن الجائز أن يستخدم من جديد لاخضاع باريس ، ولا ريب فى أن شن هجوم ناجح عليه سيكون نذيرا للملكية واظهارا لقوة المدينة فى آن واحد .

والواقع أن الهجوم لم يؤثر فى الحصن شيئا ، ولكن المحافظ « دى لناى » De Launauy استسلم عصر اليوم نفسه ، فقدانا منه لرباطة جأشه أو يأسا من وصول الغوث . وقد حصل على وعد بتأمين حياته ، ولكنه قتل فى الفوضى التى صاحبت الاستسلام . واندفع الجيش الباريسى الى داخل الحصن العظيم وبدأ على الفور هدمه . لم يغير سقوط الباستيل الموقف العسكرى فى شىء ، فالقوات التى تأتمر بأمر الملك كانت من الضخامة والولاء بما يكفى لسحق عصيان باريس ، ولكن لويس استسلم مرة أخرى ويرجع استسلامه الى جبنه

من ناحية ، ولكنه يرجع من ناحية أخرى وبدرجة أكبر الى مشـاعره الانسانية الصادقة . وقد حضر بنفسه الى باريس ليعلن رسميا رضاءه عما تم ، وشـهد هناك صلاة الشكر التى أقيمت فى تلك المناسـبة بكتدرائية نوتردام .

كان سـقوط الباسـتيل كمـا أسلفنا عـديم الأهمية من الوجهة العسكرية ، ولكن عواقبه السياسية كانت هائلة . فقد أحرز العامة النصر على الملك للمرة الثانية . كان الملك محبوبا بادىء الأمر ولكن شـعبيته أخذت تتـدهور بسرعة لتحل محلها الشـكوك والريب . وانصرفت الجمعية الوطنية الى وضع الدستور فى طمأنينة أكثر من ذى قبل .

والأهم من هذا كله أن باريس بدأت تحس بوجـودها وفازت بحكومة فعلية ، فقد شكلت حكومة بلدية كاملة ، واختير م . بايى M. Bailly — وهو عالم فلكى مرموق اختطفته حماسـة الساعة من نشاطه العلمى — أول عمدة للمدينة وسرعان ماتطور الحرس الوطنى وكبر وأسـندت قيادته الى المركيز الشـهير لافاييت ، فبدأت بحق سيطرة باريس على الثورة .

لقد مضت الجمعية التأسـيسية — وهذا هو الاسم الذى يتعين علينا أن نطلقه عليها منذ الآن — فى عملها — واثقة من نفسها بعد أن لقيت تشجيعا من هذه الأحداث . ولسوف نتناول بالبحث بعـد هنيهة نتائج عملها هذا ، ولكن علينا أن نسجل أولا الأحداث الغريبة التى اكملت بعـد مضى ثلاثة شـهور ، العمل الذى بدأ بسـقوط الباستيل .

لم تكن السمات العامة للموقف قد تغيرت . فهذا بلاط رضخ بعد تردد وراح يتحين الفرصة لاسـتعادة مركزه ، وتلك جمعيـة واثقة مفعمة بالأمل ولكنها ترتاب فى الملك وتناوىء البلاط ، وهذا جمهور

جائع متهيج يشكل أداة طيعة فى أيدى المتآمرين . وانه ليتعذر على المرء أن يحدد الى أى مدى كان هناك اعداد منظم لانقلاب ملكى رجعى من ناحية وتآمر مدبر ضد الملكية من الناحية الأخرى .

ولاريب فى أن حالة باريس النفسية كانت قد بلغت درجة من الخطورة لم تبلغها من قبل . لقد أخذت الصحف فى الظهور . وكانت الصحافة السياسية ظاهرة جديدة لم تعرفها فرنسا من قبل ، وأصبح لها نفوذ عظيم . وتألفت الأندية لمناقشة المسائل المطروحة على الجمعية والتأثير فى الرأى العام ، ومنها أندية معتدلة وأخرى محافظة ، بيد أن الأهمية الأولى كانت للأندية الثورية مثل نادى الكوردليين ونادى اليعاقبة . وهذا النادى الأخير أصبح فيما بعد احدى القوى الهائلة التى أضفت على الثورة شكلها الذى عرفت به ، وقد نافس الجمعية فى النفوذ ، بل وعمد الى ارغامها على الخضوع لمشيئته بالقوة فى بعض الأحيان . ولقد أدى تفشى البطالة الى افتتاح مصانع عامة لتشغيل العاطلين وهو حل سريع براق ، الا أن نتيجته تأتى دائما مخيبة للآمال ، فقد أقبلت جموع العاطلين من شتى أنحاء فرنسا الى باريس ، وأصبحوا عبئا لاتطيقه مالية البلاد المرهقة مما أدى فى النهاية الى اغلاق تلك المصانع فى أوائل أكتوبر ، والقاء آلاف العمال فى الطرقات ليتسولوا أو يموتوا جوعا .

وقد وقعت فى فرساى ، التى ظلت حتى ذلك الحين مقر الملك والبلاط ، أحداث أثارت حفيظة باريس . فقد استدعيت الى فرساى كتيبة جديدة — هى كتيبة الفلاندرز التى تتألف فى معظمها من جنود غير فرنسيين — وفى المأدبة التى أقيمت تكريما لضباطها عند وصولهم ، ألقيت الخطب الحماسية المتطرفة فى تأييدها للملكية ، فعززت الرأى القائل بأن البلاط يدبر ضربة لباريس ، وراحت الصحف العامة تطالب بانتقال الملك للاقامة فى باريس وكانت الرغبة فى ذلك قد أبديت

بصـــورة عامة قوية قبيل افتتاح مجلس طبقات الأمة ، فآن الأوان لوضعها موضع التنفيـــذ . وفى ٥ أكتوبر ١٧٨٩ أغريت جمهـــرة من الناس الذين احتشدوا أمام دار البلدية مطالبين بادىء الأمر «بالخبز» بالسير الى فرساى لعرض رغباتهم على الجمعية والملك فبلغوها عصرا . وقد توجه لافاييت للحاق بهم على رأس حرســه الوطنى . وانقضى اليوم فى التماسات ومظاهرات لم تكن فيما بدا عظيمة الأهمية . غير أن الجمهور لم يلبث أن نفذ بعـــد منتصف الليل الى داخل القصر ، فأوشكت حياة الملك والملكة أن تتعرض للخطر لولا وصول لافاييت الذى ضمن لهما ســـلامتهما الشخصية . ولكن لافاييت نفســـه قد طلب حضـــــور الملك للاقامة فى باريس . ومن ثم فقـــد رأى الملك — كعادته — أن الاستسلام هو أحكم السبل . فغادر عصر ٦ أكتوبر فرساى التى اقترن اسمها اقترانا وثيقا بأمجاد الملكية الفرنســـية ، قاصـــدا « التويلرى » الذى كان فيما مضى قصرا لملوك فرنســـا فى العصور الوسطى ولكنه لم يعد الآن بالمكان المهيأ لاقامته . وسرعان ماتبعته الجمعية . وسوف نرى من الآن فصاعدا كيف طوقت باريس حكومة فرنسا وسيطرت عليها . ذلك أن الثورة أخـــذت تتركز فى باريس ، وتتطبع بطباع تلك المدينة العظيمة .

وتلك هى النتيجة الأولى لسقوط الباستيل والزحف على فرساى ، بيد أن هنالك نتيجة أخرى لها أهميتها الكبرى هى بدء ماعرف باسم « الهجرة » . ولكى نفسر تلك الحركة ينبغى أن ندرك أنه وان كان الملك قد استسلم فان الكثيرين من النبلاء كانوا ينظرون الى تنازلاته بعين الازدراء والكراهية والخوف ، فعز عليهم البقـــاء فى فرنســـا الخاضعة لمبادىء يمقتونها وآثروا الانسحاب الى ماوراء الحدود . فرحل نفر قليل منهم الى انجلترا بينما رحلت الأغلبية الى الولايات الألمانية الواقعة على نهر الراين ولاسيما ولايتى ميتز وكوبلنز . وقد

بدأ هذه الحركة أميران من البيت المالك هما شـقيق الملك الكونت دارتوا والامير دى كوندى . وحذا حذوهما عدد غفير من النبلاء . وراح هؤلاء يقلدون فى المدن الألمانية التى استقروا بها مظاهر الملك فى فرساى ويتحدثون عن هزيمة الثورة الوشيكة ، ويجمعون القوات استعدادا لليوم الموعود . وقد أعلنوا أن تنازلات الملك للثورة ليست ملزمة فى شيء لأنها تمت تحت الاكراه والضغط . والحق أن تأثيرهم كان ضارا من كل وجه ، فان خير ما كان يرجى لفرنسا هو أن تحدث بين الملك والثورة مصالحة حقيقية وأن يعامل كل منهمـا الآخر بثقة واحترام ، وذلك أمر جعلته الهجرة عسيرا ان لم يكن مسـتحيلا . « فالملكية لم تنكب بشيء » على حد قول أعظم مؤرخى عصر الثورة « مثلما نكبت بتلك الهجرة ولا كان هناك ماهو أخطر أثرا منها فى مجرى الثورة » .

وقد استمرت عملية وضع الدستور وسط نواقيس الخطر هـذه جميعا ، دون توقف . فأولا اسـتقر الرأى على وضع اعلان لحقوق الانسان يكون أساسا للدستور كله . وقد تمت الموافقة على هـذا الاعلان فى أول أغسطس ١٧٨٩ وفيما يلى طائفة من أبرز فقراته :

« ان ممثلى الشعب الفرنسى المجتمعين فى شكل جمعية وطنية اذ يؤمنون بأن تجاهل حقوق الانسـان واغفالهـا وازدراءها انمـا هى الأسباب الوحيدة للنكبات العامة وفسـاد الحكومات ، قد عقدوا العزم على أن يسجلوا فى اعلان جليل حقوق الانسان الطبيعية المقدسة التى لايمكن التنازل عنها ، حتى يكون فى هـذا الاعلان الماثل على الدوام أمام جميع أعضـاء الهيئة الاجتمـاعية تذكرة مسـتمرة لهم بحقوقهم وواجباتهم ، وحتى تكتسب تصرفات السـلطتين التشريعية والتنفيـذية التى يمكن على الدوام مضـاهاتها بغايات كافة النظم السياسية المزيد من الاحترام لهذا السبب ، وحتى تتجه دائما مطالب

المواطنين القائمة من الآن فصاعدا على مبادىء بسيطة لا خلاف عليها ، الى صيانة الدستور واسعاد الجميع .

ومن ثم فان الجمعية الوطنية تعترف وتعلن في حضرة الكائن الأعلى وبرعايته الحقوق التالية للانسان والمواطن :

(١) يولد الناس أحرارا ومتساوين في الحقوق ويظلون كذلك . والامتيازات الاجتماعية لاتقوم الا لمنفعة عامة .

(٢) هدف كل تشكيل سياسى هو المحافظة على حقوق الانسان الطبيعية غير القابلة للبطلان ، وهذه الحقوق هى حق الحرية والملكية والأمن ومقاومة الظلم .

(٣) الأمة مصدر السعادة الكاملة ولا يجوز لأية جماعة أو فرد ممارسة السلطة مالم تكن مستمدة من الأمة .

(٤) الحرية تتمثل فى السماح للفرد بأن يفعل كل مالا يضر الآخرين .

(٦) القانون هو تعبير عن الارادة العامة . ولجميع المواطنين حق الاشتراك فى وضعه بأشخاصهم أو عن طريق ممثليهم ...

(١٠) لايجوز أن يضار أى شخص بسبب آرائه ولو كانت آراء دينية على شريطة ألا ينطوى الاعراب عنها على الاخلال بالنظام العام الذى يقيمه القانون .

(١١) حرية تبادل الأفكار والآراء هى من أغلى حقوق الانسان ...

(١٧) لايجوز حرمان أى فرد من الملكية التى هى حق مقدس لايمس الا اذا اقتضت ذلك بجلاء ضرورة عامة نص عليها القانون ...

ان انتقاد هذه الوثيقة الشهيرة أمر ميسور ، فان حاجات فرنسا العملية كانت يومذاك عاجلة ملحة ، وقد أهملت ابان المناقشات المطولة حول « حقوق الانسان » . ثم اننا لم نعد نتحدث فى القرن العشرين عن « حقوق الانسان » ، فهذه العبارة وهذه الفكرة التى تنطوى عليها ، انما تمتان بالأحرى الى فلسفة القرن الثامن عشر . كما أنه

قد تبين عند الدخول فى تفاصيل الدستور ، ان بعض المبادىء التى أعلنت بهذه الطريقة المدوية لم تكن ملائمة بالمرة . فالفقرة السادسة مثلا تتضمن مبدأ الاقتراع العام ، والجمعية لم تكن فى طورها الأخير فى موقف يسمح لها بتطبيق هذا المبدأ ، فأتاح هذا التفاوت بين المبادىء والتطبيق فرصة للهجوم أسرع الى اغتنامها الثوريون المتأخرون . الا أن اعلان حقوق الانسان يمثل على كل حال أصدق تمثيل الجانب النبيل من الثورة — ذلك الجانب الذى لولاه ما كانت ذلك الحدث العظيم فى تاريخ أوروبا الذى كانته . ولطالما أشار الباحثون فى هذا الصدد الى الفارق بين الثورة الفرنسية والثورة الانجليزية . فبينما اكتفى البرلمان الانجليزى فى اعلان الحقوق الذى أصدره بتبيان حقوق الانجليز التاريخية والقانونية حيال التاج ، بنت فرنسا اعلانها على مبادىء عالمية وجعلت من نفسها متحدثة فيه بلسان الجنس البشرى كله . ليس من المستغرب اذن أن تعتبر الثورة الفرنسية نقطة بدء جديدة لآمال وجهود كافة الأجناس والأمم فى حين لا تعد الثورة الانجليزية فى نظر غير الانجليز الا تعديلا مؤقتا للدستور اقتضته المصلحة . ولقد ظل « اعلان حقوق الانسان » طوال ربع قرن شعارا وميثاقا لجميع الثوريين ودعاة الاصلاح فى أوربا (١) .

---

(١) يوصفه لورد أكتون بأنه كان «أقوى من كل جيوش نابليون»· والنص الذى قدمناه منقول عن النص الوارد فى مقدمة دستور ١٤ سبتمبر سنة ١٧٩١ «انظر كتاب ل.ج ويكهام ليج: الوثائق المختارة الموضحة لتاريخ الثورة الفرنسية» المجلد الثانى الصفحات ٢١٦ — ٢١٨ (مطبعة كلارندون ١٩٠٥).

L. G. Wickham Legg: Select Documents Illustrative of the History of the French Revolution, vol II: pp. 216-218 (Clarendon Press, 1905).

وفى ٤ أغسطس ، وسط مظاهر الانفعال والحماسة البالغة ، أعلن الغاء « الاقطاع » وساهم أبناء الطبقات المميزة أنفسهم فى تحطيم الأساس القانونى لمركزهم . وكانت لحظة هذا الاعلان من لحظات الحماسة النبيلة حقا ، على أنه كان من العسير على المرء أن يحدد بالضبط مضمون ذلك « الالغاء » بعد أن تم اقراره . لقد كانت دلالته يومئذ أن يد الجمعية قد أصبحت مطلقة تماما فى العمل على اعادة تشييد البناء السياسى للبلاد وأن الميدان مفتوح أمامها لا تحده حدود .

وتعتبر مناقشات اعداد الدستور من أكثر المناقشات المعروفة فى تاريخ أوروبا تشويقا للنفس . فالأوان قد آن لترجمة فلسفة مونتسكيو وروسو السياسية الى نظم واقعية ، ولم يكن فى ماضى فرنسا الكثير مما يساعد المشرعين فى مهمتهم . وقد تأثر هؤلاء الى حد ما بدستور الولايات المتحدة ، ولكن النموذج الأول الذى نقلوا عنه — وان لم يعلنوا ذلك — هو الدستور الانجليزى . فان صوتا واحدا لم يرتفع بالمناداة بالنظام الجمهورى ، ونظام الملكية المستبدة الخيرة على النمط الروسى كان قد فقد سحره على النفوس ، فرأى الناس فى انجلترا المثل الوحيد العظيم على التوفيق بين الملكية والنظم الشعبية .

وقد دارت مناقشات حامية الوطيس حول المركز الذى يمنح للملك . وفى النهاية أعلن لويس السادس عشر « ملكا للفرنسيين بعون الله ومشيئة الأمم » وقد تأثرت الجمعية فى تحديدها لسلطته تأثرا كبيرا بنظرية مونتسكيو فى « فصل السلطات » أى بالفكرة القائلة بأن العناصر التنفيذية والتشريعية والقضائية فى الدولة يجب أن تكون منفصلة بعضها عن بعض انفصالا تاما . فتقرر أن يرأس الملك السلطة التنفيذية وأن يعين كبار ضباط الجيش ووزراء الدولة . ولكن الجمعية أبت أن تنهج على المنوال الانجليزى حيث يشغل الوزراء مقاعد

فى الجمعية التشريعية ويتوقف استمرارهم فى مناصبهم على تأييدها ، وذلك تمشيا منها مع النظرية السالفة الذكر وخوفا من اساءة استغلال الملك لسلطته . وهكذا نشأت هوة واسعة بين ممثلى الشعب ووزراء الملك . فاذا اختلفت أهدافهما تعذر ايجاد التوافق والانسجام بينهما اللهم الا باقامة الدعوى ضد الوزراء أو اعلان الثورة . ولقد انبرى ميرابو — الذى يعد أكثر الزعماء الشعبيين ميلا الى البناء والمحافظة — يثير هذه النقطة . وعبثا راح يطالب بتطبيق النظام الانجليزى . وباءت بالفشل أيضا محاولته اعطاء ملك فرنسا نفس الحق الذى يملكه التاج البريطانى فى نقض (فيتو) أى تشريع . فلم يحصل الملك الا على حق النقض الموقوت لا النقض المطلق ، أى حق تأخير أى اجراء لمدة دورة واحدة . ويعتبر المركز الذى حصل عليه الملك فى الدستور مركزا موفور العزة والنفوذ ينطوى على المزيد من السلطة الفعلية عما كانت تتمتع به الملكية البريطانية المعاصرة . ولكن لويس السادس عشر كان سليل أقوى ملوك أوروبا ، فبدا أن فى اعطائه مثل هذا المركز اذلاله أى اذلال . ولما كانت الأمور لم تستقر فى انجلترا بعد الثورة الا بتغيير الأسرة المالكة فقد كان هناك من يرى أن من الخير أن تحذو فرنسا حذو انجلترا فى ذلك أيضا ، وأن ينقل التاج الى بيت أورليان الذى اعتنق ممثله الدوق فيليب قضية الشعب بحماسة ظاهرة .

وتقرر أن يعهد بالسلطة التشريعية الى مجلس واحد مؤلف من ٧٤٥ عضوا ، وقد أثيرت فكرة تأليف مجلس ثان ولكنها هزمت عند التصويت بأغلبية ساحقة ، وقيل فى هذا الصدد ان المجلس الثانى لن يكون الا ملاذا للأرستقراطية القديمة أو مهدا لأرستقراطية جديدة . وفرنسا لم تكن فى مزاجها يومئذ براغبة فى وجود ارستقراطية من أى نوع . وقد أوقفت ممارسة الحقوق السياسية — على النقيض تماما مما جاء فى اعلان حقوق الانسان — على الذين يستوفون شرط الملكية ،

الأمر الذى يعنى استبعاد أغلبية أرباب الحرف فى المدن من دائرة الناخبين .

وأعيد تشكيل النظام القضائى الفرنسى فتقرر تعيين القضاة بطريق الانتخاب والغاء التعذيب واستحداث نظام المحلفين .

وقضى على نظام الحكم المحلى القديم قضاء مبرما . فتقرر الغاء مقاطعات فرنسا التاريخية القديمة مثل بريتانى ونورماندى وشامبانى وجيين وبورجاندى وبروفانس .. الخ وكلها أسماء لها فى تاريخ فرنسا مكانة تسمو حتى على مكانة يوركشير ولانكشير وكنت وكورنوال فى التاريخ الانجليزى . وقسمت فرنسا الى ثلاث وثمانين مديرية أطلقت عليها أسماء تتناسب مع المظاهر الطبيعية التى تميزها ولا تتصل بأى تراث أو تستثير فى نفوس الأهالى أية عاطفة اقليمية ، الأمر الذى يبدو فى نظر معظم الانجليز مؤسفا وان كان متعمدا مقصودا من جانب الفرنسيين . ذلك أن التقاليد المحلية البديعة كانت جزءا من الماضى الذى صممت الثورة على هدمه . كما أنها كانت تقف كذلك فى طريق الوحدة القومية التى صممت الثورة على تحقيقها والتى أبرزت فيما بعد فى شعار « جمهورية واحدة لا تتجزأ » .

وننتقل أخيرا الى السياسة التى اتبعتها الجمعية التأسيسية فيما يتعلق بالدين . كانت هذه المسألة تثير عواطف عنيفة ، فان الحركة الفكرية فى ذلك القرن كانت تتجه دائما الى مناهضة سلطة الكنيسة فى فرنسا ودعاواها . كما عادت الى الظهور بمجىء الثورة طائفتان دينيتان كان الاضطهاد قد أرغمهما على الاختفاء عن الأبصار . فكان فى الجمعية الكثيرون من البروتستانت وهؤلاء لم ينسوا القسوة والمظالم التى ترتبت على الغاء مرسوم « نانت » كما كان لليانسينيين Jansenists ـ الذين سموا أيضا بالنظاميين أو المنهجين Methodists فى الكنيسة الفرنسية ـ تمثيل قوى كذلك .

وكان هؤلاء حريصين على تسوية حسابهم القديم مع الكنيسةوالملكية التى قمعتهم بكل قسوة وحماقة . ثم ان ارتباط الكنيسة الوثيق بالتاج منذ بداية القرن السادس عشر قد أصبح الآن مصدر خطر عليها اذ أنه لم يعد الآن من المستطاع وقد انتهى عهد الملكية المطلقة أن تترك الكنيسة التى كانت سند هذه الملكية الأول دون تغيير .

وتناولت الخطوات الأولى أملاك الكنيسة . فتقرر الغاء العشور باعتبارها مظهرا من مظاهر الاقطاع . ثم بدا أن فى موارد الكنيسة الهائلة مخرجا من الافلاس الذى يهدد الدولة . فتقرر بناء على اقتراح من تاليران أسقف أوتن الذى يبدأ الآن حياته السياسية المدهشة ، أن تتسلم الدولة ثروة الكنيسة وتتولى بنفسها الانفاق على الخدمات الكنسية ودفع رواتب رجال الدين . وهكذا نزعت الدولة من الكنيسة أملاكها وأسبغت عليها صفة الرسمية فى قرار واحد . ثم خطت الجمعية الخطوة الأولى فى ذلك المنزلق الخطير الذى سيودى بفرنسا الى الافلاس مرة أخرى ، وذلك باصدارها أوراقا نقدية أو صكوكا سميت (Assignats) بضمان هذه الاملاك الجديدة . وقد ارتفعت بعض الأصوات بالاعتراض على هذا كله ، وان لم يظهر خطر وقوع انشقاق دينى . ثم انتقلت الجمعية الى اعادة تنظيم الكنيسة اداريا بعد أن أصبحت تنفق عليها الدولة كما أسلفنا . فتقرر الغاء الأسقفيات القديمة وانشاء أسقفيات جديدة تتمشى مع التقسيم الادارى الجديد . وأعيد تقدير رواتب رجال الدين فأنقصت رواتب الأساقفة بنسبة كبيرة فى حين رفعت رواتب صغار القساوسة بعض الشىء . والأسوأ من هذا كله أنه تقرر أن يكون تعيين الأساقفة والقساوسة عن طريق الانتخاب العام الذى يشترك فيه جميع المواطنين بغض النظر عن عقائدهم الدينية . وقد دافع البعض عن هذه الطريقة باعتبارها عودة الى تقاليد السلف ، ولكن البابا استنكر التدابير

الجديدة عنـدما عرضت عليه وهدد جميع المشاركين فيها بالحرمان الدينى . فلم تتراجع الجمعية ازاء الصراع المنتظـر ، بل ردت على استنكار البابا بأن فرضت على جميع رجال الدين أن يقسـموا يمين الطاعة « للملك والقانون والأمة » وكلمة القانون تشمل بالطبع هذه التدابير الجديدة التى عرفت باسم « الدستور المدنى لرجال الدين ». وقد انقسمت الكنيسة الى طائفتين ، الذين رفضـوا والذين قبلوا اليمين الجديدة أو المخالفين والدستوريين . وقد أبدت الدولة كرما بادىء الأمر نحو القساوسة الذين شعروا بأنهم لا يسـتطيعون أداء هذا القسم فمنحتهم معاشات خاصة .

ويجدر بنا أن نخص بالذكر عاقبتين كبيرتين من العواقب السيئة لهذه التشريعات الكنسية . فقد تسببت أولا فى انقسام الشعب الفرنسى على نفسه فى مشاعره نحو الثورة كما لم ينقسم من قبـل : وأعلن النبلاء « المهاجرون » الحرب عليها فعلا ، بيد أن معارضة هؤلاء لم تكن لتؤدى الا الى زيادة تماسك الشعب ككل . الا أن بذور الفرقة كانت قد بذرت فى شتى أرجاء البلاد ، ولن تلبث أن تؤدى فعلا الى نشوب حرب أهلية قبل مضى زمن طويل . ثم ان الملك الذى كان قد قبل الثورة فى شىء من التردد — ولكنه قبلها على أية حال — وجد نفسه الآن يقف منها موقف المعارضة الواضحة الصريحة . فقد كان شديد التدين بطبعه ولقد وقع على تشريعات الكنيسة هذه خوفا من عاصفة الاحتجاج التى كان من المحتم أن يثيرها اعتراضـه ، ولكن استنكار البابا أشعره بقلق بالغ ، فكتب يقول « انى أسأل الله أن يقبل توبتى العميقة لأنى وضعت اسـمى وان يكن على غير ارادتى على تصرفات تتعارض مع نظام الكنيسة الكاثوليكية وعقيدتها » .

وكانت التشريعات الكنسية من بين الأسباب الرئيسية التى دفعت الملك الى الهروب من باريس ، ذلك الهروب الذى جاء وبالا عليه .

فقد حاول يوم عيد الفصح عام ١٧٩١ التوجــه الى قصر سان كلو (على مسافة سبعة أميال من باريس) كيلا يضطر الى تلقى المناولة من يد قسيس « دستورى » ، فاعترض سبيله جمهرة من أبنــاء الشعب الذين ســاورتهم الشــكوك فى نواياه ورفض هؤلاء التراجــع أو الاستجابة لنداءات لافاييت نفسه . وقد صار جليا بعد تلك الحادثة أن الملك أصبح حبيس قصر التويليرى . وأخذت لهجة الصحافة تشتد فى اظهار العــداء نحوه والتشكك فى نواياه . وكان ادعاء النبــلاء المهاجرين بأنهم سرعان ماسيخفون لنجدته وتخليصه من أسره ، مصدر خطر جدى عليه ومبعث انزعاج شديد له . وكانت فكرة الهروب من باريس وتعديل الدستور قد تسلطت على ذهنه منذ زمن . وقد ألح عليه المركيز ميرابو قبل وفاته فى ابريل ١٧٩١ أن يتوجه علانية وفى اقدام الى « روان » ثم يستدعى الجمعية الى جانبــه ويدخل بعض التعديلات على الدستور ، على أن يفعل ذلك كله بطريقة لاتتيح مجالا للشك فى ولائه لمبادىء الثورة الأساسية . ولكن ميرابو لم يكن يحظى من الملك أو الملكة على السواء بأى ثقة حقيقية . فقد كانا يميلان الى اعتباره ديماجوجيا انحاز الى جانب الملكية لتحقيق مآرب شخصية . وقد قضى موته على كل احتمال لتنفيذ خطته . غير أن الملك أصبح الآن مصمما أكثر من أى وقت مضى على الهــروب من ســجنه فى باريس . وكانت خطته تقضى بأن يتصل بالجنرال بوييه الذى يرأس الجيوش الفرنسية على الحدود الشمالية الشرقية ثم يملى — بتعضيد هذه الجيوش — التعديلات التى يرغبها فى الدستور ولا سيما الغاء قوانين الكنيسة ومنح النبلاء سلطة أكبر ، وتقضى أيضا بأن يناشد دول أوروبا العظمى العون والتأييد اذا لزم الأمر .

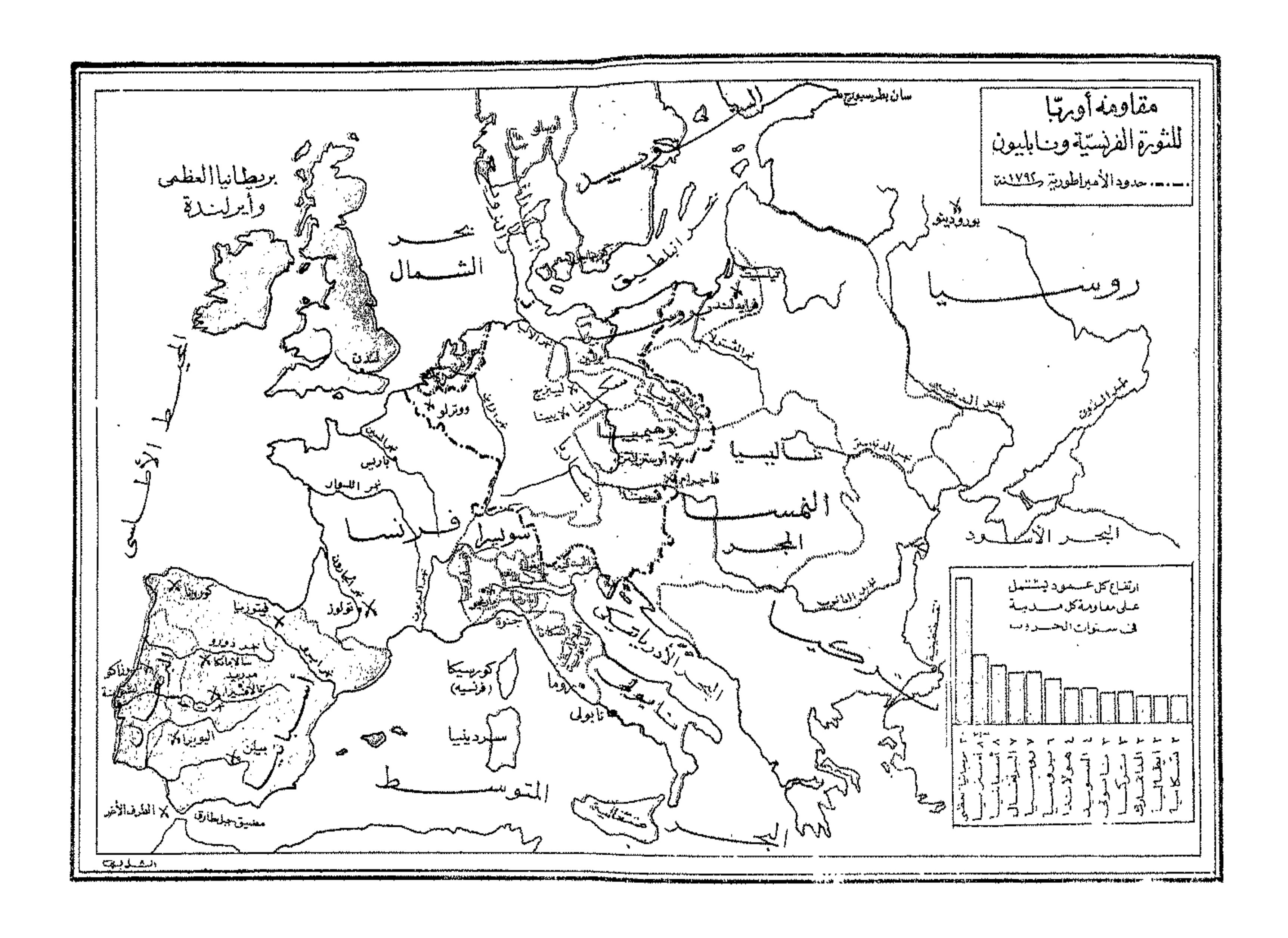
ولم تكن هذه الخطة مسرفة فى الخيال بالمرة بل انها كادت تنجح فعلا . فقد تمكن الملك من الهرب مع زوجته وأولاده من التويلرى متخفيا

فى زى تابع لمربية أولاده دون أن يلحظه أحد . وقد عثر على عـربة للسفر خارج المدينة مضت به حتى فارن وهى مدينة صغيرة على نهر ميز . ولو أنه بلغ الجانب الآخر من الجسر لصار فى مأمن ، ولـكن شخصيته كانت قد عرفت فاعتقله العمدة بالاشتراك مع صاحب منزل باحدى القرى المجاورة .

وقد ساد باريس انزعاج بالغ الشدة عندما ذاع نبأ هروب الملك . وكان قد ترك خطابا يعلن فيه رفضه قبول الدستور ، فشاع الاعتقاد بأن التدخل الأجنبى أصبح قاب قوسين أو أدنى . وقد هدأت أنباء القبض عليه من هذه المخاوف ولكنها أثارت مشاكل عويصة للغاية . فماذا يفعل الناس بملك هارب ؟ لقد أوحى المثل الذى ضربه جيمس الثانى الانجليزى بهروبه الموفق للبعض بأن لويس السادس عشر كان يحسن صنعا لو أنه تمكن هو أيضـا من الافلات . ونادى البعض بتعيير البيت المالك والاعتراف بدوق أورليان ملكا على البلاد ، ولكن أغلبية الجمعية قررت اعادة الملك الى باريس ووقفـه عن ممارسـة سلطاته ريثما تفرغ الجمعية من النظر فى التنقيحات الأخيرة للدستور ، على أن يعرض عليه الدستور بعد ذلك لاقراره ، فان أقره أصبح ملكا من جديد وان رفضه فقد عرشه وتعين على الجمعية أن تواجه مشكلة اختيار من يخلفه . كان هذا هو القرار الذى اتخذته الجمعية ، بيـد أنه كانت بالجمعية أقلية صغيرة تتمتع بتأييد قوى فى باريس طالبت بخلع الملك على الفور واعلان الجمهورية ولا يكاد المرء يعثر قبـل هذه الحادثة على أى أثر للمشاعر الجمهورية . ولكن أعضاء نادى الكورديليين أعدوا الآن عريضة بهذا المعنى ووضـعوها على مائدة فى الميدان المعروف باسم شان دى مارس لجمع التوقيعات عليها . ولم يكن فى الأمر ثمة مخالفة للقانون ، ومع ذلك فقد صدرت التعليمات لـ « باتى » عمدة باريس بتفريق الجمهور الذى تجمع حول العريضة

خوفا من اضطراب الأمن فاستدعى الحرس الوطنى لأداء هذه المهمة ، ولما أبى الجمهور أن يتفرق بعد توجيه أول نداء له بذلك أطلق عليه الحرس وابلا من النيران ، ففقدت أرواح عديدة من جراء هذه الطلقات وفى الهرج والمرج الذى أعقبها . وقد عرف هذا الحادث باسم مذبحة شامب دى مارس (١٧ يوليو ١٧٩١) . وهو يعد نقطة البدء للحركة التى حولت فرنسا الى جمهورية بعد فترة لا تتجاوز العـام بكثير . وأصبح باتى الذى أصدر الأمر باطلاق النار هدفا لمقت الجماهير .

وفى سبتمبر ١٧٩١ تم وضع الدستور فقبله الملك وبدا أن الثـورة قد انتهت . فقد تم اقرار دستور مشابه لدستور بريطانيا العظمى دون ماعنف كبير أو خسائر فادحة فى الأرواح . وتنبأ الكثيرون من المراقبين الأجانب لفرنسا بحياة دستورية هادئة .



مقاومة أوربا
للثورة الفرنسية ونابليون
.ـ.ـ. حدود الامبراطورية سنة ١٧٩٢
ارتفاع كل عمود يشتمل
على مقاومة كل مدينة
فى سنوات الحروب
بريطانيا العظمى
وأيرلندة
بحر
الشمال
روسيا
سان بطرسبورج
بورودينو
لندن
ووترلو
باريس
فرنسا
سويسرا
بوهيميا
تاليا
النمسا
المجر
البحر الأسود
كورسيكا
(فرنسيه)
سردينيا
روما
نابولى
المتوسط
كورونا
فيتوريا
تولوز
سالامانكا
مدريد
تالافيرا
البويرا
بيلان
مضيق جبل طارق
الطرف الأغر
ليبزيج
أوسترلتز
فاجرام
فيينا

الفصل الثالث
الثورة بعد نشوب الحرب العامة

ان فهم الثورة الفرنسية يصبح مستحيلا اذا نحن عزلنا تطوراتها الداخلية عن ظروفها الخارجية . فكلما أمعنا النظر فى سيرها وضح لنا أن مرحلتها المتأخرة قد توقفت كلها على الحرب الكبرى التى نشبت واستمرت دون أن تترك أى فسحة من السلام الحقيقى طوال ثلاثة وعشرين عاما . وسنتناول بعد هنيهة أسباب الحـرب وكيف حلت بفرنسا ، ولكن علينا أولا أن نبحث حالة البلاد عند نشوبها .

انعقدت الجمعية التشريعية لاول مرة فى خريف عام ١٧٩١ . وقـد حظر كما أسلفنا (١) على أعضاء الجمعية التأسيسية أن يدخلوا فى الجمعية الجديدة . وبذلك تركت مقادير فرنسا فى يد جماعة من الرجال ليس لهم صيت ذائع أو ارتباطات حزبية محددة . فـكان أن جاءت الجمعية الجديدة ضعيفة واهية ، وأصبح النفوذ الحقيقى على مجرى الحوادث يكمن فى الصحف والأندية أكثر مما يوجد بين أعضائها .

ان الكثيرين من أعضاء هذه الجمعية الجديدة لم ينتسبوا قـط بصورة واضحة الى أى حزب سياسى معين ، ومع ذلك فيمكننا أن نشاهد وجود التكتلات التالية فى صـفوفها : حزب المحـافظين أو اليمينيين الذين عرفوا فى الجمعية باسم « الفويان » Feuillants وكان يمثل داخل الجمعية آراء لافييت خارجها ، ولعله كان أضـخم الاحزاب أولا ولكن نفوذه سرعان ما تقلص بالقياس الى الاحـزاب

---

(١) راجع صفحة ٣٢ من الاصل الانجليزى

الاخرى . أما الجانب اليسارى أو الراديكالى من الجمعية فلم يلبث أن انقسم الى جماعتين ، أولاهما عرفت باسم « الجيروند » لأن الكثيرين من زعمائها كانوا من اقليم الجيروند ، ومعظم هؤلاء من الشبان المتحمسين الذين يملكون ناصية البيان . ويعتبرون الجمهورية مثلهم الأعلى وان رضــوا بالملكية مؤقتا . وكان التأييد الرئيسى لهم يأتى من الأقاليم والمناطق الريفية خارج باريس ، وقد أصبحوا فيما بعد ممثلى الطبقة الوسطى بالذات ، وان كانوا قد اعتبروا بادىء الأمر من الثوريين الخطرين الذين يخشى بأســهم ، وزعماؤهم الرئيسيون هم « بريسو » و « بيزو » و « فرنيو » و « رولان » .وكانت زوجة الأخير تتمتع على الدوام بنفوذ هام فى مجالس الحزب ، وقد اتجهت اليها الأنظار بسبب شخصيتها ونهايتها المفجعة ، بأكثر مما اتجهت الى أى من هؤلاء الأربعة . ولم يكن اليعاقبة يختلفــون فى شىء بادىء الأمر عن الجيروند . وقد سبق أن أشرنا الى النادى الذى سمى حزب اليعاقبة على اسمه وكان نفوذ هذا الحزب فى باريس أقوى منه داخل الجمعية . وكان زعماؤه روبسبيير ومارا ودانتون أصــحاب أقــوى نفوذ سياسى فى المدينة .

وقد كان من حق الملك أن يعين الوزارة دون اعتبــار لرغبــات الجمعية ، فاختار وزارته الأولى من حزب المحافظين أو « الفويان » وسرعان ما نشــأ بينه وبين الجمعية احتكاك عنيف . كان هروبه قد قضى على شعبيته السابقة وبات الكثيرون ينظرون بارتياب الى نفوذه ويتشككون فى أخلاقه . وكان كل مايفعله يؤول على أسوأ وجه . فلمــا رفض الموافقة على قانون يفرض عقــوبة الموت على النبــلاء المهاجرين الذين لا يعودون الى البلاد قبل يناير ١٧٩٢ ، اعتبر ذلك منه مظهرا من مظاهر العطف على أعداء الثورة ، وتكرر نفس الشىء حين رفض التصديق على قانون بالغ الصرامة فى معاملة القساوسة

الممتنعين عن أداء اليمين الدستورية . وقد بلغ الاحتجاج على تصرفاته من الشدة حدا جعله يؤثر السماح لوزارة المحافظين بالاستقالة وتعيين وزارة جديدة من الجيروند بدلا منها . وقد شغل « رولان » منصب وزير الداخلية فى الوزارة الجديدة ، الا أن الاسم الذى كانت له الأهمية الأولى بين وزرائها هو اسم « ديموريه » الذى أسندت اليه ادارة الشئون الخارجية للبلاد وان لم تكن له أية صلة وثيقة بحزب الجيروند . ولما كانت الشئون الخارجية قد أصبحت تحتل فى تلك الفترة العصيبة مكان الصدارة ، فيجدر بنا أن ننصرف الآن اليها وأن نرى كيف زجت الظروف بفرنسا فى حرب خارجية .

لقد اختلف الرأى فى تحديد سبب تلك الحرب منذ نشوبها حتى يومنا هذا ، فالبعض قد عزاها الى أطماع الثورة واندفاعها بينما نسبها البعض الآخر الى غيرة الدول العظمى وخوفها . ولقد كان فى الموقف الأوروبى حقا الكثير من عوامل الخطر ومع ذلك لم يكن ثمة من هو على استعداد ، على الأقل بادىء الامر ، للدخول فى حرب مع فرنسا ، وفرنسا من جانبها قد استنكرت فى دستورها فكرة الحرب لغير الأغراض الدفاعية استنكارا صريحا . أما بريطانيا فقد بدت عازفة فى البداية عن استئناف صراعها القديم مع فرنسا ، اذ كان الشعور السائد فى انجلترا عند بدء الثورة هو العطف عليها . فقد بدا أن فرنسا تقلد النموذج الانجليزى وتختار لنفسها شكلا من أشكال الحكومة يشابه الشكل الانجليزى الى حد بعيد . ولقد ارتفعت بعض الأصوات حقا بالتحذير — ولا سيما صوت « بيرك » معلنة أن روح الثورة الفرنسية مغايرة تماما لروح الحركة الانجليزية فى عام ١٦٨٨ ، وانها تهدد بعقائدها وبالمثل الذى تضربه النظام المستتب فى كافة أرجاء أوروبا ، ولكن هذه التحذيرات كان يقابلها من ناحية أخرى حماسة الشعراء ورضاء الساسة . فقد أشاد الشاعران « وردزورث »

و « كولريدج » بالثورة عند نشوبها وتغنيا بما بعثته فى نفسيهما من آمال كبار . فقال وردزورث « انها سعادة لاتوصف أن يعيش المرء ليرى ذلك الفجر » وان « النعيم كل النعيم فى أن يكون المرء شابا » وبلغ من ايمان كولريدج بعظمة الحركةالتىتجتاح فرنسا أنه « نكس رأسه وبكى اسم بريطانيا » لانها وقفت منها موقف المعارضة . وفى صفوف الساسة كان « بيت » على استعداد تام للتعاون مع فرنسا ، ورحب بهـا « فوكس » باسم طائفة من الاحرار (whigs)، بسرور بالغ . وقد كان من دواعى قلق الحكومة الانجليزية اذ ذاك أن حركة ثورية قامت فىهولندة حيثأخذتالأحزابالثورية تهدد سلطانالحاكم فتحالف مع بريطانيا العظمى وبروسيا . فلما تمكنت بروسيا من قمع هذه الحركة فى يسر وسهولة قلت الأهمية التى كان يعلقها الناس على الخطر الآتى من فرنسا . وعلى هذا يتعين علينا أن نتجه بأبصارنا الى أوروبا الوسـطى لنعثر على الحـوادث التى لن تلبث أن تؤدى الى نشوب الحرب ، وان كنا نستطيع أن نلمس هنا أيضا الرغبة القوية فى تجنبها . كان تنظيم الامبراطورية الرومانية المقدسـة يفتقر الى الكفاية الى أقصى حد . ولم تكن بها اهيئة تستطيع أن تؤلف جيشـا أو تفرض ضريبة . فقد كانت الامبراطورية حقا بناء مفككا واتحادا لا حول له ولا طول ، وقوة ألمانيا لم تكن تكمن فى الامبراطورية كما شاهدنا فى الفصل الأول ، وانما فى دولها متفرقة ، ولاسيما فى النمسا وبروسيا . وكانت النمسـا وبروسيا غريمتان قديمتان بينهمـا غيرة دائمة وعداء مقيم . ولما كانت ذكرى حرب السنوات السبع والمهانة التى حاقت بالنمسا لاتزال توغر الصدور فى فينا ، لم يكن التعاون بين الدولتين ميسورا . زد على ذلك أن النمسا كانت مشغولة بمهام أخرى كانت تبدو لها يومذاك أخطر وأدعى لاهتمامها من مهمة قمع الحركة الثورية فى فرنسا . فان حكم جوزيف الثـانى كان قد زلزل الأحوالالاجتماعية والسياسية فى مختلف أنحاء الامبراطورية المفككة،

فصارت الحاجة المباشرة هي احلال الهدوء محل الهياج واشاعة الرضى محل السخط والمعارضة . وكانت بلجيكا تزخر يومئذ بالاحتجاج الثائر على التعديلات المقترحة ، وهنغاريا أمست على شفا الثورة . بل لم يكن ثمة اقليم تقريبا فى الممتلكات النمساوية كلها الا وقد عمه الاضطراب بصورة أو أخرى . فكانت النمسا على ذلك أزهد ماتكون فى اضافة عبء حرب خارجية الى أعبائها الداخلية العاجلة . ثم ان الأزمة البولندية كانت تبدو فى نظرها أهم من تطور الأحداث فى فرنسا . ولقد سبق أن شاهدنا طرفا من الحالة فى بولندة وقلنا انها كانت أسوأ بكثير من كل ناحية من الحالة فى فرنسا ، كما شاهدنا كيف أن ضعفها قد عرضها فى عام ١٧٧٢ الى التقسيم الأول على يد بروسيا والنمسا وروسيا . ولكن فرص بولندة قد تحسنت الآن كثيرا عما كانت عليه فى تلك السنة . كان ستانيسلاس قد نصب على العرش البولندى فى عام ١٧٦٤ بفضل نفوذ قيصرة روسيا كاترين الثانية ، وقد كان عشيقها المفضل ولكنه أظهر فى مهمته الجديدة همة صادقة وحرصا حميدا على الصالح العام . وقد رأى أن لا رجاء فى مستقبل بولندة طالما احتفظت بدستورها الموروث الذى يقضى عليها بالفوضى ويعرضها لعدوان من جاراتها لاتملك له دفعا ، وأن الضرورة الأولى هى اعطاء البلاد دستورا يتسم بالكفاية الحقيقية ويعصف بامتيازات النبلاء الفوضوية ، وتمكينه شخصيا من اصدار القوانين وتوجيه الشئون الخارجية للبلاد ، فتقدم فعلا بهذا الدستور وحصل له على قدر لابأس به من التأييد ، ولكن الدستور القديم كان يمكن أية معارضة مهما تضاءل شأنها من القضاء على أى مشروع ولو حاز تأييدا قويا . فلما وجد الملك أنه ليس ثمة أمل فى امرار الدستور بالطرق القانونية قرر أن يأخذ المسئولية على عاتقه وأن يخرق الدستور لمصلحة الشعب والدولة . وفى عام ١٧٧١ فرض الدستور المعدل مستعينا بقوات الدولة المسلحة . فبدا حينذاك أن بولندة على أبواب عهد جديد عامر

بالرجاء ، ولكن مفتاح الموقف كان فى الحقيقة الجوهرية التالية : ألا وهى أن جاراتهـا لم يردن لها أن تقوى وتزدهر ، اذ كن أنفسـهن السبب فى ضعفها وكن راغبات أشد الرغبة فى ابقائها على حالها بل وزيادتها ضعفا على ضـعفه ، فما ان وضع الدستور الجديد حتى شرعت بروسيا والنمسا وروسيا تفكر فى معاودة التدخل والتقسيم .
وكانت كاترين الثانية قيصرة روسـيا هى بلا ريب صـاحبة النفوذ الأقوى فى الشئون البولندية بين هذه الجارات . فلئن كان التردد قد ساور الآخرين فانهـا كانت تعرف ماتريد حق المعـرفة . فقد كانت تسعى عن وعى وقصد الى اقحام الدول الأخرى فى شئون فرنسا حتى تتمكن هى أثناء انشغالهم غربا من وضع يدها على المقاطعات البولندية التى تشتهيها . ولم تكن الدول الأخرى بغافلة عن نواياها . ولقـد كان لوجود مركزين مختلفين يتنازعان اهتمام أوروبا أكبر الأثر فى العلاقات الدولية فى تلك الشهور والسنوات البالغة الأهمية . فبينما كانت الدول تراقب بانزعاج تطور الحركات الثورية والجمهورية فى باريس ، كان يعتورها قلق أعنف ازاء مايجرى فى بولندة . فلئن كان من المحتمل أن تهدد حوادث فرنسا نظم هذه الدول أو سلطانها ، فانها كانت أشد حرصا على ألا تقطع أوصال بولندة على نحو يؤدى الى الاخلال بالتوازن الدولى فى أوروبا وذلك بأن تحصل دولة من الدول العظمى على نصيب الأسـد من الأراضى البولندية . ولهـذا جعلت روسيا والنمسا وبروسيا ترقب بعضها بعضا بغيرة بالغة ، فحال ذلك بينها وبين التعاون بصورة فعالة ضد فرنسا . وهـذا أحد الأسرار التى تفسر لنـا النصر المذهل الذى حققتـه الثورة الفرنسية ضـد التحالف الأوروبى . . . .

كانت العلاقات بين فرنسا والامبراطورية قد أصبحت شائكة منذ فترة . ذلك أن القرارات التى تبـدو لأول وهلة داخلية بحتـة قد

أثرت في علاقات فرنسا الخارجية . فقد حرم الغاء الاقطاع مثلا الرعايا الألمان الذين يملكون أراضي داخل الحدود الفرنسية من الفروض الاقطاعية التي كانوا يحصلونها . كما حرمت التشريعات الدينية التي أصدرتها الجمعية أسقفي كولون وماينز من العشور التي كانا يتلقيانها من الرعايا الفرنسيين . وأخرج تقسيم أسقفيات فرنسا الجديد من طاعتهما أبرشيات ومناطق ظلت تتبعهما أمدا طويلا . فلم يكن مناص من أن تولد هذه المسائل كلها الاحتكاك بين فرنسا ورعاياها الألمان ، ومن أن تدافع الامبراطورية كما يقضي واجبها عن مطالب الألمان الذين زعموا أنهم أصيبوا بالضرر . ثم انه كانت للفرنسيين أيضا شكاواهم ضد الامبراطورية . فقد رأينا كيف أن عددا كبيرا من أمراء فرنسا ونبلائها قد هربوا اثر سقوط الباستيل وعقب حوادث أكتوبر ١٧٨٩ خوفا أو اشمئزازا من الثورة المقيتة ، وعرفنا أن معظمهم قد استقروا في الولايات الألمانية القائمة على حدود فرنسا الشرقية . وقد راح هؤلاء يحتفظون في « تريبه » و « ماينز » بمظاهر البلاط وأنشأوا يجندون الجند ويدربونهم ، ويصدرون شتى البيانات ويتحدثون عن عودة العهد القديم وشيكا . فكان من المستحيل أن تسكت فرنسا على هذا التحدي مهما كان قمينا بالازدراء . وقد ناشدت الامبراطور ليوبولد أن يشتت هؤلاء المهاجرين فأعرب عن استعداده للقيام بذلك . ولكنهم لم يغادروا الأراضي الألمانية فعلا فظلت اقامتهم هناك مصدر شكوى لفرنسا .

ثم جاء هروب الملك من باريس والقبض عليه بفارن وعودته وسجنه واذلاله . ولم يكن من المستطاع أن ينظر ليوبولد الى هذه الأحداث دون قلق ولو على الأقل لأن ماري انطوانيت كانت شقيقته . ومع ذلك فان الرغبة في التدخل العسكري لم تراوده قط . فقد كان يأمل في أن يوفق الى عمل شيء للزوجين الملكيين الفرنسيين عن طريق

الديبلوماسية التى تهدد بالحرب وان لم تقصدها بالفعل . ففاتح فى الأمر فردريك وليم ملك بروسيا الذى كان رجلا غريب الشخصية مختل الذهن نوعا ما ، وان يكن سريع الاستجابة لنداء العاطفة وأفكار الفروسية . وتم اجتماعهما بقلعة بيلنتز (٢٧ أغسطس ١٧٩١) القريبة من درسدن على نهر الألب . وهناك سويا أولا الخلافات البارزة العديدة بينهما التى حالت دون اتفاق البلدين ، ثم انتقلا الى الشئون الفرنسية فقررا اصدار تصريح — سمى بتصريح بيلنتز — يعلنان فيه أن عودة النظام الى فرنسا مسألة تهم جميع الدول الأوربية وأنهما على استعداد « اذا تعاونت معهما الدول الأوروبية الأخرى » للتدخل للحصول للويس ومارى انطوانيت على مركز أفضل . وقد بدا فى أول الأمر أن هذا التصريح يحمل وراء العبارات الديبلوماسية الحذرة تهديدا خطيرا . الا أنه لم يكن فى الحقيقة كذلك ، لأن ليوبولد لم يكن ينوى أن يتبعه بأى اجراء . فقد ترك لنفسه عندما اشترط تعاون دول أوربا الأخرى ثغرة يستطيع أن ينفذ منها لأنه كان يعلم أن بريطانيا لن تتعاون . وقد كتب فى خطاب الى وزيره يقول « ان كلمتى « عندئذ » و « فى تلك الحالة » كانتا لى شريعة ونبراسا فاذا ما خذلتنا انجلترا لم يعد هناك مجال للتدخل » . ولكن الفرنسيين لم يدركوا المغزى الديبلوماسى الخفى للتصريح ، فبدا لهم أن ملكيات أوربا تهدد بالتدخل فى شئون فرنسا الداخلية ، ولم يكن حدوث التهديد لمصلحة مليكهم بالذى يدفعهم الى الشعور بالمزيد من العطف عليه .

وفى تلك اللحظات العصيبة بالذات جاءت وزارة الجيروند الى الحكم . وكان الجيروند عامة من أنصار الدخول فى حرب أجنبية . فمدام رولان كانت ترى أن الحرب هى الكفيلة باثارة حماسة فرنسا للنظام الجمهورى واتاحة الفرصة لقلب الملكية . وكان دى موريه

وزير الشئون الخارجية يحلم بعقد تحالف ديبلوماسي يتيح لفرنسا فرصة رائعة للفوز . اذ كان يأمل في الحصول على تأييد بريطانيا وبروسيا ، بل انه قد تبادر الى ظنه أن الجيوش الفرنسية قد تجد في دوق برونزويك البروسي قائداً يمضي بها نحو النصر بتطبيق أفضل تقاليد فردريك الأكبر الاستراتيجية . وقد أخذت حماسة فرنسا تتأجج كلما تقدمت المفاوضات مع بروسيا ، وانتشر الاستعداد للحرب ، ولم تظهر أية معارضة صريحة لها الا في صفوف أولئك الذين أصبحوا فيما بعد من اليعاقبة المتطرفين أمثال مارا ودانتون وروبسبيير . وقد ألقى الأخير خطابا يعد أحكم الخطب التي ألقيت طوال عصر الثورة عارض فيه فكرة الحرب معربا عن رأيه في أن النصر المباشر بعيد الاحتمال وان من المستبعد تماما أن تأتي عواقب الحرب في صالح الثورة سواء في فرنسا أو أوربا . ولكن خطابه صادف آذانا صماء ، اذ رحب الجميع بما في ذلك الملكيين أنفسهم بفكرة الحرب . فقد كان هؤلاء يعتقدون أن الحاجة الى تقوية السلطة التنفيذية ستتجلى في الحرب فيهيىء ذلك السبيل لاعادة السلطة الملكية الى شيء من قوتها السالفة . وفي ظل تلك الظروف أخذ التوتر والمرارة يسودان جو المفاوضات مع النمسا ، ومات الامبراطور ليوبولد الثاني في أول مارس سنة ١٧٩٢ ليخلفه فرنسوا الثاني الذي كانت تعوزه خبرة سلفه ورجاحة رأيه . فلم تلبث مطالب الخارجية الفرنسية أن رفضت . وفي ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٢ توجه لويس السادس عشر الى الجمعية تطبيقا لأحكام الدستور الجديد وهناك أعلن والدموع تتساقط من عينيه الحرب على فرنسوا لا بوصفه امبراطورا وانما باعتباره ملكا لهنغاريا وبوهيميا .

وخابت آمال ديموريه في عقد المحالفات ، فقد وقفت بريطانيا بمنأى عن النزاع بعض الوقت ، أما بروسيا فقد انضمت الى النمسا . ورسم

الفرنسيون خطة للهجوم على الأراضى المنخفضة المجاورة التابعة للنمسا حيث كانوا يأملون فى أن ينال غزوهم التأييد والعطف نظرا لوجود الحركات الثورية التى كانت تضطرم هناك فعلا . الا أن مصير هذه الحملة الاولى فى حروب الثورة كان فشلا ذريعا . فقوات فرنسا كانت تفتقر الى النظام الدقيق ، والكثيرون من الضباط لم يضمروا ولاء صادقا للثورة ، وخطط الحملة كانت بعيدة عن الأحكام . وقد تغلغلت الجيوش الفرنسية فى أراضى بلجيكا لمسافة بسيطة ولكن سرعان ماتراجعت الى الحدود فى فوضى واضطراب ، مما اضطر الفرنسيين الى الاعتراف بفشل هذه الحملة التى علقوا عليها الآمال الكبار . وقد كان لهذا الفشل رد فعل مباشر فى باريس ، فقد ساورت الوزراء والشعب الشكوك فى صدق نوايا الملك ، ونسبوا الهزيمة لا الى نقص الاستعداد وانما الى خيانة الملك وتدبيراته . وفى ٢٠ يونيو ١٧٩٢ اقتحمت قصر التويلرى الضعيف الحراسة جمهرة من الباريسيين الذين أحاطوا بالملك والملكة فأهانوهما بشتى الهتافات والمطالب ، واحتلوا القصر لفترة وجيزة الى أن أخرجهم الحرس الوطنى عقب وصوله . والحادث فى ذاته عديم الأهمية ، لكنه يرسم لنا مع ذلك صورة مصغرة للأسباب التى أدت الى سقوط الملكية بل ومجىء عهد الارهاب . فقد كانت البلاد مشتبكة فى حرب خارجية خطيرة وقد تعرضت للهزيمة على حدودها فشعر الناس جميعا أن الشرط الأول للفوز هو أن تتوفر لدى رئيس الدولة العزيمة الكافية والرغبة الصادقة فى تحقيق النصر . وكانوا يعتقدون أن الملك اما فاتر النفس واما خائن . لذلك بدا لهم من الضرورى أن يفرضوا عليه انتهاج سياسة أقوى همة أو أن يبعدوه اذا تعذر ذلك من حكم فرنسا .

وكانت الجمعية التشريعية عاجزة تماما عن السيطرة على الموقف رغم أنه لم يمض على انتخابها عامان ، فان قادة الرأى العام الحقيقيين لم يكونوا بين أعضائها . فراحت تنظر الى تطورات الحوادث بعين

القلق والعجز . ولا ريب فى أن الشعور السائد بين جماهير الشعب فى فرنسا عامة ولا سيما بين الفلاحين فى المناطق الريفية — كان محافظا أكثر منه راديكاليا . فالثورة قد فعلت الكثير لهؤلاء الفلاحين حتى بدا لهم أنها قطعت شوطا بعيدا لاداعى لتجاوزه . وكانوا مرتبطين — بحكم التقاليد — بالملكية فلا ينتظر منهم التدخل العنيف لاسقاط العرش . لم يعد اذن ثمة مفر من أن يأتى هذا التدخل الذى بدا ضروريا لانقاذ فرنسا — وربما كان ضروريا بالفعل — لا من الجمعية ولا من شعب فرنسا ككل وانما من أقلية حازمة . وقد وجدت هذه الأقلية الحازمة فى صفوف اليعاقبة .

وكان هؤلاء فريقا من الرجال مختلفى المنشأ ولكن المنتسبين منهم الى الطبقات العاملة كانوا قليلين ان هم وجدوا على الاطلاق . وكانت بين اليعاقبة خلافات فى الرأى حول نقاط عديدة أدت فيما بعد الى ظهور صراع عنيف بينهم ، الا أنهم كانوا متحدين فى حب فرنسا وفى اخلاصهم المتعصب لمبادىء الثورة ذلك الاخلاص الذى يكاد يبلغ مبلغ التدين .

وكان ضعف الحرب الخارجية والخطر الذى تحمله فى طياتها على مبادىء الثورة هو الذى وطد عزمهم على اسقاط العرش والاستيلاء على الحكم لمصلحة الثورة ومصلحة فرنسا وهى فى نظرهم واحدة . لقد كانت الطبقة الوسطى — أو البورجوازية — هى المسيطرة على الثورة حتى الآن ، ولكن السلطة أخذت تنتقل بسرعة الى أيدى أولئك الذين يستندون الى تأييد جماهير باريس ، وكانت الحرب هى السبب فى احداث هذا التغير بكافة نتائجه التى لا تعد ولا تحصى .

كان الموقف العسكرى قد تدهور منذ فشل الحملة البلجيكية ، فقد انضمت بروسيا الى النمسا وتقرر أن يتولى دوق برونزويك البروسى قيادة القوات النمساوية والبروسية الى داخل فرنسا . ويمكن للمرء أن يتخيل الهياج والانفعال الذى عم باريس فى تلك

الظروف . كانت القــوات التي جمعت فى الأقاليم تمر فى كثير من الأحوال بالعاصمة فكان مرورها يتخذ فرصة للقيام بمظاهرات وطنية صاخبة ، وقد حدث ذلك بوجه خاص عندما وصلت قوات مارسيليا فى ٣٠ يوليو وهى تنشد لأول مرة نشيد « المارسيليز » الوطنى .

وانه لما يستحيل علينا تماما أن ننفذ الى جميع الاستعدادات التى اتخذت للضربة الوشيكة الوقوع ، ولكننا نعلم أن « لجنة للثورة » قد تألفت من نفــر من اليعاقبة الأقل شــهرة برياسة دانتون الذى سيبرز من الآن فى قصة الثورة ، وان مجالس الأقسام الثمانية والأربعين التى تقابل — تقريبا — الأحياء فى المدن الحديثة قد اعتبرت مجالس « دائمة » بمعنى أنها تستطيع الاجتماع دون الحصول على اذن من المجلس البلدى ، وان الحزب الثورى المتطرف قد صارت له الغلبة فيها . ونعلم كذلك أن أبواب الحرس الوطنى الذى كان يعد فى وقت من الأوقات دعامة الطبقة الوسطى ، قد فتحت لجميع المواطنين ، وأن روحه قد أصــبحت أكثر ثورية من ذى قبل بكثير . وفى ١١ يوليو أعلنت البلاد « فى خطر » . وزاد من هياج الخواطر رفع علم أسود فى ٢٢ يوليو على دار البلدية Hotel de ville . وفى ٣ أغسطس نشر بيان دوق برنزويك قائد جيوش الغــزو الذى هدد فيه باريس بالدمار التام اذا تعرض الملك لأية اهانة جــديدة ، الأمر الذى أثار — بطبيعة الحال — روحا عدوانية أقوى فى صفوف الشعب الباريسى

كان الملك يقيم مع الأسرة المالكة طوال تلك الفترة بالتويلرى . وكانت حراســة القصر مســندة من جهة الى رجال الحرس الوطنى الذين أصبح ولاؤهم الآن مشكوكا فيه للغاية ، ومن جهة أخرى الى حماة العرش التقليديين وهم رجال الحرس السويسرى المخلصــون وان كانوا من المرتزقة . وقد جاءت الضربة المتوقعة فى الساعات الأولى من صباح ١٠ أغســطس سنة ١٧٩٢ . ففى الواحدة صــباحا توجه

الأعضاء الجدد الذين انتخبتهم مجالس الأقسام الى مقر المجلس البلدى وعزلوه ، وان احتفظ الكثيرون من أعضائه القدامى بعضوية المجلس الجديد . ثم أرسل هذا المجلس الجديد فى طلب « ماندا » قائد حامية القصر للمثول أمامه فى دار البلدية . وقد اعتقل فور وصوله ثم قتل بعد ذلك بقليل . وفى الصباح الباكر استعرض الملك رجال الحرس الوطنى ولكن صيحاتهم أظهرت له مدى ضعف التأييد الذى يمكنه أن ينتظره منهم ساعة الهجوم . فقرر فى الثامنة والنصف صباحا ، عندما بدأ خطر الهجوم يتجلى فعلا ، أن يترك القصر ليضع نفسه فى حماية الجمعية . وقد سمح له بالدخول فى قاعة المناقشة ، وأفسح له وللملكة والأطفال مكان فى مقصورة الصحفيين . وأثناء غيابه وقع الهجوم على القصر فقد اخترق الجنود والجمهور الحدائق ، ولما اقتربوا من القصر قوبلوا بوابل من نيران الحرس السويسرى . وكان من المحتمل جدا أن يتم اخراجهم من الحدائق لولا أن الملك سمع طلقات النيران من ملجئه فأرسل أوامره الى السويسريين بالاستسلام لأن الصراع لم يعد له أى معنى . فخفضوا أسلحتهم وبدأوا فى الانسحاب ، ولكن الكثيرين منهم قتلوا بيد مقتحمى القصر . وقد توجه الجمهور الثائر بعد الاستيلاء على القصر الى الجمعية حيث طالب بخلع الملك واعلان الجمهورية . فأشار البعض الى استحالة ذلك فى ظل دستور سنة ١٧٩١ ، فتقرر ايقاف الملك عن ممارسة وظائفه ، وتشكيل جمعية جديدة تسمى « المؤتمر الوطنى » بوساطة الاقتراع العام لجميع البالغين من الرجال فى أقرب فرصة . وترك أمر البت فى التعديلات الدستورية اللازمة الجديدة ، ولكن الجمهورية كانت قد قامت فعلا فى كل شىء عدا الاسم .

لقد انقضى مايربو قليلا على ثلاثة أسابيع بين سقوط الملكية ووقوع مذابح سبتمبر ، ومن الأهمية بمكان أن نتابع تطور الأحداث

فى تلك الفترة . فأولا عينت الجمعية وزارة جديدة معظم أفرادها من حزب الجيروند ، واختير رولان وزيرا للداخليـــة ، ودانتــــون وزيرا للعدل . ولا يفوتنا أن نذكر أيضا أن لافاييت حاول اثر تلقيه أنبـــاء سقوط الملك اثارة احتجاج مسلح بين القوات المسلحة . بيد أنه تبين أن رجال هـــذه القوات لا يميلون الى تأييد الملكية ضد الحـــركة الثورية الجديدة ، وسرعان ماشـــعر بأن الخطر محـــدق به ، فترك الجيش وعبر الحدود ، وانتهى دوره فى تاريخ الثورة . أما فى باريس فان الكوميون أو المجلس البلدى الجديد اكتسب أهمية تفوق أهمية الجمعية التشريعية التى هجرها معظم أعضائها ولم يبق لها فى الوجود الا أيام معدودة . وكان روبسبيير هو صاحب النفوذ الأكبر فى المجلس البلدى . وقد طالب باحالة التحقيق فى الجـــرائم التى ترتكب ضـــد الدولة الى هذا المجلس ، فلم يكن ثمة مناص من اجابة مطلبه . كما عينت أيضا « لجنة الاشراف » وهى لجنة تنفيذية خاصـــة كان مارا الشخصية الموجهة فيها .

وأخذت الانباء الواردة من الحدود تتدهور من سىء الى أســـوأ على مر الأيام . فعرف فى ٢٦ أغسطس نبأ سقوط « لونجـــوى » ، وراجت اشاعة سابقة لأوانهـــا بأن حصن فردان العظيم قد سقط هو أيضا . فأخذت حمى الشك التى تجتاح باريس تتفاقم يوما بعد يوم . وفى ٢٨ مارس طلب دانتون بوصفه وزيرا للعدل اعطاءه سلطة تفتيش البيوت فى باريس بحثـــا عن أعداء الثورة ، وهكذا تم القبض على آلاف المشبوهين خلال الأيام الثلاثة التالية ، وفاضت سجون المدينة برجال من مختلف الأنواع بعضهم برىء والكثيرون منهم من المتآمرين حقا على ادعاة الملكية، وكلهم من المشتبه فى ارتكابهم جريمة مناوأة حكم البعاقبة . كان موقف اليعاقبة عصيبا الى أقصى حد ، ودانتون يعطينا فى احدى خطبه الشهيرة مفتاحا للموقف ، ففيها يقول ان الثورة بين

نارين : عدو على الحــدود وعدو فى الداخل ، فلابد من « ارهاب العدو » ان أريد للثورة الاستمرار والبقاء .

وفى يوم الأحد ٢ سبتمبر بدأت عملية ارهاب العــدو . فشــكل الكوميون محكمة ارتجالية فىسجون باريس ، كان المسجونون يمثلون أمامها جماعات لا فرادى فى أغلب الأحوال فيستجوبون على عجل ، ولا ريب فى أن بعض الجهــود قد بذلت للتمييز بين أعداء الثــورة الحقيقيين وغيرهم ، فكان المسجونون يعادون الى السجن اذا رؤى أنهم من الأبرياء . ويصــدر الأمر بنقلهم الى سجن آخر اذا اعتبروا مذنبين . وكان أمر النقل هذا يعنى حكما بالاعدام . فيلقى الصادر بشأنهم هذا الأمر فى الطريق حيث يجهز عليهم أناس هيئوا لهــذا العمل . وقد قتل بهــذه الطريقــة مئات فى باريس خــلال يوم ٢ سبتمبر واليومين التاليين ، ومن المستحيل أن نحصى عددهم بالضبط . وقد دارت وستدور مجادلات ومناقشات طويلة حول منشأ مذابح سبتمبر والمسئولية عنها والقصد منها . بيد أنه من الواضح أنه ان كان أى فرد بريئــا فان مارا كان مذنبــا . ومن الواضــح كذلك أن الكثير من التدبير والتنفيذ يمكن أن ينسب الى لجنة الاشراف ، وان يكن من المؤكد أن عواطف الجماهير الثورية التى أججتهــا الأنبــاء السيئة الآتية من الحدود ، لم تجعل الأمر يستلزم الا أقل القليل من التدبير والتوجيه . فقد انبثقت هــذه المذابح عن العواطف المتأججة أكثر مما انبثقت عن أية سياسة مرسومة ، فكانت ضربة وحشــية هوجاء من أفراد اشتبه فى أنهم من الأعداء فى وقت ساد فيه الاعتقاد بأن الأعداء يحيطون بقادة الثورة من كل جانب . ولن تمضى برهة وجيزة حتى نرى الجميــع ، بما فى ذلك غلاة الثوريين أنفســهم ، يحرصــون على التنصل من أى قســط من المسئولية عن « مذابح سبتمبر » .

وقد شاهد سبتمبر سنة ١٧٩٢ أحداثا لها أهمية قصوى على الحدود كذلك . فقد بدا نصر الحلفاء مؤكدا ، وراحوا يتنبأون عن ثقة بقرب احتلال باريس . الا أنه كانت هنالك الى جانب حماسة الجيوش الفرنسية وشجاعتها ، عوامل أخرى خفية أضعفت الحلفاء وعرضتهم للخطر . فقد دب بين النمسا وبروسيا — رغم اتحادهما ضد فرنسا — خلاف حول بولندة . ومن المؤكد أن الخوف مما يحتمل أن يحدث فى بولندة قد حال دون بلوغ جيوش الحلفاء القوة التى كانت مرسومة لها أولا . وقد ظهر خلاف آخر بين دوق برونزويك وفردريك وليم ملك بروسيا حول طريقة سير الحملة . اذ كان الملك يلح فى تسديد ضربة عاجلة ، فى حين كان برونزويك يؤثر الحيطة والتأنى . وقد كانت نسبة المجندين الجدد فى الجيوش التى جابهت بها فرنسا الغزاة طفيفة . فقد أسندت القيادة العليا الى دى موربيه الذى وجد نفسه مضطرا الى الاعتماد أساسا على الجيش القديم الذى تتألف غالبية ضباطه من غير العاطفين على الثورة بل من الواجدين عليها لأكثر من سبب ، ولكن عامة الجند كانوا فى معظمهم مدفوعين بالحماسة الصادقة للثورة . وقد سقط حصن فردان فى ٢ سبتمبر فبدا أن الطريق الى باريس قد أصبح مفتوحا للأعداء ولكن ديموريه احتل بناء على تعليمات سرفان وزير الحربية ، تلال ارجون الواقعة على الطريق الى العاصمة ، وهنالك صمد الفرنسيون أمام جيوش الحلفاء فترة من الزمن ، فلما تمكن الغزاة أخيرا من الوصول بحركة التفاف الى مؤخرة الفرنسيين وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام جيش فرنسى جديد على تل فالمى . وفى هذا المكان وقع فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢ اشتباك شهير وهام بالنظر الى النتائج التى أسفر عنها وان لم يكن فى ذاته جديرا بأن يعد من المعارك الكبرى . فقد قصف البروسيون التل بمدافعهم ثم حاولوا الاستيلاء عليه بهجوم مباشر ،

ردهم الفرنسيون على أعقابهم وكبدوهم بعض الخسائر . بيد أن هذا الحادث الصغير صار له شأن عظيم بفضل ماتلاه حتى أصبح يدرج فى عداد المعارك الحاسمة فى العالم . ذلك أن دى موريبه ودوق برونزويك دخلا على أثره فى مفاوضات حافلة بالدهاء والحيلة من الجانبين . وقد وافق دوق برونزويك على الانسحاب ، وسمح له دى موريبه ببلوغ الحدود فى أمان ، اعتقادا منه بأنه مازال فى الامكان ، حتى فى تلك اللحظة ، اغراء البروسيين بالانفصال عن النمسا . ولكن هذا كله ضئيل الأهمية الى جوار الحقيقة الكبرى التالية ألا وهى أن باريس التى كانت تعتقد فى ٢٠ سبتمبر أنها مهددة بخطر الهجوم الداهم وربما الحصار ، وجدت نفسها قد خرجت من الغمة متحررة ظافرة .

وقد بدأت انتخابات المؤتمر الوطنى الجديد فى تاريخ مقارب لتاريخ مذابح سبتمبر . واعتبرت نتيجتها بادىء الأمر نصرا كبيرا للمعتدلين . فقد امتنع جانب كبير من الناخبين عن الادلاء بأصواتهم ، ولم يكن بين الأعضاء المنتخبين الا نحو خمسين من المعروفين بانتمائهم الى اليعاقبة ، بينما كان هناك ١٢٠ من الجيروند وما يربو على ٦٠٠ ممن لا ينتسبون انتسابا محددا الى أى من الحزبين . وقد عين المؤتمر الوطنى الجديد الوزراء وأسند السلطة التنفيذية الى اللجان منذ البداية .

وكان مصير الملك هو أول شىء يجب البت فيه ، وسرعان ما اتخذ المؤتمر قراره فى هذا الشأن فأعلن بالاجماع فى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٢ الغاء الملكية وقيام الجمهورية . ثم جاءت مسألة محاكمة الملك ، ويبدو أن المؤتمر قد فشل فى العثور على أى سند قانونى لمحاكمته وكان الدستور قد تضمن النص على فقدان العرش كعقوبة قانونية عن جرائم معينة ولاسيما الامتناع عن مقاومة الغزو الأجنبى . فلئن

كان من الجائز أن الملك قد ارتكب هذه الجريمة فان من المؤكد أنه قد أدى عقوبتها . فأى اتهام آخر يمكن أن يوجه اليه (١) ؟ بيد أنه كان من الجلى أن الحزب المسيطر فى الجمعية لن يسمح للاعتبارات القانونية بالحيلولة دون بلوغ غرضه ، وعلى هذا فقد تقرر تقديم الملك الى المحاكمة . وصدر قرار الادعاء فى ١١ ديسمبر متضمنا اتهام الملك بالتآمر ضد الأمة ، وبامداد القوات التى أعدها المهاجرون فى الخارج بالمال ، وبمحاولة قلب الدستور . وقد سمح له بممارسة حق الدفاع . ودافع عنه محاميوه دفاعا بليغا جسورا . ثم أدلى أعضاء الجمعية بأصواتهم جهرا الواحد تلو الآخر ، فأدين المتهم بالاجماع . وتقرر تطبيق عقوبة الاعدام بأغلبية صوت واحد لا أكثر . وفى ٢١ ينــاير ١٧٩٣ أعدم لويس السادس عشر بالمقصلة فى الميدان الذى كان معروفا فيما مضى باسم « ميدان لويس الخامس عشر » ثم سمى الآن «ميدان الجمهورية » .

وأصبح مصير الجمهورية كله متوقفا على نتيجة الحرب فالحرب هى التى كان لها النفوذ الحاسم على كل صغيرة وكبيرة فى تاريخ فرنسا الداخلى ، ورغم احراز النصر فى فالمى فان الموقف العسكرى أخــذ يتدهور بسرعة . ويعد دخول بريطانيا الحرب بعد اعدام الملك أخطر ضربة تلقتها فرنسا فى ذلك الحين . وقد أدت الى هذه النتيجة عوامل

---

(١) والنصان الحاسمان فى الدستور هما البندان «٦» و «٧» من القسم الاول من الفصل الثانى «اذا وضع الملك نفســه على راس جيش ووجه قواته ضد الأمة ، او اذا لم يقاوم رسميا مثل هذا العمل اذا ارتكب باسمه ، يكون فى حكم من تنزل عن عرشه .... وبعد هذا النزول ينتمى الملك الى طبقة المواطنين ويجوز اتهامه ومحاكمته مثلهم عن الأعمال اللاحقة لنزوله» « انظر كتاب ل.ج ويكهام ليج » .الوثائق المختارة الموضحة لتاريخ الثورة الفرنسية « المجلد الثانى . ص ٢٢٦ (مطبعة كلارندون ١٩٠٥)

L.G. WICKHAM LEGG : Select Docun.ents illustrative of the History of the French.

Revolution, vol. II. p. 226 (Clarendon Press, 1905).

عدة ، فان الحرب نادرا ماتنشأ عن سبب واحد . فقد أثار الهجوم على الملك حفيظة الرأى العام الانجليزى ولم يلبث استياؤه أن ازداد عند اعدامه ، وأخذ الكثيرون يستجيبون الى بيرك وهو يندد فى فصاحة رائعة بطبيعة الثورة وأهدافها . بيد أنه كانت هناك أسباب عملية أيضا . فقد أحرز الفرنسيون بعد معركة فالمى سلسلة من الانتصارات الهامة وعبروا الراين عند « ماينز » ، والأهم من ذلك أنهم غزوا بلجيكا ودحروا الجيش النمساوى فى ٦ نوفمبر فى معركة « جيماب » (التى تعد أعظم بكثير من معركة فالمى) فأصبحوا يسيطرون بانتصارهم على البلاد بأكملها ولم تلبث بروكسل أن سقطت فى أيديهم بعد أيام معدودة . فاتخذوا عندئذ خطوتين هامتين مشكوكا فى سلامتهما الى أبعد حد . فقد أعلنوا جادين فى ١٩ نوفمبر أنهم سيقدمون الاخاء والعون لجميع الشعوب الراغبة فى استرداد حريتها ، فكان هذا الاعلان بمثابة دعوة صريحة لجميع الشعوب أن تثور على حكامها ، وتهديد صريح لكل الحكومات التى تعتقد أن شعوبها راغبة فى الثورة عليها . ثم أعلنوا بعد ذلك بفترة وجيزة أن نهر شيلد الذى ظل مغلقا فى وجه السفن الضخمة نتيجة عدة حروب ومعاهدات سيفتح لجميع أنواع التجارة وذلك استنادا الى ماهو مفروض لكل شعب من « حق طبيعى » فى ملكية مصب أى نهر يمر بأراضيه . وكانت بريطانيا ترى — ولعلها مخطئة فى ذلك تماما — أن بقاء نهر شيلد مغلقا مسألة لها أهمية قصوى لتجارتها ويؤكد البعض أنها كانت طامعة كذلك فى الاستيلاء على بعض جزر الهند الغربية الفرنسية . وهكذا التقت الاعتبارات العاطفية مع المصالح التجارية ، فطردت انجلترا السفير الفرنسى أثر وصول أنباء اعدام الملك ، وفى أول فبراير سبقت فرنسا انجلترا الى اعلان الحرب ضدها وضد هولندة ، ولم تلبث أسبانيا أن انضمت الى صفوف الدول المتحاربة .

وهكذا أصبحت فرنسا فى حرب ضد ائتلاف أوروبى هائل يجمع بروسيا والنمسا وبريطانيا وهولندة وسردينيا وأسبانيا . فشاهد ربيع سنة ١٧٩٣ الأخطار والنكبات تتلاحق على جميع حدودها تقريبا . وقد حلت بها أولى النكبات الجدية فى بلجيكا التى كانت مسرحا لأول انتصارات الثورة الحاسمة . فقد كان لدى البلجيكيين بعض الاستعداد للترحيب بالغزاة الفرنسيين ولكن الاجراءات التى اتخذها هؤلاء الأخيرون لحكم البلاد سرعان ما قضت على شعبيتهم . فقد عمدوا الى اضطهاد الكنيسة وفرضوا على البلاد عملتهم الورقية . والأسوأ من هذا كله أنهم أعلنوا ضم البلاد الى فرنسا استنادا الى بعض العرائض التى قدمت لهم ، فجلبوا على أنفسهم بذلك العداء الأكيد من بلد كان من الجائز أن يصبح حليفا لهم . وكانت هذه السياسة من املاء باريس وقد اعترض عليها ديمورييه قائد الجيوش الفرنسية دون طائل . وهاهو الآن يتلقى من القيادة العامة أمرا بالتقدم الى هولندة فيطيعه كرها لانه يرى أن بلجيكا فى حالة خطرة ولا يمكن الاطمئنان اليها كمؤخرة لزحفه . واذا بالتوفيق يحالفه فىمراحل الحرب الأولى ولكنه لا يلبث أن يضطر فى ١٨ مارس سنة ١٧٩٣ الى التقهقر لحماية قوات ملازمه « ميراندا » الذى يتعرض لهجوم النمساويين ، فيلتحم مع العدو فى معركة « نير فندن » العظيمة التى تسفر ، بعد صراع عنيف متكافىء فى معظم الوقت ، عن انتصار النمساويين . كانت هزيمة الفرنسيين حيث اعتادوا النصر شيئا سيئا فى حد ذاته ولكن مما زاد الطين بلة أن قائدهم بدأ فى التخابر مع العدو على الفور . وهو لم يعطف عطفا صادقا قط على أهداف الثوريين . فطفق يحلم الآن باعادة الملكية واعطاء التاج لدوق شارتر الشاب الذى ارتمى والده عن طيب خاطر فى أحضان الثورة رغم الدماء الملكية التى تجرى فى عروقه .

وكان الشك فى نواياه قد بلغ باريس فبعثت مفوضيها الى الجيش الا أن ديموريه اعتقل هؤلاء ومضى فى تنفيذ خطته ، ولكن جيشه رفض أن يؤازره ، فخشى على حياته وهرب فى ٥ أبريل الى صفوف النمساويين . كان الخطر جسيما فأثار خوفا بالغا . فهذه هى المرة الثانية التى يحاول فيها أحد القواد تأليب الجيش على الحكومة (أشرنا من قبل الى محاولة لافاييت) ومن الآن فصاعدا سيصبح الخوف من خيانة الضباط من بواعث القلق الأولى عند الثوريين . وبوسعنا أن نرى فى فعلة ديموريه شبح نابليون يحوم حول الثورة منذرا مهددا .

كان الموقف الخارجى خطيرا وقد زاد من خطورته نشوب قلاقل كبيرة فى الداخل . فقد ظهرت الى جنوب اللوار فى المنطقة المعروفة باسم « لافنديه » حركة تطورت الى حرب أهلية وظلت طوال عامين تستنزف كل القوى التى تستطيع فرنسا الاستغناء عنها فى صراعها الخارجى . كانت لافنديه تختلف فى طبيعتها عن بقية فرنسا ، اذ كان نبلاؤها وملاكها يقيمون فى ضياعهم . وكان فلاحوها يكنون الولاء للكنيسة ولا يضمرون عداء للنبلاء . وكان الاقليم فى الكثير من جهاته مكسوا بالغابات التى يصعب اختراقها ويسهل الدفاع عنها .

ولئن كانت الحركة الثورية لم تستقبل بالترحيب بادىء الأمر فى تلك الجهة المتأخرة من البلاد الا أنها لم تجابه أية مقاومة ، بل ان بعض نتائجها صادفت ارتياحا فى نفوس الفلاحين . وانما كانت مطالبة الأهالى بتقديم أبنائهم للخدمة العسكرية ومحاولة تنفيذ ذلك بالقوة هى التى أدت الى نشوب التمرد فى فبراير ١٧٩٣ . وقد شجع القساوسة حركة العصيان ، وتزعمها رجال من كافة طبقات المجتمع ، أشهرهم « كاثلينو » ، وهو فلاح وبائع جوال ، « ولاروشجاكلين » وهو من النبلاء ذوى الأصل العريق ، « وشاريت » وهو ضابط بحرى شاب كان على الأرجح أقدر من زميليه فى الشئون العسكرية . ولما كانت

الثورة تواجه حربا أجنبية فانها لم تتمكن من ارسال أية قوات لهذه الجبهة الغربية ، فحقق المتمردون مكاسب كبيرة . وفى مارس سنة ١٧٩٣ سقطت « فونتناى » و « نيور » فى أيديهم ، فتجلت خطورة حركتهم .

وقد اتخذ المؤتمر الوطنى تدابير حازمة حيال هذه الأخطار المتجمعة . فركز السلطة فى يد الحكومة وأتاح لها القدرة على التصرف بسرعة وفى سرية دون التقيد بأية قوانين أو قواعد تحد من نشاطها ، وقد طفق الكثيرون من الفرنسيين يتقبلون عن طيب خاطر قرارات الحكومة المركزية لأنها كانت تحارب ضد العدو المشترك رغم نفورهم من تصرفاتها فى الداخل . وفى ٢٩ مارس سنة ١٧٩٣ تقرر تشكيل محكمة الثورة لتنظر — وفقا لاجراءات خاصة — فى أمر جميع المتهمين بمناهضة الحكومة . وفى ٦ أبريل عينت « لجنة الأمن العام » وهى الهيئة التى ستحكم فرنسا أكثر من عامين والتى يرجع اليها الفضل فى اتخاذ معظم التدابير التى كفلت للبلاد الخلاص والنصر . وقد شكلت اللجنة من تسعة أعضاء ، وضعت تحت تصرفهم مبالغ طائلة من المال لاستخدامها كمصروفات سرية ، وصار بوسعهم الغاء أى قرار يتخذه الوزراء الذين تحولوا الى مرءوسين لهم تقريبا . وكانت مداولات اللجنة سرية ولا يسأل أعضاءها الحساب الا المؤتمر الوطنى عند تقديم تقريرهم الدورى اليه . وقد استحدث فى نفس الوقت تقريبا نظام المفوضين وهؤلاء رجال يعينهم المؤتمر ويرسلهم الى كافة أنحاء فرنسا لغرض التعبئة العامة للحرب اسما ، ولاقرار سيادة الحكومة المركزية على جميع أنحاء فرنسا فعلا . وهكذا نجد أن الثورة التى بدأت بالدعوة الى اقامة شكل لا مركزى للحكومة تعود الآن تحت تأثير الحرب الى تقاليد المركزية القديمة التى تميزت بها الملكية الفرنسية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

كان حزب الجيروند هو الداعى الى تأليف « لجنة الأمن العام » ولكن أعضاء اللجنة اختيروا أساسا من اليعاقبة ، وتجلى من البداية أن أقواهم نفوذا هو دانتون الذى أصبح الآن شهيرا بفضل الدور الذى قام به فى اسقاط الملكية . ان شخصية دانتون تبدو لنا شخصية غريبة نوعا مافى تاريخ الثورة . فهو يعد غالبا ضمن غلاة اليعاقبة وأشدهم سفكا للدماء . وقد كان الشعار الذى نادى به ابان أزمة أغسطس سنة ۱۷۹۲ هو « الاقدام . الاقدام . والاقدام دائما » . على أننا كلما أمعنا النظر فى سيرته اتضح لنا أنه وان كان قادرا على اتخاذ اجراءات عنيفة كلما بدا أن الظروف تتطلب ذلك فانه كان يعمل دائما على الحيلولة دون وقوع الثورة فى هاوية الفوضى واراقة الدماء التى نعلم أنها كانت فى انتظارها . فقد كان راغبا فى العودة الى الأساليب القديمة فى عدة نواح ، وقد راح يدعو الى الرحمة والى الخضوع للسلطة واحترام الحكومة فى وقت كانت فيه هذه الدعوة كفيلة بتعريض صاحبها للخطر . ومع أنه كان يعقوبيا فقد سعى فى البداية الى التعاون مع أعضاء حزب الجيروند وفاتحهم فى ذلك ، ولكنهم رفضوا عروضه رفضا حاسما . فقد بات هؤلاء يعدون اليعاقبة حزبا يمثل لا مجرد العنف فحسب بل والوحشية أيضا ، وجعلوا ينظرون الى أعضائه على أنهم الاعداء الألداء لجميع أهدافهم المثالية والفلسفية . وسرعان ما ألفى الجيروند أنفسهم وقد دخلوا برفضهم عروض دانتون ، فى صراع رهيب مع حزب اليعاقبة كله . وهذا الصراع بين الحزبين انما هو الحلقة الأولى فى سلسلة الاصطدامات التى وقعت فى صفوف الجمهوريين أنفسهم وما فتئت تنتقل بالحكم الى يد جماعات أصغر عددا حتى انتهى بها المطاف الى اقامة حكم نابليون الاستبدادى الفردى . وفى هذا الصراع كانت للجيروند مواطن ضعف عديدة . فان باريس هى التى غدت تسيطر الآن بالفعل على الثورة والجيروند كانوا يمثلون الأقاليم ولا يتمتعون

الا بتأييد طفيف فى العاصمة . وقد اتهموا بـ « الاتحادية » (أو « الفيدرالية ») التى فسرت بأنها الرغبة فى القضاء على وحدة البلاد واقامة شكل أقل مركزية من أشكال الحكم فى اللحظة التى تواجه فيها فرنسا ائتلافا أوربيا معاديا .

ومن المحقق أن التهديدات الطائشة التى وجهها عضو من أعضاء حزبهم يدعى « ازنار » الى مدينة باريس ، قد زادت من حنق العاصمة عليهم وكانت صلتهم بديموريبه الذى صار يعتبر الخائن الأول منذ معركة « فيرفندن » من عوامل ضعفهم أيضا . وكانت صحف باريس التى يحررها رجال من طينة « مارا » و « هيبر » تقف منهم موقف المعارضة . ولو كان الزمن زمن سلم وطرح الأمر على الشعب لأدلت أغلبية الفرنسيين — على الأرجح — بأصواتها فى صالحهم ، ولكنهم فى تلك اللحظة بالذات كانوا عاجزين عن السيطرة على القوى الفعلية التى يحسب لها الحساب . وفى ٢٤ أبريل قدموا لمحكمة الثورة أبغض اليعاقبة جميعا اليهم « مارا » ولكنه برىء فكانت النتيجة ازدياد حنق الثوريين فى باريس عليهم . فقد كانوا لا يكفون عن الاحتجاج الصارخ على تصرفات الكوميون الذى دمغوه بالتآمر على حرية المؤتمر الوطنى ، ولعلهم كانوا على شىء من الصدق فى هذا الاتهام ، ومع ذلك فقد أثارت احتجاجاتهم هجوما جديدا عليهم . ففى ٣١ مايو سنة ١٧٩٣ هبت جماهير باريس تطالب باعتقال الجيروند بوصفهم أعداء للثورة . وقد فرقت هذه الهبة الأولى ولكن هبة أخرى قامت فى ٢ يونيو . فقد طوقت قاعة المؤتمر جمهرة من الباريسيين المسلحين تسليحا كافيا تحت قيادة قديرة سجنت أعضاءه ريثما تجاب مطالبها . فأصبح من الضرورى النزول فى النهاية على حكم القوة الشعبية فصدرت الأوامر باعتقال نفر كبير من الجيروند . وأرسل هؤلاء الى السجن ليمروا هناك بمحكمة الثورة ومنها الى المقصلة .

ويمكن القول بأن « عهد الارهاب » الذى بدأ فى الواقع فى أغسطس سنة ١٧٩٢ قد بلغ ذروته بسقوط الجيروند وفحوى هذا أن أقلية بل وأقلية صغيرة حازمة قد استولت على مقاليد الحكم ساعة المحنة وضربت بالاشكال الدستورية العادية عرض الحائط وراحت تسعى وراء هدف واحد هو الدفاع عن البلاد وابقاء السلطة فى أيديها. ولقد عرف التاريخ عهود ارهاب كثيرة ، بمعنى أنه شاهد الكثير من الحكومات التى احتفظت بسلطتها عن طريق العنف واشاعة الخوف فى نفوس معارضيها . الا أنه من دواعى السخرية أن اليعاقبة ظلوا ــ رغم قيام حكمهم على محكمة الثورة والمقصلة ــ يمارسون السلطة طوال الوقت باسم الديمقراطية وباسم سيادة الشعب .

أخذ عدد أعضاء المؤتمر الوطنى فى التناقص عام ١٧٩٣ وأخذت سلطته تنتقل تدريجيا الى اللجان . وجعل الكثيرون من أعضائه يتهربون من حضور الجلسات خشية المسئولية ومع ذلك فقد ظل المؤتمر من الوجهة الاسمية أساس الحكم فى فرنسا ، فكانت تعرض عليه جميع أعمال اللجان للتصديق عليها .

وكانت « لجنة الأمن العام » هى أهم أجهزة الحكم فى فرنسا . وقد ظل يسيطر عليها حتى ١٠ يوليو « دانتون » الذى وقف نشاطه على تجنيد الاهالى وتجهيز الجيش واتخاذ التدابير الدبلوماسية التى يأذن له بها المؤتمر وزملاؤه . وقد اعترف خصومه أنفسهم بأن فرنسا مدينة ببقائها الى حد بعيد لمجهوده واخلاصه . وبالرغم من ذلك فقد سقطت عنه عضوية اللجنة حينما عرضت الاسماء على المؤتمر فى ١٠ يوليو ليصدر قراره باعادة تشكيل اللجنة وفقا للعرف المتبع .

وبوسعنا أن ننسب هذه الواقعة الغامضة الى ماجبل عليه دانتون نفسه من اهمال وقلة اكتراث من ناحية ، والى طموح خصومه الشديد من ناحية أخرى . وسرعان ماشغل مكانه فى اللجنة روبسبير الذى

اشتهر حتى ذلك الحين ، كأحد أتباع تعاليم روسو وكخطيب مفوه فى الجمعية وفى نادى اليعاقبـة . وهو لم يكن قد لعب دورا بارزا فى سقوط الملكية ، كما ينبغى ألا يقرن اسمه بالذات بمذابح سبتمبر . على أنه قد تحمس لاعلان الجمهورية واعدام الملك ، وسوف يصبح اسمه من الآن فصاعدا حتى وفاته سنة ١٧٩٤ أبرز الأسماء فى تاريخ الثورة . ولقد ظل حتى النهاية مثاليا يحلم ببناء مجتمع جديد فى فرنسا عند زوال الأخطار الراهنة — مجتمع يقوم على الفضيلة ويستند الى الدين ويقيم دعائم السلم ، وان ارتبط — فى الوقت الحاضر — بذلك النفر من اليعاقبة الذين يؤيدون استمرار حكم الارهاب وتعبئة كل قوى الحكومة للحرب ضد أعداء الثورة فى الخارج والداخل . وقد كان روبسبير خطيبا يستحوذ على اعجاب مستمعيه ، وهو يعد قياسا على الذوق الانجليزى أبرع خطيب أنجبته الثورة ، وبعض خطبـه تعتبر من الروائع أسلوبا وأفكارا . وقد كان يستمد معظم قوته من وقوفه خطيبا فى الجمعية وفى نادى اليعاقبة . وهو لم يظهر قـدرة خاصة على معالجة تفاصيل الحكم ولكنه كان محاطا بأصدقاء وزملاء مخلصين يعوضون نقصه . وقد أصبحت « لجنة الأمن العام » تضم الآن اثنى عشر عضوا يمكننا أن نقسمهم على الوجه التالى : أولا ، مجموعة تضم خمسة أعضاء بزعامة كارنو تكاد تحصر عنايتها فى تنظيم الجيش والبحرية ولا تتناول الشئون الداخلية الا عندما يكون ذلك ضروريا لمصلحة الحرب ، ثم روبسبير وكوتون وسان جوست أو «الثالوث» كما كانوا يسمون وقد تكلمنا عن أهدافهم من قبـل ، ويأتى أخيرا ثلاثة أعضـاء هم « بارير » و « بيلوفارن » « كولو دى أربوا » . وهؤلاء كانوا ينتهجـون سياسـة مستقلة وكانوا دائمى الاتصـال بالكوميين .

وقد تقدم اليعاقبة فى سنة ١٧٩٣ بدستور جديد ديمقراطى للغاية لم يلبث أن أقر وقدم للشعب ليقف شاهدا على المبادىء التى ما زال اليعاقبة ينادون بها والتى سيهتدون بهديها عندما يتيح لهم السلم الفرصة لارضاء نزعاتهم الحقيقية ، ولكن الدستور لم يكد يرى النور حتى عطل .

وقد ظلت محكمة الثورة تعمل فى تلك الاثناء بجد ونشاط ، وقد هون عليها مهمتها صدور « قانون المشبوهين » — فى سبتمبر سنة ١٧٩٣ — الذى يسمح بالاعتقال والسجن دون ماحاجة الى تقديم الدليل . فازدحمت السجون وأصبح الرجال والنساء المقدمون لمحكمة الثورة يؤلفون سيلا لا ينقطع . وكانت أحكام البراءة نادرة وكان الاعدام بالمقصلة هو العقوبة التى تطبق على الجميع . ومن أشهر الضحايا فى شهر أكتوبر الملكة مارى انطوانيت وقد كان دانتون ميالا الى انقاذ حياتها لاعتقاده بأنها قد تفيد فى مساومة العدو ، ولكن عواطف الساعة كانت أقوى من أن تسمح له بذلك ، فقد اعتبرت عدوة الثورة الاولى ولم يكن ثمة مناص من لحاقها بزوجها الى المقصلة . وفى آخر أيام شهر أكتوبر أعدم عدد كبير من الجيروند . وفى ٦ نوفمبر أعدم « فيليب » دوق أورليان رغم أنه قد آزر الثورة وأعار قصره لمثيرى الخواطر وأدلى بصوته مع من طالبوا برأس الملك . ذلك أن صلته بديموريبه قد رجحت كفة الادانة . وفى ١٠ نوفمبر أعدمت مدام رولان ، السيدة الفاتنة البليغة التى كان يلتقى عندها أعضاء حزب الجيروند . وفى ١٢ نوفمبر واجه الموت « باتى » العالم الفلكى وأول رئيس « للجمعية الوطنية » لاصداره الأمر باطلاق النار فى سنة ١٧٩١ على الجمع الذى طالب باعلان الجمهورية . ولا يفوتنا أن نشير الى اعدام بعض القادة العسكريين من أمثال « كوستين » و « بيرون » بتهمة الخيانة أو التوانى فى مطاردة العدو .

وفى أغسطس سنة ١٧٩٣ صدر الامر « بالتجنيد الشامل » بمعنى أن جميع المواطنين أصبحوا مدعوين لاداء الخدمة العسكرية للدولة . ولكن بفضل تأثير دانتون عدل الامر الى صورة أيسر تنفيذا هى التجنيد الاجبارى لجميع من تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين ، فأدى هذا الاجراء الى اضافة ما يقرب من نصف مليون مجند الى عداد الجيش .

ويجدر بنا أن نلاحظ أخيرا أن قانون « الاربعين فلسا » قد أقر فى سبتمبر سنة ١٧٩٣ وبمقتضاه يدفع هذا المبلغ لكل من يحضر الاجتماعات السياسية التى تعقدها الاقسام أو الاحياء الباريسية ، فجاء عاملا مشجعا على ازدياد مؤيدى اليعاقبة .

وهكذا قامت فى باريس حكومة صارمة حازمة بل وقوية أيضا لولا الانقسامات القائمة فى صفوفها . وقد واجهت هذه الحكومة أعداء خطرين فى الداخل والخارج على حد سواء . اذ نشبت فى عهدها حرب أهلية كبرى علاوة على الحرب فى لافنديه وكان السبب الأكبر فى نشوب هذه الحرب هو سقوط حزب الجيروند والخوف من أن يكون موقف الحكومة الجديدة عدائيا من الاقاليم . وقد ساد الاعتقاد فى البداية بأن معظم أقاليم فرنسا قد تمردت على العاصمة وأن الاغلبية الساحقة من سكان الريف على استعداد لحمل السلاح وسحق اليعاقبة . على أن هذه الحرب الأهلية سرعان ما انحصرت فى دائرة ضيقة نسبيا . فقد رفعت ليون راية العصيان أما طولون فلم تكتف باعلان مناهضتها للحكومة وانما فتحت ميناءها أيضا للاميرال «هود» والاسطول الانجليزى . فأرسل اليعاقبة قوات كبيرة الى الجهتين . وقد اقتحمت قوات الحكومة ليون فى سبتمبر سنة ١٧٩٣ وأنزلت عقابا قاسيا بسكانها . أما القوات التى زحفت على طولون فقدواجهت مهمة أشق لأن الاهالى كانوا يتلقون العون من بحارة السفن

البريطانية الأسبانية وقد قاد تلك القوات « ديجومية » ولكن أنظار الأجيال التالية تعلقت بأعمال مساعدة نابليون بونابرت . وقد استمر الحصار بعض الوقت ولكن الاستيلاء على المدينة تم فى ١٩ ديسمبر سنة ١٧٩٣ فانسحب الاسطول البريطانى على الفور من الميناء بعد أن أحرق السفن والعديد من المخازن .

وبقيت الحــرب فى لافنديه فكانت مهمة التغلب عليها أشق ، فقد أظهر الثوار الذين كانوا يحاربون فى أراضيهم وضد قوات جمعتهــا الجمهورية على عجل ، صلابة نادرة ، وأرغمــوا الجمهــوريين على الارتداد على أعقابهم المرة تلو المرة . عندئذ شجع النصر الثوار على توسيع نطاق عملياتهم فتجاوزوا حدود قوتهم . لقد تمكنوا حقا فى يونيو سنة ١٧٩٣ من الاستيلاء على مدينة « سومر » الهامة على نهر اللوار ولكنهم عندما زحفوا منها للهجوم على « نانت » منوا بالفشل وقتل قائدهم « كاثلينو » . وفى يوليو سنة ١٧٩٣ تمكنت الجمهورية من ارسال جيش أقدر على محاربة المتمردين ، ذلك أن مدينة «ماينز» استسلمت فى ذلك الشهر للبروسيين فسمح هؤلاء لحاميتها بالانسحاب بعد أن أخذوا على قواتها عهدا بألا يعودوا الى محاربة الحلفاء . وقد أول ذلك العهد على أنه يطلق لهذه القوات حرية محاربة الفنديين . فتبدل الموقف العسكرى فور وصولها الى المسرح الغربى للحرب . وفى أكتوبر سنة ١٧٩٣ نشبت معركة « شوليه » فهزم الفنديون فيها هزيمة ساحقة وقتل قائدهم . وأصــبح هؤلاء يواجهون عدوا ظاهر التفوق . وقد أســفرت محاولتهم الأخيرة لعبور نهــر اللوار بقصد التوغل الى نورماندى للحصول على معاونة العاطفين عليهم هناك ، عن هزيمة منكرة لهم عنــد « انجير » وكان من المحتمــل أن تنتهى المتاعب الجدية التى تسببها حركة الفنديين عند هذا الحد لولا أن « كاريبه » مندوب اليعاقبة قد عمد الى تطبيق اجراءات تتسم بالقسوة

الوحشـــية ، فأثارت أحكام الاعدام التى أصـــدرها والفظائع التى ارتكبها المزيد من المقاومة واشتعلت نيران التمرد من جديد أكثر من مرة بعد أن كادت تخمـــد . فلماعهد الى « هوشيه » ، وهو أحـــد القادة الجدد الذين رقوا من صفوف الجند ، بقيادة الحملة هناك لجأ الى أساليب أكثر انسانية . فمنح فى ديسمبر سنة ١٧٩٤ العفو العام للفنـــديين . وفى فبراير سنة ١٧٩٥ انتهت الحـــرب فى الجهة الغربية بمعاهدة « لاجوناى » .

أما الحرب ضد القوات الاجنبيـــة فقد تقلبت أحوالها بين النصر والهزيمة فمن فشل فى ربيع ١٧٩٣ وصـــيفه الى استعادة للقوى ثم انتصار فى خريف ١٧٩٣ وعامى ١٧٩٤ و ١٧٩٥ . وقد كان منتصف صيف ١٧٩٣ هو أحلك فترات هـــذه الحرب . ففى يوليو من ذلك الصيف استولى البروسيون من جديد على مدينة (ماينز) ومضت قواتهم لغزو الألزاس وفى نفس الشهر استولى النمساويون والهولنديون والانجليز على حصن « كوندى » الشمالى الهام . وفى أغسطس من نفس العام استسلم ميناء طولون كما أسلفنا الى الأميرال الانجليزى « هود » ، ولما كان العصيان قد شـــمل عدة مناطق ، فقد تبادر الى أذهان الأجانب أن انهيار حكومة الثورة قد أصبح أمرا وشيكا .

ومع ذلك فان ما كان ينتظر فرنســـا لم يكن الانهيـــار وانما كان النصر التام . وقبل أن تتناول الحوادث التى تمثل فيها هذا النصر سنبحث أسبابه بايجاز .

ان السبب الأول هو أن فرنســـا قد أصبحت تتمتع الآن بحكومة تتسم بالكفاية والهمة ، حكومة مصممة تماما على السيطرة على البلاد وشن الحرب النشـــطة ضد العدو الاجنبى . فان تشكيل لجنة الامن العام وسيطرة دانتون على هذه اللجنة وتوجيه كارنو لدفة الحرب هى العوامل التى مكنت لنصر الفرنســـيين . وكارنو لم يبث فى الجيش روحا جديدة فحسب بل زوده أيضا بأسلحة أجود ونظـــام أفضـــل

وأفكار جديدة فى الاستراتيجية والتكتيك مضـمونها الأول التخلى عن الدفاع السلبى واتخـاذ خطة الهجوم الحازم المتصـل ، فهو لم ينفتأ يردد أن سر الدفاع يكمن فى الضربة المضادة ، فكان ذلك تطبيقا فى مجال الحرب لعبارة دانتون الشهيرة « الاقدام . الاقدام . والاقدام دائما » ثم ان ضباطا جددا قد بدأوا يبرزون الآن من بين صـفوف الجند ، وهؤلاء رجال كانوا ينتسبون الى الطبقة الوسطى ولئن كانوا قد تدربوا حقا فى خدمة الجيش القديم فانهم قد وجدوا فى الظروف الجديدة الفرصة السانحة لاظهار مواهبهم ونبوغهم . وكان أبرز هؤلاء « هوش » و « جوردان » و « بيشـجرو » و « مورا » وهم من مؤيدى الثورة الغيورين عليها فهى وحدها التى يسرت لهم فرصـة الترقى الى أعلى القيـادات . وقد راحوا يحاربون العـدو دون أن يحسبوا أى حساب للملكية أو العهد القديم . وقد سرت حماستهم فى صفوف الجيش كله ، وللحماسة أهميتها الكبيرة . ومع ذلك فان الكتاب العسكريين الفرنسيين مجمعون على تحذيرنا من المغالاة فى تقدير دور الحماسة وتنبيهنا الى أن الحماسة وحدها لاتكسب المعارك والحروب والى أن الفكرة التقليدية القائلة بأن الثورة الفرنسية قد كسبت حروبها بالحماسـة قد أضرت اضرارا بليغا بخطط فرنسـا العسكرية فى بعض المناسبات التالية .

ان الفضل فى تحول مجرى الحرب وفى تحقيق النصر الكامل على جيوش الحلفاء انما يرجع فى المحل الاول الى فرنسـا نفسها . ومع ذلك فان أسباب هذا التحول لاتوجد كلها فى فرنسـا . فمن الاهمية بمكان أن ندرك أن الحلفاء لم يقفوا بحال وقفة رجل واحد ، وانه كان بينهم تباين فى المصـالح والاغراض ، وان التوتر بين بروسـيا والنمسا قد بلغ فى مسألة معينة ، هى مسـتقبل بولندة ، حدا كبيرا بحيث أنه فى ذاته يكاد أن يكون كافيا للقضاء على فرص انتصـار الحلفاء . ويمكننا أن نلخص الموقف بالنسـبة للمسألة البولندية فى

ذلك الحين كما يلى : راقبت جارات بولندة بعين الانزعاج عملية اعادة تنظيم الدولة تحت حكم الملك ستانيسلاس . فقد كانت هذه الجارات تخشى أن تجد نفسها ذات يوم مضطرة الى مواجهة دولة عسكرية خطيرة الشأن لا جارة ضعيفة تستطيع أن تسلب منها ماتشاء من المغانم . وعلى هذا فقد استقر رأيها على التدخل من جديد ، واقتطاع جانب من خيرة أراضى بولندة سواء وجدت الذريعة لذلك أم لم توجد . فقد تم الاتفاق على التقسيم الثانى فى يناير سنة ١٧٩٣ . فتقرر أن تتقاسم بروسيا وروسيا الاراضى البولندية المتفق على اقتطاعها وأن تعوض النمسا ، الامر الذى يعتبر من حقها تطبيقا لفكرة التوازن الدولى ، فى الالزاس واللورين عندما يتم الاستيلاء عليهما من فرنسا . وقد تضاءل بمضى الوقت الامل فى امكان غزو هذين الاقليمين ، فصار موقف النمسا من حلفائها أقرب الى العداء الصريح وبدأت الدول الثلاث تشعر أنها قد تضطر الى استخدام جيوشها على ضفاف نهر الفيستولا لا الى جوار الراين . وقد فرض هذا التقسيم الثانى على البرلمان البولندى بجرودنو فى سبتمبر سنة ١٧٩٣ . وهكذا نجد أن الشئون البولندية كانت — فى اللحظة التى سنحت فيها الفرصة لتسديد ضربة حاسمة ضد فرنسا — تستأثر بالمزيد من اهتمام الدول الشرقية .

وفى ظل هذه الظروف تحول مجرى المعركة الى صالح فرنسا . وليس هدف هذا الكتاب أن يقدم سردا مفصلا للمعارك الحربية . على أنه لابد لنا من أن نذكر الوقائع البارزة . فى سبتمبر سنة ١٧٩٣ سار الجيش الفرنسى لفك الحصار الذى ضربه الجيش الانجليزى بقيادة دوق يورك على دنكرك ، فالتحم الجيشان عند « هوندشوت » وخرج الفرنسيون من المعركة ظافرين وتحقق لهم فك الحصار عن دنكرك . وقد تردد فيما بعد أنه كان بوسع القائد الفرنسى هوشار

أن ينزل بالانجليز هزيمة ساحقة لو أنه أظهر مزيدا من الهمة فأعدم بالمقصلة عقابا له على تقصيره الموهوم . وفى أكتوبر ١٧٩٣ أحرز « جوردان » نصرا عند « واتينيه » فتمكنت القوات الفرنسية من عبور الراين من جديد . وفى يونيو سنة ١٧٩٤ هزم جوردان قوات الحلفاء بقيادة دوق « كوبرج » عند « فليرى » . فلم يبذل الحلفاء أية محاولة أخرى لاسترداد بلجيكا من الفرنسيين ، وقد أظهر البروسيون الذين انتابهم القنوط وساورتهم الشكوك فى نوايا حلفائهم فى بولندة رغبتهم الواضحة فى الانسحاب من الحرب . وفى نهاية سنة ١٧٩٤ أرسل الجيش الفرنسى مرة أخرى لغزو « الأقاليم المتحدة » (هولندة) الأمر الذى فشل فيه ديموريبه عام ١٧٩٣ . ولم تحدث أخطاء هذه المرة فدخل القائد الفرنسى « بشيجرو » امستردام فى يناير ، وكان الاسطول الهولندى عاجزا بسبب الجليد عن التحرك من مكانه بالقرب من الساحل الهولندى فتمكنت فصيلة من الفرسان الفرنسيين من الاستيلاء عليه لدهشة أوربا كلها . ولم تنته الحرب الا أنه أصبح من الجلى بمجىء ربيع ١٧٩٥ أن فرنسا ستتمكن من التفاهم مع بعض أعدائها على الأقل .

ويجدر بنا أن ننتقل من انتصارات الثورة الفرنسية العسكرية هذه الى تاريخها الداخلى . ان حزب اليعاقبة الذى حقق نصرا كاملا على خصومه من الجيروند والدستوريين على السواء قد أصبح الآن منقسما على نفسه انقساما شديدا . ولقد شاهدنا كيف أن دانتون قد أسقطت عنه فى ١٠ يوليو سنة ١٧٩٣ عضوية لجنة الأمن العام ليحل محله روبسبيير . ولقد ظل مع ذلك شخصية سياسية هامة ولكن أهدافه تغيرت بتغير الموقف ، وأصبح الآن وهو الذى كان يعد من غلاة الثوريين من دعاة الاعتدال والعودة الى النظام والاستتباب . وأصبح على صلة وثيقة فى هذه الشهور الاخيرة من حياته بكميل

ديمولان الذى تزعم الهجوم على الباستيل وكان ، باللسان والقلم ، من أبرز دعاة الثورة المتطرفين . وقد راح هذا الاخير ينادي بالاشتراك مع دانتون ، من فوق منصة المؤتمر الوطني وعلى صفحات صحيفة جديدة أنشأها باسم « الكوردلي القديم » ، بالتخلى عن الارهاب والعودة الى نظام قوامه الانسانية والقانون متسترين فى أغلب الاحيان بأساليب الثورية والفكاهة الساخرة . وقد لقى هذان الرجلان تأييدا محسوسا فى المؤتمر وان لم يسيطرا مرة أخرى على أى من أحداث الثورة العظام .

وثمة جماعة أخرى من الساسة كانت تتألف من روبسبيير وكوتون وسان جوست (الذين أطلق عليهم اسم الثالوث) وثلاثتهم من أعضاء لجنة الامن العام . وهؤلاء لم يعنوا بصفة أساسية بتسيير دفة الحرب وانما كان جل اهتمامهم منصبا على توجيه السياسة العامة الداخلية للثورة . وقد كان روبسبيير بلا جدال شخصية محبوبة الى أقصى حد فى باريس ، وكان يؤازره عدد غفير من الاصدقاء والمعجبين المخلصين . وان مأساة حياته وسر فشله انما يتمثلان فى اضطراره الى القيام بما قام به من محاولات لبعث فرنسا وبنائها من جديد فى جو من الحرب والعنف . ولعل فشل هذه المحاولات كان مؤكدا على أية حال ، ولكن هذا الفشل جاء فى تلك الظروف عاجلا بل فوريا فكان فيه القضاء عليه . فهو قد حظى كما سنرى بساعة قصيرة من النصر تلاها سقوطه مباشرة . وينبغى ألا تكون صفاته الحسنة سببا فى اغماض أعيننا عن نقائصه الواضحة ، فقد كان قبل كل شيء مجبولا على الخوف فكان من السهل اغراؤه — شأن الكثيرين ممن هم على شاكلته — باتخاذ اجراءات تتسم بالقسوة . وكان ذا خيلاء زاده خيلاء اعجاب أصدقائه به . وهكذا أصبحت الفترة التى سيطر فيها على فرنسا هذا النبى من أنبياء الانسانية والتلميذ الامين لروسو هى نفس الفترة التى عرفت فيها فرنسا عهد الارهاب فى أبشع صوره وأشدها دمارا وهولا .

والى جانب هذين الحزبين يجب أن نذكر حزبا ثالثا كان يرتكز أقوى ما يرتكز على الـكوميين أو مجلس باريس البلدى وأشهر أعضائه « هيبر » و « شوميت » . وقد صدرت منه عدة اجراءات هامة اقرها المؤتمر الوطنى . ولم تكن كل مقترحات أعضاء هذا الحزب متسمة بالتطرف أو السخف ، فاليهم يرجع الفضل فى ادخال عدة اصلاحات فى مستشفيات باريس ومدافنها ، وهم أصحاب فكرة ذلك النظام العشرى للموازين والمكاييل ، وهو نظام جدير بالاعجاب أصبح الآن مطبقا فى معظم أنحاء العالم وفيه نشاهد نموذجا واضحا لاسلوبهم فى التفكير ، فقد كانوا ينبذون كل ماهو تقليدى ويطبقون المقاييس التى تبدو لهم منطقية و « طبيعية » ، فكوحدة لقياس الابعاد نسبة معينة من محيط الكرة الارضية ، وكوحدة للوزن نسبة معينة من حجمها . ومن هذا الحزب أيضا جاء الاقتراح باستحداث تقويم جديد . فقد كان هناك شعور عام بأن الثورة تسجل بداية عصر جديد . وروبسبيير نفسه قال ان فرنسا « تسبق بقية أنحاء أوروبا بألف عام» لذلك تقرر أن يتخذ هذا التحول العظيم بداية لتقويم جديد بحيث يوافق اليوم الاول من السنة الاولى فى هذا التقويم يوم اعلان الجمهورية فى سبتمبر سنة ١٧٩٣ على أن يعاد ترتيب الشهور . وقد بذلت محاولة — وهى لا تعد بحال المحاولة الاولى فى التاريخ — لتغيير الأسماء التقليدية العجيبة التى تطلق على مختلف شهور السنة واستبدالها بأسماء مشتقة من الظواهر الطبيعية التى تقترن بها . وبعد السنة والشهر جاء دور الاسبوع فتقرر الاستغناء عن الاسبوع المكون من سبعة أيام بمنشئه الشرقى وارتباطاته الدينية ، وتقسيم السنة الى أقسام من عشرة أيام يكون أحدها يوم عطلة . وقد طبق هذا التقويم الجديد بخواصه الطريفة العديدة فى فرنسا حتى قيام امبراطورية نابليون فى سنة ١٨٠٤ . ثم جاءت فكرة اتخاذ ديانة جديدة . كانت الديانة المسيحية — فى صورتها الكاثوليكية الرومانية خاصة — لاتزال

بلا ريب عقيدة السواد الاعظم من الشعب الفرنسى ، وسوف يبين المستقبل أنه مامن خطوة ستظفر بتأييد شعبى أقوى من رد اعتبارها والعودة الى الاعتراف الرسمى بها . ولكن الثورة كانت فى صورتها اليعقوبية تناوىء بشكل قاطع المسيحية والكاثوليكية معا . ثم انه كان ثمة شعور عام بأن الاوضاع الجديدة التى أوجدتها الثورة لن تكتمل مالم تقترن بتغيير دينى ايجابى الامر الذى أعلنه روسو صراحة فى كتابه « العقد الاجتماعى » . وقد بدأت حركة التغيير الدينى فى بعض مراكز الاقاليم قبل أن تتبناها باريس . فقد ظهرت فعلا محاولات تلقائية بين الثوريين فى شتى أنحاء البلاد لايجاد شىء يصلح لان يكون بديلا للمسيحية الكاثوليكية التى كانوا مهيئين للتخلى عنها . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن هذه الحركة لم تصبح قط حركة قومية بمعنى الكلمة ، وانه ليس صحيحا أن الثورة قد ألغت المسيحية فى فرنسا ، فقد انحصر الاهتمام الاكبر بهذه الحركة فى باريس . وفى خريف سنة ١٧٩٣ عرضت شتى المغريات على قساوسة باريس للتخلى عن كهنوتهم والتنكر لديانتهم . وفى أوائل نوفمبر تنكر « جوبل » كبير أساقفة باريس ، الذى كان قد أقسم اليمين على احترام الدستور المدنى وبالتالى كان مقطوع الصلة بروما ، لديانته أمام المؤتمر . وفى ١٠ نوفمبر انتهكت حرمة كاتدرائية نوتردام باقامة شعائر « عبادة العقل » الخرقاء . ولم تكن العبادة الجديدة ضربا من الالحاد، بل كانت أقرب الى صورة مبهمة جدا من الايمان بالله . وفى ٢٤ نوفمبر أغلقت جميع الكنائس فى باريس . وامتدت الحركة الى الاقاليم ، وقدر عدد الكنائس التى حولت الى « معابد للعقل » بنحو ٢٤٠٠ كنيسة فى فرنسا كلها . وسلامة هذه الحركة من الوجهة السياسية أمر مشكوك فيه الى أبعد حد . فقد انطوت على اساءة جديدة للمشاعر الكاثوليكية فى فرنسا كما أنها لم ترض بحال جميع الثوريين أنفسهم . وقد أبى روبسبيير وأتباعه — ولهؤلاء وزنهم — أن تقوم بينهم وبين عبادة

العقل صلة . فقد كانوا على تنكرهم لعقيدة فرنسا التقليدية حريصين على اصطناع عبادة تؤكد وجود الله بصورة قاطعة . فكان أن خلقت هذه الشعائر الجديدة بين جماعة روبيسبيير وحزب الكومبين هوة واسعة ستكون لها عواقب هامة .

وهكذا نستطيع أن نشاهد ظهور ثلاث جماعات بين اليعاقبة لكل منها أنصارها ، والخطوط الفاصلة بين هذه الجماعات أبعد ما تكون عن الوضوح . ولاشك أننا نجانب الصواب فى تفسير هذه السنوات الزاخرة بالاضطرب والبلبلة اذا نحن رسمنا لها خطوطا واضحةدقيقة . وحسبنا هنا أن نذكر أن هذه الجماعات الثلاث قد انتقلت من التعاون الى الخصومة المريرة وراحت تحارب بعضها بعضا وانتهى بها المطاف الى أن ترسل كل منها بالاخرى الى المقصلة . ومن الغريب أن يتبدل بها الحال على هذا النحو فقد ظل أعضاؤها طويلا حلفاء فى نضال عظيم والخلافات فى السياسة بينهم لا تبرر حدة العداوة التى تولدت بينهم ، ولكن من سنة الثورات أن تحيل كل خلاف الى كراهية متعصبة وأن تجعل الناس يؤمنون بأنه لابد من انتصار آرائهم على جثث خصومهم . ولا ترجع تلك النتيجة التى توصلوا اليها الى الحماسة أو التعصب وحدهما وانما ترجع قبل كل شىء الى الخوف . فان الثورة قد أراقت بحارا من الدم . فما أكثر المرات التى حققت فيها أهدافها بالاعدام وجز الرقاب حتى لقد ارتجت أعصاب الرجال وأصبح كل منهم يرى فى خصمه السياسى سافكا لدمه متى واتته الفرصة . ونحن اذا مارحنا نتتبع الصراع الدائر بين هذه الجماعات وجدنا فى معظم الاحوال صعوبة بالغة فى تبين العامل الذى يتوقف عليه النجاح أو الفشل . فقد كان الامر مرهونا قبل كل شىء بتأييد غوغاء باريس المسلحين وهو تأييد ما أيسر كسبه وما أيسر خسارته وكان كل حزب يضرب ضربته اذا ما أحس بالاطمئنان الى هذا التأييد . ومن الغريب أن يكون الفائز فى النهاية لا دانتون ذا الهمة

والمضاء ولا هيبر العنيف وانما روبسبيير المثالى ، القليل الحظ من روح القتال . كان أنصار هيبر هم أول الذاهبين . ذلك أنه بدا لفترة من الزمن أن النصر قد ينعقد لهؤلاء فحدث التقارب بين روبسبيير ودانتون لمقاومتهم . ولعل الاجراء الذى كفل لروبسبيير وأصدقائه النصر هو القانون الذى اقترحه سان جوست والذى يقضى بأن تخصص لاغاثة الفقراء جميع أملاك الذين يعتقلون للاشتباه فى أمرهم . اذ كان فيه رشوة كبيرة لباريس ومن ثم فقد تحرك بندول الساعة فى اتجاه روبسبيير بصورة قاطعة . وفى ١٧ مارس اعتقل أنصار هيبر وفى ٢٤ مارس نفذت فيهم أحكام الاعدام . وبذلك بقى فى الحلبة السياسية حزبان ، وان كان يجب ألا يغرب عن بالناقد أولئك الاعضاء العسكريون بلجنة الامن العام الذين ظلوا يديرون دفة الحرب من مؤخرة المسرح ويفكرون فى السياسة من زاوية الحرب وحدها ويساندون الارهاب من أجلها وتحيط بأعمالهم سرية بل وربما خطورة أكبر من تلك التى تحيط بأقرانهم الآخرين الذين نالوا حظا أوفر من ذيوع الصيت . وقد كانت تربط بين دانتون وروبسبيير صداقة قديمة والسبب فى صراعهما المفجع غير واضح . كان الاتهام الذى أثير ضد دانتون هو أنه يميل أكثر من اللازم نحو الرأفة والمصالحة . انه حقا لم يكن يشكل خطرا على حياة روبسبيير وأصدقائه وسلطانهم ، ومع ذلك فقد كان ثمة احتمال قائم دائما فى أن يكون قد نظم داخل المؤتمر حركة ماضد رجال عهد الارهاب كما سبق له أن نظم الحركة الكبرى ضد الملكية .

ومن ثم فقد أحس روبسبيير أنه مهدد طالما ظل دانتون وأعوانه على قيد الحياة . فاعتقل دانتون وكميل ديمولان وآخرون فى ٣١ مارس سنة ١٧٩٤ . وفى ٢ أبريل حوكموا أمام محكمة الثورة وكانت محاكمتهم من أشهر المحاكمات التى استأثرت باهتمام الاجيال التالية . وبدا فى احدى لحظات المحاكمة أن وقوف هؤلاء المشاهير من أبطال

الثورة فى قفص الاتهام قد يؤثر فى الرأى العام ويسفر عن نشوب عصيان خطير ، لذلك صدرت الاوامر من لجنة الامن العام بانهاء المحاكمة على وجه السرعة . فتوصلت المحكمة الى قرار بالادانة بالطبع وفى ٥ أبريل أعدم دانتون وديمولان .

ظل الموقف غامضا بعد سقوط دانتون وموته . كانت لجنة الامن العام هى القوة الكبرى الوحيدة فى فرنسا وظل كارنو وأعضاء الجماعة العسكرية بها يكرسون أنفسهم بنجاح لقضية طرد العدو الاجنبى من أراضى فرنسا ومطاردته فى أراضيه . أما روبسبيير وسان جوست وكوتون الذين كانوا أيضا أعضاء باللجنة فانهم لم يكونوا يتدخلون الا قليلا — بل لعلهم لم يتدخلوا بالمرة — فى تسيير دفة الحرب ، وقد قامت بينهم وبين كارنو وأتباعه غيرة مريرة . كان سان جوست أقوى مؤيدى روبسبيير وكان يحلم — مثل زعيمه الذى فاقه شهرة — باعادة بناء المجتمع الفرنسى وفقا للمبادىء التى اقترحها روسو من ناحية ، ووفقا لتقاليد اليونان وروما من ناحية أخرى ، بحيث يصبح مجتمعا مسالما زراعيا ينشأ الناس فيه على الاخلاص لوطنهم ويخلق منهم التعليم فرنسيين من طينة مختلفة تماما عن طينة عامة الفرنسيين فى القرن الثامن عشر .

اصطدمت عبادة العقل كما أسلفنا بآراء روبسبيير الذى كان يحذو حذو روسو فى رغبته فى ايجاد شكل من الدين يجمع بين البساطة والاعتراف الصريح بوجود الله . وقد بلغ من سيطرة روبسبيير الكاملة على كل مايتعلق بسياسة فرنسا الداخلية أن المؤتمر الذى أمر منذ فترة وجيزة بعبادة العقل عاد الآن فأمر بالاعتراف بدلا منها بعبادة « الكائن الاعلى » . وفى ٨ يونيو أقيم الاحتفال ببدء هذه الديانة الجديدة النقية الخالدة أيضا فيما أمل روبسبيير ، وقد اختير روبسبيير نفسه رئيسا للمؤتمر فى هذه المناسبة ، فسار على رأس موكب

من أعضاء المؤتمر وغيرهم الى حديقة التويلرى حيث أحرقت صور كثيرة احراقا رمزيا واختتم الحفل بالتبارى فى القاء الخطب التى تجلت فيها خيلاء روبسبيير بصورة غير عادية . ومن المشكوك فيه أن تكون هذه الحركة قد وافقت حقا رغبات الكثيرين الا أنها قوبلت بشيء من الترحيب لانه كان مأمولا أن تؤدى الى انهاء عهد الارهاب ، بيد أن عهد الارهاب لم يكن لينتهى لانه كان مرتكزا كما وضحنا على الخوف قبل سواه ، ورغم أن الخوف من العدو الاجنبى كان فى طريقه الى الزوال فثمة خوف آخر ظل قائما ألا وهو خوف كل زعيم سياسى من خصومه ومن الهلاك الذى ينتظره ان هو خسر المعركة وسقط . وعلى هذا فان الارهاب بدلا من أن ينتهى صار أحمى وطيسا من ذى قبل . وفى ١٠ يونيو سنة ١٧٩٤ صدر قانون عرف باسم « قانون بريريال » نسبة الى اسم الشهر الذى صدر فيه فى تقويم الثورة الجديد . وقد قضى هذا القانون بتعديل اجراءات محكمة الثورة وتعجيلها . ودعا جميع المواطنين الى الوشاية بالخونة ، وأزيلت عن أعضاء المؤتمر الحصانة التى تحول دون القبض عليهم ، وحددت الادلة التى يصح الاستناد اليها لاصدار حكم الادانة تحديدا أشد غموضا وخطورة من ذى قبل . وعلى هذا ارتفع عدد الضحايا بسرعة ، فبلغ عددهم فى باريس وحدها فيما بين ١٠ يونيو و ٢٧ يوليو وهو تاريخ سقوط روبسبيير ١٣٧٦ ضحية أى مايقرب من نصف العدد الاجمالى (٢٧٥٠) ولا يتجاوز عدد المنتمين من هؤلاء الى الطبقات التى كانت تتمتع بالامتيازات فى الماضى بل والى الطبقة الوسطى كذلك ٦٥٠ شخصا . من ذلك نرى أن تحدى روبسبيير لخصومه وللمؤتمر ولما بقى من المشاعر الانسانية لدى الثوريين كان مباشرا ومثيرا فلم تتأخر النتيجة الطبيعية طويلا . كان سان جوست قد دعا منذ فترة الى اقامة ديكتاتورية تمشيا مع اقتراح روسوف « العقد الاجتماعى » ، ومع أن اقتراحه لم يقبل الا أنه من المؤكد أن روبسبيير وأصدقاءه قد

وطدوا العزم فيما بينهم على اقامة شـكل للحكم أشـد تركيزا كى يشعروا بالمزيد من الامن ويتمكنوا من الانصراف الى مهمة البعث الاجتماعى للبلاد التى لا نشك فى أنها كانت عزيزة حقا على نفوسهم .
وقد افتتح روبسبيير الحملة فى ٢٦ يوليو سنة ١٧٩٤ بخطاب غريب ، يتسم ـ شأن جميع خطبه بالبلاغة وحسن الاعـداد ـ ألقـاه أمام المؤتمر وانبرى فيه للدفاع عن نفسه بل تقريظها والحديث عن ظـلم المعارضة له وضخامة عدد الاعداء الذين يقاومونه دون أن يذكر أحدا بالاسم . ولعل غموض ذلك الهجوم هو الذى أدى الى سقوطه فلو أنه عرض قائمة بأسماء الضحايا لكان من الجائز أن يوافق المؤتمـر على اعتقالهم أما تلك العبارات الغامضة فانها تكاد تنطوى على تهديد لكل عضو من أعضاء المؤتمر دون استثناء . وهكذا نجد أن روبسبيير لم يكد يفرغ من القاء خطابه حتى استجمع المؤتمر أطراف شـجاعته وأعرب عن استنكاره له برفضه الموافقة على تداوله كأحد البيـانات الرسمية للثورة . فكانت صدمة لم يعرف لها روبسبيير مثيـلا من مدة ، فاتجه الى نادى اليعاقبة وهو فى أشد حالات الاستياء وهنـاك أعاد القاء الخطاب وسط التهليل العام . وقد بيت النية على أن يعاود الكرة فقدم بنفسه فى اليوم التالى الموافق ٢٧ يوليو (أو التاسع من ترميدو وفقا لتقويم الثورة) الى اجتماع المؤتمر فى العاشرة صباحا وكان يزمع بلا ريب ازالة الغموض الذى أحاط بخطابه الاول وتحديد أهدافه تحديدا واضحا ولكن أعداءه ، أو بالاحرى أولئـك الذين يخشون بطشه ، كانوا قد اتخذوا أهبتهم واتفقوا على منعه من الكلام، فلما اعتلى المنصة التى تلقى منها جميع الخطب قوطعت كلماته الاولى بضجة عنيفة ظلت تتجدد كلما حاول الكلام . ولم تكلل جهود أنصاره الذين حاولوا الكلام بأى نجاح . لقد كان مشهدا لا يضارع فى هرجه واضطرابه وعنفه ، فلابد أن معظم الممثلين الذين شاركوا فيه كان

يساورهم الشعور بأن حياتهم قد أصبحت فى كفة القـــدر . وأخيرا توصل المؤتمر الى قرار باعتقال روبسبيير وسان جوست وأتباعـــه المباشرين ، فسـلم هؤلاء الى حـراس المؤتمر ليلقوا بهم فى غياهب السجن وبدا أن الصراع قد انتهى .

غير أنه لم يكن قد انتهى بحال . فان الكومبين أو المجلس البلدى لمدينة باريس كان قد دخل منذ سقوط هيبر وشوميت فى دائرة نفوذ روبسبيير وأصدقائه الذين آلت لهم بالتالى السيطرة على ســجون باريس . فلما بلغت أنباء اعتقال روبسبيير دار البلدية صــدر الامر باطلاق سراحه وأعيد ظافرا الى هنالك . ومن ثم فقد تبين المؤتمر عند عودته الى الاجتماع عصر اليوم نفسه أن عدوه الخطير مطلق السراح وأن المسألة لم تعد الآن مسألة اصدار قرارات أو الحصول على أغلبية الاصوات وانما أصــبحت متوقفة على القوة والسلاح . فأصــدر الاعضــاء قرارهم باعتبار روبسبيير خارجا على القانون ثم انصرفوا الى تنظيم المعركة .

وقبل أن ينقضى يوم ٢٧ يوليو كان الطـرفان قد أعدا نفســيهما للقتال ، فأنيط الدفاع عن دار البلدية الى هنريو الذى كان من أنصار روبسبيير الموثوق بهم وان لم يكن فى الحقيقة جديرا بهـذه الثقة . وأعد المؤتمر من جانبه ما استطاع من قوة ثم زحف بها للهجوم على دار البلدية . فلم يدر القتال بالمعنى الحقيقى للكلمة ، ومن الجائز أن روبسبيير بات مكروها حقــا وان باريس قد سئمت عهـد الارهاب الذى كانت تنســبه اليه . ومن الجائز أيضــا أن هنريو قد قصر فى تدابيره الدفاعية ، الا أنه من المؤكد على أية حال أن اســتحكامات دار البلدية قد اقتحمت وأن المهاجمين قد اندفعوا يصــعدون الدرج قاصدين الغرفة التى كان روبسبيير مجتمعا فيها بأصــدقائه ، وأنهم عندما دخلوها وجدوا روبسبيير مهشم الفك راقدا على المنضــدة .

ولا يمكن القطع بما اذا كانت اصابته قد حدثت بيده هو أم بيـد غيره . وكان عدد من حلفائه قد قفزوا من النافذة فتكسرت أطراف البعض وسقط البعض الآخر فى أيدى أعدائهم المتربصين لهم بالخارج . ولما كان روبسـبيير قد اعتبر من قبل خارجا على القـانون لم تكن ثمة حاجة الى محاكمته اذ أن التعرف عليه كان كافيا فى حد ذاته ، ومن ثم فقد مضى بشخصيته التراجيـدية الغريبة الى المصير المفجع الذى أرسل اليه مئات الناس من قبله .

كان من الممكن أن يعتبر سقوط روبسبيير مجرد واقعة من وقائع عهد الارهاب الكثيرة ، لو أنه أدى مثلا الى أن تؤول مقاليد الحكم الى ارهابى آخر أشد منه عنفا وأقل ضميرا ، غير أنه من واجبنا أن نذكر لوجه الحقيقة والتاريخ أن عهد الارهاب قد صار — اعتبـارا من لحظة سقوط روبسبيير — الى زوال سريع . وأسباب ذلك عديدة . فالموقف كان متسـما فى جوهره بعدم الاسـتقرار . ولم يكن من المعقول أن يكتب الدوام لحكم المقصلة فى فرنسا القرن الثامن عشر ، فأخذ الرأى العام فى باريس يتحول الى مناهضته فى وضوح وعنف ، ولكن ثمة سببين أهم من سـواهما جعلا من اختفاء عهد الارهاب فى تلك اللحظة أمرا محتوما . أولهما أن الخطر الاجنبى كان فى طريق الاندثار السريع . وسنعود الى هذه النقطة فى نهاية هـذا الفصل . وحسبنا الآن أن نذكر أن فرنسا قد تحولت بعد معركة فليرى الى دولة معتدية ، وأن الهجوم على حدودها الشمالية والشرقية والجنوبية قد باء بالفشل الذريع ، فأخذ الشعور بالطمأنينة والزهو حيال الموقف العسكرى ينمو ويتصـاعد ، وقد أضفى ذلك الشـعور على وجود محكمة الثورة وسوق أفواج الضحايا الى المقصلة بلا انقطاع ، مظهر السخف والاجرام . ذلك أن قيام حكم الارهاب كان اجراء عسكريا قبل كل شىء فلما بدأ الخطر العسكرى يتوارى توارى معه عهـد

الارهاب . أما السبب الثـانى ــ وان يكن أقل أهمية من السـبب الاول ــ فهو أن سقوط روبسبيير كان يعنى انتصار المؤتمر قبل أى شىء آخر . ذلك أن الصراع كان على أشده بين قوى المؤتمر وقوى الكومبين ، بين الهيئة التى تمثـل فرنسا والهيئة التى تمثل باريس ، وقد آل النصر فى ذلك الصراع الى المؤتمر ، أى الى فرنسا . ولاول مرة فى تاريخ الثورة باءت بالهزيمة والخذلان محاولة استخدام القوة الشعبية لسحق ارادة نواب فرنسا المنتخبين . فأحس المؤتمر بمزيد من الثقة وراح يتخذ الاجراءات الضرورية ليؤمن لنفسه تلك السلطة التى فاز بها بعد كل هذا العناء .

أغلق الكوميون فور سـقوط روبسبيير ــ وأوكلت مهـامه الى اللجان والمفوضين . وأعيد تنظيم محكمة الثورة فى ١٠ أغسطس كى تتمشى مع الاجـراءات العادية فى القـانون الفرنسى ، ألغى قانون « بريريال » . أعيد تشكيل اللجان التنفيذية فى أول سبتمبر ووضعت تحت اشراف المؤتمر المبـاشر ، فلم يعد للجنة الامن العـام ــ رغم بقائها ــ ذلك الكيان المستقل الذى كانت تتمتع به من قبل . وفى ١٢ نوفمبر أغلق نهائيا نادى اليعاقبة ، ذلك المصـدر الدائم للثورات . وفى هذه الاثناء أخذت أحكام الاعدام تتضاءل عددا بحيث يمكننا القول بأن عهد الارهاب قد انقضى بحلول شتاء ١٧٩٤ . ومن الحقائق الرمزية الملفتة للنظر أنه قد سمح لخمسة وسبعين من أعضـاء حزب الجيروند المسـجونين بالعودة الى مقاعدهم بالمؤتمر حيث صـاروا عضدا قويا لحركة الردة عن عهـد الارهاب . على أن العاصـفة لم تسكن الا بعد تجدد الاضـطرابات من حين لآخر . وثمة مصـادفة شجعت على ذلك هى أن شـتاء ١٧٩٤ ــ ١٧٩٥ جاء قاسـيا بدرجة مروعة . فكان من المحتم أن تكابد البلاد عناء شديدا على أية حال ، ولكن تفشى الفقر واضـطراب أحوال التجارة والمعاملات أديا الى

تفاقم الشعور بهذا العناء . فقامت فى باريس خلال شهر أبريل سنة ١٧٩٥ هبة من تلك الهبات التى باتت باريس تعرفها جيدا سميت بهبة جرمينال نسبة الى اسم الشهر الذى وقعت فيه فى تقويم الثورة . وكان مطلب الثوار هو « الخبز ودستور سنة ١٧٩٣ » والارجح أن هذه الهبة لم تصل فى أية لحظة من لحظاتها الى مرحلة الخطورة الحقيقية ، وقد تمكن « بيشجرو » الذى كان على رأس قوات باريس المسلحة من القضاء عليها بسهولة . وهكذا انتصر المؤتمر مرةأخرى ، فاقترن انتصاره باتخاذ المزيد من الاجراءات ضد اليعاقبة وعهد الارهاب . ومن ذلك نفى كبار الارهابيين واعادة تشكيل الحرس الوطنى ليصبح درعا للطبقة الوسطى ، ورد أملاك ضحايا المقصلة الى ذويهم .

وقد قامت هبة أخرى فى مايو سنة ١٧٩٥ (هبة بريريال). وكانت أهدافها ذات صبغة سياسية أوضح هذه المرة اذ كانت من تنظيم أعضاء حزب اليعاقبة القديم . وقد شكلت فى احدى لحظاتها خطرا جديا اذ احتل الثوار قاعة المؤتمر وحاولوا أن يفرضوا عليه أصدار تشريعات تعود بفرنسا الى مبادىء سنة ١٧٩٣ و ١٧٩٤ ، ولكن خف لنجدة المؤتمر الوطنى لا الحرس الوطنى وانما القوات النظامية بقيادة مينو ومورا ، فتم اخراج الثوار دون ما مشقة ، واتخذت الخطوات على الفور لتعزيز الدفاع عن المؤتمر ضد مثل هذا الهجوم فى المستقبل .

ثم وقع فى ١٠ يونيو سنة ١٧٩٥ حادث كانت له عواقب هامة . فقد مات فى السجن ابن لويس السادس عشر الصغير الذى كان جميع الملكيين يلقبونه بلويس السابع عشر . ولا حاجة بنا لان نشغل أنفسنا بتفاصيل قصة حياته المفجعة الأليمة . ولكن من الأهمية بمكان أن

نذكر أن وارث العرش الفرنسي قد أصبح ، من الآن فصاعدا وبلا منازع شقيق الملك الراحل ، الكونت دي بروفنس الذي سيقدر له أن يحكم في سنة ١٨١٥ باسم لويس الثامن عشر ، وان كان في الوقت الذي نتحدث عنه ضابطا في خدمة جيوش العدو الاجنبي الموجهة ضد فرنسا . ولما كان هناك الكثير من الفرنسيين ، الملكيين اسما ، الذين لايتوقع منهم أن يقروا بحق عدو لوطنه في تولي العرش ، فقد رؤي أن من الحكمة التقدم على الفور بدستور جديد يزيل كل غموض حول نوع الحكم ويساعد على كسب من يستطاع كسبهم .
وقد عرف هذا الدستور باسم دستور السنة الثالثة وقد ظل قائما بتعديلات طفيفة جدا حتى أسقطه نابليون عام ١٧٩٩ . وهو يبدأ باعلان واجبات المواطن وحقوق الانسان ، ويقصر حق الاقتراع على من يتوفر لهم شرط الاقامة لمدة معينة ودفع ضرائب محددة . وهو ينقض قرار سنة ١٧٩٠ الذي نبذ فكرة قيام مجلس ثان اذ أنه لايكتفي بالنص على تأليف « مجلس الخمسمائة » من نواب تزيد أعمارهم على الثلاثين بل ينص أيضا على تأليف « مجلس الشيوخ » من أعضاء تزيد أعمارهم على الاربعين ، ولهذا المجلس الاخير حق تعطيل (فيتو) التشريعات التي يقرها المجلس الاول وذلك لمدة عام واحد .
وينص الدستور كذلك على حق المجلسين في الاجتماع خارج باريس . وقد أورد ذلك النص بقصد التخلص من تأثير جماهير باريس الخطير الذي طالما أحسه الناس أثناء الثورة ، فساعد — كما سنشاهد — على صعود نابليون الى السلطة . ولم ينص الدستور على أن يكون على رأس الدولة ملك بالطبع ولا رئيس للجمهورية ولا قنصل ، وانما لجنة مؤلفة من خمسة أعضاء تحل محل لجنة الامن العام وتسقط عضوية واحد من أعضائها كل عام وقد عرفت هذه اللجنة باسم « حكومة الادارة » أو الديركتوار وتضمن الدستور نصا أخيرا كان

السبب المباشر فى وقوع الانفجار التالى ، ونعنى به النص الذى يقضى بسقوط العضوية عن ثلث أعضاء كلا المجلسين كل عام على أن يكون ثلثا أعضاء أول مجلسين من أعضاء المؤتمر الحاليين . وقد قامت الهبة ضد فقرة الثلثين بالذات اذ أنها كانت تعنى أن الانتخابات لن تؤدى الى أى تغيير مباشر فى طبيعة الحكومة وأن المؤتمر سيطيل حكمه ولو لفترة محدودة ، ومن ثم فقد التقى اليعاقبة والجيروند بل والملكيون فى معارضتهم لهذه الفقرة البغيضة . وفى ٣ أكتوبر قامت آخر حركة تستحق الذكر وهى حركة « فندميير » . فقد هبت باريس كما فعلت مرارا من قبل ولكن هبتها هذه المرة كانت أقوى تنظيما من سابقاتها . على أن المؤتمر كان من جانبه مصمما أشد التصميم على تنفيذ مشيئته ومستعدا كل الاستعداد لدعوة الجيش للرد على مظاهرات القوة الشعبية . وقد أنيط الدفاع عن التويلرى وقاعة المؤتمر الى الجنرال بارا ، وكان مساعده نابليون بونابرت الذى ذاع صيته من قبل لحسن بلائه فى حصار طولون. ولما وقع الهجوم على المؤتمر فى ٥ أكتوبر قوبل المهاجمون بنيران المدفعية وردوا على أعقابهم بسهولة . وقد بولغ كثيرا فى تصوير ذلك القتال فان خسائر الثوار الاجمالية لم تتجاوز فيما يبدو ١٠٠ نسمة . وانما تتمثل أهميته فى أن الحكومة المركزية قد أخمدت — مرة أخرى وبحزم أشد من أى وقت مضى — هبة شعبية . ولم يعد اذن لكلمة الشعب سحرها القديم الذى يشل عن الحركة ، فهاهى الحكومة تتمسك بحقوقها حيال الشعب نفسه . والحادث ذو دلالة خاصة أيضا لان قيادة الجيش فى الداخل أسندت على اثره الى نابليون اعترافا بدوره فى اخماد الحركة . وبذلك وضع قدمه على السلم الذى لن يلبث أن يتسلقه الى العلا . وما ان حل ٢٦ أكتوبر سنة ١٧٩٥ حتى قضى المؤتمر نحبه . والتاريخ لايعرف هيئة نيابية تفوقه شأنا ، ولا يضارعه فى الاهمية سوى البرلمان الانجليزى المديد فى القرن السابع عشر .

ويجمل بنا أن نختم هذا الفصـــل بالقاء نظرة سريعة على الموقف العســكرى . فى أول يونيو ١٧٩٤ وقعت أولى العمليــات البحرية الكبرى فى الحرب . اذ كانت بعض السفن الفرنسية تحمل تموينا فى طريقها الى دخول ميناء برست فلما خرج الاسطول الفرنسى لمرافقتها وجد نفسه وجها لوجه أمام أسطول بريطانى بقيادة لورد هاو . ولم تسفر المعركة عن هزيمة ســاحقة للفرنسيين الا أنها كانت حاســمة . فلم تجابه ، لفترة طويلة بعدها ســيادة بريطانيا البحــرية فى المانش بأى تحد . وفى يونيو من العام التالى (١٧٩٥) تعاون البريطانيون مع النبلاء المهاجرين فى تنظيم هجوم على « بريتانى » . وكان المأمول أن تلتقى القوة الفرنسية التى يتم انزالها فى خليج « كويبرون » العون من الفلول المتناثرة الباقية من لافنديه . وقد تم انزال القوة الفرنسية بالفعل ولكنها ألفت نفسها محاصرة فى شبه جزيرة كويبرون بجيش فرنسى بقيادة الجنرال هوشيه . فاضطر الملكيون الى الاستسلام فى النهاية وأعدم عدد كبير منهم . وبذلك خابت كل الآمال التى عقدت على قيام عصيان ناجح فى الغرب ضد حكومة الثورة . وفى البر كذلك كان التوفيق حليف جيوش فرنسا فى كل مكان تقريبا ، ولم ينشب أى قتال كبير يســتحق الذكر . وكانت أهم حقيقــة فى الموقف أن بروسيا والنمسا قد أصبحتا تتخذان احــداهما من الاخرى موقف الخصومة الصريحة وان ظلتا حليفتين بالاسم . ونحن نستطيع أن نجد فى الشئون البــولندية ــ كما فى الماضى ــ سببا من أسباب هــذه الخصومة . ذلك أن التقسيم الثانى قد ترك هذا البلد التعيس عاجزا كل العجز عن تدبير شئونه بنفسه أو الاحتفــاظ بمركزه كدولة من الدول الاوروبية ، فقرر أولئك الذين سطوا عليه مرتين من قبل أن يعاودوا الكرة للمرة الاخيرة ، وقد دارت مفاوضات التقسيم الثالث بين النمسا وروســيا ، وأخفى أمرها عن بروســيا ورغم أنها منحت نصيبا من الغنيمة فان ذلك لم يخفف بالمرة من شعورها العدائى المفعم

بالظنون . وكان البروسيون ينفقون فى الفترة الاخيرة من الاعانات المالية التى يتلقونها من الحكومة البريطانية ولولاها لتركوا الحرب من مدة ، ومؤرخوهم يعترفون بما فى موقفهم يومئذ من مهانة ويتأسفون على ذلك . وأخيرا تم فى سنة ١٧٩٥ اقرار السلام بين بروسيا وفرنسا فى صلح بازل . وبوسعنا أن نلخص شروطه الهامة كما يلى : الشروط العلنية وهى تتضمن احتلال فرنسا للضفة اليسرى للراين الى حين عقد صلح عام وتعهد فرنسا بالامتناع عن القيام بأية عمليات حربية فى شمال ألمانيا وبالاعتراف بحق بروسيا فى القيام بدور الوسيط لاية دولة ترغب فى الصلح . والشروط السرية وهى تتضمن التعهد بتعويض بروسيا عن الاراضى التى جلت عنها على الضفة اليسرى للراين بأراض أخرى فى ألمانيا ، وبذلك قبلت بروسيا أن يكون تعويضها عن الاراضى الألمانية التى رضيت بالتخلى عنها لفرنسا على حساب الولايات الألمانية الصغرى وتقرر أن يتم الاتفاق سرا فيما بعد بين فرنسا وبروسيا على رسم حدود أراضى شمال ألمانيا التى وافقت فرنسا على الامتناع عن القيام بأية عمليات حربية فيها .

كان الصلح مهينا لبروسيا وقد حالت شروطه دون اعتبارها فى ذلك الحين ممثلة أو حامية بأى وجه من الوجوه لمصالح ألمانيا ككل . وكان كسب فرنسا هائلا . اذ كان الصلح بمثابة انتصار ، وان لم يكن عسكريا بحتا ولكنه انتصار على أية حال ، على أعظم دولة عسكرية فى القارة الأوربية ، فبدا بشيرا بانهيار كل مقاومة للجمهورية الفرنسية . وفى مايو سنة ١٧٩٥ عقدت هولندة صلحا مع فرنسا ووعدت بالانضمام الى صفها فى الحرب ضد انجلترا وتم ضمها الى الجمهورية الفرنسية فى كل شىء عدا الاسم ، وفى يوليو سنة ١٧٩٥ انسحبت أسبانيا من الحرب بعد أن نزلت عن جزيرة سان دومينجو للجمهورية الفرنسية وتعهدت بالتنازل عن بعض

الاراضى الاخرى . فبقيت النمسا وانجلترا وحدهما فى الميدان . واسوف يقتضى الامر عدة سنوات من الحرب لارغامهما على قبول الصلح ، ولكن النصر الذى تحقق حتى الآن كان فى ذاته مذهلا . وكلما راح الناس يتذاكرون بأية ثقة كانوا يتنبأون بسقوط الجمهورية العاجل فى ١٧٩٢ ثم فى سنة ١٧٩٣ ، ثم يجيلون النظر فى هجمات جيوش تلك الجمهورية وتكتيكاتها الحديثة واستراتيجيتها الجريئة وكيفية انتصارها فى النهاية ، اتضح لهم أن دولة جديدة من نوع خطير يتجاوز كل تقدير قد دخلت تاريخ أوروبا .

الفصل الرابع
إرتقاء نابليون إلى السلطة

ومن الآن فصاعدا ستنافس انتصارات الجيوش الفرنسية قصة التطور الداخلي في فرنسا في اثارة انتباهنا ، حتى نصبح عرضة لان نلفى أنفسنا قد نسينا ما يدور داخل فرنسا نفسها كلية وركزنا أبصارنا على انتصارات نابليون الفردية وحدها . لقد كان نابليون بلا ريب رجلا خارقا في حدة ذكائه وقوة شخصيته ، ولن يتعذر على من كان مثله أن يشق طريقه الى أسمى المناصب تحت أى ظروف وفى أى بلد . فقد كان يتميز بجلده على العمل ، وقدرته الهائلة فى التنظيم ، وبصيرته الحاضرة ، وشجاعته الفائقة واستعداده الكامل لتحمل المسئولية ، ومضائه فى تنفيذ أية خطة يأخذ على عاتقه تنفيذها — أى أن جميع صفات الجندى قد اكتملت فى أعلى صورها . وكان يملك الى هذا كله موهبة العبقرية التى تستعصى على التحليل . ولكن فى صعوده ماهو أكثر بكثير من مجرد قصة رجل قدير يفوز لنفسه بمكانة سامية فى العالم . فان هذا الحادث انما يعكس كذلك أحد القوانين العامة التى نستطيع أن نقتفى آثارها على سطح التاريخ . فبوسعنا أن نشاهد دائما كيف تنتهى حقب الاضطراب والثورة باقامة حكم قوى غالبا مايكون حكما فرديا . والمثلان اللذان يرد ذكرهما عادة كلما تناول المؤرخون سيرة نابليون هما انشاء الامبراطورية الرومانية على يد يوليوس قيصر بعد قرن من الاضطرابات والثورة فى روما ، وقيام حكم أوليفر كرومويل الفردى على أثر ثورة « البيوريتان » ولكن هذين المثلين انما هما أبرز الامثلة فقط ،

فنحن نستطيع أن نجد أيضا شيئا من هــذا القبيل فى مجىء ملكية التيودور بعد حروب الوردتين وفى انتهاء حرب المائة عام فى فرنســا بما جلبته من اضطرابات وآلام بتركيز السلطة فى يد الملكية على عهد شارل السابع ولويس الحــادى عشر ، وكذلك فى انتشار الحــكم الفردى بصورة عامة جدا عقب حرب الثلاثين عاما فى ألمانيا . ومثل هذا التطور الذى يتخذ شــكل الظاهرة العامة لابد وأن تكون له أسباب مشتركة وهى أسباب ليس من العسير علينا أن نتبينها . فان المجتمعات التى تمر باضطرابات كبرى لأى سبب من الاسباب تشعر بالحاجة الى قيــام نظام مستتب ، باعتباره أول مســتلزمات حياتها الاجتماعية . فاذا عجزت عن بلوغ مرادها بالوسائل الدستورية وعن طريق الاتفاق المتبادل وممارسة الحرية ، رضيت بالحصول عليه على يد جندى قوى . وبوسعنا أن نشاهد أيضا كيف ينتقل البت فى مصائر الأمور ، فى مثل هــذه الثورة التى كنا نتنــاولها بالبحث وفى الفترات التى يسودها الاضــطراب كتلك التى أشرنا اليهــا ، الى أولئك الذين يملكون زمام أكبر قدر من القوة بمعناها المادى . وفى فرنســا على وجه التخصيص نجد أنه لم يكن لارادة الشعب وأصوات المواطنين القرار الاخير فى أية مسألة هامة تقريبا منذ ١٧٩٣ رغم ماكان يكال لهذه الارادة من ضروب الثناء والتمجيد . فقد سقطت الملكية بالعنف ، بالعنف قامت الجمهورية وبالعنف أنقذت ، وبالعنف صعد روبسبيير وبه سقط . لذلك أصبح من الطبيعى أن تحكم فرنســا آخر الامر بوساطة العنف فى أرقى صوره : لا بوساطة غوغاء باريس الصاخبة وانما بوساطة كتائب فرنسا المدربة الظافرة . ويجدر بنا أن نلاحظ أخيرا أن فرنســا كانت قد بدأت تسأم المشــاحنات الســياسية والاجتماعية . لقد تحققت جزئيا آمال سنة ١٧٨٩ الحماسية بيد أنه ثبت فى أغلب الحالات أنهــا غير قابلة للتحقيق . واذ راح النــاس ينظرون بعين السخرية والعداء الى مشاحنات الساسة الحزبيين الذين

لم يترجموا قط أقوالهم الرنانة وأمانيهم الضخام الى أفعال ، أخــذ انهيارهم بالانتصــارات التى أحرزها قواد الجمهورية يتزايد ، تلك الانتصارات التى لن يلبث نابليون بونابرت أن يمنحها للجمهورية فى صورة أوفى وأروع . انماكاد يوصى به روسو فى « العقدالاجتماعى» وما تنبأ به « بيرك » فى فقرة رائعــة من « تأملاته حول الثــورة فى فرنسا » يوشك الآن أن يتحقق . فلن يلبث المطاف أن ينتهى بتلك الحركة التى بدأت بالرغبة المتوقدة بل الرغبة المغالية فى نيل الحرية ، الى قيام حكم دكتاتورى عسكرى (١) .

ولد نابليون فى سنة ١٧٦٩ بأجاكسيو بجزيرة كورسيكا من سلالة ايطالية ، بعد مضى عام على انفصام الرابطة الطويلة بين كورســيكا وايطاليا وضم الجزيرة الى فرنسا رغم مابذله « باولى » من جهود لصيانة استقلالها وعطف بريطانيا على هذه الجهود ومؤازرتها لها بين

---

(١) تامل روسو فى أواخر كتابه « العقد الاجتماعى »فى ضرورة وجــود ملك يقضى بتكليف أفضل المواطنين برعاية شئون الدولة عنــدما تتعرض سلامة البلاد للخطر . ويقول فى جزء متقــدم من الكتاب «ان قلبى يحدثنى بان هذه الجزيرة الصغيرة (كورسيكا) ســتذهل أوروبا فى يوم من الأيام » على أن قوله هذا لايعدو بأن يكون رجما بالغيب شاءت له الصدف أن يصدق أما كلمات «بيرك » التالية التى كتبها فى بداية الثــورة الى «شاب صــغير فى باريس » فهى من قبيل النبوءة التاريخية الأصيلة لأنها تنبعث عن الادراك الصادق للموقف: «ان ضباط الجيش يظلون اذا مازالت عن السلطة القديمة هيبتها وراح الجميع يتذبذبون ، متمردين منقسمين على انفسهم لفترة ما حتى يظهر فى صفوفهم قائد يجيد فن كسب قلوب الجند ... فترنو اليــه أبصار الجميع ،وتطيعه الجيوش تقديرا لشخصه هو ... على أنه بمجرد أن يحدث ذلك سيصبح الشخص الذى يأتمر الجيش فعلا بأمره ســيدكم وســيد مليككم (وليس هذا بالشىء الكبير) وسيد جمعيتكم وســيد جمهوريتكم بأسرها » . انظر « تأملات حــول الثــورة فى فرنسا » (اكتوبر ١٧٩٠) المجلد الثانى من الكتابات المختارة لبيرك (مطبعة كلارندون ١٨٧٧ ص ٢٦٠ .

Reflections on the Revolution in France (October 1790); Burke : Select Works (Clarendon Press, 1877), vol. II. p. 260.

الحين والحين . وهكذا ولد نابليون مواطنا فرنسيا . واذ كان من أبناء أسرة ضخمة فقد رؤى له أن ينشأ منذ باكورة صباه نشأة عسكرية فأرسل فى سنة ١٧٧٩ الى الاكاديمية العسكرية فى « بريين » . وفى سنة ١٧٨٥ عين ملازما ثانيا فى احدى كتائب المدفعية وكان حينذاك متقد الحماسة لآراء « روســو » ولفكرة قيام جمهورية على النمط الكلاسيكى واستقلال كورسيكا . فلما نشبت الثورة رحب بهـا . وقد حظى الجمهوريون باعجابه الشديد ومن المعروف أنه عقد صداقة وثيقة بعض الشىء بشقيق روبسبير . وعندما سـقطت الملكية على اثر الهجوم الذى قامت به جماهير باريس فى ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٢ كان هو عاطلا عن العمل . وقد شاهد طرفا من أحداث ذلك اليوم وسجل اعتقاده بأنه كان فى الامكان تفريق الجماهير الظافرة دون ما صعوبة بوساطة عدد من الجنود المدربين . وقد اشترك بعد ذلك بقليل فى اخماد ثورة فى كورسيكا ، ومنذ ذلك الحين أخلت وطنيتـه المحلية السبيل لاخلاصــه الصادق لفرنســا . وفى ديسمبر سنة ١٧٩٣ لعب دورا هاما ــ وان لم تكن أهميته بالدرجة التى صورت بها فى بعض الأحيان ــ فى الاستيلاء على طولون من البريطانيين . وفى ســبتمبر سنة ١٧٩٥ أنقذ المؤتمر كما رأينا فى ختام الفصل الثالث من هجوم الثوريين . وفى سنة ١٧٩٦ أى فى السابعة والعشرين من عمره تزوج أرملة هى جوزفين دى بوهارنيه البالغة من العمر اذ ذاك الرابعـة والثلاثين ، ويبدو أنها كانت غافلة تماما عن شـخصية الرجل الذى تزوجته والمستقبل العريض الذى ينتظره فرفضت مصاحبته الى أول حروبه ومشاركته مشاقها وأمجادها .

ظلت الجمهورية كما شاهدناها فى حالة حرب مع بريطانيا والنمسا رغم أنها قد أخرجت من الميـدان معظم أعدائها . ولا حاجة بنا الى الافاضة فى الحديث عن بريطانيا . حسبنا أن نذكر أنها تخلت بعـد

سلسلة من المحاولات الفاشلة عن التفكير فى ايقاع الهزيمة بالفرنسيين برا ، ولكن سيطرتها على البحار ظلت تشكل خطرا دائما على مستعمرات فرنسا وممتلكاتها ، فقدمت بذلك عونا كبيرا غير مباشر للنمسا . وقد شرعت حكومة الادارة ، وهو الاسم الذى أطلق على الحكومة الفرنسية الجديدة ، ترسم الخطط كى تسدد الى قلب الدولة النمساوية ضربة قاضية تحقق لها النصر والسلم . وتحقيقا لهذه الغاية تقرر أن تزحف جيوش فرنسا الرئيسية الى فينا بقيادة الجنرالين « مورو » و « جوردان » عن الطريق المعروف جيدا ، طريق الغابة السوداء والدانوب . كما تقرر أن يساند جيش آخر الهجوم الرئيسى وان يستدرج جزءا من الجيش النمساوى الى ميدان آخر وذلك بشن هجوم على الممتلكات النمساوية فى ايطاليا . وقد عهد بهذا الهجوم الثانوى الى نابليون بونابرت فجعله بعبقريته الفذة الضربة الأكثر أهمية .

لم تكن ايطاليا قد لعبت منذ عدة قرون أى دور مستقل هام فى السياسة الأوربية ، ولم تسهم منذ قرن ونصف قرن الا بالقليل فى حياة أوربا الفنية والأدبية والعلمية . الا أن ريحا جديدة لن تلبث أن تهب على شبه الجزيرة بعد غزو نابليون لها ، فتحرك جوها الساكن وتوقظها من سباتها العميق فلا تعود اليه قط . وقد كانت ايطاليا تتألف حينذاك من عدة دول . فكانت هناك أولا على جانبى جبال الألب مملكة سردينيا التى يعد اطلاق هذا الاسم عليها من الأمور العجيبة لان مركزها الحقيقى لم يكن يوجد فى الجزيرة التى سميت باسمها وانما فى أودية نهر « البو » العليا المعروفة باسم « بيدمونت » وفى جبال سافوى بسكانها الاشداء الذين عرفوا بروحهم العسكرية وحسن خضوعهم للنظام . وكانت هذه المملكة قد أصبحت منذ مدة بيدقا هاما فى لعبة الدبلوماسية الاوروبية بسبب موقعها الجغرافى وطبيعة

شعبها . على أنه لم يكن ثمة مايجعلها تستحق أن توصف فى ذلك الحين بأنها أكثر تحررا من أية دولة أخرى فى ايطاليا ، ولا كان هناك قطعا مايوحى بأن القدر قد اختار ملوكها لتنال ايطاليا على أيديهم الحياة الدستورية الموحدة التى حلم بها مفكروها . فاذا ما اتجهنا قليلا الى الشرق وجدنا دوقية ميلان الهامة التابعة للبيت النمساوى ، وقد أضفينا عليها صفة الاهمية بسبب ثرائها العريض وامكانياتها التجارية الضخمة ولانها تسيطر كذلك على الطريق الذى تمر منه القوات النمساوية عبر التيرول الى ايطاليا ، فحصون مانتوا ولناجو وفيرونا وبيشيرا التى تؤلف الرباعى الشهير هى التى كانت تحافظ على الاتصال بين النمسا وايطاليا . واذا ماتوغلنا الى الشرق مرة أخرى شاهدنا أقدم الدول الاوربية وأشهرها فى بعض النواحى ، ألا وهى جمهورية البندقية الغارقة الآن فى حال من التأخر والتى لن تلبث أن تسقط بضربة هينة من الفاتح العظيم الذى يوشك أن يدخل ايطاليا . فاذا اتجهنا الى الجنوب قليلا وجدنا دوقيات مودينا وبارما وتوسكانيا وكلها مرتبطة بالبيت المالك النمساوى ارتباطا وثيقا سواء بحكم المصاهرة أو الاتفاقات السياسية . والى الغرب نجد جمهورية جنوا التى تعد نظيرة لجمهورية البندقية وان تكن أقل تشويقا منها ، وقد كانت مثلها غارقة فى حال من التأخر . وفى وسط ايطاليا كانت تمتد الولايات البابوية التى تؤلف حكومة من أغرب الحكومات الأوربية ، ولا يتوفر لها سوى القليل من مقومات الدولة الحديثة وان درج القانون العام الاوروبى على الاعتراف بها كدولة مستقلة وحظيت باحترام خاص من جانب كبير من أوربا بسبب ارتباطها برئيس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . أما جنوب ايطاليا فكانت تشغله أكبر الدول الايطالية طرا وهى مملكة نابولى التى تقرب مساحتها من نصف مساحة شبه الجزيرة الايطالية برمتها . وكانت هذه المملكة تختلف وشعبها اختلافا بينا عن بقية البلاد حتى أن الوحدة التى أدت

الى ادماجها جميعا فى دولة مركزية واحدة بدت فى نظر الكثيرين غير طبيعية ومنافية لدواعى الحكمة . وكان ملك نابولى سليلا للبوربون وصهرا للبيت النمساوى . فاستهدفت المملكة بذلك لكراهية فرنسا الخاصة وصار من حقها فى الوقت نفسه أن تتطلع الى صداقة النمسا ومؤازرتها .

ان الحملة التى تبدأ الآن تعد من أكثر حملات نابليون استرعاء للنظر لاسيما وأنها أظهرت لأول مرة مدى عبقرية نابليون ، وأبرزت جسارته وسرعته فى اتخاذ القرارات والعمل ، وقدرته الاكيدة على التمييز بين الممكن وغير الممكن ، تلك القدرة التى لم تفارقه حتى مرحلة متأخرة من حياته العملية . ومن الوجهة العسكرية البحتة يجدر بنا أن نشير الى الأهمية الكبرى التى كان يعلقها على استخدام المدفعية وأن ننوه باصراره على تجنب الوقوف موقف الدفاع وتمسكه بتوجيه الحملة على أسس هجومية حتى عندما تكون قواته أقل عددا من قوات العدو . ويجدر بنا أن نلاحظ كذلك مالاحظه العسكريون فى عصره من أن طبيعة جيشه قد مكنته من أن يفعل مالا تستطيع أن تفعله الجيوش الأخرى . ذلك أن جيشه كان يتألف فى معظمه — وان ضم عناصر شتى — من جنود معنيين بأمر القضية التى يحاربون من أجلها ولا ينظرون الى قائدهم نظرتهم الى حاكم فظ قضت ظروف العيش أن يعملوا فى خدمته لقاء أجر بخس يدفعه لهم كارها . فكان بوسعه أن يرسلهم فى مهام استطلاعية ، فرادى أو جماعات صغيرة ، دون أن يخشى فرارهم ، الأمر الذى لاتستطيعه القوات التى يحاربها . ولئن كنا سنفرد — تمشيا مع الخطة التى رسمناها لهذا الكتاب — أقل حيز ممكن لتفاصيل هذه الحملات الفريدة فان هذا الاغفال للتفاصيل من جانبنا لا ينبغى أن يفهم منه أن هذه الحملات لم تكن لها أهمية قصوى فى تحديد تطور أوروبا ورسم مصائرها . فمن السخف البالغ

أن نتتبع مقادير القارة الأوربية دون أن نضع اعتبارا للحروب التى دارت بكل تلك الكثرة فوق أرضها . فمـا من بلد أوربى لم ترتهن حالته بحرب كسبت أو حرب خسرت ، ومامن جانب من جـوانب حيـاة القـارة العـامة الا وقد تركت الحرب فيه آثارها . ونحن لا نستطيع أن نتفهم حيـاة أوربا التجارية أو الفكرية أو السياسية مالم نرجع الى تاريخها العسكرى .

كان الجيش الفرنسى عندما عهد الى نابليون بقيادته واقفا عنـد سافونا الى الغرب من جبال الالب الايطالية ، وقد مضت عليه فترة من الزمن وهو يحاول عبثا أن يجد أو يشق لنفسه طريقا عبر الجبال . فما هى الا برهة وجيزة على تولى نابليون القيادة حتى وجد الطريق . وقد ألفى نابليون نفسه أمام جيش مشترك من السردينيين والنمساويين الا أنه استطاع أن يعزل بينهما وينزل الهزيمة بالسردينيين فى موقعة موندوفى ويفرض عليهم قبول هدنة كيراسكو (٢٨ أبريل ١٧٩٦) التى انسحبوا بموجبها من الحرب متنازلين عن سافوى ونيس لفرنسا .

وبقيت النمسا فى المعركة فلم يضيع نابليون وقتا فى منازلتها ، فزحف الى ميلانو لا بقصـد الاغارة على الميـلانيين فحسب وانمـا لعزل النمساويين عن بيدمونت كذلك . وكانت أولى معاركه الكبرى عند لودى فى ١٠ مايو سـنة ١٧٩٦ ، وقد أسـفرت عن نصر عظيم له . فانسحب النمساويون على الفـور الى مسافة بعيـدة شرق ميـلانو وتركوها لنابليون فدخلها وسـط مظاهر الحماسة الشعبية الفائقة ، ذلك أنه لم يبد أول الامر غازيا وانما بدا محررا فقوبل مقدمه بالترحيب لا من جانب أنصار التحرر وحدهم وانما من جانب رجال الدين فى المدينة كذلك . فلما تبين للايطاليين فيما بعد أن نابليون يريد منهم أن يدفعوا تكاليف الحرب ، وشاهدوه يفرض عليهم الضرائب الباهظـة وينهب مدنهم اذا مارفضوا دفعها ، تبدل شعورهم نحوه سراعا ، على

أن المؤرخين الايطاليين مجمعون وان اختلفوا في حكمهم على نابليون على أن هذه الاحداث انما تسجل بداية الحركة التي قادت الايطاليين بعد مايزيد قليلا على ستين عاما ، الى الوحدة والحرية . وقد ضرب نابليون بعد دخول ميلانو الحصار على الحصن النمساوى الرئيسى فى ايطاليا ألا وهو حصن مانتوا العظيم الذى كانت تحميه مدفعية قوية وتحيط به من معظم الجوانب بحيرات ومستنقعات يصعب اجتيازها . وكان مفهوما أن سقوط مانتوا سوف يعنى سقوط الحكم النمساوى فى ايطاليا ، فلم يكن تصميم النمساويين على فك الحصار عنه بأقل من تصميم نابليون على تشديد الخناق عليه . وقد اضطر نابليون فى أربع مناسبات مختلفة الى تخفيف حصاره له ليتمكن من منازلة الجيوش النمساوية التى أرسلت لقتاله فكان يهزمها المرة تلو المرة ، حتى أنزل بالنمساويين ضربة أخيرة حاسمة فى ١٤ يناير سنة ١٧٩٧ عندما تمكن فى موقعة ريفولى من تشتيت جيش نمساوى قوامه ٧٠٫٠٠٠ جندى بقيادة ألفينزى . ولم يبق بعد ذلك مزيد من الامل لحصن مانتوا فاستسلم بعد فترة وجيزة . ولكن السلم لم يأت على الفور ، فقد اضطر نابليون كى يفرضه الى التقدم فى شمال ايطاليا الشرقى ميمما شطر جبال الالب الشرقية حتى بلغ مدينة لايباخ . ولم يكن مركز نابليون نفسه خاليا من الصعوبات . كما أن تقدم الفرنسيين فى ألمانيا كان بطيئا ولا يقارن بحال بتحركاته الخاطفة فى ايطاليا . لذلك رأى من الحكمة ، مراعاة لمركزه الخاص من ناحية ولاحتياجات فرنسا من ناحية أخرى ، أن يوجه للأرشيدوق النمساوى شارل نداء لوقف الحرب . وقد أمكن الاتفاق على الهدنة فى ليوبن فى أبريل ١٧٩٧ . ورغم التوقيع على المقدمات فقد مرت فترة قصيرة من الزمن قبل أن يتطور الامر الى صلح . ذلك أن النمساويين لم يكونوا على استعداد لقبول الهزيمة ، فجعلوا يرقبون الاحداث فى باريس آملين فى نشوب ثورة ملكية هناك ، ولكن فألهم خاب وأصبحت الجيوش الفرنسية

تضيق الخناق عليهم لا شرق الادرياتيك فحسب وانما على الدانوب كذلك . وعلى هذا اضطروا فى ١٧ أكتوبر سنة ١٧٩٧ الى التوقيع على صلح كامبو فورميو فى صورته الاخيرة . وقد تضمن الصلح بنودا علنية وأخرى سرية . وقد تم التنازل لفرنسا بموجب البنود العلنية التى سنوفيها حقها من الشرح بعد هنيهة عن الاراضى البلجيكية ، وتقرر اقامة جمهورية فى شمال ايطاليا تسمى جمهورية شمال ايطاليا أو ماوراء الألب **Cisalpine** وأعطيت الجزر الأيونيةلفرنسا ، وسمح للنمسا بالاحتفاظ بالبندقيةوجميع أراضيها فى ايطاليا وبحر الادرياتيك (وسنعود الى بحث هذه السياسة بحثا أدق فيما بعد) . وأخيرا تقرر دعوة مؤتمر فى راشتاد تتم فيه تسوية شئون ألمانيا فى اجتماعات تعقد بين ممثلى فرنسا والامبراطورية . أماالبنود السرية فقدتعهد الامبراطور بموجبها بالتنازل لفرنسا عن مناطق ضخمة على الضفة اليسرى للراين على مافى ذلك من تخل مزر عن حماية الامبراطورية لا يستطيع أن يجاهر به . وتعهدت فرنسا من جانبها بأن تحصل النمسا على ولاية سالزبورج الكنسية الهامة ، وجانب من بافاريا ، كما تعهدت بأن بروسيا غريمة النمسا اللدود لن تنال أى تعويض على الاطلاق فى التسوية الالمانية . هذا هو صلح كامبو فورميو الذى يعد نموذجا صادقا لدبلوماسية نابليون التى أثبت فيها براعة تكاد تضاهى براعته فى فن الحرب ، وهو خير شاهدعلى استعداد الامبراطور الهابسبورجى فى ذلك العصر للتخلى عن حماية ألمانيا سعيا وراء مغانم شخصية ضئيلة ، وهو يعطينا فى النهاية فكرة صحيحة عن الطريقة التى ما برح يستخدمها نابليون طوال حياته العملية فى تهدئة عداوة خصومه الأقوياء بالسماح لهم بابتلاع أراضى الدول الصغرى فى أوربا .

ويجدر بنا أن نوجه الآن المزيد من العناية الى التسوية الايطالية التى تمت على يد نابليون والتى سيتوقف عليها مستقبل ايطاليا الى

حد بعيد . لقد شاهدنا كيف عوملت سردينيا فى هدنة كيراسكو . كما شاهدنا أيضا كيف تم الاعتراف بجمهورية ما وراء الألب فى صلح كامبو فورميو . وقد اتخذ هذا الاسم الغريب من تاريخ روما القديمة الذى كان يحرك فى تلك الفترة خيال الفرنسيين . وقد تألفت هذه الجمهورية أول الأمر من أراضى ميلانو وحدها تقريبا ، ولكن قامت بعد ذلك ثورات فى بولونيا وفيرارا ورافينا وريجيو جنوبا وكانت كلها مرتبطة بالدولة البابوية ارتباطا واهيا . وقد انتهت هذه الثورات بادماج هذه البلاد فى الجمهورية الجديدة بمطلق ارادتها . وبذلك قامت على أرض ايطاليا دولة جمهورية على النمط الحديث متأثرة بجميع المثل السياسية والاجتماعية التى بشرت بها الثورة الفرنسية . ان اسم هذه الجمهورية لن يلبث أن يتغير الى مملكة ، وطبيعتها سوف تتبدل ، ولن يقدر لها البقاء بعد موقعة ووترلو ، ولكنها رغم ذلك كله قد أعطت الايطاليين أفكارا عن الحياة الاجتماعية والسياسية لن تمحى من مخيلتهم قط وأول هذه الافكار جميعا فكرة قيام دولة ايطالية مستقلة . وكانت الخطوة التى تلت قيام الجمهورية الألبية — وسوف نطلق عليها من الآن فصاعدا اسم جمهورية شمال ايطاليا — هى سقوط جمهورية جنوا العتيقة الفاسدة واعادة تكوينها ، بعد ادخال المبادىء الديمقراطية فيها باسم الجمهورية الليجورية ، وهو اسم مستعار هو الآخر من التاريخ القديم . أما مصير البندقية فهو أدعى الى الاهتمام من مصير جنوه . فقد بذلت هذه الجمهورية الشهيرة قصارى جهدها للاحتفاظ بحيادها فى الصراع بين نابليون والنمسا والوقوف بمنأى عن الحرب الدائرة على حدودها . ولو صح ما يذهب اليه البعض من أن بوسع أية دولة أن تصبح فى مأمن من غوائل الحرب ان هى لم تتسلح واختطت لنفسها طريق السلام ، لما كتب تاريخ أوروبا على النحو الذى كتب عليه . ذلك أن عجز البندقية لم يؤد الا الى جعلها لقمة سائغة للمنتصر ، فان نابليون لم يجد حين عقد الصلح مع النمسا

ورغب فى اقامة علاقات طيبة مع عدوه المهزوم وسيلة أفضل لتحقيق غايته من أن يسلم الى النمسا ممتلكات وحريات وكيان هذه الجمهورية ذات المجد العريق التى لم ترتكب ذنبا ولا جرما .

لم يكن ثمة ما يبرر القضاء على استقلال البندقية مثلما لم يكن هناك مايبرر تقسيم بولندة المرة تلو المرة . بيد أنه لم يكن من الصعب ايجاد بعض الاعذار الواهية ، فقد قامت فى برشيا وبرجامو بعض الحركات المناهضة لحكومة البندقية الاوليغركية ، فأتاح قيامها لفرنسا فرصة الظهور بمظهر المدافع عن « الديموقراطية » . كما وقع صدام بين الحامية الفرنسية والاهالى الايطاليين فى فيرونا فقدت فيه أرواح فرنسية . ولما أطلقت النيران على سفينة فرنسية عند دخولها الى ميناء البندقية ، راح نابليون يندد بمرتكبى الحادث ويصفه بأنه « أفظع حوادث القرن » . واذ أدركت حكومة البندقية الخطر الذى يتهددها أسرعت الى قبول شكل ديموقراطى للحكم ، وطرد حراسها السلافونيين الذين اشتهرت بهم ، والسماح بدخول عدد من القوات الفرنسية . على أن ذلك كله لم يعد عليها بطائل ، فقد أسلمتها مفاهدة كامبو فورميو الى النمسا ، ولم تجد محاولة رشوة أعضاء حكومة الادارة فى فرنسا فتيلا ، فتم انتقالها الى تبعية النمسا فى أوائل سنة ١٧٩٨ . وكان الفرنسيون قد أحرقوا الكتاب الذهبى الذى يضم أسماء أعيان البندقية . فجاء النمساويون ليدمروا الترسانة العظيمة ويتركوا سفينة « البوسنتور » التى كان « يزف فيها الدوج الى [1] الأدرياتيك ليصيبها البلى وينخر فيها السوس ، فحق فى ذلك قول الشاعر :

« فانما نحن بشر ولابد أن نأسى
اذا ما انقضى الطيف بعد سالف العظمة

---

(١) الدوج هو اللقب الذى كان يطلق على حاكم البندقية .

وقد كان على الولايات البابوية أن تدفع كذلك ثمن الهزيمة ، ولكن نابليون كان حريصا على ترك الباب مفتوحا لاستئناف العلاقات الودية مع البابا . فلئن كان صلح تولينتينو (فبراير ١٧٩٧) قد أرغم البابا على التنازل عن أفنيون لفرنسا ، وعن بولونيا وفيرارا ورومانيا لجمهورية شمال ايطاليا ، واضطره أن يسلم لنابليون أموالا ومخطوطات وصورا ، فان الشروط التي كانت تود أن تفرضها حكومة الادارة كانت أشد وأقسى . ومن ثم فقد شعر البابا بالامتنان نحو نابليون لنجاته من مهانة أشد بل وربما من الهلاك !

ويجدر بنا أن نترك الآن حروب نابليون لنعود الى بحث متاعب فرنسا الداخلية . ان تاريخ فرنسا الداخلي يفقد في الفترة مابين سنة ١٧٩٥ و ١٧٩٩ تلك الأهمية التي كانت له حتى يوم حركة فندميير ، فان الصراع الذي دار بين زعمائها في تلك الفترة كان في معظمه صراعا فرديا أنانيا . وقد بدأ الجيش يتدخل من حين لآخر فيما ينشأ من صراع ، وأخذ الحكم العسكري يقترب بوضوح .

ولقد عرفنا شيئا عن طبيعة الدستور ، وشاهدنا كيف ظل « انفصال السلطات » مبدأ عزيزا في نفوس أصحاب النظريات من الفرنسيين . وينبغي أن نشير الآن الى صعوبة معينة بدأت تتجلى عند العمل بهذا الدستور ألا وهي فقدان توفر الانسجام بين أعضاء حكومة الادارة الذين تتألف منهم السلطة التنفيذية من ناحية ، وبين المجلسين التشريعيين من الناحية الاخرى . ذلك أن خدمة ثلث أعضاء المجلسين كانت تنتهي كل عام مقابل انتهاء خدمة عضو واحد فقط من أعضاء حكومة الادارة الخمسة . وعلى هذا فان ميول حكومة الادارة لم تكن تتمشى بالضرورة مع ميول المجلسين أو ميول الناخبين . وقد تألفت حكومة الادارة أول ما تألفت من كارنو « منظم النصر » ، والمهندس ليتورنيه ، وبارا الذي اشترك مع نابليون في حماية المؤتمر

يوم هبة فندمبير ، ولا رفبيير — ليبو وهو من الجيروند ، وأهم من هؤلاء جميعا روبل وهو يعقوبي من الالزاس كانت تتركز في يديه السلطة الكبرى .

وكانت المشاكل التي يتعين على هؤلاء الرجال مواجهتها عديدة وعويصة . فالموقف المالي كان يبدو ميئوسا منه . فقد انخفضت قيمة العملة الورقية التي أصدرتها الثورة assignats الى مايوازى ١٪ من قيمتها الاسمية . وكان الموقف الديني منذرا بالخطر ، فان « الكنيسة الدستورية » التي أقامتها الثورة كانت تفتقر الى الحيوية ولم يعد لها وجود تقريبا ، والحركة الدينية الجديدة التي سميت « حب الخير » ، وهي حركة أسسها انجليزي وأصبحت مشمولة الآن برعاية أعضاء حكومة الادارة لا سيما ليبو ، لم تتمكن — رغم طقوسها المدروسة بعناية ، والكنائس العديدة التي خصصت لها والعون المالي الذي نالته — من كسب الانصار والمؤيدين ، ولن تلبث الاحداث أن تظهر مدى تعلق الشعب بالعقيدة الكاثوليكية الرومانية في صورتها القديمة التي باتت محرمة مجردة من الاعتبار ، ومدى استعداد سواد الشعب الاعظم للترحيب بعودتها . ويجدر بنا أن نشير أيضا الى مسألة المهاجرين الذين لم يكن عددهم يقل في أغلب الظن عن ٣٠٠٠٠٠ مهاجر . لقد صودرت ممتلكات هؤلاء المهاجرين جميعا ، بل لقد حدث في حالات كثيرة أن ألصقت صفة « المهاجر » بأناس لا تنطبق عليهم حتى يتسنى الاستيلاء على ممتلكاتهم ، فكان أقرباؤهم يحتجون احتجاجا على هذه المظالم . ولعل أبرز سمتين من سمات تلك الفترة هما الاحتكاك بين المجلسين وحكومة الادارة ، وتدخل قادة الجيش . ويجدر بنا أن نسوق على ذلك مثلين ظاهرين .

ففي مارس سنة ١٧٩٧ أجريت الانتخابات لشغل مقاعد ثلث المجلسين ، فأسفرت النتائج عن كسب كبير للحزب المعتدل المناوىء

لليعاقبة ، فى حين كان ثلاثة من أعضاء حكومة الادارة الخمسة من اليعاقبة الذين لا يتطرق الى يعقوبيتهم شك . فنشأ عن ذلك موقف شائك . فهاهو الشعب يدلى بصوته فى انتخابات عامة على نطاق ضيق ضد الحكومة فلا تبدى الحكومة أدنى استعداد للتنحى عن الحكم . لقد ظن الكثيرون وقتذاك أن موجة من الرجعية توشك أن تجتاح البلاد ، وأرجأت الحكومة النمساوية تحويل هدنة ليوبن الى صلح حتى ينجلى الموقف ويحسم النزاع فى باريس . الا أن الموقف لن يحسم هذه المرة بوساطة أهالى باريس وانما على يد الجيش . ولقد لجأ أعضاء حكومة الادارة أولا الى هوشيه ولكنه أبى أن يلعب الدور الذى اقترح عليه ، فاضطروا الى اللجوء الى نابليون الذى كانت قد بدأت تزعجهم شخصيته وعبقريته ونجاحه . فبعث نابليون ضابطه أوجيرو لينفذ تعليماته . ولم تنشأ ضرورة تستدعى استخدام العنف . اذ كان ظهور ذلك الجندى الخداع المنظر الفارغ العقل كافيا فى ذاته ، فأطيعت أوامره . وخلع كارنو الذى نصب نفسه متحدثا باسم المعتدلين فى حكومة الادارة وتم اعتقال عدد من النواب من بينهم القائد العسكرى الرفيع الذكر بيشجرو . ثم ألغيت بناء على أمر حكومة الادارة نتائج الانتخابات فى ١٥٤ دائرة ، وتقرر التخلى عن فكرة العمل على اصطناع مزيد من الاجراءات المتسامحة ، وعومل المهاجرون والمخالفون لاتجاه الحكومة فى شئون الدين ، بالصرامة والشدة السابقة . لقد كانت الصلة التى افترض قيامها بين الرجعيين وخطط الحكومة النمساوية سببا مباشرا فى القضاء عليهم . فقد هب الجيش يثبت حكم اليعاقبة ليتمكن من املاء شروطه على العدو . وقد عرف هذا الحادث باسم انقلاب فروكتيدور . بيد أن المستقبل سيبين لنا أن التحالف بين اليعاقبة وقادة الجيش لم يكن تحالفا طبيعيا مقدرا له الدوام . وقد حدث شىء من هذا القبيل نفسه فى العام التالى عندما ألغيت نتائج الانتخابات فى ثلاثين مقاطعة لانها لم تكن مقبولة فى نظر

حكومة الادارة . لقد أصبحت أحداث باريس متوقفة بصورة مباشرة على الحرب ، وعلينا أن نعود الآن اليها لكى نفهم الحركة الداخلية الكبرى التالية التى تدخل فيها الجيش بوساطة قائده العظيم ليطيح بالجمهورية وباليعاقبة من فرنسا .

قبلت النمســـا الصلح الذى أملى عليهــا املاء ، ولكن بريطانيا ظلت منتصرة منيعة فى البحر ، فراحت حكومة الادارة تبحث جاهدة عن نقطة ضعف فى غريمتها ، وبدا فى بعض الاوقات أنها قد عثرت على مرادها . فقد نشبت فى سنة ١٧٩٧ حركات التمرد الكبرى فى الاسطول البريطانى المرابط عند « نور » و « سبيتهد » ، فخيل الى الفرنسيين فى لحظة من اللحظات أن شوكة بريطانيا فى البحار قـد كسرت . الا أن حركات التمرد لم تلبث أن سويت وبقيت قوة بريطانيا البحرية على ماهى عليه بلا نقصان . ولما قامت الثـورة الايرلندية الكبرى فى سنة ١٧٩٨ خف لمعاونتها جيش فرنسى تمكن من الوصول الى ايرلندة فعلا . ولكن الثورة الايرلندية خيبت ـ كما حدث مرارا من قبل آمال أعداء بريطانيا . فقد انهارت الحركة ، ولم تنفع فرنسا بشىء سوى الذكريات المريرة التى خلفتها . كيف السبيل اذن الى أن تسدد الدولة البرية ضربة خطيرة للدولة البحرية ؟ وأنى « للأسد » أن يفتك بـ « القرش » ؟ لقد خيل لأعضاء حكومة الادارة أنهم قد يجدون فى مصر كعب « أخيل » الذى يمكن أن تهزم منه بريطانيا المنيعة . ولم يكن لدى فرنسا أى سبب وجيه لمحاربة مصر التى كانت تحكمها اذ ذاك طائفة المماليك العسكرية ولا كانت لها آية شكاية جدية ضـد سـلطان تركيا الذى كانت له السيادة الاسـمية عليها ، وانما كانت بريطانيا هى البلد المقصود بالهجوم فعلا عندما أبحرت الحملة الفرنسية الى مصر . ذلك أن النمو السريع للنفوذ البريطانى فى الهند كان قد أشعل حماسـة الفرنسيين لاسترداد تفوقهم السـابق ، فرأوا أن فى وصول قوة فرنسية الى برزخ السـويس تهديدا لمركز الانجليز فى

الهند لأن فرنسا ستصبح اذ ذاك أقرب كثيرا الى الهند من بريطانيا . وكانت أول نقطة فى التعليمات التى أعطيت لنابليون عند ارساله الى مصر هى « طرد الانجليز من جميع ممتلكاتهم التى يستطيع بلوغها » ، تليها تعليمات أخرى : أن يشق قناة فى السويس ، وأن يحسن أحوال أهالى البلاد ، وأن يقيم السلم مع السلطان . وقد اصطحب نابليون معه عددا من علماء الدراسات المصرية القديمة لالقاء الضوء على آثار ذلك البلد الذى لم يكن يعرف العالم عنه الا النزر اليسير فى ذلك الحين . فكان من نتائج الحملة الوصول الى فك طلاسم الرسوم الهيروغليفية

وسارت الامور بادىء الامر على أحسن مايرام ، فقد استسلمت جزيرة مالطة لنابليون فى ١١ يونيو سنة ١٧٩٨ ، وفى أول يوليو وصل الى الساحل المصرى ، ولم تمض على ذلك التاريخ ستة أيام حتى كان قد بدأ زحفه على القاهرة . وقد حاول أن يسترضى الاهالى ، ولكن المماليك صمموا على القتال حفظا لسلطانهم . فهزمهم نابليون فى ٢١ يوليو هزيمة ساحقة فى معركة دارت على مرأى من الاهرام (١) ، وآلت اليه السيطرة على البلاد . ولكن بعد أيام معدودة وردت من الساحل أنباء سيئة . فقد عثر نلسون على الاسطول الفرنسى فى خليج أبى قير فدمره فى معركة النيل (٢) . وقد أدرك نابليون على الفور أهمية تلك الضربة ، اذ كان معناها أن تنقطع عنه الامدادات من فرنسا فى حين تتمكن بريطانيا من ارسال ماشاءت من القوات الى مصر . وقد تظاهر بالاستهانة بالامر قائلا : « يجب أن نمكث فى هذه البلاد حتى نتقدم منها عظماء كالأقدمين » ، ولكن الحملة كان مقضيا عليها بالفشل بسبب تفوق بريطانيا البحرى الذى قدر له أن يكون العامل الحاسم فى الكثير جدا من المسائل التى ستصادف نابليون فى حياته العامة . واذ كانت تركيا قد انضمت الآن الى

---

(١) وهى المعروفة باسم معركة امبابة (المترجم) .
(٢) وهى المعروفة باسم أبى قير البحرية (المترجم)

بريطانيا بصفة قاطعة ، فقد استقر رأى نابليون على أن يستبق الهجوم الذى ينتظره من الشمال ، بالزحف على سورية . وقد تحدث فيما بعد عن الخطط التى رسمها للزحف على القسطنطينية أو الهند ، ولكن تلك أفكارا راودته فى وقت متأخر ، فقد كان تفكيره منصبا وقتها على الخطر المباشر وحده . وقد بدأت حملته على سورية بداية موفقة ، اذ سقطت العريش بين يديه وتمكن من احتلال يافا . وقد أضر بسمعته اضرارا بالغا اقدامه على قتل الاسرى فى يافا « بعد الكثير من التروى » انتقاما لمصرع مبعوث فرنسى ، وأدى تفشى الوباء فى جيشه الى اضعاف قوته اضعافا جسيما . ولكنه مضى يشق طريقه مع ذلك الى عكا وضرب الحصار عليها . وقد خفه السير سدنى سميث لمعاونة المدينة بسفنه البريطانية ، فتحققت هزيمة نابليون فى النهاية بعد أن كاد يظفر بالغنيمة مرارا ، وانسحب الى مصر متكبدا خسائر فادحة (مايو سنة ١٧٩٩) . وقد بقى له من القوة مامكنه من القضاء على جيش تركى أرسل الى مصر ، ولكن ذلك لم يؤد الى تحسين فرص نجاح الحملة تحسينا حقيقيا ، وهو مالم يكن فى الامكان طالما ظلت للبريطانيين السيطرة على البحر . وأخذت الانباء التى تأتيه من أوربا تثير انزعاجه ، فقد أصبحت فرنسا تواجه ائتلافا جديدا وتكابد هزائم قاسية ، فرأى أن من الأفضل أن يغادر مصر لمصلحته ولمصلحة فرنسا . وأبحر من الأسكندرية فى ٢٣ أغسطس ، فهبط أرض فرنسا عند شاطىء « فريجو » فى ٩ أكتوبر بعد أن تعرض لخطر الأسر فى الطريق .

ويمكننا أن نلخص نهاية الحملة على مصر فى عبارات سريعة . لقد بقى الجيش الفرنسى بقيادة كليبر ثم مينو . فبدأ كليبر على الفور فى السعى الى التفاوض مع العثمانيين من أجل الوصول الى شروط مناسبة ، ولكن نلسون أصر على استسلام الفرنسيين بلاقيد أو شرط . وفى يونيو

سـنة ١٨٠٠ اغتيل كليبر ورسم الأتراك والبريطانيون خطة للقيـام بهجوم ثلاثي على الفرنسيين فى مصر . وأصبح المضى فى المقاومة ضربا من المحال ، فاستسلم فى أغسـطس سنة ١٨٠١ عشرون ألف فرنسى بالقاهرة والاسكندرية .

كانت الصورة فى أوروبا قد تغيرت تغيرا كبيرا عما كانت عليه حين غادرها نابليون الى مصر . ذلك أن معاهدة كامبو فورميو لم تمنح أوروبا الا مايزيد قليلا على عام واحد من السلم . والسبب فى الحرب الجديدة ـ وهى ليست الا امتدادا للحرب السابقة ـ واضح جلى . فقد أصبحت فرنسا تمثل قوة هائلة ، اذ حققت لها قوة جيشها وجاذبية المبادىء السياسية والاجتماعية الجديدة التى ترفع رايتها ، مكاسب ضخمة حتى ابان فترة السلام الاسمى . وقد وجدت أوروبا ـ قبل أن تتمكن من التمتع بالسلم الذى كسبته بصعوبة ـ من الاسـباب مايثير فزعها من جديد ، فاتحدت معظم دول القارة مع بريطانيا التى كانت لاتزال فى حرب مع فرنسا فى عصبة جديدة ضد الخطر الداهم .

فأولا نشبت ثورة فى روما حيث كانت عناصر قوية من السكان تناوىء السلطة البابوية . وقد تحركت هذه العناصر ، بتأثير عمـلاء فرنسا أو المثل الذى ضربته ، للمطالبة بالاصـلاحات الديمقراطية . فساندها الجنرال الفرنسى برتييه وأقام جمهورية ذات حكومة يتولاها حكام سبعة يحمل كل منهم لقبا وقورا هو لقب « القنصل » وطرد الفرنسيون البابا بيوس الثالث ونفوه الى «سيينا» أولا ثم الى «فالنس» حيث توفى . ولكن سرعان ماتبين أن الجمهورية الناشـئة ليست الا عميلة لفرنسا . فقد بقيت الحامية الفرنسـية ، وعوملت روما معاملة أشبه بالمعاملة التى يلقاها البلد المهزوم . ولم يختلف عن ذلك كثيرا ماحدث فى هولندة . فقد أعلن فيها قيام « الجمهورية الباتافية » وان لم يحدد شكلها بعد ، فقد انقسمت مشاعر أهل البلاد انقساما كبيرا :

فريق يرغب فى عودة أسرة أورانج ، وفريق آخر يريد جمهورية فيدرالية تمشيا مع تقاليد البلاد القديمة ، وفريق ثالث ، تؤازره فرنسا ، يدعو الى قيام دولة مركزية على نمط فرنسا نفسها . فأجرى استفتاء فى الأمر أسفر عن فوز النموذج الفرنسى بمعظم الأصوات التى أعطيت ، بيد أن أكثرية المواطنين لم يدلوا بأصواتهم بالمرة . وقد كان نفوذ فرنسا فى الامر باديا للعيان طوال الوقت ، ولم تكن هولندة فى ظل هذا الشكل الجديد سوى « ملحق للجمهورية الفرنسية على نحو لا يكاد أن يكون مقنعا » . وسيطرت فرنسا بوسائل مشابهة على شمال ايطاليا ، فلما أظهرت جمهورية شمال ايطاليا ميلا للسير فى طريقها الخاص أخذ الجنرال برتييه على عاتقه « تطهير مجلس الجمهورية » ورد الحكومة الى التبعية الكاملة لفرنسا . واذا اتجهنا الى الغرب قليلا وجدنا توسعا أشد سفورا فى سلطة فرنسا . فقد ظلت بيد مونت تابعة لمملكة سردينيا بعد هدنة كيراسكو ، ولكن الأعذار لم تلبث أن التمست لطرد ملك سردينيا من أراضيه الايطالية ، وضم بيد مونت الى فرنسا بصورة قاطعة . وفى نفس الوقت طرد دوق توسكانيا ، فبدا أن فرنسا تهدد استقلال ايطاليا بأسرها .

بل ان الكيفية التى آلت بها لفرنسا السيادة على سويسرة من الوجهة العملية ، تعد أهم من ذلك وأخطر . فقد كان « الاتحاد الهلفيسى » وهو الاسم السياسى الصحيح للبلاد ، خاضعا لحكم أوليجركية محدودة وان تفاوتت الأحوال بدرجة كبيرة بين مختلف المقاطعات . وكانت الأقلية الحاكمة فى برن ذات سطوة شديدة بوجه خاص وتشتهر بانعزالها التام عن الشعب . وقد ناشدت مقاطعة « دى فود » فرنسا العون ضد حكامها المستبدين . وكانت الجمهورية الفرنسية قد أعلنت منذ ١٧٩٢ استعدادها لمعاونة الشعوب المضطهدة ضد حكامها . ومن ثم فقد دخل سويسرة — تمشيا مع تقاليد الجمهورية الفرنسية — جيش فرنسى قوامه ١٥٫٠٠٠ جندى بقيادة الجنرال

برون وأسقط فى سهـولة غير متوقعة « الاتحاد » الذى كان يتباهى باحتفاظه بحريته فى وجه عدد كبير من الطغاة والغزاة ، وقامت محله جمهورية مركزية موحدة على النمط الذى تقره فرنسا بوجه عام ، هى الجمهورية الهلفيسية « واحدة لاتتجزأ » وكانت — شأن سائر الجمهوريات التى أنشئت فى ظل النفوذ الفرنسى — خاضعة لفرنسا خضوعا تاما . وهكذا قدر لاستقلال سويسرة أن ينتهى وقدر لأوديتها أن تصبح ميدانا لحرب واسعة النطاق بعد فترة طويلة من الهدوء . ولم تمر هذه الأحداث دون احتجاج حتى فى داخل فرنسا نفسها ، فقد رفض كارنو الذى تمسك بالكثير من مثل الثورة الاولى ، الموافقة على القضاء على استقلال سويسرة . وحفزت هذه الأنباء المقبضة الشاعر « وردزورث » الى كتابة « السوناتا » الرائعة التى ناح فيها على اخماد « صوتى الحرية العظيمين » ، البندقية وسويسرة .

وكانت الضربة التالية من نصيب مملكة نابولى التى كان يحكمها سليل البوربون الملك فرديناند الرابع وملكته مارى كارولين شقيقة مارى انطوانيت . وكان لحكومتها فى سوء الادارة صيت ذائع ، وكان سكانها متأخرين أشد التأخر ، كارهين لكل سلطة ، مؤمنين بالخرافات ايمانا أعمى وغير مهيئين لقبول أفكار الثورة الفرنسية . فلما بدا من معركة النيل أن جانب فرنسا آخذ فى الضعف وكان من نتائجها دخول الأسطول الانجليزى بقيادة نلسون ميناء نابولى ، أرسل الملك قائده ماك (وهو نمساوى) للهجوم على روما وطرد الجمهوريين المقيتين منها . فأخذت الحامية الفرنسية على غرة ، واضطر القائد الفرنسى شامبيونيه الى الجلاء عن روما ، فدخلها فرديناند ليتمتع بانتصاره القصير الأجل . اذ سرعان مارجحت الامدادات الفرنسية كفة فرنسا من جديد ، وشن الفرنسيون هجوما على نابولى واحتلوها فالتجأت الأسرة المالكة النابولية للأسطول الانجليزى ، وأنشئت جمهورية

جديدة أخرى هى « الجمهورية البارثينوبية » . وثمة حادثة يجدر بنا أن نذكرها لانها تلقى ضوءا على القوى التى كانت تنشط تحت السطح فى أوربا . والتى سيتبين فى النهاية أنها أقوى من أن يقهرها نابليون نفسه . فلقد أظهرت جيوش نابولى عجزها الذى كان مضربا للأمثال وفرت أمام الهجوم الفرنسى . ولكن ما ان هىء لشامبيونيه أن المقاومة قد انتهت تماما حتى راح أبناء الطبقات الدنيا فى نابولى وريفها المعروفين باسم « اللازارونيين » (lazzaroni) يشنون حربا غير نظامية أثبتت أنها أخطر شأنا من مقاومة القوات النظامية . وقد هزم هؤلاء فى النهاية ولكن حملهم للسلاح كان أول بادرة من بوادر المقاومة الشعبية القومية ضد الفرنسيين حتى فى الوقت الذى جاءوا فيه يعرضون فيه الحرية والمساواة . فقد تجلت فى كفاحهم لأول مرة تلك المقاومة الشعبية العنيدة التى لن تلبث أن تهد — فى أسبانيا وفى التيرول ، وفى روسيا ، وفى بروسيا وألمانيا — عزم نابليون الجبار .

لقد أتت فرنسا لهذه الجمهوريات الشقيقة التى أقامتها بحكم أفضل ومثل أسمى للحياة الاجتماعية ، وخففت عن أهلها الكثير من الأعباء . ولكن لا عجب فى أن دول أوربا قد راحت تنظر بعين القلق والانزعاج التى تقدم الطوفان الفرنسى وتلفتت حولها بحثا عن الوسائل الكفيلة بصده . كانت بريطانيا مستعدة بتوجيه « بت » للتعاون وتقديم المشورة والمال . ولكن الحماسة لفكرة محاربة فرنسا جاءت فى أقوى صورها من جهة غير متوقعة . ففى سنة ١٧٩٦ خلف القيصر بولس القيصرة كاترين على العرش الروسى . ومن الجائز أنه كان حقا « مجنونا خطيرا » ولكنه كان ينظر الى مركزه فى روسيا وأوروبا نظرة جدية للغاية . وكان قد نصب حاميا لفرسان القديس يوحنا الذين سلبهم نابليون جزيرة مالطة وهو فى طريقه الى مصر ، وكان يحلم بأن يجعل من روسيا دولة من الدول الهامة فى البحر المتوسط . وقد أعطته نوايا فرنسا بالنسبة لبولندة مبررا أقوى للعمل ضدها . فمد يده فى ديسمبر

سنة ١٧٩٨ لبريطانيا وبيت . وتقرر أن تدفع بريطانيا معونة ضخمة للجيوش الروسية وأن تعمل بريطانيا وروسيا معا على « اعادة فرنسا الى الحدود التى كانت عليهـا قبل الثورة » . وقد ترددت النمسا بادىء الأمر ولكن التـدخل الفرنسى فى نابولى كان له أثر كبير فى قبولها فكرة الاشتباك مع فرنسا فى حرب جديدة . وقد وقعت فى ألمانيا أحداث غريبة عجلت بدخول النمسـا الحرب . فقد انعقد مؤتمر فى « راشتاد » لبحث التعديلات التى يجب احداثها فى ألمانيا تمشيا مع صلح كامبو فورميو ، حضره مبعوثون فرنسيون ، ولما أخذت سحب الحرب تتجمع صدرت الأوامر لهؤلاء بمغادرة ألمانيا . وقد وقع عليهم اعتداء على مسـافة قريبة من المدينة بعد خروجهم منها فقتل اثنـان وأصيب آخر بجراح بالغة . ومازال الغموض يحيط بالحادث حتى وقتنا هذا ، وليس من المستبعد أن يكون للحكومة النمسـاوية يد فعلا فى تدبيره وأن يكون القصد منه هو الاستيلاء على أوراق هامة . فكان استياء الحكومة الفرنسية طبيعيا ومن ثم فقد نشأت حالة حرب بين البلدين على الفور .

وكانت المهمة الماثلة أمام فرنسـا جد خطيرة . فقد كانت جيوش العدو متفوقة أشد التفوق على جيوشـها من حيث العدد ، فقد قدر عدد رجالهـا بادىء الأمر بـ ١٧٠٫٠٠٠ فقط مقابل ٣٥٠٫٠٠٠ لدى العدو . وكان أعظم قوادها متغيبا فى مصر فى حين كانت قوات العدو تحارب تحت قيادة قواد مشهود لهم بالنبوغ والهمة . فالقائد الروسى « سوفوروف » كان ذا همة متقدة تكاد تضعه فى بعض الأحيان فى مصاف العبـاقرة . ويصفه بايرون بأنه « بطـل مهـرج نصـف شيطان ونصف دنس » ، والأرشيدوق شـارل النمسـاوى حقق لبلاده انتصارات هامة . ومع ذلك فقد وضع الفرنسيون ، بادخالهم فى سبتمبر سنة ١٧٩٨ نظام الخدمة العسكرية العامة ، الأساس الذى

قام عليه نجاحهم المقبل . ولم يكن ميسرا بالطبع أن ينفذ هذا النظام على الفور ، ولكن الفضل يرجع اليه فى تزويد فرنسا بالقوات التى كسب بها نابليون انتصاراته فيما بعد .

وقد دارت الحرب على نطاق واسع ، وكانت ايطاليا وسويسرة مسرحها الرئيسى ، وبدا أول الأمر أن الحظ فى صف أعداء فرنسا على طول الخط . فقد طرد الفرنسيون من نابولى ، وهزمت الجيوش الفرنسية فى سويسرة . وقد توج « سوفوروف » هذه الانتصارات فى ايطاليا عندما أنزل بالفرنسيين — الذين كانوا بقيادة « مورو » — هزيمة ساحقة عند نوفى (أغسطس ١٧٩٩) فانهارت على الفور جمهوريتا شمال ايطاليا وروما . وكانت البشائر كلها فى صالح الحلفاء ، وبدا النصر مؤكدا اذا تطورت بينهم عرى الوحدة وساد التفاهم على خطة الحملة . الا أنهم كانوا يفتقرون الى تلك الوحدة وهذا التفاهم . فرغم أن المسألة البولندية لم تعد قائمة لتشل تصرفات الحلفاء ، فقد كان بينهم تباين واضح فى الهدف . فبينما كانت النمسا تهدف الى ضم الأراضى فى بافاريا وشمال ايطاليا ، كان القيصر حريصا قبل كل شىء على اعادة ملك سردينيا الى بيدمونت وآل البوربون الى فرنسا . وكان سوفوروف رجلا يصعب التعامل معه ، فدب الخلاف بينه وبين مجلس الحرب النمسوى . وقد أدى ذلك الى وقوع كارثة فى أكتوبر سنة ١٧٩٩ . فقد صدرت الاوامر لسوفوروف بدخول سويسرة لينضم الى قائد روسى آخر أمام زيورخ ، فأظهر عزوفا شديدا عن الرحيل من ايطاليا ، ولكنه تحرك فى النهاية . فلم يلق تعاونا من النمساويين واعتقد أنهم خانوه . وقد كان زحفه عبر الجبال عملا عظيما ، ولكنه وجد الجيش الذى كان مقررا أن ينضم اليه قد تشتت قبل وصوله ، فأفلت بصعوبة بالغة من الجيوش الفرنسية المحيطة به . وتلا ذلك تبادل عنيف للاتهامات بين القادة والحكومات ،

وأخذ التحالف يتداعى بكل وضوح . ويجب أن نلاحظ أن كل ذلك — أى هزائم الفرنسيين ونهوضهم منها — قد حدث أثناء غياب نابليون عن فرنسا .

ويجدر بنا أن نعود الى باريس حيث راحت حكومة الادارة تعانى صعوبات بالغة . وكانت طبيعتها مسئولة جزئيا عن تلك الصعوبات ، فقد كانت الحكومة مليئة بالفساد والفضائح .ولكن الحرب الخارجية هى التى حسمت النزاع الداخلى فى هذه المرة أيضا ، فحكومة الادارة لم تسقط بسبب فضائح الحكم وانما بسبب الهزيمة فى الحرب . ولقد سبق لأعضاء حكومة الادارة أن استخدموا قوة الجيش وهيبته مرتين من قبل ليبعدوا عن المجلسين نوابا معادين لسلطانهم انتخبتهم البلاد ولكنهم أخفقوا هذه المرة (يونيو سنة ١٧٩٩) فى الحصول على تأييد الجيش بعد أن حاقت الهزيمة بالبلاد وأصبحت مهددة بالمزيد من الهزائم ، فتشجع المجلسان وأقالا أحد أعضاء حكومة الادارة وأرغما عضوين آخرين على الاستقالة . وتألفت حكومة الادارة الجديدة من سييز وبارا وديكو ومولان وجوهييه وهم آخر من تولوا عضوية هذه الحكومة . فلقد أطلت اليعقوبية الديمقراطية برأسها من جديد لأن البلاد قد اعتورها القلق فأصبحت على استعداد للتهليل لأى شخص يمنحها العزة والأمن .

وصل نابليون الى فرنسا فى أكتوبر سنة ١٧٩٩ فاستقبل بحماسة فائقة ، ولم يؤخذ عليه فشل مغامرته فى مصر ، فقد حدث هذا الفشل فى مسرح بعيد وفى ظروف مبهمة ، فذكر له الناس فقط حروبه فى ايطاليا وكيف أرغمت النمساويين على قبول الصلح ، وعزز مسلكه سمعته الطيبة فقد بدا متواضعا متحفظا ، لايسرف فى التباهى بانتصاراته ويخالط رجال العلم أكثر مما يخالط العسكريين . ومع

ذلك فليس ثمة شك فى أنه كان يتطلع طوال الوقت الى القيام بدور سياسى كبير ، وفى أنه قد تدبر المشكلة وحلولها بعناية منذ وصوله الى فرنسا .

كان من المؤكد أن تغيرا ما لابد أن يحدث فى الحكومة . فماذا تكون طبيعة هذا التغير ؟ لقد وطد نابليون علاقاته بباراً حليفه القديم ، وسييز صاحب النظريات السياسية ، وتاليران الأسقف السابق واليعقوبى ، أبرع مدبرى المؤمرات وأشدهم ضبطا للنفس . وراح بونابرت ينصت اليهم جميعا وان أبقى لنفسه الرأى الأخير . وكان أمله أن تبلغ شهرته بين جميع الطبقات حدا يؤدى الى المناداة به رئيسا للدولة بصورة تلقائية ، فيحكم استنادا الى شىء هو أقرب مايكون الى الحق الدستورى فى الحدود التى تسمح بها أوضاع فرنسا فى عهد الثورة ، ولا يضطر الى اشهار السيف أو اراقة الدماء . ونحن نستطيع أن نفهم المؤامرة الكبرى التى أقدم عليها بوضوح أكبر اذا نحن علمنا أنها لم تسر وفق الخطة المرسومة ، وأنه لم يكن راغبا فى اللجوء الى العنف ، وأن حاجته الى استعراض قوته — وان لم يضطر الى استخدامها — قد تركت فى مستقبل حياته العامة أثرا محسوسا .

ولقد ساعد الخطة أن أخاه لوسيان كان رئيسا لمجلس الخمسمائة . وكان نابليون يأمل أن يستخدم المجلسان حقهما الدستورى فى الانتقال الى سان كلو ، لأن باريس لم تزل — حتى فى ذلك الوقت — مكانا غير مناسب للقيام بثورة مضادة ، وفى أن يعهد المجلسان اليه بقيادة قوات باريس ، ثم يصوتان — فى اجتماع تحيط به القوات — لصالح تعديل الدستور ويكلفانه بالاشراف على هذا العمل وتوجيهه . ولم يكن يشك فى أن هذه الخطوات ستؤدى — ان تمت — الى انفراده بالسلطة تقريبا . حقا انه لابد من التخلص أولا من أعضاء حكومة الادارة ، ولكنه كان يأمل أن يتمكن من اغرائهم بالاستقالة .

ولقد نفذت الخطة الى نقطة معينة . فقد استقال سييز وديكو ، اللذان كانا مشتركين فى المؤامرة وان لم يكن اشتراكهما كاملا كما كانا يتصوران ، على أمل أن يحذو الآخرون حذوهما . وكان بارا يأمل أن ينال نصيبا من المسئولية والسلطة ، فأصابه الكمد عندما تبين أن الدور الذى ترك له كان سلبيا ، وفى النهاية استقال هو الآخر . وقد اعتقل العضوان الباقيان بحكومة الادارة اللذان رفضا أن يستقيلا . وفى ساعة مبكرة من صباح ٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩ قرر مجلس الشيوخ الانتقال الى سان كلو ، وعهد بالقيادة المنشودة الى نابليون ، وفى ١٠ نوفمبر (١٩ برومبير حسب تقويم الثورة) وقعت الأزمة الحقيقية . كان نابليون يعلم أن مستقبله كله متوقف على أحداث ذلك اليوم . وقد قال لسييز أثناء الرحلة الى سان كلو « سينتهى بنا المطاف اما الى هنا (مشيرا الى المكان الذى نصبت فيه المقصلة) أو الى قصر لوكسمبرج » . وفى سان كلو ألقى خطابا فى كلا المجلسين على التوالى ، ولكن الامور لم تعد تسير وفق الخطة المرسومة ، فالمجلسان لم يتأثرا بشعبية نابليون الى الحد الذى يدفعهما الى التصويت على الغاء الدستور ووجودهما ذاته . وقد استمع الشيوخ الى خطاب نابليون ببرود ثم أعلنوا ولاءهم للدستور وأخذوا يهتفون « لا كرومويل ! » أما أعضاء مجلس الخمسمائة فقد طردوه فى شىء من العنف من قاعتهم عندما مثل أمامهم . فأصبح جليا أن الشعبية والعبارات البراقة لن تحل المشكلة ، واضطر نابليون الى اللجوء مكرها الى حد السيف . فعندما أخطره أخوه أن زمام المجلس قد أخذ يفلت من يديه ، استدعى القوات لدخول القاعة وطرد الاعضاء وكانت لحظة عصيبة بالنسبة له ، فهل ياترى سيصوب جنود الجمهورية حرابهم الى حكومة فرنسا الحرة ؟ لقد أطاعوا الأمر دون تردد يذكر ، فلاذ معظم أعضاء السلطة التشريعية بالفرار ، بينما صوتت البقية الباقية التى كانت متواطئة مع كبير المتآمرين ، لصالح

تعديل الدستور وعينت ثلاثة قناصل للاضطلاع بذلك . وهؤلاء الثلاثة هم نابليون وسيز وديكو ، وفى صبيحة ١١ نوفمبر عاد نابليون الى باريس وكان الانقلاب قد تم ، فتقبلته العاصمةوفرنسا كلها بهدوء مذهل . فلم يكن ثمة من يعطف على المجلسين أو أعضاء حكومة الادارة . وأصبحت البلاد مهيأة للدخول فى تجربة جديدة .

لقد قرر انقلاب برومير وجوب تعديل الدستور ولكن ما طبيعة ذلك التعديل ؟ لقد ظهرت خلافات واسعة فى الرأى حول هذهالنقطة بين شخصيات المسرحية الرئيسية . فبطلا الانقلاب همانابليونبونابرت والاب سييز ، والاول جندى بينما الثانى رجل كرس الكثير منفكره للنظريات السياسية وكان له نفوذ حاسم فى مراحل الثورة المبكرة فكان يتوقع أن يعاد تشكيل الحكومة فى هذه الأزمة وفقا لآرائه ، وأن يعترف له الجندى بتفوق المفكر . وقد رسم فى ذهنه خطةواضحة مفصلة لنظام الحكم المنشود . وكان لا يزال متعلقا بمبدأ مونتسكيو فى « فصل السلطات » فكان يرى أن السلطة التنفيذية يجب أن تكون مستقلة عن التشريعية وأن الحكومة ينبغى ألا تعتمد اعتمادا مباشرا على تأييد ممثلى الشعب المنتخبين . ومع ذلك فقد كان عارفا بخطر وقوع الصدام بين الوزراء والبرلمان ، فذلك خطر أوضحه تاريخ الثورة تماما . هاهنا السؤال اذن : كيف يمكن تشكيل حكومة لا تعتمد فى وجودها على الشعب وتنال مع ذلك ثقة الشعب ؟ لقد اختار لحل هذا الاشكال شعارا من الشعارات التى كان مولعا بصياغتها هو « الثقة من أسفل والسلطة من أعلى » . أما تطبيقه العملى فكان عجيبا . فالشعب يضع قوائم بأسماء الرجال الذين يرى فيهم الجدارة لتولى المناصب العامة والذين يمكن أن يتمتعوا بثقته كحكام، وذلك وفقا لنظام مفصل لا حاجة بنا الى الخوض فيه . ثم تأتى السلطة من أعلى متمثلة فى شخص « الناخب الأعظم » الذى يرى سييز ضرورة تعيينه على الفور ومنحه راتبا كبيرا وتوليه مجموعة من

الوظائف هى تقريبا نفس وظائف الملك الدستورى . فهذا الناخب الأعظم يقوم بتعيين جميع رجال الحكومة وأعضاء المجالس من بين الواردة أسماؤهم فى القوائم التى ترسل اليه . ومن رأيه أيضا وجود قنصلين أحدهما للشئون الداخلية والآخر للخارجية ، ووجود مجلس للدولة يتقدم بمشروعات القوانين ، وهيئة مشرعين أو « مجلس تريبيون » تتولى بحث ومناقشة التشريعات المقترحة ثم جمعية تشريعية تستمع الى الآراء المؤيدة والمعارضة للاجراء المقترح ثم تصوت دون مناقشة . ويرى كذلك وجود مجلس للشيوخ له حق النقض (الفيتو) .

وكان نابليون موافقا على الكثير من المظاهر السطحية لهذه الخطة . فقد كان يتوجس شرا من سيطرة الشعب ويفضل الجمعيات المعينة على المنتخبة ، وينفر من المناقشات البرلمانية ويخشاها . ولكنه كان يعارض جوهر تلك المقترحات معارضة تامة ، ذلك لأنها كانت تمثل مجموعة من الضوابط والقيود ، فالرئيس الرسمى للدولة لا يملك سلطة حقيقية وقائد الجيش خاضع خضوعا تاما ، بينما يرغب هو فى قيام حكومة قوية تتركز فى يد قائد الجيش وتتحرك على الفور تلبية لما يصدر اليها من أوامر ، حكومة فردية تتسم بالكفاية والبيروقراطية على أن يكون هونفسه رئيسا لها . هاهنا اذن خلاف لا تحله العبارات الغامضة . فلا عجب فى أن يشتبك سييز ونابليون فى صراع تكاد نتيجته أن تكون معروفة مقدما ، ذلك أن هيبة الجندى وسيفه هما اللذان انتصرا فى برومير ، ومن ثم فلن يكون هناك مفر من استسلام سييز . لقد تقرر اختيار خمسين عضوا من المجلسين للمفاضلة بين الخطتين ، ففاز نابليون بالطبع .

وقد انطوت الخطة الفائزة على الكثير من المظاهر الكاذبة . فقد أبقت ـــ من الناحية النظرية ـــ على مقترحات سييز الخاصة بالنظم

الانتخابية التى تستنبط بمقتضاها الثقة من أدنى ، وان لم تطبق عمليا المرة . وكانت أجزاء الجهاز تحمل نفس الأسماء الواردة فى مشروع سييز ، وان اختلفت القوة المحركة اختلافا بينا ، فالحكم يتقلده قنصل أول واحد لا يمكن أن يكون شخصا آخر سوى نابليون نفسه . ولئن كان هناك قنصلان آخران — الأمر الذى يتفق جزئيا مع فكرة سييز — الا أن هذين القنصلين هما فى الواقع نائبان للقنصل الأول أكثر منهما ندين له . وقد اختير لهذين المنصبين كامبا سيريس وليبرون، وهذان لا يمكن أن ينافسا نابليون فى الأهمية . وتقرر أن يتولى مجلس الدولة الذى يشكل بطريق التعيين التقدم بجميع مشروعات القوانين وأن يشكل « مجلس الشيوخ المحافظين » من ستين عضوا يختارهم القناصل ، وهؤلاء يتولون بدورهم التعيينات وشغل مناصب القنصلية الشاغرة وتعيين « مجلس تريبيون » من مائة عضو مهمتهم مناقشة مشروعات القوانين المقترحة وكذلك تعيين جمعية تشريعية من ثلاثمائة عضو يستمعون الى خطب الجانبين ثم يدلون بأصواتهم فى شأن المقترحات التى ترد اليهم من مجلس التريبيون . وبعض هذه التفاصيل شيق وربما مفيد أيضا لكنها كانت كلها وهمية غير حقيقية، فان قائد جيوش فرنسا المظفر هو الذى حكم فعلا ، ولسوف يظل يحكم وفقا للدستور الذى يروق له طالما ظل مظفرا وسيدا لجيوش فرنسا ، ولن يلبث أن يستغنى عن بعض هذه المجالس كاشفا بالتدريج عن المزيد فالمزيد من طبيعة حكمه الفردية . ولقد كان من دواعى سرور الشعب الفرنسى أن تسير الأمور على هذا النحو ، وعندما طرح المشروع فى استفتاء عام أذيع أن ٣٠٠١٢٠٠٠ قد صوتوا فى صالحه و ١٥٦٢ فقط صوتوا ضده

الفصل الخامس
نابليون الإمبراطور ورجل الدولة

لقد فاز نابليون بالسلطة في ثورة بروميير بوصفه قائدا مظفرا لجيوش فرنسا ، وكان يعرف حق المعرفة أن النصر هو وحده الكفيل بأن يحفظ له المركز الذى فاز به . ولقد قال لأحد أصدقائه بعد ذلك بزمن طويل « أنا لا أفعل شيئا الا أن أحرك خيال الأمة،فاذا ما أخفقت في ذلك أصبحت لا شيء وخلفنى غيرى » . وهذه العبارة تفسر لنا أشياء كثيرة في سيرته ، ومنها نرى كيف أنه كان سيدا وأسيرا في آن معا ، ذلك أنه لم يكن يستطيع أن يتخلى عن السلطة التى فاز بها ، وكان عليه أن يبهر الفرنسيين باستمرار بالانتصارات والأمجاد لئلا تعود الى أذهانهم مبادىء الثورة القديمة «الحرية والاخاء والمساواة» أو يعودوا الى التفكير من جديد في المكانة السامية التى كانت تشغلها ملكية البوربون القديمة في أوروبا التى تكن لها كل اعجاب .

كانت النمسا وبريطانيا هما الدولتان الوحيدتان اللتان ظلتا تحملان السلاح ضد فرنسا . ولم يكن الهجوم على بريطانيا بالشيء الميسور في ذلك الحين ، ففاتح نابليون الملك جورج الثالث في شأن البحث عن سبيل للوصول الى الصلح ، فما كان من الملك الا أن أجاب بتأكيد ضرورة اعادة ملوك فرنسا الشرعيين الى عرشهم ، متيحا بذلك لخصومه فرصة الرد بأنه لو صح القول بأن الملوك الشرعيين لا يطردون من عروشهم أبدا لما أصبح له هو نفسه أى حق في العرش الانجليزى اذ أنه يدين بمنصبه لثورة ١٦٨٨ . لقد بدا اذن أن النصر هو السبيل الوحيد للوصول الى السلم .

فأعد الفرنسيون خطة لهجوم مزدوج ضد النمسا على نمط مشابه لنمط العمليات الحربية التى وقعت فى ١٧٩٦ والتى ذاع على أثرها — لأول مرة — صيت نابليون فى أوروبا . وتقرر أولا أن يقود « مورو » جيشا فرنسيا عبر الراين الى وادى الدانوب ليهاجم فيينا من ذلك الطريق المعروف ، على أن يدخل نابليون ايطاليا فى نفس الوقت على رأس جيش آخر ، وذلك عن طريق ممرات سويسره التى أصبحت مفتوحة أمامه بعد التغيرات الأخيرة هناك . على أن هذه الحملة الايطالية لم تكن ثانوية هذه المرة ، فنجاح الحكومة الفرنسية أو فشلها كان متوقفا عليها .

كان سلطان فرنسا قد زال تقريبا من ايطاليا ، فجمهورية شمال ايطاليا قد انهارت ومعها سائر مناطق النفوذ التى أقامتها فرنسا فى ايطاليا ، ولم يبق لفرنسا سوى جيش فرنسى بقيادة ماسينا كان يعانى فى ذلك الوقت من الحصار الذى فرضه عليه فى جنوه القائد النمساوى ميلاس . وقد صمم نابليون على دخول ايطاليا لا عن طريق ساحل البحر المتوسط الذى سلكه من قبل وانما عبر ممر سان برنار العظيم . ولقد بالغ نابليون فى تعظيم شأن زحفه هذا عبر الجبال ، وقارنه مادحوه بغزوات هانيبال وفرنسوا الأول ، ذلك أن نابليون لم يكن قائدا عظيما فحسب وانما كان أيضا صحفيا لا يطاول . ومهما يكن من أمر فان هذه العملية لم تكن فى الحقيقة شاقة ولا عسيرة ، فان المسافة غير الصالحة لمرور العربات لم تكن تتجاوز خمس فراسخ وسرعان ما هيأها له مهندسوه . وقد هبط فى « فال دى آوستا » ومنه سار الى بيدمونت . وقد تردد برهة فيما اذا كان الأفضل أن يزحف على ميلانو أو جنوه . ولو أنه زحف على جنوه لكان من المحتمل أن يتم انقاذ الجيش الفرنسى الذى يقوده ماسينا ، بيد أن رأيه استقر على أية حال على السير الى ميلانو فدخلها دون مقاومة ، واضطر

« ماسينا » بالتالى الى الاستسلام بجيشه البالغ عدد رجاله عشرون ألفا ، على أن هؤلاء الرجال قد سمح لهم — نتيجة لاهمال عجيب من جانب العدو — بالسير فى اتجاه نابليون وهم لا يزالون يحملون السلاح . وقد مضى نابليون فى زحفه نحو أليسندريا التى اتخذت مقرا لقيادة القوات النمساوية ، وفى ١٤ يونيو ١٨٠٠ دارت موقعة مارنجو بجوار أليسندريا . وكانت هذه المعركة أول معركة يحاربها نابليون بعد حصوله على لقب القنصل الجديد ، وهى تدرج فى عداد انتصاراته العظمى ، وان كانت فى الواقع أقرب الى الهزيمة . فقد هاجم النمساويون الجيش الفرنسى على حين غرة وهو مقسم الى ثلاثة أجزاء ، وتمكنوا من رده على أعقابه متكبدا خسائر فادحة ، واذ ذاك اتجه القائد النمساوى الذى أنهكه الحر — وقد كان طاعنا فى السن — الى مارنجو مطمئنا الى أنه قد حقق نصرا يستطيع أن يترك لأحد مساعديه مهمة اتمامه . وفى تلك اللحظة بالذات وقعت مفاجأة مسرحية، فقد وصلت الى الميدان قوة فرنسية بقيادة ديزيه كانت قد كلفت مؤخرا بمراقبة النمساويين فى جنوه . ولم تكن لدى ديزيه أية تعليمات من نابليون ، ولكنه سمع دوى المدافع فاتجه اليها مباشرة ، ولما وصل الى مكانها وجد نابليون مهزوما ولكن الوقت لم يكن قد فات لكسب الجولة التالية . ولقد جاءت هذه الجولة نصرا كاملا للفرنسيين . فقد انسحب النمساويون الى ماوراء نهر منشيو ، وضاعت بضربة واحدة جميع ثمار انتصارات النمساويين والروس — منذ ١٧٩٨ ، وقبل أن ينتهى العام حلت بالنمساويين نكبة أخرى شمال جبال الألب . فقد اشتبك « مورو » بالجيش النمساوى الذى كان يقوده الأرشيدوق « جون » عند « هوهنلندن » . وانتهت المعركة العنيفة بنصر كامل للفرنسيين ، وأصبحت فيينا نفسها مهددة . ولاشك فى أن النمسا كانت ستضطر على أية حال الى قبول الصلح بعد هاتين الضربتين ، على أننا لابد أن نشير الى التحول الغريب الذى طرأ فى ذلك الحين

على روسيا فجعل قبول النمسا للصلح أمرا أشد حتمية . ذلك أن القيصر نصف المجنون « بولس » الذى ظل بعض الوقت حاملا لواء الدفاع عن الملكية الشرعية وعدوا لدودا للفرنسيين قد أضحى الآن من أنصارهم المتحمسين — وبات على استعداد للتعاون مع نابليون . وعلى هذا قبل النمساويون فى فبراير ١٨٠١ صلح لونيفيل الذى كان من عدة أوجه تكرارا وتعزيزا لصلح كامبوفورميو . وكانت أهم بنوده تسليم جميع الأراضى الكائنة على الضفة الغربية لنهر الراين لفرنسا ، وبذلك تم النزول لها عن سبع سكان الامبراطورية وعدد من أشهر المدن الألمانية مثل ماينزوكولون وآخن وتريبه . كما تضمن الصلح النص على أن يحصل الأمراء الذين تضيع أملاكهم نتيجة هذه التنازلات على تعويض « وفقا للتدابير التى تقرر فيما بعد » ، وكان من الجلى أن هذا التعويض سيكون على حساب الولايات الألمانية الصغرى . ونص الصلح كذلك على أن ينوب الامبراطور عن الامبراطورية وأن يقبل قرارات مؤتمر راشتاد . وأعاد الصلح توكيد معظم نصوص صلح كامبوفورميو المتعلقة بايطاليا ، فتقرر النزول بموجبه لجمهورية شمال ايطاليا عن دوقية توسكانيا وجزيرة البا ، واتفق على أن يعوض دوق توسكانيا فى ألمانيا عما فقده فى ايطاليا . ومما يذكر أيضا أن الصلح قد نص على ضمان استقلال الجمهوريات الشقيقة التى أنشأتها فرنسا فى مختلف جهات أوروبا . (١)

وبقيت بريطانيا وحدها فى الميدان ، وظل نابليون يائسا من توجيه أى ضربة ضدها فى تلك الآونة بوساطة العمليات المباشرة فى البحر ، ولكن الأمل ظل يراوده لفترة من الزمن فى امكان القيام بصورة غير مباشرة بما يعجز عن القيام به بصورة مباشرة . فثمة

---

(١) هذه الجمهوريات الشقيقة هى البتافية (الهولندية) «السويسرية» والسيزالبينية (ماوراء الالب) والليجورية (الايطاليتان).

حقيقة كانت معروفة ، وازدادت وضوحا أثناء الحرب مع المستعمرات الأمريكية وهى أن جميع الدول التى لها قوة بحرية تتبرم مما تدعيه بريطانيا لنفسها من حق تفتيش جميع السفن أيا كان نوعها فى زمن الحرب . بما فى ذلك السفن المملوكة للدول المحايدة بغية التحقق من أن هذه السفن لا تحمل بضائع مملوكة لأعداء بريطانيا . وتدمير هذه البضائع ان وجدت . وكانت الدول المحايدة قد ألفت فيما بينها رابطة تهدف الى مناهضة هذا الاجراء فى نهاية الحرب الأمريكية ، ولكن بريطانيا ظلت متمسكة به مع ذلك . فانضمت الآن الدانيمارك والسويد ــ بتوجيه من روسيا الى بروسيا فى رابطة تهدف الى معارضة هذا الحق . فبدا ان فى الامكان تأليف قوة بحرية هائلة فى بحر البلطيق تناوىء بريطانيا وتستطيع القيام بعمليات خطيرة ضدها . الا أن بريطانيا ضربت ضربتها بسرعة وقبل فوات الأوان ، فهاجمت فى ٢ ابريل ١٨٠١ ، ودمرت الأسطول الدانيماركى وحطمت الرابطة ، وفى نفس الوقت كانت الاحداث تجرى فى مصر على نحو يشير بوضوح الى قرب استسلام الجيوش الفرنسية للبريطانيين وهو ماحدث فعلا خلال الصيف .

وبدا أن الحرب قد تستمر الى الأبد ، ومع ذلك فقد كان الصلح فى مصلحة الطرفين . فلما تولى ادنجتون رياسة الوزارة فى انجلترا بعد « بيت » الذى استقال بسبب خلافاته الحادة مع جورج الثالث حول شروط الوحدة مع ايرلندة ، كان أقل اصرارا من سلفه على مواصلة الحرب ، فبدأت المفاوضات وانتهت بتوقيع صلح اميان (٢٧ مارس ١٨٠٢) . وقد تضمن الصلح بنودا كثيرة ولكن بوسعنا أن نلخصها فى سطور قليلة . فقد اتفق فى هذا الصلح على أن ترد انجلترا جميع الأراضى التى كسبتها من فرنسا بطريق الغزو ، ولكن تبقى لانجلترا سيلان وترنداد اللتان تنازلت عنهما لها هولندة

وأسبانيا . أما مالطة التى استردها البريطانيون مؤخرا من نابليون فقد تقرر أن تعاد لا الى فرنسا وانما الى فرسان القديس يوحنا . والبند الذى يحدد كيفية اعادتها بند مطول يتضمن النص على ضمان بريطانيا والنمسا وأسبانيا وروسيا وبروسيا لاستقلال الجزيرة ، وعلى أن يتولى ملك الصقليين حراسة الجزيرة بقوات عددها ألفا رجل ، الى جانب تفصيلات أخرى . ولسوف تتبين أن هذه الشروط التفصيلية لم تنفذ قط ، وان بريطانيا قد امتنعت — استنادا الى ذلك — عن تسليم الجزيرة . وقد قوبل صلح اميان هذا بابتهاج فائق فى فرنسا وبريطانيا ، وفتح أبواب أوربا من جديد لزيارات السياح البريطانيين ، واعتبره الكثيرون خاتمة لعصر من الحروب وفاتحة لسلم طويل ، بل ان البعض قد أصبح على استعداد لاعتبار نابليون رجلا له على البشرية أياد بيضاء . بيد أن هذا الصلح لم يكن — فيما تبين — سوى هدنة مزعزعة خداعة ليس الا . فسرعان ما انحسرت موجة الحماسة الأولى له فى انجلترا ، وشاع الاستياء العام لاسيما بين الطبقات التجارية لاستمرار فرنسا فى الاحتفاظ ببلجيكا وهولندة ، أى استمرارها فى السيطرة على تلك الأراضى التى تبدو للانجليز ، اذا ما وقعت فى أيدى دولة غريمة ، « مسدسا مصوبا الى قلب لندن » . كما ثبت أن الآمال التى عقدت على التجارة مع فرنسا لم تكن فى محلها أيضا ، فلم يفتح الباب عن طيب خاطر للتجارة فى أى مكان ، بل انها حرمت فى بعض الأماكن تحريما قاطعا . بيد أن الصلح — على علاته — قد أعطى فرنسا فترة استجمام كانت فى مسيس الحاجة اليها ، واستطاعت أن تدخل خلالها تغييرات كبرى فى حياتها السياسية والاجتماعية والدينية .

وقد يجدر بنا قبل أن نتعرض لهذه التغييرات ، أن نتابع أثر الهزات الكبرى التى زعزعت أوربا ، على ألمانيا . كانت ألمانيا فى بداية الفترة التى نتحدث عنها خليطا غريبا ، كما أسلفنا يجمع بين دول

كبرى وصغرى ، علمانية ودينية ، حرة واستبدادية ، تعامل فيه المدن الحرة بل والقرى الحرة على أساس دستورى متساو مع دول كبرى مثل بروسيا وبافاريا والنمسا ، ولم يكن ثمة فوق هذه المجموعة العجيبة من الدول سلطة فعالة على الاطلاق . فالامبراطور كان اسما كبيرا فحسب ، والامبراطورية كانت كيانا شرفيا لا قوة تستطيع السيطرة على زمام الامور . فالسلطة الحقيقية لم تكن تتمثل فى الامبراطورية ككل وانما فى أجزائها المختلفة وفى حكام الدول التى تتكون منها الامبراطورية مثل النمسا وبروسيا وبفاريا وهانوفر وسكسونيا وورتمبرج . وقد شاهدنا كيف انسحبت بروسيا من الحرب عام ١٧٩٥ فى صلح بازل ، وكيف عقدت النمسا فى أكتوبر ١٧٩٧ أول صلح لها مع فرنسا فى كامبوفورميو . وفى هذا الصلح اتفق على دعوة مؤتمر فى راشتاد للبت فى شروط الصلح بين فرنسا والامبراطورية ، على اعتبار أن للامبراطورية كيانا منفصلا عن النمسا. وقد حوى صلح كامبوفورميو بنودا سرية تنظم مقدما بعض جوانب التسوية المقترحة ، اذ تضمن النص على أن تحصل فرنسا على الاراضى الكائنة غرب الراين ، وألا يسمح لبروسيا بالحصول على أية مكاسب ، وأن يعوض الأمراء الزمنيون (أو العلمانيون) الذين تنزع أملاكهم فقط بطريقة يتفق عليها مع الجمهورية الفرنسية . وقد كانت تلك اللحظة من اللحظات الحاسمة فى تاريخ ألمانيا ، ويمكننا أن نشاهد فيما أصاب كيانها وطرأ على حياتها التى تمت الى العصور الوسطى من هزات ودمار ، بداية الحركة التى ستأخذ بيدها الى الوحدة والمنعة فى النصف الاخير من القرن التاسع عشر . ولكنها كانت تفتقر فى تلك اللحظة الى القوة والى القيادة السياسية الرشيدة التى تستطيع اغتنام الفرص التى يتيحها الموقف . فقد كان الامبراطور فرنسوا الثانى حقا على شىء من الدهاء الفطرى ، وكان شغوفا بالموسيقى وفن الدراما والتاريخ الطبيعى ، ولكنه لم يكن بالرجل

القوى سواء من حيث قوة الفكر أو قوة الارادة . وكان مستبدا بالسليقة يهاب الحرية فى كل شكل من أشكالها . وكان وزيره ثوجو Thugut سياسيا يتبع أهواءه الخاصة ويخلو رأسه من الأفكار الموجهة سواء بالنسبة لادارة الممتلكات النمساوية أو اعادة بناء ألمانيا . وقد قال نابليون عنه انه كان يتدخل فى كل شىء ويزج بنفسه فى دسائس أوربا كلها دون أن يتبع أية خطة معينة . ولا كان من المستطاع أن تجد ألمانيا مرشدا لها فى بروسيا حين خذلتها النمسا ، فان أوان بروسيا لم يحن بعد . فقد كان الملك فردريك وليم الثالث الذى وصف بأنه « أكثر من حكم بروسيا وقارا وأشدهم افتقارا الى الميزات الخاصة » . يعتقد أن صلح بازل قد عزز من قوة بروسيا ، ويعارض أية آراء جديدة معارضة تامة . ولا نجد فى سياسته أثرا لأية وطنية ألمانية شاملة أو أى ادراك لمغزى الاعصار الذى كان يجتاح أوروبا بالنسبة لبلاده بالذات أو ألمانيا ككل . على أن الحكومة البروسية كانت تضم رءوسا أحكم من رأسه ، وقد كان وزير خارجيته هاردنبرج رجلا صادقا غيورا فى وطنيته . وكان هناك أيضا عسكريون وساسة سيتعاونون عندما يأتى الأوان على بعث بروسيا ذلك البعث الذى سيؤدى بدوره الى بعث ألمانيا وانتصارها .

وهكذا نجد ألمانيا فى اللحظة التى نتحدث عنها بلادا خاملة ، فى مجموعها وفى أجزائها ، تعانى من الفساد السياسى وتعجز بل وترغب فيما يظهر عن إبداء أية مقاومة جدية فعالة تجاه نوايا فرنسا . على أننا ينبغى أن نحذر فى الوقت نفسه من التفكير فى الشعب الألمانى والحياة الألمانية باعتبارهما صورة للاضمحلال والضعف وحدهما ، فالواقع يسجل أن النصف الثانى من القرن الثامن عشر قد شاهد ازدهارا رائعا للفكر والفن الألمانيين . فقد ظهرت منذ منتصف القرن حركة بعث قومى عظيمة فى الأدب والفكر ، كان المساهمون الرئيسيون

فيها « لسنج » و « جوتة » و « شيلر » و « كانت » . والسنوات فيما بين ١٧٨٠ و ١٨٠٥ تعتبر العصر الكلاسيكى للأدب الألمانى الذى يرتكز فى ذلك الحين فى مدينة فيمار ، وهيمنت عليه شخصيتا العملاقين جوته وشيلر . وفى الموسيقى رفع خلفاء باخ ، الذين يؤلفون صفا من المشاهير يضم هايدن وموزارت وبيتهوفن ، رأس البلاد التى تتحدث الألمانية عاليا فى أوربا . وان روعة هؤلاء الفنانين والمفكرين انما تقف على النقيض الظاهر من الضعف السياسى للدول الألمانية فى تلك الحقبة .

ولما اجتمع المؤتمر فى راشتاد فى ديسمبر ١٧٩٧ مثل ألمانيا « وفد » مؤلف من ستة وسبعين عضوا ، ولعبت فرنسا منذ البداية دورا قياديا فيه . وحضر نابليون المؤتمر بنفسه فى الجلسات الأولى ثم خلفه أربعة ديبلوماسيين فرنسيين وكانت لفرنسا مآرب واضحة فى المفاوضات ، هى أن تؤمن لنفسها الضفة الغربية للراين ، وأن تبذر بذور الشقاق بين النمسا وبروسيا ، وأن تعوض الولايات الزمنية بالسماح لها بابتلاع الولايات الكنسية ، ولكن قبل أن يتم الوصول الى أية نتيجة نهائية فى راشتاد وقعت الأحداث التى سبق أن ألمحنا اليها ، ألا وهى نشوب الحرب بين فرنسا ودول التآلف الثانى ومصرع المبعوثين الفرنسيين . فلما ارغمت موقعتا «مارنجو» و «هوهنلندن» ، النمسا على توقيع صلح لونيفيل استؤنف البحث فى اعادة تخطيط ألمانيا . ولم يعد ثمة مفر من أن تنفذ القرارات التى اتخذت فى راشتاد ، ومن أن يوقعها الامبراطور نيابة عن ألمانيا . الا أن القرارات عرضت على وفد آخر يمثل الامبراطورية ويقل عددا عن الوفد السابق بكثير ، فقد كان يتألف من ثمانية أعضاء فقط يمثلون ماينز وسكسونيا وبوهيميا وبراندنبرج (بروسيا) وبفاريا وورتمبرج وهسى كاسل والفرسان التيوتون . ولما رفض الوفد الموافقة على شيء منها ، تدخلت فرنسا وحليفتها الجديدة روسيا باعتبارهما

وسيطتين ، فأملينا شروطهما وعقدنا المعاهدات مع كل دولة على حدة . ان ذكرى تلك الايام انما تثير فى نفوس المؤرخين الالمان احساسا أليما بالمهانة ، فقد ترك البت فى مسائل لها كل المساس بمقدرات ألمانيا فى مجموعها واجزائها ، لا للسلطة الامبراطورية أو حتى لملوك ألمانيا وأمرائها وانما للدبلوماسيين الفرنسيين وحدهم تقريبا . وأصبح مستقبل أراضى الاودر والألب والفستولا رهنا بالقرارات التى تتخذ فى وزارة الخارجية بباريس . وكانت غرف « تاليران » وزير خارجية نابليون الحائز على ثقته الكبيرة ، تكتظ بالامراء والموفدين الالمان الذين يسعى كل منهم للحصول بكافة الوسائل على مناصرة الوزير الخطير لنفسه أو لسيده . ولم ينته الأمر الا فى فبراير ١٨٠٣ . ففى ذلك الشهر عرضت على الريشستاغ التسوية التى تم الوصول اليها فى مكان آخر غير ألمانيا ، فما كان منه الا أن قبلها . وطبيعة هذه التسوية الألمانية واضحة تماما مما سبق أن ذكرنا : الغنم كل الغنم للدول القوية والغرم كل الغرم للدول الضعيفة . فقد محيت من الوجود مائة واثنتا عشرة دولة ابتلعتها جاراتها الكبيرة ، كما اختفى من الوجود من جراء تلك العملية معظم فرسان الامبراطور وجميع المدن الامبراطورية عدا ست مدن . وأزيلت الولايات الكنسية من خريطة أوروبا باستثناء ولاية واحدة ، ذلك أن ماينز كانت قد ضمت الى فرنسا ولكن كبير أساقفتها كان مستشارا للامبراطورية ، فرؤى انه ليس من الحكمة القضاء على سلطانه كلية ، ومن ثم فقد نقل الى أسقفية راتيزبون . وبقى الفرسان التيوتون وفرسان القديس يوحنا بعض الوقت ، ومنحت رتبة الناخب لأربعة أعضاء جدد ، ولكن الناس كانوا يشعرون بأن الامبراطورية التى عين ناخبوها بهذه الطريقة كانت فى طريقها الى الزوال من العالم الأوربى . .

لقد فقدت النمسا بجلاء سيطرتها على الامبراطورية المزعومة . فان حيازة بيت الهابسبورج للقب الامبراطورى دهرا طويلا — حيازة أدت الى تحول ذلك اللقب الذى كان من الناحية الاسمية بالانتخاب الى لقب وراثى من الناحية العملية — انما كانت ترجع الى حد بعيد الى تزعم النمسا الدفاع عن مصالح الكاثوليكية ، ولكن أغلبية الناخبين أصبحوا الآن من البروتستانت ولم يعد ثمة احتمال كبير لتأييدهم لامبراطور من الهابسبورج . وقد أعطيت النمسا مدينة ترنت الهامة كنوع من التعويض . وخسرت بفاريا الكثير غربا — « جوليير » و « بيرج » و « البالاتينات » — ولكنها عوضت أحسن تعويض باعطائها ورزبرج وبامبرج وكمبتن واجزبرج . فقد كان من سياسة فرنسا الثابتة تدعيم بفاريا لتصبح منافسة لسلطة النمسا . وفاز دوق بادن الأعظم كذلك بأراض واسعة . وحصلت بروسيا على تعويض مناسب عما فقدته وراء الراين ، فقد كان نابليون ميالا فعلا الى كسب ودها ولو لبعض الوقت ، وكان يرمى الى تقسيم ألمانيا الى مجموعات ثلاث رئيسية : مجموعة بروسيا ومجموعة النمسا ومجموعة ألمانيا الجنوبية ، بل انه ألمح كذلك الى أنه لايمانع فى حصول بروسيا على هانوفر ، لان ذلك كان كفيلا بأن يجعل الصداقة والتحالف بين بروسيا وبريطانيا ضربا من المستحيل .

ولقد تم قبول التخطيط الجديد فى ألمانيا دون مقاومة أو مجاهرة بالسخط ، وقد اقترن مجىء النفوذ الفرنسى الى ألمانيا بمجىء أشياء كانت تمثل تغييرا عظيما الى الأفضل ، فقد أدخلت بطبيعة الحال جميع النظم القانونية والاجتماعية التى فازت بها فرنسا نتيجة للثورة فى الأراضى التى ألحقت بها . ولم يقتصر هذا على تلك الأراضى وحدها فان فرنسا كانت تسير دفة الأمور فى سائر الجهات أيضا بنفوذها القوى وبالمثل الذى كانت تضربه . ولقد شاهدت ألمانيا فى تلك الفترة نموا سريعا فى الاهتمام بالمسائل الاجتماعية والسياسية ،

وتحولا فى اتجـاه الفكر الألمانى ، واستعدادا طيبـا لتعديل النظم القائمة . ورغم أن هذه الأشياء جميعا ستستخدم فيما بعد ضد فرنسا فليس ثمة شك فى أنها كانت تدين فى نشأتها بالكثير لفرنسا نفسها .

ويجدر بنا أن نعود الآن مرة أخـرى الى تاريخ فرنسا لنتـابع الخطوط العريضة للتغييرات العظيمة التى طرأت على مركز نابليون ، والنظم والاصلاحات التى ادخلها فيما بسوف يسمى بعد وقت قصير بامبراطوريته ، مغفلين مؤقتـا جميع الأحداث العسكرية وان تـكن لهذه الأحداث أقوى صلة وأوثقها بتاريخ فرنسا الداخلى .

لقد تولى نابليون حكم فرنسا بوصفه قنصلا أول ، ولم يلبث أن ضرب عرض الحائط بنظم الحكم التى أنشئت على أثر ثورة بروميير . فلئن كان لتلك النظم نفع بادىء الأمر كسـتار يخفى وراءه حـكمه الفردى ، فانه لم يلبث أن ألفى نفسه فى غنى عنها بعد أن ازداد ثقة بنفسه واطمئنانا الى تأييد الرأى العام ، فأخذ يعصف بها وراح يحكم دون حتى مجرد التظاهر باشراك الشعب معه . وهو لم يتجه بحكمه أكثر فأكثر نحو الأوتوقراطية الصريحة فحسب ، بل طفق يتخـلى كذلك رويدا رويدا عن كل أثر لمنشـئه الثورى ، ويزداد ميلا الى التمسك بالأوضاع الراهنة واعتمـادا على تأييد الجهات المحـافظة كالكنيسة والفلاحين ، حتى أنه أصبح يكره فيما بعد أن يذكره أحد على أى نحو بصلاته وعقائده الثورية الأولى . وفى ديسـمبر ١٨٠٠ ألقيت عليه قنبلة وهو فى طريقه الى دار الأوبرا ، فأعلنت السلطات أن الحادث من تدبير « السبتمبريين » وهو الاسم الذى أصبح يطلق على سبيل الازدراء على اليعاقبة المتطرفين . وأجرى تحقيق فى الحادث نفى على أثره ١٣٠ يعقوبيا لا بسبب القاء القنبلة وانما على حد قول المرسوم « بسبب مذابح ٢ سبتمبر و ٣١ مايو وكل محاولة تالية » .

وشنت الحكومة حربا شعواء حتى على النساء ، وألقت القبض على أرملتى مارا وشوميت . ومن الأمور التى تستحق الذكر فى هذا الصدد باعتبارها تكشف عن صلات نابليون القديمة ، أن شقيقة روبسبيير قد منحت معاشا .

وقد اتخذت هذه الاعتداءات على القنصل الأول سببا أو مبررا للمزيد من تجميد الدستور . ثم جاء صلح اميان فى مارس عام ١٨٠٢ ، وألفت فرنسا نفسها قد أحرزت النصر على كافة أعدائها وأصبحت تتمتع بمكانة عسكرية لم يتمتع بها لويس الرابع عشر نفسه فى أوج سلطانه ، وبدا أنها مدينة بكل شىء لذلك الرجل المذهل الذى قادها من نصر الى نصر ، فلم يبق للحرية سوى أنصار قلائل ، ذلك أن الحكم الفردى قد جلب للبلاد الفوز وأصبح من المأمول أن يجلب لها الرخاء كذلك . ولا مراء فى أن نابليون نفسه كان شديد الرغبة فى الانفراد بالسلطة دون منازع وتثبيت حكمه الفردى على دعائم أقوى وأبقى ، ولكن رغبة شعبه قد ظاهرت طموحه بل فاقته . وقد تقدم البعض باقتراح بتجديد مدة قنصليته لفترة أخرى تبلغ عشر سنوات عرفانا بفضله فى اقرار السلام ، ولم يلبث هذا الاقتراح أن عدل الى القنصلية مدى الحياة نتيجة لجهود نابليون نفسه ، وتقرر ألا يكون المنصب وراثيا على أن يسمح للقنصل — احتذاء بسنة الرومان — بأن يختار بنفسه من يخلفه . وأدخلت فى نفس الوقت بعض التعديلات على الأجهزة الدستورية ، فتحول مجلس الدولة الى « مجلس خاص » يعين القنصل الأول أعضاءه وله وحده حق التقدم بجميع الاقتراحات . ولم يعد مسموحا بالمناقشات الا فى هيئة المشرعين أو « مجلس التريبيون » . فلم يكن ثمة ماهو أبغض الى نفس نابليون أو اثارة لمخاوفه من المناقشة سواء فى مجلس أو جمعية أو فى الصحافة ، أما مجلس التريبيون فكان قد سبق أن أعيد تنظيمه

اثر الاعتداء على شخصه بحيث يختار القنصل الأول الأعضاء الذين تسقط عضويتهم كل عام . ويتمكن بذلك من التخلص من كل من يعارضه ، وفرضت على المناقشات فيه قيود صارمة . وقد قسم مجلس التريبيون الآن الى خمسة أقسام تجرى مداولات كل منها سرا . وظل النظام الانتخابى قائما من الوجهة الاسمية بل ان بعض الاصلاحات قد أدخلت عليه ، ولكنه لم يكن مسموحا للناخبين فى الواقع بالتأثير على الحكومة على أى وجه من الوجوه . وهكذا أصبحت فرنسا تعيش فى ظل حكومة فردية تخضع لضوابط وقيود أقل من تلك التى كانت قائمة فى عهد الملكية القديمة . وقد طلب الى جميع المواطنين ابداء الرأى فى المقترحات الجديدة فأيدوا مد حكم نابليون بأغلبية ثلاثة ملايين ونصف مليون صوت مقابل أقل من عشرة آلاف صوت . ان الاستفتاءات الامبراطورية ليست فوق مستوى الشبهات ، ولكن من الواضح أن الشعب كان راغبا فى أن يحكمه نابليون .

لقد أصبح نابليون امبراطورا من جميع الوجوه عدا الاسم ، وسرعان ماجاء الاسم وقد يجمل بنا أن نتتبع الكيفية التى جاء بها بعد القاء نظرة عابرة فقط على الشئون الخارجية التى كان لها أبلغ الأثر فى حصوله على هذا اللقب الجديد . لقد انهار صلح اميان فى مايو ١٨٠٣ ، وبدا كما لو أن الحرب الجديدة التى نشبت مع بريطانيا أولا ثم مع تحالف أوربى كبير كانت تحديا شخصيا لنابليون وحكمه فلم يعد ثمة مناص حيال مثل هذا الهجوم من أن تلتف فرنسا بكل حماسة حول الرجل الذى اختارته ليحكمها . وقد كان لمؤامرة كادودال التى كشف النقاب عنها فى فبراير ١٨٠٤ ، أثر مماثل . وكانت هذه المؤامرة خطيرة حقا ، فقد أقسم جورج كادودال الذى كان ملكيا من لافنديه على أن يقتل نابليون ، واقترن باسمه فى هذه المؤامرة أسمى شخصيتين أعظم منه هما « بيشجرو » القائد العسكرى المعروف فى عهد الثورة و «مورو»

الذى أحرز النصر فى هوهنلندن ، ولم تكن الحكومة الانجليزية أيضا بجاهلة أن ثمة شـيئا فى الأفق . ولكن أحـد المتآمـرين كشف عن الخطة ، فأعدم كادودال ونفى مورو ومات بيشجرو فى السجن ميتة ثارت حولها بعض الشبهات .

وتسببت المؤامرة كذلك فى وفاة شخصية لم تكن لهـا أدنى صلة بها ، وهى دوق دنجان الذى كان أميرا من بيت كونديه ، هاجر مع النبلاء المهاجرين واستقر فى اتنهايم بولاية بادن على مقربة من حدود فرنسا . ومن العسير على المرء أن يتبين السر فى هذا العمل الشائن . الا أن نابليون كان يشـعر بأنه محاط بالمؤامرات وقد ضـاق ذرعا بالتحالف الذى كان ينمو ضـده ، وخيل اليه فيما يبدو أن الدوق دنجان يتهيأ لغزو فرنسـا بمعاونة دى موربيه ، فسير جمـاعة من الفرسان الى اتنهايم قامت بالقبض عليـه وأحضرته الى ستراسبورج أولا ثم مضت به على وجه السرعة الى فنسين بالقرب من باريس حيث شكل له مجلس عسكرى ، وبعـد محاكمة عرجاء نفذ فيه على الفور حكم الاعدام رميا بالرصاص . ولم يلوث سمعة نابليون شىء بأكثر مما فعلت تلك الجريمة . وقد وقع فى نفس الوقت تقريبـا حـادث اختطاف « رومبولد » ممثل بريطانيا فى هامبورج ، وقد أنقـذت حياته بصعوبة من غضب نابليون . كما أرغمت فى تلك الفترة ولايات ألمانية عدة على ابعاد ممثلى بريطانيا من أراضيها .

ولم يكن للمؤامرات الموهومة والحقيقية ضد نابليون ولـكراهية أوربا المحمومة له ، ولاسيما بريطانيا ، من أثر سوى زيادة استعداد فرنسا لاعلان ثقتها به ، فقدم فى مجلس التريبيون اقتراح بجعل حكمه وراثيا لم يلبث أن أجيز دون أن يعتـرض عليـه ، تعلقـا بالروح الجمهورية ، سـوى كارنو . ثم منح نابليون بعـد ذلك بقليل ، وفى ١٨ مايو ١٨٠٤ على وجه التحديد ، لقب « امبراطور الفرنسيين »

بقرار من مجلس الشيوخ . وكانت العلاقات الرسمية قد قامت بين البابا وحكومة فرنسا الجديدة نتيجة لتشريع سنتناوله بالبحث بعد هنيهة ، فجاء الى باريس حيث توج نابليون وجوزيفين فى كاتدرائية نوتردام . وقد درست كافة تفاصيل الاحتفال بعناية وتفادى نابليون الاعتراف بأية سيادة للبابا فأخذ التاج من يديه ووضعه على رأسه بنفسه .

ولئن كان من حق نابليون أن يدرج المؤرخون اسمه فى عداد عظماء الساسة ، فان هذا الحق الذى يضعه فى مرتبة فريدة بين عباقرة العسكريين ، انما يستند أولا وقبل كل شيء الى التدابير التى اتخذها فى مجال السياسة الداخلية فى تلك الفترة ، وهى تدابير عديدة لها أهميتها الحيوية لافى تاريخ فرنسا وحدها وانما فى تاريخ أوربا ككل . ولقد اشترك الكثيرون بأدوار كبيرة فى رسمها مع نابليون ، ولكن مسئولية نابليون المباشرة عنها عظيمة ، ذلك أن هؤلاء جميعا كانوا يستمدون منه الوحى ويتأثرون به كل التأثر .

فأولا أوجد نابليون للمسألة الدينية التى ظلت قرحا داميا فى جسم فرنسا ، حلا . فان تحدى الثورة لعاطفة فرنسا الكاثوليكية وتعرضها لتنظيمات الكنيسة الكاثوليكية قد أثار حولها الكثير من أخطر الصعوبات التى صادفتها ، ومحاولتها اقامة كنيسة كاثوليكية دستورية مستقلة عن روما والبابا قد باءت بالفشل الذريع ، وألفى القساوسة الدستوريون أنفسهم بلا جمهور ، فتزوج الكثيرون منهم وشغلوا بأمور دنياهم . وكانت الخيبة التى منيت بها ديانة حب الخير — رغم مساندة الدوائر الحكومية لها — أشد وأقوى . ذلك أن فرنسا المتدينة كانت كاثوليكية فى أعماق قلبها ، وفرنسا المتدينة هذه كانت تشكل بالنسبة لفرنسا ككل جزءا أضخم مما يظن الناس فى العادة .

وقد تناول نابليون المسألة من وجهة نظر السياسى المحنك ، فان آراءه الدينية الخاصة لم تكن تتعدى كثيرا فيما يبدو الايمان المبهم بوجود الله . ولكنه أحس بفطرته السليمة بقوةالكنيسة الكاثوليكية ، وبخطر الاصطدام بهيئة يدين لها بالولاء كل هـذا العدد الغفير من الفرنسيين . وكان راغبا فى قيام كنيسة مستتبة لتكون سندا لعرشه ، ومن أقواله المأثورة « ان دولة بلا ديانة كسفينة بلا بوصلة » . وقد أظهر فى حروبه الايطالية الأولى من الود نحو البابوية أكثر ممـا كان يروق للحكومة الفرنسية القائمة وقتئذ . ثم قطع « التقارب » بينه وبين البابا شوطا أكبر الى الأمام بعد معركة مارنجو . فقد احتفـل بنصره فى تلك المعركة باقامة صلاة الشكر وأعيـد الى البابا بيوس السابع ولاياته ، فكان فى موقف القنصل الأول تشجيع صريح للبابا على الدخول فى مباحثات ودية مع فرنسا . على أن الأمر لم يخل أيضا من التهديد المستتر ، فقد احتفظ نابليون فى روما بحامية فرنسية تستطيع ازعاج البابا ان استدعى الحال ، وتردد الحديث فى بعض الأحيان كذلك عن المضى بفكرة « الحريات الغالية » التقليدية شوطا أبعد بحيث تقوم فى فرنسا كنيسة تكون كاثوليكية لحما ودما دون أن تخضع لروما . وأسفرت المباحثـات عن اقرار الاتفاقية البابوية وعودة فرنسـا ـــ بصورة اجمالية ـــ فى عيد الفصح عام ١٨٠٢ ، الى الدستور الكنسى الذى كان قائما قبل الثورة ، وهو الدستور الذى رسـمت خطوطه الرئيسية اتفاقية بولونيا التى وقعها كل من الملك فرنسـوا الأول والبابا ليو العاشر فى ١٥١٦ . وهكذا عادت الصـلات بين الكنيسة وروما ، وأصبحت الكاثوليكية مرة أخرى دين الدولة الرسـمى ، وتقرر أن تنفق الدولة من أموالها على الخدمات والهيئات الكنسية . وتقرر من ناحية أخرى أن يكون الترشيح لجميع المناصب الكبرى فى الكنيسة من حق القنصل الأول ، وألا يكون للبـابا أى حق فى الاعتراض على هؤلاء المرشحين الا على أساس الهرطقة أو الفسـاد

الخلقى ، فاذا لم يجد عليهم مآخذ من هاتين الناحيتين التزم بتنصيبهم وفقا للنظم الكنسية ، وبهـذا يتمكن القنصـل الاول من الاحتفاظ بسلطانه على الكنيسة عن طريق شغل المناصب الهامة فيها بأفراد يثق بتأييدهم له . غير أن الامر لم يقف عنـد هذا الحـد ولا كان ذلك أسوأ شيء من وجهة نظر البابا ، فقد ورد فى الاتفاق نص بأن « تتم العبادة جهرا مادامت متمشية مع تعليمات الشرطة التى ترى الحكومة لزومها حرصا على السكينة العـامة » . وسرعان ما خرجت هـذه التعليمات الى عالم النور ، وأعلنت الحـكومة أن المراسيم البابوية لاتسرى على فرنسا ، وانه لايجوز عقد مجمع مقدس لقساوسة فرنسا دون اذن من القنصل الاول ، وانه ليس مسـموحا لاى أسقف بأن يغادر أبروشيته حتى لو استدعاه البابا نفسه . والادهى من ذلك كله أن الاتفاقية قد ضمنت شرطا يقضى بتدريس اعلان الحريات الغالية ، أى الحقوق والحريات الخاصـة بالكنيسة الكاثوليكية فى فرنسا ، لكافة من يعدون أنفسهم ليصبحوا قساوسة . وكان هـذا الاعلان الذى صدر فى ١٦٨٢ مصدر خلاف دائم بين الملكية الفرنسية القديمة والبابوية ، وهو — باختصـار — يحد من سلطة البابا فى شـئون الكنيسة الفرنسية ، ويعلن أن هـذه السلطة لاتصبح نهائية قبل أن تؤيدها موافقة تلك الكنيسة . ولقد وجد البابا الاتفاقية التى عرضت عليه قاسية الى درجة جعلته يتردد فى قبولها ككل بعد أن ألحق بها هذا الاعلان ، غير أنه قبلها فى النهاية . ..

وكانت فكرة نابليون الرئيسية فى هـذا كله هى التحكم فى قوة عظيمة تؤثر فى تصرفات الناس من خلال مشاعرهم وعقائدهم . ولم يغفل نابليون أمر الكنائس الاخـرى فوضـع الكنيسـتين اللوثرية والكلفينية تحت سيطرة الدولة وجعلها تتولى الانفاق عليهما ، ومنح اليهود كذلك معونة حكومية . وهكذا كتب للحياة الدينية أن تقوم فى فرنسـا مرة ثانية ، وأن يجزل لها العطاء ، وقدر للعرش — وان

تغير مظهره كثيرا — ان يستند من جـديد على محراب فرنسـا أو محاربيها . والرأى يختلف اختلافا بينا فى تقدير سلامة هذه الخطوات سواء من زاوية الدين أو السياسة . لقد كان من الواضح أن الوقت قد حان للسماح للشعب الفرنسى بالدخول من جديد فى صلة روحية حرة مع الكنيسة التى كان يفضلها . ولكن هل كانت سيطرة الدولة شيئا تقتضيه الحكمة ؟ وهل كان من صالح الكنيسة على طول المدى أن تربط نفسها الى هذا الحد بمصالح نابليون ؟ وهل كسب نابليون أية قوة لها صفة الدوام من هذه الرابطة ؟ حقا ان روح «بسوويه» (١) كانت لاتزال قوية فى فرنسا ولكن هـذا القول يصدق أيضا بالنسبة لروح « فولتير » . ولقد شـعرت الكنيسـة الكاثوليكية وشـعر الكاثوليكيون ، بالامتنان لنابليون لما أسداه لهم من خدمات ، ولكنهم لم ينسوا قط ارتباط حكمه بالثورة المقيتة . بينما نظر أصحاب العاطفة الثورية فى فرنسا الى الاتفاقية البابوية باعتبارها هجوما مباشرا على مبادئهم الجوهرية . وقد أسماها جوزيف بونابرت « خطوة رعناء الى الوراء » ، وقال آخر مخاطبا نابليون « ان مليونا من الناس قد ماتوا من أجل القضاء على ما أنت بسبيل اعادته » .

وثانيا شاهدت الفترة التى نتحدث عنها اتمام واصدار « المجموعات التشريعية » أو « التقنينات » النابليونية (٢) ، وهى تعد من أقـوى الأسانيد التى يستطيع الاعتماد عليها القائلون بأن نابليون ذو أياد بيضاء على البشرية . وقد أعلن نابليون فى منفاه فى سانت هيلانه أن المجموعة التشريعية المدنية التى أصدرها ، لا انتصاراته فى الحرب ، هى مؤهله الاول للشهرة . وهذه التقنينات الفرنسية كانت أيضـا

---

(١) أسقف شهير فى فرنسا عاش فى الفترة مابين ١٦٢٧ — ١٧٠٤ م . (المترجم)

(٢) Napoleonic Codes

أفعل أداة فى نشر أفكار الثورة الفرنسية التى أقرها ونهض بها نابليون ، فى أنحاء شاسعة من أوروبا . ان فكرة التقنين لم تكن بالجديدة على فرنسا ، وهذه المحاولة للمضى قدما بالعمل الذى بدأته الامبراطورية الرومانية ذلك بتقديم قوانين فرنسا فى أقل حجم ممكن وفى صورة واضحة ومنطقية وكاملة ، فيها حقا شىء فرنسى أصيل . فلقد قام لويس الرابع عشر بمحاولة من هذا القبيل . وأبدت الثورة رغبتها فى أن ترى هذا العمل وقد سار شوطا أبعد الى الامام . ان انجاز مثل هذا العمل يتطلب دائما وجود حكومة قوية ، بل يتطلب عادة ارادة فردية قوية ، وقد زود نابليون فرنسا بذلك على أكمل وجه .

لقد كان نابليون ابن الثورة ، ولكنه قلب من عدة أوجه أهدافه ومبادىء الحركة التى انبثق منها . وهذا القول ينطبق بوجه خاص على مجموعاته التشريعية . فالثورة لم تكن قد اكتسحت ماتبقى من الاقطاع والسيطرة الكنسية على الدولة فحسب ، بل هاجمت كذلك التقاليد التى كان يعتز بها فقهاء فرنسا . ولقد جاهدت قبل كل شىء من أجل المساواة ، فأصرت على تقسيم الميراث بالتساوى بين الابناء ، وفرضت حدودا ضيقة للوصية ، وأساءت الى مشاعر ذوى العاطفة الكاثوليكية بابتداع نظام الطلاق ، وانتزعت من الكنيسة كل سيطرة على مسائل الاحوال الشخصية أى المسائل الناشئة عن الولادة والوفاة والزواج . وقد كان فى ذلك كله الكثير مما لا يقره نابليون فى مزاجه الجديد ، فقد تصادق مع الكنيسة وصار يقيم وزنا كبيرا لمبدأ السلطة ولايكن حبا كبيرا للمساواة . فمن الطبيعى اذن ألا يكتفى بتقديم تشريعات الثورة فى قالب موجز ومنطقى بل أن يرغب كذلك فى تعديل تفاصيلها الهامة .

ولم يكن نابليون فقيها ، فتناول المسائل بسعة أفق الرجل العادى وجهله كذلك . على أن تأثيره كان عظيما للغاية ، فهو لم يكتف بدفع مشرعيه الى القيام بتلك المهمة والاصرار على انجازها بل ترأس بنفسه كذلك الكثير من الجلسات ، ولا سيما تلك التى خصصت للمجموعة التشريعية المدنية ، وتدخل فى كثير من الاحيان تدخلا حاسما . وفى بعض أقواله عن عمل المشرعين من الطرافة مايحفزنا الى اقتباسه « لقد كنت أحسب أولا أن بالامكان اختزال القوانين الى معادلات هندسية بسيطة بحيث يتمكن كل شخص يستطيع القراءة والربط بين فكرتين اصدار الاحكام بموجبها ، ولكنى سارعت الى اقناع نفسى بسخافة تلك الفكرة ... ولطالما لاحظت أن المبالغة فى تبسيط القوانين انما هى عدو لدود للدقة ، وأن الافراط فى تبسيط القوانين ضرب من المستحيل فان ذلك يؤدى فى معظم الأحوال الى تعقيد الامور بدلا من حلها . »

وكانت هناك خمس مجموعات تشريعية (Codes) هى : القانون المدنى وقانون المرافعات المدنية وقانون الاجراءات الجنائية وقانون العقوبات والقانون التجارى . وقد مرت هذه التقنينات بعدة مراحل قبل أن تصبح نافذة ملزمة فى فرنسا . وهناك هيئتان كان لهما الدور الحاسم فعلا فى اقرارها : هما اللجنة الابتدائية التى وضع فيهامشروع القانون المدنى ، ومجلس الدولة الذى عرضت عليه الاقتراحات وترأس الكثير من جلساته نابليون بنفسه . وكان نابليون ينظر الى واجباته بعين الجد ، فحضر خمسا وثلاثين جلسة من سبع وثمانين جلسة خصصت للقانون المدنى . وقد انحاز بطبيعة الحال الى جانب تدعيم السلطة فى الاسرة والدولة جميعا ، فناصر فكرة السيادة المطلقة للأب داخل الأسرة على الزوجة والاطفال على حد سواء ، وأيد بشدة مبدأ خضوع المرأة للرجل وقال فى هذا المعنى « ان الملاك قد أمر

حواء أن تطيع زوجها ، وتعاليم الاخلاق قد دونت هذه المادة بجميع اللغات ، فمن باب أولى أن تكتب بالفرنسية فى القانون . » وسمح القانون المدنى للاب بأشياء كثيرة تصل الى سجن أبنائه فكأنما عادت فرنسا الى تقاليد العهد البائد . وسمح بالطلاق ولكنه أحاطه بالقيود ، وأيد تقسيم الملكية فأصر على أن تقسم بالمساواة بين الابناء حصة كبيرة من التركة على الأقل ، وآمن الكثير من المكاسب التى حققتها الثورة ، ولكن نفوذ نابليون الشخصى كان مسئولا عن تجميد تضييق كثير من الأحكام التى أتت بها الثورة من بنود واختفاء أحكام أخرى . فلئن كان نابليون قد أتاح لمبادىء الثورة مجالا فسيحا تمارس فيه نفوذها ، مجالا ماكانت لتبلغه لولاه ، الا أنه قد سلب منها طرفا من بهائها الأول . أما القوانين الاخرى فليس لها أهمية القانون المدنى . فمحكمة الاجراءات الجنائية انما هى — من عدة أوجه — صورة للنموذج الانجليزى . على أن نظام المحلفين قد قوبل بهجوم عنيف ، وأعلن الكثيرون أنه فى مصلحة المتهم بأكثر مما ينبغى وأنه يحد حدا خطيرا من سلطة الحكومة ، ولكن الرأى قد استقر على الاخذ به فى النهاية ، والفضل فى ذلك يرجع الى حد بعيد الى نفوذ نابليون . وقد رؤى أن تكون قرارات المحلفين بالاغلبية ، وأن تجرى المحاكمات علنا ، وأن يسمح بالدفاع فى جميع القضايا . وتقرر — رغم معارضة الساسة الثوريين — الاحتفاظ فى التقنين الجديد بذلك الاجراء الذى يميز المحاكمات الفرنسية وهو أن يصدر ضد المتهم « قرار اتهام تمهيدى سرى فى الغالب من قاضى التحقيق . وسمح فى العقوبات بعقوبات الوصم ومصادرة الاملاك ، وأحيط حق الاجتماع بقيود صارمة . ومع ذلك فان من الخطأ أن نبرز الجوانب القاسية وحدها فى هذه القوانين . والمستر هـ . ا . ل . فيشر يختم الفصل الرائع (١) الذى كتبه عن

(١) « التاريخ الحديث » نشر جامعة كمبردج · الفصل السادس من المجلد التاسع ·

Cambridge Modern History, Vol. IX. Chap. 6.

قوانين نابليون (وهو الفصل الذى أفدنا منه فى بحثنا هذا) بكلمات لا يعلى عليها فى تلخيص المسألة برمتها . فهـو يقول انه بالرغم من جميع النقائص والعيوب « فان هذه القوانين تحافظ على ما حققته روح الثورة من انتصارات جوهرية ألا وهى المساواة المدنية والتسامح الدينى وتحرير الارض والمحاكمة العلنية ونظام المحلفين » . ويضيف الى ذلك قوله ان هذه القوانين كانت بالنسبة لألمانيا وايطاليا « بمثابة أول رسالة وأنضج تجسيم للروح الجديدة . فقد قدمت لأوربا ، فى شكل واضح موجز ، القواعد الرئيسية التى ينبغى أن تحكم المجتمع المتحضر » .

كما أعاد نابليون تشكيل النظام الادارى فى فرنسا ، وكانت تحدوه نفس الروح فى كل مافعل ، اذ كان راغبا فى قيام سلطة مركزية (لا يمكن الا أن تكون سلطته هو نفسه) توجه وتسيطر على كل ميدان من ميادين الحياة فى فرنسا . ولقد كان يزعم أن الثورة الفرنسية قـد تجسدت فى شخصه ، ولطالما ردد الآخرون هذا الزعم ، ولكن الحق أننا نلمس فى عمله روح لويس الرابع عشر بأكثر ممـا نلمس روح الجمعية التأسيسية . ونحن نراه يستخدم فى بعض الاحيان عبـارات تذكرنا بالاستعارات المأثورة عن « الملك الشمس » ، ومن ذلك قوله : « ان الحكومة تلعب دور الشمس فى النظام الاجتماعى الذى ينبغى أن تدور هيئاته المختلفة حول هذا الكوكب المركزى المنير ، على أن تلتزم كل منها فلكها الخاص لا تحيد عنه أبدا » . ولقد ثبتت القوانين النابليونية كما شاهدنا ، الكثير من المكاسب الاجتماعية التى حققتها الثورة ، وكان نابليون حريصا دائما على عدم المسـاس بحقـوق الفلاحين ، ولم تتجه نيته قط الى اعادة نظام الامتيازات المالية ، ولكن عهده قد اقترن فى معظم النواحى الأخرى بالعودة — خطـوة بعـد أخرى — الى آراء الملكية القديمة وأشكالها ونظمها .

ومن ذلك أنه أعاد بسلسلة من المراسيم نظام الرتب المتصاعدةالذى ألغته الثورة فى حزم وتصميم . وبوسعنا أن تتقصى بداية ذلك الاتجاه فى انشاء وسام جوقة الشرف (الليجيون دونير) عام ١٨٠٢ ، وكانت فرنسا — اذ ذاك لا تزال جمهورية . ونابليون لا يزال يتحدث بلغـة الثورة — وان يكن من المؤكد أن رجال المؤتمر الوطنى كانوا سينظرون بعين الفزع الى انشاء مثل هذه الرتبة التى راح نابليون يضفيها على العسكريين أولا ثم على المدنيين الذين يقومون بأعمال ممتازة فى كافة ميادين الحياة . وقد أخذ نظام الرتب الهرمى المقترن بمظاهر التفخيم ينمو ويتسع ابتداء من عام ١٨٠٤ . فقد أنشأ نابليون ست رتب يأتى ترتيب أصحابها بعد أمراء البيت الامبراطورى مباشرة ويشـغلها « ذوو المقام الامبراطورى الرفيع » وهم النـاخب الافخـم وكبير مستشارى الامبراطورية وكبير مستشارى الدولة ، وكبير أمنـاء الخزانة ، وكبير ضباط الجيش ، وكبير ضباط الاسطول . ويلى هؤلاء ضـباط الامبراطورية العظـام ويندرج فى عدادهم ماريشالات الامبراطورية « وناظر الصدقات الافخم » و «كبير الياوران» و«ناظر الصيد الافخم » وبمجىء عام ١٨٠٨ اكتمل نظام الرتب الهرميـة ، وأصبح العرش الامبراطورى محاطا بجمهرة هائلة من حاملى ألقـاب « الامير والدوق والكونت والبارون والفارس » لا تقل عن تلك التى كانت تسند دعائم عرش لويس الرابع عشر . وكان الـكثيرون من أصحاب الالقاب الرفيعة هؤلاء « رجالا جددا » رفعتهم عاصفة الثورة من صفوف الطبقة الوسطى والطبقات الدنيا ، ولكن نابليون صـار أميل الى اختيار أبناء الاسر العريقة لشغل المناصب الخالية ومنح الرتب والالقاب . ولم يعد بوسع الثوريين أن يعتبروه حليفا . أما رجال العهد البائد فلم يشعروا نحوه بالولاء أو يظهروا له كبير وفاء .

وقد كان للثورة أمانيها فى خلق نظام تعليمى موحد فى فرنسا كلها ، ولكنها لم تجد فسحة من الوقت للقيام بأكثر من بداية فى هذا المضمار .

وهنا أيضا راح نابليون يترجم — بطريقته المعهودة وطاقته وارادته العظيمتين — الافكار الى حقائق ، ولكنه عدل كل الأفكار بحيث تتمشى مع انحيازه الشخصى لمبدأى المركزية والسلطة الحازمة . فقرر تقسيم المدارس الى أربع درجات هى : الابتدائية ، والثانوية ، ومدارس الليسيه وهى مدارس داخلية شبه عسكرية لها طابعها المتميز ، والمدارس الخاصة للتدريب الفنى ، على أن تسيطر على هذا البناء كله وتقف على قمته الجامعة الامبراطورية التى تم تشكيلها فى عام ١٨٠٨ . فقد استقر رأى نابليون على أن تكون هناك جامعة واحدة لفرنسا كلها يتبعها سبعة عشر معهدا اقليميا خاضعا للمركز . وانعقدت نيته على اخضاع النظام التعليمى الفرنسى كله لسيطرة الجامعة ، وعلى عدم السماح لأحد بالتدريس فى المدارس الفرنسية مالم يكن خريج احدى كليات هذه الجامعة ، غير أن المهام العسكرية والسياسية الضخمة التى استغرقت انتباه نابليون حالت دون وصوله الى هدفه فى هذه الناحية ، فلما سقطت الامبراطورية كان معظم تلامذة المدارس الفرنسية يتلقون تعليما خاصا اختياريا .

وكان « المجمع الفرنسى » الشهير قد أنشىء عام ١٧٩٥ للقيام بالأبحاث والدراسات العليا . ولعلاقة نابليون به دلالة واضحة . فقد دعمه تدعيما جوهريا وكان معجبا بالأعمال التى حققها فى العلوم الطبيعية والفنون الجميلة والرياضيات والأدب ، ولكنه رأى ضرورة اعادة تنظيمه لأنه كان يكره دراسة العلوم الأخلاقية والسياسية ، فحل بمرسومه الصادر فى ٢٣ يناير ١٨٠٣ القسم المخصص لهذه الدراسات بالمجمع . ولا مراء فى أن الشك فى الدراسات والتأملات المتصلة بالحياة الانسانية والمسلك الانسانى ، انما هو أقوى علامة مميزة للحكم الاستبدادى ، وليس ثمة شاهد أوضح على نظرة نابليون الاستبدادية فى جوهرها من ذلك العداء الذى أظهره نحو المشتغلين بعلوم الأخلاق والسياسة .

وقد عارض نابليون بنفس الشــدة ، حرية التعبير فى الصــحافة والأدب . ففرضت فى عهده الرقابة الصارمة على الصحافة بل انهــا فى النهاية أخمدت اخمادا يكاد أن يكون تاما وكانت جميع الــكتب تخضع للفحص قبــل نشرها ، وشددت الرقابة على المسرح كذلك تشديدا خاصا .

كما حاكى نابليون أيضا المظاهر المفضلة فى عصر لويس الرابع عشر محاكاة عجيبة ، فافتتح سلسلة كبيرة من الأشغال العامة . ووضعت فى عهده مشروعات الطرق ونفذ الكثير منهــا ، وشقت القنــوات ، وتمتع المنتجون الفرنسيون بنظام للحماية يرجع الفضل فى قيامه الى طبيعة علاقات فرنسا السياسية والعسكرية بأوروبا وان يكن متمشيا أيضــا مع أفــكار نابليــون الخاصـــة . ولا شك أن كــولبير وزير لويس الرابع عشر العظيم كان سيسر لو أنه عاش ليشاهد فرض القيود الجمركية لابعاد المنتجــات الأجنبية ، وتقســيم الصــناعات الفرنسية الى نقابات من جــديد ، واتخــاذ الخطوات لادخال بعض أساليب الثورة الصناعية التى أحدثت كل ذلك التغير العميــق فى حياة بريطانيا . وفى عهده أيضا حسنت الزراعة بادخال أساليب جديدة نقلا عن بلجيكا وانجلترا ، وبعثت صناعة الحرير فى ليون من جــديد ويرجع الفضل فى ذلك جزئيا الى استخدام نول « جاكار » الجديد ، واستجلب القطن من الشرق وبدأت عمليات تصنيعه باستخدام دولاب الغزل الذى استحضر من انجلترا . كما استخدم الغــاز للاضــاءة ، واتسمت حالة فرنسا العامة حتى بداية انهيار الامبراطورية بانتشــار نوع من الرخاء بين كافة الطبقات . حقا ان الوضع الاقتصادى كان مصطنعا تماما ومعتمدا على الحرب من جميع النواحى ، الا أن العمل كان وفيرا والأجور كانت طيبة . ومع ذلك فقــد كان أولئــك الذين ينظرون الى مادون السطح ، يدركون أن العسرآت لا محــالة فى النهاية .

وكان وزراء نابليون وعمـلاؤه يستندون اليه وحـده فلم يـكن الاستحسان أو الاستياء الشعبى يؤثر فى بقائهم فى مناصبهم . ولقـد خدمه بادىء الأمر رجال ذوو مقدرة عظيمة سواء فى الجيش أو فى الادارة الداخلية . ومن بين هؤلاء الاخيرين يبرز اسمان بصفة خاصة هما : تاليران فى ادارة دفة الشئون الخارجية ، وفوشيه فى المحـافظة على النظام فى الداخل . وقد كان كلاهما على شىء من العبقـرية مع مابينهما من اختلاف شاسع . فأولهما كان فطنا ساخرا أريبا بارعا فى نعومته ، وقارئا ماهرا لبارومتر أوربا ، بينما كان الآخر قاسيافاسدا ، ورئيسا لشبكة من الجواسيس والعملاء سريعا الى اكتشاف وقمـع المؤامرات التى تدبر ضد سيده الامبراطور وليس فوق الشبهة أنه كان المحرض أحيانا على المؤامرات التى يسارع الى اكتشافها . ولقد أسدى الرجلان الى نابليون أجل الخدمات ولكنهما لم يسلما كلاهما من شكوكه . ولعلهما قد شاهدا بوضوح الاخطار المحدقة بحـكمه رغم انتصاراته الهائلة ، فراح كل منهما يمهد السبيل لكى يستقبل استقبالا طيبا فى معسكر أعدائه . وتحوم حول تاليران شكوك قوية فى أنه قد اتصل بالحكومة البريطانية وقت معاهدة تلسيت فى١٨٠٧ . ولقد اصطدم بنابليون فى ١٨٠٨ ، فلم يستخدمه بعد ذلك قط مشرفا على الشئون الخارجية . أما فوشيه فقد استمر فى الحكم زمنا أطول وكان يعد لفترة الرجل الاول فى فرنسا بعد الامبراطور ، ولكن تهمة العمل بوجهين والتفكير فى ملاذ لنفسه عند زوال حكم نابليون ، أثبت عليه من تاليران . وقد طرده نابليون من خدمته عام ١٨١٠ وطفق يحكم من ذلك التاريخ فصاعدا بوساطة أدوات أضعف وأشد خضوعا . وقد أصبح يرتاب — شأن لويس الرابع عشر والكثيرين غيره — فى ذوى المقدرة من مرءوسيه ويحاول تصريف شئون امبراطوريته الشـاسعة بنفسه .

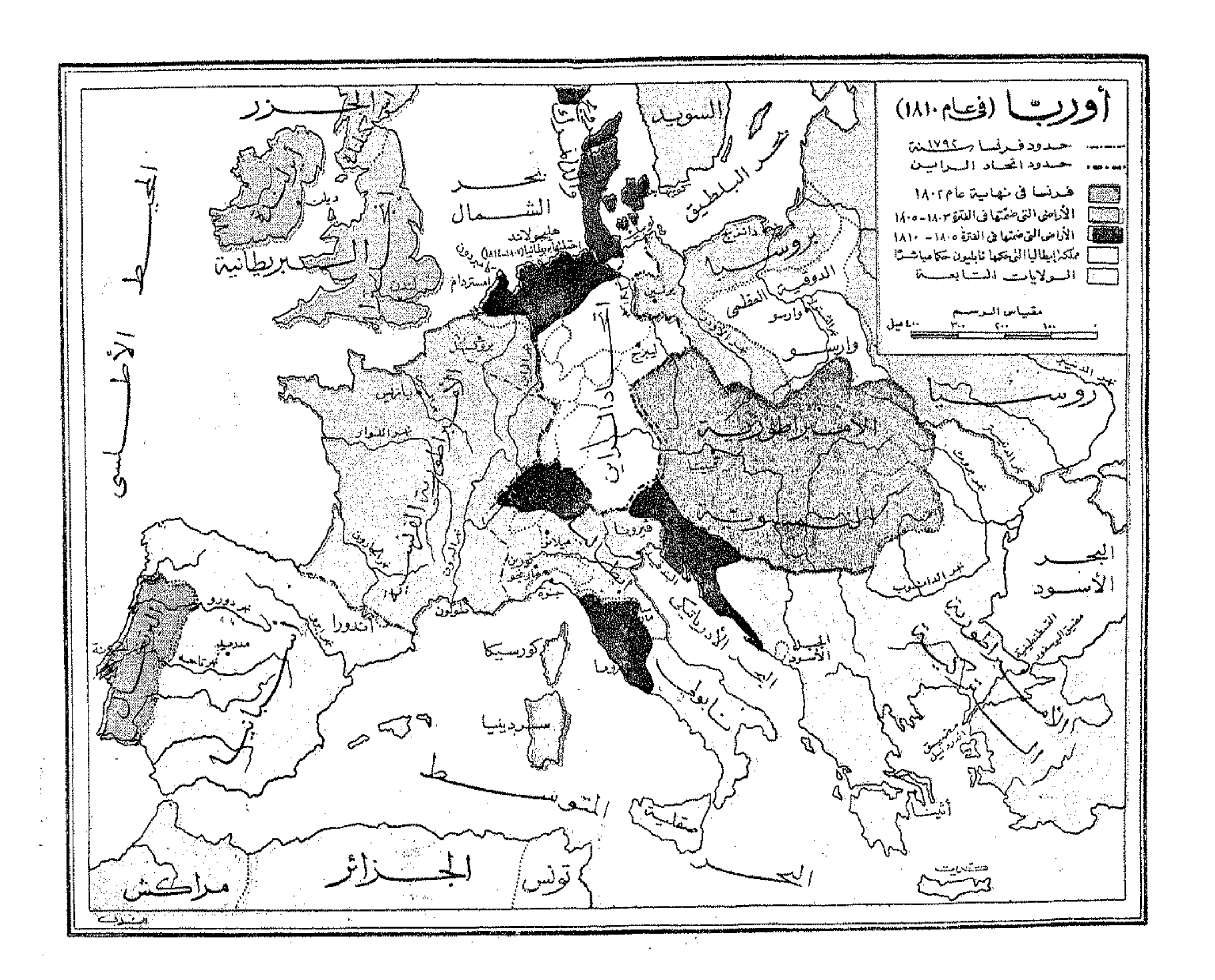
وثمة ناحية كان توفيقه فيها أقل من توفيق ذلك الملك الفرنسي الذي قارناه به . فان من العوامل التي دعمت عرش لويس الرابع عشر وزادته مجدا على مجد انه كان محاطا بصف من عظماء الرجال ، في شتى نواحي الفن والفكر ، يدينون له بالطاعة عن طيب خاطر . ولقد كان نابليون مدركا تماما لاهمية مثل هذا التأييد ولكن بلاطه ظل دائما متكلفا غريبا نوعا ما لا تربطه صلة بأي مستوى رفيع للسلوك أو أية أسماء عظيمة في مجالات الفن أو الفكر . كان عقل فرنسا وقلبها ينبضان حقا بالحياة ولكنهما لم يكونا مدينين بالكثير لنابليون فلم يبديا نحوه أي امتنان . لذلك نرى أن أعظم الاسماء في عالم الادب كانت تقف من حكمه موقف المعارضة الأكيدة ، ومن بين هذه الاسماء « شاتوبريان » الذي انتظم في وقت من الاوقات في سلك العاملين في خدمة الامبراطورية . وقد مارس هذا الكاتب نفوذا عظيما على أذهان معاصريه ، ونال شهرة عريضة بفضل كتابه « عبقرية المسيحية » الذي نشر عام ١٨٠٢ . ورغم أن نابليون لم يصبه باضطهاد أو أذى فقد كان يرمي بثقل نفوذه كله في كفة المعارضة للامبراطور .
أما الصدام بين الامبراطور ومدام دي ستيل فقد كان مباشرا . وهذه السيدة هي ابنة « نيكر » الذي اشتهر في بداية الثورة الفرنسية ، وقد ألفت عددا من الروايات والبحوث . ورغم أنها كانت فرنسية خالصة في شخصيتها وأسلوب كتابتها فقد كتبت كتابا بعنوان « في ألمانيا » (١) حللت فيه خصائص الشعب وكالت له الثناء ، وتمكنت أثناء ذلك من توجيه أكثر من ضربة حاذقة لاساليب نابليون ، فوضعت تحت المراقبة وكادت تتعرض للسجن على يدي نابليون ولكنها تمكنت من الفرار ونشرت كتابها في انجلترا ، فشخصت اليها أبصار أوربا التي راحت تصفق لمقاومة المرأة الجريئة للطاغية وتبالغ في قيمتها

(١) "In Germany"

كمفكرة وفنانة معا . وقد كانت هناك أسماء فرنسية شهيرة فى العلوم وأخرى هامة فى الفن فى تلك الحقبة ، ولكن السنوات الخمس عشرة التى ظل فيها نابليون الشخصية الأولى فى فرنسا لا تعد من الفترات العظيمة فى الادب والفن والفكر الفرنسى . فكانت قوة البلاط الرئيسية تكمن — فى أغلب الظن — فى شخصية الامبراطورة جوزيفين . وقد عرفت هذه بشدة اسرافها ، فقد أنفقت فى تقدير « ماسون » كاتب سيرة نابليون ، مايربو على مليون فرنك فى عام واحد على الملابس وحدها . ولكنها كانت جميلة فاتنة ومحبوبة الى حد كبير . وقد حدته الى طلاقها اعتبارات سياسية ودولية ، ولكن هذا الطلاق كان غلطة على الارجح . فان خليفتها لم تكسب قلب فرنسا قط كما سنشاهد فى الصفحات التالية .

لقد قيل ان نابليون قد بلغ شأوا متساويا من العظمة كسياسى وجندى معا ، فهل لهذا القول سند قوى من الحقيقة ؟ لا ريب فى أنه لم تتح له الفرصة لتطوير جميع أفكاره وسط عواصف الحرب التى لم تكد تنقطع ، فقد كانت سياسته الداخلية خاضعة طوال الوقت للضرورات الحربية . ولكن ينبغى ألا يغرب عن بالنا أن الموقف الأوربى كان الى حد بعيد من صنع يديه ، وان سلطانه فى داخل فرنسا كان وثيق الارتباط دائما بسمعته العسكرية وانتصاراته . ونحن لا نكاد نجد فى برامجه الاجتماعية والسياسية الا القليل جدا مما هو جديد . فقد مهدت الثورة الطريق لجزء منها ، ومهدت الملكية القديمة الطريق للجزء الآخر . وسر عظمته السياسية لا يكمن فى جدة خططه وأصالتها وانما فيما بذله فى تنفيذها من طاقة جبارة وفى قوة ارادته وعنايته بالتفاصيل . فلم يكن فى أعماله من الطرافة — وربما التكيف مع حاجات العصر أيضا — مثلما كان فى أعمال كولبير مع مافى أعمال الرجلين من شبه وثيق . وأخيرا فمن الجلى أنه لم يبد فى

كل تصرفاته أى تقدير لقيمة الحرية السياسية . ولئن كان هذا الشعار الأول من شعارات الثورة الثلاث العظيمة قد اجتذبه فى يوم من الايام فان حماسته الاولى له قد انطفأت تماما ، فصار يرى فى الحرية عاملا مزعجا يحول دون توفر الكفاية فى أعمال الدولة . وليس فى كتـاباته وأقواله أية اشارة تنم عن الايمان بأن الحرية انما هى القوة الكبرى التى تهيىء أسباب الاستقرار والنظام والكفاية .


أوربا (في عام ١٨١٠)
حدود فرنسا سنة ١٧٩٢
حدود اتحاد الراين
فرنسا في نهاية عام ١٨٠٢
الأراضي التي ضمتها في الفترة ١٨٠٣-١٨٠٥
الأراضي التي ضمتها في الفترة ١٨٠٥ - ١٨١٠
مملكة إيطاليا التي حكمها نابليون حكماً مباشراً
الولايات التابعة
مقياس الرسم
١٠٠
٢٠٠
٣٠٠
٤٠٠ ميل
السويد
بحر البلطيق
بحر الشمال
الجزر البريطانية
المحيط الأطلسي
روسيا
البحر الأسود
الجزائر
تونس
مراكش
كورسيكا
سردينيا
صقلية
أثينا
مدريد
أندورا
طولون
ميلانو
فيرونا
جنوة
روما
نابولي
البحر الأدرياتيكي
وارسو
أمستردام
هليجولاند

الفصل السادس
هزيمة حكومات أوروبا

قوبل صلح اميان بترحيب وارتياح عميق فى جميع دول أوربا . وكان الترحيب به فى بريطانيا العظمى أكثر منه فى أى بلد اخر . فقد أمل الكثيرون فى انتهاء عواصف فترة الثورة وفى أن تتمكن أوربا من التمتع ولو بفترة موقوتة من السكينة والتطور السلمى . ومع ذلك فان صلح اميان لم يدم الا أقل من عامين ، وسرعان ماحلت محله حرب — أشد عنفا وأطول زمنا — لم تتوقف توقفا حقيقيا الا عند انتهاء معركة ووترلو . فما هى أسباب الحرب الجديدة ؟ لقد ألفت كتب عديدة عن انهيار صلح اميان ، بيد أنه مازالت ثمة نقاط معينة يختلف الرأى حولها اختلافا جليا بين خيرة المؤرخين وأكثرهم اطلاعا على بواطن الامور .

ان هذا الانهيار يعطينا صورة عامة لما يحدث عندما توضع فكرة التوازن الدولى موضع التطبيق . فقد كانت دول أوربا المختلفة تنظر الى بعضها بعضا نظرة الأعداء يتوقع كل منهم الشر من الآخر . وكان يبدو أن فى قوة أى دولةالخطر كل الخطر على بقية الدول . فلم يكن مناص ، وهذه الآراء هى السائدة ، من أن ينظر الى المركز العظيم الذى بلغته فرنسا قبل الصلح على أنه يشكل خطرا حقيقيا على سلامة سائر الدول الأوربية . ثم ان المكاسب التى أحرزتها فرنسا بعد الصلح قد زادت ساسة أوربا التقليديين قلقا على قلق . وعلى ذلك يجدر بنا أن ننتقل الى تبيان هذه التطورات الجديدة التى اتخذت ذريعة ، وكانت الى حد بعيد سببا حقيقيا ، فى نشوب القتال من جديد .

لقد شاهدنا كيف زحفت الحكومة الفرنسية على جاراتها ابان صلح لونيفيل . ويمكننا الآن أن نشاهد نفس الشيء يتكرر بعد صلح اميان . فلقد أقامت فرنسا ست جمهوريات شقيقة فى أوربا ، وتضمنت معاهدة لونيفيل اعترافا صريحا باستقلال هذه الجمهوريات ولكن فرنسا راحت تعاملها بطريقة تنطوى على أن هذه الجمهوريات انما هى فى الواقع طوع بنانها . فقد رابطت حاميات فرنسية فيها جميعا . وضمت جمهورية شمال ايطاليا (Cisalpine) ، التى كان لنابليون الرأى الأخير فى سياستها الخارجية بالفعل ، الى فرنسا ضما كاملا فى كل شيء عدا الاسم . فقد حضر الى ليون أربعمائة وخمسون ممثلا لهذه الجمهورية وراحوا يتناقشون هناك فى شكل دستورهم ، واتفقوا أخيرا على اعلان دستور مشابه تماما لدستور فرنسا وتعديل اسم الجمهورية من « جمهورية شمال ايطاليا » الى « الجمهورية الايطالية » واختيار نابليون رئيسا لها (حدث ذلك قبل اتخاذه لقب الامبراطور) « لا بوصفه قنصلا أول لفرنسا وانما كفرد » . ولم تغير هذه التفرقة من الامر شيئا فقد أصبحت الجمهورية الايطالية مرتبطة أوثق الارتباط بمقدرات فرنسا . وضمت بيدمونت الى فرنسا كما شاهدنا بصورة قاطعة فى عام ١٨٠٢ ، ولم يدفع أى تعويض لسردينيا . زد على ذلك أن فرنسا لم تكف عن التدخل فى شئون سويسرة . فقد امتنعت عن سحب قواتها الرابضة هناك مما أتاح لها أن تكون صاحبة الكلمة الاخيرة فى النزاع السياسى الداخلى الذى ظهر فى سويسرة وقتذاك . فقد احتدم الخلاف بين حزب ديموقراطى وآخر أوليجركى ، وراح حزب يطالب بتشكيل حكومة مركزية بينما تبنى حزب آخر الدعوة لقيام شكل من الاتحاد بين مختلف أنحاء البلاد . فأعلن نابليون وجوب انقاذ سويسرة من نفسها ، وفرض عليها دستورا اتحاديا يضم تسع عشرة مقاطعة . وقد أعلن استقلال سويسرة مرة أخرى فى هذا

الدستور ولكنها ألزمت بتقديم أبنائها للخدمة فى الجيش الفرنسى مما جعل استقلالها شكليا وهميا لا أكثر .

وكانت هذه الأمور تثير اهتمام بريطانيا ودول أوربا على حد سواء ، ولكن ثمة حوادث معينة كانت تمس بريطانيا مسا مباشرا بل وتزعجها ازعاجا لما تحمله من دلالة على أن فرنسا وحاكم فرنسا لم يسقطا من حسابهما بعد فكرة تحدى سلطان بريطانيا على المستعمرات والبحار .

فقد وقعت أحداث غريبة فى سان دومينجو : ذلك أن معظم سكان تلك الجزيرة التى نعرفها باسم هايتى كانوا ينحدرون من أصل زنجى ، وكانت الثورة الفرنسية قد أعلنت الغاء العبودية فى كافة أرجاء الممتلكات الفرنسية ، بيد أن ذلك لم يسفر عن توفير السلام فى سان دومينجو ، بل جاءت النتيجة على عكس ذلك تماما ، فقد شن العبيد حربا شعواء على الفرنسيين وبرز فى تلك الحرب اسم « توسان الفاتح» Toussin L'Ouverture الذى يعدأعظمقائدحربىمن سلالةزنجية، فقد تزعم السود المتمردين واحتل الجزيرة بأكملها تقريبا ، وأخذ يتصرف فيها كما لو كانت ملكا لشخصه . وقد رفض عروض المعونة الانجليزية ، وباءت محاولات الانجليز لاحتلال الجزيرة بالفشل . وشرع توسان المنتصر يحاكى أوضاع ومراسم القيادات العسكرية الأوربية . وفى عام ١٨٠١ اتخذ لنفسه لقب القنصل مدى الحياة ، ومنح الجزيرة دستورا على نمط الدستور الذى أقر فى فرنسا . وبالطبع لم تقم لهذا الدستور قائمة الا على الورق . وهكذا نجد أنه عندما تمكنت فرنسا بعد صلح آميان من ارسال السفن عبرالاطلنطى من جديد كانت الجزيرة قد استقلت من الوجهة العملية عنها تماما ، وباتت واقعة تحت احتلال ذلك الزعيم الزنجى الفذ . ولم يكن ثمة مناص من أن يحاول الفرنسيون استردادها . ولا يبدو أنه كان هنالك

أى سند وجيه لاستياء الحكومة الانجليزية من الطريقة التى تم بهـا ذلك الاسترداد . فقد أرسل الجنرال ليكليرك الذى كان زوجا لبولين بونابرت على رأس جيش من عشرين ألف رجل . ولم يكن بوسـع توسان أن يقاوم مثل هذا العدد الهائل مقاومة فعالة ، لقـد أظهـر حقا همة عظيمة وبعض البراعة التكتيكية ، ولكنه استسلم فى النهاية فنقل الى فرنسا ليسجن هناك . وقد هاجم المرض الجيش الفـرنسى الذى تخلف بالجزيرة ونقص عدده نقصا بالغا ، فاستقلت سان دومينجو فى النهاية عن الحكومة الفرنسية من جديد . ومهما يكن من أمر فان بريطانيا قد لاحظت بعين الانزعاج أن فرنسا قادرة على ارسال حملة ضخمة عبر البحار ، واعتقدت أن ارسـال قوات الجنرال ليكليرك الضخمة هذه انما يعنى أن فرنسا مستعدة للدخول من جديد فى صراع مع بريطانيا حول السيطرة على جزر الهند الغربية التى كانت وقتذاك من الممتلكات الاستعمارية التى تعتز بها امبراطورية بريطانيا أيمـا اعتزاز .

كما وردت أنباء من الهند كذلك تدعو الى القلق . فقد أرسـل الجنرال الفرنسى « دى كايين » De Caen الى الهند لزيارة الممتلكات الفرنسية الباقية هناك واحياء النفوذ الفرنسى والابلاغ عن المـوقف بصفة عامة ، وبدا من التعليمات التى أعطيت له أن اقرار السـلم مع انجلترا بصفة دائمة ليس من الامور التى تدور حقا بخلد نابليون . كما أرسل مندوب فرنسى آخر هو « سيبستيانى» الى الشرق الأدنى وسورية تقريرا أيضا عن امكانيات فرنسا هناك ، ونتيجة لسهو غريب — ان كان الأمر سهوا — نشر تقريره فى الصحيفة الرسمية «مونيتير» ، وقد وردت فيه عبارة تفيد أن جيشـا من ستة آلاف فرنسى يكفى لغزو مصر . فبدا من ذلك أن فكرة استئناف مشروعات فرنسا فى مصر قد خطرت — على الأقل — بذهن القنصل الأول . وعلاوة على هـذه

المسائل التى تمس مصالح بريطانيا عبر البحار ، كانت هناك أمـور أخرى ساعدت على ايجاد الشعور بالقلق والسخط . فقـد ثبت أن الآمال التى علقتها بريطانيا على السلم عندما ظنت أنه سيفتح أبواب التجارة فى فرنسا ، فى غير محلها . بل حدث عكس ذلك تماما . فقـد سدت أبواب الممتلكات الفرنسية سدا يكاد أن يكون تاما فى وجـه التجارة البريطانية ، فبلغ استياء الطبقات التجارية فى لندن حدا عظيما . وكان نابليون من جانبه يشكو مر الشكوى من الهجوم على شخصه فى الصحف الصادرة بانجلترا . فقد كان بعض المهاجرين الفرنسيين يستخدمون تلك الصحف لشن حملات من الهجوم العنيف المتواصل على القنصل الأول . وقد طالب نابليون باسكات هذه الصحف . ولم يكن ليقنع بالاعتذار بأن الصحافة حرة فى انجلترا . وكان يشكو فى الوقت نفسه من أن الانجليز يؤوون فوق أراضيهم أمراء البوربون الذين مابرحوا يطالبون بعرش فرنسا . وقد راح يحث الانجليز على طردهم ولكن دون طائل .

كان هنالك اذن ازدياد تدريجى فى التوتر بين الدولتين ابان فترة الصلح . وقد تركز هذا التوتر فى النهاية حول مسألة مالطة . فلقـد وقعت هذه الجزيرة الهامة من حيث مناعتها الطبيعية وموقعها الجغرافى ، فى أيدى نابليون أولا ثم انتزعها منه الانجليز . وقد تعهدت بريطانيا عند عقد صلح اميان باعادة الجزيرة الى فرسان القديس يوحنا بشروط معينة . على أن هذه الشروط لم تستوف فوجدت بريطانيا فى ذلك عذرا معقولا لرفض الجلاء عن الجزيرة على أنه يجدر بنا أن نلاحظ أنه لم تبذل أية جهود لاستيفاء هذه الشروط ، وانه كانت هناك دلائل قوية على أن بريطانيا كانت مصممة على التمسك بحيازتها للجزيرة

مهما كانت الأعذار والمسببات (١) فقد استؤنفت العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا اثر توقيع الصلح ، وارسل اللورد هويتورث الى باريس ليمثل بريطانيا هناك . والتعليمات التى أعطيت له عند سفره تظهر بوضوح أن الحكومة البريطانية كانت قد وطدت العزم على الاحتفاظ بسيطرتها على مالطه . وتلت ذلك مجادلات شيقة للغاية ، ومسرحية الطابع فى كثير من الاحيان ، بين القنصل الاول واللورد هويتورث ، نجدها مدونة فى رسائل الاخير . وكان هذا نموذجا صادقا للانجليزى فى ذلك العصر ، يشعر بالاحتقار نحو فرنسا وحاكمها وتفوته رؤية الكثير من النقاط القوية فى وجهة النظر الفرنسية ، وهو فى الوقت نفسه دبلوماسى صلب عقد العزم على بذل قصارى جهده من أجل البلد الذى أرسله الى باريس . وقد راح نابليون يطالب بتنفيذ معاهدة اميان ويقول « معاهدة اميان ولاشىء غير معاهدة اميان » . بينما جعل اللورد هويتورث يستند من جانبه الى أن تنفيذ المعاهدة مرتبط بحالة أوربا وقت توقيع تلك المعاهدة ، وأن المطالبة بذلك التنفيذ لم تعد جائزة بعد الخطوات الكبرى التى خطتها الحكومة الفرنسية منذ توقيع المعاهدة . ولقد بذلت محاولات ، ربما كانت صادقة المقصد ، من الطرفين لايجاد حل وسط . واشترك أخو نابليون « جوزيف » بدور رئيسى فى هذه المباحثات . بيد أنها لم تسفر عن أية نتيجة

(١) كتب اللور هوكزبرى فى خطاب سرى ضمنه تعليماته الى اللورد هويتورث يقول « اذا دخلت الحكومة الفرنسية فى اى حديث معك حول موضوع جزيرة مالطة فمن الاهمية بمكان أن تتفادى الالتزام بشىء بالنسبة الى نوايا جلالة الملك النهائية حيال تلك الجزيرة .... وانى اوصيك على كل حال بأن تتفادى قول اى شىء يقيد جلالته باعادة الجزيرة حتى لو أمكن اتمام تلك التدابير وفقا للبند العاشر من معاهدة أميان نصا وروحا (١٤ نوفمبر ١٨٠٢) . انظر «انجلترا ونابليون عام ١٨٠٣» الذى يضم رسائل هويتورث — طبعة أوبراوتنج (لندن ١٨٨٧) صفحتى ١٠-٩
"England and Napoleon in 1803," being the Despatches of Lord Whitwite (Ed.) O. Browning (London 1887), pp. 9—10

طيبة . وفى مارس ١٨٠٣ قطعت العلاقات — بين بريطانيا وفرنسا اثر مشهد عنيف للغاية بقصر التويلرى . وألقى نابليون القبض على أولئك الانجليز الذين كانوا قد اغتنموا فرصة الصلح وراحو يستأنفون ، فى اعداد كبيرة ، عادة السياحة فى القارة . وقد ظل الكثيرون من هؤلاء التعساء وراء قضبان السجون مدة عشر سنوات .

اندلعت نيران الحرب ولكن مداها لم يتضح بعد ، فقد كان من الجائز أن تظل مقصورة على الدولتين العظيمتين اللتين كان خلافهما سببا فى اندلاعها . وظهر التنافس على أشده بين الجانبين من أجل الحصول على حلفاء . وفى النهاية ألفت القارة الأوربية نفسها وقد انغمست بأسرها تقريبا فى الصراع .

وقد أعلن نابليون من جانبه على الفور أن التزامات صلح أميان لم يعد لها وجود . فأعاد احتلال نابولى ، وأرسل جيشا من ثلاثين ألف رجل الى هولندة ، ورأى كذلك أن بوسعه أن يحصل فى ألمانيا على رهينة قيمة ضد انجلترا وذلك بالاستيلاء على هانوفر التى كانت تحت التاج البريطانى وان لم تدمج بالطبع فى الدولة الانجليزية . فأرسل ٤٠٫٠٠٠ رجل لاكتساح هانوفر ، وأعلن أنه سيظل محتفظا بها طالما احتفظت انجلترا بمالطة ، وفاتح روسيا وبروسيا فى أمر التحالف معه . الا أن قيصر روسيا المجنون بولس الذى عرف باعجابه المفرط بفرنسا ، كان قد اغتيل وخلفه القيصر اسكندر وهو رجل مختلف الطباع والأهداف ، فقوبلت عروض فرنسا بالرفض القاطع . وقد كانت هناك صداقة تقليدية بين فرنسا وبروسيا سعى الطرفان الى المحافظة عليها منذ صلح بازل ، ولكنها كانت أضعف من أن تدفع بروسيا الى دخول الحرب فى صف فرنسا . فلم يصادف نابليون نجاحا حقيقيا الا مع أسبانيا . كانت الحكومة القائمة فى أسبانيا من أكثر حكومات أوربا فسادا وقصورا . وكانت الشخصيات

الرئيسية فيها هي الملك شـارل الرابع ، ومليكته لويزه ، والوزير جودوى عاشق الملكة الذى كان فاسدا بلا جدال فى ادارته لشـئون المملكة . وقد أسفرت المفاوضات بين نابليون والحكومة الأسـبانية عن توقيع معاهدة مدريد فى مارس ١٨٠١ . وبموجب هذه المعاهدة سلمت أسبانيا لفرنسا لويزيانا فى أمريكا ، وتعهدت بشن الحرب على البرتغال حليفة بريطانيا منذ القدم . فى حين تعهد نابليون من جانبه باقامة مملكة « أتروريا » فى ايطاليا ومنحها لدوق بارم زوج ابنـة شارل الرابع . وقد غزت أسبانيا البرتغال تنفيذا لأحكام تلك المعاهدة ولكنها لم تحتلها الاحتلال الكامل الذى كان يرغبه نابليون . وبعد انهيار صلح اميان حرضت أسبانيا ، بل فى الواقع أكرهت ، على دفع مبلغ ٤ ملايين فرنك شهريا للخزانة الفرنسـية . وكان نابليون يعلم الكثير من خفايا جودوى فكان بوسعه أن يهدد بافشاء الكثير من الأسرار المتصلة بسلوكه وأخلاقه ان هو رفض الاستجابة لمطالبـه . وهكذا شدت أسبانيا ، بلا حول أو اختيار ، الى عجلة فرنسا .

وسرعان ماظهر الى الوجود من الجانب الآخر ائتلاف عظيم . فقد خرج « بت » من عزلته التى أعقبت خلافه مع الملك جورج الثـالث حول الوحدة الايرلندية ، فعاد الى الحكم فى عام ١٨٠٤ متلهفا الى تسديد ضربة قوية لفرنسا ونابليون . وكانت خبرته بدبلوماسـية أوربا لا تضارع ، وكذلك كانت صـلابته فى صراعه ضد عـدوه العظيم . وسرعان ما أقام ائتلافا قويا جديدا ضد فرنسا . فقد كسب الى صفه أولا السويد التى لم تكن قد شاركت حتى الآن بأى دور ايجابى فى الحرب الأوربية ضد فرنسا . وكان يجلس على عرشها فى ذلك الحين جوستاف الرابع الذى بدأ حكمه عام ١٧٩٢ . وكان فى عقيدته لوثريا متزمتا ، شديد الكره لمبادىء الثورة الفرنسية ونابليون ، فانضم دون ماتردد الى « الائتلاف الثالث » . وانضمت اليه روسيا

كذلك بحماسة . ذلك أن سياسة القيصر بولس الموالية لفرنسا لم تكن الا فاصلا عرضيا ، فقد كان ميل روسيا العام مناهضا للأفكار والطباع والأهداف الفرنسية . ولم يكن بوسع النمسا كذلك أن تبقى على الحياد . كان عاهلها « فرنسوا » قد بدأ يشعر بأن مركزه كامبراطور أصبح ضعيفا بل ومشكوكا فيه للغاية . وكان قد اتخذ لنفسه لقب « امبراطور النمسا » الوراثى علاوة على لقب امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة الذى أخذت قيمته تتلاشى سراعا . وكانت فرنسا قد وقفت حجر عثرة فى سبيل النمسا فى عدة مواقف ، وفرضت عليها صلحين مهينين حتى الآن . ثم ان انشاء الجمهورية — ثم المملكة — الايطالية كان أمرا تضيق به تقاليد السياسة النمساوية . وقد ساد الاعتقاد بأن مركز النمسا المالى قد تحسن وأن نواحى الضعف فى جيشها قد عولجت ، فدخلت الحرب من جديد وجلبت معها مملكة نابولى التى كانت دائما ظلا لها .

وثمة سؤال هام كان يتردد على الألسن : ماهو الموقف الذى ستتخذه بروسيا فى المستقبل ؟ كانت بروسيا قد تمسكت بحيادها فى اصرار منذ صلح بازل عام ١٧٩٥ . ولقد راحت تتابع الآن زحف قوة فرنسا بانزعاج حقيقى ، ولكنها كانت شديدة الغيرة من النمسا فرفضت دعوة الحلفاء للانضمام لهم . كما رفضت كذلك التحالف مع نابليون ، رغم أنه عرض عليها مملكة هانوفر ثمنا لذلك التحالف .

أصبحت فرنسا وأسبانيا تواجهان اذن حلفا أو ائتلافا عظيما . وكانت الأهداف المعلنة للائتلاف هى اعادة فرنسا الى حدودها القديمة ، ودعوة مؤتمر لتسوية المسائل الدولية المختلفة التى نشأت أثناء الحرب ، واقامة نظام فيدرالى للمحافظة على السلام فى أوربا . وهذا الهدف الأخير يسترعى الانتباه بصفة خاصة ، فهو يبين لنا أن فكرة ايجاد أساس مستقر ما للمحافظة على النظام فى أوربا قد

خطـرت فى الأذهان حتى فى تلك الفترة المبـكرة أثناء الصراع مع نابليون . ولسوف نشاهد كيف أن تلك الفكرة هى التى نشأ عنهـا ما عرف بالحلف المقدس اثر سقوط نابليون .

كان العدو الذى يتعين على نابليون أن يواجهه يتألف أولا من قوة بريطانيا البحرية الهائلة ، وثانيا من قوة النمسا وروسيا العسـكرية الضخمة ظاهريا . فكيف له أن يهاجم ذلك العدو ؟ لقد هزم أعداءه برا من قبل ، ووجد أن ذلك لم يؤد الى استسلام بريطانيا التى ظلت منيعة عزيزة المنال وراء بحارها . ولكنه كان يرى — عن حق — انه لو قدر لبريطانيا أن تهزم ، فسوف يكون لتلك الهزيمة أثر كبير ، وربما حاسم ، على مركز حلفائها العسـكريين . لذلك كانت فكرته الأولى هى انهاء الحرب بتسديد ضربة مباشرة لبريطانيا وذلك بغزو جزائرها وقهرها فى عقر دارها . وكان نابليون قليل المعرفة بمسـائل البحرية ، ولعله كان يشعر لهذا السبب بشىء من الغيرة من البحرية الفرنسية وقوادها . ومع ذلك فقد كرس فى تلك اللحظة العصـيبة عبقريته وقدرته الخارقة على متابعة التفاصيل ، لتنظيم عملية النزول الى سواحل انجلترا . فحشد فى بولونيا أسطولا كبيرا من القوارب المسطحة القاع . وأمر باستمرار التدريب بلا انقطاع على منـاورة الاقلاع بحيث يتم ركوب القوات ونقلها عبر المانش ، متى سـنحت الظروف ، فى أقصر وقت ممكن . وكان يأمل بادىء الأمر فى أن يتم هذا العبور فى ظروف جوية ملائمة ودون الاشتباك فى معركة سابقة مع البحرية البريطانية ، ولكنه كلما أمعن فى دراسة المشكلة اتضح له أن النجـاح لا يمـكن أن يكون من نصيب تلك الخطـة ، وأنه لابد من السـيطرة على المـانش بقوة بحـرية فرنسـية قبـل ابحـار أسـطول الناقـلات ان أريد له النجـاح فى مهمتـه . وكانت هناك ثلاثة أساطيل فرنسية صغيرة أولها فى طولون والثانى

فى روتشفورت والثالث فى بريست . فرسم نابليون خطة لابعاد الأسطول الانجليزى عن حراسة المانش وذلك بشن هجوم على جزائر الهند الغربية . وكان هدفه من ذلك الهجوم مزدوجا : فان سقطت الممتلكات البريطانية فى جزائر الهند الغربية حقا بين يديه كان ذلك كسبا عظيم الشأن والقيمة ، وان غادر الأسطول البريطانى المانش لحماية جزائر الهند الغربية أتيحت له الفترة المأمونة التى يحتاجها لعبور المانش .

ان الحوادث التى تلت ذلك وبلغت ذروتها فى معركة الطرف الأغر انما تؤلف أشهر فصل فى تاريخ بريطانيا البحرى . ونحن نجد أسباب النصر الذى أحرزته بريطانيا فأكد سيادتها البحرية طوال الفترة الباقية من الحرب ، فى عبقرية نلسون وفى تنظيم الأسطول البريطانى المتسم بالكفاية ، ذلك التنظيم الذى يستند الى ماض طويل والذى أدخلت عليه بفضل تأثير « رودنى » تحسينات ملموسة بعد فشله فى الحرب ضد الولايات المتحدة ، كما نجدها أيضا فى افتقار البحرية الفرنسية الى تلك العبقرية وذلك التنظيم . ولقد اختلفت الآراء فى مدى تأثير تلك المعركة على مجرى الحرب التى شنتها أوربا على نابليون . ان كل مافعلته هو أنها أكدت من جديد سيادة بريطانيا البحرية الواضحة من قبل ، فهى لم تضف الى هذه السيادة أى اضافة مادية . ولقد كان نابليون عالما من قبل بأن الأسطول البريطانى هو عدوه الاكبر فازداد الآن يقينا من ذلك . والأغلب أن نتيجة الحرب لم تكن لتتغير كثيرا لو أن هذه المعركة لم تنشب قط . ولربما عن لنا أن نتساءل عما كان سيحدث لو أن نابليون كان الفائز فى معركة الطرف الأغر . لقد روى عنه أنه قال « لو أمكننى فقط أن أسود البحر لمدة ست ساعات لاختفت انجلترا من الوجود » . ولا جدال فى أنه كان مخطئا فى ظنه ان كان قد آمن حقا بهذا الرأى ،

فالأمة والحكومة فى بريطانيا كانتا شيئا واحدا على نحو لا مثيل له فى أى بلد آخر من البلاد المعادية لنابليون ، ولا ريب فى أنه كان سيواجه مقاومة قومية عنيدة فى ظروف ملائمة للدفاع . فلئن كان من المؤكد أن الجيش الأعظم — جيش نابليون — كان سيحقق انتصارات كبيرة لو أنه تمكن من النزول على شواطىء انجلترا ، فان من المؤكد أيضا أن نابليون كان سيجد نفسه قد تورط فى صراع — من النوع الذى سينهك قواه فيما بعد فى أسبانيا — قد يورده ، مثلما فعل زحفه على موسكو ، موارد التهلكة .

كان نابليون قد تخلى قبل نشوب معركة الطرف الأغر عن خطة غزو انجلترا ، واتجه بكامل قوته صوب ألمانيا . وسرعان ما قللت الانتصارات الخارقة التى كانت فى انتظاره هناك من أهمية معركة الطرف الأغر فى نظر معاصريه . كانت النمسا وروسيا تقفان ضده فى حزم واصرار ، بينما راحت بروسيا ترقب مجريات الأحداث وهى نهب للأمل تارة والخوف تارة أخرى . فاذا لم يكن لها بد من محاربة فرنسا فى يوم من الأيام فليس هناك وقت أنسب من الوقت الحاضر حيث يمكنها ضمان تحالف قيصر روسيا والامبراطور معا . ولو أن قواتها قد انضمت فعلا الى قوات القيصر والامبراطور لما جرؤ نابليون على القيام بزحفه الجسور الى قلب ألمانيا . ولكن نابليون كان على استعداد ، من الناحية الأخرى ، لأن يدفع ثمنا كبيرا لحياد بروسيا . فيمكنها على هذا أن تكسب كثيرا بالديبلوماسية البارعة . فيمكن مثلا سلب هانوفر من ملك انجلترا وضمها اليها فتزيد من أراضيها زيادة قيمة جدا . ويمكن أن تتاح لها كذلك فرصة تزعم ألمانيا الشمالية ، بل وربما أمكنها أيضا أن تتخذ لملكها اللقب الامبراطورى بموافقة نابليون نفسه . كان ملك بروسيا وحكومتها عاجزين عن التفكير الواضح والعمل المباشر . كان الملك — فيما

قيل — يأمل فى خداع العالم كله والبقاء رغم ذلك رجلا أمينا ، وعلى هذا لم تحرك بروسيا ساكنا فى وقت كان السكون فيه مهلكا . غير أن نابليون وفق رغم فشله فى كسب بروسيا الى جانبه ، فى التحالف مع ورتمبرج وبافاريا . كان فردريك الثانى ناخب ورتمبرج « سفاحا ميالا الى الشك » غريبا فى عواطفه عن الشعب الذى كان يحكمه . وكان قد خدم فى الجيشين الروسى والبروسى فكان يؤثر نوع الحكم الذى شاهده فى هذين البلدين على النوع الذى كان سائدا فى جنوب ألمانيا وهو نوع من الحكم ضعيف توازن فيه السلطات بعضها بعضا . ولم يكن بوسعه على أى حال أن يقاوم نابليون ان أراد ، ثم أن التحالف معه قد يمكنه من الحصول على المزيد من الاراضى ومن تعديل الدستور على النحو الذى ينشده . وعلى هذا فقد آثر التحالف معه واستقبله عند وصوله بكافة مظاهر الحفاوة والتكريم . وكانت بافاريا قد أغريت من قبل — أو أكرهت — على التحالف مع نابليون كذلك . وكان ناخبها مكسمليان جوزيف يكن اعجابا صادقا للآراء الفرنسية وحاكم فرنسا العظيم ، وقد أعاد الى حد ما تنظيم ولايته وفقا للنموذج الفرنسى . ولم يكن بوسعه هو الآخر أن يقاوم فرنسا بعد أن أبى نابليون الاصغاء الى رجائه بالسماح له بأن يبقى محايدا . وقد استميل ناخب بادن الى نفس الجانب . وهكذا بدأ نابليون حربه فى ألمانيا متمتعا بتأييد ألمانى محسوس .

ان الانتصارات التى أحرزها نابليون فى عامى ١٨٠٥ و ١٨٠٦ هى أكثر انتصاراته اثارة للذهول . فقد تغلب على ثلاث دول عسكرية عظمى — النمسا وروسيا وبروسيا — الواحدة تلو الأخرى . فبدا أن « شارلمانا » جديدا بل يوليوس قيصر جديدا قد ظهر ، وظن البعض أن المستقبل يخبىء لأوربا نظاما جديدا طويل الأجل . ولم يدر بخلد أحد يومئذ — اذا استثنينا عددا قليلا

من المفكرين ودعاة الوطنية ـ أن العاصفة ستمر بنفس السرعة التى أقبلت بها وأن السمات القديمة للحياة الأوربية لن تلبث أن تعود الى الظهور خيرا كان ذلك أو شرا . ولكننا الآن وبعد مضى مايزيد على قرن كامل على تلك الأحداث نستطيع أن نرى أن ماحدث لم يكن ينطوى على أية معجزة خارقة ، كل ما هنالك أن قائدا عسكريا عبقريا قد هاجم بجيش كان أفضل جيوش العالم تجهيزا ، قوات كانت لا تزال تسير وفق روتين قديم ، وأن حكومة تولدت عن ثورة شعبية وكانت لاتزال مرتبطة الى حد كبير جدا بمصالح الشعب وأمانيه ، قد دخلت فى صراع مع حكومات من النوع القديم ـ حكومات كانت أشبه بالآلات منها بالأجسام الحية ، لاتربطها بالشعب صلة حيوية ولا تستثير فى نفوس رعاياها أية حماسة كبيرة أو رغبة متقدة فى التضحية بالذات .

وهكذا زحفت جيوش نابليون من نصر الى نصر . فقد كان القائد النمساوى « ماك » مرابطا فى « آلم » على رأس قوة نمساوية كبيرة ، وقد راح يتكلم فى ثقة عن الانتصارات التى سوف يحرزها ، ولكن ضخامة الجيوش التى أخذت تزحف بسرعة لا نظير لها من بولونيا الى الدانوب لم تلبث أن أثارت انزعاجه فحاول الانسحاب ، بيد أن الأوان كان قد فات ، واذ ألفى نفسه محاصرا استسلم بقواته البالغ عددها نحو ٣٣٠٠٠ رجل . وتلا ذلك ما هو أجل وأدهى ، فقد سقطت فيينا دون صراع . ثم التقت قوات القيصر اسكندر والامبراطور فرنسوا بالقرب من « أوسترليتز » شمال فيينا . وهناك التحمت بالعدو وفى ٢ ديسمبر ١٨٠٥ فى معركة أوسترليتز أو « معركة الأباطرة الثلاثة » كما تسمى أحيانا . فتحطمت جيوش النمسا وروسيا على نحو لايرجى لها صلاح بعده . فقد تفرقت الجيوش النمساوية بحيث لم يعد من المستطاع أن يعاد تشكيلها ،

أما الجيش الروسى فقد انسحب الى الشمال الشرقى ولم يتمكن من الافلات قبل الاشتباك فى قتال آخر عنيف . اذن فقد أدى نابليون الجندى واجبه فى الوقت الحاضر ، وان بقيت أمام نابليون الديبلوماسى مهام كثيرة .

لقد غدت ألمانيا بين يديه رغم ورود أنباء بعض التحركات الغريبة المنذرة بالسوء من برلين ، وهى أنباء سنتناولها بالبحث بعد هنيهة . فماذا عساه يفعل بألمانيا وأوربا الوسطى ؟ لقد ألمح من قبل الى التغيرات الكبرى التى يزمع احداثها اذ قال فى بيان له عند عبوره الراين « اننا لن نتوقف حتى نحقق للامبراطورية الألمانية استقلالها » ، كما قال لناخب ورتمبرج « ان البيت النمساوى لايخفى نواياه فى السيطرة على الكيان الألمانى والقضاء على جميع بيوته الحاكمة » . ان نابليون يحاول اذن أن يضفى على عملياته فى ألمانيا مظهر حرب التحرير ، وأن يبدو حاميا لألمانيا ضد النمسا . بل لقد أمل البعض فى أن يبث فى أجهزة الامبراطورية الرومانية المقدسة العتيقة حيوية جديدة .

ولكن نابليون كان لايزال ثوريا فى أعماقه . وقد وصف الـ « دييت » (١) بأنه « بيت قرود حقير » ، ولم يكن يكن أدنى احترام لأجهزة الامبراطورية الرومانية المقدسة الصدئة . وقد بدت ألمانيا تحت رحمته تماما ، فأزمع أن يعيد بناءها دون أن يضع اعتبارا كبيرا لتاريخها الماضى أو أمانيها . كانت الخطة ترسم لذلك تلو الخطة ثم تنبذ . وكان الاعتبار الأول فى هذه الخطط جميعا هو خدمة مصالح فرنسا وامبراطورها ، ولكن ثمة عوامل أخرى كانت تتدخل فى رسم التفاصيل مثل دسائس الأمراء الألمان المتنابذين ، وآراء تاليران الخاصة والرشوة الصريحة التى يقدمها أمراء أو مدن بعينها .

---

(١) « الدييت » هو المجلس الذى يضم مستشارى الامبراطورية الرومانية المقدسة (المترجم)

لقد تقرر مصير ألمانيا فى معـاهدتين رئيسيتين : أولاهما معـاهدة برسبورج (٢٦ ديسـمبر ١٨٠٥) وكان الهدف الأسـاسى منها هو تنظيم العلاقات بين فرنسا والنمسا ، وابعاد بيت الهابسـبورج من ألمانيا وايطاليا حيث ظل يمارس سـلطانا عظيما مدى قرون طويلة . وكانت هذه المعاهدة من الوجهة العملية بمثابة اعلان بأنالامبراطورية الرومانية المقدسـة لم يعد لها وجود وان بقيت اسـما . فقد سلبت مساحات شاسعة من الأراضى من البيت النمساوىالذى فقد مايقرب من ثلاثة ملايين نسمة وتخلى عن أراضيه المكتسبة حديثا فىالبندقية ، وقد آلت هذه الى مملكة ايطاليا ، بخـلاف أراض أخرى كثيرة فى ايطاليا وألمانيا . والمادة السـابعة من المعاهدة تعلن أن ناخبى بافاريا وورتمبرج قد أصبحا حائزين على لقب الملك ، وأن امبراطور ألمانيا والنمسـا سوف يعترف لهمـا بذلك . وقد كان اتخـاذ عضـو فى الامبراطورية للقب جديد دون اذن من الامبراطور أو « الدييت » أمرا مخالفا تماما لتقاليد الامبراطورية ودستورها . كمـا نصت مادة تالية على أن ورتمبرج وبافاريا وبادن — وكل منها قد حصلت على أراض كبيرة على حساب النمسا — قد أصبحت من الآن فصـاعدا أقاليم ذات سيادة . وهو نص غير واضح المعنى ، ولكنه ينطوى على أية حال على انكار تام لخضـوعها للامبراطورية القديمة . وقد فسر حكام تلك الولايات هذه المادة بأنها تعنى أن بوسعهم الاستغناء من الآن فصاعدا عن دساتير ولاياتهم التقليدية ، فعصـفوا بمجالسها أو برلماناتها وأقاموا حكما مركزيا مطلقا صريحـا . فكانت تلك نتيجـة غريبة لانتصار رجل كان لايزال يعتبر نفسه هو « الثورة » .

ثم جاءت فى ١٢ يوليو عام ١٨٠٦ المعـاهدة التى أقامت اتحـاد الراين . وقد اتخذ نابليون قرار قيام هذا الاتحاد بنفسه ودعا حكام ألمانيا لاعلان انضمامهم أو رفضهم فى غضون أربع وعشرين ساعة .

ولم يرفض التوقيع من ذوى الشأن الا واحد كان من أقلهم أهمية .

كان الهدف العام من الاتحاد هو تقسيم الاراضى الالمانية الى ثلاثة أقسام بحيث تواصل بروسيا حكمها فى الشمال ، وتظل النمسا تدرج فى عداد رعاياها المتنوعين ، عدة ملايين من الألمان فى الجنوب والشرق ، أما فى الغرب فتنشأ تحت حماية فرنسا دولة ألمانية جديدة مستقلة عن الطرفين ، وبذلك يتم تشكيل ماسمى ب « الثالوث الألمانى » . وقد أظهر التاريخ أن التقسيمات التى خلقها نابليون لم يكن مقدرا لهـا الدوام ، فلم تلبث الدول الألمانية أن تهب قبـل مضى عشر سنوات لمقاومة حكم نابليون باسم ألمانيا الموحدة التى تضم جميع الأراضى والشعوب الألمانية . ولسوف يجسم بسمارك بعد ذلك بنصف قرن تلك الامانى التى أعتز بها الألمان طويلا ، بل ان حرب ١٩١٤ـ١٩١٨ نفسها والثورة التى تلتها لم تقض على مشاعر الوحدة الالمانية وانمـا أدت بالأحرى الى قيام مركزية أشد تمثلت فى حكم هتلر . ولكن عصر القوميـة لم يـكن قد بزغ بعد فى ١٨٠٦ ، وكان فى تاريخ ألمانيـا وتقسيماتها العنصرية الكثير مما يبرر خطة نابليون .

لقد رؤى أن يقوم التنظيم الجديد على أساس انشاء اتحاد من بعض الدول Confederation لا قيـام دولة اتحـادية . فظلت الولايات الست عشرة التى أعلنت انفصالها عن الامبراطورية الألمانية حتى يتسنى لها الاشتراك فى التنظيم الجديد ، مستقلة ذات سيادة . وتقرر عقد « دييت » فى فرنكفورت تبحث فيه المصالح المشـتركة للاتحاد ، ولكن الدييت لم يجتمع أبدا ، وظل دستور الاتحاد حبرا على ورق . كما تقرر منع الاعضاء من تقديم رعاياهم للخدمة العسكرية فى أى جيش سوى جيش الاتحاد أو جيوش حلفائه . وكانت للمـادة ١٢ أهمية فائقة ، فقد أعلن فيها امبراطور الفرنسيين « حاميا للاتحاد » وأعطته مادة تالية حق تحديد عـدد الفـرق التى يلتزم كل عضـو

بتقديمها فى حالة الحرب . وأعلنت المادة ٣٥ رسميا قيام التحالف الحتمى بين الطرفين فى حالة نشوب أى حرب يشتبك فيها أحدهما . ولاشك فى أن هذا الجزء من التدابير الجديدة سينفذ بكل صرامة . على أن الأمل فى نجاح نظام الثالوث الالمانى لن يلبث أن يتبدد تماما عندما يظهر جليا للعيان أن أبراج الامبراطورية الرومانية المقدسة الشامخة وقصورها الفاخرة لم تتداع الا لترتفع محلها قلعة حديثة عصرية على قدر عظيم من الكفاية . ولكن السيف كان قد حكم يومذاك ولا مرد لحكمه . وفى أول أغسطس أخطر نابليون دييت راتيزبون بأنه قد قبل منصب حامى اتحاد الراين « من أجل السلام » وأنه لم يعد يعترف بوجود الدستور الألمانى . فلم يقابل هذا التصريح بأية دهشة فى أوربا . وقبل مضى أسبوع على ذلك التاريخ وفى ٦ أغسطس على وجه التحديد ، أعلن فرنسوا تخليه عن لقبه الامبراطورى القديم فانتهت بذلك الامبراطورية الرومانية المقدسة نهاية يصدق فيها ماوصفت به من أنها « نهاية كل مهمل » .

لقد قبلت ألمانيا الغربية السيطرة الفرنسية ، ولم يكن بوسع النمسا أن تبدى أية مقاومة وقتذاك . بقيت بروسيا ، التى أذلت فرنسا فى عهد فردريك الأكبر ، بروسيا التى أصبح يعتبرها الكثيرون — بما فيهم جوته نفسه — البلد الذى يمثل القومية الألمانية بصفة خاصة بالرغم من وجود عناصر أجنبية بين سكانه . فما قول بروسيا ياترى فى هذا التنظيم الجديد لألمانيا ؟

لقد كانت بروسيا نهبا للانقسام الى درجة تمنعها من الادلاء بصوت حاسم . فقد كانت أحزاب البلاط تتجاذب مليكها الضعيف ، فهناك من ناحية « الوطنيون » الذين يرون فى فرنسا العدو اللدود لألمانيا ، ويرغبون فى امتشاق الحسام لانقاذ بروسيا وألمانيا . والى هذا الحزب كانت تنتمى الملكة لويز « الملاك الحارس للقضية العادلة » وهاردنبرج

وزير الخارجية وبلوخر القائد العسكرى. ولكن الملك نفسه كان ـ ايثارا العافية ـ ميالا الى كسب صداقة فرنسا ، وقد آزره فى ذلك الكثيرون من وزرائه . وينبغى ألا يغرب عن البال أنه لم تكن قد نشأت بعد فى تلك الأيام بين برلين وباريس تلك الخصومة العنيدة التى نمت وتطورت فى القرن التاسع عشر ، بل قامت بينهما تقاليد من تعاون واعجاب متبادل . الا أن زحف نابليون على ألمانيا وانتهاكه حرمة الاراضى البروسية فى « انزباخ » و « بايروت » أثناء ذلك الزحف أتاحا الفوز للحزب المنادى بالحرب . وقد زار القيصر اسكندر برلين، واجتمع بالملك البروسى الشاب فردريك وليم الثالث فى جو من المهابة والوقار عند قبر فردريك الأكبر . واستقر رأى بروسيا على دخول الحرب ضد نابليون ، فأرسلت « هوجويتز » الى معسكر الفرنسيين حاملا معه انذارا أخيرا . ولكن معركة أوسترلتز نشبت قبل تقديم الانذار ، فراحت بروسيا تنشد ـ فى نوبة من الذعر المفاجىء يبررها الموقف ـ السلم لا الحرب ولو كان الثمن اذلالها . وقد فهم نابليون الموقف فى برلين على حقيقته ، ولكنه أبدى استعداده لتقديم تنازلات لبروسيا كانت فى حقيقتها أبلغ اذلال لها . فقد كانت هانوفر مفتاح الدبلوماسية البروسية ، وكان ملك بروسيا قد وعد انجلترا باحترام استقلالها ومراعاة صلتها بها . ولكن نابليون راح الآن يقدم الطعم : فقد عرض على بروسيا لا السلم فحسب وانما هانوفر كذلك ، فما كان من بروسيا الا أن ابتلعت الطعم . وقد ندد فوكس بسياسة بروسيا باعتبارها تجمع بين « كل مافى العبودية من حقارة وكل مافى الجشع من صفات كريهة » . فقد كانت ألمانيا آملة أن تكون قد وسعت بذلك حدودها .

الا أن بروسيا لم تتسلم ثمن عارها . فحصولها على هانوفر لم يكن مضمونا بحال ، فقد عرف أن نابليون تقدم بعرض مبدئى باعادتها الى

انجلترا . ثم ان ملك بروسيا كان قد تلقى اقتراحا من فرنسا بأن يشكل اتحادا لشمال ألمانيا وينصب نفسه حاكما عليه بلقب امبراطور ، ولكن نابليون لم يعد يبدى الآن ميلا الى السماح بتحقيق ذلك الحلم الرائع . وفى حين كانت مكاسب بروسيا موضع شك ، كانت خسائرها أليمة وأكيدة . فقد نصب قائد نابليون « مورا » دوقا على كليف ومنح عضوية اتحاد الراين ، فراح يطالب باسن وفردن والتن — التى كانت بلا جدال أراضى بروسية — زاعما أنها جزء من ممتلكاته . وفى تلك الاثناء أخذت دعوة الوطنيين الى شن الحرب ضد فرنسا تلقى صدى قويا فى الجيش والبلاد ، وراح قادة الجيش يعربون عن ثقتهم فى النصر . وأثارت حفيظة البلاد اساءة ليس لها فى ذاتها المحل الاول من الاهمية . فقد حدث أن وزع على نطاق واسع كتيب بعنوان « ألمانيا فى مذلتها الكبرى » شبه مؤلفه الآلام التى تعانى منها المناطق المحتلة من ألمانيا بأبشع الالام التى قاستها ألمانيا ابان حرب الثلاثين عاما . ولم تعرف شخصية المؤلف ولكن نابليون ألقى القبض على الناشر المدعو « بألم » واعدمه . وقد أنشأت بروسيا تتطلع حولها بحثا عن الحلفاء فتلقت وعودا بالعون من روسيا التى لم يكن قد قضى عليها قضاء مبرما فى أوسترلتز ، ومن جارتها سكسونيا . فما كان منها الا أن وجهت انذارا تطالب فيه بانسحاب القوات الفرنسية الى غرب الراين ، ولم يكن لذلك من معنى سوى الحرب .

ولقد جاءت النتيجة مفاجئة وحاسمة بدرجة مذهلة . ففى ١٤ أكتوبر ١٨٠٦ تحطمت ، على مرتفعات يينا وعند أورستادت التى تبعد عنها بضعة أميال الى الشمال ، هيبة الجيوش البروسية تحطيما كاملا . فما من جيش نمساوى واحد قد انهار أمام نابليون بتلك الصورة الكاملة التى انهار بها أولئك البروسيون الذين كانوا فى يوم من الأيام (قوة لا تقهر) ولم تلعب الصدفة أى دور فى تحديد نتيجة المعركة ، فقد

توالت الضربات دون أن تبدى بروسيا أية مقاومة فعالة . فدخل الفرنسيون برلين واستولوا على القلاع والمدن بسهولة مذهلة ، وأكرهوا بلوخر نفسه على الاستسلام فى النهاية بالقرب من لوبيك . وكان ملك بروسيا قد انضم الى الجيش الروسى فى الشمال الشرقى ، وقد أظهر الروس طرفا من قدرتهم المعروفة على المقاومة العنيفة ، فاشتبكوا مع نابليون فى فبراير ١٨٠٧ فى معركة فى « ايلاو » لا تعد نتيجتها نصرا حقيقيا للفرنسيين ، ولكن نابليون ضرب من جديد فى يونيو ١٨٠٧ فى فريدلاند فلم يخطىء هذه المرة ، ولم يعد بوسع الجيش الروسى أن يواصل الصمود . وهكذا بلغ امبراطور الفرنسيين أوج قوته .

وسوف نتناول بالبحث فى الفصل التالى ، ظهور أوربا الجديدة من بين أشلاء أوروبا القديمة . وكذلك الشكل الاقتصادى الجديد الذى اتخذه صراع الامبراطور ضد بريطانيا . كان هذا الصراع قد بدأ بالفعل ، وقد راح نابليون يبدى حرصا شديدا على كسب تأييد أوربا كلها فى محاولته الاطاحة — بوسائل غير مباشرة — بالدولة التى أخفق فى مباراة أسطولها . وقد وجد أن قيصر روسيا على استعداد — لم يتوقعه — للتعاون معه . فان القيصر كان قد بدأ يظهر الكثير من التقلب الذى اتسمت به شخصيته فى السنوات التالية ، وكانت له شكاواه الخاصة من حكومة بريطانيا . فقد اضطر منذ معركة بينا الى تحمل النصيب الأكبر من عبء الحرب ، وقد طلب من بريطانيا أن تضمنه فى قرض بمبلغ ٦ ملايين جنيه ولكن طلبه رفض بأسلوب كان من شأنه أن يمس المواطن الحساسة عند الروس . كما أنه راح يحث الحكومة البريطانية على استدراج جانب من القوات الفرنسية كى تخفف عنه بعض ما يلقاه من عناء ، ولكنها لم تقم بأى عمل يذكر فى هذا الصدد . فكان أن تحول استياء اسكندر من بريطانيا الى كراهية عنيفة دفعته الى عقد الهدنة مع فرنسا ، ومقابلة نابليون فى ذلك

الاجتماع الشهير الذى عقد فى مظلة أقيمت فوق طوف وسط نهر نيمن ، ووضعت فيه أسس الصلح . وقد تم الاتفاق أيضا على شروط الصلح المتعلقة ببروسيا علاوة على روسيا ، فى سلسلة اجتماعات عقدت بعد ذلك بين مندوبى الروس والفرنسيين والبروسيين فى مدينة تيلسيت ، بيد أن دور البروسيين كان مهينا الى أقصى الحدود ، اذ كان نابليون يجد — فيما يبدو — متعة خاصة فى توجيه الاهانات الى ملك بروسيا ومليكته . وهكذا تقرر مصير بروسيا فى الواقع على يد الامبراطورين الروسى والفرنسى .

وجاء فى المعاهدة أن الشروط المتعلقة ببروسيا قد وضعت بناء على رغبة الامبراطور الفرنسى فى اقامة الصداقة مع روسيا على أساس لا يتزعزع ، مما يعنى ضمنا أنه لولا وساطة القيصر لكانت هذه الشروط أشد مما جاءت وأقسى . وقد تقرر أن تؤلف الأقاليم البروسية على الراين مملكة جديدة تسمى مملكة وستفاليا ويجلس على عرشها « جيروم » شقيق نابليون ، كما تقرر أن تؤلف دوقية وارسو من الجانب الأكبر من الأراضى البروسية فى بولندة ، وأن تعطى هذه الدوقية لدوق سكسونيا ، وأمل الكثيرون فى أن يكون ذلك بداية لبعث بولنده المستقلة . وفقدت بروسيا اجمالا ما يقرب من نصف أراضيها وانخفض عدد سكانها من عشرة ملايين الى خمسة ملايين .

أما روسيا فلم تواجه مثل تلك المهانة . بل حدث العكس فقد أضيفت الى أراضيها فنلندة وجزء من ممتلكات بروسيا فى بولندة ، وان تكن قد أجبرت بالطبع على الاعتراف بجميع التدابير التى رسمها نابليون لاوربا الوسطى . وكانت هناك بنود سرية بجانب البنود المنشورة (١) ، اتفق فيها على دعوة بريطانيا الى عقد الصلح والتخلى

---

(١) لم ينشر النص الكامل للبنود السرية حتى عام ١٨٩٠ ، ويمكن الاطلاع عليها فى كتاب أ . فاندال «نابليون واسكندر الاول» Napoleon et Alexandre "I" «المجلد الاول» من تيلسيت الى ايرفورت "De Tilsit a Erffurt" (١٨٩١) الصفحات ٤٤٩ — ٥٠٧

عن دعاواها فى السيادة البحرية فان هى رفضت الاستجابة لهذه الدعوة شنت عليها روسيا وفرنسا حربا مشتركة وأرغمتا الدانيمرك والسويد والبرتغال على اغلاق موانيها فى وجه البضائع الانجليزية والاشتراك معهما فى الحرب ضدها . وبسرعة فائقة وقف الانجليز على شىء من طبيعة هذه البنود السرية ، وما زالت الطريقة التى كشفوا بها السر لغزا محيرا حتى يومنا هذا . فهل كان هناك جواسيس انجليز علموا شيئا عنها من بعض كبار المسئولين الروس ؟ أم أن تاليران هو الذى أفشاها للوزير الانجليزى « كاننج » على سبيل التمهيد للتفاهم مع العدو اذا ماسقط نابليون ؟ ومهما يكن من أمر المصدر الذى تسربت منه تلك المعلومات فان الحكومة البريطانية قد سارعت الى العمل فى ضوئها ، فطالبت الدانيمرك بتسليم أسطولها البحرى ، ولما رفضت الاذعان الى ذلك المطلب أكرهتها على ذلك اكراهـا بهجـوم بحرى وعسكرى شنته على كوبنهاجن .

وقد أضيفت بعد ذلك الصلح أقاليم كثيرة أخرى الى أراضى نابليون التى بلغت أقصى مداها فى عام ١٨١١ . ولـكن عام ١٨٠٧ هو الذى شاهد مع ذلك أوج قوته . ولو أنه مات فى تلك السنة لبدت سيرته أكثر السير اعجازا فى سجلات تاريخ أوربا العسكرى بل وربما تاريخ العالم كله . فقد وفق فى كل عمل ، ودحر كل عدو ، واعاد تنظيم أوربا على هواه . ولم يعد له منافس ولا نظير ، وقد دخل فى تحالف ودى وثيق فيما يبدو ، مع قيصر روسيا . وأصبحت تفصل بينـه وبين الثـورة الفرنسية التى خلفها وراءه مسافة شاسعة . لم تكن فرنسـا هى التى أصبح لها الأمر والنهى فى أوربا وانما نابليون نفسه . ولقـد حمل معه أسرته الى الثراء والشهرة والسلطة . فتقلدت أمه التى كانت فى يوم من الأيام ربة بيت بسيطة فى أجاكسيو ، منصب الامبراطـورة الوالدة فى باريس . أما أخوه الأكبر « جوزيف » فكان قد نصب لتوه

ملكا على نابولى — التى طرد منها فرديناند عام ١٨٠٦ — ولن يلبث أن يعتلى بعد فترة من الزمن عرش أسبانيا التاريخى العظيم . كما نصب ثالث أخوته « لويس » ملكا على هولندة التى كانت تعتبر حتى ذلك التاريخ جمهورية مستقلة . وثمة أخ آخر له ، هو « جيروم » صار كما أسلفنا ملكا على وستفاليا . وتزوجت شقيقته كارولين « مورا » الذى أصبح الآن دوقا على برج والذى سيصبح على مر الأيام ملكا على نابولى بعد نقل جوزيف الى أسبانيا . وكان « بيت » أشد أعدائه تصميما وأكثرهم مقدرة قد مات ، فبدا نابليون الها يحيى ويميت !

الفصل السابع
ظهور أوروبا الجديدة

لم يسبق لشخصية ما أن طغت على حياة أوربا وأفكارها مثلما طغت عليها شخصية نابليون طوال عشر سنوات . وسوف يتعين علينا اذا أردنا أن نجد لهذه الشخصية شبيها أن نعود القهقرى لنراجع سيرة يوليوس قيصر أوشارلمان ، وهذان لم يكن بوسعهما — لأسباب ظاهرة — أن يحققا نفس النفوذ العالمى الذى حققه نابليون . وأنه لما يتعذر علينا أن نعير الشئون الداخلية لايطاليا أو ألمانيا أو أسبانيا عناية كافية ابتداء من ١٧٩٥ حتى ١٨٠٧ . ذلك أن العاصفة الكبرى التى أخذت تمتد بسرعة هائلة من مركزها الرئيسى فى فرنسا قد اكتسحت تلك البلاد اكتساحا فى تلك الفترة فلم تترك مجالا للاهتمام بشئونها الداخلية . ولكن أحوال أوربا تتغير بعد ١٨٠٧ . ان نابليون يظل الشخصية الرئيسية فى المسرحية وسيبقى كذلك حتى تنتهى حياته العامة ، ولكن جيوشه وسياسته لم تعد تحتكر الأنظار . فنحن نستطيع أن نشاهد — اذا ماتمعنا وراء السطح قليلا — قوى صاعدة أخرى تعترض طريقه وتبدى مقاومة ثابتة بل وتضيع ثمار أعظم انتصاراته ، قوى لن تلبث أن تجلب على رأسه فى النهاية الهزيمة والكوارث .

ولكن هل كان بوسعه أن ينهى حياته العسكرية فى تيلسيت ؟ هل كان باستطاعته أن يهيىء لأوربا التى صنعها بنفسه ، تسوية دائمة وتطورا سلميا ؟ وما القول فى أمر تلك السنوات التسع من الحروب

التى مازالت تنتظر أوربا ، أهى ترجع الى أطماع نابليون التى لاتقف عند حد أم الى غير ذلك من الأسباب ؟ وهل كان عقد تحالف وثيق بين الامبراطورية الفرنسية وروسيا وبريطانيا أمرا يدخل فى حدود الممكنات السياسية حينذاك ؟ وهل كان من شأن مثل هذا التحالف أن يتيح للعالم سلما طويل الأجل ؟ يبدو من المؤكد أن الموقف فى ١٨٠٧ لم يكن يحمل فى طياته أى أمل فى السلام . ومن الجائز أن نابليون كان سيرحب بمقدم السلام ان أمن له السلام سلطانا مستقرا فى فرنسا وفى أوربا ، ولكن السلم كان يحمل له — كما أوضحنا من قبل وكما كان يعلم هو — خطرا على مركزه فى فرنسا . وفى أوربا لم تكن الحكومات قد تخلت — رغم هزائمها المتكررة — عن الأمل فى الانتقام . ووراء الحكومات كانت تقف الأمم التى حركت فيها الثورة الفرنسية وانتصارات نابليون الروح القومية ، فلم يكن ثمة احتمال فى أن ترضى ألمانيا وايطاليا وروسيا طويلا بمركز التبعية والخضوع الذى كان الشىء الوحيد الذى يمكن أن يقدمه لها السلام النابليونى . والحكومات لن تلبث أن تعيد — فى حالات كثيرة — تنظيم نفسها تحت ضغط الهزيمة ، وستكون بروسيا أول دولة تبرهن على امكان هزيمة فرنسا باستخدام نفس أسلحتها ! وفضلا عن ذلك كانت هناك دولة لم تهزم — ألا وهى بريطانيا التى ظلت قابعة خلف بحارها فى عداء وكبرياء وثقة . وقد خلف « بيت » فى رياسة الوزارة «فوكس» وكان شديد الاعجاب بالثورة الفرنسية ونابليون ، ولكن محاولته لاقرار السلام باءت بالفشل . وما أن توفى فى عام ١٨٠٦ حتى عاد حزب المحافظين (Tory) الى الحكم ليواصل الحرب ضد فرنسا متمتعا بتأييد السواد الأعظم من الأمة .

وقد اتخذ الصراع مع انجلترا طابعا جديدا كان له أثر عميق فى تعديل مجرى الحوادث فى أوربا حتى سقوط نابليون . فقديتس نابليون

من اقتحام استحكامات بريطانيا البحرية ، ولم يجد ثمة مايشجعه على استئناف السياسة التى فشلت فشلا ذريعا فى الطرف الأغر . ولكن هل يعقل أن يقف سيد أوربا الأعلى عاجزا أمام أمة من التجار وأصحاب الصناعات والحوانيت ؟ لقد كان يؤمن بأن قوة انجلترا انما تكمن فى صادراتها ، وبأن دول أوربا هى سوقها الرئيسى . ألا يستطيع اذن الحاكم الذى بسط سلطانه على أوربا اقصاء السفن البريطانية عن جميع موانىء أوربا فيفضى ذلك ببريطانيا العظمى الى الموت جوعا ؟ لقد كانت تلك سياسة فرنسية تقليدية نوعا ما ، ولقد أقرتها الثورة فى أولى مراحل الحرب ، ولكنها لم تكن اذذاك فى مركز يسمح لها بتطبيقها .

وقد جاء اعلان السياسة الجديدة من برلين فى نوفمبر عام ١٨٠٦ . ولم يكن ثمة ماهو أبلغ دلالة على قوة مركز نابليون من اصداره مراسيمه من عاصمة فردريك الأكبر المهزومة . وقد نددت « مراسيم برلين » ببريطانيا لخرقها القانون الدولى ولأنانيتها فى سياستها التجارية ، وقررت الرد عليها بنفس أسلحتها ، فأعلنت فرض حالة الحصار على الجزائر البريطانية وتحريم كل أنواع التجارة بينها وبين الأراضى التى تخضع لحكم نابليون أو نفوذه . فلم يعد مسموحا للسفن البريطانية بدخول موانىء فرنسا أو حلفائها ، وأصبحت السفن التى تدخل بالرغم من ذلك الأمر ، عرضة للمصادرة .

وردت الحكومة البريطانية على ذلك بمراسيمها الملكية الصادرة فى يناير ونوفمبر سنة ١٨٠٧ . وفيها اتهمت فرنسا بالخروج على تقاليد الحرب ، وأعلنت أنه مادام الاتجار مع أوربا محرما على بريطانيا فليكن محرما على الدول المحايدة كذلك . وضربت بريطانيا الحصار على الأراضى الفرنسية . وهكذا أقصى نابليون بقوته الحربية بريطانيا عن التجارة مع أوربا ، فعزلت بريطانيا ببحريتها أوربا الفرنسية عن

التجارة مع بقية العالم . ولم تكن هذه السياسة الجديدة مجرد فكرة عابرة أو تهديد أجوف . فقد تمسك بها نابليون باعتبارها الوسيلة القاطعة لانزال الخراب ببريطانيا ، وأرغم جميع الأمم الداخلة فى دائرة نفوذه على انتهاجها . وكانت رغبته فى توسيع مداها سببا فى حروب أخرى . ولما كفل له صلح تيلسيت فى نوفمبر وديسمبر ١٨٠٧ تأييد روسيا وأصبحت جيوشه تقف بلا منازع ، عاد يدعم ويؤكد من جديد فى مراسيم ميلانو اعلانه السابق بحظر كافة أنواع التجارة بين أوربا وبريطانيا .

ولا ريب فى أن بريطانيا قد قاست من هذا الحظر الذى سمى بالنظام القارى ، فقد تفشت البطالة وكثرت حالات الافلاس واشتد عناء الناس من سوء الحالة التجارية الناشيء عنه . غير أنه وان كانت للأسواق الأوربية أهمية قصوى بالنسبة لبريطانيا (١) ، فان باقى العالم ظل مفتوحا أمامها . ثم ان الآلات والأساليب الجديدة التى أدخلتها الثورة الصناعية فى انجلترا قد منحتها تفوقا كبيرا فى الانتاج ، فقاست البلاد حقا ولكن مكابدتها قوت من عزمها على مواصلة الكفاح بدلا من أن تثبط ذلك العزم .

أما سكان فرنسا نفسها فكانوا يتمتعون فى تلك السنوات بالرخاء من عدة أوجه . فقد فتحت غزوات نابليون لتجارتهم مناطق جديدة واسعة . وشهدت ثمار تشريعات الثورة الاجتماعية فى ازدهار أحوال الزراعة . ولما بدأت فرنسا تقاسى من انقطاع ورود حاصلات

---

(١) يوضح الدكتور هولاند روز أن نابليون كان سيتمكن على الارجح من أرغام انجلترا على الاستسلام لو انه أوقف تموينها بالقمح من القارة ، لانها كانت ستعجز عن استيراد الغذاء من العالم الجديد بالسرعة اللازمة والكميات الكافية «دراسات نابليونية «التموين بريطانيا بالغذاء أثناء حرب نابليون »)

(Napoleonic Studies, „Britain's Food Supply in the Napoleonic War ")

المستعمرات نتيجة لسياسة بريطانيا ، تمكن العلم الفرنسى ، بمؤازرة الدولة وتوجيهها ، من تقديم بعض الحلول . فقد ارتفعت أسعار السكر ارتفاعا خياليا ، ولكن العلماء الفرنسيين تمكنوا من استخراج السكر من البنجر وأصبحت هذه الصناعة الجديدة من ذلك التاريخ موردا دائما من موارد الثروة الفرنسية ، كما صنعوا النيلة أو بمعنى آخر حصلوا على بديل . حقا ان بعض أنواع الصناعات لم تجد من يقيلها من عثرتها ، ولكن أسوأ نتائج نظام نابليون القارى لم تكن تشاهد فى فرنسا نفسها وانما فى الدول الأوربية الواقعة تحت سيطرتها . وقد تجلى هذا بصورة أقوى عندما عمد نابليون الى فرض رسم جمركى عال — وصل غالبا الى نصف القيمة — على جميع حاصلات المستعمرات ايمانا منه بأن كل مايصل منها الى أوربا انما هو من تهريب البريطانيين .

وقد وجدت هولندة التى كان يجلس على عرشها شقيق نابليون « لويس » ، أن فى التدابير الجديدة قضاء تاما على حياتها التجارية ، فشكت واحتجت ولكن دون طائل . وكان الملك لويس يعطف على شعبه ويشك فى نجاح أخيه ، فتنازل فى النهاية عن عرشه المحاط بالصعاب . ولم يأت تنازله بأى غوث لبلاده ، فقد ضمت هولندة رسميا الى الامبراطورية الفرنسية فى يوليو ١٨١٠ . وأدت دوافع مشابهة الى ضم ساحل ألمانيا الشمالى الغربى فى ديسمبر من العام نفسه . وكان التبرير الرسمى الذى قدم لهذا الاجراء العنيف هو أن التجارة البريطانية « ستظل تتدفق الى القارة مالم يغلق فى وجهها الى الأبد مصبا نهرى ويزر والب » . ولو افترضنا أنه كان هناك فى يوم من الأيام احتمال ما بأن ترضى أوربا الوسطى بسيطرة نابليون ، فقد قضى النظام القارى على هذا الاحتمال . لقد أتى حكم فرنسا بالحرية الاجتماعية التى كانت موضع الترحيب وبنصوص التقنين

المدنى الانســانية ، ولكن هــذه المزايا لم تكن لتقاس فى نظر معظم الأهالى بما أدت اليه الحرب الاقتصــادية ضد انجلترا من ارتفــاع ضخم فى الأسعار كاد يودى بهم الى الموت جوعا .

ولننتقل الآن الى ألمانيا وبروسيا لنرى الشكل الذى اتخذته القوى التى أخــذت تختمر هناك . لقد كان ســقوط بروسيا مذهلا وقت حدوثه ولكنه لايستوقف النظر مثلما تستوقفه نهضتها من كبوتها ، تلك النهضة التى تكتب فى أحداث التاريخ البطولية وتندرج فى صف واحد مع انتصــار الرومان بعد موقعة « كناى » والفرنسيين بعــد « أجنكور » . ان كارثة يينا لم تدمغها بأى حال كدولة متــداعية منحلة . بل ان ألمانيا كانت على الضــد مليئة بالنشاط من كل نوع ، ومطلع القرن يعتبر ، من عدة أوجه وبالرغم من «يينا» ، العصر الذى ترجع اليه ألمانيا بأبصارها بكل فخر واعتزاز . ومع ذلك فقد ركعت ـ من الناحية العسكرية ـ وأنفها فى الرغام .

ويمكننا الآن أن نتبين بوضوح سبب الكارثة . فقد كانت بروسيا أكمل نموذج للنوع القــديم من الحكومات الذى حطمتــه الثورة الفرنسية ـ فى فرنسا بالعمل المباشر وفى ســواها من البلاد بتأثيرها والمثل الذى ضربته . كان فردريك الأكبر قد أنشأ ـ بهمة تعادل همة نابليون وأن يكن بغير عبقريته الابداعية ـ جهازا للحكم بالغ الكفاية يعتمد اعتمادا كليا على الملك بنفس الدرجة التى يعتمد بها الكتبة فى دوائر العمل على رؤسائهم ، ويعمل من أجل رفاهية الشعب دون أن يستشيره أبدا ، جهازا لايختلف فى صفاته الجوهرية عن الصورة التى كان يتطلع اليها لويس الرابع عشر أو جورج الثالث الانجليزى وان فاقها كثيرا من حيث الكفاية . وكان الجيش يحمل نفس الطابع ، فلم تكن بأى وجه من الوجوه تجسيدا لروح الأمة وانما كان مجرد سلاح فى يد الملك يستخدمه فى الأغراض التى يراها مناسبة . وكان عامة

الجند يجمعون من الفلاحين الأقنان ، بينما يشغل مناصب الضباط بالضرورة ذوو النسب العريق . وكان النظام قاسيا صارما . لقد كان الجيش فخورا حقا بالتراث الرفيع الذى خلفه فردريك الأكبر ، ولكن الجنود لم تكن تحدوهم الروح القومية أو الوعى بأن مصلحتهم الشخصية انما هى فى رفاهية الدولة . لقد كان هذا النظام الذى « يرغم فيه الفلاح بوساطة العقوبات الوحشية على الدفاع عن البلاد التى تميته جوعا » منسجما مع الكثير من سمات القرن الثامن عشر ، ولكن مجىء الثورة الفرنسية ورواج أفكارها جعله أمرا غير محتمل فى القرن التاسع عشر .

وانه لمن مفاخر بروسيا فى ذلك الحين أن وجد بها رجال فى مناصب بارزة رأوا ضرورة احداث تغييرات جوهرية ، وكانوا من القوة بحيث يحدثونها . وقد كان الطابع المميز لجميع تلك التغييرات هو الرغبة فى ايجاد علاقة عضوية بين الدولة والشعب ، واثارة حماسة الشعب الحقيقية لنجاح الحكومة . ولا يصح بحال القول بأن هذا المثل الأعلى قد تحقق ، ولكن ثمة خطوات كثيرة قد اتخذت فى هذا السبيل ، وستحارب فرنسا من الآن فصاعدا بنفس أسلحتها . ان الحرية والاخاء والمساواة لم تكن حقا من الكلمات التى تناسب العقل الألمانى ، ولكن الكثير مما كانت تعنيه بها فرنسا قد انتقل فعلا الى حياة ألمانيا .

ويجدر بنا أن نبدأ بالاصلاحات العسكرية . وهذه كانت ثمرة جهود ثلاثة رجال أفذاذ هم « شارنهورست » و « نيبزناو » و « كلوزوفتز » . كان شارنهورست هو المنظم العظيم للجيش الجديد ، ولقد توفر على مهمته بغيرة دينية ، وكان يؤمن بأن عمله لن يتحقق الا ببعث الشعب أخلاقيا . وكان « نيبزناو » مثاليا يجد فى عمله العسكرى ارضاء لأسمى أمانيه ، وقد أعجب بأشياء كثيرة فى

الثورة الفرنسية ، وكان — على ولائه للعرش البروسى — ذا شبه بيعاقبة ١٧٩٣ الفرنسيين . أما « كلوزوفتز » فكان من عظماء أصحاب النظريات فى التكتيك العسكرى ، وقد اقتبس الكثير — بل معظم — النظريات التى ابتدعها نابليون وعدلها بحيث تتكيف مع ظروف ألمانيا . وهو يعتبر صاحب تلك الآراء فى الاستراتيجية والتكتيك التى قادت بروسيا الى النصر فى ١٨١٤ و ١٨٦٦ و ١٨٧٠ . وكانت أهم الاصلاحات العسكرية هى أن الجيش تحول الى جيش قومى بعد اقصاء الأجانب منه والغاء نظام الامتيازات ، ولم يعد الضباط يختارون من بين طبقة الأشراف وحدها ، كما أن الخدمة فى صفوف الجند لم تعد علامة على الرق . فقد استدعى جميع المواطنين لأداء الخدمة العسكرية وأصبح اختيار الضباط يتم على أساس المقدرة . كما بث المصلحون فى الجيش — بنجاح عجيب — روحا جديدة ، وأدخلوا مقاييس جديدة للشرف العسكرى ولوائح جديدة للسلوك ، فقيل عنه انه أصبح مدرسة للشرف لا مدرسة للرذيلة . وكان نابليون قد فرض على بروسيا بنص صريح ألا يزيد جيشها على ٤٢٫٠٠٠ رجل . الا أن المصلحين العسكريين خفضوا مدة الخدمة بحيث يفرغ الجند منها بسرعة ، الأمر الذى مكنهم من انشاء قوة احتياطية ظلت على اتصال بالنظام والتدريب العسكرى . فلما دعا الداعى آخر الأمر لبى النداء جيش بروسى مدرب يزيد عدده كثيرا على الحد الذى فرضه نابليون .

ولا تقل عملية اعادة التنظيم السياسى والاجتماعى لبروسيا أهمية عن الاصلاح العسكرى بل لعلها تفوقه أهمية . وقد كان دور الملك فيها ضئيلا ، أما الاسم الذى اقترن بها اقترانا وثيقا فهو اسم فون شتاين الذى كان بحكم المولد من مواطنى ولاية من أصغر الولايات الألمانية ، ثم انتقل بخدماته الى بروسيا عندما محا الطوفان الفرنسى معالم ألمانيا الغربية القديمة . ومن الذين قدموا مساعدات قيمة فى

هذا الصدد كذلك هاردنبرج الذى أصبح فى تلك الآونة مستشـارا للبلاد (١) . وهو رجـل أرستقراطى فى مسلكه ومظهـره ، بطىء فى الوصول الى القرارات وان أثبت فى النهاية أنه مؤيد متحمس لشتاين والحزب المناهض لفرنسا . وينبغى أن نذكر الى جانب هؤلاء ، الملكة لويز التى أصبحت رمزا للشـعور القومى البروسى بل والألمانى . وكانت أهداف هؤلاء المصلحين المدنيين قريبة الصلة بأهداف المصلحين العسـكريين. اذ كانوا راغبين بدورهم فى ايجـاد علاقة حيـة بين الحكومة والشعب وفى أن يحيلوا الدولة البروسية الى حامية للرجل العادى لا أداة للاسـتبداد به . أما هدفهم الثابت — وان كتموه — فكان تحقيق استقلال ألمانيا من السيطرة الفرنسية .

وقد بدأ عملهم بالغاء رق الأرض ، ونص مرسوم التحرير على أنه « ليس فى بروسيا بعد عيد القديس مارتن عام ١٨١٠ سوى مواطنين أحرار » . لقد كان فلاحو بروسـيا الأقنان فى حال أسوأ بكثير من حال فلاحى فرنسا ، فأصبحوا الآن فى مركز مشابه لذلك الذى كسبه الفلاحون الفرنسـيون فى الثورة . فقد تحرروا من السـخرة ومن الخضوع لقضاء سادتهم الاقطاعيين ، ولم يعودوا عرضة لأن توقع عليهم العقوبات الجسدية المهينة فى الجيش . والأهم من هذا كله أن الأراضى التى كانوا يزرعونها للغير أصـبحت ملكا خالصا لهم من حقهم أن يتصرفوا فيها بالبيع . وهذا الحق الأخير كان ينطوى على بعض الخطر ، اذ كان من المحتمل أن يتحول الفلاحون ، اذا ماباعوا أراضيهم ، الى أجراء بلا أرض مما يدفعهم الى الهجرة للمدن . ولم تصادف التدابير التى اتخذها شتاين لتجنب ذلك نجاحا كاملا . غير أن الفلاحين أصبحوا يشعرون الآن بأنهم اذ يحاربون من أجل بلادهم انما يحاربون من أجل شىء لهم فيه مصلحة شخصية .

---

(١) Chancellor وهو منصب يعادل فى المانيـا منصب رئيس الوزراء فى سائر الدول . (المترجم)

ثم انتقل شتاين بعد ذلك الى سكان المدن فى بروسيا الذين كانوا يعيشـون حياتهم المستقلة الخاصة وتسـيطر عليهم النقابات المهنية الفاسدة ، وكانوا مبعدين من الخـدمة فى الجيش . فطبق لهم مبدأ حرية التجارة ، وقضى على الحواجز القـانونية التى كانت قائمة بين مدن بروسيا وسائر البلاد ، وهكذا ظهرت الحـرية لأول مرة فوق أرض بروسيا ، ولكن البلاد لم تكن بالتربة الصالحة لنمو الحـكم الذاتى . فرغم أن هاردنبرج قد أعلن فى « الوصية » التى خلفها أنه من أنصـار « المبادئ الديموقراطية فى دولة ملـكية » ، ورغم أن شتاين كان يشخص ببصره فى نفس الاتجاه ، فان شيئا من ذلك لم يتحقق اذا استثنينا بعض المحاولات الأولية لتأليف المجالس الاقليمية .

على أن هذه التغيرات فى النظم ماكانت لتجدى كثيرا فى النهاية لو لم تعززها حركة مماثلة فى عقول النـاس . لقد كانت بروسـيا من الوجهة الفكرية متيقظة بل شديدة اليقظة شأنها فى ذلك شأن فرنسا قبل الثورة . وكانت النداءات المستحثة للهمم التى يوجهها للأمة «فيختله» و « شليرماخر » ، والأشـعار الوطنية التى ينظمها كتاب من أمثـال « أرندت » أعز الى نفس ذلك الجيل من النظرة العالمية لعمالقة العصر الكلاسيكى « كانت » و « شيلر » و «جوته » . وقد عززت رابطة الفضيلة (Tugendbunt) التى تأسست بكونيجزبرج فى ١٨٠٨ المشاعر الوطنية والمثالية اللازمة لانتصار القضية الوطنية . وآزرتها فى عملها جمعية الألعاب الرياضية التى أسسها ف . ل . ياهن ، والتى كانت ـــ على مافى الكثير من مظاهر نشاطها من سخف ورغم أن نفوذها على الرأى العام لم يكن فى الأغلب بالدرجة التى صوره بها البعض ـــ بين القوى التى حركت الرأى العام الألمانى فى تلك الحقبة وأيقظته .

وثمة ظاهرة مميزة أخرى لا يفوتنا أن نلاحظها ونحن فى مجـال الحديث عن اعادة تنظيم بروسيا . لقد كانت أهمية التعليم فى تدعيم

قوة الدولة بل قوتها العسكرية ، عقيدة آمن بها البروسيون قبل أن تصبح فكرة مقبولة فى سائر بلاد أوروبا . والمراحل الرئيسية فى تقدم قوة بروسيا قد اقترنت دائما بتأسيس الجامعات . وهاهى ذى جامعة برلين تؤسس الآن عندما تجاسرت بروسيا ، ساعة انكسارها التام ، على الأمل فى التحرر والنصر . كانت جامعة « هال » هى الجامعة الرئيسية فى أراضى براندنبورج القديمة حتى ذلك التاريخ ، ولكن هال وقعت الآن تحت نفوذ نابليون ، وعطل نشاطها بعض الوقت فاتجهت النية الى انشاء مقر جديد للعلم فى برلين ، ورغم أن الفكرة قد صادفت بعض المعارضة التى تستند أساسا الى أن حياة العواصم الكبرى لا تهيىء الجو الصالح للدراسة ، فقد قبل الاقتراح وبدأت هذه الجامعة التى كانت — ومازالت — لها أهمية بالغة فى الفكر الأوربى ، بداية متواضعة نسبيا . ولكنها اجتذبت منذ نشأتها الأولى رجالا ذوى مكانة بارزة ، ولم تلبث أن استقرت فى أحد القصور ومنحت اعانة مناسبة من الدولة .

وضح اذن أن بروسيا ينبغى أن يحسب حسابها . لقد وافق نابليون بادىء الأمر على تعيين شتاين فى خدمة الحكومة البروسية ، اذ كان يعتقد فيما يبدو أن بروسيا عاجزة عن النهوض من كبوتها ، ولكنه أدرك فيما بعد دلالة الحركة الجارية فى بروسيا وخطرها ، فأصر على عزل شتاين ومصادرة أملاكه ، فما كان من الأخير الا أن انتقل الى خدمة قيصر روسيا واستمر فى مناهضة نابليون .

وقد اضطر نابليون قبل أن يكتمل استعداد بروسيا لدخول الحرب من جديد بزمن بعيد ، الى امتشاق الحسام ضد دولتين أخريين أضعف منها هما أسبانيا والنمسا . وقد اصطبغت الحرب ضد هاتين الدولتين بصبغة تميزها تماما عن الحروب الأولى التى شنتها الجمهورية الفرنسية وخاض غمارها نابليون . فقد أصبح على نابليون الآن أن

يحاربه لا الحكومات والجيوش الرسمية فحسب وانما الشعوب أيضا ، التي أخذت تضطلع بدور تلقائي في الحرب . وليس بوسعنا بعد أن نتحدث عن نمو الروح أو المشاعر القومية ، ولكن ماحدث في تلك الأيام كان تمهيدا لذلك . فقد وجد الرجل العادي أن أعمال الدبلوماسيين والساسة والقادة العسكريين تمسه مسا وثيقا . ولم تكن مصلحته الاقتصادية هي وحدها التي تتأثر ، فقد أصبح يجد كذلك أن بلاده تعني شيئا بالنسبة له ، اذ صار يدرك أن هناك رابطة مشتركة تربطه بمواطنيه ، وغدا مهيئا لمقاومة الغزاة ، لا بناء على أوامر الحكومة فحسب بل بدافع ذاتي كذلك فضلا عن المزايا المادية والاجتماعية التي قد تقدم له . ان الجيوش الفرنسية الرئيسية لن تهزم حقا هزيمة تستحق الذكر على يد قوات عسكرية نظامية قبل عام ١٨١٣ ، ولكنها لن تلبث أن تواجه ، في أودية أسبانيا وجبال التيرول ، مقاومة شعبية تنهك قواها الى أقصى حد .

ان قصة الحرب مع أسبانيا قصة شيقة للغاية وملفتة للنظر من جميع الوجوه . فقد كان أبعد شيء عن الاحتمال أن تلقى فرنسا هنالك أول وقف حاسم لزحفها في القارة . لقد لعبت أسبانيا حقا دورا عظيما في تاريخ أوربا ، وكانت جرأة مشاتها وصلابتهم مضرب الأمثال في القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، ولكنها تخلفت طوال قرن كامل في سباق القوة والثروة ، فأصبحت النموذج الكلاسيكي للدولة المضمحلة . وقد باءت بالفشل كل المحاولات التي بذلتها حكومتها للتدخل في الشئون الأوربية في القرن الثامن عشر ، ولم تظهر بادرة واحدة تشير الى حدوث أي تقدم من حكومتها في النزاهة أو بعد النظر . فلم يكن من المعقول أن يتوقع من الجيوش الأسبانية ابداء أية مقاومة فعالة لفرنسا : ومع ذلك فان أول بارقة من الأمل في امكان تحرر أوربا من سيطرة فرنسا النابليونية قد بزغت من أسبانيا

ولقد شاهدنا كيف تبدلت علاقات أسبانيا بفرنسا منـذ نشـوب الثورة . كان البيت المالك الأسـبانى فرعا من أسرة البـوربون التى يرأسها ملوك فرنسا . وقد ساهمت أسبانيا فى الائتلاف الأول ضد الجمهورية الفرنسية ولـكنها انسحبت منـه فى ١٧٩٥ . ثم راحت أسبانيا تنجذب أكثر فأكثر فى فلك فرنسا اعتبارا من ذلك التاريخ . فلما انهار صلح اميان قدمت لفرنسا معونة مالية وبحرية ، وأرسلت سفنها الى موقعة الطرف الأغر . وقد أخذ نابليون منذ ذلك الحين ، يمارس لونا من السيطرة على الأسرة المالكة الأسبانية ، وهذا يفسر لنا الفصل التالى من المسرحية . فقد كان البيت المالك الأسبانى أشبه بصورة هزلية تتجسد فيها كل عيوب الملكية ، وقد هوى الى قـرار سحيق من الفساد والعجز لم يبلغه قط آل البوربون فى فرنسا . فالملك شارل الرابع اشتهر بالعجز الشائن ، فكانت الشخصية المحـركة فى دوائر القصر هى شخصية « جودوى » الذى كان طموحا بخيـلا وعشيقا مفضوحا للملكة . وكانت علاقة هؤلاء الثلاثة أسوأ ما تكون بفرديناند (أمير استورياس) وزوجته النابولية . ولم يكن فرديناند بأفضل من أبيه خلقا أو مقدرة ، ولسوف تبين لنا الصفحات التاليـة من سيرته كيف تردى فى الدرك الأسفل من الجبن والخيانة ، ولـكن عداءه لأبيه و « جودوى » كان أمرا معروفا ، وكان فى ذلك ما يكفى لجعله بطلا شعبيا تتعلق به الأمة فى اخلاص مثير للرثاء اذ جوزيت عنه جزاء سنمار . لم تبد الأسر المالكة الاسبانية اذن أى مظهر من مظاهر الوطنية أو الفضيلة ، فكانت الحاجة ماسة الى عاصفة الثورة لتطهير تلك الاصطبلات القذرة . ولسوف تجد روح فرنسا الثـورية أشياء كثيرة تستطيع أن تغيرها تغييرا يعود بالنفع على البلاد . فالتجارة كانت تخنقها قيود عتيقـة ، والامتيازات الارستقراطية كانت بنفس الضخامة والسخافة التى كانت بها فى فرنسا ، والحياة الفكرية كانت

تعانى من التبلد والخمول . ولعل أقوى مشاعر الشعب الواعية كانت مشاعر الولاء للكنيسة ومنها سيستمد الكثير من قوته وتماسكه فى النضال العظيم الذى لن يلبث أن ينشأ . ولكن الكنيسة نفسها كانت فاسدة غير مستنيرة ولا انسانية ، ولا تزال متشبثة بمبادئى محاكم التفتيش وان قل الاضطهاد فى الآونة الأخيرة . كانت الحاجة اذن ماسة فى البلاد الى مبادىء دستور ١٧٩١ وتقنين نابليون المدنى ، وكان هنالك قطاع هام ، وان يكن صغيرا ، من الشعب على أتم استعداد للترحيب بها .

وكان نابليون يحسب أن أسبانيا لن تبدى مقاومة أكثر مما أبدت ايطاليا ، اذ كيف يتصور أن يتوفر ولاء الأمة لمثل هذا البيت المالك الذى أخفق فى أداء كافة واجبات الملكية ، فلم يعد قائدا لجيوش أسبانيا ولا ممثلا للوحدة القومية ولا مدافعا عن قضية الشعب فى مجموعه ضد مطالب طبقة بعينها ؟ لقد قال نابليون : « اننى سأخط على رايتى شعارات (الحرية ، والخلاص من الخرافات ، والقضاء على طبقة النبلاء) ، فأستقبل هنالك كما استقبلت فى ايطاليا وتنحاز الى جانبى جميع الطبقات ذات الروح الوطنية . لسوف أخرج هذا الشعب الذى كانت له فى يوم من الأيام نزعات كريمة ، عنوة من سباته ، ولسوف تشاهدون كيف أنهم سينظرون الى كمحرر» . وهذا ماكان يعتقده فعلا ، وكانت تعزز رأيه حجج قوية . بيد أن السر فى هزيمة نابليون وخيبته المريرة فى أسبانيا انما هو فى أنه أيقظ فى شعب أسبانيا عاطفة القومية . لم تكن أسبانيا مثل ايطاليا مقسمة الى دول منفصلة وخاضعة لحكم الأجنبى ، فلم تكن بحاجة الى أن تعود بأبصارها الى الوراء أو أن تتطلع الى المستقبل البعيد لترى نفسها موحدة . لقد كانت تعانى من الفقر وسوء الحكم ، ولم تكن ذات شأن كبير بين دول أوربا العظمى ، ولكنها كانت ، بالرغم من قوة

الشعور المحلى فى الأقاليم ، متحدة أبية تمقت الاجانب من أى نوع ، فصممت على ألا تخضع للحكم الأجنبى . وكانت خميرة الثورة الفرنسية قد بدأت تفعل فعلها فى سكان أسبانيا ، ولكن هذه الحقيقة نفسها قد انقلبت ضد نابليون ، فقد راح الأسبان يستصرخون العالم باسم الحرية والاخاء والمساواة ضد طاغية يحاول أن يفرض عليهم حكما أجنبيا وأن يبذر بينهم بذور الشقاق .

لقد كانت لدى نابليون أسباب وجيهة لاحتقار سياسة الحكومة الأسبانية والاستهانة بها ، فكان أن وقع فى خطأ طبيعى هو الخلط بين الحكومة والأمة ، وظن أن غزو البلاد برمتها سيتم فى يسر وبثمن زهيد . وقد أسدت الأسرة المالكة الأسبانية لنابليون خدمة ما كانت لتستطيع أن تسدى اليه خيرا منها لو أنها كانت تهدف — عن وعى وادراك — الى خيانة أسبانيا والقائها بين أيدى فرنسا ، فقد استجار الأمير فرديناند فى عام ١٨٠٧ بنابليون طالبا منه أن يمنحه حمايته الأبوية . وأن يفتح أعين « والدى الطيبين المحبوبين » . فما ان سمع الملك والملكة بهذا النداء حتى ناشدا هما الآخران نابليون أن يعينهما فى تسوية متاعبهم العائلية ، فشعر أنه ممسك بهم فى قبضة يده ، وراح يحلم بضم البلاد . وبدأ بارغام أسبانيا على خوض الحرب ضد البرتغال بغية حرمان الانجليز من الموانىء التى كانت تصل عن طريقها بضائعهم الى أسواق أوربا بالرغم من مراسيم برلين .

وقد نجحت الحملة فى تحقيق أغراضها وأتاحت لنابليون ادخال أعداد ضخمة من القوات الفرنسية فى البلاد بحجة تدعيم مركزها فى الحرب ضد البرتغال ، وبذلك أصبحت أسبانيا فى حيازته تقريبا من الوجهة العسكرية . ولم ير كيف أن وجود جيوشه قد أخذ يثير ضده مشاعر هذه البلاد التى لم تكن عدائية نحوه بادىء الأمر ، بل راح يتحين الفرصة ليضرب ضربته فواتته فى ١٨٠٨ . ذلك أن الخصومة

العنيفة التى كانت حبيسة فى صدور الأسرة المالكة قد أسفرت فى النهاية عن صراع مكشوف . فقد احتشد جمع من الأهالى فى « أرانجيز » حيث كانت تقيم الجماعة الملكية وهاجموا مقر جودوى ذلك العميل الملكى البغيض الذى كانوا يرون فيه بحق السبب الأول فى هوان البلاد ، فأفزع تصرفهم الملك الشيخ ودفعه الى توقيع وثيقة تنازل عن العرش لابنه فرديناند الذى هللت له البلاد بأسرها بوصفه الرجل الذى تقع على عاتقه مهمة بعث أسبانيا وتحريرها . ولكن الملك لم يلبث أن تراجع عن قرار النزول عن العرش فى خطاب الى امبراطور الفرنسيين الذى لا يعلو على سلطانه أحد ، وأعلن أن هذا التنازل قد انتزع منه بالتهديد . فما كان من نابليون الا أن استغل الفرصة السانحة الى أقصى حد . فحمل فرديناند بالخديعة والقوة على الحضور اليه فى « بايون » ، وقد لحق به الى هناك الملك والملكة وجودوى . وواجه نابليون فرديناند برفضه الاعتراف به ملكا على أسبانيا وهدده بمحاكمته بتهمة الخيانة العظمى ، ثم دفع الملك الشيخ شارل الى توقيع معاهدة ينزل بموجبها عن جميع حقوقه فى عرش أسبانيا لامبراطور الفرنسيين ، وبذلك بات فى امكانه أن يدعى أن العرش الأسبانى قد آل اليه بطريقة مشروعة .

لقد صار نابليون فى مركز لويس الرابع عشر عام ١٧٠٠ ، فقد أصبحت اسبانيا خاضعة لسلطان فرنسا . « ولم يعد لجبال البرانس وجود » . لاشك اذن فى أن القارة بأكملها ستجثو الآن عند أقدامه ، وفى أن شوكة بريطانيا ستنكسر آخر الأمر ! ولكن أسبانيا خيبت آماله مثلما خيبت آمال سلفه لويس الرابع عشر .

لقد كانت سياسته فى أسبانيا هى أعظم أخطائه . فقد أساء فهم المشكلة التى كان عليه أن يواجهها بأكثر مما فعل فى أية جهة أخرى بما فى ذلك روسيا نفسها . فلم ير — وربما لم يكن بوسع أحد فى

أوربا أن يرى — مدى انفصال أسبانيا عن حكومتها وقدرتها على المقاومة من تلقاء نفسها ، وما فى التغلب عليها فى جبالهـا وسـهولها القاحلة من صعوبة بالغة . لقد كانت العاطفتـان الرئيسيتان عنـد الشعب الأسبانى هما الدين والعزة القومية ، فدفعته العاطفتان الى مقاومة الفرنسيين بعناد . لم تكن هناك حقا حـكومة تتكلم باسـم أسبانيا كلها ولكن حياة أسبانيا الاقليمية والمحلية كانت نشـطة ، فراحت الأقاليم والمدن تعلن تلقائيا رفضها لحكم نابليون . وما ان أعلن اقليم استورياس الصغير الذى لا يتجاوز سكانه نصف مليـون نسمة ، الحرب الرسمية ضد نابليون حتى أعلنت بريطانيا استعدادها لتقديم المعونة له وأسرعت بارسالها فعلا . لقـد كان نابليون خالى الذهن تماما من قسوة المهمة التى تنتظره . وآية ذلك أنه قال « لو أنى قدرت أن الأمر سيكلفنى ٨٠٫٠٠٠ رجل ماشرعت فى القيام به . ولكنه لن يكلفنى أكثر من ١٢٫٠٠٠ » . غير أنه فى الواقع كلفه نصف مليون رجل وربما عرشه أيضا !

ان مجرى هذه الحرب يوضح بجلاء كيف تبادل نابليون وأعداؤه أسلحتهم والقضايا التى من أجلها يحاربون . فلقد اقتحم نابليـون ايطاليا عام ١٧٩٦ باسم الحرية ، ووعد باحلال الحياة الدستورية محل الحكم الاستبدادى ، وقاد هناك جيشا قوميا ضد جيوش من النوع القديم المرتزق بمعنى الكلمة . ولكن أسبانيا هى التى أخذت تنشد الآن الحرية ، وتطالب بحاكم تختاره بنفسها ، ومنها ستجىء أشـهر التجارب القادمة فى وضع الدساتير .

لقد أظهر نابليون باستدعائه أخاه جوزيف من عرش نابولى وتنصيبه على عرش أسبانيا أنه يعتبر خلع الأسرة المالكة الأسبانية قضاء مقضيا لا رجعة فيه . فكان الامر بمثابة طاغية ينصب طاغية ، أما الأوضـاع الدستورية التى وعد بها فانها لم تر النور قط . وقد تولت المقاومة فى

أسبانيا بادىء الأمر لجان محلية (juntas) تألفت منها فى ١٨٠٨ لجنة مركزية عليها . وفى ١٨١٠ دعى « الكورتيز » (برلمان أسبانيا) الى الانعقاد ، تحت ضغط الشعب ، فى قادس بناء على نظام انتخابى كامل متحرر ، فشكل الأعضاء من أنفسهم جمعية تأسيسية ورسموا للبلاد شكلا للحكم على غرار ماجاء فى دستور الثورة الفرنسية الأول ، أقرت فيه سيادة الشعب وحرية الفرد والصحافة . وأعلن تحريم التعذيب واصلاح الشئون المالية ، ووضع السلطة التشريعية فى يد «الكورتيز» الذى تقرر أن يشكل — احتذاء بالمثل الذى ضربته فرنسا عام ١٧٩١ — من مجلس واحد ينتخب بطريقة معقدة أساسها على أى حال الانتخاب العام للرجال . أما السلطة التنفيذية فقد وضعوها فى أيدى ملكية وراثية تظل فى أسرة فرديناند الذى كان لايزال محبوبا . وقد أصبح دستور ١٨١٢ هذا الشعار للأحرار فى الجيل القادم . فلم يكن فى أوربا يومئذ دستور آخر ينص بصراحة على الانتخاب العام للرجال وقيام مجلس واحد ، وهو لم يقصر عن تحقيق مطالب الناس فى أوربا الا فى نقطة واحدة — وهى نقطة تحمل طابعا أسبانيا خالصا — فقد أعلن أن العقيدة الكاثوليكية هى وحدها العقيدة الصحيحة والديانة الدائمة لأسبانيا ، وعلى ذلك لا يسمح بقيام أى شكل من أشكال العبادة الاخرى فى البلاد .

لم يكن ثمة مناص اذن من أن يحكم السيف بين السياستين المتعارضتين . وقد قدمت بريطانيا معونتها للأسبان منذ البداية، ولكن هؤلاء تمكنوا بمفردهم من الحاق أول هزيمة جدية بجيوش نابليون قبل أن يبدأ ولنجتون مقاومته العنيدة التى أدت فى النهاية الى تحقيق النصر الكامل . وكان ذلك فى موقعة « بايلين » الشهيرة فى يوليو ١٨٠٨ . فقد صدرت الأوامر للقائد الفرنسى «ديبون» بالخروج من مدريد لاحتلال أشبيلية التى كانت فى أيدى الوطنيين ، فأحرز

عددا من الانتصارات الأولية فى الطريق جعلته يستهين بقدرات الاسبان العسكرية ، وحصل جنوده على أسلاب كثيرة راحوا يجرونها وراءهم فى صف طويل من العربات ، ولكن قوات العدو لم تلبث أن قطعت عنه الامدادات والماء . ورغم ذلك فقد كان بوسع القائد الفرنسى ، فى رأى النقاد العسكريين ، أن ينقذ الموقف لو أنه أظهر شيئا من الهمة والشجاعة . ولكنه آثر التسليم بقواته البالغ عددها ٢٠٫٠٠٠ رجل ، فاهتزت أوربا للنبأ العجيب ، الا وهو استسلام قائد من قواد نابليون أمام جيش من الاسبان الازرياء . ولو أن أوربا الوسطى حملت هى الأخرى سلاحها فى تلك اللحظة لحلت به الهزيمة التى ستودى به فى « ليبزج » و « واترلو »

لقد كان الموقف خطيرا الى درجة دفعت نابليون الى المجىء بنفسه لتولى القيادة ، فرد للجيوش الفرنسية هيبتها واحتل مدريد من جديد . وأعاد الى العرش شقيقه جوزيف الذى كان قد فر اثر معركة بايلين ، ودانت له العاصمة بالولاء الظاهرى . وكان سير جون مور قد تقدم فى زحفه على رأس الجيش الانجليزى فبلغ المنطقة المجاورة للعاصمة ، ولكنه استدار الى الساحل عند ذيوع نبأ حضور نابليون ، وأفلت بصعوبة بجيشه الى كرونا . ولو كان بوسع نابليون أن يبقى فى أسبانيا مع الجزء الأكبر من جيشه لسارت الأمور — على الارجح — على ما يرام . ولكن امبراطوريته الشاسعة الأرجاء كانت تتطلب اهتمامه ، وسرعان ماستطرأ أحداث على الدانوب تستنزف جانبا ضخما من قواته .

لقد ألفى قواد نابليون ، وعلى رأسهم سولت وناى ، أنفسهم أمام مهمة رهيبة بعدما اعترى قواتهم من نقص . وقد قال الملك جوزيف يصف الحال « انه بلد ليس كمثله بلد ، فنحن لا نجد فيه من يقبل أن يكون جاسوسا لنا أو رسولا لنا » . وتبين مذكرات ماربو مدى

الخطر الذى تعرضت له فصائل الجيش الفرنسى أثناء حياتها وسط سكان يضمرون لها عداء شرسا . ان الأسبان لم يظهروا حقا استعدادا كبيرا للدخول فى عمليات الحرب النظامية ، وكان افتقارهم الى الدقة فى المواعيد وتفكك تنظيمهم يثير أعصاب ولنجتون الى حد الغليان فى بعض الأحيان ، ولكنهم شنوا الحرب غير النظامية بمثابرة ومهارة رائعة ، وأظهروا احتمالا خارقا وحمية نادرة فى الدفاع عن مدنهم . وان حصار سرقسطة ليعد من أعظم الأعمال البطولية فى صحائف تاريخ أوربا . اذ كان الدفاع عن المكان يبدو مستحيلا تقريبا ، ولكن المواطنين والجنود الأسبان دافعوا عنه فعلا ضد الجيوش الفرنسية وتمكنوا من ايقافها عند حدها من يونيو الى أغسطس حين جاءهم الغوث . ان أسبانيا «الصلبة التى لاتقهر» قد أبدت مرارا ، منذ عهد الرومان ، استعدادا طيبا للحرب غير النظامية . وقد كان لمعونة البريطانيين أقصى قيمة ممكنة فى الصراع ضد نابليون ، اذ وقع عبء العمليات الحربية النظامية على عاتقهم . ولكن المقاومة التى أبداها الأسبان أنفسهم كانت أعظم مما يعترف به أحيانا . فان أسبانيا لم تبد فى أى يوم من الأيام ، ولا حتى فى ساعات الكرب والهزيمة ، أدنى استعداد لقبول النظام النابليونى أو جوزيف ملكا . وقد وصفت الحرب الأسبانية — عن حق — بأنها السرطان الذى استنزف قوة نابليون ، وقد دارت هذه الحرب فى وقت كان الموقف فى أوربا يتطلب فيه كل عنايته وسرعان ماسيتطلب كل قوته .

لقد خلفت هزيمة بايلين وظهور الاخطار والصعوبات التى لا تنتهى فى أسبانيا أثرا عميقا فى أوربا الوسطى . فتبادر الى ذهن البعض فى بروسيا والنمسا معا أن الوقت قد حان لقيام ثورة عامة ضد الحكم الفرنسى . ان هذه الثورة لم تحدث ، ولكن نابليون لم يكن غافلا عن الاخطار التى لم تكن بادية للعيان . وان من شؤم طالعه — بل

ان ذلك قدر محتوم على من كان فى مركزه ـ ان كل نصر يحققه كان يضيف الى متاعبه ويجلب فى طياته أسباب قيام حرب أخرى . وثمة فكرتان رئيسيتان كانتا تسيطران على سياسة نابليون فى تلك الفترة هما : الحرب فى أشد عنفها ضد بريطانيا ، وقيام تحالف وثيق بينه وبين روسيا . وكانت الفكرتان مرتبطتين احداهما بالأخرى أشد الارتباط فى ذهنه . كان لايزال يؤمن بامكان القضاء على قوة بريطانيا البحرية والتجارية بهجوم غير مباشر . ورغبة منه فى اقناع العالم برسوخ سلطانه ، والحيلولة دون نشوء أية حركات جديدة ضده فى ألمانيا ، دبر اجتماعا مع القيصر اسكندر فى « ايرفورت » . فكان الاجتماع مشهدا يسجل ذروة مجده ، ففيه استعرضت فرنسا لا قوتها العسكرية فحسب وانما أيضا عظمتها العلمية والأدبية والفنية والمسرحية . وظهر القيصر والامبراطور الفرنسى أمام الناس بمظهر الأصدقاء الحميمين ، واحتشد أمراء اتحاد الراين وملوكه لتحية الرجل العظيم الذى منه تلقوا ألقابهم واستمدوا سلطانهم . ووافق الكثيرون من قادة الفكر فى ألمانيا على الحضور ، وكان بينهم «جوتة» الذى وجد نابليون واسكندر متسعا من وقتهما لزيارته فى «فيمار» . وقد أنعم نابليون عليه وعلى الشاعر والروائى العجوز « فيلاند » بوسام « جوقة الشرف (١) » . لقد نظم اجتماع ايرفورت تنظيما خلابا وكان فرصة لاعلان الولاء للفاتح الفرنسى بصورة قوية التأثير فى النفوس .

وقد أنجزت وسط تلك الولائم والاحتفالات والعروض المسرحية ، أعمال جدية كثيرة أو بذلت المحاولات لانجازها . وفى هذا المضمار لم يكن نجاح نابليون عظيما بنفس الدرجة . لقد كان تاليران أبرز عملائه ، ولئن كان ثمة شك فى أن تاليران قد خانه فى تيلسيت فلاشك

(١) Legion of Honour

مطلقا فى أنه خانه فى ايرفورت . ذلك أنه كان موقنا من أن سلطان سيده مزعزع ، فحاول أن يضمن لنفسه الحماية اذا ماسقط ، وذلك بافشاء أسرار الدولة الى روسيا بل والى النمسا أيضا . وقد حاول نابليون بادىء الأمر أن يبهر القيصر بالتلويح له بانضمامه (أى نابليون) اليه فى هجوم مشترك على ممتلكات سلطان تركيا بغية تقسيم أراضيه . ثم انتقل من ذلك الى ابداء الرغبة فى أن ينضم اليه القيصر فى مقاومة جميع الحركات التى من شأنها أن تهدد سلطان فرنسا فى أوروبا الوسطى . وهنا لم يتمكن من الحصول على أى شىء نهائى قاطع من القيصر . لقد كان التحالف بين نابليون واسكندر غير طبيعى حقا . فقد كانت تفصل بين الرجلين وبلديهما هوة سحيقة . ورغم الاحضان والمجاملات التى تبادلاها فى ايرفورت ، فقد بدأت العلاقات بين الرجلين فى الفتور ، وتسللت الى مراسلات نابليون مع القيصر ومندوبيه نبرة من الحنق والشك . كانت الأرض تهتز فى كل مكان تحت أقدام الامبراطور الفرنسى . وقد فقد حيال القوى الجديدة التى أخذت تدخل الحلبة — قوى الفكر والدين والمصلحة الاقتصادية — الكثير مما عهد عنه من صفاء البصيرة . فلم يعد يملك قدرته على « تمييز الممكن من غير الممكن » ، ولم ير علاجا للأمور الا باستخدام القوة العسكرية ، فى وقت كان الموقف فيه مستعصيا على الحلول العسكرية . وأحس نفسه محوطا فى الداخل بولاء فاتر أو خيانة فعلية . ولم يكن تاليران بالخائن الوحيد ، فقد كان هذا على صلة وثيقة بفوشيه رئيس شرطة نابليون العظيم . فلما وصلت أنباء البلايا التى حلت بفرنسا فى أسبانيا ، اتفق الاثنان على التدابير التى تتخذ فى حالة سقوط نابليون . وقد نمى الى علم نابليون من ذلك ماحفزه الى اقصاء تاليران نهائيا من دائرة أعوانه المقربين . ولكن العثور على الاخلاص الصادق صار أمرا متعذرا . وأخذ ماريشالاته الذين

أسبغ عليهم الكثير من نعمائه يتأهبون للتخلى عنـه . وتفشت روح أشبه بالخيانة بين أفراد عائلته أنفسهم .

ومن العجيب أن تلعب النمسا دورا رئيسيا فى هذا العصر الذى اتخذت فيه المقاومة ضد فرنسا شكل الحركات الشعبية والقومية ، ذلك أن الملكية النمساوية كانت النقيض على التمام للقومية ، ولسوف تلقى مصرعها آخر الأمر بانتصـار القومية . بيد أن دافع امبراطور النمسا الى العمل لم يكن الانتصار للقوميـة ، فان صلح برسبورج الذى وقعته بلاده مع فرنسـا بعد موقعة أوسترلتز ، قد تركها دولة لا حول لها ولا قوة فى أوروبا ، وقد شعرت بأن نوايا نابليون تشكل خطرا جديدا عليها . فظهرت فيها حركة احياء كانت أشبه بانعكاس باهت لما يجـرى فى برلين . وأعيـد النظـر فى نظام الجيش . وقام الأرشيدوق شارل والكونت أوف ستاديون بالدور الرئيسى فى هذه العملية ، بل لقـد وافق الامبراطور والامبراطورة نفسـاهما على استثارة ولاء شعبهما على نحو ما . وبدأت المفاوضـات مع كل من بروسيا وروسيا . وقد زود تاليران المفاوضين بمعلومات مشجعة .

حزر نابليون ماتفعله النمسـا فسبقها الى اعلان الحرب عليهـا . وراح يصف الصراع المقبل بأنه غير ذى أهمية ، ويتحدث عن النمسا وجيوشها بازدراء « لسوف ألطمها على أذنيهـا الاثنتين فتشـكرنى وتسألنى عما عندى من أوامر » . ولكن جهوده لاجتذاب القيصر الى التعـاون الصـادق قد ذهبت أدراج الرياح . لم يكن بوسع القيصر حقا أن يرفض التزام الوعد الذى بذله فى ايرفورت ، ولكنه أشعر القادة النمساويين بأنه لن يوجه اليهم ضربة قوية .

وأظهرت جيوش النمسا المزدرى بها مقاومة مستميتة تفـوق كل ما واجهه نابليون من قبل . حقا ان الفرنسيين قد انتصروا بسهولة فى الجـزء الأول من حملتهـم على بافاريا وتمـكنوا من الاطاحة

بالنمساويين واخراجهم من ديارهم محملين بخسائر فادحة فيما عرف باسم « حملة الأيام الخمسة » رغم أن هؤلاء كانوا يحاربون تحت قيادة الأرشيدوق شارل الذى سيثبت فيما بعد أنه غريم لا يستهان به لنابليون . ولكن الأمر اختلف عندما اقترب نابليون من فيينا . فقد أسفرت محاولته الأولى لعبور الدانوب عن نشوب موقعة « أزبرن » Aspern العنيفة الدامية فى مايو ١٨٠٩ ، وفشلت فى تحقيق غايتها . فسرت — سريان النار فى الهشيم — اشاعة تصف الموقعة بأنها بايلين جديدة ، وتردد أن الفرنسيين قد هزموا هذه المرة تحت قيادة نابليون نفسه ولكن نابليون درس الموقف بعناية قصوى وهيأ لساعته القوارب والكبارى اللازمة وخدع النمساويين فى أمر النقطة التى يزمع عبور النهر منها فكان أن عبره فى أمان . ثم تلت ذلك فى يوليو ١٨٠٩ معركة « وجرام » التى أظهر فيها الطرفان استماتة واصرارا فجاءت النتيجة نصرا كاملا للفرنسيين ، وقد اعتبرها البعض آية براعته الفنية . ولكن عدد القتلى من الجانبين كان هائلا . لقد أخذت صعوبة اخضاع العدو تتجلى أكثر فأكثر بعد كل نصر ، فقد راح يتعلم بسرعة أساليب نابليون نفسه . وفى هذا قال نابليون عندما شاهد تنظيمات العدو فى احدى المعارك التالية « لقد تعلم هؤلاء الأغبياء شيئا » . والحق أن عملية التعلم كانت قد بدأت فعلا وكان نابليون المعلم الأعظم الاوحد لجنود أوروبا . كما أن الجيوش الفرنسية كانت قد فقدت شيئا من صفاتها القديمة ، فلم تعد جيوشا فرنسية بمعنى الكلمة . فقد كانت تحارب بين صفوف الفرنسيين ، أعداد ضخمة من الجنود القادمين من اتحاد الراين وايطاليا . وكان هؤلاء على حظ من الكفاية والشجاعة ولكنهم يفتقرون الى التلقائية والاندفاع اللذين تميزت بهما قوات الامبراطور فى حروبه الأولى . لقد أصبح نابليون الآن هو الذى يستخدم قوات مرتزقة فى جوهرها ،

وأصبح يصادف مقاومة تصطبغ ، بصورة متزايدة ، بالصبغة القومية.
ولم تجد محالفة القيصر له نفعا بالمرة فقد امتنعت القوات الروسية
عن الاشتباك فى أى قتال حقيقى .

وقد قبل النمساويون ، على نحو غير متوقع بعض الشىء ، صلحا
مهينا بعد موقعة واجرام . فقد استشير فى الأمر السياسى النمساوى
العجوز « ثوجو » Thugut فأشار بالاستسلام . وقد روى أنه
قال « اعقدوا الصلح بأى ثمن فان وجود الملكية النمساوية يتعرض
للخطر ، وانحلال الامبراطورية الفرنسية ليس أمرا بعيدا . ففقدت
الامبراطورية النمساوية نتيجة لذلك ثلاثة ملايين ونصف مليون من
رعاياها ، وتعين عليها أن تخفض جيشها الى ١٥٠٫٠٠٠ رجل ، وأن
تدفع تعويضا حربيا كبيرا . وقد نزلت لنابليون عن معظم ما يعرف
الآن بكرواتيا ودالماشيا وسلوفينيا تحت اسم « المقاطعات الايليرية » .
وآلت دوقية وارسو الى ملك سكسونيا (صلح شونبرون . أكتوبر
١٨٠٧) . لقد حاق بالنمسا نفس الاذلال البالغ الذى حاق ببروسيا ،
ولسوف يأتى انتقامها ونصرها فى نفس الوقت .

وثمت حوادث ثانوية توضح لنا حالة أوروبا بأفضل مما توضحها
المعارك الكبرى . فقد ظهرت — رغم اصرار الحكومة البروسية على
التزام السكينة — حركات فردية تدل على مدى تهيؤ بروسيا لخوض
غمار حرب التحرير ، فألف الميجر « شيل » Schill كتيبة من
الفرسان ، واذ فشل فى الحصول على التأييد فى الداخل اندفع الى
« سترالسوند » متوقعا من انجلترا عونا لم يجىء أبدا . وقامت حركات
أخرى من نفس النوع فى ألمانيا ، ولكن الروع الذى أدخلته فى
النفوس الأسلحة الفرنسية وموقعة واجرام أدى الى اخمادها جميعا .
أما حرب التيرول فكانت لها خطورة أشد وأبلغ . فقد كانت التيرول
جزءا من ممتلكات النمسا التى نزلت عنها لبافاريا ، ولما جاءت الحرب

هب أهالى التيرول لنصرة حكامهم القدماء من الهابسبورج ، فكان الصراع الذى دار أشبه بصورة مصغرة للحرب الأسبانية ، اذ كان يحدو الفلاحين حب للاستقلال وكراهية دينية لفرنسا . وكان أبرز قادتهم « اندرياز هوفر » وهو صاحب نزل ذو ملكات بدنية وذهنية فذة . وقد أثبت أهالى التيرول أن التغلب عليهم فى قلب بلادهم الجبلية المنيعة أمر بالغ الصعوبة . ذلك أن ثورتهم كانت ثورة شعبية حقيقية . ولم تكن الهزيمة فى المعارك لتترك أثرا كبيرا فى نفوسهم ، بيد أنهم غلبوا على أمرهم بعد موقعة واجرام بسبب تفوق الفرنسيين العددى الهائل ، فألقى القبض على اندرياز هوفر وأعدم فى مانتوا . ولكن النذر أخذت تتجلى للكثيرين فى أوروبا .

الفصل الثامن
نكبة نابليون

ان الحوادث العسكرية التى سنتناولها الآن بالنظر تؤلف فصلا من أقوى الفصول الدرامية فى التاريخ العسكرى لأوروبا الحديثة ، اذ يتعين علينا أن نقلب فى سيرة الاسكندر الأكبر أو هانيبال لنجد حروبا حافلة بالمصالح الشخصية والعسكرية والقومية كتلك الحروب التى شاهدت سقوط نابليون ونهايته . ولكننا ـ تمشيا مع الأغراض العامة لهذا الكتاب ـ سنمر على قصة القتال مر الكرام جاعلين اهتمامنا الأول اعطاء فكرة ما عن القوى التى عملت على سقوط الفاتح العظيم .

ان ماوصف به أحد ملوك فرنسا السابقين من أنه كان « ذا أعوان مخلصين » ، لا ينطبق على نابليون . حقا انه كان له فى المراحل الأولى من حياته العملية أعوان أكفاء فى الحرب والسلم على السواء بل انه هو نفسه أبدى غيرة من الشهرة التى نالها نفر منهم ، ولكن الكثيرين من هؤلاء قد أخذوا يتسللون من جانبه كلما تقدم به العهد وازداد عدد أعدائه اثر كل نصر ، بل لقد شرعوا يفكرون فى التفاهم مع أعدائه . ولقد رأينا ذلك فى سيرتى تاليران وفوشيه ويمكننا أن نشاهد نفس الاتجاه بين جنوده . لقد أصبح برنادوت مثلا واحدا من ألد أعدائه فى أواخر عهده . وبرنادوت هذا جندى من جنود الجمهورية لم يرحب بصعود نابليون الى السلطة العليا فى انقلاب بروميير ، ولكنه تقبله كحاكم جديد لفرنسا ، وأدى خدمات جليلة تحت رئاسته . ورغم أن طريقته فى قيادة المعارك قوبلت فى بعض الأحيان

بالنقد اللاذع ، فقد كسب الثراء والمجد والألقاب ، ورفع بعد معركة أوسترلتز الى رتبة الأمير ، فبدا أن مصـــيره قد ارتبط ارتباطا وثيقا بمصير الامبراطور .

الا أن أحد تقلبات الدهر العجيبة حملته الى عرش السويد وجعلت منه زعيما لأعداء فرنسا . وكان أهالى السويد قد لعبوا دورا كبيرا فى حروب أوروبا فى القرن السابع عشر وأوائل القرن الثـــامن عشر ، ولكنهم أنهكوا مواردهم وتعرضوا فى ربع القرن الأخير للكثير من القلاقل الداخلية . فقد وقعت فى السويد فى ١٧٨٩ حوادث تشـــبه الثورة ، أدت الى اعادة توكيد سلطان الملكية الذى كاد يكون مطلقا . غير أن الملك جوستاف الثالث لم يلبث أن قتل فى ١٧٩٢ ، ولم يقترن عهد ابنه جوستاف الرابع الا بالفشل فى الداخـــل والخـــارج . وفى ١٨٠٩ جاءت ثورة أخرى أدت الى خلع الملك ، واحلال عمه محله فى الحكم باسم شارل الثالث عشر ، ونظرا لأن هذا الاخير لم يكن قد أنجب أطفالا فقد وقع الاختيار على أحد أعضاء البيت المالك الدانمركى ليخلفه .

كانت أحوال البلاد تعسة ، فقد أرغمها نابليون على الاشتراك فى « النظام القارى » ، فحرمت بذلك من جانب كبير من تجـــارة بحـــر البلطيق التابع لها قانونا ، وجلبت على نفسها فى الوقت ذاته عـــداوة بريطانيا ، وعلى أثر معاهدة تيلسيت سلمت فنلنـــدة الى روســـيا ، وألحقت النرويج بتاج الدانيمرك كسابق حالها لعدة أجيال . ولما توفى فى ١٨١٠ ولى العهد الذى وقع عليه الاختيار منذ فترة وجيزة ، أمل أعضاء الدييت فى أن يوفقوا الى اختيار يعود على البلاد بمكاسب تجارية وربما اقليمية أيضا . وقد وقعوا فى خطأ غريب اذ حسبوا أنهم قد يتمكنون ، اذا ما اختاروا أحد ماريشالات نابليون ، من اقنـــاع

الامبراطور بالموافقة على تخفيف وطأة « النظام القارى » لصالحهم .
وقد كانوا يتطلعون على أية حال الى كسب عطف الدولة العسكرية
الكبرى الوحيدة فى أوروبا ، ومن ثم فقد عرضـوا العـرش على
برنادوت ، فقبله وحكم البلاد فى النهاية باسم الملك شارل جون ، وان
كنا سنستمر فى الاشارة اليه باسم برنادوت .

كان هـذا الاختيار خطأ من النوع الذى تنبنى عليـه الروايات
الفكاهية . فقد كان « النظام القارى » هو محور سياسة نابليون ،
فلم يكن من المستطاع بحال اقناعه بالتخلى عنه بمحض ارادته . ثم انه
كان غير متيقن من اخلاص برنادوت ، فنظر الى ارتقائه العرش بشىء
من الغيرة . وهكذا أدى ذلك الاختيار لا الى صداقة فرنسا المنشودة
بل الى دخول السويد فى صراع مرير معها .

ولنعد الى فرنسا ونابليون . اننا لا نجد الآن فيه أثرا كبيرا لبطل
الثورة العسكرى القديم والقائد السابق لجيوش فرنسا الوطنية فى
حربها ضد « رايات الطغيان الدموية » ، فقد أصبحت جيوشه تضـم
أشتاتا من الجند ، ينتمون الى قوميات مختلفةويخدمونه جميعا بحكم
الضرورة وحدها . ولم يقترن حكمه فى الداخل الا بظـل باهت من
الحرية الدستورية . وقد راح يفاخر بصداقته لقيصر روسيا المستبد
ولا يخفى اعجابه به . والأكثر من ذلك أنه استغل نفوذه عقب صلحه
الاخير مع النمسا ليحصل لنفسه على زوجـة نمساوية تحـل محـل
جوزيفين التى طلقها مؤخرا ، لا لأسباب شخصـية وانمـا لاسباب
سياسية آملا فى أن تهيىء له زيجتـه الجديدة وريثـا للامبراطورية
وتضمن له تأييد النمسا لمشروعاته . وهكذا أتت النعيسة مارى لويز
من فيينا الى باريس ، وحملت للامبراطور ولدا ، وسرعان ماشاهدت
نهيار مجده . وأصبح نابليون بهذا الزواج زوجا لابنـة أخى مارى
انطوانيت ملكة فرنسا التى أعدمت بالمقصلة .

لقد تغير الموقف فى أوروبا ولكن هذا التغير لم يأت مطلقا وفق ما يشتهى نابليون . لقد كانت الفرصة الوحيدة لدوام « التسوية الأوروبية » التى وضعها نابليون ، هى فى كسب تأييد الرأى العام الأوروبى لها باعتبارها نظاما جلب معه انتصار مبادىء الثورة الفرنسية . ولكن لم تظهر أية دلائل على ذلك التأييد ، بل أخذ الرأى العام يتجه الى مناوأة نابليون بصورة متزايدة ، وأخذالشعور القومى يقوى ويشتد وقد أكسبته الصعوبات الاقتصادية التى سببها وعبء الخدمة العسكرية الاجبارية التى فرضه على الجميع ، عداء حتى أشد الناس ميلا اليه . وظلت الحرب الأسبانية مستعرة الاوار ، وقبل أن يتمكن نابليون من الانصراف اليها بكل قواه وطاقته جاءه من الشرق خطر أشد وأكبر .

كان تحالفه مع روسيا هو الأساس الذى تقوم عليه سياسته الجديدة ، وجزءا لا يتجزأ من خطته ضد بريطانيا ، فاذا به الآن يواجه لا محالفة روسيا بل حربا ضدها . ان العلاقات بين نابليون واسكندر لم تتصف قط بالاخلاص والصدق ولا حتى وسط مظاهر الاحتفال فى أرفورت . وكان التحالف بينهما خلوا من عنصر الاستقرار ووحدة الهدف (١) فلم يكن نابليون راغبا فى حقيقة الأمر الا فى استخدام القيصر فى تحقيق أغراضه الخاصة وتعزيز مركزه الشخصى فى أوروبا . وكانت للقيصر بطبيعة الحال وجهة نظر مختلفة ، وسرعان ماظهرت أسباب عديدة للاحتكاك . فالقيصر لم يمد لنابليون يد المعونة الحقيقية ابان الحرب النمساوية الأخيرة ، فى حين كان فى استطاعته — على الارجح — أن يمنع نشوب الحرب لو شاء . كما أنه لم يبد أى

---

(١) « والمشكلة فى أساسها هو من يستحوذ على القسطنطينية ؟ » هكذا كتب نابليون فى (٣١ مايو ١٨٠٨) : وهذا هو احد أسباب الخلاف بينه وبين اسكندر .

استعـداد لقبول محاصرة بريطانيا والتعاون فى تنفيـذها ، بل على العكس من ذلك كان معروفا أن التجارة البريطانية يسمح لها بدخول روسيا ــ سرا ــ فى الوقت الذى تفرض فيه ــ علنا ــ تعريفةجمركية عالية على البضائع الفرنسية التى ترد الى روسيا . ولا كانت شكاوى القيصر من نابليون بأقل عدداً أو أضأل شأنا . فان زواجـه بأميرة نمسوية كان ينم فيما يبدو عن ميل الى التطلع الى تأييد النمسا بدلا من روسيا . كما أنه لم يراع المواطن الحساسة عند روسيا فى أمـور أجل وأخطر . فعندما ضم هولندة وشمال غرب ألمانيا فى ١٨١٠ كى يسد الباب فى وجه التجارة الانجليزية ، احتل فيما احتـل دوقيـة أولدنبورج التى كان ولى عهدها صهرا للقيصر ، فكان أن غضـب القيصر بطبيعة الحال . وثمة مسألة أخرى كانت أقرب الى حـدود روسيا وأخطر شأنا . فقد أدمج نابليون معظم الأراضى البولندية التى حصل عليها من بروسيا ــ ومن النمسا فيما أسماه « دوقية وارسو ». كانت الحكومة الروسية دائما حساسة بصفة خاصة لمـا يجـرى فى بولندة ، فقد كان بين رعاياها ملايين البولنديين الذين قد تترك فكرة الاستقلال أثرا غير مستحب فى مخيلتهم . ولقد وعد نابليون بأن اسم بولندة لن يعود الى الظهور على الخريطة ، ولكن دوقية وارسو لم تكن سوى بولندة تحت ستار واه . فاستاء القيصر أبلغ الاستياء من سياسة نابليون البولندية ، ولعل المسألة البولندية كانت أهم أسـباب النزاع جميعا .

لم يكن فى مقدور الدبلوماسية أو التحكيم أن يحولا دون وقوع الصدام . فاذ أخذ الاستياء يتحول الى عداوة راح كل من الجانبين يعمل كالمحموم لانشاء المحالفات والحصول على التأييد العسكرى . لقد أبقى الخوف قلب أوروبا فى ركاب نابليون ، ولكن أحدا لم يكن ليجهل أن النمسا وبروسيا ستفلتان من قبضته ساعة الهزيمة . وقدمت

روسيا العروض للبولنديين على أمل كسبهم الى صفها ، ولكن هؤلاء كانوا الشعب الوحيد الذى تطلع بعين الحماسة ، الى الأمـل فى نصر فرنسى جديد يحقق حلمهم فى قيـام مملـكة بولنـدية مستقلة . وقد صادفت روسيا نجاحا أكبر مع دول الشمال ، فاكتسبت الى صفها برنادوت حاكم السويد الجديد بأن وعدته بالسماح له بضم النرويج . فبـات يعـد — من الآن فصاعدا — ألد أعداء نابليون ، وقد جلب معه للحلفاء خبرة قيمة بطبيعة الجيش الفرنسى وأساليبه . وعقـدت بريطانيا معاهدة مع السويد وروسيا وقدمت — كعادتها — مساعدات مالية . على أنه كان للقيصر حلفاء أثمن حتى من السويد أو بريطانيا ، فبعد المسافة وقسوة المناخ وقلة كثافة السكان وقوة الشعور الوطنى فى روسيا — كانت أعداء لا يقوى نابليون على قهرها .

وفى آخر يونيو ١٨١٢ اجتاز الجيش الأعظم نهر نيمن مقسما الى أربع فرق رئيسية قوامها حوالى ٦٠٠٫٠٠٠ رجـل ، فبدأت بذلك عملية غزو روسيا . لقد كانت القوات الغازية هائلة العدد حقا وإن لم تكن أضخم قوات جمعت تحت قيـادة واحـدة حتى ذلك الزمان ، وسيشهد التاريخ فيما بعد جيوشا تجاوزت هذا الرقم بكثير . وكانت قوات القائد الروسى باركلى أقل من نصف القـوات الفرنسـية ، فانسحب أمامها . وقد زحف نابليون حتى بلغ فيتبزك Vitebsk التى تقع على وجه التقريب فى منتصف مسافة الخمسمائة ميل الفاصلة بين نهر نيمن وموسكو . وهناك راودته فكرة التوقف لتنظيم شئون المنطقة الشاسعة التى تركها له العدو ولكن الاخطار كانت محـدقة به من كل جانب ، ثم أن الأمل فى تسوية جميع مشاكله باحراز نصر كبير واستسلام القيصر له قد أغراه بالمضى قدما فى زحفـه نحـو موسكو . وكان جيشه قد نقص نقصا خطيرا بسبب المرض وفرار الجند واضطراره الى اقامة الحاميات فى المناطق التى يمر بها . وقد

صمم الروس الآن على القتال . وحل كوتوزوف محل باركلى ، ووقف الجيش الروسى متربعا على ضفتى نهر برودوين (سبتمبر ١٨١٢) وجاءت نتيجة المعركة الدامية التى تلت نصرا لنابليون اذ انسحب الجيش الروسى وترك الطريق الى موسكو مفتوحا تماما ، ولكن خسائر نابليون بلغت ٤٠٫٠٠٠ رجل ، بينما كانت خسائر الروس أقل من ذلك . وبعد فترة وجيزة دق نابليون أبواب موسكو متوقعا الظفر باستسلام رسمى . ولكن هذا الاستسلام لم يأت ، فدخل مدينة مهجورة خاوية على عروشها ، وعسكر فى الكرملين قصر القياصرة التليد ، فبدا أنه بلغ فى تلك اللحظة ذروة انتصاراته .

على أن نابليون كان يعلم كم كان ذلك النصر وهميا . فان رسالة لم تصله من سان بطرسبورج . وقد نشب فى موسكو حريق هائل — ليس بطريق المصادفة — فأتى على كميات قيمة من مؤن الرجال والجياد . ولعله كان فى استطاعة نابليون أن يقضى الشتاء بموسكو ثم يعود الى أوروبا عندما يأتى الربيع بدفئه وطعامه . ولكن ذلك المسلك لم يكن ليخلو من الاخطار على أية حال ، ثم ماذا عساه يحدث فى أوروبا أثناء غيبة نابليون ؟ . لقد بات واضحا أن هذه الحرب ليست حربا ضد الجيوش أو الحكومات ، وانه قد أصبح عليه أن يقاتل الشعوب . فما ان وصلت الأنباء الى باريس حتى انشقت الصدور عن صيحة واحدة « أنها حرب أسبانية أخرى ! »

لقد بدأ الانسحاب فى ١٩ أكتوبر . وكان نابليون يأمل فى أن يشق طريقه الى أقصى الجنوب ، وأن يعود من طريق تتوفر له فيه المؤن ، ولكن كوتوزوف سد هذا الطريق فى وجهه عند جاروسلافتز وتمكن من صد هجمات الفرنسيين . فاضطر نابليون للرجوع الى نفس الطريق الذى سلكه فى زحفه على موسكو وكان قد جرده تماما مما فيه من مؤن . فكان ذلك كفيلا بالقضاء الأكيد على جيشه . وقد حل

الشتاء الروسى فى ٥ نوفمبر . وكان الجيش الفرنسى قد خسر عدة آلاف من الجند بسبب البرد والمرض والفرار . ولكن أبشع ما فى الأمر لم يكن قد أتى بعد . فقد قدرت خسائر نابليون عند بلوغه نهر نيمن فى ١٣ نوفمبر بـ ١٧٠,٠٠٠ قتيل . وهذا كل ما يسعنا أن نذكره عن هذه المأساة التى لا يكاد يوجد لها نظير فى التاريخ .

لقد استمعت أوروبا الغربية بدهشة يشوبها عدم التصديق للانباء الآتية من موسكو . ولكن ما ان اتضح أن نابليون قد كابد هزيمة حاسمة وخسائر كفيلة بأن تشل من حركته حتى سرت فى النفوس هزة عامة سرعان ما اتخذت شكل المقاومة الواسعة النطاق . ودخلت الجيوش الروسية ألمانيا تحت قيادة القيصر نفسه ، وفى صحبته « شتاين » المصلح البروسى الذى أقصته عن بروسيا أوامر نابليون ، والذى راح يدعو الآن الى المقاومة الوطنية باعتبارها واجبا أساسيا . ولم ييأس نابليون بحال من استعادة قواه بعد نكبته فى روسيا ، فأخذ يدعو فرنسا أن تبذل له أقصى ما تملك من الرجال والمال . ورغم أنه لم يكن هناك استعداد عام لاطاعته ، ورغم أن روح التمرد قد تحركت فى لافندية وجهات أخرى من البلاد ، وأن القصص قد ترددت عن رجال هشموا أسنانهم أو بتروا ابهامهم للتهرب من الخدمة العسكرية الا أن الخطر العظيم الذى كان يهدد فرنسا ، واعتزاز البلاد بانتصارات نابليون العسكرية قد فعلا الأعاجيب . فارتفع عدد جنوده الى نصف مليون من جديد عام ١٨١٣ . وكان هؤلاء من الشبان الذين لا يضارعون محاربى الجيش الأعظم القدامى ، ولكن « ناى » NEY وسيده راحا يكيلان المديح لهؤلاء المجندين الشبان وينوهان بقوة احتمالهم وشجاعتهم . وطفق نابليون يحلم مرة أخرى بصلح يفرضه على أوربا بالنصر الكامل . فلئن فرط فى جزء لأدى ذلك الى التفريط فى الكل ، فى حين أن النصر سيتيح له استعادة ما فقده فضلا عن الاحتفاظ بما فى

يديه . وكان يأمل فى ابقاء بروسيا الى جانبه باستعراض قوته ، ويحسب نفسه آمنا جانب النمسا بسبب زواجه بمارى لويز والتفاهم الذى تم بينه وبين مِترنيخ ، ذلك المستشار الداهية الذى استقر فى الحكم منذ ١٨١٠ . صمم اذا نابليون على ألا يتنازل عن شىء — مع أن التنازلات الكبيرة للنمسا كان يمكن أن تؤدى الى بقائها مخلصة للتحالف مع فرنسا — وعقد العزم على الاحتكام للسيف . لم يكن بوسعه بعد أن يصدق أن السيف قد انكسر بين يديه ، على أنه فى الواقع لم يعد نابليون القديم نفسه ، فقد أصبح بدينا يغلب عليه التعب فى بعض الأحيان بل وفى اللحظات العصيبة . لقد ظل حقا متمتعا بقوة الارادة الهائلة نفسها ، ويسود الاعتقاد بأن براعته التكتيكية والاستراتيجية لم يعتورها أى نقصان ، ولكنه فقد على أية حال الكثير من مرونة ذهنه ، ولم يعد يتمتع بتلك القدرة على الادراك السريع لحقائق الموقف التى عرف بها من قبل .

ولم يكن فردريك وليم ملك بروسيا على مثل استعداد شعبه لحمل السلاح . فقد كانت لديه خبرة مريرة بثقل ضربات نابليون ، فتردد فى منازلته من جديد . ولكن البلاد كانت تزخر بالحماسة . فقد اكتسبت رابطة الفضيلة The Tugendbund العديد من الأنصار ، ولعبت القصائد والأناشيد الوطنية التى ألفها ارندت وكيرنير وغيرهما دورا كبيرا فى الهاب مشاعر الشعب . وكانت هنالك كذلك قوى أعظم شأنا فى مؤخرة الصورة . فقد أمدت اصلاحات شتاين كيان بروسيا السياسى بحياة جديدة ، وهيأ لها اصلاح شارنهورست للجيش قوة قوامها ١٥٠٠٠٠ رجل .

وقد جاءت أول حركة فى بروسيا ضد الفرنسيين بالرغم من ارادة الملك . فقد كان الكولونيل يورك Yorek يحاصر الروس فى ريجا

كحليف للفرنسيين . فلما بلغته أنباء نكبة الفرنسيين فى روسيا ، رفض على مسئوليته الخاصة مواصلة الحصار ضد أولئك الذين كان يعتبرهم حلفاء ، وعقد معهم اتفاقا أعلن بموجبه أن جيشه جيش محايد . وهذا الحياد لم يكن ليختلف فى الواقع عن مناهضة الفرنسيين . وأصبح لزاما على ملك بروسيا أن ينكر عليه هذا العمل ، ولكنه سرعان ماحذا حذوه . فقد هبت بروسيا الشرقية ثائرة من تلقاء نفسها عندما أخذت القوات البروسية تتقدم ، ودعيت الجمعية الاقليمية لبروسيا الشرقية الى الانعقاد فقررت وضع كل قواتها تحت تصرف أعداء نابليون ، فاستحال على ملك بروسيا أن يتباطأ أكثر من ذلك . ومن ثم وقع فى يناير ١٨١٣ معاهدة كاليش مع قيصر روسيا ، وتعهد كل من العاهلين بالامتناع عن عقد أى صلح منفرد ، ووعد القيصر بأن تعود بروسيا الى حدودها القديمة وأن تنال ألمانيا حريتها . وصدر بعد ذلك بقليل تصريح فحواه أن كل أمير أو شعب فى ألمانيا يمتنع عن الانضمام الى الحلفاء سيفقد استقلاله عندما يحين أوان التسوية ، وتوضع أراضيه تحت تصرف الحلفاء . وقد انحازت النمسا الى نفس الجانب ولكن ببطء أكثر ومداورة أشد . فقد أكد مترنيخ للسفير الفرنسى أن تحالف بلاده مع سيده يتجاوب مع مصالح البلدين الدائمة ، ولكنه راح يفاوض بروسيا فى نفس الوقت ، ولم يلبث أن انضم فى النهاية الى اتفاق برسلاو . وقد طورد نابليون الى غربى نهر الألب ، وسرعان ما احتل جيش التحرير هامبورج ودرسدن الواقعتين على ذلك النهر . ولم يكن حلفاء نابليون هم وحدهم الذين تخلوا عنه ، فان قواده أنفسهم أو الكثيرين منهم على الاقل قد هموا بالفرار من خدمته . فبرنادوت صار قائدا من قواد أعدائه بالفعل ولن يلبث مورا وجومينى أن ينضما الى العدو هما الآخران . أما الماريشالات الذين بقوا معه فقد باتوا ميالين الى النقد والاهمال والقنوط .

ومع ذلك فقد حقق نابليون انتصارات لاشك أنها كانت ستعد عظيمة لولا النكبات التى توالت على اثرها سراعا . فقد هزم الروس والبروسيين المتحالفين فى لتزن Lützen أولا ثم فى بوتزن Bautzen ، وكان هذان انتصارين لاريب فيهما وقد بثا القنوط فى نفس العدو ، ولكن نابليون دفع فيهما ثمنا باهظا ، كما أن أتباعه لم يعودوا ينفذون أوامره بالاخلاص والحماسة المعهودين ، فلم يكن ثمة شبه كبير بين هذه المعارك العنيفة واوسترلتز وويينا . ثم ان الحلفاء المنهزمين تراجعوا شرقا ولم يلبثوا أن أعادوا تشكيل جيوشهم وتهيأوا لمعارك جديدة .

وعلاوة على هذا فقد جاء انضمام النمسا الصريح الى الحلفاء فى تلك اللحظة العصيبة . وقد لعب مترنيخ أوراقه بمهارة فائقة وبلاأدنى ضمير . فاقترح على نابليون عقد هدنة تستمر من ٤ يونيو الى ٢٨ يوليو عام ١٨١٣ ، على أن تستخدم تلك الفترة فى التمهيد لمؤتمر عام للصلح . فقبل نابليون الاقتراح ووقع الهدنة .

ولكن هل كان الصلح أمرا ممكنا حقا فى تلك الآونة ؟ وهل كان المتفاوضان الرئيسيان جادين فى سعيهما ؟ وعلى من تقع تبعة الفشل ؟ لم يكن الموقف يسمح فيما هو واضح بحل المشكلات حلا سليما ولم يكن الجانبان راغبين باخلاص فى وقف الحرب . فمترنيخ كان واعيا للحماسة المتزايدة فى ألمانيا وللقوى التى أخذت تتجمع بسرعة ضد نابليون . أما نابليون فما برح يأمل من جانبه فى تحقيق تسوية عن طريق النصر ، اذ كان يعلم أن النصر وحده هو الكفيل بتأمين سلطانه سواء فى أوروبا أو فى فرنسا . وقد روى أنه قال لمترنيخ « ان بوسع الملوك الذين يولدون على عروشهم أن يهزموا عشرين مرة ثم يعودون ثانية الى عواصمهم ، ولكنى لا أستطيع ذلك لأننى محدث عرش » . وهذا القول يكشف لنا عن سمة لازمت نابليون فى حكمه ويفسر لنا الكثير من سياسته . وقد اقترح مترنيخ فى الاجتماع الذى عقده مع

نابليون فى درســدن ، أن تتخلى فرنسا عن معظم أراضيها فيما وراء الراين . وكانت المقابلة بين الرجلين عاصفة جدا ، وقد تحدث نابليون فى احدى لحظاتها عن العودة الى فيينا مرة أخرى على رأس جيشــه لتسـوية النزاع . بيد أنه وافق على أية حال على اطالة أمد الهـدنة وحضور مؤتمر للصلح فى براغ . على أن المؤتمر لم ينعقد فى الواقع بالمرة . فقد وجهت النمسا انذارا أخيرا الى نابليون أنف أن يرد عليه فأعلنت النمسا الحرب .

كان لدى الحلفاء مايقرب من مليون رجل مسلح . وسيجد نابليون نفســه من الآن فصــاعدا فى مواجهة خصــوم يفوقونه — فى معظم الأحوال — عددا . وما برح الأمل يراود أعداءه فى أن يتغلبوا عليه بسلسلة من الهجمات غير الحاسمة ويستنزفوا قواه بالانتصار عليه فى معركة اثر أخرى بدلا من هزيمته مرة واحدة هزيمة كبرى . ومع ذلك فان الحرب التى دارت بين الجانبين تمثلت فى معركتين كبريين احداهما تستحق أن تدرج فى عــداد أعظم انتصــاراته ، والأخرى تعد أخطر هزائمه بل هزيمته الوحيدة التى لم يفق منها .

قرر نابليون أن أعداءه سيعمدون الى مهاجمته ، فسبقهم اليهـا وأحرز نصرا كاملا . ولو أن مثــل ذلك النصر قد حـدث فى أيامه الأولى لمضى قدما بهمة نارية ولربما حسم به الحرب فى ألمانيا . ولكنه بدا الآن عاجزا عن تحمل الارهاق المتواصل على النحو الذى عهد منه فى شبابه . كما أن ضباطه فشلوا فى تعزيز خططه ، فأدت هزيمتهم فى عمليات خمس متوالية الى التعفية على آثار معركة درسدن تقريبـا . وحققت الديبلوماسية كذلك مكاسب هامة لأعدائه . فقد ألح مترنيخ فى ضرورة التفاوض مع أمراء اتحاد الراين ، فكان أن عرض عليهم الاستمرار فى الحكم وفى التمتع بألقابهم بعد الصلح ان هم انضموا لتوهم الى الحلفاء . قد أسف شتاين لهـذا العرض على اعتبــار أنه ينطوى على تضحية بجميع الآمال المعقودة على انشاء ألمانيا المتحـدة

عند عقد الصلح . وقد قبل العرض معظم هؤلاء الأمراء . وانضمت بافاريا الى صفوف الحلفاء . ولم تبق على الاخلاص لنابليون سوى سكسونيا وحدها تقريبا .

وفى تلك الآونة عبر بلوخر والبروسيون نهر الألب ، وأصبح نابليون فى درسدن فى مركز يصعب الذود عنه فتراجع غربا . وفى ١٦ أكتوبر ١٨١٣ بدأت معركة ليبزج Leipzig أو « معركة الشعوب » كما سميت . ودار القتال فيها طوال ثلاثة أيام ، ولم يكن كله فى صالح الحلفاء . وقد بلغت الخسائر حوالى ١٣٠٫٠٠٠ رجل منهم حوالى ٥٠٫٠٠٠ من الفرنسيين . أفلتت فلول الجيش الفرنسى من الطريق الوحيد الذى بقى مفتوحا أمامها بينما يمم نابليون بالبقية الباقية من قواته شطر الراين ، فحاول جيش قوامه ٥٠٫٠٠٠ رجل معظمهم من البافاريين ايقافه عند « هناو » ولكنه أزاحه من طريقه بسهولة . ووصل الجيش الفرنسى الى الراين فى أول ديسمبر ، وقد فتك المرض به فتكا لا يكاد يقل عما فعل به السيف الألمانى . وسرعان ما استسلمت الحاميات التى خلفها نابليون وراءه فى ألمانيا ، وعددها حوالى ١٩٠٫٠٠٠ رجل ، فلم يبق أثر لسلطان نابليون شرقى الراين . وكانت الجيوش الفرنسية قد سحبت كلها تقريبا من أسبانيا ، فدخل ولنجتون فرنسا مظفرا من الجنوب .

وأصبح على فرنسا أن تواجه الآن أهوال الغزو التى أذاقتها بلادا كثيرة ، وان لم تعرفها هى نفسها منذ ١٧٩٣ . كانت فرنسا قد سئمت الحرب ، وتبددت كل أحلامها بالانتصار على العالم ، ونضب معينها من الرجال ، ولحق الخراب بتجارتها . وكان الاهتمام بشئون السياسة قد تضاءل تضاؤلا عجيبا ابان السنوات العشر الأخيرة ، اذ كانت تحركات الجيوش تستأثر بانتباه الناس جميعا . ولكن الأذهان بدأت تسترجع وهى تتبع عودة الامبراطور مهزوما الى فرنسا مبادئها القديمة . وتجاسر بعض الأحرار على النطق مرة أخرى بشعارات

الثورة . ورأى الملكيون — بعد أن خابت آمالهم مرارا وتكرارا — أن الفرصة سانحة لعودة آل بوربون الى الحكم . وأصدر «لويس الثامن عشر » فهذا هو الاسم الذى صار يطلقه جميع الملكيين على شقيق لويس السادس عشر الذى حارب الثورة باسم الكونت دى بروفانس — أصدر نداء يحث فيه الفرنسيين على النظر الى الحلفاء الغزاة نظرتهم الى الأصدقاء ، ويعدهم بتخفيض الضرائب واحترام الحقوق المكتسبة فى الأرض ، ويمنيهم بالسلم والعفو ، ولم تبدطبقةالأشراف القديمة أى تردد فى العودة الى فرنسا فى صفوف الغزاة واتخذت الدعوة الى اعادة آل بوربون شكلا علنيا فى فرنسا . ومع ذلك فقد ظل هناك قدر طيب من الحماسة للامبراطور . اذ كان يمثل ، فى نظر الكثيرين على الأقل ، قضية الدفاع عن أرض الوطن . وقد بقى للحكومة من القوة أو الشعبية ما مكنها من جمع ٣٥٠٫٠٠٠ جندى من شتى أنحاء البلاد . فما كان نابليون ليسقط دون صراع .

ان عبقرية نابليون العسكرية كاستراتيجى لم تتجل قط بأوضح مما تجلت فى تلك الحرب التى دارت فوق أرض فرنسا . ومن الجائز أن الغزاة كانوا يأخذون الأمور ببساطة مفرطة وأنهم قدروا دون ماروية أنه ليس فى امكان الفرنسيين ابداء مزيد من المقاومة . ومن الجائز كذلك أن الحكمة والوطنية كانتا تقضيان بأن يعترف نابليون بأن لا مفر من الهزيمة فيوفر على فرنسا غوائل هذه الحرب الجديدة واستثارة المزيد من سخط الحلفاء . غير أن المرء لا يملك الا أن يعجب بتلك الأعصاب الثابتة والارادة القوية التى بدا فى وقت من الأوقات أنها قد تحيل الهزيمة الى نصر . فقد هزم نابليون بلوخر مرتين وألحق به فى المرتين خسائر فادحة . وبدا لفترة من الوقت أن جيش الحلفاء برمته يتعرض فعلا لخطر الدمار اذ فقد الجنود ثقتهم بأنفسهم فى حضرة الفرنسيين وقائدهم العظيم ، ورفض جيش يبلغ عدده ضعف عدد الفرنسيين الاشتباك فى القتال . فبدا كما لو أن انتصارات فالمى

ستتكرر على نطاق أضخم بكثير ، وغدا الامبراطور شخصية شعبية محبوبة من جديد . وزادت فظائع الغـزاة البروسيين والروس من احساس الشعب بضرورة الدفاع عن البلاد ، فكان أن ووجه الحلفاء الغزاة بمقاومة شعبية بمعنى الكلمة . وهب الفلاحون فى أقاليم كثيرة وقد أثارت حفيظتهم فظائع الغزاة ومظالمهم ، هبوا يحملون السلاح على نحو يذكر المرء بالحرب فى لافنديه . وبدا أن الائتلاف يتعرض حقا للانهيار .

وقد أبدى الدبلوماسيون نشاطا فى تلك الشهور لا يقل عن نشاط العسكريين .

بيد أن من الأمور النادرة أن تجد حربا ــ أثيرت فيهـا مشـاعر المتحاربين الى درجة عنيفة ــ تنتهى بالمفاوضات قبل أن يصدر السيف قراره الى درجة بعيدة . وقد دارت مفاوضات بقصدتسوية الأمور (فى مناسبتين) . ففى المناسبة الأولى استقبل مترنيخ مندوبا لنابليون فى نوفمبر ١٨١٣ ، واقترح عليه أن تتخلى فرنسا عن جميع الأراضى التى غزتها فيما عدا بلجيكا وكل ما يقع بين حدود الراين والألب ، ولعل الاخلاص كان مفقودا من الجانبين ، فاستمرت الحرب كما أسلفنا . وكانت المناسبة الثانية هى المؤتمر الذى عقد فى شاتيون عندما أثبت نابليون أنه مازال بوسعه أن يشكل خطرا كبيرا . وكان الاقتراح الذى قدم هذه المرة هو تخلى فرنسا عن بلجيـكا وعن كل الأراضى التى كسبتها شرقا وجنوبا وعودتها الى حدود ماقبل الثورة ، وأبديت بعض الآمال فى أن تسترد بريطانيا جانبا من مستعمراتها التى سلبت منهـا أثناء الحرب ، ولكن كل الآمال لم تلبث أن تبددت ، ولم يبق مفـر من الاحتكام للسيف .

أظهر نابليون فى الحملة الأخيرة جسارة وأملا ، فقد أحرز أكثر من نجاح ، ولقى فى بعض المواقف تأييدا رائعا من رجاله . ولكن مركزه

كان مزعزعاً من أساسه ، فقواته كانت تعـانى من الارهاق والاعياء ، حين كان العدو يملك احتياطيا هائلا من الرجال ، وخططه كانت تقوم على افتراض أن باريس ستقاوم ، ولم تكن باريس فى مزاج يســمح لها بالمقاومة . ولما وضع نفسه بحركة جريئة فى مؤخرة الحلفاء ، استقر رأيهم آخر الأمر على أن الشجاعة آمن من الحذر ، فاندفعوا لايلوون على شىء نحو باريس . وكان الامبراطور قد تنبأ بامكان وقوع هجوم على باريس ، فأرسل أوامره بنقل الحكومة الى اللوار . ولكن أوامره لم تعد تنفذ الآن باخلاص ساعة ضعفه . وقد نقلت الامبراطورة ومعها ابنها الذى علقت عليه الآمال أن يواصل أمجاد الامبراطورية ، ولـكن جوزيف أخا نابليون بقى فى المدينة ودارت معـركة خارج باريس ، تداول فيها الطرفان النصر والهزيمة بعناد وخسرا فيها أرواحا كثيرة ، ثم سلمت المدينة . وقد راودت نابليون فكرة مواصلة الحرب خارج باريس . ولكنه تبين استحالة تنفيذ خطته . اذ أن ماريشالاته كانوا قد سئموا القتال وأصبح استعدادهم لاطاعة الأوامر أقل من استعداد الكثيرين من عامة الجند . وأخيرا وقع نابليون فى ٦ ابريل وثيقة تنازله عن العرش — ونصها « نظرا لأن الدول المتحالفة أعلنت أن الامبراطور نابليون هو العقبة الوحيدة فى طريق اعادة اقرار السلم فى أوروبا ، فان الامبراطور نابليون وفاء منه للقسم الذى أداه يعلن تنحيه هو وورثته من بعده عن عرش فرنسا وايطاليا ، فما من تضحية شخص — حتى الجـود بالحياة نفسهـا يضـن بها لصالح فرنسا » . ويظن أنه حاول الانتحار . وبعد أسبوعين ودع حرسه القديم وداعا مؤثرا وانزوى عن الأبصار فى جزيرة البا حيث سـمح له بالاحتفـاظ بلقب الامبراطور الأجوف وما يقترن به من المراسم .

أدى سقوط نابليون الى تسوية بعض المشاكل ولكنه خلق مشاكل أخرى تبين أنها عويصة للغاية . فمن الذى يسند اليه الحكم فى فرنسا ، وبأى حق ، وبأية وسيلة ؟ وما العمل فى الأراضى الأوروبية الشاسعة

التى كان يحكمها نابليون أو يمارس فيها نفوذا حاسما ؟ لقد عادت الى الظهور — بانحسار الطوفان — الكثير من المعالم القديمة ، ولكن بعض هذه المعالم كان قد انمحى تماما والى الأبد . وقد اشتركت فى البت فى هذه المشاكل قوى مختلفة ولكن ثمة شخصيتين طغتا على من عداهما . فلم يكن بين صفوف الحلفاء من يضاهى نفوذا اسكندر قيصر روسيا الذى كان شخصية غريبة محيرة .

كان الفرنسيون والأجانب يتزلفون اليه زلفى لا حد لها ، وكان هو يتذبذب بين المثل الانسانية والدينية من ناحية والأغراض الأنانية والروسية من ناحية أخرى . وفى الجانب الفرنسى كان تاليران بعد سيرته العجيبة ، يعقوبيا ثم رجلا من رجال الامبراطورية البارزين ، ومنفذا لخطط نابليون مشمولا بثقته ، ثم خائنا له ولما يبرح خدمته ، قد أصبح الآن الرجل الوحيد الذى له فيما يبدو كلمة مسموعة بين ساسة فرنسا المترددين . أما كاسلرى وولنجتون وسائر الساسة الانجليز فان شأنهم كان أقل فى ذلك الحين من هذين الرجلين .

وقد ترددت لحل المشكلات فكرتان هما اقامة وصاية على ابن نابليون الطفل أو نقل التاج الى أحد ماريشالاته وظلت الفكرتان قيد البحث بعض الوقت ، ولكن الرأى استقر فى النهاية على اعادة أسرة البوربون متمثلة فى شخص لويس الثامن عشر : وقد حاز هذا الحل موافقة جميع الحلفاء لاستناده الى مبدأ الشرعية . فكان أن اجتمع مجلس الشيوخ الذى كان هيئة عاجزة ، هى تقريبا كل ماتبقى من دستور برومبير ، وبتوجيه تاليران أعلن المجلس الذى كان يضم بين أعضائه عددا ممن صوتوا فى يوم من الأيام لاعدام لويس السادس عشر ، أن « الشعب الفرنسى يدعو فى حرية لويس ستانيسلاس اكسافير دى فرانس شقيق الملك الراحل الى اعتلاء العرش » . وذيل المجلس دعوته ببعض النصوص الدستورية تأمينا لمبادىء الثورة . كانت اثنتان وعشرون سنة قد انصرمت منذ اختفاء البوربون من أرض

فرنسا ، وكان عدد أولئك الذين لا يزالون يعتزون بذكراهم ضئيلا .
ولم يكن لفرنسا فى مجموعها يد فى المسألة ، غاية ماهنالك أن باريس قد قبلت قرارا هو فى حقيقة الأمر من املاء جيوش الحلفاء فكان أن سويت المسألة وعاد الى باريس لويس الثامن عشر . وقد خيب هـذا الملك الآمال بتحفظه الممجوج وادعائه للحق الالهى وقلة عرفانه بالجميل لأولئك الذين أعادوه الى العرش ، وبروده على الأخص فى معـاملة القيصر . وقيل ان بعض القوات قد أصرت على ترديد الهتاف « بحياة الامبراطور » عند دخول موكبه الرسمى الى باريس !

لقد قدر لفرنسا اذن أن يحكمها لويس الثامن عشر ، وان أنشـأ البعض منذ تلك اللحظـة يتساءلون عن المدة التى سيكتب له فيهـا البقاء . ولكن استنادا الى أى حق سوف يحكمها وداخل أية حدود ؟ لقد جاءت الاجابة عن السؤال الأول عندما « منح » لويس الثـامن عشر الشعب الفرنسى دستورا ينظم أسلوب الحكم تجلى فيه اصراره على الاستناد الى « حقه الالهى » واعطاء الشعب من الحريات مايراه مناسبا فقط . أما التسوية العامة للحدود فقد رأى الحلفاء تأجيلهـا ريثما ينعقد المؤتمر الذى اختاروا فيينا مكانا له . ولكن الاتفاق تم قبل اجتماع المفوضين فى فيينا على رجوع فرنسا الى الحدود التى كانت عليها عام ١٧٩٢ أى حدودها قبل أن تبدأ حروب الثورة ، مع بعض التعديلات الطفيفة التى كانت كلها تقريبا فى مصلحتها . كمـا اتفق على أن تمثل فرنسا فى فيينا اذ لم يكن بوسع الحلفاء أن يترفعوا عن معاملة ملك وضعوه بأنفسهم على عرش فرنسا معاملة الند للند ، ولكنهم حصلوا من الملك الفرنسى قبل اجتماع الدبلوماسيين فى فيينا على وعد قاطع بقبول جميع قراراتهم .

وسوف نتناول فى الفصل التالى أهداف هؤلاء الدبلوماسيين الذين اجتمعوا فى فيينا ودسائسهم ومشاكلهم . وحسبنا هنا أن نقول انهم بينما كانوا منصرفين الى البحث عن حل ما وسط الخصومات العنيفة

التى وصلت فى لحظة من اللحظات الى حد التهديد بخطر نشوب حرب جديدة ، وردت أنباء عودة نابليون الى فرنسا فكان لها فى المؤتمر دوى القنبلة وقلبت مباحثاتهم رأسا على عقب . وكانت الاشاعات التى مرت عن الخلاف بين الدول حول المسألة السكسونية البولندية قد شجعت نابليون على القيام بمغامرته الكبرى . كما أوحت اليه الأنباء التى أتته من فرنسا بأن عودته ستكون موضع ترحيب الكثيرين . فبالرغم من أن حكومة لويس الثامن عشر لم تكد تبدأ عملها الا أن طبيعتها العامة كانت بادية للعيان . فقد اقترنت فى الأذهان بفقدان الأراضى التى فتحها نابليون ، فآذت بذلك كبرياء الشعب الفرنسى . وكان الأشراف المهاجرون قد بدءوا فى العودة وراحوا يتصايحون مطالبين باعادة أراضيهم المصادرة . فأحس الفلاحون ، وهم الذين ما برحوا يشكلون قوة لها أهميتها البالغة فى قاعدة البنيان الاجتماعى فى فرنسا ، بأن أملاكهم مهددة . وتفشى السخط كذلك بين جنود نابليون سواء منهم الذين ظلوا فى الخدمة أو الذين فصلوا . فالكثيرون ممن سرحوا لم يتمكنوا من العثور على العمل . كما عين ديبون الذى كان أول من أثبت باستسلامه فى بايلين أن الحاق الهزيمة بجيش من جيوش نابليون أمر ممكن ، عين وزيرا للحربية فأثار ذلك استياء الجنود البالغ . وهكذا انتشرت همهمات التذمر ، وان لم يكن ثمة ماينبىء عن كل هذا التوفيق الخارق الذى كان فى انتظار نابليون عند وصوله الى فرنسا .

لقد كان نفيه الى البا بلقب هام وبلاط أشبه باللعبة ، ضربا من السخف . اذ كانت مراقبته أمرا مستحيلا فى حين أنه كان فى وضع لابد وأن يرغب فى الهروب منه . فلما لم يدفع له الدخل الذى وعد به وجد فى ذلك الحجة التى تعوزه فتسلل من البا ، وهبط أرض فرنسا بالقرب من أنتيب على الساحل الجنوبى للبلاد . ولم يكن له من سند يذكر سوى اسمه وذكريات عشرين عاما ، ولكن هذه ثبت أن فيها

الكفاية كل الكفاية .فالحكومة الجديدة لم تكن قد ضربت لها جذورا فى الأرض ، ودول أوروبا التى هزمت نابليون لم تكن قد رأت ضرورة اتخاذ الاجراءات اللازمة لمساندة الملكية التى أعادتها الى الحكم . فكان أن هجر الجيش خدمة لويس الثامن عشر بالجملة تقريبا ، ورحب السواد الأعظم من الشعب بمقدم نابليون . وعاد « ناى » الذى وعد، حين كلف بالذهاب لمقاومته ، باحضاره الى باريس « فى قفص » ، عاد واحدا من أنصاره وقواده . فاضطر الملك وأخوه والأشراف المهاجرون الى استئناف « أسفارهم » من جديد !

ونحن نعلم أن التوفيق قد خان نابليون فى هذه المعركة الأخيرة . ولكن من التسرع بمكان أن نفترض لهذا سببا أنه لم تكن أمامه فى الحقيقة أية فرصة للنجاح . ذلك أنه كان يملك جيشا ضخما متحمسا زاد من عدده رجوع اعداد غفيرة من الأسرى من روسيا . ثم ان مؤتمر فيينا قد أظهر بجلاء عنف المنازعات الكامنة وراء الانسجام الرسمى للحلفاء . فلو أن نابليون تمكن من احراز نصر كبير لكان من المحتمل أن يعرض على خصومه شروطا معتدلة مدروسة ، ولم يكن قبولهم لها محالا . بيد أنه كانت هناك خصائص ثابتة فى حياة أوربا تجعل من عودة أيام مارنجو وأوسترلتز وفينا أمرا بعيدا عن التصور . فقد استيقظت أمم أوروبا ، ولم تعد الحكومات فى كافة أنحائها تلك الأجهزة العاطلة من الحياة على النحو الذى كانت عليه قبل الثورة الفرنسية . بل صارت تتمتع بتأييد شعبى حماسى ضخم . وغدت أوربا تحارب فرنسا بنفس أسلحتها . ثم ان التأييد الذى لاقاه نابليون فى فرنسا لم يكن بحال خالصا من التردد والشكوك . فما ان مرت لحظة الهوس الأولى حتى لم يبق فى فرنسا الا القليلون ممن هم على استعداد حقيقى لتأييد فكرة عودة نابليون الى الحكم بنفس الطريقة التى كان يحكم بها فى عام ١٨٠٥ . وقد أحس نابليون بحالة الرأى العام فأصدر مرسوما بتأليف مجلسين تشريعيين أحدهما ينتخبه الشعب ، واقرار

مبدأ حرية الصحافة ومسئولية الوزراء أمام المجلسين . ثم طرح ، بالرغم من أن مهمة تنظيم قوته العسكرية كانت تستدعي كل اهتمامه ، الدستور الجديد للاستفتاء . ولم يذهب الى صناديق الاقتراع الا مليون ونصف من الناخبين . ولكن التأييد الذى ناله من أغلبية كبيرة أضفى عليه مظهر الحاكم الدستورى . ولو أنه عاد بعد ذلك مظفرا من بلجيكا لما ترك الدستور على حاله فى أغلب الظن ، فكل شيء كان متوقفا على نتيجة المعركة .

وقد ألفى نابليون نفسه بلا حليف فى أوروبا . حقا ان « مورا » ملك نابولى قد جمع جيشا وراح يحاول كسب مشاعر الايطاليين لعلمه بأن مؤتمر فيينا سوف يطرده من عرش نابولى . ولكن نابليون كان يؤمن بأن تصرف مورا من شأنه المساس بفرصه هو فى النجاح ، ولم تلبث هذه الحركة الايطالية أن أخمدت على أية حال . وقد رحل نابليون الى جبهة القتال فى ١٢ يونيو ، راميا الى توجيه ضربة سديدة الى الجيشين البريطانى والبروسى قبل أن يتمكنا من حشد قواهما ، فأحرز نصرا محسوسا وان يكن جزئيا ضد البروسيين فى « ليني » Ligny وكان ولنجتون قد تلقى وعدا من القائد البروسى بلوخر بالانضمام اليه عند مونت سان جان فقبل الدخول فى معركة ووترلو فى ١٨ يونيو استنادا الى هذا الوعد . ولم ينقض اليوم حتى كان نابليون قد هزم هزيمة لا يمكنه أن يسترد قواه بعدها . وفى ٣ يوليو استسلمت باريس ، ولم ينقض يوم ٩ يوليو حتى استسلم نابليون وأرسل الى جزيرة سانت هيلانة .

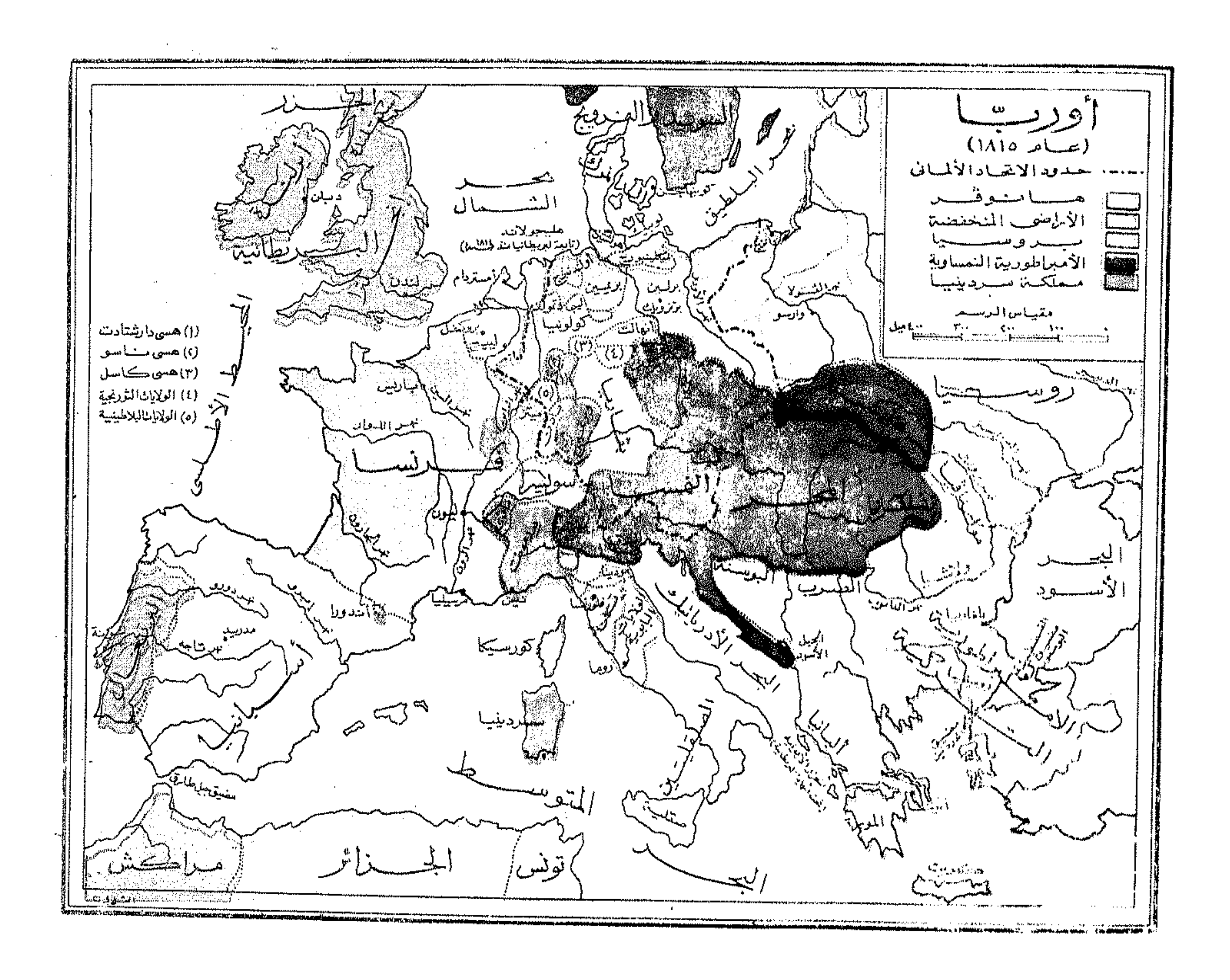
لقد بدلت قصة حرب المائة يوم الدرامية ، من نظرة أوروبا الى الأمور وذلك الى الأسوأ بلا أدنى شك . فقد كان الحلفاء على استعداد فى ١٨١٤ لقبول الرأى القائل بأنهم يحاربون نابليون لا فرنسا . وكانوا على استعداد بالتالى لمنح فرنسا شروطا عادلة ان لم تكن سخية ، شروطا لا تفرض عليها أداء تعويضات عن الحرب

ولا تتمسك بقيام احتلال عسكرى لأراضيها . وكانت فرنسا قد بدأت تلعب فى مؤتمر فيينا بفضل براعة تاليران ، دور الند بين دول أوروبا العظمى . ولئن كان الكثيرون يؤثرون أن تعاقب عقابا أشد الا أن الجو كان يخلو اجمالا من المرارة بشكل ملحوظ . أما بعد ووترلو فقد تبدل موقف الدول . فكأنما دل الترحيب الذى قابلت به البلاد نابليون على أنها تربط مصيرها بمصيره . ففرض الحلفاء على فرنسا هذه المرة أن تدفع تعويضا قدره ٧٠٠ مليون فرنك وأن ترضخ لاحتلال عسكرى قوامه ١٥٠٠٠٠ جندى بقيادة ولنجتون . وأعيدت الى أصحابها الكنوز الغنية التى جلبها نابليون من شتى أنحاء أوروبا الى باريس ، وهذا عدل لا مراء فيه .

ولم يكن مؤكدا بادىء الأمر أن لويس الثامن عشر سوف يعاد الى الحكم . فقد ظهر اقتراحان بديلان هما فرض وصاية على ابن نابليون الطفل أو تنصيب أحد أمراء بيت أورليان . ولكن الرأى استقر فى النهاية على لويس . فان تصريحات الحلفاء السابقة والصعوبات التى لابد أن تترتب على أى اجراء آخر قد جعلت من عودته أمرا حتميا . واحتدم الخلاف حول مسألة حدود فرنسا . فألمانيا برمتها كانت راغبة فى ضم جانب من الأراضى الواقعة على حدود فرنسا الشرقية . وأصبحت بروسيا الناطقة بلسان الأمة الألمانية فى المطالبة بالنزول لألمانيا عن الالزاس واللورين . ولكن روسيا وبريطانيا عارضتا فى تقطيع أوصال فرنسا . وظل القيصر اسكندر أبرز شخصية فى أوربا بعض الوقت . وقد حدته الى الدفاع عن فرنسا عاطفة الكرم التى كانت قوية وأصيلة فيه ، وكذلك شعوره بأن وجود فرنسا قوية أمر حيوى لروسيا حيال التجمعات السياسية فى أوروبا . كما حدت الاعتبارات السياسية والدبلوماسية كاسلرى والحكومة البريطانية الى اتخاذ نفس الموقف وان لم يخلوا هما أيضا من الرغبة فى الاستجابة الى نداء العدالة . وعلى هذا ظلت أراضى فرنسا على ماكانت عليه

قبل بدء الثـورة فيما عدا بعض الاستثناءات الطفيفة . وكان الألمان مندفعين بصفة خاصة فى مناوأتهم لفرنسا ، وقد قوومت مطالبهم بصعوبة ولكنها قوومت على أية حال . فلم تسلم الألزاس واللورين ولم ينسف كوبرى يينا كما أوقفت عمليات النهب التى انصرفوا اليها فى الأقاليم الواقعة تحت احتلالهم .

لقد كانت النية الصريحة لأولئك الذين حاربوا فرنسا هى مقاومة الثورة ومبادئها واعادة النظام القديم الذى قوضه نابليون . فشاع الظن بأن العاصـفة التى اجتاحت أوروبا طوال مايقرب من ربع قرن سوف تنتهى ، وأن القارة سوف تستأنف حياتها وغاياتها وأسـاليبها القديمة . ولم يكن ديبلوماسيو ١٨١٤ — ١٨١٥ فى مزاج يسمح لهم بالاستفادة من الفرصة العظيمة المتاحة لهم لاجراء التجارب الاجتماعية والسياسية والعمل على اعادة بناء أوروبا على أسس جديدة .فكلمات الحرية والاخاء والمساواة والديموقراطية والتقدم والانسانية كانت كلها كلمات لها ارتباطات خطرة فى الأذهان . ولكن سرعان ما سوف يتبين للجميع أن التحكم فى القوى التى ربطت نفسها بعجلة الثورة الفرنسية، ليس بمثل هذه السهولة . فقد كان المأمول أن تخمد روح الحماسـة والانطلاق المتمثلة فى هذه القوى ، وأن يعود التوازن الدولى . ولكن التاريخ يسجل — رغم جهود ساسة ١٨١٥ لاعادة أوروبا القديمة — ظهور أوروبا جديدة من غمار تلك الأحداث .



أوربا
(عام ١٨١٥)
حدود الاتحاد الألماني
هانوفر
الأراضي المنخفضة
بروسيا
الأمبراطورية النمساوية
مملكة سردينيا
مقياس الرسم
(١) هسى دارمشتادت
(٢) هسى ناسو
(٣) هسى كاسل
(٤) الولايات الثورنجية
(٥) الولايات البلاطينية
النرويج
السويد
بحر البلطيق
بحر الشمال
هلجولاند (تابعة لبريطانيا منذ ١٨١٥)
الجزر البريطانية
دبلن
لندن
أمستردام
برلين
كولونيا
وارسو
روسيا
فرنسا
باريس
سويسرا
ليون
البحر الأسود
الصرب
البوسنة
البحر الأدرياتيكي
ألبانيا
المورة
كورسيكا
سردينيا
روما
مدريد
المتوسط
البحر
مراكش
الجزائر
تونس

الجزء الثاني

من الحكومة العالمية إلى الثورة

١٨١٤ – ١٨٤٨

الفصل التاسع
إخفاق الحكومة العالمية
١٨١٤ — ١٨٢٥

أعقبت هزيمة نابليون فترة طويلة من السلم بين الدول العظمى ، وهو سلم من ميزاته أنه لم يكن يرجع الى الارهاق وحده . وقد بدأت هذه الفترة بقيام محاولة من جانب دول أوروبا العظمى للوصول الى اتفاق بناء من أجل السلام ، وهى أعظم محاولة بذلت من نوعها فى تاريخ أوروبا حتى ذلك الحين ، ولها من الأهمية الكبرى مايحفزنا الى اعتبارها ، عن حق ، بداية عهد جديد فى العلاقات الأوروبية . ولا ينبغى أن يعمى انهيار هذه التجربة الدولية أبصارنا عن ضخامة نتائجها فان حربا عظمى لم تحدث فى أوروبا طوال قرن كامل ، ولم تنشب أى حرب لها أهمية تذكر حتى ١٨٥٣ ، وظلت التسوية الاقليمية الأساس الذى قامت عليه الحياة السياسية الأوروبية طوال ثلاثين عاما . أما نظام حكم العالم فى مؤتمرات[1] ذلك النظام الذى تحطم قبل نهاية العقد الأول ، فقد خلف من بعده سنة عقد المؤتمرات الدولية التى أورثها القرن التاسع عشر للقرن العشرين .

وسر هذا الانهيار يكمن فى مجموعة من العوامل . فقد انتهجت معظم حكومات أوروبا سياسة رجعية وان تفاوت الشكل : فى النمسا بزعامة مترنيخ ، وفى بروسيا التى أنقذتها نتائج اصلاحاتها السابقة من أسوأ الغوائل ، وفى روسيا على نحو أشد وضوحا بعد أن خلف نيقولا الأول اسكندر فى ١٨٢٥ حتى أن حكومة المحافظين فى انجلترا بالقياس الى هذه الحكومات ، قد بدت حكومة ذات ميول تحررية

---

(١) Government by Congress

خطرة ، والخلاف الذى دب بين بريطانيا وحليفاتها الثلاث فى عهد كاننج لم يكن مسألة ديبلوماسية بحتة ، فثمة اختلاف جوهرى فى النظر الى الأمور كان يكمن وراء الخلافات السياسية التى أخذت تظهر بينها وبين تلك الحكومات على مائدة المؤتمرات . وقد كان لبريطانيا بوصفها صاحبة نظرية الملكية الدستورية أنصار فى فرنسا والأراضى الوطيئة ، وفى اليونان والبرتغال وأسبانيا ، وكان الصراع الداخلى بين الأحزاب فى تلك البلاد يهيىء الفرص للمنافسات الديبلوماسية . فاذا ماتوغلنا الى أعماق البنيان السياسى الأوروبى ألفينا قوى عظمى هى قوى القومية والسخط الثورى تشق طريقها من آن لآخر الى السطح . فنشطت الثورات فى ايطاليا وأسبانيا وفى اليونان وبولندة وبلجيكا ، وان لم تنجح الا فى اليونان وبلجيكا . أما فى ألمانيا والنمسا فكانت كامنة تنم عن نفسها فى صورة حوادث وقلاقل لاحرب صريحة، حتى جاء « عام الثورات » فحول مجرى الأمور فى أوروبا . ان المسئولية الرئيسية فى فشل هذه المحاولة التى قامت بها مجموعة من الدول العظمى لايجاد سلم دائم يجب أن تعزى فى المحل الأول الى أولئك الذين مثلوا دور « كبار كهان الرجعية » ، وفى المحل الثانى الى أولئك الذين ساقتهم غيرتهم القومية وحماستهم للاتجاهات التحررية الى العمل على اصلاح الأمور بطريق العنف . كما يجب أن تلقى بعض المسئولية كذلك على كاهل ساسة بريطانيا المتتابعين الذين انتهجوا سياسة استحال معها الاحتفاظ بوحدة المتحالفين .

ذلك أن الدول الأربع العظمى : النمسا وانجلترا وبروسيا وروسيا، دخلت آخر الأمر فى محالفة عظمى بموجب معاهدة شومون (٩ مارس سنة ١٨١٤ (١) . فقد تعهدت الدول الموقعة على تلك المعاهدة بتوحيد

(١) أن تاريخ « أول مارس ١٨١٤ » الوارد فى الوثيقة وهمى ولا سند له من الحقيقة .

جهودها فى محالفة مدتها عشرون عاما . واتفق رأيها أولا على اسقاط نابليون ثم الحيلولة دون عودته هو أو أسرته الى فرنسا ، وأخيرا على ضمان التسوية الاقليمية التى تضعها الدول المتحالفة لمدة عشرين عاما . وكانت المشادات بين النمسا (مترنيخ) وروسيا (اسكندر) قد كثرت الى حد جعل الاتفاق بينهما أمرا عسيرا ، والفضل فى تحقيق هذا الاتحاد والاتفاق انما يرجع الى نفوذ كاسلرى . وقد كان أثر المحالفة مباشرا ؛ فقد قرر الحلفاء ولما ينقض شهر مارس اعادة آل بوربون الى فرنسا . واحتلوا باريس بالفعل . وفى أوائل ابريل تنازل نابليون عن حقه وحق أسرته فى العرش ، فجلس الحلفاء ليشكلوا خريطة أوروبا من جديد وفقا لأهوائهم .

ولم تكن مهمتهم سهلة ميسرة . فقد كانت عودة البوربون الى فرنسا فى « متاع الحلفاء » سببا فى كراهية الفرنسيين للويس الثامن عشر . حتى ان البعض قد صوره فى صورة كاريكاتورية ممتطيا جوادا الى جانب أحد القوزاق ، والأخير يدوس على جثة فرنسى . ذلك أنه ظهر ، بوضع يده فى يد الحلفاء ، بمظهر من يحط من المجد الذى كسبته فرنسا فى عهد نابليون . ولم تتصف تصرفاته بالحذر ، فلئن كان قد أعلن حقا دستورا للبلاد فانه قد أكد بعض التوكيد نظرية « الحق الالهى » البائدة التى تشرب الفرنسيون مقتها . كما بدأ أتباعه عهدا من « الارهاب الأبيض » ضد أنصار نابليون فأخذوا يعملون فيهم السلب والتقتيل . أما الجيش الذى كان مفخرة فرنسا فقد خفض عدده تخفيضا كبيرا وفصل منه عدد كبير من قواده العظام وعدد أكبر من جنوده الممتازين . والكنيسة التى هاجمها كل ذلك النفر الغفير من الفرنسيين ، ردت الى مايشبه سلطانها وتعصبها القديم ؛ والأدهى من هذا كله أن الحلفاء طلبوا من لويس الثامن عشر الموافقة على انقاص رقعة فرنسا . لقد كان المثل الأعلى الذى اعتنقته الثورة واعتنقه

نابليون هو أن فرنسا يجب أن تحقق حلم الدبلوماسية الفرنسية القديم بتوسيع أراضيها حتى تصل الى حدودها الطبيعية فتضم بلجيكا والضفة الغربية للراين . وقد تحقق هذا المثل الأعلى ، وحازت فرنسا تلك الأراضي مايربو على العشرين عاما . وهاهي ذي الآن تطالب بتسليمها .

أما الحلفاء فلم يضيعوا وقتا فى الزام فرنسا بأداء تلك التضحيات . ففى ٣٠ مايو وقعت معاهدة باريس الأولى ، وفيها روعيت فرنسا القدر الذى تسمح به الظروف — وان لم يكن بالقدر الذى يرضى مشاعر الفرنسيين الوطنيين — فلم ينزع سلاحها ولا هى طولبت بدفع تعويض حربى أو رد روائع الفن التى نقلتها من ايطاليا وألمانيا . ولم يتقرر أن تعود حدودها فى أوروبا الى ماكانت عليه عام ١٧٨٩ ، وانما الى ماكانت عليه فى ١٧٩٢ ، بل انها حصلت على بعض الأراضى فيما وراء تلك الحدود . على أنه رؤى أن تظل جزيرة مالطة التى غزاها نابليون ثم انتزعتها منه انجلترا فى أيدى البريطانيين . أما خارج أوروبا فقد عوملت فرنسا معاملة أقل سخاء . فمع أنه قد سمح لها بالاحتفاظ بجميع مراكزها وامتيازاتها التجارية فى الهند ، الا أنها أرغمت على اخلاء جميع حصونها ، والنزول لانجلترا عن جزيرة موريشيوس وهى قاعدة بحرية فى طريق الهند . على أن الحلفاء أعادوا اليها جزيرة جوادیلوب الغنية ، ومعظم ممتلكاتها الأخرى فى جزائر الهند الغربية . أما توباجو وسانتا لوتشيا (اللتان كانت لهما أهمية استراتيجية كبرى) فقد نزلت عنهما لانجلترا ، كما نزلت عن جزء من سان دومنجو لأسبانيا . واحتفظت لنفسها بحقوق الصيد التى كانت لها فى سانت لورنس وعلى سواحل نيوفوندلاند . لقد نقصت حقا امتيازات فرنسا العسكرية فى مستعمراتها ، ولكن ثروتها التجارية ظلت عمليا دون مساس ، ولو شاء الحلفاء لحرموها جميع مستعمراتها بلااستثناء .

وقد أعلنت الدول العظمى فى البنود العلنية لمعاهدة باريس الأولى عزمها على اعادة هولندة الى الوجود مع توسيع أراضيها ، وتشكيل اتحاد ألمانى مستقل ، والاعتراف باستقلال سويسرة ، وتشكيل ايطاليا جديدة تتألف من دول ذات سيادة خارجية عن حدود تلك الأقاليم التى تقرر عودتها الى النمسا . وتضمنت البنود السرية للمعاهدة ، ولا حاجة بنا لأن نتوقف عندها الآن ، المزيد من تفاصيل هذا التخطيط الأولى العام للأراضى الذى بنيت عليه تسويات فينا .

فقد تم الاتفاق بين الحلفاء على الاجتماع فى مؤتمر يعقد بفينا فى الخريف للاتفاق على أساس لتسوية الأوضاع فى بقية أنحاء أوروبا (خارج فرنسا) . ولكنهم رتبوا أمرهم فى غيبة فرنسا ودون أن يضعوها فى الحساب ، بيد أن هذه لم تلبث أن طالبت بالاشتراك فى مباحثات فينا بعد أن رد اليها اعتبارها وغفرت لها ذنوبها وأصبحت مرة أخرى دولة ملكية قريبة الصلة بالنموذج القديم للدول الأوروبية . حضرت فرنسا المؤتمر للصيد فى الماء العكر والعمل لحسابها الخاص ، وتمكن ممثلها تاليران بالفعل من تعكير المياه بنجاح كبير ، فاشتبكت روسيا وبروسيا فى ناحية فى عراك عنيف مع النمسا وانجلترا فى ناحية أخرى . وهنا تقدم تاليران يمسك الميزان بيديه ويستخدمه لصالح فرنسا . وأخيرا بلغت الخلافات فى فينا فى بداية ١٨١٥ درجة خطيرة حدت بفرنسا والنمسا وانجلترا الى تأليف حلف دفاعى لمقاومة مطالب روسيا وبروسيا (١) . وقد أسفرت هذه الخطوة المتطرفة عن نتائج

(١) وقع هذا الحلف العجيب فى ٣ يناير سنة ١٨١٥ ، والمفروض أنه كان من الوجهة الرسمية سريا لا يعلم عنه شيئا القيصر اسكندر وملك بروسيا بيد أنهما علما قطعا بفحواه فى وقت عقده . فكان لذلك أثر فورى ملحوظ تماما على سياستهما . وكان محور الخلاف بين الكتلة البروسية الروسية والكتلة الانجليزية الفرنسية النمساوية بسيطا ، فبروسيا كانت راغبة فى ضم سكسونيا بأكملها مقابل الجانب الكبير من الأراضى البولندية الذى كانت بصدد التنازل عنه لروسيا . وقد آزرها اسكندر فى

طيبة : فقد استسلم اسكندر فى بعض النقاط وحذت بروسيا حذوه . وكانت جميع الأمور قد سويت فى الواقع عندما فوجىء العالم بأنباء انطلاق نابليون من أسره فى البا ، وفرار لويس الثامن عشر ، واستقبال فرنسا من جديد للامبراطور الذى حكمت بسقوطه بقية أوروبا .

لقد وصفت عودة نابليون من البا ومعركة ووترلو التى تلتها بأنهما « أروع مغامرة فى التاريخ » . فوقائعهما أشبه ماتكون بالخيال ، اذ نزل نابليون أرض فرنسا على رأس قوة صغيرة وفتح صدره للجنود الملكيين فأبى هؤلاء اطلاق الرصاص عليه ، ثم اجتاز نصف فرنسا دون ما صعوبة أو اراقة دماء حتى وصل فى ٢٠ مارس قصر التويلرى فدخله . فى ساعة متأخرة من الليل محمولا على أعناق الجماهير التى بلغ حماسها حد الهوس . لقد قام أعظم العسكريين الأحياء بغزوة لم تسفك فيها نقطة واحدة من الدم ، وهاهو ذا يعلن عن عزمه على أن يصبح حاكما دستوريا فى الداخل وأن يقيم علاقات السلام مع جميع الدول فى الخارج . ولكن كل شىء سيصير الى زوال ولما ينقض على عودته مائة يوم . انه لم يتجاوز بعد السادسة والأربعين ، ولا يزال

هـذا الى اقصى حـد فى حين رفض مترنيخ السماح انها بمثل هذا التوسع الضخم فى أراض ملاصقة للنمسا ، وأيده فى ذلك كاسلرى وفى النهاية تاليران كذلك . وتفاقم الخلاف حتى بلغ شفا الحرب فلم يستسلم اسكندر الا عند ايقانه من استعداد الكتلة الأخرى للقتال . وانتهى الأمر بحصول بروسيا على حوالى نصف سكسونيا لا اكثر . وقد بالغ البعض فى تصوير الدور الذى لعبه تاليران فى هذه المسألة . فالحق انه لم يخلق الخلافات بين الحلفاء ، فهى خلافات جوهرية ، ولكنه زادها اشتعالا واستغلها لمصلحة فرنسا على ان الكثير مما كسبه لفرنسا لم يلبث ان ضاع اثر عودة نابليون .

انظر كتاب س . ك . وبستر » مؤتمر فيينا ١٨١٤ — ١٨١٥ — صفحة ١٠٦ والصفحات التالية . (طبعة بل سنة ١٩٣٤)

C. K. Webster: The Congress of Vienna, 1814—15, pp. 106 sqq. (Bell, 1934).

أمامه من عمره ست سنوات أخرى . ولكنه فى مساء ١٨ يونيو سوف يمتطى جواده ويولى ظهره لووترلو وللتاريخ فى آن واحد .

وحتى لو فرض أن نابليون قد كسب المعركة فى ووترلو لما كان من المستبعد أن تسحقه الجيوش النمساوية الروسـية الزاحفة من الشرق بعد قليل . على أن هزيمته قد أنهت الأمر . ولم يبد الشعب الفرنسى رغبة فى التعلق به بعد نكبته ، فرضخ من جديد لعودة الحكم الى آل بوربون المنتفخين الخاملين . وليس لمغامرة نابليون من أهمية سوى أنها جلبت المزيد من المصائب على فرنسا . فالشروط التى فرضـتها أوروبا على فرنسا جاءت أشد وأقسى هذه المرة . اذ أجبرت على دفع تعويض حربى ، واعادة الأعمال الفنية ، والرضوخ لاحتلال قـوات الحلفـاء لأراضيها حتى عام ١٨١٨ . كما أنقصت رقعة أراضيها فى أوروبا من جديد فأعيدت لا الى حدودها عام ١٧٩٢ وانما الى حدودها عام ١٧٩٠ ، مع حرمانها من بعض المواقع ذات الأهمية الاستراتيجية على الحدود (١) . والحـق أن فرنسـا كادت ترغم على النزول عن الالزاس واللورين لولا كاسلرى وولنجتون وآراؤهما الحـاثة على الاعتدال .

واذا طرحنا جانبا الشروط الأقسى التى فرضت على فرنسا ، وجدنا أن تسوية فيينا لم تتأثر تأثرا محسوسا بعودة نابليون من البا . ولقد وقعت معاهدة فيينا بالفعل فى ٩ يونيو وقبل يوم ووترلو الحاسم ، وهى تتألف من عدة أقسام رئيسية . وخير وصف للقسم الأول هـو أنه تسوية « التوازن الدولى » . فالمبدأ السائد فيه هو حصول كل دولة عظمى على الأراضى التى كانت فى حوزتهـا عـام ١٨٠٥ أو

---

(١) سجلت هذه الشروط المشددة فى معاهدة باريس الثانية الموقعة فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٥ . أما التسوية العامة لأوروبا التى وضعتها معاهدة فيينا الموقعة فى ٩ يونيو سنة ١٨١٥ فقد تركت دون تغيير جوهرى كما سنتبين فى السطور التالية .

ما يعادلها . وقد نفذ ذلك بانصاف اذا ما استثنينا حالة روسيا التى كانت تتفاوض شاهرة السيف فى يدها فنالت أكثر مما كان يود لهـا حلفاؤها . من ذلك حصولها على جزء كبير من بولندة يشمل العاصمة « وارسو » التى استردتها من بروسيا ، واعدة بتأليف مملكة بولندية وطنية لها دستورها الخاص . وكان استيلاؤها على كل هذه السلطة وهؤلاء الرعايا ، زائدا عن الحد ومخلا بالتوازن الدولى فى نظـر كاسلرى ومترنيخ معا . وقد زاد من دواعى الانزعاج احتفاظ اسكندر بجيش يقرب عدده من مليون رجل أى حوالى ضعف العدد الذى يراه ذوو الرأى السديد لازما .

وقد طبق مبدأ التوازن الدولى تطبيقا عادلا فى ألمانيا ، وان شكت بروسيا من أن الأراضى التى حصلت عليها أقـل من تلك التى كانت تملكها عام ١٨٠٥ ، وكان هذا صحيحا ، ولكنها كانت تسيطر فى ١٨٠٥ على رقعة كبيرة من الأراضى البولندية وقد بادلت بهـا الآن نصف سكسونيا ومقاطعة الراين وهى أراض ألمانيـة الدم واللسان . ومن الغريب أن بروسيا لم تبد فى ذلك الحين حماسة خاصة للحصول على تلك الغنيمة الأخيرة التى جعلت منها فى نهاية المطاف البطلة القومية لألمانيا فى مواجهة فرنسا .

وقد وازنت النمسا نفوذ بروسيا فى ألمانيا بمنعها من ضم سكسونيا كلها كما كانت ترغب . كما أعاد مترنيخ بناء بافاريا كدولة قوية تستطيع النمسا الاطمئنان الى تعاونها . وحصلت هانوفر بفضل صلتها ببريطانيا على كسب طيب من الأراضى . أما سائر الدول الألمانية الصغرى فقد رسمت حدودها وفصلت معالمها وفق أهواء النمسا أو بروسيا . ولم يوضع أى اعتبار تقريبا لمصالحها الخاصة ، وان تكن عملية تخطيط الأراضى وتسوية الخلافات القديمة قد اتسمت — عموما — بقدر طيب من حسن الادراك والتصرف . وقد هبط العـدد الاجمـالى للدول

الألمانية الداخلة فى الاتحاد الجديد الى ٣٩ ولاية . واحتفظت النمسا بزعامة ألمانيا الفعلية وان لم تتخلف عنها بروسيا كثيرا .

والواقع أن النمسا لم تكن تهدف الى الحصول على مكاسب فى ألمانيا وانما فى ايطاليا فنالت « ولاية البندقية » واستردت لومبارديا . أما بقية الدول الايطالية فكانت توابع تسير بالفعل فى فلكها . وقد حصلت بيدمونت على جنوا الأمر الذى يساعدها على الدفاع عن شمال ايطاليا ضد فرنسا . وأعيدت الولايات البابوية الى الوجود . وأنشئت مملكة نابولى من جديد تحت حكم ملك من سلالة البوربون . ووعد ملك نابولى فى معاهدة سرية عقدت بينه وبين مترنيخ (بموافقة كاسلرى) بألا يمنح بلاده دستورا دون الحصول على موافقة النمسا . وكان مترنيخ يهدف صراحة الى تحطيم ايطاليا وتمزيق أوصالها ، ويرى فى الدستور شيئا قد يؤدى الى تحرك الثورة على آرائه . ومن هنا جاء تصرفه السالف الذكر . وقد أيد مؤتمر فيينا وأكد ماذهب اليه مترنيخ من أن ايطاليا انما هى « تعبير جغرافى » ليس الا .

والجزء الهام التالى من التسوية يخص هولندة ، وبلجيكا ؛ فقد أدمج البلدان فى مملكة واحدة تحقيقا للفكرة ذاتها ، وهى تدعيم قدرة الدول الصغيرة على مقاومة فرنسا . وأكثر من هذا أعاد كاسلرى الى المملكة المتحدة للأراضى الوطيئة مستعمرة جاوا الهولندية ذات الثروة الهائلة ، وأقرضها مليونين من الجنيهات لتحصين حدودها ضد فرنسا . وقد وصفت هذه السياسة بأنها « حكيمة وان جانبها التوفيق » . والحق أنها لم توفق بالفعل ، ذلك أن البلجيكيين كانوا يكرهون الهولنديين ، ولم يلبثوا أن انفصلوا عنهم فى مدى خمسة عشر عاما . على أن ثمة شكا فى أن كاسلرى كان يعتقد أن عروضه الاقتصادية السخية ستؤدى الى ايجاد الوفاق بين الشعبين .

واعترفت جميع الدول بسويسرة دولة مستقلة وضمنت لها حدودها واستعادت كل من أسبانيا والبرتغال حدودها القديمة فى أوروبا . أما الدانيمرك فقد حرمت من النرويج التى تقرر تسليمها الى السويد . وقد خلف هذا الاجراء الكثير من الضغينة ، اذ اضطر كاسلرى الى تهديد النرويج بالحصار حتى تستسلم . هذا الحادث فى ذاته ، وان يكن بغيضا ، لم يكن بالذى يجعل كاسلرى موضعا للملامة فى نظر الديبلوماسيين العمليين . ذلك أن السويد قد أبت فى لحظة عصيبة الانضمام الى الائتلاف ضد نابليون مالم تنل وعدا بالحصول على النرويج فاضطر كاسلرى الى دفع الثمن(١) .

كما تم الوصول الى بعض التسويات الأخرى فى معاهدة فيينا نفسها أو فيما ترتب عليها من تدابير . فتم النظر بعين الانصاف فى مطالب الأفراد الذين أصيبت ممتلكاتهم فى الحرب ، وسويت نهائيا المنازعات المنغصة الخاصة بقواعد الأسبقية والسلوك الديبلوماسى . وسن مبدأ ينظم شئون الأنهار الدولية ، الأمر الذى ستكون لهأهميته فى المستقبل . وأعلنت منافاة تجارة الرق للمبادىء الانسانية ، فحرمتها فرنسا وأسبانيا وهولندة والسويد ، ووعدت البرتغال بتحريمها . والفضل فى هذه المكاسب العظيمة للآراء الانسانية يرجع الى كاسلرى وحدة تقريبا والى حماسة الشعب البريطانى من ورائه .

ان استنكار أعمال صانعى السلام فى فيينا بوصفهم من غلاة الرجعيين المناهضين للأفكار التحررية قد أصبح من الأمور المألوفة . كان هؤلاء الساسة حقا من رجال العهد القديم الذين لم يتأثروا — الى حد كبير — بالآراء الجديدة ، ولكنهم كانوا يمثلون أفضل مافى العهد

(١) ونحن نجد مثلا يكاد يكون مطابقا تماما لهذا فى معاهدة لندن السرية (٢٦ ابريل ١٩١٥) التى حصلت ايطاليا بموجبها على تنازلات كبرى من فرنسا وانجلترا وروسيا ثمنا لدخولها الحرب . ومهما يكن من أمر فقد عرضت معاهدة كاسلرى على مجلس العموم قبل اكراه النرويج

القديم لا أسوأ مافيه ، وقد جنبت التسوية التى وضعوها أوربا أهوال حرب كبرى طوال أربعين عاما . وكانت هذه التسوية عادلة فى نظرهم فقد عوملت فيها فرنسا برأفة ، ورسمت التوفيقات الخاصة بالتوازن الدولى وتقسيم الأراضى بالدقة والأمانة التى يزن بها البدال بضائعه أو المصرفى حساباته . وروسيا وحدها هى التى كسبت نصيبا أكبر مما يقتضيه الانصاف وذلك لأنهـا كانت تملك قوات مســلحة أكبر من اللازم . وقد ضربت التسوية عرض الحائط بالمطالب الوطنية وفرضت « وحدات غير طبيعية » على النرويج والسويد ، وبلجيكا وهولندة . ولكن الشريك الأقوى (السويد وهولندة) كان فى كلا الحالتين قد طالب ، وهو الحليف ، بذلك فلم يملك حلفاؤه ردا لمطلبه . وثمة نقد أخطر شأنا ألا وهو ازدراء آراء الدول الصغرى . ذلك أن التسوية قد ضحت دون ما رحمة بالدول الصغرى لمنفعة الدول الكبرى رغم أن المفروض فيها أنهـا ترمى الى اعادة العهـد القديم واقرار الحقــوق القائمة . ولا يستطيع المرء أن يلتمس لهذا الجانب من أعمال صـانعى السلم عذرا كافيا وهذا النقد هو أخطر نقد وجه لهم .

وقد اكتمل العمل الذى بدأ فى فينا ثم عطله نابليون ، بتوقيــع معاهدتين فى باريس فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨١٥ . وقد ألزمت احداهما (وهى معاهدة باريس الثانية) فرنسا بتنفيذ التدابير الجــديدة التى فرضت عليها أثر عودة نابليون ، والرجوع الى الحدود التى كانت عليها فى ١٧٩٠ ، ودفع التعويض المقرر ، واعادة الأعمال الفنية الى العواصم الأجنبية . أما الأخرى فهى معاهدة التحالف الرباعى بين الدول الأربع العظمى ، التزمت هذه الدول بمقتضاها المحافظة بقوة السلاح ولمــدة ٢٠ عاما على التدابير التى تم الاتفاق عليها فى شومون وفيينا وباريس، سواء من حيث الحدود المرسومة أو اقصاء بونابرت وأسرته نهائيــا عن عرش فرنسا . وأخيرا اتفقت الدول الأربع فى المادة السادسة من المعاهدة على « العودة للاجتماع فى فترات محددة » لبحث المسائل

« ذات الأهمية المشتركة » . وفى هذه المادة الأخيرة تكمن نواة الحكومة الدولية المقبلة .

أما نواة انهيارها فكانت تكمن فى اعلان مهيب صدر فى ٢٦سبتمبر ١٨١٥ وكان اسكندر يسعى من ورائه الى ربط جميع أصحاب التيجان فى اتحاد مسيحى قوامه البر والسلم والمحبة . وكان المفروض أن يكون التوقيع على الاعلان للملوك وحدهم . ولم يتمكن الوصى على عرش بريطانيا العظمى من توقيعه ، وان يكن قد بعث برسالة شخصية الى اسكندر معربا عن عطفه على المعانى الواردة به ، وفيما عدا هذا الاستثناء فقد وقع الاعلان جميع ملوك أوروبا وكذلك رئيس الجمهورية السويسرية (١) . وجاء اكتسابه للأهمية من قبيل المصادفة ، اذ أصبح الأحرار الأوروبيون يعتبرونه عصبة بغيضة من الطغاة ضد حريات البشر . والحق أنه لم يكن كذلك ولا كانت له أية قوة ديبلوماسية أو أثر ملزم . فالبر والمحبة ليستا من الأشياء التى يمكن تحديدها بعبارات ديبلوماسية ، ولم يكن ثمة من أخذ « المعاهدة » مأخذ الجد سوى اسكندر نفسه . فكان كاسلرى يسميها « قطعة من الهراء والتصوف الرفيع » وكان مترنيخ يطلق الدعابات الدنسة على المسيحية اذا ما تطرق الحديث اليها . وكلاهما لم يعتبر نفسه ملزما بها على أى وجه (٢) .

---

(١) الموقعون الاصليون هم عواهل النمسا وروسيا وبروسيا . ولم يطلب احد الى السلطان العثمانى التوقيع على الاعلان وقد فكر اسكندر فى وقت من الاوقات فى دعوة رئيس جمهورية الولايات المتحدة الى ذلك .

(٢) ويمكننا ان نعقد هنا مقابلة مفيدة بين نصين (كتاب ا . هرتسلت خريطة أوروبا كما رسمتها المعاهدة ١٨٧٥) الجزء الأول ، الصفحات ٣١٨ — ٣٧٥) :

= (E. Hertslet : Map of Europe by Treaty (1875), vol. I. pp. 318,375)

أما الميثاق الذى أعترف به كاسلرى ومترنيخ فهو المحالفة الرباعية . ولكنهما اختلفا فى تفسيرها اختلافا بينا ففى رأى كاسلرى كانت انجلترا ملزمة بحماية الحدود الاقليمية التى وضعت فى فيينا لمدة عشرين عاما ، وملزمة أيضا بالاجتماع مع حلفائها فى مؤتمرات دورية، ولكنها غير ملزمة بالتدخل فى حالة قيام الثورة الداخلية فى أى بلد (فيما عدا محاولة ارجاع نابليون) . أما مترنيخ فكان يذهب الى أن المحالفة الرباعية تلزم أعضاءها بالتدخل المسلح لقمع الثورة الداخلية فى أى بلد اذا رأى المؤتمر ذلك . فلم يكن ثمة مناص من أن يصطدم الرأيان فى النهاية .

تابع «٢» من هامش الصفحة السابقة

المادة الثانية من اعلان الحلف المقدس — ٢٦ سبتمبر ١٨١٥ :

« ومن ثم يكون المبدأ الوحيد النافذ المفعول ، سواء بين الحكومات المذكورة أو بين رعاياها هو أن يؤدى بعضهم لبعض خدمات متبادلة ويؤكدوا فى نية خالصة غير قابلة للتغيير أو التبديل المحبة المتبادلة التى ينبغى ان تكون رائدهم ويعتبروا أنفسهم جميعا أعضاء فى أمة مسيحية واحدة والعواهل المتحالفون الثلاثة اذ يرون انفسهم مجرد مبعوثين للعناية الآلهية لحكم ثلاثة فروع من تلك العائلة الواحدة الا وهى النمسا وبروسيا وروسيا، انما يعترفون بذلك بأن العالم المسيحى الذى يشكلون هم وشعوبهم جزءا منه ، ليس له فى الحقيقة ملك آخر سوى العلى القدير ... »

المادة السادسة من محالفة باريس الرباعية — ٢٠ نوفمبر ١٨١٥ :

تيسيرا وضمانا لتنفيذ المعاهدة الحالية ، وتدعيما للصلات التى توحد ، فى اللحظة الحاضرة ، العواهل الاربعة توحيدا وثيقا من أجل سعادة العالم ، اتفقت الأطراف السامية المتعاقدة على استئناف اجتماعاتها فى فترات محددة سواء بتشريف العواهل أنفسهم أو بحضور وزرائهم ، بغية التشاور فى مصالحها المشتركة والبحث فى انجع التدابير لتوفير طمأنينة الأمم ورخائها فى كل فترة من تلك الفترات ، والمحافظة على السلم فى أوربا .

الا يرى المرء فى النص الأول روح اسكندر الحماسية المتصوفة الغامضة وفى الثانى روح كاسلرى العملية الجادة ؟

وقد نجحت الرقابة الدولية بعض الوقت . فأقطاب السياسة فى أوروبا كانوا يعرفون بعضهم بعضا معرفة شخصية ، وكانوا جميعا معنيين ببقاء فرنسا ساكنة ماضية فى أداء ديونها . وفى الاجتماع الأول من هذه الاجتماعات الدورية الذى عقد فى اكس لا شابل عام ١٨١٨ ، اتفق رأيهم على أن سلوك فرنسا كان مرضيا ومن ثم وجب جلاء قوات الحلفاء عن أراضيها فورا . وهكذا غفر الحلفاء مرة أخرى لفرنسا ماتقدم من ذنوبها وردوا اليها اعتبارها وسمحوا لها بالانضمام من جديد الى صفوف الدول العظمى . فكان أن ضمت الى كتلة خماسية جديدة (تتألف منها ومن الدول الأربع العظمى) ودعيت للاشتراك فى الاجتماعات الدورية التالية . على أن الحلفاء تمسكوا مع ذلك تمسكا شديدا بالمحالفة الرباعية ، فقد رأوا أنهم قد يضطرون بعد الى استخدامها للعمل ضد فرنسا .

وفى ذلك الحين تقدم اسكندر مزهوا بمعاهدة الحلف المقدس مطالبا أصحاب التيجان بالاتحاد العام ضد الثورات . وقد أراد — فيما أراد — ارسال قوة مسلحة للحلفاء لمعاونة ملك أسبانيا على اخضاع مستعمراته الثائرة فى أمريكا . فعارض كاسلرى هذا المشروع بشدة وألح على المؤتمر بنبذ فكرة استخدام القوة فى أى عمل من هذا القبيل . ولكن اسكندر راح يواصل الضغط للأخذ بمبدأ التدخل الجماعى فما كان من كاسلرى الا أن تصدى لمقاومته من جديد وانضم اليه مترنيخ هذه المرة . وأخيرا توصل الاثنان الى ارضاء اسكندر وذلك بالاتفاق على صيغة غامضة عن التضامن الأدبى ، ذلك التضامن الذى لم يكن يعنى بالنسبة لهما الا أقل القليل وان بدا فى نظر اسكندر ذا مغزى كبير .

وما برحت « الوحدة الأدبية » قائمة لمدة عامين آخرين ، حتى هبت عليها فى ١٨٢٠ عاصفة هوجاء ، اذ نشبت ثورة عسكرية فى أسبانيا راحت تطالب بدستور ١٨١٢ الديمقراطى للغاية . وتعرضت حياة

الملك للخطر فاستسلم فى النهاية لجميع مطالب الثوار . وقبل هـذا الدستور غير العملى بالمرة ، وأعلن نفسه ملكا دستوريا متحررا كل التحرر . ففزع اسـكندر للأنبـاء اذ كان يخشى الجيش ويخـاف، الديموقراطية وكلاهما قد انتصر فى أسبانيا . ولو تركت مثل هـذه الحركات تتفشى لما أصبح هناك ملك واحد آمنا على نفسه وعرشـه ولانحلت عرى الوحدة المسيحية . فمـا كان منه الا أن أصـدر بيانا دوريا أعلن فيـه أن من الواضـح أن واجب سـائر الملوك هـو الاجتماع فورا فى مؤتمر ، واستنكار دسـتور ١٨١٢ الأسـبانى ، وارسال جيش من الحلفاء لالغائه بالقوة اذا لزم الأمر ، زاعمـا أن الدول العظمى قد أقرت ذلك كله من قبل فى اعلان الحلف المقدس فى اكس لا شابل .

وازاء هذا التوسع المفرط فى تفسير تعهدات فيينا اضطر كاسلرى الى اعلان موقفه . فأصدر فى ٥ مايو ١٨٢٠ وثيقة رسمية مطولة ، اتخذت أساسا للسياسة الخارجية البريطانية فى القرن التاسع عشر[1]، صرح فيها بأن انجلترا لم تتعهد الا بالحيلولة دون عودة نابليون أو

---

(١) طبع النص الكامل لأول مرة فى مجموعة «كامبريدج :تاريخ السياسة الخارجية البريطانية»
المجلد الثانى الصفحات ٦٢٣ــ٦٣٣
ACmbridge History of British Foreign Policy, vol. II. pp. 623-633
انظر أيضا كتاب هـ . تمبرلى ، ل. بنسون
H. Temperley and L. Penson : "Foundations of British Foreign Policy" pp. 48—63 (C. U. P, 1938)

ونورد فيما يلى بعض المقتطفات «لقد كانت ــ (المحالفة بين الدول العظمى) ــ اتحادا لاسـتعادة جانب كبير من القارة الاوربية وتحريره من السيطرة العسكرية الفرنسية، وبتحقق هزيمة الفاتح بسطت المحالفة حمايتها على الوضاع التملك التى أقرها الصلح ــ بيدانه لم يقصد بها أن تكون اتحـادا لحكم العـالم أو للاشراف على الشئون الداخلية للدول الأخـرى وقد تحوطت على وجـه التخصيص ضد انتهاك فرنسا «لاوضاع التملك» التى تم اقرارها فنصت على الحيلولة دون عـودة المغتصب

أسرته الى فرنسا ، وبالمحافظة على التدابير الاقليمية المتفق عليهـا فى فيينا بالقوة المسلحة لمدة عشرين عاما . وبين أنه يعتبر الثورة الأسبانية مسألة داخلية لا تشكل خطرا على البلاد الأخرى ، وأنه لا يرى مبررا لتأييد انجلترا أية محاولة لقمع تلك الثـورة بالقـوة . وأوضـح لديبلوماسيى القارة أن انجلترا تدين بأسرتها المالكة الحالية ودستورها لثورة داخلية . ومن ثم فانها لا تستطيع أن تنكر على البـلاد الأخرى هذا الحق نفسه فى تغيير شكل حكوماتهـا . وفضـلا عن ذلك فان الحكومة الانجليزية لا تسـتطيع أن تتصرف دون تأييـد برلمانهـا وشعبها ، وهما لم يخطرا بأية التزامات سوى تلك التى تم الاتفاق

(نابليون) أو أى فرد من أفراد أسرته الى العرش » وجعلت الحكم الثورى الذى زلزل فرنسـا ودمـر أوروبا موضوع انشغال بالها دائما — ولكن الاحتياطات التى انتوت اتخاذها كانت تنصب بصفة خاصـة ضـد الحكم الثورى فى طبيعته العسكرية القائمة فعلا فى فرنسا اكثر مما تنصب على المبـادىء الديمقراطيـة التى كانت فى ذلك الحين ، كما هى الآن ، منتشرة بصورة عامة جـدا فى شتى أنحـاء أوروبا ...

«... وليس ثمة ماهو أكثر ضررا للدول القارة من اتخاذ شئونهم مادة للمناقشة اليومية فى برلماننا ، وهو الأمر الذى سيترتب حتما على اسراع بعض الدول باقحام نفسها فى شئون الدول الأخرى ، اذا نحن وافقنا على المضى معهم بخطى متساوية فى مثل هذا التدخل ...

«... والواقع ان شعورنا ليس واحدا ، ولا يمكن أن يكون كذلك ، بالنسبة لجميع المسائل . فان وضعنا ونظمنا وطرائق تفكير شعبنا ومشاربه تجعلنـا نختلف عن غيرنا اختلافا جوهريا ...

«... وما من بلد يتبع نظام حكم نيابى يستطيع أن يتصرف وفقا لهذا المبدأ (مبدأ تدخل دولة بالقوة فى الشئون الداخلية لدولة أخـرى) — وكلما عجلنا باعـلان انكار أن مثل هذا المبدأ يكون — على أى نحو — أساس محالفتنا كان ذلك أفضل ...

«... ونحن — (انجلترا) — سنقف فى مكاننا عندما يتهدد نظام أوروبا (الاقليمى) خطر حقيقى ، ولكن هذا البلد لا يمكن أن يتصرف ولن يتصرف وفق مبادىء الحيطـة المجـردة القائمة على التكهنات ...» .

مجمل القول ان المحالفة يجب أن تظل «داخـل حـدودها المعقولة» على حد تعبير كاسلرى نفسه .

عليها في فيينا على النحو الذى أوضحه . وأكد أن انجلترا سوف تفى بتلك الالتزامات ولكنها لا تعترف بالتزامات سواها .

وقد حسب ديبلوماسيو القارة لأول وهلة أن انجلترا ليست جادة فيما تقول . كما أن ثورات ديموقراطية أخرى نشبت فى نابولى وبيدمونت والبرتغال مطالبة هى الأخرى بـ « دستور ١٨١٢ » ولما كانت الثورة فى كل من نابولى وبيدمونت تمس مترنيخ فقد تحول الى الموافقة على فكرة عقد مؤتمر لبحثها . ولما كان كاسلرى لا يزال مترددا فى حضور مثل هذا المؤتمر فقد أرسل بعض مرءوسيه لتمثيل انجلترا فيه .

واجتمع المؤتمر فى أواخر ١٨٢٠ فى « تروباو » فاندفع اسكندر بعنف وحمية الى غرضه ووفق الى اقناع مترنيخ وبروسيا بالاشتراك فى بيان دورى يؤكد أن الدول الثلاث لن تعترف أبدا بحق أى شعب فى الحد من سلطة مليكه . بل لقد ذهب عواهل أوروبا الشرقية الثلاثة فى الواقع الى حد التهديد بشن الحرب ، لمصلحة الملوك ، على الثورات أينما رفعت رأسها . وما ان ذاع ذلك حتى بادر كاسلرى بنشر رسالة (يناير ١٨٢١) ردد فيها المعانى التى أعرب عنها فى ٥ مايو ١٨٢٠ . وأعلن فى البرلمان أن منشور تروباو « يعوزه الادراك السليم » .

وأخذت الهوة بين الحلفاء تتسع ، ولكن اسكندر مضى فى طريقه فأصدر بيانات دورية أخرى مليئة « بالمشاعر الرنانة » وكلف مترنيخ بوصفه أداة المحالفة اخماد الثورة والدستور فى كل من نابولى وبيدمونت . وزحفت الجيوش النمساوية الى ايطاليا فى مارس ١٨٢١ فقضت على دستورى بيدمونت ونابولى ونصبت مليكيهما على عرشيهما من جديد . وأعلن كاسلرى صراحة تنصله من كل علاقة بتلك الأفعال .

وسوف يتبادر الى الظن أن فترة الحكم الدولى قد انتهت عند هذا

الحد ، لكن هذا القول لن يصدق بعد . ففى مارس ١٨٢١ نشبت ثورة فى اليونان ضد الأتراك . ولم تكن فى الواقع ثورة ديمقراطية ولا كان هدفها المطالبة بالدستور بأى حال من الأحوال وانما كانت ثورة قومية أو حركة قام بها المسيحيون اليونانيون للتخلص من طغيان أجنبى بغيض ؛ بيد أن مترنيخ لم يكن ليعترف بأى فارق بين محمود سلطان تركيا وفرديناند ملك نابولى أو فردناند ملك أسبانيا . فقد كان يرى أن قضية الملكية تتعرض للخطر فى جميع الأحوال على حد سواء ، وأن تأييد «الاتحاد المعنوى» واجب فى هذه الحالة كذلك . ثم انه كان يرى أنه قد يستطيع باتخاذ هذا الموقف الحيلولة دون اعلان اسكندر الحرب ضد تركيا على الفور لمصلحة اخوانه فى الدين فى اليونان . ولما كان تفادى هذا الاحتمال الخطير ضروريا ، فقد اجتمع مترنيخ وكاسلرى فى هانوفر قبيل نهاية ١٨٢١ وسويا خلافاتهما واتفقا على دعوة مؤتمر آخر كانا يأملان أن يحولا بوساطته دون اتخاذ اسكندر أى اجراء ايجابى ضد تركيا .

وقد حدد خريف ١٨٢٢ موعدا للمؤتمر . ولكن حادثين وقعا قبل أن يلتئم شمله ، أولهما أن القلاقل فى أسبانيا بلغت فى يوليو درجة من الخطورة حفزت فرنسا الى الحديث عن التدخل هنالك ، وثانيهما أن كاسلرى قد انتحر فى ٣ أغسطس بعد اختلال قواه العقلية . واذا كان قد أبدى فى سنواته الأخيرة بعض الاعتراضات على نظام المؤتمرات نفسه ، فقد خلفه كاننج الذى جاء على يديه القضاء على هذا النظام .

وسرعان ماشغل المؤتمر الذى انعقد فى فيرونا بأمر أسبانيا بدلا من اليونان . فقد سألت فرنسا الحلفاء فى بداية المؤتمر عما اذا كانوا سيؤيدونها فى غزو أسبانيا ، فأرسل كاننج ، الذى كان ينظر الى تلك المؤتمرات نظرة ملؤها الشك والريبة ، تعليماته بألا تشترك انجلترا فى

أى مشروع للتدخل بالقوة أو بالتهديد « مهما تكن العاقبة » . وأفضى ولنجتون بهذه التعليمات الى المؤتمر فى ٣٠ أكتوبر ١٨٢٢ ، فكان لها دوى القنبلة ، وحالت دون تدخل الحلف ككل تدخلا عسكريا فى أسبانيا ، وان تدخلت فرنسا بصورة منفردة (١) .

لقد أضر موقف كاننج فى ١٨٢٢ بـ « التضامن المعنوى » لأوروبا وبنظام المؤتمرات . ولكن هذا النظام لم يختف من الوجود على التو . ففى ديسمبر ١٨٢٣ دعا ملك أسبانيا الذى أعيد الى عرشه ، الحلفاء الى عقد مؤتمر لبحث شئون أمريكا الأسبانية . وكم كانت دهشة أوروبا حين امتنع كاننج ببساطة عن ارسال مندوب عن حكومته (٣٠ يناير ١٨٢٤) فكانت النتيجة أن فشل المؤتمر . وقد حاول اسكندر بعد ذلك أن يدعو فى غضون عام ١٨٢٤ مؤتمرا لبحث مسألة تركيا واليونان . ولكن كاننج رفض فى النهاية حضور هذا المؤتمر نيابة عن انجلترا فى نوفمبر ١٨٢٤ . فاجتمعت الدول الأربع العظمى الأخرى رغم ذلك بسان بطرسبورج فى يناير ١٨٢٥ ، وان يكن مؤتمرها قد انفض فى مايو دون الاتفاق على شىء بعد أن دب بينها الخلاف وسوء التفاهم . فكانت تلك ، فى الحقيقة والواقع ، نهاية نظام المؤتمرات .

ونورد فيما يلى اعتراضات كاننج على ذلك النظام الذى كان يرمى الى اقامة حكومة دولية . قال ان عقد المؤتمرات شىء مناسب جدا لوضع معاهدة . أما نظام « الاجتماعات الدورية » للدول الكبرى فخطير للغاية . فالشعب الانجليزى أولا لا يروق له أن يرى مندوبه الذى يمثل دولة برلمانية ، يتفاوض سرا مع دول استبدادية ، ثم أن

---

(١) غزت فرنسا اسبانيا آخر الأمر على مسئوليتها الخاصة فى ابريل ١٨٢٣ وأعادت الملك فردناند وألغت الدستور الاسبانى .

لانجلترا صوتا واحدا وقد يتغلب عليها الآخرون بأصواتهم . ونظام المؤتمرات ثانيا يتجه الى اقامة نظام للتدخل العام بالقوة فى الشئون الداخلية لمختلف البلاد ، ومثل هذا النظام لابد أن تعارضه انجلترا تمشيا مع طبيعة حكومتها . وثالثا أن الدول الصغرى ليست ممثلة فى هذه المؤتمرات فحقوقها عرضة للاغفال أو الضياع . ولم يكن كاننج ليمانع فى عقد مؤتمر يقتصر على سياسة « التضامن المعنوى » ويضع رغبات الدول الصغرى موضع الاعتبار وينبذ استخدام القوة . ولكن نظام المؤتمرات على الصورة التى تطور بها حتى عام ١٨٢٢ ، كان بعيدا عن ذلك كل البعد فرأى كاننج أن من الأفضل أن تعارضه انجلترا كلية ، وقد وفق فى هذه المعارضة توفيقا تاما . اذ لم يعد لنظام المؤتمر أى اعتبار من ١٨٢٥ فصاعدا . وحدد كاننج السياسة التى تنتهجها أوروبا بالآتى « كل أمة ترعى مصلحتها والله يرعانا جميعا ! »

بيد أنه ليس من الانصاف أن نترك هذه التجربة الجدية الأولى للحكومة العالمية الدولية دون التنويه ببعض حسناتها . فان فكرة عقد الاجتماعات الشخصية وايجاد الثقة المتبادلة بين الحكام فكرة رائعة . وكان كاسلرى مخلصا فى تشجيع تلك الاجتماعات وكذلك مترنيخ الى حد ما . ولكن اسكندر مضى شوطا أبعد وباندفاع أقوى مما يطيقان . فأصبح نظام المؤتمر بعد ١٨٢٠ أشبه فى الواقع بنقابة للملوك تعمل لاخماد حريات الشعوب . ولم يكن بوسع انجلترا البرلمانية أن توافق على استمرار ذلك النظام ، كما لم تشارك فيه فرنسا البرلمانية الا على مضض . أما الدول الصغرى التى لم تشترك فيه مطلقا فقد عارضته بطبيعة الحال . وقد انعقدت مرة أخرى فى الثلاثينيات بعض المؤتمرات الأوروبية التى كان لها أثر حميد . ولكن لم تصدر منها ، رغم أن الزمام كان لا يزال فى يد الدول الكبرى ، أية محاولة جماعية لبعث

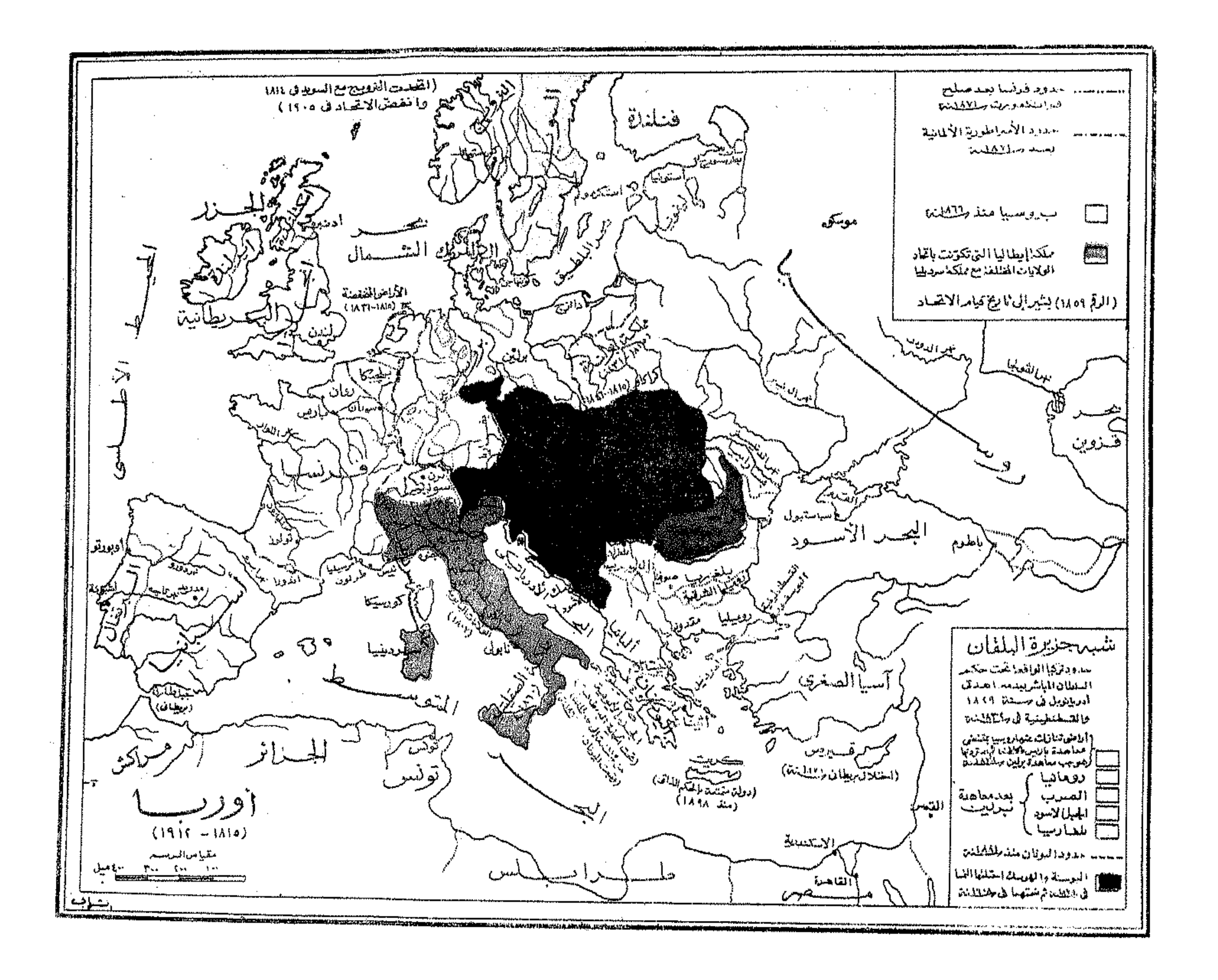
مبادىء الحكم المطلق أو ادانة الثورات لمجرد أنها ثورات ، أو اعلان سياسة عامة للتدخل بالقوة ، وبذلك تمكنت انجلترا البرلمانية وفرنسا البرلمانية من الاجتماع بحرية مع ملوك شرق أوروبا الثلاثةالمستبدين . والمؤتمر الذى سوى مسألة استقلال بلجيكا انما هو مثل طيب لامكان اجتماع الدول الكبرى دون ماحرج والقيام بعمل طيب يبقى على الزمن لأن كلا منهما يحترم نظم الآخرين ويقدر الصعوبات التى تواجههم .

ويجدر بنا أن نقارن فترة الحكم بوساطة المؤتمرات بالمحاولة الكبرى الثانية لخلق منظمة دولية ، ونعنى بها المحاولة التى أخرجت الى الوجود عصبة الأمم فى ١٩١٩ (١) . ان اعلان الحلف المقدس لم تكن له فى الواقع صلة بمعاهدة فيينا ، فى حين أن ميثاق العصبة كان جزءا حيويا ، بل أكثر الأجزاء حيوية فيما هو ظاهر ، من معاهدة فرساى . وقد فشل الحكم عن طريق المؤتمرات لأنه حاول أولا أن يعزز ثم أن يفرض المبدأ الملكى على مختلف دول أوروبا . أما العصبة فكانت تضم ملكيات مستبدة ودستورية وجمهوريات وجماعات غير مكتملة السيادة . ولم يكن الأعضاء كما هو الحال فى الحلف المقدس « أعضاء فى أمة مسيحية واحدة » ، بل كانوا أعضاء فى عصبة للأمم تضم البوذيين والمسلمين والمسيحيين على السواء . وقد هاجم كاننج نظام الحكم بوساطة المؤتمرات لأنه كان يمس حقوق الدول الصغرى . أما فى هذه المحاولة الثانية فكان بوسع الدول الصغرى أن تهزم بأصواتها الدول الكبرى فى « مجلس العصبة » وأن تبدى ماتشاءمن

---

(١) كتب هذا قبل قيام « الأمم المتحدة » وهى المحاولة الكبرى الثالثة) فى العصر الحديث لاقامة حكومة عالمية (المراجع)

الآراء فى الجمعية العامة للعصبة . وقد قضى نظام المؤتمر نحبه لتعذر التوفيق بين الحكم الاستبدادى ونظام الحرية البرلمانية ، أما عصبة الأمم فقد ظلت على قيد الحياة حتى قضى عليها نشوب حرب عالمية . وثمة حقيقة أضعفت المحاولتين اضعافا خطيرا هى أن صفة الشمول والعالمية كانت تعوزهما . ولم تتعلم الدول الكبرى فى المـرتين سر التوفيق بين مصالحها القومية والصالح العام . ولم يحن الوقت بعد لنقرر ما اذا كان صانعو التجربة الكبرى الثالثة للتنظيم الدولى قـد فطنوا الى ذلك السر .


أوربا
(١٨١٥ - ١٩١٢)
شبه جزيرة البلقان
البحر الأسود
آسيا الصغرى
البحر المتوسط
الجزائر
مراكش
تونس
طرابلس
مصر
القاهرة
الاسكندرية
فنلندة
موسكو
بحر الشمال
بحر قزوين
فرنسا
باريس
لندن
برلين
كريت
قبرص
سردينيا
كورسيكا
نابولي
باطوم
سباستبول
(الرقم ١٨٥٩) يشير إلى تاريخ قيام الاتحاد
مقياس الرسم

الفصل العاشر

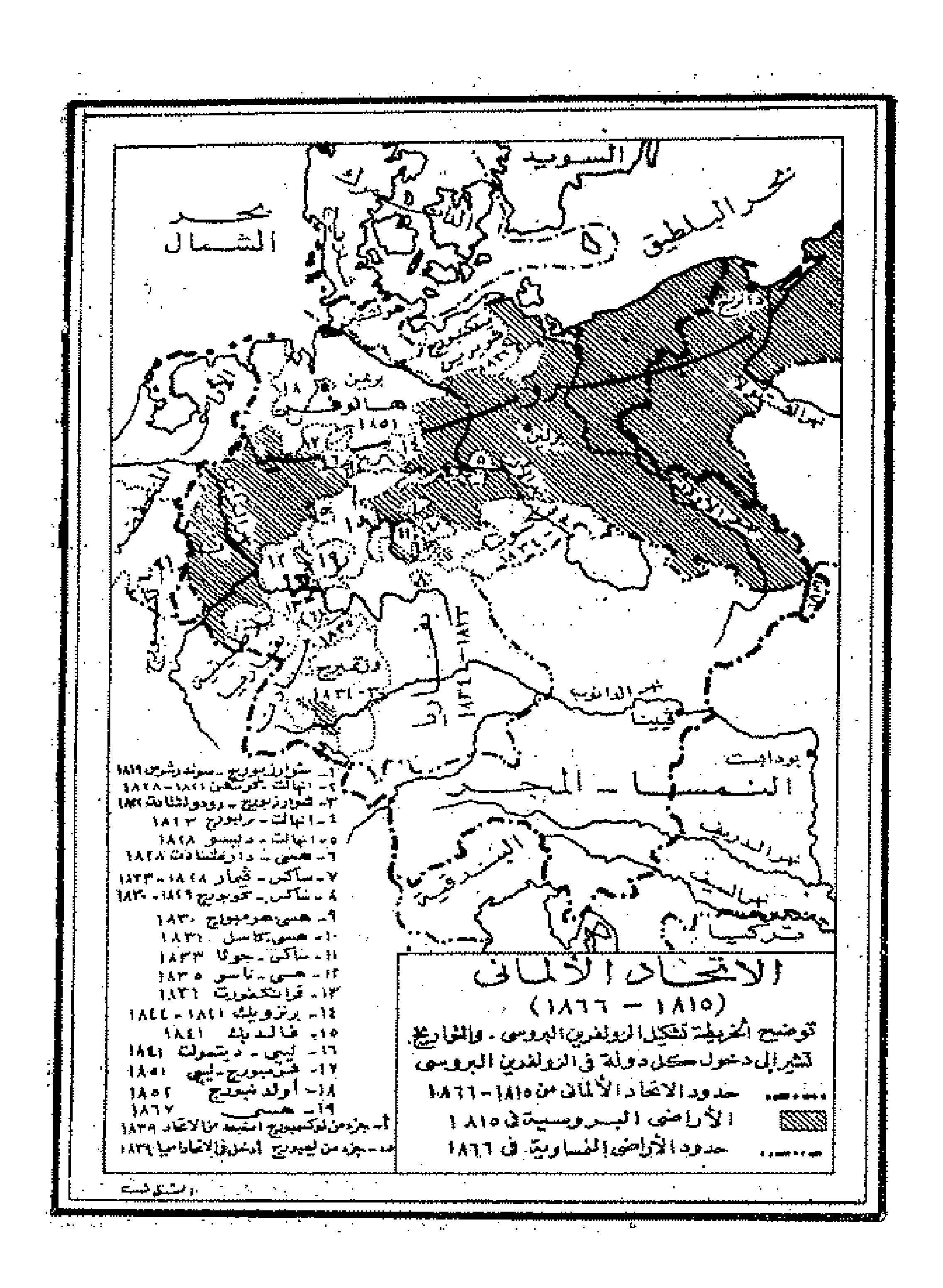
الحكم الفردي والحكم الدستوري والثورة
١٨١٥ — ١٨٤٨

كان القصد من الاتحاد الألمانى الذى أنشأته الدول الكبرى فى ١٨١٥ هو تسليم ألمانيا للنمسا وبروسيا تنفذان فيها مشيئتهما. وسرعان ما أمسك مترنيخ بزمام القيادة فى يديه . كانت أهدافه واقعية فى بساطة وقسوة ، وان أخفاها بكثير من الحذق تحت ستار من العبارات الطنانة . وقد اعتقد أن أول ما ينبغى عمله سحق الروح التحررية والدستورية والبرلمانية فى ألمانيا . أما بروسيا فكانت على كل حال دولة عسكرية . (كان كاننج يسميها « جنديا من الرأس الى أخمص القدم لا يفهم من السياسة الا دق الطبول وسوط الجندية ») فحتم على بروسيا اذن أن تسير فى ركاب النمسا طالما انتهجت الأخيرة هذه السياسة الرجعية . ومن هنا جاءت ثقة مترنيخ فى أنه سيكسب امتنانها وتأييدها بالفت فى عضد التجارب الدستورية الواهنة التى قام بها حكام بافاريا وفرتمبرج وساكس — فايمر .. الخ . وقد أثبتت الأيام أن نجاحه فى ذلك كان كاملا .

فقد أسفر اجتماع الدول الألمانية فى مؤتمر كارلسباد عام ١٨١٩ ، عن التصديق على مراسيم مترنيخ ، فووفق بالاجماع على التعليمات الخاصة بالتحكم فى الصحافة وارهاب الجامعات وكبت حرية الرأى فى شتى أنحاء ألمانيا . وبذلك أصبح مترنيخ يملك أداة بوليسية قوية راح يستخدمها دون ما رحمة أو هوادة . وقد وفق تماما لفترة من الزمن ، فان الثورات التى نشبت فى أنحاء أوروبا خلال عامى ١٨٢٠ — ١٨٢١ لم تمس ألمانيا حيث طفقت يد مترنيخ الحديدية تبث الرعب فى

قلوب الأحرار . وقد نشأت بعض القـلاقل الطفيفة فى بعض الدول الألمانية على أثر الموجة الثورية التى قامت فى أوربا فى ١٨٣٠ ، غير أنه لا شك فى أن هذه الموجة كانت ستثير المزيد من القلاقل لولا مترنيخ . على أن سلطانه بدأ ينكمش منذ ذلك التاريخ . لم يكن لديه ما يقدمه لألمانيا الفتية سـوى قمع الارهاب والحـكم البوليسى ، وكان عهده قاحلا عقيما خلوا من الابداع . لقد كان من المحال أن يظل المد الصاعد فى ألمانيا حبيس ذلك السد الضيق . فكان أن استمدت موجة ١٨٤٨ التى أطاحت لفترة من الزمن بجميع النظم القديمة فى ألمانيا ، قوة مضاعفة من القمع نفسه ، وتكررت باختفاء مترنيخ والنمسا القديمة معـا فى ١٨٤٨ ، النهاية المعروفة لسياسة « من بعدى الطوفان » . لقد كان النظام الذى أقامه مترنيخ فى ألمانيا جديرا بالاعجاب اذا نظرنا اليه كقوة سلبية ، ولكن مثل هذا النظام لا يمكن أن يدوم أبدا . ولئن جاز أن يفرض مثل هذا الحكم القائم على الكبت المفتقر الى الذكاء والكفاية على روسيا الى أجل غير مسمى ، فلقد قدر لمصير مترنيخ أن يكشف عن استحالة فرضه على « ألمانيا الانعزالية العميقة التفكير » وبسقوطه انهار — من أساسه — البناء المتعفن الذى نخره السوس ، وجاء البناء الجديد ، الذى سيشيده بسمارك فيما بعد ، مختلفا فى طبيعته تمام الاختلاف .

لقد اختفت النمسا القديمة من الوجود فعلا فى ١٨٤٨ لأنها كانت دولة اقطاعية عتيقة مستبدة محتقرة . ولم تختف بروسيا القديمة من الوجود فى ذلك الحين لأنها لم تكن فى الواقع بروسيا القديمة وانما كانت بروسيا جديدة ولدت وسط المرارة والمهانة التى خلفها انتصار نابليون الساحق فى يينا . ذلك أن اصلاح الدولة البروسية فيما بين ١٨٠٦ — ١٨٤٨ قد شاهد تحولها من دولة تمت الى العصور الوسطى الى دولة حديثة تستثير الاعجاب بكفايتها وألمعيتها . وقد كانت النكبة التى حلت ببروسيا فادحة الى درجة حفزت المحافظين أنفسـهم الى



السويد
بحر البلطيق
بحر الشمال
بريمن
هانوفر
١٨٥١
برلين
نهر الدانوب
فيينا
بودابست
النمسا - المجر
نهر الدريف
تركيا
١- شوارزبورج - سوندرزهوزن ١٨١٩
٢- انهالت - كوتن ١٨٢١ - ١٨٢٨
٣- شوارزبورج - رودولشتات ١٨٢٢
٤- انهالت - برنبورج ١٨٢٣
٥- انهالت - دسو ١٨٢٨
٦- هسن - دارمشتات ١٨٢٨
٧- ساكس - فيمار ١٨٢٨ - ١٨٣٣
٨- ساكس - كوبورج ١٨٢٩ - ١٨٣٠
٩- هسن هومبورج ١٨٣٠
١٠- هسن كاسل ١٨٣١
١١- ساكس - جوتا ١٨٣٣
١٢- هسن - ناسو ١٨٣٥
١٣- فرانكفورت ١٨٣٦
١٤- برنزويك ١٨٤١ - ١٨٤٤
١٥- فالدك ١٨٤١
١٦- ليبي - دتمولد ١٨٤١
١٧- شومبورج - ليبي ١٨٥١
١٨- أولدنبورج ١٨٥٢
١٩- هسن ١٨٦٧
أ- جزء من لوكسمبورج استبعد من الاتحاد ١٨٣٩
ب- جزء من ليمبورج أدخل في الاتحاد أيضا ١٨٣٩
الاتحاد الألماني
(١٨١٥ - ١٨٦٦)
توضيح الخريطة تشكيل الزولفرين البروسي - والتواريخ
تشير إلى دخول كل دولة في الزولفرين البروسي
حدود الاتحاد الألماني من ١٨١٥ - ١٨٦٦
الأراضي البروسية في ١٨١٥
حدود الأراضي النمساوية في ١٨٦٦

الاعتراف بضرورة الاصلاح ، وكانت المهانة التى أصابت الأمة كاملة الى حد أن كل طبقة كانت على استعداد لبذل التضحيات من أجـل الاصلاح المنشود . لقد كانت بروسيا تتألف فى عهد فردريك الأكبر من طبقة من النبلاء الاقطاعيين الذين يحتكرون مناصب الجيش والدولة وطبقة صغيرة من سكان المدن الذين يصنعون الثروة وجموع من الأقنان الذين كانوا وقودا للمدافع أو مصدرا لليد العاملة . أما فى ١٨٤٨ فلم يعد ببروسيا الا مواطنون أحرار هم أفضل تعليما وأكمل نظـاما وأكثر همة وكفاية من أقرانهم فى سائر أنحاء ألمانيا .

كانت الحاجة الماسة الأولى بعد يينا هى الى اصلاح الجيش . وقد ألقى عبء هـذه المهمة على كاهل شارنهورست(١) ، ففـرض التجنيد الاجبارى ونظام الخدمة القصيرة الأجل ، ودرب قوات ضخمة لاتقل فى شجاعتها ومقدرتها وروحها المعنوية عن أية قوات أخرى فى أوروبا . وقد شحذ بلوخر ـــ بنجاح ـــ فى معارك ١٨١٣ و١٨١٤ و ١٨١٥ ذلك السيف الذى صنعه شارنهورست ، فأصبح بمقدور النقاد ذوى الحكم المتزن أن يروا أن الجيش البروسى قد رد الى حال من الكفاية تفوق حاله السابقة . لقد كان الجيش فى بروسيا وقتئذ ، كعهده أبدا ، أهم عامل فى تطور الدولة . وما فتىء بسمارك يفسر نجاحه بقوله ان الجيش كان فى يده دائما . بيد أنه لولا « يينا » و « شارنهورست » لما أمكن أن تصل الآلة العسكرية البروسية الى ذلك الحد من الكمال على يد « رون » ، ليستخدمها « مولتكه » (٢)

وقد تولى شتاين العظيم شئون الاصلاح الداخلى لفترة من الزمن ، فبدأ بالغاء الرق والنهوض بالتعليم وأتاح بذلك الفرصة لظهور الفرد

---

(١) تناولنا هذه التغييرات بتفصيل أكبر فى الفصل السابع .

(٢) فون مولتكه هو القائد البروسى الذى حقق النصر لبروسيا فى حرب السبعين وفون رون كان وزير الحربية فى ذلك العصر .
(انظر فيمـا بعـد فى الفصـل ١٨ والفصل ١٩)

الحديث . فلقد أثبتت التجربة أن الاقنان فى الدولة الحديثة ليسوا أنفع كثيرا ، اقتصاديا أو سياسيا ، بل وعسكريا ، من العبيد الزنوج ، وان تحرير الفرد وتعليمه انما يعنيان جعله أنفع للدولة دون أن يترتب على ذلك حتما أن تؤدى هذه التطورات الى الثورة أو انحلال الدولة. فالكثير يتوقف على سابق تاريخ الشعب وسابق أسلوبه فى التفكير . والبروسيون قد عاشوا حياة الطاعة فى ظل فردريك وفى ظل خلفائه الضعفاء غير مدركين للتدهور الذى يحل بهم والنكبات التى تنتظرهم فى المستقبل ، وقبل أن تتاح لهم فسحة من الوقت للنهوض من تلك النكبات ، قامت فى بلادهم ثورة بدأها الملك بنفسه ، وتلتها فى ظرف سبع سنوات انتصارات عسكرية باهرة ومكاسب جديدة فى الأراضى، فاستقر شعب بروسيا راضيا من جديد . ان مثل تلك الثورة لابد وأن تكون شيئا طيبا لاسيما وأن الملك هو الذى قام بها ، وقد ظلت الثورات فى بروسيا حتى عام ١٩١٤ « من صنع الملوك دائما » .

وهكذا نجد أنه بالرغم من حدوث تعديلات هائلة فى كافة النواحى، فان الجهاز الذى ظل يحكم البلاد ويحدث فيها التعديلات ، ظل كما هو دون أن يطرأ عليه تعديل . والحق أن الملك لم يكن هو الذى أحدث التعديلات وانما سمح لوزرائه باحداثها وان لم يدرك معظم البروسيين تلك الحقيقة . وهكذا قامت البيروقراطية البروسية التى تجمع بين الكفاية والنزاهة ، باصلاح الشئون المالية وتنظيم أحوال البلديات وتصريف أمور الدولة بمهارة متزايدة ، وأخيرا أطلقت الى الوجود هيئة قدر لها أن تؤثر على ألمانيا كلها ، وذلك بالتسلل ، فى حيلة ودهاء ، الى كافة أوجه النشاط التجارى والامتزاج به .

ففى ١٨١٨ شرعت بروسيا فى العمل على انشاء « زولفرين »

أو الاتحاد الجمركي (١) . وقد بدأت مساعيها بداية متواضعة وذلك بالتفاوض لعقد اتفاقيات جمركية مع بضع ولايات . وما برحت تعمل على تحقيق مصلحتها الخاصة في حذر وبراعة ودون ما هوادة ،فجعلت تعدل تعريفتها الجمركية على نحو يعود بالنفع على الولايات الداخلة في الزولفرين ويضر تلك الباقية خارجه . كانت أساليبها أشبه بأساليب مدير الشركة الاحتكارية الذي يعتصر منافسيه الصغار بكل وسيلة عادلة كانت أو ظالمة ، مستخدما ما لديه من رأس مال أضخم وكفايات أبرع . فاذا ماتم مراده أصبح مستعدا لمواجهة منافسيه الكبار وسحقهم . ومن مظاهر غفلة النمسا أن مترنيخ جعل يثير حفيظة الولايات الصغرى بتنظيم الهجمات البوليسية وارهاب الصحفيين والأساتذة فيها في الوقت الذي انصرف فيه البروسيون الى المساومة مع رجال الأعمال في تلك الولايات . وقد أدرك مترنيخ الذي لم يكن له في الاقتصاد باع ، الموقف على حقيقته بعد ضياع الفرصة ، فعمل في سنة ١٨٣٤ على تنظيم المقاومة للزولفرين ، ولكن أوان المقاومة كان قد فات . فقد انضمت بافاريا وسكسونيا الى الاتحاد في ذلك العام ، وبحلول عام ١٨٤٤ كانت ألمانيا بأسرها تقريبا قد انضمت اليه فلم يبق خارجه سوى النمسا وهانوفر وأولدنبرج ومكلينبورج ومدن هنسا الثلاث . وألفى الأعضاء أنفسهم مشدودين الى بروسيا بخيوط تلك الشبكة الاقتصادية الحريرية التي وقعوا فيها قبل أن يفطنوا الى حقيقتها . وبمر السنوات أخذت الشبكة تقوى والقيود تزداد ،وكلما دخلت ولاية جديدة استعصى الانسحاب منه على الدول المنضمة اليه

---

(١) كانت حاجة بروسيا الى اتحاد جمركي ماسة بالطبع . ففي حين كانت أراضي النمسا نائية ومتمتعة بالاكتفاء الذاتي الى حد ما ، لم تكن أراضي بروسيا تمثل أي وحدة اقتصادية حقيقية ، وكانت تلاصق حدود نحو من اثنتي عشرة ولاية ، ومن ثم فقد كان فرض تعريفة جمركية ألمانية موحدة في صالح بروسيا الى أبعد حد .

وتعذرت مقاومته على الدول الخارجة عنه . وبمجيء عام ١٨٤٨ صار فعلا لبروسيا التفوق الاقتصادى فى ألمانيا ، فكان ذلك بشيرا عاملا الى حد ما فى تفوقها العسكرى والسياسى المقبل .

ومن الجلى أنه كانت هناك بعض العيوب فى السياسة البروسية قبل ١٨٤٨ ، والا ما تعرضت للنكبة والمهانة فى تلك السنة . والحق أنه بالرغم من وضوح أفكارها الرئيسية فان تطبيق هذه الأفكار لم يتسم دائما بالثبات والاستقرار . اذ كان فردريك وليم الثالث (المتوفى ١٨٤٠) رجلا ضعيفا ولكنه أحسن صنعا بترك كل شيء لمستشاريه . أما فردريك وليم الرابع (١٨٤٠ ـ ١٨٦١) فكان فنانا رومانتيكيا نابها خانته قواه العقلية فى نهاية حياته ، ولكن تدخله المضطرب قبل ذلك الحادث فى شئون الدولة قد أضر اضرارا بالغة بوحدة السياسة البروسية وتوجيهها . فمعاملة البولنديين فى بروسيا فى عهده لم تعالج بحكمة ، اذ كانت السلطات تسعى تارة الى تملقهم وتعمد تارة أخرى الى بث الرعب فى قلوبهم . ورغم أن اكتساب البولنديين بالطريقة الأولى ، أو ارهابهم بالثانية ، كان أمرا ممكنا ، فانهم كانوا من الفطنة بحيث لم يملكوا الا احتقار ومناوأة تلك الحكومة التى عجزت عن أن تستقر على موقف بشأنهم ، سواء أكان موقف البر بهم أو القسوة عليهم .

وثمة مسألة أشد خطورة ألا وهى الموقف بالنسبة للبرلمان والدستور(١) . كان هاردنبرج ـ أحد كبار عظماء المصلحين الذين عرفتهم بروسيا بعد يينا ـ وكان من مؤيدى فكرة وجود الاثنين : البرلمان والدستور وكذلك تأمين قدر معقول من حرية الرأى والقول ، ولكن علله

---

(١) البرلمان والدستور لم يكونا شيئا واحدا تماما فى ألمانيا وعلى هذا يمكننا أن نصف تجارب فردريك الرابع ازاء مجالس الطبقات estates فى دولته بأنها برلمانية وان لم تكن دستورية .

الشخصية ومعارضة البيروقراطيين الآخرين حالت دون تحقيق فكرته .
فقد كان التيار الغالب بين البيروقراطية البروسية مؤيدا للحكم المطلق المستنير ، ولفكرة تصريف شئون الدولة بوساطة الخبراء ودون ما اعتبار للحكم النيابى أو الجمعيات التشريعية أو الصحافة . ولكن فردريك وليم الرابع أبى قبول ذلك الرأى .

لم يكن فردريك وليم الرابع من المؤمنين بالبرلمانات الحديثة وانما بنظام المجالس الاقطاعية أو البرلمانات الاقليمية الصغيرة أو الجمعيات التى تنتظم كل منها فى طبقات مختلفة كسكان المدن أو النبلاء وغيرهم . وقد أجرى تجارب لا حصر لها فى هذه الاتجاهات ، فدعا صنوفا وألوانا من المجالس الطبقية الواحد تلو الآخر ، وخاطبها فى بلاغة ملتهبة ، ثم لا يلبث أن يسخط عليها بمجرد ابدائها أقل رغبة فى تأكيد استقلالها أو الحصول على ما يقرب من سلطات المجالس التشريعية الحديثة . لقد كانت سياسته كلها فى هذا الصدد غريبة محيرة ، حقا لقد فعل ماكان كافيا لاذكاء الأفكار البرلمانية بين رعاياه ، وان لم يكن كافيا لاشباع تلك الأفكار على أى وجه . اذ كان يقر بضرورة ايجاد نظام برلمانى ما ، ولكنه لم يوجد نظاما متماسكا أو مفهوما ، فكان هذا الموقف وحده الكفيل باثارة السخط وايقاظ الأمانى . ونحن نجد فى استثاراته العاطفية لولاء شعبه وعجزه الغريب عن تحقيق رغبات الشعب سر الكثير من الفوضى والاضطراب اللذين شاهدتهما بروسيا خلال عامى ١٩٤٨ و ١٨٤٩ . كانت البيروقراطية تدعو الى ايجاد أداة حكومية مدنية يديرها عقل واحد وتتسم بالكفاية وتفعل كل شىء من أجل الشعب ولا شىء بوساطته يساندها فى ذلك جيش درب على الطاعة العمياء ، وكانت هذه على الأقل سياسة متماسكة . ولو أن فردريك وليم انتهج هذه السياسة فى ١٨٤٨ لكان من الجائز أن تراق بعض الدماء ولكن لن تكون ثمة فوضى ولا خيبة رجاء . وأما الذى

حدث فعلا فهو أن الملكية قد جلبت على نفسها اللوم عن اراقة الدماء والفوضى وخيبة الأمل جميعا . ولـكن البيروقراطية والجيش همـا اللذان مكنا الملك من التغلب على العاصفة .

أما فرنسا فقد بدأت فى ١٨١٥ تجربة الملكية الدستورية . ذلك أن اسكندر قد أصر على أن لا يعود البوربون اليها الا بعد منح الشعب ميثاقا ، والدخول فى تجربة دستورية . فوافق لويس الثامن عشر على هذا التطور ولكنه حاول الاحتفاظ بأكبر قدر ممكن من السلطة . لقد كان أحكم من وزرائه ولكنه كان خاملا كسولا الى أبعد حد ، ومن ثم صارت الغلبة لسياسة وزرائه من أنصـار الكنيسة وأنصار الحكم المطلق (١) والاستبداديين (الذين يطلق عليهم عادة اسم الغلاة) . وقد أظهروا افتقارا الى الحكمة فى كافة النواحى . فقد أنقصوا عدد الجيش ، وعمدوا الى تكميم الصحافة ، أو رشـوتها أو ارهابهـا ، وارتكبوا شتى صنوف الأخطاء فألغوا العلم المثلث الألوان ، وأعدموا الماريشال ناى أثر هزيمة نابليون فى ووترلو . فكان مما أثار حفيظة الفرنسيين أن يدان هذا الرجل الذى كان بطلا عسكريا لا شخصية سياسية ، بوسائل مريبة وأن يعدم فى ظروف تتسم بالوحشية المفرطة . وذكر صراحة أنه أعدم بتوجيه من الحلفاء (وفى هذا القول نصيب من الصدق) . وذهب البعض الى أن سقوط البوربون انما يرجع الى اعدام « أشجع الشجعان » .

كما جانب التوفيق حكام فرنسا الجدد فيما اتخـذوا من تدابير داخلية على وجه الخصوص . فان رد أملاك المهاجرين اليهم والانعام على الكنيسة بالأراضى ، أوحيا الى الرجل العـادى بأن البوربون يزمعون انتزاع الأرض من الفلاحين وقلب النتائج التى حققتها الثورة

---

(١) Clericals and Absolutists

رأسا على عقب . ورغم الجهود الضخمة المبذولة لاخماد المعارضة فقد أخذت هذه المعارضة تشتد فى البرلمان وتقوى . وفى عام ١٨٢٣ قامت الحكومة بمغامرة جريئة اذ شنت الحرب على أسبانيا التى أرغمت ملكا بوربونيا على قبول دستور ديموقراطى ، ونجحت الحملة نجاحا مرموقا اذ أطلق سراح الملك وألغى الدستور وعاد دوق دانجوليم الذى كان على رأس تلك القوات الى باريس مظفرا . غير أن الكل كان يعرف أنه عديم التجربة وأن ماريشال نابليون الذى رافقه هو الذى كسب له أكاليل الغار التى توجت رأسه ، فلم يكن لهذه الأمجاد الزائفة من أثر سوى ايقاظ غضب محاربى نابليون القدماء وازدرائهم

وفى ١٨٢٤ مات لويس الثامن عشر فزال بموته آخر روادع التعقل على حرية الغلاة . بدأ شارل العاشر عهده بداية حسنة باعلانه الولاء للنظم البرلمانية وارضائه حب الفرنسيين للأبهة والمظاهر . ولكنه سرعان ما فقد حب الشعب ، اذ كان فى الحقيقة من غلاة الرجعيين وأنصار الكنيسة قلبا وقالبا . فأخذت فرنسا تحس بالضجر والسآمة ، وسآمة الشعب فى فرنسا خطر على حكامها أى خطر ! . وفى ١٨٢٧ اشتدت المعارضة فى البرلمان ، وتزعزعت ثقة الحكام فى الحرس الوطنى فلم يعد أمامهم محيص من حله ، وعزل فيليل الذى ظل رئيسا للوزراء منذ ١٨٢٢ ، فخلفه — بعد فترة — بولينياك الذى كان ديبلوماسيا بارعا فى حبك الدسائس وغير صالح بالمرة لهذا المنصب . اذ كان متزمتا فى وطنيته وتلك سيئة ، مغاليا فى ارتباطه بالكنيسة وتلك أسوأ ، وعدوا للبرلمان وهذه كانت القاضية . ولما كان يؤمن فيما يبدو بأن اتباع « سياسة خارجية نشطة » من شأنه أن يؤدى الى رضاء فرنسا بفقدان الحريات القليلة التى بقيت لها ، فقد أعد خطة لغزو بلجيكا (الأمر الذى كان يعنى حتما الدخول فى حرب ضد انجلترا) وراح يتآمر فى الوقت نفسه على قلب برلمان فرنسا ودستورها . وقد ثارت على تصرفاته ثائرة الرأى العام ، فما كان من هذا المتآمر المزهو بنفسه الا أن أوعز فى

النهاية الى الملك باصدار مراسيم لتعطيل البرلمان وتكميم الصحافة .

ان خير ما يمكن أن يقال عن بولنياك هو أنه كان جاهلا تماما بقوى الرأى العام فى فرنسا . والثورة التى تلت انما هى الى حد بعيد من تدبير لافاييت وتاليران وهما رجلان قلما يتفقان ، فكان اتفاقهما فى تلك المناسبة ذا دلالة بالغة . كانت خطتهما ترمى الى اقامة ملكية دستورية من النوع الانجليزى يرأسها لوى فيليب (البوربونى من فرع أورليان) بوصفه بورجوازيا متينا وملكا دستوريا . وقد تمكنا بصعوبة ضئيلة نسبيا من اقناع الرأى العام باتاحة الفرصة لهذه التجربة ، وقبول لوى فيليب حاكما . ولم يكن الاختيار سيئا ، وقد انبهرت أوربا لما حدث . فهاهى ذى ثورة تحدث فى فرنسا دون اراقة دماء وتقيم ملكية دستورية راسخة . فبدا يومئذ أن تلك بوادر العصر الألفى الذى تنعم فيه كافة الأمم ببرلمانات وتنطبع فيه « الماجنا كارتا » فى القلوب ، وحسب الناس فعلا أن الديموقراطية قد تم ترويضها .

كان لوى فيليب يتمتع بصفات عديدة تؤهله لمنصبه . كان حذرا وان لم يتقيد بأية مبادىء ، ومدركا تماما أن عليه ألا ينسى البتة ضرورة تقمص دوره كملك دستورى ، وكان رحب الصدر فى الشئون الدينية فى حين كان أسلافه متزمتين . وقد تعمد أن يجرد نفسه بكل وسيلة من صفة الحق الالهى ، فأرسل أبناءه الى المدارس العادية ، وكان يتمشى فى الطرقات حاملا مظلته تحت ذراعه . واتخذ قصر التويلرى مقرا له ، وكان يظهر فى شرفته عن طيب خاطر لينحنى لأى جمهور يصفق له فى الشارع . وكان حريصا على أن يبدو بمظهر الوريث لكل الاتجاهات التاريخية لفرنسا . فكان يزعم أنه — كبوربونى — يمثل الماضى التاريخى ، وأنه ابن للمساواة[1] وجندى

---

(١) ابن للمساواة : كان أبوه يدعى فيليب مساواة (ايجاليتيه) وكان من أنصار الثورة وحارب فى صفوفها . « المراجع »

حارب فى معركة «جيماب» وأنه قد شارك فى أمجاد الثورة . وقد أعاد للبلاد العلم المثلث الألوان والحرس الوطنى،بل انه لم يمانع فى الاعتراف بنابليون نفسه . ففى عهده أعيد جثمان الفاتح العظيم ، تحت اشراف أحد أبناء البيت المالك ، من سانت هيلانة ليرقد فى أروع مثوى بالأنفاليد . كما ملأ — أى لوى فيليب — قصر فرساى بصور تمثل كافة المعارك التى عرفها تاريخ فرنسا ، وكرس القصر فى خشوع لجميع أمجاد فرنسا .

وسوف يبدو لأول وهلة أنه مامن حاكم كان يستطيع أن يفعل المزيد أكثر مما فعل لوى فيليب لارضاء رعاياه . وهو قد فعل الكثير حقا بيد أنه لم يفعل مافيه الكفاية . وقد يكون السر فى فشله أن الثورة أو نابليون قد حفرا هوة سحيقة القرار تفصل بين فرنسا البوربونية وفرنسا التى خلفتها بحيث يستحيل الوصل بينهما . فما برح الفرنسيون يفتقدون فى عهده كلمات الحرية والمساواة المدوية ، والانتصارات الخارقة على الملوك ، والشخصيات الأخاذة الباهرة . وعلى كل فان آل البوربون كانوا قد فقدوا نهائيا كل اعتبار ولم يكن فى وسع لوى فيليب أن ينكر أنه بوربونى . كانت أهدافه هى السلم والتجارة وليس فى هذين أى بريق من النوع المحبب الى نفوس الفرنسيين . على أن ثورة ١٨٤٨ ماكانت لتحدث فى أغلب الظن بسبب السآمة التى أحستها فرنسا وان أرجعها لامارتين اليها . فثمة أسباب أعمق من ضيق باريس برتابة حكمه . فقد كان البرلمان مجمعا لرجال الأعمال والبورجوازيين تسير فيه الأمور بالرشوة والاحتيال ، وكان للوى فيليب فى ذلك نصيب موفور فلم يكن من المستطاع أن تجد فرنسا مثلها الأعلى فى مليك برع فى اللعب بأوراقه البرلمانية بل كان يشك فى أنه كان يغش فى ذلك اللعب .

لقد انتهى حكم لويس فيليب الى الفشل حقا فى فرنسا ، ولكنه لم يخل من فوائد لأوربا . فقد قدم فى أيامه الأولى عونا كبيرا لقضية

الحكم الدستوري وقضية السلام، وان لم تجيء النتيجة في أي منهما لصالحه فان بولينياك كان قد أعد بالفعل — كما أسلفنا — خطة للاستيلاء على جزء من بلجيكا بالقوة ، ولا مراء في أن لويس فيليب كان يتمنى أن يرى ابنه الأصغر قد تربع على عرش بلجيكا ، معززا بذلك نفوذ فرنسا وسيطرتها على بلد مجاور ، ولكن الدخول في حرب أمر محرج جدا للملك كان يباهي بدستوريته وحبه للسلم .

وقد نشبت في أغسطس ، كنتيجة مباشرة لثورة يوليو في فرنسا ، ثورة في بلجيكا كانت ارهاصاتها قد بدأت منذ أمد طويل . كان البلجيكيون يمقتون الهولنديين فكانت الحركة في جوهرها حركة استقلال قومي . وقصتها أن وفدا بلجيكيا تقدم بشكواه للملك الهولندي بلاهاي مطالبا بادىء الأمر بالانفصال اداريا عن هولندة لا أكثر ، ومبديا استعداده لقبول أمير أورانج نائبا للملك . ولكن الملك أصر على احتلال القوات الهولندية لبروكسل قبل اجابة هذه المطالب ، وأدى دخولها الى العاصمة البلجيكية الى نشوب قتال في الشوارع دام ثلاثة أيام (آخر سبتمبر ١٨٣٠) وأسفر عن طرد تلك القوات . وهنا هبت بلجيكا عن بكرة أبيها فوجدت القوات الهولندية نفسها حبيسة أسوار « أنتورب » و « مايزترخت » . وشكل الثوار حكومة مؤقتة ودعوا الى الانعقاد « مؤتمرا وطنيا » وأعلنوا أن « المقاطعات البلجيكية المنفصلة بالقوة عن هولندة ستؤلف دولة مستقلة » .

فأملت الحكمة على ملك هولندة أن يناشد الدول الخمس العظمى التدخل على اعتبار أن التسوية الاقليمية المعقودة في فيينا تتعرض للخطر، وكان على حق في هذا ، فالمحالفة الرباعية كانت تضمن الاحتفاظ بالقوة ولمدة عشرين عاما بالحدود الاقليمية المرسومة في فيينا . وقد أقرت فرنسا هذه الحدود . فاذا خرق لويس فيليب الاتفاق أصبح من حق الدول الأربع العظمى الاخرى أن تشن عليه الحرب . كان مركز

لوى فيليب اذن دقيقا للغاية ، فكثير من الفرنسيين كانوا راغبين فى ضم بلجيكا أو جزء منها . فلو أنه استسلم لرغبات هؤلاء الوطنيين الفرنسيين لخاطر بدخول حرب ضد أوربا ، ولو استسلم لرغبات أوربا لخاطر بعرشه فى فرنسا .

وكان الموقف شائكا بالنسبة للحلفاء الأربعة أيضا . فهاهى ذى أول ثغرة توشك أن تنشق فى الصرح الذى شيد فى فيينا . فهل يسمحون بذلك أم لا يسمحون ؟ ولحسن الحظ لم تكن ملكيات الشرق الكبرى الثلاث ذوات الحكم الاستبدادى مهيأة لاتخاذ اجراء فورى فى الأمر . فجاء الاهتمام الاكبر بالقضية من جانب انجلترا . غير أن الضجة التى أثيرت فى انجلترا حول قانون الاصلاح الكبير أسفرت فى نوفمبر ١٨٣٠ ، وقبل أن تقطع المفاوضات شوطا كبيرا ، عن تغيير الحكومة وتولى بالمرستون وزارة الخارجية . فكأنما بعثت العناية الالهية فى تلك اللحظة بالرجل المناسب للموقف . كان بالمرستون مصمما كل التصميم على عدم السماح لفرنسا بكسب أى نفوذ فى بلجيكا . ولكنه لم يكن مصمما بنفس الدرجة على التمسك بتسويات فيينا . فالمعاهدات مصيرها على كل حال أن تنتهى فى وقت من الأوقات . وهو لم يكن يعتد كثيرا بتسوية فيينا بالذات . وكان كتلميذ لكاننج يعطف على فكرة القومية ، ويرى أن بلجيكا يمكن ، اذا ماتحولت الى دولة ، أن تستخدم درعا واقيا ضد فرنسا . وكان له من حسن الادراك ما مكنه من أن يرى أن بقاء بلجيكا بلدا متبرما ملحقا بهولندة من شأنه أن يغرى فرنسا بالهجوم عليها ، فى حين أن بلجيكا المستقلة الحرة ستكون أقدر على صد ذلك الهجوم . ولم يكن على هذا كله يستبعد فكرة امكان اقامة حكم ذاتى فى بلجيكا على رأسه حاكم هولندى منفصل .

وقد اجتمع المؤتمر الوطنى البلجيكى فى ١٠ نوفمبر ١٨٣٠ ببروكسل . وكان الأعضاء يميلون بمشاعرهم الى فرنسا ، ولولا الخوف من

انجلترا لاختير للعرش — على الأرجح — أمير فرنسي . غير أن الذى حدث فعلا هو أن المؤتمر أعلن خلع بيت أورانج وخلو العرش واختيار الملكية الوراثية المقيدة شكلا للحكومة المقبلة . فما كان من الدول الخمس العظمى الا أن أخطرت المؤتمر البلجيكى بضرورة الابقاء على بيت أورانج ، وهددت باحتلال الجيوش المتحالفة للبلاد مالم يحدث ذلك . فرفض المؤتمر البلجيكى باباء وشمم أن يستسلم ولكن كان من حسن طالعهم أن نشبت ثورة فى بولندة فى نهاية نوفمبر ، فاسترعت عناية القيصر المباشرة ، وأثارت ، على نحو غير مباشر ، اهتمام كل من النمسا وبروسيا اللتين كان رعاياهما البولنديون يعطفون على الثورة . ومن ثم فقد تحولت أنظار الدول الشرقية الثلاث الى جهة أخرى ، وترك بالمرستون وحده ليواجه لوى فيليب .

وقد أرسل هذا الاخير تاليران الى انجلترا ليحاول الحصول على مكاسب من بالمرستون . بيد أن الدبلوماسى العتيد وجد صنوه . كانت أوراقه خاسرة ، ولم يكن بالمرستون يهاب اللعب بأوراقه الرابحة. وقد أنشأ تاليران يطالب لفرنسا بلكسمبورج أولا ثم فيليبفيل وماريينبورج ، فلم يظهر بالمرستون أدنى استعداد للتسليم بشىء من ذلك مما اضطر تاليران الى التراجع . وكان الحل الذى أنقذ ماء وجه فرنسا هو اعلان حياد بلجيكا الدائم وأن تتعهد الدول الخمس بكفالته . وقد أعلن هذا القرار فى يناير ١٨٣١ . فجعلت الحكومة الفرنسية ترغى وتزبد وتتحدث عن التنكر لما التزم به تاليران ، بيد أنها قبلت فى النهاية هذه الشروط وكذلك فعل ملك هولندة . أما المؤتمر البلجيكى فقد رفض ذلك الحل وبقى احتمال تعيين أمير فرنسى ماثلا . وفى ٣ فبراير اختار المؤتمر فعلا الدوق دى نيمور الابن الثانى للوى فيليب ملكا لبلجيكا ، وحينئذ بعثت الدول الخمس بانذار نهائى لبلجيكا ضمنته مطلبها الخاص بحياد بلجيكا مما يستتبع الغاء اختيار الدوق دى نيمور . وكان الموعد المحدد فى الانذار هو أول يونيو . وفى ٤ يونيو استسلم

المؤتمر وتراجع عن قراره السابق وانتخب ليوبولد ملكا للبلاد .

كان « ليوبولد » دى ساكس — كوبورج — جوثا زوجا للأميرة شارلوت ، وقد ظل بعد موتها مقيما بانجلترا . وكان من الأحرار مبدأ ، ورجلا قديرا حصيفا للغاية . وقد تمكن بكياسته البالغة وصبره الذى لا ينفد ، من وضع تسوية سميت « البنود الثمانية عشرة » ، أقنع الدول الخمس العظمى بقبولها ، وقبلها المؤتمر البلجيكى أيضا بعد عناء طويل . ولكن ملك هولندة رفضها وأرسل قواته مرة أخرى الى بلجيكا فى أغسطس . فرد لوى فيليب على ذلك فى التو بتسيير القوات الفرنسية الى بروكسل واحتلالها . فبدت التسوية أبعد ماتكون منالا ، وظهر الخطر الفرنسى جسيما كعهده أبدا .

الا أن بالمرستون عاد الى اتخاذ موقف التشدد . وكانت الثورة البولندية قد انتهت فأبدى القيصر وملك بروسيا استعدادهما لارسال قواتهما لطرد الفرنسيين . فما كان من بالمرستون الا أن أخطر فرنسا فى خشونة وفظاظة بضرورة الجلاء عن بلجيكا « فى غضون أيام » . فوافقت على ذلك فى سبتمبر وتم الوصول الى التسوية اللازمة فى معاهدة الدول الخمس مع بلجيكا الموقعة فى ١٥ نوفمبر ١٨٣١ . ولكن ظهرت صعوبات وتعطيلات لا حصر لها . فقد مانعت الدول الشرقية الكبرى الثلاث فى ابرام تلك المعاهدة ، كما رفض ملك هولندة الجلاء عن أنتورب أو قبول المعاهدة أصلا . وأخيرا حسم الأمر بتدخل جيش فرنسى قام بالاشتراك مع أسطول فرنسى — بريطانى بطرد الهولنديين نهائيا من بلجيكا (١٨٣٢ — ١٨٣٣) . واقتضى الأمر ست سنوات أخرى قبل أن توقع الدول الخمس العظمى فى ١٩ أبريل ١٨٣٩ معاهدة نهائية ترضى جميع الأطراف . ان هذه المعاهدة التى أقرت استقلال بلجيكا آخر الأمر هى بعينها « قصاصة الورق » الشهيرة التى مزقتها ألمانيا عندما غزت بلجيكا فى سنة ١٩١٤ .

ولقد أحسنا صنعا بتناول قصة بلجيكا هذه بشىء من التطويل

لسببين : أولهما أنها توضح متاعب لوى فيليب فى حرصه على السلم خشية الوطنيين المتزمتين فى بلاده واضطراره الى التذبذب بين أوربا وفرنسا محاولا حفظ توازنه بينهما . والسبب الأهم من هذا كله أنها توضح لنسا الثغرة التى فتحت فى معاهدة فيينا باسم الاستقلال القومى ، وتسجل انتصار الاتجاهات البرلمانية والدستورية فى فرنسا وبلجيكا وانجلترا .

وقد كانت ثمارها لبلجيكا طيبة من كل النواحى . فقد حصلت على ملك دستورى مثالى ، وتمكنت من وضــع دســتور تميز بالرحابة والتحرر . وشيدت ، فى ظل الضــمان الدولى لحيــادها ، حياتهــا وخصائصها القومية وفنها الخاص وأدبها ووطنيتها وذاتيتها المتفردة . فان توفر مقومات الأمة لبلجيكا فى ١٨٣٠ كان أمرا مشكوكا فيه ، ولكنه صار حقيقة مؤكدة بعد ذلك بثمانين عاماً . وهى تعــد مدينة بحياتها لبالمرستون وبتطورها الرائع لمليكها الأريب .

لقد أحرز بالمرستون فى مسألة بلجيكا نجاحا حاسما فى تعزيز قضية النظام الملكى الدستورى المقيد فى أوربا ، ذلك لأن البلجيكيين كانوا بطبيعتهم شعبا منظما مهيئا لاطاعة القانون والتمتع بنعمة الحرية . ولكنه سوف يفشل — لسبب عكسى تماما — فى تلقين دروس الحرية فى البرتغال وأسبانيا ، ولسوف يشتبك نتيجــة لذلك فى نزاع غير مستحب مع لوى فيليب . كان الموقف بسيطا فى اجمــاله وان بدت تفاصيله معقدة . ففى أوائل الثلاثينيات كانت تحكم البرتغال وأسبانيا ملكتان طفلتان ، وكان مستشاروهما من أنصار الاتجاهات الدستورية وكان ينازع هاتين الملكتين ويشعل الثورات ضدهما مطالبان بالعرش من أنصار الحكم المطلق . فانحاز بالمرســتون الى الدســتوريين فى الحالتين وعرض آخر الأمر التحالف مع ملكتى البرتغال وأسبانيا لطرد منافسيهما ، فقبل عرضه وانضمت فرنسا كذلك (٢٢ أبريل ســنة ١٨٣٤) الى هذا التحالف الذى عرف باسم التحالف الرباعى . وتم طرد المطالب بعرش البرتغال بسهولة (١٨٣٤) ولكن الأمر احتاج الى

بضع سنوات للتخلص من دون كارلوس فى أسبانيا (١٨٣٩) . وكان بالمرستون يأمل عن طريق هذا التحالف فى تأليف كتلة دستورية فى غرب أوربا تحقق التوازن مع الملكيات الاستبدادية الثلاث فى الشرق . وكان يحسب أن انجلترا ستمسك الزمام فى يدها وتوفق الى استخدام البرتغال وأسبانيا فى اقناع فرنسا بالسير فى نفس الركاب . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فان أهمية البرتغال وأسبانيا كدولتين دستوريتين لم تكن بأكثر من أهميتهما كمملكتين استبداديتين. وكان يصح أن تتركا — بكل اطمئنان — لانهاء خلافاتهما العقيمة السخيفة دون ماعون من الخارج . فقد أثبتت الأيام أنهما لم تكونا عونا لا لانجلترا ولا لفرنسا ، بل ان الذى حدث هو العكس ، فقد أقحمت المسألة الأسبانية هاتين الدولتين فى خلاف خطير ساعد على سقوط لوى فيليب .

وقد تميز عهد لوى فيليب فى معظمه ، ورغم وقوع عدة حوادث لها خطورتها ، بالتعاون المتزايد بين انجلترا وفرنسا ، فتبودلت الزيارات الملكية بينهما وقام نوع من الاتفاق الودى (١) بدا كاملا بحلول ١٨٤٥ . ولم تكن تلك الحقبة من الحقب التى لا تنسى فى تاريخ البلدين فحسب ، بل كانت أيضا دعامة هائلة للوى فيليب فى فرنسا . ولذلك فان النزاع الذى حدث بينهما فى ١٨٤٦ حول أسبانيا يدعو الى الأسف المضاعف . وكان محوره مسألة زواج الملكة الصغيرة ايزابيلا وشقيقتها فاقترح لوى فيليب أخيرا حسما للخلاف أن تتزوج الملكة من فرنسيس دوق قادس على أن تتزوج شقيقتها من الدوق دى مونت بنسييه . الا أن هذه التدابير التى احتفل بها فى ١٠ أكتوبر ١٨٤٦ كانت تخفى حيلة دنيئة . ذلك أن الحكومة الفرنسية كانت قد وعدت الحكومة البريطانية بألا يتم زواج شقيقة الملكة من أمير فرنسى حتى يتم زواج ايزابيلا

---

(١) Entente Cordiale

وتنجب أطفالا . على أن الزيجتين عقدتا فى وقت واحد ، وظهر أن دوق فادس عاجز عن انجاب الاطفال[1] ، ومن الواضح أن لوى فيليب كان يحسب أنه قد ضمن بذلك أن يؤول العرش الأسبانى الى ابنه ، وان كان هو نفسه قد ندم على التجائه لتلك الحيلة .

كان غضب بالمرستون عارما ، فاحتج أعنف الاحتجاج على بسط فرنسا « لنفوذها غير المباشر » وعلى « وسائلها غير المشروعة » حيال أسبانيا . ولئن كانت الحرب لم تنشب أثر ذلك فان العداوة قد قامت بين البلدين ، وخسر لوى فيليب خير صديق له فى أوروبا ، وقضى على التفاهم الودى . وتبدد أى أمل فى تأييد انجلترا له وبات استمرار عرشه وبقاء أسرته فى الحكم متوقفا ، من الآن فصاعدا ، على فرنسا وعليه هو نفسه .

لقد ظل الكثيرون يعتقدون حتى عام ١٨٤٦ أن فرنسا قد تمكنت أخيرا من أن تعى الأساليب الانجليزية وراحت تبنى نظامها على نمط برلمان انجلترا ودستورها . فما أقل من كانوا يعرفون فرنسا ! فان نذر العاصفة لم تلبث أن جاءت من كل حدب وصوب . فالصحف الفرنسية طفقت تشدد النكير فى تعليقاتها على سياسة الخداع التى تنتهجها الحكومة فى الداخل والخارج . ونقل جثمان نابليون الى الأنفاليد

---

(١) اما الاطفال الذين انجبتهم ايزابيلا فى النهاية فهم — فيما هو ظاهر — ابناء شخص آخر غير زوجها والدوق دى مونت بنسييه هو ابن لويس فيليب . والرأى الذى اوردناه هنا هو رأى بالمرستون . راجع مكتب الوثائق العامة ، وزارة الخارجية ٩٦/٢١ مضبطة ٢٠ سبتمبر ١٨٤٦ ، ومضبطة ٢٢ اغسطس ١٨٤٧ التى توصى بـ « أن يلغى زواج الملكة ويختار لها قرين آخر انسب » .

Public Record Office, F.O. 96/21, minute of September 30, 1846 and of August 22, 1847.

وراجع كذلك كتاب س . ا . فايف « أوربا الحديثة » (١٩٢٤) — المجلد الثانى صفحة ١٨٢ ، وكتاب كامبردج « التاريخ الحديث » المجلد الحادى عشر ص ٥٥٥ .

C.A. Fyffe : Modern Europe (1924), vol. II. p. 182; Cambridge Modern History, vol. XI. p. 555.

قد بعث « البونابرتية » وأحيا عبادة نابليون فى أعنف صورها . وبينما انصرف « ثيير » الى التغنى فى أشعاره بفضائل النظام الامبراطورى راح لامارتين يوقظ فى قرائه مشاعر الحماسة للنظام الجمهورى بكتابة البليغ « تاريخ الجيروندديين » (١) وقد أدرك لوى فيليب ووزير خارجيته جيزو أن فرنسا تريد شيئا ما ، ولكن معارضيهما أولوا استعدادهما لمعالجة الموقف بالتراجع فى بعض المسائل الصغيرة ، بأنه علامة من علامات الضعف .

لقد قامت ملكية أورليان على نظرية محددة : هى نبذ فكرة الحق الالهى وارساء قواعد حكم « العقل الخالص » ، فاستبعدت الحزب الكاثوليكى ودعاة الشرعية من أنصار البوربون ، ولكنها لم تبذل أى جهد للتفاهم مع الثوريين أو الديموقراطيين ، بل سعت الى اقامة حكم البورجوازية أو الطبقة الوسطى ، باعتباره « الوسط الذهبى » بين الغلاة والجمهوريين . فالمواطنون الذين يدفعون ضرائب تصل الى ٥٠٠ فرنك أو يزيد لهم حق الترشيح لعضوية البرلمان ، وأولئك الذين يدفعون ٢٠٠ فرنك لهم حق الانتخاب . وليس لغير هؤلاء وأولئك أية حقوق . على أن البورجوازية الفقيرة كانت تتمتع بامتياز هام ، فمنها كان يتألف الحرس الوطنى وهو هيئة كانت تؤدى — دون ماكفاية وبغير انتظام — وظائف الشرطة والجنود ، فتملك بذلك سلطة محسوسة ، وان افترضت فيها الطاعة العمياء لأوامر البرلمان والبورجوازية الغنية . وقد أخذ التبرم يتفشى بين صفوف هذه الطبقة وبدأ رجال الحرس الوطنى يظهرون اخلالا بالنظام فى استعراضاتهم ،

---

(١) نشر كتاب لامارتين فى ١٨٤٧ ويذهب الدكتور جوتش فى وصفه له فى كتابه «التاريخ والمؤرخون» (١٩١٣) ص ٢٢٨ الى حد قوله :

« لقد أدى أقل الكتب قيمة وأعظمها بلاغة دوره مجاءت الامبراطورية الثانية بعد الملكية الدستورية » .

Dr. Gooch, History and Historians (1913), P. 228.

مما اضطر الملك الى الكف عن استعراضهم ليوفر على أذنيه سماع الهتافات العدائية التى ما فتئوا يرددونها لدى رؤيته . أما فى البرلمان فقد كان مركز لوى فيليب آمنا بفضل ماسمى « براعة جيزو المهلكة » فى استخدام أدوات الفساد . كانت هناك حقا معارضة قوية يتزعمها « تيير » ، ولكن هذه المعارضة لم تكن لتؤدى فى حد ذاتها الى القضاء على حكم لوى فيليب ، فان هدف « تيير » كان العودة الى الحكم ووسائله كانت فى مجموعها دستورية . على أن الأحاديث الغاضبة التى ما برحت تتردد فى البرلمان والصحف والمحافل العامة قد ساعدت على اثارة العناصر الأعنف ثورية فى الخارج وتحريكها .

وعلى هذا يتلخص الموقف فى نهاية ١٨٤٧ فى أن لوى فيليب كان يتمتع بأغلبية فى البرلمان وان واجه معارضة قوية فيه،وأن البورجوازية الفقيرة فى الحرس الوطنى كانت ساخطة غير مستقرة على حال . وكان اليمينيون واليساريون سواء بسواء يثيرون هياجا شديدا خارج البرلمان ، فغلاة اليمينيين مابرحوا يطالبون بعودة البوربون الشرعيين والعلم الأبيض والتعليم الكاثوليكى فى المدارس ، أما اليساريون فكان يحركهم تياران قويان : فلامارتين راح ينادى بالرجوع الى أمجاد الجمهورية السابقة ، جمهورية حرة غازية مستنيرة ، بينما تزعم لوى بلان جماعة عززت بالدعاية الاشتراكية قوى السخط الديمقراطية التى كانت قوية بالفعل ، فقد أضاف الى الدعوة لحقوق الانسان والانتخاب العام والمساواة السياسية ، الدعوة لاقامة المصانع الأهلية، وانتهاج سياسة اجتماعية وشن الحرب الطبقية . على أن الشىء الذى أكسب هذه الهجمات الآتية من كل حدب وصوب قوة فى القضاء على لوى فيليب ، هو التقاء جميع عناصر المعارضة عند نقطتين : فمهما يكن من أمر حسنات لوى فيليب ، فان سياسته الداخلية كانت — باعتراف الجميع — وضيعة فاسدة ، أما سياسته الخارجية فقد انتهى بها المطاف الى استثارة عداء انجلترا . وكان لوى فيليب يعتمد على

انجلترا « لتزكيتـــه » فى بلاطـات أوربا والارتفـاع به عن وضع الملك المحدث . فاذا بهذه السياسة التى نجحت فى وقت من الأوقات تؤول الآن الى فشل ذريع . لم يبق اذن للملكية البورجوازية ما تبرر به وجودها ، ولم تعد لها سياسة ثابتة مفهومة . وليس ثمة ماهو أدل على هذه الحقيقة من أن الكاثوليك والجمهوريين شرعوا يفـاتحون بعضهم بعضا للتضامن فى مهاجمة الحكومة .

وقد ندد جيزو فى خطاب تعوزه الحكمة ألقاه فى بداية عام ١٨٤٨ بـ « النزعات العدائية العميـاء » التى ترمى الى القضـاء على النظم القائمة ، فقررت المعارضـة الكاثوليكية والمعارضـة الجمهورية على السواء اقامة مأدبة كبرى فى باريس للاحتجـاج على قـولة جيزو . وهددت الحكومة بمنع اقامة تلك المأدبة التى حـدد لهـا يوم ٢٢ فبراير سنة ١٨٤٨ . فأفزع هـذا الموقف الحـازم لأول وهـلة ذلك الائتلاف غير المتجانس الذى يضم غـلاة الكاثوليـك والجمهوريين الديموقرطيين والاشتراكيين ، ولـكن غـوغاء باريس تدخلوا ليلة ٢١/٢٢ فبراير ، فأسفر تدخلهم عن سـقوط الملـكية الدستورية فى فرنسا (٢٥ فبراير) وفرار الملك وأسرته الى انجلترا .

لقد قدر للوى فيليب أن يثبت أن فرنسـا لا تكن حبـا للملكية الدستورية من الطراز الانجليزى . فالسعى الى تحقيق التوازن بين مختلف القوى ، وفرض القيود على الديمقراطية ، والتضحية بالمبادىء من أجل الحلول الوسطى ، لم تكن وقتذاك — ولا هى الآن — من الأمور التى تحبها فرنسا . وما أقل استساغتها لذلك الحل الوسـط المتمثل فى حكم لوى فيليب بالذات ، فما هو بحكم فكرة دينية مثـل البوربون الشرعيين ، ولا هو حكم رجل قوى مثل نابليون ، ولا هو ديموقراطية مثل جمهورية ١٧٩٣ . فما كان من فرنسا الا أن أسقطت لوى فيليب فى ١٨٤٨ لتعود من جديد الى تجربتها الجمهـورية ثم النابليونية .

فى هذه الحقبة من التاريخ الأوربى أرسيت بنجاح دعائم الحكم الدستورى فى بلجيكا ، وقامت فرنسا بتجربة طويلة فى نفس الاتجاه ، وحاكتها فيها — محاكاة هزيلة — البرتغال وأسبانيا ، ولكن كان ثمة أمتان أخريان فى أوربا أثارت نقمتهما على الحكم الأجنبى مشاعر أعنف دفعتهما الى الدخول رأسا فى تجربة الثورة . وكلتا الامتين كانتا قد قسمتا ووزعت أراضيهما على دول عديدة : فبولندة شقت الى ثلاثة أجزاء ، وايطاليا الى سبعة .

أما بولندة فقد منحها اسكندر وقت حصوله على الجزء الأكبر منها عام ١٨١٥ ، دستورا وأعلن عن عزمه حكمها كمملكة لهاكيانها القومى ، وكان صادق النية فأيده ، لفترة من الزمن ، كثيرون من الوطنيين البولنديين ومن أشهرهم النبيل زارتوريسكى . ولكن الروس والبولنديين كانوا أشبه بالزيت والخل لا يمتزجان . فالبولنديون ، وهم العنصر المغلوب على أمره ، كانوا يشعرون بالتفوق فى كل شىء عدا القوة . اذ كانت لهم ثقافة لاتينية مقابل ثقافة الروس شبه اليونانية ، وتاريخ مجيد مقابل صحائف الروس الحافلة باراقة الدماء ، وتقاليد لحمتها المساواة الأرستقراطية مقابل خضوع الروس العبودى للحاكم ، وروح لبنتها الفروسية والاعتزاز بالحرية مقابل روح الطغيان والاستبداد عند الروس . ولم يبدل من الأمر شيئا أن اسكندر منحهم دستورا تحرريا تقدميا . فان أية عطية يقدمها حاكم روسى ، مهما يكن عطوفا ، لابد وأن تكون موضعا للريبة فى نفوس معظم البولنديين الوطنيين . ثم ان اسكندر على مايبدو من لطفه ووداعته ، عين أخاه الدوق الأعظم قسطنطين قائدا عاما عليهم ، وكان هذا طاغية أحمق راح يفرض سيطرته على نائب الملك الضعيف . وقد افتتح الديت الأول فى ١٨١٨ ، ولكن الرقابة المشددة فرضت على الصحف فى ١٨١٩ ومع أن الديت انعقد مرة أخرى فى ١٨٢٠ ، فان اسكندر لم يلبث أن حله وامتنع طوال خمس سنوات عن دعوة المجلس الجديد للاجتماع .

وقد أخذت الجمعيات السرية تنمو وتقوى ، ولما افتتح اسكندر الديت الثالث فى ١٨٢٥ حد من سلطاته حدا جعل الدستور من الوجهة العملية معطلا . فهو كما قال بايرون :

« لم يكن له اعتراض على الحرية الحقة سوى أنها تجعل الأمم حرة » .

ولما مات اسكندر فى أواخر ١٨٢٥ ، قامت مؤامرة ضد خلفه اشترك فيها بولنديون . وكان القيصر الشاب نيقولا أوتوقراطيا بطبيعته . وقد أثار موقف بولندة حفيظته الى أبعد حد ، ورغم أن تصميمه على اخماد الحريات الضئيلة التى بقيت لبولندة يرجع على الأرجح الى ذلك التاريخ ، فقد أخفى عزمه بضعة أعوام ، ودعا الديت الرابع ، والأخير كما ستتبين ، الى الانعقاد بعد خمس سنوات ، فاجتمع دورة قصيرة تجلى فيها الشك من الجانبين . وقد أثارت الثورة الفرنسية التى هبت فى يوليو ١٨٣٠ انفعالا كبيرا فى نفوس البولنديين ، وأخذت الجمعيات السرية تنفشى حتى فى صفوف ضباط الجيش ، وأخيرا أدت الاستعدادات التى راح نيقولا يتخذها لاخماد الثورة فى فرنسا وفى بلجيكا ، الى نشوب حركة تمرد فى البلاد . ففى ٢٩ نوفمبر حدث عصيان فى وارسو . وفقد الدوق الأعظم قسطنطين رباطة جأشه ، فسحب القوات الروسية من العاصمة وغادر المملكة . فألفت قبل نهاية العام حكومة مؤقتة مناهضة للروس وممالئة للشعور القومى .

وقد أظهر البولنديون ترددا كبيرا ، فرغم أن جيشهم كان يربو على ٥٠٫٠٠٠ رجل ورغم أنهم قد أخذوا القيصر على حين غرة ، فقد راحوا يضيعون الوقت فى مفاوضات عقيمة . على أنهم ، بخلعهم القيصر فى يناير ١٨٣١ ، قد جعلوا وقوع الصراع أمرا محتوما . فكان أن دخل الروس ، بعد أن تمكنوا من حشد قواتهم ودخلوا المملكة فى فبراير فى أعداد ساحقة . الا أن المعارك الأولى لم تكن حاسمة ، فصمد البولنديون حتى مايو ، ولكنهم لم يستطيعوا تأخير النهاية الا الى سبتمبر . ففى

ذلك الشهر دخل الروس وارسو وأطاحوا فى ضربة واحدة بالملكية الدستورية والحريات العامة . فقدر لبولندة أن ترضخ مدى ربع قرن لحكم حديدى فقدت فيه حياتها العضوية المستقلة وساسها فيه السيف الروسى وحده .

ومما يجدر بالذكر أن ما أبداه البولنديون من الفروسية واندفاعهم الثورى ومقاومتهم الباهرة قد أثارت عطفا كبيرا فى أوربا . فاحتجت فرنسا وانجلترا لدى روسيا ولكن الاخيرة لم تكن فى مزاج يسمح لها باعارة الاحتجاجات النظرية أذنا مصغية . فلم يجد شيء فى صرفها عن تحقيق غرضها فى محو كيان بولندة المستقل من الوجود . بيد أن من المهم أن نلاحظ أن روسيا قد حاولت اقامة نوع من الحكم الدستورى فى بولندة ، وأن فشل تلك المحاولة يرجع — جزئيا — الى بولندة نفسها . الا أن الشعور القومى كان أقوى من أن يسمح بالتعاون مع روسيا بل أقوى من أن تخضعه تدابير القمع الوحشية التى استخدمتها روسيا . فلئن باتت بولندة بلا حول ولا قوة فان روحها ظلت صلبة لا تقهر . وقد بقيت رغم تقسيمها الى ثلاثة أجزاء متمسكة بمثلها الأعلى فى الوحدة القومية . فظلت كما كتب ميتلاند « ثلاث كسر لا تقوى على هضمها ثلاث معدات » . وقد أتيحت للبولنديين الخاضعين للحكم النمساوى بل وأحيانا للبولنديين الخاضعين للحكم البروسى نفسه ، بعض الفرص للتعبير عن قوميتهم . وأثبتت الأيام أن ضم كراكاو للنمسا فى ١٨٤٦ كان من العوامل التى ساعدت فعلا على بعث بولندة . فقد سمحت النمسا للبولنديين فى جاليسيا بشيء يشبه « الحكم الذاتى » وفى ظل سيطرتها المعتدلة نما الشعور القومى وأصبحت كراكاو مركزا للثقافة البولندية والفن والأدب البولندى والدعوة الوطنية . ولسوف تكبر نواة القومية التى نبتت هناك فتشمل بولندة كلها فى النهاية .

وأما ايطاليا فقد عاد حكم نابليون عليها بفوائد جمة . اذ أحسن الفرنسيون حكم المنطقة الشمالية وتوددوا عن حكمة الى الشعور القومى فيها . ووقعت مملكة نابولى من نصيب القائد الجسور «مورا» وقد انتهى به المطاف الى التفكير فى مشروع جرىء ألا وهو توحيد ايطاليا كلها تحت حكمه . ولم يلبث أن أدخل مشروعه فى طور التنفيذ خلال عامى ١٨١٤ — ١٨١٥ وأعلن قيام « ايطاليا المتحدة » . وقد هزم وأعدم آخر الأمر ، ولكن المثل الأعلى الذى أعلنه لم يمت . ومازال «مورا» رغم كونه فرنسيا ، موضع تبجيل الايطاليين حتى يومنا هذا باعتباره أول بطل من أبطال وحدة ايطاليا واستقلالها فى العصر الحديث .

على أن ايطاليا أضحت فى ١٨١٥ فى حال تدعو الى القنوط التام . ففرديناند الملك البوربونى الذى أعيد الى نابولى ، كان طاغية خئونا قاسيا وكان رهن اشارة مترنيخ . وايطاليا الوسطى استردها البابا وراح يحكمها بروح العصور الوسطى وتعصبها . ولم يكتف مترنيخ بالحصول للنمسا على كل من لومبارديا وولاية البندقية Venetia بل راح يبسط سلطانه أيضا على أمراء الشمال الثانويين . أما بيدمونت بلاد القساوسة والجنود فهى وحدها التى ظلت قوية نسبيا ، ولكن قليلين هم الذين كانوا يرون فيها يومئذ باعثة ايطاليا . وكان ملكها لايزال ملكا مستبدا وبالتالى موضع ريبة جميع الأحرار .

وقد تألفت الجمعيات السرية فى شتى أنحاء البلاد (وأهمها الكاربونارى) للعمل من أجل الوحدة الايطالية . وفى ١٨٢٠ قامت ثورة فى نابولى أرغمت فرديناند على تأدية يمين الولاء لدستور ديموقراطى ، وتلتها ثورة فى بيدمونت (١٨٢١) شارك فيها بمشاعره ولى العهد (الذى سيعرف فيما بعد باسم شارل ألبرت) ولم تلبث أن أخمدت على الفور تقريبا ، وان هى الا فترة وجيزة حتى تمكن جيش نمساوى من الاجهاز على دستور نابولى ، فساد القمع الوحشى شتى أرجاء ايطاليا وباتت دماء الرجال تهدر — على حد تعبير بايرون —

« لمجرد أنهم حلموا بالحرية » . وقد التقى المتآمرون الذين فروا من بيدمونت بمازيني الشاب في جنوة ، فهز اخلاصهم وحزنهم مشاعره . وقد كتب يقول « في ذلك اليوم عرضت لي ، لأول مرة وبصورة مبهمة ، فكرة لن أصفها بأنها فكرة الوطن والحرية ، وانما فكرة أن كفاح المرء لتحرير بلده أمر ممكن وبالتالي أمر واجب » . وقد أخذت هذه الفكرة الغامضة تنضج في ذهن مازيني الشاب حتى تحولت الى نبوءته الرائعة بقيام ايطاليا « حرة متحدة من الألب الى المحيط » . ذلك الحلم الذي لن يلبث أن يتحقق في غضون أربعين عاما .

وقد بدا بعد هاتين التجربتين أن لاجدوى في محاربة الطغاة بالسلاح ، فأخذت الثورة تشق لنفسها انفاقا في الخفاء ، وراحت الجمعيات السرية تنشط بدعايتها المستترة في كل مكان . وقد تسببت ثورات عام ١٨٣٠ في قيام بضع انفجارات في ايطاليا وأججت النيران المضطرمة في النفوس وفي العام التالي أنشأ مازيني في مارسيليا جمعية « ايطاليا الفتاة » . فبلغ عدد أعضائها ٦٠ ألفا في ظرف عامين . وقد أثر عنه قوله « ان الأفكار تنمو سراعا اذا ماروتها دماء الشهداء » . ولم تكن حركة تحرير ايطاليا بفقيرة الى الدماء . ففي ١٨٤٤ فر الأخوان « بانديرا » من البحرية النمساوية ليتزعما ثورة في كالابريا . وسرعان ما أحاطت قوات فرديناند ملك نابولي بهما وبأتباعهما وألقت القبض عليهم . وقد أعدم جنود فرديناند تسعة من هؤلاء الأسرى ضربا بالرصاص ، ماتوا جميعا والهتاف بحياة ايطاليا على شفاههم فكان لاستشهادهم معنى رمزي ، اذ كانوا يمثلون شتى أنحاء ايطاليا . فأخوان بانديرا كانوا من البنادقة في حين كان سائر الشهداء الذين سقطوا معهم من رومانا ومودينا وبيروجيا . فكأنما ساقت الأقدار هذا الحادث ليثبت أنه اذا لم يكن بوسع الايطاليين أن يعيشوا عيشة واحدة فان بوسعهم على الأقل أن يموتوا ميتة واحدة .

وقد استمدت الحركة المذهلة المنادية بالوحدة القومية التي راحت

تسرى الآن كالكهرباء فى شتى أرجاء ايطاليا قوة جديدة من أحداث ثلاثة وقعت قبيل حلول عام ١٨٤٨ . فأولا حدث أن اعتلى شارل البرت عرش بيدمونت فى ١٨٣١ . وكان فشل الحركة الدستورية عام ١٨٢١ قد أفقده اعتباره فى نظر الايطاليين ، كما كان كنسيا فحامت الشبهات بالتالى فى قوميته ، وزاد الطين بلة أن اجـراءاته الأولى اتسـمت بالقمع . ولكنه رغم حيائه وتردده كان مخلصـا فأخذ المحيطـون به يدركون شيئا فشيئا أنه يؤمن فى أعماق قلبه بقضية ايطاليا ويحلم بأن تنال حريتها فى يوم من الأيام . ولما شرع جيوبرتى يدعو الى الاصلاح المعتدل ، أظهر شارل ألبرت فى مجالسه الخاصة عطفا على آرائه ، فبدأ الناس يرون فيه قائدا محتملا للمستقبل . وكانت له ميزة فى ناحيـة من النواحى . ذلك أن سائر حكام ايطاليا المدنيين كانوا من أسوأ طينة ولا يثيرون فى النفس الا الازدراء أو السـخرية . فنابولى كان يحكمها فرديناند الثانى الذى كان فظا عديم المبالاة ، وطاغية مبتذلا . أما مردينا فكان على رأسها «لوكا» وهو حاكم أنانى مستبد ، مجنون كئيب ، وبارما تحكمها أرملة نابليون التى تركت تصريف شئون الحكم لعشيقها فبدا شارل البرت بالقياس الى هذا الرباعى ، بطلا من أبطال النور والحرية يمكن أن تعلق عليه الآمال لتخليص ايطاليا .

وفى هذه الأثناء أخذ ساعد « ايطاليا الفتاة » يشـتد ، وأقنعت دعايتها الكثيرين بأن الثورة الايجابية العنيفة هى السبيل الوحيد لانقاذ ايطاليا . وكان أعضاء هذه الجماعة أعداء ألداء للمعتدلين من دعاة الاصلاح . وقد أكسبهم ارهاب مترنيخ الصارم المزيد من الأنصار . والصورة التى رسمها براوننج لايطاليا توضح لنا مشاعر عامة الشعب ، فهو يقص علينا كيف طربت خادمته لأنباء اصابة فرديناند ملك نابولى على يد المتآمرين ، وأعربت عن أملها فى « ألا يكونوا قد قبضوا على الفاعلين » . وهو يقول على لسان ايطالى فى انجلترا :

« فاذا كان لى أن أحقق لنفسى رغبات ثلاث

« فانى أعرف على الأقل منها واحدة
« فأرانى ممسكا بمترنيخ حتى أحس بالدماء
« تقطر حمراء من عنقه البليل
« بين يدى هاتين » (١)

ذلك أن أعمال القمع الوحشية التى ارتكبها كل من فردينانـد ومترنيخ قد أدت الى استثارة عبقرية الايطاليين فى تدبير المؤامرات واذكاء حرصهم على الانتقام ، وأشعلت نفوسهم حقدا وكراهية . فلم يكن ينقص هذا الشعور سوى الفرصة أو المخرج ليتفجر دماء ونيرانا .

وقد عزز التيارين المندفعين نحو الوحدة القومية ، وهما تيار الاصلاح المعتدل وتيار الثورة ، تيار ثالث أتى من جهة غير متوقعة . فلأول مرة ، بل للمرة الوحيدة تقريبا فى تاريخ ايطاليا ، يثبت أحد البابوات أنه رجل قومى وطنى متحرر . ذلك أنه فى ١٨٤٦ انتخب بابا جديد (بيوس التاسع) يقال انه تشرب المبادىء الوطنية عن الكاربونارى فى شبابه . ومن المقطوع به أنه قد أعرب صراحة ، عندما كان كاردينالا فى ايمولا عام ١٨٤٠ ، عن اشمئزازه من أساليب البوليس النمساوى وأحكام السجن والنفى والاعدام . وقد كان ينتمى من حيث المبدأ الى حزب الاصلاح المعتدل . ومع أنه كان رجلا لين العريكة حلو المعشر أكثر منه قائدا جادا ، فان المركز المرموق الذى كان يشغله ، والاجراءات الأولى التى اتخذها لم تركز عليه الأبصار فحسب ، وانما دفعت كذلك الأمانى القومية دفعة عجيبة الى الأمام .. فقد كان من أول الاجراءات التى اتخذها اعلان العفو فى الولايات البابوية عن جميع المجرمين والمشبوهين السياسيين . فكان لهذه الخطوة أثر لا يوصف . وكان هذا العمل وحده كفيلا بذيوع صيته ، فراح الناس يستبشرون فى حماسة بالغة ، بظهور بابا محب

---

(١) روبرت براونينج شاعر انجليزى مشهور عاش فى الفترة مابين ١٨١٢ — ١٨٨٩ (المترجم)

للحرية ، ويعتبرونها معجزة هبطت عليهم من السماء . فأسقط فى يد مترنيخ وروى عنه أنه قال « لقد كنا مستعدين لكل شىء اللهـم الا ظهور بابا متحرر . أما وقد ظهر لنا هذا البابا ، فليس ثمة حد لما تتوقعه » وكتب مراقب ثاقب النظـر الى كارلو ألبرتو يقـول « أن الثورة لا تحتاج الى صنع فقد تم صنعها بالفعل » . وأنشأ مترنيخ يفكر فى ١٨٤٧ فى استخدام القوة . وفى أوائل ١٨٤٨ بدأت الثـورة المحتومة ، فقد منح شارل ألبرت شعبه دستورا فى ٨ فبراير ، فأذاع بيوس التاسع فى ١٠ فبراير موعظته التى تضمنت عبارته الشـهيرة « فليبارك الله ايطاليا ! » وعاد البابا فى اليوم التالى الى اسـتخدام نفس العبارة فى الخطاب الذى ألقاه من شرفة الكيرينال أمام الجماهير المحتشدة وأثار به حماسة بلغت حد الهوس . فالآن وقد أصبح لايطاليا بابا متحرر فى روما وملك دستورى فى تورين حانت ساعة الثورة . ولن يلبث مازينى ، الذى كان ستار النسيان قد أسدل عليه برهة من الزمن ، أن يحتل مكانه فى الصفوف الأمامية أما غاريبالدى فقد ظهر بالفعل على مسرح الحوادث ليتولى قيادة جيش « ايطاليا الفتاة » .

لقـد بدأت الفترة مابين ١٨١٥ الى ١٨٤٨ بمحـاولة من جانب الديبلوماسيين الأوربيين لتكميم القوى التى أطلقتها الثورة الفرنسية ونابليون . وأبرمت تسويات فيينا لتنسيق مطـامع الدول الـكبرى الاقليمية لا لارضاء المطالب القومية . الا أن هذه التسوية الاقليميـة كانت ـــ اذا قصرنا نظرتنا على الدول الكبرى وحدها ـــ ناجحة ،فقد أبقت أوربا بمنأى عن الحروب الكبيرة طوال أربعين عاما . أما التجربة الأكثر طموحا ، ونعنى بها تجربة الحكم الدولى أو الحـكم بوساطة المؤتمرات التى استمرت من ١٨١٥ الى ١٨٢٥ فكانت نهايتها أليمة . فقد تحولت الى « نقابة للملوك » يشترك أعضاؤها فى (بوليصـة) تأمين متبادل ، وعجزت عن أن تدخل فى اعتبـارها حاجات ورغبات حكومة برلمانية تستند الى تأييد شعبى قوى مثل حكومة انجلترا .

فأسدى كاننج بانهاء هذه التجربة المحفوفة بالمخـاطر خـدمة جليلة لا لانجلترا وحدها وانما لأوربا كلها .

وكانت سياسة مترنيخ فى النمسا وفى ألمانيا تمثل محاولة ممـاثلة فشلت لأسباب مماثلة . فقد رمى مترنيخ الى فرض نظام موحد للقمع على مجموعة من الشعوب والدول لم تكن لترضى بانكار رغباتهـا القومية وأمانيها فى الحرية . فهبت شعوب النمسا والمجر ودول ألمانيا تكافح ضد القيود التى أثقلها بها مترنيخ حتى حطمتها اربا فى ١٨٤٨ . وسجلت ثورتها نجاحا دائما هذه المرة ، فلم يبق ، بعـد انتفاضات ١٨٤٨ ، أثر لا لألمانيا ولا للنمسا كما عرفهما مترنيخ .

أما فى بروسيا فقد سبق الثورة والاتجاهات التحررية مجموعة من الرجال الأكفاء بانتهاجهم سياسة حكيمة نيرة فى التعليم والاصـلاح وبفرضهم على الدولة نظـاما عسكريا صارما أثبت أنه خير ضـمان لسيادة القانون والنظام . وقد جاء هذا النظام ملائما للشعب البروسى الذى كان يقدر الذكاء والحكم القوى حق قدرهما ويدرك عـدم كفايته السياسية ، فكان أن تكسرت أمواج ١٨٤٨ التى أحالت قصور مترنيخ الى أكوام من الرمال ، بعنف ولكن دون طائل على صـخرة الدولة البروسية الراسخة .

وقد انتهجت انجلترا فى ظل كاننج وبالمرستون سياسة قوامهـا الانتهازية البارعة والعطف المتزن على الأمانى القوميـة والمنـاصرة الصريحة للحكم البرلمانى والدستورى . وقد وفق الرجلان فى عمل شىء ما للبرتغال وأسبانيا ، وفى تحرير اليونان وانشاء بلجيكا . وأثبت عام ١٨٤٨ أن فى انجليهما خلاص الملوك ، فهما اللذان « جعلا العالم مكانا آمنا للملكية الدستورية » — ولكن للملكية الدستورية وحدها !

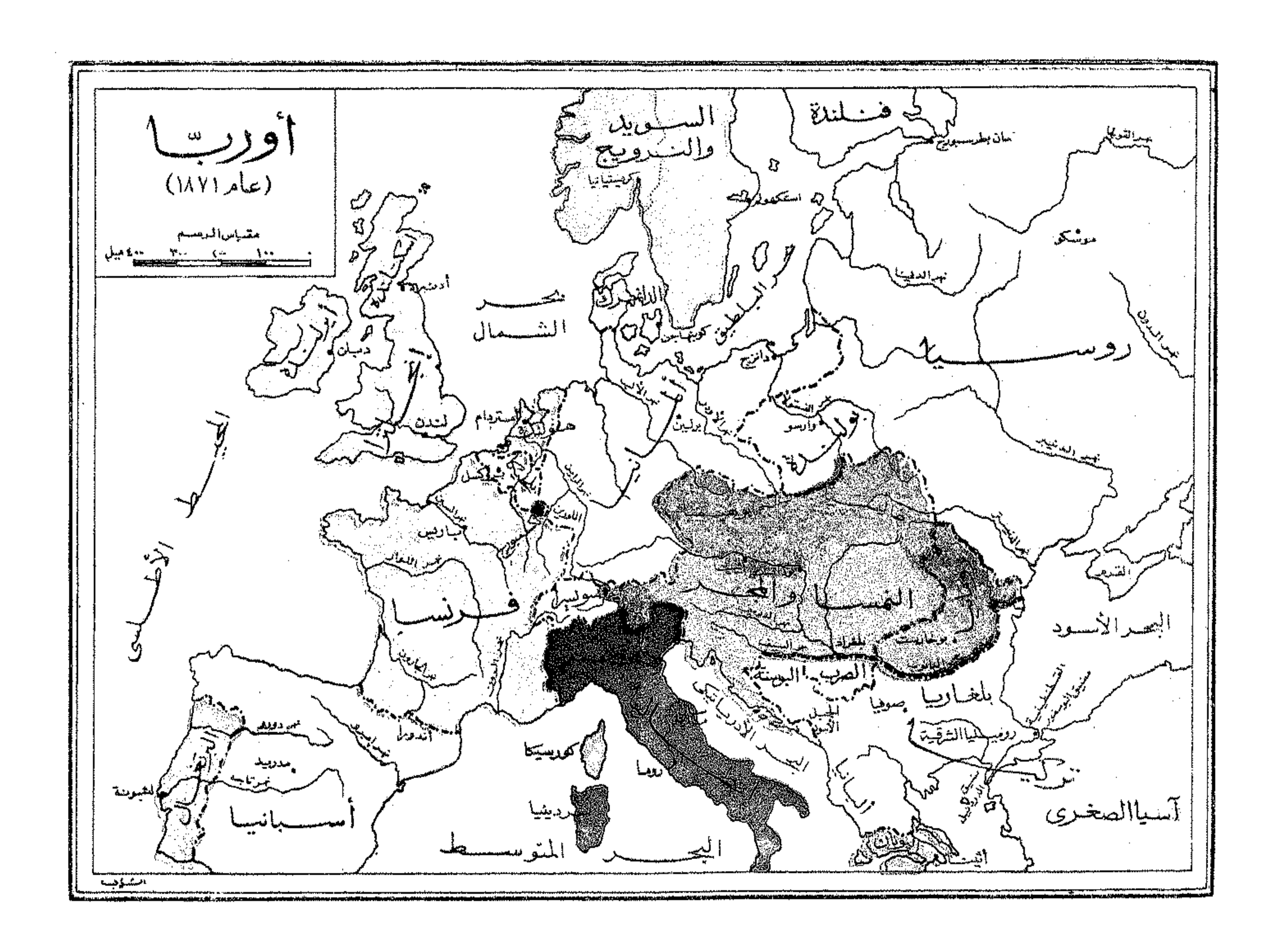
ولو سئل لوى فيليب لما وافق فى أغلب الظن على هذا الرأى ، فهو قد حاول أن يكون ملكا دستوريا ولكنه ألفى نفســه مع ذلك أول الساقطين فى ١٨٤٨ . غير أن النظام الذى طبقه لم يكن بالذى يناسب

الأمة الفرنسية . فهو لم يلق بالا للمساواة وحقوق الانسان اللذين كانا أبقى مافى تراث ١٧٨٩ ولم يكن لحكمه شيء من روعة العهد النابليونى واستنارته . ومثل هذه الحكومة القائمة على الانتخاب المقيد، المتبلدة غير النابهة ، المسالمة غير العسكرية ، الأوليجركية غير الديموقراطية لابد وأن تفشل . ففرنسا قد تحكم بوساطة امبراطور واستفتاءات ، أو انتخاب عام وجمهورية ، ولكنها لم تكن لتحكم بوساطة حل وسط غير موفق بين الأمرين . لقد كانت جموع الشعب ، فى بلجيكا وبيدمونت وانجلترا ، تتقبل راضية حكم الطبقة الوسطى فى تلك الفترة . بخلاف الحال فى فرنسا . ولهذا نجحت الملكية الدستورية فى البلاد الأخرى لعين السبب الذى فشلت من أجله فى فرنسا ، وبينما كان وجودها عاملا على تجنب قيام الثورات أو تهدئتها فى سائر أنحاء أوربا ، نراها قد ولدت الثورة وأكسبتها قوة فى فرنسا .

أما بولندة وايطاليا فكانتا تختلفان عن فرنسا الثورية وعن البلاد الدستورية كذلك ، فهما قد أثبتتا أنهما أكثر حماسة للاستقلال القومى منهما للديموقراطية ، وللديموقراطية منهما للحكم الدستورى . وقد دفعتهما كراهيتهما للأجنبى الى الانغماس فى تيار الثورة باندفاع وقبل أن يؤون أوان النجاح . وقد بدا فشل بولندة جليا فى ١٨٣١، وايطاليا فى ١٨٤٩ ، ولكن الجهود التى بذلت والحماسة التى أثارتها بطولتهما واخلاصهما لم تذهب أدراج الرياح فلئن كانت ايطاليا قد صنعت ثورة فانها قد صنعت فى نفس الوقت أمة ، وقد تسبب فشل الأولى فى نجاح الثانية . ولسوف تبلغ ايطاليا مرادها فى ١٨٦٠ وتفشل بولندة مرة أخرى فى ١٨٦٣ وان كانت ستكسب فى النهاية لا محالة استقلالها القومى ببذل النفس والتضحية ، شأن ايطاليا ، وان اقتضاها ذلك وقتا أطول .

ومهما يكن من أمر فاننا اذا نظرنا الى النتائج الفعلية أمكننا القول بأن الحكم الفردى والثورة قد فشلتا فى تلك الحقبة وأن الحكم

الدستورى قد نجح . فان الدول الأوتوقراطية قد أدت ، بمحاولتها كبت القوة الدافعة للأفكار الجديدة بدلا من تلطيفها أو استيعابها ، الى انفجار ١٨٤٨ ، وعندئذ اتضحت مزايا الحكم الدستورى . لم يكن العالم « ناضجا للثورة » فى ١٨٤٨ ، ولكنه كان قد « جعل مكانا مأمونا » للملكية المقيدة ، فجاءت نتائج تلك الانتفاضة فى صالح الملكية الدستورية والاتجاهات التحررية « البالمرستونية » فى كل مكان عدا فرنسا .



أوربا
(عام ١٨٧١)
مقياس الرسم
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ميل
السويد والنرويج
فنلندة
سان بطرسبورج
موسكو
استكهولم
كوبنهاجن
بحر الشمال
روسيا
دبلن
أدنبرة
لندن
أمستردام
برلين
وارسو
باريس
فرنسا
سويسرة
النمسا والمجر
بوخارست
بلغراد
البوسنة
الصرب
بلغاريا
صوفيا
روميليا الشرقية
البحر الأسود
آسيا الصغرى
كورسيكا
روما
سردينيا
البحر المتوسط
أسبانيا
مدريد
لشبونة
أثينا
المحيط الأطلسي

الجزء الثالث

الإمبراطوريات الفرنسية والألمانية والروسية

الفصل الحادي عشر
ثورة ١٨٤٨ وقيام الإمبراطورية في فرنسا

كانت ثورة ١٨٤٨ من صنع باريس وحدها ، بل كانت من صنع جانب صغير فقط من سكان باريس . لقد كان هناك هياج فى الأقاليم ضد تقييد حق الانتخاب،ولكن الأقاليم لم تسهم بنصيب فى الحركةالتى أرسلت أسرة أورليان « الى حيث تواصل أسفارها » . ولا يكاد يوجد شك فى أن السواد الأعظم من الفرنسيين كانوا معارضين لما حدث .

كان لوى فيليب يأمل فى ابقاء الحكم فى أسرته فى شخص حفيده تحت وصاية دوقة أورليان . غير أن الجمعية لم تكن فى مزاج يسمح لها بالموافقة على هذا الحل ولم تلبث جموع باريس أن اقتحمت فناءها مما أدى الى فض الاجتماع ، ولكن الأعضاء الذين بقوا نادوا ، تؤيدهم جموع الشعب ، بقيام حكومة مؤقتة تتألف من الاشخاص الواردة أسماؤهم فى قائمة اقترحها عليهم لامارتين . وكانت صحيفة « ناسيونال » قد وضعت القائمة ونشرتها بالفعل ، وعلى هـذا يمكن القول بأن ثورة باريس هذه انما تسجل ذروة النفوذ السياسى المباشر الذى مارسته الصحف . كانت القائمة تضم سبعة أسماء كلها لمصلحين وجمهوريين معروفين . وأبرزها لامارتين و«لدرورولين» Ledru-Rollin و«جارنييه باجس» Garnier-Pagès ولكن بينما كان ذلك يجرى فى قاعة الجمعية شكلت حكومة أخرى فى دار صحيفة « ريفورم » ذات الآراء الاشتراكية القوية . وقد ضمت هذه الحكومة أصحاب الأسماء الواردة فى قائمة صحيفة « ناسيونال » ولكنها ضمت أيضا بعض الأسـماء الأخـرى ، وعلى الاخص اسم لوى بلان Louis Blanc الذى يعد ممثل الاشتراكية العظيم الأوحد فى جيله . وقد أدمجت الحكومتان

فى حكومة واحدة هى التى عرفت باسم « الحكومة المؤقتة » . وكان أعضاؤها يدينون بسلطاتهم للثورة وحدها ولم يكن لهم أى سند دستورى .

وقد قامت الخلافات الحادة بينهم منذ البداية . ذلك أن الجمهوريين المعتدلين المنتمين الى الطبقة الوسطى ، الذين كان لامارتين المتحدث البليغ بلسانهم والذين كانوا قانعين بقيام جمهورية وتوسيع نطاق حق الانتخاب ، لم يقبلوا مساهمة الاشتراكيين معهم فى الحكم عن طيب خاطر . وكانوا ينظرون الى لوى بلان نظرة تقرب من العداء ، فكانوا أبعد مايكونون عن الاستعداد لتأييد مشروعاته تأييدامخلصا . وقد اتخذت بعض الخطوات الهامة حال تكوين الحكومة . فأعلن حق الانتخاب العام لجميع المواطنين ، وتقرر أن يقوم الناخبون الجدد الذين يزيدون على تسعة ملايين بانتخاب جمعية تتولى البت فى أمر الدستور فى موعد قريب ، وأعلن فتح باب الانتساب الى الحرس الوطنى لجميع المواطنين ، ذلك الحرس الوطنى الذى ظل طويلا مقصورا على الطبقة الوسطى وحدها والذى مابرح يعتبر حارسا للملكية أولا وقبل كل شىء . كما كسب لوى بلان نصرا عظيما ، فى الظاهر على الأقل ، لفكرته المفضلة . فقد أعلن لجماعة من أصحاب الالتماسات أن الحكومة تتعهد بأن تؤمن لجميع الفرنسيين العمل الكافى ليقيم أودهم ، وصدر على الفور مرسوم بانشاء « الورش القومية » وكان لهذا القرار أهمية قصوى بالنسبة لمستقبل الجمهورية .

ان مجرى أى ثورة يتبع حتما — اذا مانشبت — نزعات العصر الفكرية . وقد كانت باريس ، وفرنسا كلها الى حد أقل ، عامرة بالنشاط الفكرى السياسى والاجتماعى قبل عام ١٨٤٨ . وكان سان سيمون Saint-Simon المتوفى عام ١٨٢٥ هو صاحب النفوذ الأول فى هذا المضمار . وقد قدم هذا الرجل الغريب والمفكر العميق للعالم

حشداً هائلاً من الأفكار بعضها علمي وبعضها الآخر خيـالي (١) . ومقترحاته تستند الى نظرة عامة للتاريخ الانساني . فقد كان يؤمن بأن حقباً يسودها النقد وحقباً يسودها الانشاء تتوالى حقبة بعدأخرى وأن الثورة الفرنسية التي قامت عام ١٧٨٩ تسجل نهاية آخر حقبة من حقب النقد والهدم ، وأن المهمة الماثلة أمام العالم عامة وفرنسا خاصة هي بناء نظام جديد . وكان يعتقد أن الهدف الأول من هذا النظام هـو توفير حياة أفضل للطبقات الصناعية ، وأن تطبيقه ينبغي أن يتم بتوجيه من عقيدة جديدة ، عقيدة تؤمن بالله على نحو مبهـم وان وجب أن يكون لها ، في رأيه ، جهاز محكم من القساوسة والحكماء . وكان ينادي باحلال الصناعة الجماعية محل المشروعات الفردية في النظـام الجديد ، على أن يتحقق احلال هذا النظام محل النظام القديم دون ماعنف أو مصادرة . ان الكثير من تفاصيل مشروعاته وحياته يبعث على السخرية ولكنه مارس نفوذاً عظيماً على مفكري الجيل الذي تلاه وساسته . وقد استرعى فورييه Fourier كذلك اهتمام الكثيرين من معاصريه ، ولكنه لم يمارس نفوذاً يذكر على الفكر في الأجيـال التالية . وهو ينتمي في الحقيقة الى عهد ماقبل الثورة ، حين كان الناس يؤمنون بأن الطبيعة خيرة كلها ، وأن الشر انما هو نتيجـة لتحـكم الانسان وتدخله في شئونها . وكان يؤمن بأن الناس ان تركوا أحراراً في تنظيم شئونهم سينقسمون الى مجموعات « طبيعية » لكل منها ميولها واستعداداتها الخاصة لمختلف المهن وبذلك تؤدي الأعمال التي يحتاج اليها العالم في حرية وكفاءة وحبور .

وثمة حركة لها أهمية مباشرة تفوق أهمية مدرستي فورييه وسان سيمون ، وان تكن وثيقة الصلة بأفكار الأخير ، ألا وهي الحـركة الاشتراكية التي غدت لأول مرة أثناء ثورة ١٨٤٨ تمثل قوة كبرى بين

---

(١) Utopian

شعوب أوربا . ولقد تغير مدلولها كثيرا منذ ذلك التاريخ بتأثير كارل ماركس خاصة . وكان داعيتها الأول فى فرنسا فى تلك الحقبة لوى بلان وهو كاتب غزير الانتاج فى الشئون السياسية والاقتصادية . وقد كتب يصف بعاطفة قوية أحوال الطبقات الصناعية فى باريس وغيرها من الجهات مطالبا الدولة أن تجعل علاج أحوالهم شغلها الشاغل . وكانت له فى هذا المضمار مشروعات عديدة اتسمت بالكثير من الغموض والعاطفية . وفى رأيه أن تاريخ البشرية يكشف عن مراحل ثلاث : أولاها مرحلة السلطة فى السياسة والدين ، تليها مرحلة الفردية متمثلة فى الثورة البروتستانتية وفى الكتاب من طراز مونتانى Montaigne وأخيرا سيأتى عصر التآخى والزمالة . وقد كان بلوغ ذلك العصر هدفا كافحت من أجله البشرية فى كافة العصور ، ثم بلغ الكفاح ذروته فى الثورة الفرنسية الكبرى بشعارها الخالد « الحرية والاخاء والمساواة » . فغدت المهمة الماثلة أمام البشرية هى تنظيم الحياة على أساس من التآخى والزمالة . كان لوى بلان واثقا من النصر ، لأنه كان يؤمن بأن الطبيعة البشرية خيرة فى جوهرها وأن الانتقال الى المرحلة الأخيرة سيتم بسهولة ودون اراقة دماء . « فكل مايلزم هو تزويد العمال بالمال واقامة الورش التعاونية ، فيأتى النجاح حتما » . وهكذا كانت نظرته تتسم بشىء من الخيال ولكن برنامجه كان عريضا شاملا تضمن خططا لكل جانب من جوانب الحياة والحكم . على أن الرأى العام قد تعلق بنقطة واحدة فقط وأساء تأويلها ألا وهى حق العمل . فباتت عبارة « سنعمل ونحيا أو نحارب ونموت » شعارا للذين كانوا يعتبرون أنفسهم أتباعه . ولقد شاهدنا كيف حمله التأييد الشعبى الى عضوية الحكومة المؤقتة وكيف أنه أعلن عن عزم الحكومة على توفير العمل للجميع . لم تكن آراء لوى بلان تروق لمعظم زملائه ولكن لن يكون ثمة مناص من بذل محاولة ما لتنفيذها . لقد كان الكثيرون من زملائه يأملون فى أن تفشل خطته وفى ذلك بذلوا

قصارى جهدهم فعـلا . وقد اقترح لوى بلان كذلك انشـاء وزارة « للتقدم » على أن هذا الاسم الغامض لم يلق استحسانا من الحكومة المؤقته فكان أن أنشأت بدلا من ذلك « اللجنة الحكومية للعمال » وعهدت اليها ببحث كافة المسائل المتعلقة برفاهيتهم .

والآن يحق لنا أن نتساءل عن فشل الورش القومية أهو راجع الى خطأ فى المشروع ذاته أم الى تأييد زملاء بلان الفاتر له بل خيـاتهم العملية ؟ ان الاشتراكيين الحديثين مجمعون فى رفضهم لفكرة توفير العمل للعاطلين مالم يكن من المستطاع جعله عملا مفيدا مجزيا حقا . ولقد كان فشل مشروع لوى بلان أمرا محتوما على أية حال . فان فرصة الحصول على عمل ثابت بأجر طيب قد جذبت الى هذه الورش كل ذوى الأعمال العارضة فى باريس . ولم تلبث أن اجتذبت أيضـا أعدادا هائلة من الأقاليم . ففى ظرف شهرين ارتفع عدد الذين يتقاضون منها أجرا ــ ولا نقول الذين يعملون بها ــ من ٢٥٠٠٠ الى ٦٦٠٠٠ . ولم يعد من المستطاع توفير عمل يزيد على يومين فى الأسبوع ، فكان العاطلون ينـالون فى سـائر الأيام منحـة (سميت مرتب بطـالة salaire d'inactivitè) قدرها فرنك واحد فى اليوم . لقد سار المشروع فى اتجاه مغاير تماما لما تصوره لوى بلان ، اذ أنه كان يأمل فى أن يوفر بوساطة الاعانة الحكومية عملا حقيقيا منتجا فى ورش عادية . أما المشروع الذى طبق فعلا فكان فاشلا من جميع النواحى الاقتصادية والأخلاقية .

وفى ٤ مايو اجتمعت الجمعية الوطنية أو التأسيسية التى تم انتخابها بوساطة الاقتراع العام للرجال ، لتضع دستورا للبلاد . وقد بذلت شتى الجهود لكى تأتى الأغلبية من الجمهوريين فلم يكن بين أعضـاء الجمعية التسعمائة أى ملكى صريح تقريبا . بيد أن السواد الأعظم من الأعضاء كانوا غير معروفى الميول وقد أظهـروا موقفهم من المسـألة

الاجتماعية التى كانت تثير اهتمام باريس البالغ ، بانشائهم حكومة تنفيذية تتألف من آراجو Arago وجارنيير ـ باجس ، ولامارتين، وليدرو ـ رولان ولكن دون لوى بلان فباريس وفرنسا لم تكونا على اتفاق فى مسائل السياسة الكبرى ، وتعد تلك الحادثة بداية لذلك التعارض بين البلاد والعاصمة الذى سيصبح أحد الظواهر والعوامل البارزة فى الحياة السياسية الفرنسية طوال السنوات الخمس والعشرين التالية .

لقد كانت باريس مغيظة من الحكومة لاتجاهها الرجعى واجدةعليها لرفضها مد يد المعونة الى البولنديين فى مقاومتهم لروسيا . فاقتحمت مظاهرة شعبية كبرى مقر الجمعية وحاولت حل الحكومة واقامةأخرى برياسة لوى بلان . ولكن المحاولة باءت بالفشل ، اذ أخلى الحرس الوطنى قاعة الجمعية وانسحب لوى بلان من الحياة العامة منزويا فى منفاه . فما كان من الجمعية الا أن انقلبت ، بعد خروجها من المعركة ظافرة ، على الورش التى كانت ترى فيها الدعامة الكبرى للمعارضة الاشتراكية . فأجرت تحقيقا فى شأنها ولم يلبث الأمر أن انتهى باعلان اغلاقها فى ٢٢ يونيو . وهكذا ألقيت جموع من البؤساء الى شوارع باريس بلا معين أو رجاء . غير أنه كانت للحزب الاشتراكى تنظيماته ونواديه وصحفه فما كان منه الا أن قابل التحدى بمثله ، فنصبت المتاريس فى شوارع باريس الضيقة الملتوية وأعلن حل الجمعية واعادة فتح الورش . لقد كان ذلك ايذانا بنشوب حرب أهلية من نوع قريب الشبه بتلك الحرب التى ستشيع الدمار فى العاصمة أيام الكوميون عام ١٨٧١ ، ولدوافع مماثلة تقريبا .

فكان أن منحت السلطة المطلقة للجنرال كافينياك (Cavaignac) فشن الحرب على معسكر الأعداء بهمة فائقة . ودارت رحى القتال المستميت طوال أربعة أيام راح كل طرف يتهم فيها الآخر بالخيانة وارتكاب المذابح . وفى ٢٦ يونيو آلت السيطرة على المدينة للجمعية

من جديد ، ولكن تلك الحادثة المروعة تركت وراءها أحقادا دفينة وشكوكا مريرة وزادت من صعوبة مهمة ايجاد أساس للوحدة القومية فى الأعوام التالية . اذ أصاب الذعر الطبقات الوسطى والمالكة فجعلت تطالب بقيام حكومة لها من القوة ما يمكنها من انقاذها من خطر فتنة جديدة .

أصبح بوسع الجمعية الآن أن تستأنف مهمة وضع الدستور . وكانت ثمة نقاط لا خلاف حولها . فبدأت الجمعية عملها باصدار اعلان مبهم لحقوق الانسان على الطريقة الفرنسية التقليدية ، ثم أقرت مبدأ الاقتراع العام أو بالأحرى الاقتراع العام للبالغين من الرجال . ومنحت السلطة التشريعية لجمعية واحدة تشكل من ٧٥٠ نائبا . وبقى مستقبل فرنسا معلقا الى حد بعيد على قرارها بشأن شكل الهيئة التنفيذية . استبعدت فكرة اقامة ملكية أو امبراطورية ، فقد أريد بفرنسا أن تكون جمهورية وأن يكون لها رئيس . ولكن أى نوع من الرؤساء ؟ رئيس رمزى أم حاكم فعلى ؟ رئيس على غرار رئيس الولايات المتحدة الذى هو الرئيس الفعلى للحكومة التنفيذية أم موظف عديم السلطات مثل رئيس الاتحاد السويسرى ؟ كانت حقا مشكلة عويصة . وقد أثبتت الأيام أن القرار الذى اتخذ فى شأنها كان قاضيا على وجود الجمهورية ذاته وان لم يكن بوسعنا أن نقطع بأن مسلك الجمعية لم يكن أحكم مسلك تمليه الظروف . فقد تأثر المشرعون باعتبارين أساسيين : فهم أولا كانوا يعتقدون — كما ظل الفرنسيون يعتقدون طويلا مدفوعين الى ذلك بتعاليم مونتسكيو وغيره — أن الهيئة التنفيذية يجب أن تكون منفصلة عن التشريعية ، وأنه لا ينبغى بالتالى أن تنبثق السلطة التنفيذية عن التشريعية وتعتمد عليها . وكانوا ثانيا متشيعين لمبدأ سيادة الشعب . فمادام الأمر كذلك فلم لا يكون الشعب هو الجهة التى تعين رئيس الدولة التنفيذى كما تعين أعضاء الجمعية التشريعية سواء بسواء ؟ ومادام من الأهمية بمكان أن يتم سن القوانين بوساطة

الاجتماعية التى كانت تثير اهتمام باريس البالغ ، بانشائهم حكومة تنفيذية تتألف من آراجو Arago وجارنيير ـ باجس ، ولامارتين ، وليدرو ـ رولان ولكن دون لوى بلان فباريس وفرنسا لم تكونا على اتفاق فى مسائل السياسة الكبرى ، وتعد تلك الحادثة بداية لذلك التعارض بين البلاد والعاصمة الذى سيصبح أحد الظواهر والعوامل البارزة فى الحياة السياسية الفرنسية طوال السنوات الخمس والعشرين التالية .

لقد كانت باريس مغيظة من الحكومة لاتجاهها الرجعى واجدة عليها لرفضها مد يد المعونة الى البولنديين فى مقاومتهم لروسيا . فاقتحمت مظاهرة شعبية كبرى مقر الجمعية وحاولت حل الحكومة واقامة أخرى برياسة لوى بلان . ولكن المحاولة باءت بالفشل ، اذ أخلى الحرس الوطنى قاعة الجمعية وانسحب لوى بلان من الحياة العامة منزويا فى منفاه . فما كان من الجمعية الا أن انقلبت ، بعد خروجها من المعركة ظافرة ، على الورش التى كانت ترى فيها الدعامة الكبرى للمعارضة الاشتراكية . فأجرت تحقيقا فى شأنها ولم يلبث الأمر أن انتهى باعلان اغلاقها فى ٢٢ يونيو . وهكذا ألقيت جموع من البؤساء الى شوارع باريس بلا معين أو رجاء . غير أنه كانت للحزب الاشتراكى تنظيماته ونواديه وصحفه فما كان منه الا أن قابل التحدى بمثله ، فنصبت المتاريس فى شوارع باريس الضيقة الملتوية وأعلن حل الجمعية واعادة فتح الورش . لقد كان ذلك ايذانا بنشوب حرب أهلية من نوع قريب الشبه بتلك الحرب التى ستشيع الدمار فى العاصمة أيام الكوميون عام ١٨٧١ ، ولدوافع مماثلة تقريبا .

فكان أن منحت السلطة المطلقة للجنرال كافينياك (Cavaignac) فشن الحرب على معسكر الأعداء بهمة فائقة . ودارت رحى القتال المستميت طوال أربعة أيام راح كل طرف يتهم فيها الآخر بالخيانة وارتكاب المذابح . وفى ٢٦ يونيو آلت السيطرة على المدينة للجمعية

من جديد ، ولكن تلك الحادثة المروعة تركت وراءها أحقادا دفينة وشكوكا مريرة وزادت من صعوبة مهمة ايجاد أساس للوحدة القومية فى الأعوام التالية . اذ أصاب الذعر الطبقات الوسطى والمالكة فجعلت تطالب بقيام حكومة لها من القوة ما يمكنها من انقاذها من خطر فتنة جديدة .

أصبح بوسع الجمعية الآن أن تستأنف مهمة وضع الدستور .وكانت ثمة نقاط لا خلاف حولها . فبدأت الجمعية عملها باصدار اعلان مبهم لحقوق الانسان على الطريقة الفرنسية التقليدية ، ثم أقرت مبدأ الاقتراع العام أو بالأحرى الاقتراع العام للبالغين من الرجال . ومنحت السلطة التشريعية لجمعية واحدة تشكل من ٧٥٠ نائبا . وبقى مستقبل فرنسا معلقا الى حد بعيد على قرارها بشأن شكل الهيئة التنفيذية . استبعدت فكرة اقامة ملكية أو امبراطورية ، فقد أريدبفرنسا أن تكون جمهورية وأن يكون لها رئيس . ولكن أى نوع من الرؤساء ؟ رئيس رمزى أم حاكم فعلى ؟ رئيس على غرار رئيس الولايات المتحدة الذى هو الرئيس الفعلى للحكومة التنفيذية أم موظف عديم السلطات مثل رئيس الاتحاد السويسرى ؟ كانت حقا مشكلة عويصة . وقد أثبتت الأيام أن القرار الذى اتخذ فى شأنها كان قاضيا على وجودالجمهورية ذاته وان لم يكن بوسعنا أن نقطع بأن مسلك الجمعية لم يكن أحكم مسلك تمليه الظروف . فقد تأثر المشرعون باعتبارين أساسيين : فهم أولا كانوا يعتقدون — كما ظل الفرنسيون يعتقدون طويلا مدفوعين الى ذلك بتعاليم مونتسكيو وغيره — أن الهيئة التنفيذية يجب أن تكون منفصلة عن التشريعية ، وأنه لا ينبغى بالتالى أن تنبثق السلطة التنفيذية عن التشريعية وتعتمد عليها . وكانوا ثانيا متشيعين لمبدأ سيادة الشعب . فمادام الأمر كذلك فلم لا يكون الشعب هو الجهة التى تعين رئيس الدولة التنفيذى كما تعين أعضاء الجمعية التشريعية سواء بسواء ؟ ومادام من الأهمية بمكان أن يتم سن القوانين بوساطة

رجال يختارون بطريق الانتخاب العام ألا يتساوى فى الأهمية أن يؤدى الرجل الذى يتولى شئون الدولة عمله لصالح الشـعب ؟ وبأغلبية ضخمة أعلنت الجمعية أن الرئيس يجب أن ينتخب بوساطة الاقتراع العام للرجال وأن يشغل منصبه لمدة أربع سنوات دون أن تجوزاعادة انتخابه . ان البعض يذهب الى أن الاشكال الدستورية لا أهميـة حقيقية لها « وأن العبرة انما هى بحسن التنفيذ » . ولا يكاد يوجد تفنيد أوضح لهذا الرأى مما حدث فى تلك الحالة ، اذ سرعان ما أدى قرار الجمعية الى قيام الامبراطورية الثانية ، والى مجىء فترة بدا فيها أن فرنسا قد استردت مجدها العسكرى ، ثم الى معـركة سـيدان والكوميون . ان تاريخ أوربا مازال يحمل آثار تصـويت الجمعية ذالك .

كان لويس بونابرت ابن ملك هولندة وابن أخى نابليون الأول ، أرشد آل نابليون . وكان العالم قد سمع الكثير عنه من قبل . فقد عاش فى سويسرة وايطاليـا وانجلترا وأمريكا ، وخالط الثوريين فى ايطاليا وعاشر أوساط المجتمع الراقى فى لندن . كان دائما يقدر لنفسه قيمتها ويؤمن بأن القدر قد ادخره لمصير رفيع . وفى سنة ١٨٣٦ دخل فرنسا فجأة آتيا من ستراسبورج ونشر العلم الامبراطورى ، ولكن محاولته باءت بفشل ذريع ، فقبض عليه وأرسل الى أمريكا . ثم عاود الكرة فى ١٨٤٠ عند احضار رفات عمه الى مثواه الفخم فى باريس ، فهبط أرض فرنسا عند بولونيا وسط مظاهر واستعدادات دراميـة كثيرة ، على أن الفشل السريع لم يلبث أن حاق به ثانية ، فأودع هذه المرة فى حصن « هام » Ham على حدود فرنسا الشـمالية حيث قضى ردحا من الزمن فى حبس هين للغاية ، اذ كان يشاهد الأصدقاء ويكثر من الكتابة ، ووفق فى النهاية الى الهرب دون عناء كبير . ولما سقط بيت أورليان تمكن من العودة الى باريس حيث انتخب عضوا بالجمعية .

علام تراه كان يستند ؟ كان صاحب أفكار ، ولكن أفكاره لم تكن قد عرفت فى تلك الفترة . ولم تكن له حضرة تأسر الألباب ، ولكنه كان على قسط موفور من اللباقة ولطف الشمائل ، وكانت له القدرة على التزام الصمت بطريقة مهيبة . ولكنه كان قبل كل شيء نابليونيا .

وكانت فرنسا قد نسيت ماجلبه عليها نابليون من آلام ومهانة فلم تعد تذكر الا المجد والانتصارات والمكانة السامقة التى حققها لفرنسا . وقد كتب عنه ثيير Thiers مؤخرا فى مجلدات قرأها الكثيرون ، ورغم أنها لم تؤلف بروح عبادة الأبطال فانها قد ألهبت خيال الفرنسيين . فبدت الانتصارات التى حققها العهد الأورلياني — ان جاز أن تسمى انتصارات — حقيرة بالقياس الى تلك الأمجاد النابليونية . على أن المجد لم يكن الشيء الوحيد الذى يمكن أن تنتظره فرنسا من نابليون فقد بدا أنه يقدم لها فرصة للأمن والاستقرار فى ظل حكومة قوية . ذلك أن أيام المتاريس كانت قد تركت انطباعا عميقا فى أذهان الفرنسيين فباتوا يرغبون فى وجود حاكم قوى الشكيمة صلب الارادة يحول دون عودة ذلك الشبح الرهيب . وقد أظهرت انتخابات الجمعية مدى الشعبية التى كان يتمتع بها لويس بونابرت بالفعل . فما ان رشح نفسه للرياسة حتى اجتاحت البلاد نيران من الحماسة أتت على كل فرصة لنجاح أى من المرشحين الآخرين . فنال كافنياك الذى قمع التمرد مليونا ونصف مليون من الأصوات ، وليدرو — رولان الراديكالى المخلص حوالى ٣٧٠٫٠٠٠ صوت ، بينما لم ينل لامارتين الذى بدا أنه هيمن على باريس ببلاغته سوى ١٧٫٠٠٠ صوت . أما لويس نابليون فقد فاز بخمسة ملايين ونصف مليون صوت . فتولى منصب رئيس الجمهورية فى ديسمبر ١٨٤٨ ، وحلف اليمين التالى :

« اننى سوف أعتبر عدوا للوطن كل من يحاول بوسائل غير مشروعة تغيير ما أقامته فرنسا » .

ولم يكن الرئيس الجديد رجلا عاديا . فقد كان صاحب أفكار

وأحلام تحول بعضها الى حقائق . وقد سبق الآخرين الى التفكير فى شق قناتى السويس وبناما ، وساهم فى اتمام تنفيذ المشروعين . ولم تكن له أى من طباع الجندى ، ولـكنه كتب عن استخدام المدفعية كتابة تحمل اقتراحات مفيدة ، وكان ينظر الى أحـد أوضاع أوربا الدبلوماسية بخيال نافذ مكنه من التنبؤ بالمستقبل فى بعض الأحيان . وكانت له أفكار واضحة طريفة فى السياسة ، بدا له أن عصر البرلمانات آيل الى الزوال وأنها لا يمكن أن تلعب مرة أخرى ذلك الدور البالغ الأهمية الذى لعبه البرلمان الانجليزى فى الماضى ، فهى تمت الى عصر لم تكن وسائل المواصلات فيه قد تطورت على هذا النحو الشامل ، أما الآن فان بوسع الحكومة التنفيذية أن تتصـل اتصالا مبـاشرا بالشعب ولم تعد بها حاجة للاعتماد على جمعية كبرى الى نفس الحد الذى كانت تعتمد عليها به فى الماضى . وفى رأيه أن حياة الدولة يلزمها أمران جوهريان ، الاقتراع العام للرجال وحكومة تستند على هذا الاقتراع مباشرة . ونحن نجد فى حمله لاسم نابليون سبب انتصاره وسر القضاء على مستقبله كله فى آن واحد . اذ كان ذلك يدفعه دفعا لا يقاوم الى المغامرة بالحرب ، بيد أنه لم يظهر فى الحرب نبوغا وعن طريقها جاءت سقطته المنكودة .

ولم يكن المنصب الذى قبله رئيس الجمهورية بالمنصب الهين . فقد واجه المتاعب منذ البداية مع الجمعية التأسيسية التى كانت تخالفه فى السياسة الخارجية ولا سيما فيما يتعلق بايطاليا ، والتى بدت راغبة فى مد دوراتها أكثر من اللازم . ولم يهون من الأمر شيئا يذكر اخـلاء الجمعيـة التأسيسية (١٨٤٩) مكانهـا للجمعية التشريعية التى تم انتخابها وفقا للدستور الجديد . فقد تضاءل الجمهوريون المعتدلون الذين كانوا يشغلون مقـاعد الجمعية التأسيسية فباتوا يعدون على الأصابع فى الجمعية الجديدة . وظهـرت جماعة أكبر — بلغ عددها حوالى ١٨٠ — من الجمهوريين الثوريين الذين ما برحوا يعتزون بالمثل

العليا التى بدا أنها قمعت أيام المتاريس . أما أكبر حزب فكان « حزب النظام » وقوامه الكاثوليك والملكيون الذين يرون فى « اليسار المتطرف » الخطر الأكبر على مبادئهم وعلى فرنسا . وكان لويس بونابرت يتمتع شخصيا بتأييد شعبى كبير فى البلاد ، ومع ذلك فلم يظهر أى أثر تقريبا لحزب بونابرتى فى الجمعية .

كان الخوف من الثورة هو الشعور الغالب على أعضاء الجمعية . على أنه لا يبدو أن الخطر كان فى الحقيقة جسيما . فقد قمعت المظاهرة المسلحة التى تزعمها ليدرو ـ رولان احتجاجا على سياسة الرئيس الايطالية بيسر بالغ . وطرد على أثرها عدد من أعضاء الجمعية . ولكن الدوائر الانتخابية أرسلت رجالا يحملون نفس الآراء لشغل مقاعدهم فوطدت الجمعية العزم وقد استولى عليها الفزع ، على تطهير (épurer) . صفوف الناخبين . لقد كان الاقتراع العام أساس الدستور ولبه ، فلم يهاجمه أحد بالاسم ،على أن ممارسته علقت بشروط ـ أخصها استمرار الاقامة لمدة ثلاث سنوات فى مكان واحد ـ أدت الى انقاص عدد الناخبين المقيدين فى الجداول بحوالى ثلاثة ملايين ناخب . وكان معظم الذين استبعدوا من سكان المدن الكبرى المشتغلين بالصناعة الكثيرى التنقل .

وهكذا أزيل « الخطر الأحمر » . ولكن النتيجة كانت تفاقم التوتر بين الجمعية والرئيس . فان قبول الجمعية له انما كان بوصفه حليفا ضد الثورة ، أما وقد انجلى خطر الثورة فيما بدا فقد أخذ الخلاف يظهر ويحتدم من جديد . فأغلبية الأعضاء كانوا من الملكيين ، وهو لا يمكن الا أن يكون مناوئا لأغراضهم . وكان هؤلاء الملكيون منشقين على أنفسهم ، ففريق منهم ـ وهم الشرعيون Legitimists ـ يرغب فى عودة البوربون فى شخص الكونت دى شامبور (Count de Chambord) الذى كانوا يطلقون عليه لقب الملك هنرى الخامس ، بينما يتطلع الفريق الآخر الى قيام ملكية يرأسها أحد أبناء

بيت أورليان • ولن يلبث هذا الخـلاف الواسع المدى أن يؤدى الى اقامة الامبراطورية كما سيؤدى فيما بعد الى قيام الجمهورية الثالثة .

ويجب أن نقرر أن لويس بونابرت لم يظهر أيا من النزاهة وخلوص النية اللذين يجب أن يتحلى بهمـا رئيس الدولة • فان موقفـه من الأزمة الخطيرة كان موقف المغامر المتآمر لا موقف رئيس الجمهورية أو الرجل الوطنى • فقـد رأى الفرصـة متاحة للاستيلاء على تاج امبراطورى فدفعته عاطفـة الطموح المـدمرة الى ازاحـة كافـة الاعتبارات الأخرى من طريقه . ومع هذا فليس من العسير على المرء أن يلتمس لسياسته المبررات والأعذار . ففرنسا كانت قريبة عهـد بأيام المتاريس ، ولم تزل تخشى عودة « الخطر الأحمر » ، والعداوة المريرة بين الأحزاب كانت تهـدد وجود الجمهورية ذاته ، والمؤامرة الدهمائية التى تحدث عنها الرئيس فى احـدى خطبه كانت حقيقة ، والملكيون كانوا حتما أعـداء للدستور . ثم ان نابليون كان يتمتع شخصيا بتأييد الشعب الأمر الذى سيوضحه الاستفتاء الذى لن يلبث أن يجرى ، والنظم البرلمانية لم تكن قد ضربت لنفسها جذورا عميقة فى البلاد ، فكانت فرنسا بحاجة الى يد قوية تحفظ النظام حتى يستقر الشعب حقا على رأى فى شكل الحكومة التى يرغبها • وكان الموقف يحمل أوجه شبه كثيرة واضحة بالموقف الذى واجهه نابليون الأول أيام برومير (١٧٩٩) . وكان ابن الأخ يضع سيرة عمه نصب عينيه على الدوام ، وقد راح ، شأن عمه ، يفكر كثيرا فى فرنسا ، وان فكر أكثر فى نفسه وفى المركز الذى ستمكنه الأزمة من الفوز به لشخصه .

ان مدة السنوات الأربع المحددة لرياسته توشك أن تنتهى . فهـل تراه يذعن للقانون فيبتلعه النسيان ويعود الى عيشة الفقر النسبى فى حياته الخاصة ؟ لقد صمم على اطالة أمد حكمه • وكان يأمل ـــ شأن نابليون الأول فى ثورة برومير ـــ فى تحقيـق أهـــدافه بالوسـائل

الدستورية . كان الدستور يسمح بتعديل مواده اذا ما أقر التعديل ثلاثة أرباع أعضاء الجمعية . وفي يوليو ١٨٥٠ نظرت الجمعيـة في اقتراح بالسماح للرئيس بالاستمرار في منصبه لمدة أخـرى ، فأيدته الجمعية بـ ٤٤٦ صوتا ضد ٢٧٠ . على أن هذه لم تكن أغلبية الثلاثة الأرباع المطلوبة . ومن هنا سيضطر نابليون ـــ كما اضطر عمه الاكبر ـــ الى امتشاق الحسام . ولسوف يتخذ لنفسه سيماء البطل المدافع عن الشعب وعن النظام . فزعم أنه لم يكن قد اعترض على القانون الذي قيد حق الاقتراع عند اقراره ، فانه قد أنشأ الآن يطالب بنقضه باسم سيادة الشعب . وأتاحت له الجمعية برفضها الاستجابة لمطالبه الفرصة التي كان يتمناها للظهور بمظهر البطل المدافع عن الديمقراطية المجني عليها . وقـد أدرك الكثيرون مراميه . اذ كان قـد أحضر سان أرنو Saint-Arnaud الذي يعد أكثر أعوانه تمتعا بثقته ، الى فرنسا من الجزائر ومنحه قيادة الجيش في البلاد . وفي يناير ١٨٥١ أعرب تيير عن اعتقاده بأن « الامبراطورية قد قامت بالفعل » .

كانت خطـة نابليون أن يحـل الجمعية ويلجأ مباشرة الى الشعب ليصوت على دستور جديد يمنحه سلطات شخصية ضخمة . وفي ٢ ديسمبر ١٨٥١ ضرب ضربته . ففي الليل امتلأت الحوائط ببيان موجه الى الشعب الفرنسي يعلن فيـه أن الجمعية قد حلت وأن الدستور الجديد سوف يطرح ـــ في خطوطه العريضـة ـــ على الشعب بأكمله ليبدي فيـه رأيه . فاذا لم يمنحه تأييده اعتزل الحياة العامة « أما اذا رأيتم أن القضية التي يرمز لهـا اسمي ، ألا وهي قضية فرنسا التي تبعثها الثورة وتنظمها الامبراطورية ، هي أيضا قضيتكم ، فاعلنوا ذلك على المـلأ بمنحي السلطات التي أطلبها » ، وتم احتـلال قصر البوربون الذي كان مقـرا للجمعية ، واعتقال عـدد من أعضائها البارزين ، ومن هؤلاء تيير وكافنياك وشانجرنيه Changarnier . لم

يرق حتى تلك اللحظة أية دماء ، وعله يكونون فى غناء عن اراقتها . اولا أن تمردا نشب فى شوارع باريس فكان بمثابة عودة «المتاريس» على نطاق أضيق . وقد قمع هذا التمرد بيسر وسهولة ، ومن الجائز أنه كان من المستطاع تفادى وقوع الصدام أصلا . ولكن الدماء التى أريقت فى تلك الأيام لم تنس قط ، فقد وضع فيكتور هوجو قلمه البليغ فى خدمة أعداء الامبراطور الجديد ، وراح يصمه بأنه المجرم الذى أسال الدماء البريئة ليقلب دستورا أقسم على الدفاع عنه . وقد بلغ عدد الضحايا نحوا من ٨٠٠ ، ورحل عدد أكبر أثر تلك الحوادث الى كايين Cayenne والجزائر .

ولم يلبث الدستور الجديد أن طرح على الناخبين . كان يقضى بأن يتولى الرئيس منصبه لمدة عشر سنوات وأن يعين بنفسه جميع الوزراء ، كما يقضى بتشكيل مجلس للدولة — يعينه الرئيس بالطبع — مهمته اعداد القوانين ، وتأليف جمعية تشريعية بطريق الانتخاب العام للتصويت على القوانين والميزانية ، وأخيرا بتشكيل مجلس للشيوخ بطريق التعيين مهمته « السهر على الميثاق الأساسى والحريات العامة » . وكان الكثير مما تضمنه الدستور متسما بالغموض . على أنه كان من الجلى أن السلطة الحقيقية تتركز كلها فى يد الرئيس ، وأن الجمعية لن يكون لهـا فى أحسن الفروض الا سلطة تعطيل (تلك) التدابير التى يرى عرضها عليها . وقد دعى جميع الناخبين فى فرنسا للتصويت بعد أيام معدودة بـ « نعم » أو « لا » على القرار التالى :
« يرغب الشعب فى الابقاء على سلطة نابليون بونابرت ويعهد اليه بالسلطات اللازمة لاقامة دستور على الأساس المقترح فى اعلانه الصادر فى ٢ ديسمبر » . وبذلت الحكومة كل جهد ممكن لضمان الحصول على موافقة الشعب ، ولم تتصف الوسائل التى استخدمت بالنزاهة غالبا . على أننا اذا استبعدنا كل مايمكن استبعاده من

الأصوات ألفينا أن الشعب قد أيد الرئيس فى مهمته الجديدة تأييدا ساحقا . فقد صوت بالموافقة ٧٫٤٣٩٫٠٠٠ بينما لم يصوت بالرفض سوى ٦٤٠٫٠٠٠ (١) . وهكذا أصبح لويس بونابرت رئيسا للجمهورية وفقا لتلك الشروط فى ٢١ ديسمبر ١٨٥١ . فلم يلبث أن استبدل لقب الامبراطور بلقب الرئيس ولما يمض على ذلك التاريخ عام كامل . وقد تحققت هذه النتيجة بالتجوء — مرة ثانية — الى الكثير من الدسائس والأساليب الفاسدة . ولكننا لا نملك — مرة ثانية — أن نشك فى وجود الكثير من الحماسة الشعبية الصادقة لاستعادة لقب الامبراطورية المجيد . ومن الأشياء التى ذكرت ضده دائما أنه قال فى بوردو « يبدو أن فرنسا ميالة الى العودة الى الامبراطورية . حسبنا ان الامبراطورية تعنى السلام » . وقد جاء الاقتراح باسباغ لقب الامبراطور عليه وجعله لقبا وراثيا لأبنائه ، من مجلس الشيوخ الخاضع له . ثم طرح للاستفتاء العام وكانت النتيجة التى أعلنت أن ٧٫٨٢٤٫٠٠٠ قد أيدوه ولم يعارضه سوى ٢٥٣٫٠٠٠ فقط ! فحكم نابليون على الفور بلقب « الامبراطور نابليون الثالث » ذلك أن ابن نابليون الدوق ريخستادت Duke of Reichstadt المتوفى عام ١٨٣٢ كان يعد فى نظر جميع أنصار الامبراطورية الغيورين « نابليون الثانى » رغم أنه مات دون أن يتوج .

كانت الامبراطورية الجديدة التى نشأت على النحو الذى ذكرنا مثلا أعلى من الوجهة النظرية للملكية الأبوية ، وقد جمعت بين أفضل

---

(١) يقول ف.ا. سيمسون فى كتابه « لويس نابليون وابلال فرنسا » (الطبعة الثانية ١٩٣٠) صفحة ١٦٢ ، أن صحة هذه الارقام قد اضحت أمرا معترفا به بصفة عامة . وان الضغط الرسمى لم يكن مصدر الأغلبية التى حازها لويس نابليون وانما ادى الى تضخيمها فحسب ومما يذكر أنه يدافع فى الصفحات ١٦٣ — ١٧٦ دفاعا قويا عن الانقلاب .

F.A.Simpson : " Louis Napoleon and the Recovery of France " (2nd edition, 1930) p. 162.

مافى مبادىء الثورة الكبرى وخير صفات الكفاءة التى توفرت فى نظام نابليون الأول . وقد ذكر نابليون فى الاعلان الذى أصدره بعد انتخابه رئيسا للجمهورية أنه « قد نقب الماضى بحثا عن أفضل الأمثلة التى تحتذى ، وأنه يفضل مبادىء العبقرية على تعاليم ذوى الأفكار المجردة البراقة فى مظهرها » وأنه لما كانت فرنسا تدين بتقدمها فى الخمسين عاما الأخيرة للنظم الادارية التى وضعتها قنصلية نابليون ، فأنه قد رأى من الأفضل أيضا تطبيق النظم السياسية لتلك القنصلية . سيكون الامبراطور اذن على اتصال وثيق دائم بشعبه ، سيكون ممثله الصادق والمعبر عن ارادته ، كافلا له الحرية ، مخففا عنه الفقر ، واضعا تحت تصرف الأمة زبدة ذكائها فى مجلس الدولة ، مجنبا اياها دائما الأخطار والتعطيلات المترتبة على الصراع الحزبى . لقد وجد مثله الأعلى كما ذكرنا فى قنصلية نابليون ، ولعله كان بوسعه أن يجد بعض مايشبه حلمه فى الملكية الانجليزية على عهد التيودور وفى طوبائية الملك الوطنى بولنجبروك (١) .

أما الحقيقة فكانت شيئا مختلفا . فلئن كان نابليون الثالث قد كن بلا مراء حبا صادقا لفرنسا وللشعب الفرنسى ، فان تملك السلطة الفردية كان أول مايلزم لتحقيق أهدافه الشخصية والعامة جميعا ، وهو لم يظهر فى الأساليب التى عمد اليها لتأمين سلطته الفردية أى وازع من ضمير وان أظهر الكثير من الحيلة والبراعة .

كانت لفرنسا جمعية تشريعية منتخبة بوساطة الاقتراع العام للبالغين من الرجال ، ومن طبيعة مثل هذه الجمعيات أن تحاول توسيع سلطانها وأن تبدى أنفة من أى تدخل . فرأى نابليون فيها أخطر خصومه ،

---

(١) Utopia of Bolingbroke's Patriot King
وبولينجبروك سياسى انجليزى معروف عاش فى الفترة ما بين ١٦٧٨ — ١٧٥١ (المترجم)

وصمم على اخضاعها لسيطرته . وقد تحقق له غرضه أولا بالتحكم فى الانتخابات ، فرغم الابقاء على الاقتراع العـام تقرر حرمان جميع الذين أدينوا فى جرائم سياسية من التصويت . وقد أولت تلك المادة تأويلا واسعا للغاية حتى أصبحت عضـوية أى ناد مذموم سببا يفقد المرء صوته ، واســتطاعت رفع معظم خصـومها المعروفين من جـداول الانتخاب . ثم تحقق غرضه كذلك عن طريق ترتيب الدوائر الانتخابية اذ كان تقسيم هذه الدوائر فى يد الحكومة فتمكنت باستخدام تلك السلطة من اغراق المدن الراديكالية الميول فى الريف المحافظ ، فنادراً ماسمح لمدينة ما أن تمارس حقها فى الانتخاب كدائرة واحدة وانما كانت تقسم الى عدة أقسام يؤلف كل منها مع المناطق الريفية المجاورة دائرة واحدة . كما عمدت الحكومة الى تقديم « مرشحين رسميين » مستخدمة كل نفوذها لتأمين انتخابهم . فكان مأمورو الأقاليم وعمد المدن ، وجميعهم معينون من قبل الحكومة ، يستغلون كل سلطاتهم لتأمين نجـاح أنصار الامبراطورية . ولم يخـل الأمر فيما يبـدو من حدوث تلاعب فى الاصوات بعد اعطائها .

ولما انتخبت الجمعية راح ينظر اليها بغيرة قصوى ، فحرمت من حق المبادأة باتخاذ أى أجـراء أو تعديل الميزانية . وكان التصويت فيها يجرى سرا . فاذا ما أقرت الجمعية اجراء لا يرضى الحكومة أمكن الغاؤها بوساطة مجلس الشيوخ المحافظ الخانع ، على مقولة أنه يتعـارض مع « العهد الأسـاسى » الغامض . ومن الغـريب أن هذه الجمعية التى تم انتخابها والتحكم فيها على النحو الذى ذكرنا قد تمكنت فى بعض الأحيان من اقلاق راحة الحكومة .

وقد أدرك نابليون كذلك أن له فى الرأى العـام الخاضع لنفوذ أو سيطرة الأدباء والصحفيين والقائمين على التعليم ، عدوا آخـر يتعـذر الامسـاك به . لقد كان التحكم فى الأدب مستحيلا . ولئن

كان قد وجد كتابا يؤيدون عهــده فان لوى بلان وفيكتور هوجو وكثيرين غيرهما لم يكفوا عن مهاجمته من منفــاهم فى الكتب وشتى أنواع النشرات . لقــد كان قلم فيكتور هوجو عــدوا لاتتــوقف هجماته أو تهدأ ، وقد ظل صوته طوال فترة الامبراطورية تقريبا أقوى الأصوات بين كتاب أوربا . أما التعليم فالسيطرة عليه كانت ممكنة وحدثت فعلا عن طريق وزير التعليم العام الذى كان يتصرف وفقا لما تمليه عليه مصلحة الحكومة . وتحقيقا لتلك السيطرة وضع أساتذة الجامعة تحت اشراف الوزير المباشر ، وصدرت اليهم الأوامر بمراعاة حسن الهندام والامتناع عن اطــلاق لحاهم « كى تزول آخــر بقايا الفوضى » . وتقرر منع تدريس التاريخ والفلسفة فى مدارس المعلمين التى يتلقى فيها المعلمون تدريبهم . أما المدارس الخاصة فقد لاقت — ولا سيما تلك التى يديرها القساوســـة — تشجيعا طيبا . على أن المدارس بأنواعها قد وضعت تحت رقابة دقيقة لصالح الحكومة . كما أخضعت الصحف للاشراف والمراقبة الصارمة ، فلم يكن من المستطاع اصدار صحيفة دون الحصول على اذن سابق من الحكومة وفرضت على الصحف ضريبة تمغة باهظة ، وكان من الميسور ايقاف الصــحف أو تعطيلها اذا ما خالفت فى كتاباتها رغبات الحكومة . ولم تتح لنشر الكتب حرية أكبــر . أما حق تشــكيل الجمعيات وعقد الاجتماعات العامة فقد فرضت عليه قيود كادت تقضى عليه قضاء كاملا .

فماذا كان رأى فرنسا فى هذا كله ؟ لم يفلح نابليون قط فى كسب المدن الــكبرى الى جانبه . فما برحت باريس تضــمر له ، رغم كل مافعله لمبانيها وتجارتها ، خصومة مريرة . بيد أن الأقاليم ظلت تكن له الود دائما ، ولا يمكن أن نفسر التأييد الذى كان يلقــاه فى شتى استفتاءاته الا بأنه أمارة من أمارات هذا الود . وقد ذهب بعض كبار المؤرخين الى أنه كان يوفق فى تثبيت حكمه لو أنه استطاع المحافظة على السلام ، غير أن تاريخ فرنســا لا يشجعنا على الاعتقــاد بامكان

استمرار أى عهد لا يشبع الرغبة فى المجد أو يهمل الحرية أو ينكر حرية الرأى .

ان طريق التآمر والمغامرة الذى سلكه الى الامبراطورية قد ضيق مجال اختياره لأعوانه تضييقا مهلكا . فقد رفض الجمهوريون أمثال كافنياك وأنصار ملكية أورليان أمثال تيير الدخول فى خدمته ، ولم يكن بوسعه الاطمئنان الى ولاء كثيرين غيرهم ، فاضطر الى قبول خدمات رجال كانوا ، بدرجات متفاوتة ، شركاءه فى التآمر . فأصبح برسينى Persigny ووالوسكى Walewski ومورنى Morny وسان — أرنو Saint-Arnaud أقرب أعوانه وأكثرهم تمتعا بثقته . ولم يكن بوسعه — لكونه مغامرا — الفوز بمحالفة أى من البيوت المالكة فى أوربا . وقد كان له فى زواج نابليون من مارى لويز نذير أى نذير . الا أن الزواج كان ضروريا ليستكمل الصرح الامبراطورى عقده ، فتزوج فى ينـاير ١٨٥٣ من كونتيسة تبا أوجينى دى مونتيجو Countess of Teba, Eugénie de Montijo وهى أسبانية حسناء تجرى فى عروقها بعض الدماء الاسكتلندية وقد أضفى وجودها سحرا بالغا على حياة البلاط وأدت دورها بنجاح عجيب ، وافتتح نابليون — عن سياسة وعن هوى — سلسلة من الحفلات الراقصة والاستقبالات ، وانغمست باريس كلهـا لا البلاط وحـده فى نوبة من الحبور والطرب سرعان ماجعلت المدينة قبلة للباحثين عن المتعة فى أوربا ، الأمر الذى لم تكنه من قبل . وأعيد بناء المدينة باشراف المأمور هوسمان (Prefect Haussmann) فحلت الطـرقات العريضة محل الشـوارع الضيقة واكتسبت المدينة صحة ورواء جديدين . ومما يذكر كذلك أن تنظيم الشوارع الجديدة جعل احالتها الى قلاع عن طريق نصب المتاريس ، أمرا أشد صعوبة على أى ثورة تنشب .

لقد تم لنابليون أرجاع النظــام والدين ، واكتست باريس ثوب المرح والبهاء ، وباتت أغلبية سكان فرنسا قانعة راضية بكل تأكيد • ولكنه لم يلبث وهــو الذى وعد بأن تجلب الامبراطورية الســلم فى ركابها ، أن اشتبك فى حروب أوربية كبرى ولم يمض على الانقلاب الا ما يزيد قليلا عن عامين •

الفصل الثاني عشر

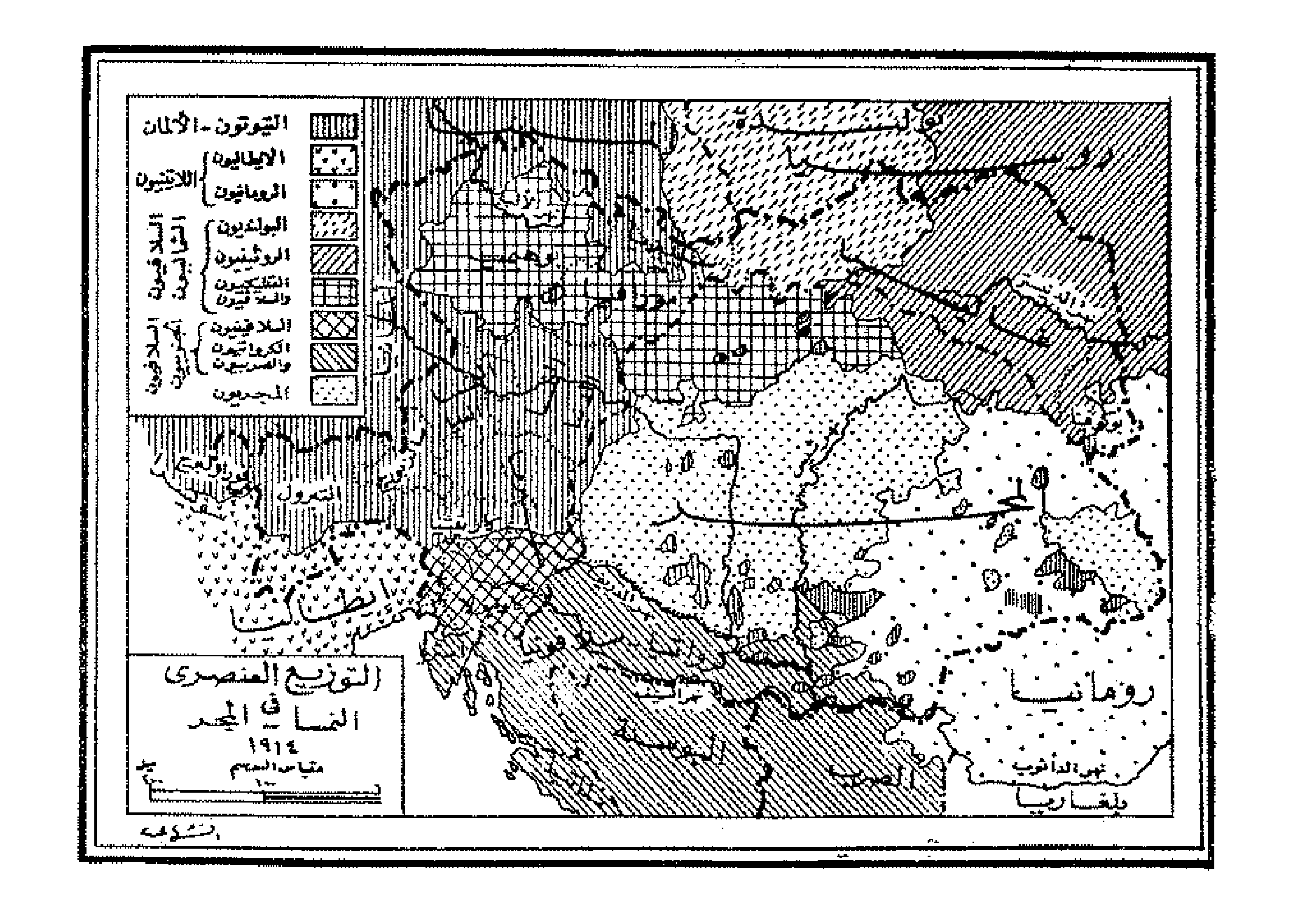
ثورة ١٨٤٨ - ١٨٤٩

في ألمانيا وفي امبراطورية النمسا وفي المجر

قال مترنيخ في أكتوبر ١٨٤٧ ان النمسا تعاني من داء مميت . ولقد كان هــذا صحيحا وقـد عجلت سياسته هو نفسه استشراء الداء ، فان انتهـاج سياسة قوامها القمع الخالص ومناوأة الاتجاهات القومية والتحررية قد انتهت ـ كما كان من المحتوم أن تنتهي ـ الى الافلاس لافي النمسا وحدها بل في ألمانيا وأوروبا في مجموعها . فقد بات النظام القديم في ألمانيا وفي النمسا كليهما أشبه بقطعة من الأثاث مازال ظاهرها أخاذا وان كان نخر السوس في باطنها ، حتى لم يعد يلزم لاظهار فسادها الداخلي التام الا تسديد ضربة جريئة اليها من الخارج . فما ان أتت تلك الضربة حتى انهار البناء كله ومن أساسه وولت ألمانيا والنمسا كما عرفهما عهد مترنيخ الى غير رجعة . أما الحكم الرجعي الذي قام في ١٨٤٩ فانه لم يكن يستطيع العودة الى الماضي فلم يبق أمامه الا أن يرتجل للمستقبل .

وقد أتت الشرارة التي أوقدت النيران في ألمانيا والنمسا من فرنسا ، وزاد تلك النيران اشتعالا النسيم الثوري القادم من ايطاليا . والحق أن الثورة كان يمكن أن تنتصر في كافة أنحاء ألمانيا والنمسا لو أن الجمهورية الفرنسية قدمت عونا ايجابيا لكفاح العناصر التحررية في ألمانيا ، ولو أن ملك سردينيا وفق في سحق النمساويين في ايطاليا ، غير أن الذي حدث فعلا هو أن الرجعيين تمكنوا في النهاية من التغلب في ألمانيا وفي النمسا وفي المجر على الثوريين ، الذين كانت تعوزهم التجربة وتنقصهم المعونة .

وقد اتخــذت الثورة أشكالا متباينة فى أنحــاء أوروبا الوسطى المختلفة . فقامت الحركة فى المانيا على الرغبة القوية فى تحقيق الوحدة القوميـــة المقترنة بايمــان راسخ بأن الاتجاهات التحـــررية (أى الاتجاهات المنادية بقيام الحكومات النيابية والدساتير) سوف تحقق هذه الغاية . ووجدت هـــذه النزعات بين الأساتذة والطلاب الذين باتوا يحلمون بالوحدة وبين العمال الراغبين فى التمتع بحق الاقتراع والفلاحين التواقين الى القضاء على الحقوق الاقطاعية . وفى القسم الألمانى من النمسا كانت الحـــركة مشابهة للحـــركة فى المانيا الا أن الأهالى فى مجموعهم كانوا أكثـــر تعلقا بالاتجاهات التحـــررية منهم بالاتجاهات القـــومية . أما فى المجـــــر والجهات غير الألمانيـــة من الامبراطورية النمساوية فكانت النزعة قومية دائمـــا فى جوهرها وان اتخذت فى بعض الأحيان مظهرا تحرريا سطحيا . وقد أخذت تتحرك هناك مجموعة من القوى المتباينة تماما . فقـــد راح التشيكيون فى بوهيميا يناضلون ، وهم الوطنيون الأشداء من أيام هوس Huss نضالا عنيفا للفوز بحقوقهم من النمساويين البغيضين . أما المجريون الفخورون بدستورهم القديم وبرلمانهم ، فقد جعلوا يكافحون بنفس القوة ليخضعوا لسيطرتهم العنصرية جمـــوع السلافيين والرومانيين الذين كانوا يشكلون مايربو على نصف الســكان وكانوا متمسكين أشد التمسك بحقوقهم الذاتية . فمن عجائب المتناقضات اذن أن نجد أن الصربيين والكرواتيين والرومانيين قد راحوا يحاربون فى النهاية لصالح النمسا ضد المجر بغية تأمين حقوقهم القومية . بل ان مما يثير عجبا أشد أن قيصر روسيا قد تقدم لمعاونتهم . وهكذا نجد أن النمسا قد أنقـــذت بسبب انقسام أعدائها من ناحيـــة ومجىء العون لها من الخارج من ناحيـــة أخرى وصحب انتعاش النمسا فوز الرجعيـــة فى ألمانيا . لقد اتخذت الأحداث مجرى دراميا للغاية حقا . ففى مارس


التوزيع العنصري
في النمسا والمجر
١٩١٤
مقياس الرسم
التيوتون - الألمان
اللاتينيون
الإيطاليون
الرومانيون
السلافيون الشماليون
البولنديون
الروثينيون
التشكيون والسلوفاك
السلافيون الجنوبيون
السلافيون
الكرواتيون والصربيون
المجريون
إيطاليا
رومانيا
روسيا
بلغاريا
نهر الدانوب

١٨٤٨ كانت العروش تهتز فى جميع أنحـاء أوروبا الوسطى وكانت الثورة ظافرة فى كل مكان • على أن العام لم يكد ينتهى حتى أعتمت فرص نجاح الثورة ، ولم تلبث الرجعية أن سادت من جـديد فى كل مكان فى ١٨٤٩ •

لقد آمن الأحرار والثوريون طويلا بأن ألمانيا فى حاجة الى أشـياء ثلاثة : هى حرية الرأى والصحافة ، وحكومة برلمانية ، ودستور قومى (أو اتحادى) بدلا من بنيان الاتحـاد الألمـانى أو البوند (Bund) الواهن المتفسخ الذى نخر فيه السوس . فلمـا قامت ثورة فبراير فى فرنسا أتيحت لألمانيا فرصة تحقيق أحلامها ، ففى شهر مارس ١٨٤٨ حدث تحول عجيب فى ألمانيا . فما من ملك أو دوق أو أمير الا وقد أقسم يمين الولاء لدستور تحررى أو عين وزارة من الأحرار . وأقبل الملوك يصافحون زعماء الثورة ، وتآخى جنودهم فى كل مكان مع جمـوع لعامة ، وغدا من الأساتذة رؤساء الوزارات ومن الطلاب والحرفيين وأصحاب الحوانيت نواب فى المجالس التشريعية الشعبية التى دعيت حديثا . لم تكن ثمة مقاومة تذكر ، فلم ترق بالتالى أى دماء تذكـر ، ولا عمد أحد الى خلع الملوك وأصحاب التيجان بالعنف والقوة .ولئن كان ملك بافاريا قد تنازل عن العرش لابنه فى ١٦ مارس ١٨٤٨ فان هذه الخطوة ترجع الى أسباب خاصة وهى تعتبر استثناء للقـاعدة العامة . وثمة نقطتان يجدر بنا أن نلاحظهما بوجه خاص ، همـا أن فرتمبرج وهانوفر قد عارضتا فكرة الوحدة القومية الألمانية وان أخذتا بالمبادىء التحررية ، أما فى سائر الجهات فكانت فكرة الوحدة هى الطاغية ، فلم تلبث الترتيبات أن اتخذت بناء على حـركة نشأت فى هس ـــ دارمستادت (Hesse - Darmstad) وبادن Baden لدعوة برلمان قومى ألمانى . وانعقد قبل نهاية مارس ضمانا لاجتماع ذلك البرلمان برلمان تمهيدى شكل نفسه بنفسه Vorparlament

على أن نجاح الثورة قد تأكد لا بما حدث فى ألمانيا وانما بما حدث فى النمسا حيث كانت مقاليد الحكم فى أيد واهنة . فالامبراطور كان شبه معتوه ومترنيخ كان قد بلغ من العمر عتيـا . أما المستشارون فكانوا جبناء جهلاء . فلم يكن ثمة من هو على استعداد لأن يتـولى زمام القيادة أو يقدم ترضيات سخية . وقد اتسم موقف الامبراطور فى الأسبوعين الأولين من مارس بالجبن والتخاذل ولم يكد الشـهر ينصرم حتى كان الصراع قد انتهى . ففى ١٢ مارس توجه الطـلاب والأساتذة على رأس مظاهرة الى الامبراطور ، وفى اليوم التالى وقع صدام بين الغوغاء والجنود انتهى بانضمام الأخيرين الى صف الثورة . فاستقال مترنيخ فى تلك الليلة ، وهرب من البلاد وهو يتصايح ـ أو هكذا يقولون ـ بأن الطوفان آت من بعده .

لقد كان لهروبه مغزى فائق ، فقد جاء علما على أن الحقبـة حقبة انتصار للثورة . فهاهو ذا أقوى رمز للرجعية يسقط لدى أول لمسة من لمسات الثورة . وهاهو ذا الرجل الذى كمم الصحافة طوال ثلاثين عاما وأرهب البرلمانات أو حطمها تحطيما وسجن الثوريين فى شـتى أرجاء أوروبا الوسطى ، يطارد من عاصمته بل من القارة الأوربية كلها يلاحقه ازدراء العالم ولعناته . كان معنى سقوط مترنيخ وهروبه أن مدا صاعدا يجتاح أوروبا وأن الملوك يجرون أمامه فزعا .

وفى ١٥ مارس أصدر الامبراطور مرسوما من فيينا ضمنه الوعد باقامة دستور متحرر واطلاق حرية الصحافة وعقد برلمان (ريخستاغ Reichstag) كمـا تقرر تشكيل حـرس وطنى (رمز سـلطان البورجوازية) فدل ذلك على أن الثورة قد كتب لها الفوز حتى فى عاصمة الرجعية الكبرى نفسها . وكانت الثورة قد انتصرت فى اليوم السابق (١٤ مارس) فى بودابست فطالب المجريون بأن يكون الوزراء

مسئولين أمام أغلبية المجلس الأدنى (١) وفقا لدستورهم القـديم . فوافق الامبراطور بوصفه ملك المجر على ذلك المطلب (١٧مارس) . كما طالبت الثورة فى بودابست فى ١٥ مارس باطلاق حرية الصحافة وانشاء حرس وطنى ، فأقرت هذه المطالب كذلك فى النهاية واقترن ذلك بالاعتراف بالاستقلال الذاتى للمجر . والواقع أن ماحدث فى بودابست كان مغايراً تماما لما حدث فى فيينا . فقد سادت فى العاصمة الأخيرة حركة شعبية تحررية ليس الا ، أما فى بودابست فقد أمسكت بزمام الأمور حكومة مجرية قومية شديدة العداء للألمان وللهابسبورج

لقد أحنى الهابسبورج رقابهم الجامدة وأسـلموها للنير فى فيينا وبودابست ، ولم يلبث نصر الثـورة أن اكتمـل باستسـلام الملك الهوهنزلرنى فى برلين (١٩ مارس) . كان فردريك وليم الرابع قـد سلم بوضع دستور نيابى واطلاق حرية الصحافة (١٨ مارس) ولكن أعقب هذه الأنباء صدام بين الغوغاء والجنود فى برلين . ولعـله كان فى استطاعة الجنود أن يصمدوا فى المعركة لو أن فردريك وليم الرابع ، الذى أصيب بنوع من الخبل الدينى ، لم يعمد الى سحبهم فى ١٩ مارس وترك قصره بلا حراسة . بل لقد فتح الملك مخزن أسـلحته وزود الغوغاء بالسلاح وحيا موكبا حمل أمامه جثث المدنيين الذين قتلهم جنوده . وفى ٢١ مارس أصدر بيانا أعلن فيه اندماج بروسيا فى ألمانيا ، وكان قد عين قبل ذلك وزارة من الأحرار . وطـاف ركبـه بالعاصمة تحت لواء يضم الألوان الاسود والأحمر والذهب (وهى ألوان الوحدة الألمانية (٢)) وجعل يتوقف فى الطريق ليخطب فى الطلبة ويتحدث الى الشعب . وفى اليوم التالى تم تهريب ولى عهده أمـير بروسيا ، الممقوت لرجعيته ، من العاصـمة فتمكن من الفـرار الى

---

(١) أى مايقابل مجلس النواب فى اى برلمان يشكل من مجلسين(المترجم)
(٢) تبنت الجمهورية الالمانية هذه الالوان فى ١٩١٩ .

انجلترا . لقد كان الأمير (الذى سوف يصبح فى يوم من الأيام وليم الأول) يشارك بسمارك يومذاك شرف كونه أبعد الناس عن قلوب الشعب فى ألمانيا ، وهى نفس ألمانيا التى سيكتب لهما أن يوحداها ويحكماها بنجاح باهر وتأييد شعبى كبير قبل مضى عشرين عاما .

وفى ٣١ مارس اجتمع البرلمان التمهيدى فى فرانكفورت ليمهد السبيل لقيام الجمعية الوطنية الألمانية . ولم يمثل النمسا فيه سوى مندوبين اثنين رغم أن سائر جهات ألمانيا كانت ممثلة فيه تمثيلا وافيا . ولم يكن هيئة تسودها الحكمة تماما وقد مزقته شتى أنواع الخلافات، ولكنه كان متمتعا بتأييد الرأى العام فتمكن من أن يتجاهل كلية دييت الاتحاد القديم أو البوند Bund . وكان البوند قد وضع لنفسه دستورا جديدا محافظا فى جملته فأقره أعضاء البرلمان التمهيدى بعد أن أدخلوا عليه بعض التعديلات . وقد استقر رأيهم على الأخذ بنظام الانتخاب المباشر لمجلس واحد وعمدوا الى تجنب كل مامن شأنه تعزيز الاتجاهات الجمهورية . وفى النهاية تم انتخاب الجمعية الوطنية (أو البرلمان القومى) على هذه الأسس وانعقدت فعلا فى منتصف مايو .

تألف البرلمان القومى أساسا من الطبقة الوسطى أو البورجوازية وهى الطبقة التى تدين بالوطنية . أما أصحاب الأراضى و « كبار رجال الأعمال » فلم يكونوا ممثلين تمثيلا كافيا ، أما العمال فلم يكن لهم تمثيل يذكر . وقد كان للأساتذة والمحامين ورجال الأدب من أعضاء الجمعية تأثير كبير عليها . وبعد صدام أولى أحرز النفوذ النمساوى نصرا على النفوذ البروسى ، فعين الأرشيدوق جون الذى كان هابسبورجيا متحررا له شعبيته فى منصب الرايخسفرزز Reichsverweser (أى النائب الامبراطورى) . وهكذا تألفت هيئة تنفيذية تجاهلت وجود الحكومات المنفصلة ووضع على رأسها رجل كان نمساويا وأميرا . لقد انطوت هذه السياسة أيضا على تجاهل

لأهواء المحافظين والراديكاليين جميعا ، فالأولون كانوا يناصرون قيام الحكومات المنفصلة والأخيرون كانوا يكرهون اعطاء مثل هذا المنصب لأمير .ولكن لا الحكومات الالمانية المنفصلة ولا الراديكاليون فى ذلك الوقت كانوا من القوة بحيث يستطيعون الاحتجاج

ولم تكد الجمعية تبدأ نشاطها حتى قوبل أول عمل قامت به تقريبا بالاستنكار والرفض المهين. ذلك أن البرلمان التمهيدى كان قد قام بمحاولة لتحرير دوقيتى شليزفيج وهولشتاين Schleswig-Holstein من الحكم الدانيمركى . الا أن الدانيمركيين هزموا القوات التى أرسلتها بروسيا لاحتلال الدوقيتين ، فعقدت هدنة لصالح الدانيمرك . وقد اضطرت الجمعية بعد مذلة بالغة الى قبول تلك الهدنة . فما ان عرف هذا النبأ حتى تحرش الغوغاء فى فرانكفورت بأعضاء الجمعية وأرهبوهم . ولئن كان النظام قد أعيد آخر الأمر بوصول القوات البروسية والنمساوية (١٨ سبتمبر) فان ذلك لم يتم الا بعد أن قتل نائبان محبوبان لاذنب لهما فى الأمر . وهكذا يبدو واضحا — حتى فى خريف ١٨٤٨ — أن العنصر الثورى قد أخذ ينفلت عياره وأن الحكومات القديمة هى وحدها القادرة على حفظ النظام .

ويجدر بنا أن نتبين الآن الى أى حد تمكنت حكومتا فيينا وبرلين من تدبير شئونهما الخاصة حتى سبتمبر ١٨٤٨ . كان الألمان النمساويون فى مجموعهم يظهرون أقل الاهتمام ببقية ألمانيا فقد كانت تشغلهم شئونهم الخاصة وشئون الجهات الأخرى من أراضى الهابسبورج . اذ كان المجريون قد قطعوا بزعامة كوشوط Kossuth شوطا بعيدا فى طريق الانفصال وراحوا يقضون على الاقطاع ويعطون الأرض للفلاحين، وقد أوضح كوشوط فى الوقت نفسه بجلاء تام أن المجريين لن يمنحوا فى مملكتهم أية حقوق عنصرية للصربيين أو الكرواتيين أو الرومانيين . وهكذا نرى أنه فى نفس اللحظة التى كانت تتحطم فيها السلطة

النمساوية فى فيينا ، كان كوشوط يوجد لها بحماقته حلفاء ضده من بين العناصر غير المجرية الداخلة فى عداد رعايا التاج المجرى .

وقد نشر فى فيينا دستور متحرر فى ٢٥ أبريل . كان الامبراطور عاجزا لا حول له ولا قوة ، اذ لم يكن بوسعه الاعتماد على قواته فى لعاصمة . وقد أرغمته فى ١٥ مايو جموع من الطلاب لم يتعرض لها الحرس الوطنى على الاقدام على مـزيد من الترضيات للاتجـاهات التحررية . فما كان منه الا أن هرب سرا الى انزبروك (١٧ مايو) . فدل هروب الامبراطور من عاصمته على أن الأحوال قد قاربت حد الفوضى ، وكانت النتيجة المباشرة هى اطلاق العنان للمزيد من الأمانى القومية . فكان أن هب التشيكيون فى براغ فى ١٣ يونيو . الا أن القائد النمساوى ويند شجراتز Windischgratz لم يلبث بعد شيء من التخاذل أن قصف التشيكيين فى عاصمتهم بالقنابل وأرغمهم على التسليم (١٧ يونيو) وبذلك حقق ويند شجراتز أول نصر للرجعية فى النمسا بل فى أوروبا كلها ، فأنشأ جميع مؤيدى العهـد القـديم يرفعون رءوسهم من جديد . وسرعان ماأعقب هـذا النجاح الأولى ورود أنباء هزيمة السردينيين فى ايطاليا (٢٥ يوليو) واعادة احتـلال ميلانو (٦ أغسطس) على يد راديتسكى Radetzsky وهكذا أخذ الجنرالات النمساويون يحرزون الانتصارات وبدأت الروح المعنوية لقواتهم تقوى بالتالى . وبعودة الامبراطور الى فيينا (١٢ أغسطس) اتضح جليا أن من المتوقع حدوث حركة رد فعل رجعية .

وقد جاءت عودة البلاط الى فيينا فى نفس اللحظة التى أصبح فيها وقوع صراع مع المجر أمرا محتوما . ان هذا الصراع يرجع الى حد بعيد الى رجلين هما كوشوط زعيم المجر الثائر وجلاكيتش Jellacic « بان » كرواتيا — أى حاكمها — الداهية . كان كوشوط يعمل بخطوات ثابتة فى سبيل استقلال المجر ويتسلح علنا لسحق الصربيين والكرواتيين

الثائرين . أما جيلا كيتش الذى عين حاكما لكرواتيا فى يونيو فقد راح يستخدم سلطته لدفع الحركة القومية الكرواتية الى الأمام واثارة الصربيين والكرواتيين جميعا ضد المجر . ولقد أجاد جيلاكيتش الذى كان متآمرا حاذقا ومقامرا جسورا فى آن معا ، اللعب بأوراقه . فقد أوقف عن العمل ولكنه خف لزيارة الامبراطور فى انزبروك مبينا له مزايا استرضاء السلافيين ، فأعيد آخر الأمر الى الحكم (٤ سبتمبر) . وما كان منه الا أن سارع الى عبور نهر درايف Drave ، مستعينا بالكرواتيين والصربيين معا ، ليغزو المجر على رأس جيش أعده لهذا الغرض (١٧ سبتمبر) . ومع أن مغامرته العسكرية لم توفق فقد كان لها أثر هام واحد . ذلك أن عبور الدرايف كان بمثابة « عبور الروبيكون » (١) ليس فقط بالنسبة لجيلاكيتش وانما بالنسبة للبلاط النمساوى كذلك . فقد ألفى الامبراطور الهابسبورجي نفسه قد تورط نهائيا فى دخول الحرب ضد المجر ، ولم تلبث الحكومة النمساوية أن أعلنت الحرب رسميا فى ٣ أكتوبر .

بيد أنه بقى أمل واحد ، ألا وهو أن يرغم زعماء الثورة فى فيينا الحكومة النمساوية على وقف تدخلها فى المجر ، وأن يمدوا أيديهم لأقرانهم فى بودابست كيما تنتصر الثورة فى العاصمتين . وقد وعد كوشوط بارسال قوات مجرية لمعاونة اخوانه الثوار فى فيينا . وسارت فى فيينا المظاهرات ضد الحرب مع المجر فى سبتمبر وبلغت ذروتها بقيام الاضطرابات ومصرع وزير الحربية النمساوى ونصب المتاريس فى الشوارع وفرار الامبراطور للمرة الثانية (٧ أكتوبر) . لكن الحكومة النمساوية سيكتب لها الخلاص هذه المرة على يد جنرالاتها . ففى ١٣ أكتوبر اقترب جيلاكيتش من فيينا ، وفى ١٧ منه ظهر ويندشجراتز على رأس قوات أضخم من جهة براغ . وقد قرر

---

(١) تعبير يقصد به اتخاذ الخطوة الحاسمة (المترجم) .

ويندشجراتز ألا يعرض على الثوار أية شروط وأبى التفاوض معهم مطالبا اياهم بنزع سلاحهم والتسليم له بلا قيد أو شرط . وبقى ثمة أمل فى أن يتمكن المجريون من تحرير اخوانهم فى الثورة ، لأنهم كانوا قد شارفوا أبواب فيينا ، الا أنهم هزموا على يد جيلاكيتش فى ٣٠ أكتوبر على مرأى من العاصمة فتبددت كل الآمال . وبذلك انتهت مقاومة المدينة فدخلها ويند شجراتز فى اليوم التالى دخول الفاتحين . لقد كان ، شأن جيلاكيتش ، يتصرف فى كثير من الأحيان دون أوامر البلاط أو على عكس تلك الأوامر فكان أن أنقذ الأسرة المالكة رغم أنفها .

وقد انتهت الثورة بالنسبة للنمسا بسقوط فيينا . وعين ويندشجراتز صهره الأمير فليكس شفارزنبرج وزيرا أول ، وكان هذا رجلا حديدى الارادة عظيم المقدرة ، راح يحكم البلاد حكما مستبدا ويتجاهل فى برود الوزارة الثورية والريخستاغ النمساوى . وفى ٢ ديسمبر تنازل الامبراطور العاجز عن العرش لصالح ابن أخيه فرنسيس جوزيف البالغ من العمر ثمانية عشر عاما . وظل شفارزنبرج الحاكم الفعلى للنمسا ، ومضى يعمل لتنفيذ برنامجه الذى يتلخص فى قيام ملكية نمساوية لا تتجزأ تحكمها الطبقة البيروقراطية . وكان يهزأ بالدستور الجديد فألغاه فى ازدراء وحل الريخستاغ النمساوى فى أوائل مارس ١٨٤٩ .

وقد تحقق القضاء على الاتجاهات التحررية فى بروسيا فى نوفمبر ١٨٤٨ بعد أن قمعت فى النمسا بحوالى أسبوعين . فقد ظل فردريك وليم يتذبذب طويلا بين موقفى الاحترام المشين لأعمال العنف الغوغائية والاصرار العقيم على حقه الالهى . ولكنه حزم أمره فى النهاية واستدعى لمعونته كونت براندنبورج Count Brandenburg وأوتوفون مانتيوفل (Otta van Mantauffual) (أول نوفمبر) فسارعا الى العمل وأعلنا

(٩ نوفمبر) نقل الجمعية التحررية الجديدة من برلين الى براندنبورج. ودخلت القوات العاصمة فى ١٠ نوفمبر فانقطع الأمل فى نجاح أى مقاومة أخرى . وفى ٥ ديسمبر حلت الجمعية لرفضها التصويت على الضرائب والانتقال الى براندنبورج . وهكذا أدى جنود الجيش البروسى دورهم مرة أخرى ونصبوا الهوهزلرنى ملكاً من جديد ، وأكدت الدولتان الألمانيتان الكبيرتان سلطانهما فى عاصمتيهما ثانية . لقد أثبتت التجربة أن الشدة تجدى وأن الثقة بالجنود أمر مستطاع وتمكنت بروسيا من المحافظة على النظام تماما . أما النمسا التى اطمأن بالها الآن بالنسبة لأقاليمها الموروثة فقد بقى عليها أن تقمع الثورة فى المجر وايطاليا .

واذا كانت نهاية عام ١٨٤٨ قد آذنت بانتصار الرجعية فى ألمانيا والنمسا فان فرص النجاح للثورة ظلت قائمة فى جهات أخرى . فالرجاء لم يكن قد انقطع بعد من فوز قضية الوحدة القومية فى ايطاليا ،والمجر لن تلبث أن تذهل العالم بحيويتها الفائقة . لقد كانت المقاومة التى أبدتها خارقة بأكثر مما يبدو لأول وهلة ، ذلك أنها لم تضطر فقط الى أن تؤلف جيشها ارتجالا لتحارب به قوات نظامية تفوقها عددا وتنظيما وعتادا بل تعين عليها كذلك أن تواجه قوات غير نظامية من الصربيين والرومانيين والسلوفاكيين فى عقر دارها . ورغم هذا كله فان من المشكوك فيه أن النمسا كانت ستتمكن من التغلب عليها لو أنها لم تدع جيوش روسيا الى نجدتها . ومن حسن حظ المجر أنها تمتعت بطبقة حاكمة استحوذت على مواهب سياسية ظاهرة ، على أن دينها الأكبر كان للحماسة التى أثارها كوشوط والمقدرة العسكرية العظيمة التى أظهرها جورجى gorgei أبرز القادة العسكريين المجريين . ومن سوء حظها أن كوشوط كان على جهل بالشئون العسكرية لا تضارعه الا حماقة جورجى فى الشئون السياسية ، وكان الرجلان

دائما على خلاف ، فلم تتم السيطرة الفعليــة على الجيش المجــرى لجورجى — بسبب عوامل الغيرة والخــلاف هــذه — الا فى مارس ١٨٤٩ .

وتعد المجر مدينة بسلامتها ابان شتاء ١٨٤٨ — ١٨٤٩ للبطء الذى كان يتحرك به ويند شجراتز . لقد كانت تحدوه الى ذلك حقا بعض الاعتبارات السياسية ، ولكنه كان بصفة عامة حذرا الى درجة الجبن ، فلم يبذل رغم سيطرته على بودابست وفيينا أية محاولة تذكر للتحرش بخصومه ناهيك عن مطاردة جورجى فى المناطق الجبلية التى راح يعيد تنظيم جيشه فيها . فما كان من الأخير الا أن اندفع للاشتباك به فى أوائل ابريل فباغته وهو غير مستعد للقتال فى ايزازج Isaszeg (٦ أبريل ١٨٤٩) وأنزل به هزيمة منكرة . ثم واصــل انتصــاره بتخليص كوماروم Komarom أقوى حصون المجر وارغام جيش نمساوى على التقهقر الى فيينا وآخر بقيادة جيلاكيتش الى زغرب . كان فوزه العسكرى مذهلا حقا ، فقد شــتت الجيوش النمســاوية وفرقها ، وبات استرداده لبودابست مسألة وقت ليس الا .

على أن هنالك علامات ثلاثا تشير الى تحول الموقف : هى سحب الحكومة النمساوية لقيادة الجيش فى الميدان من ويند شــجراتز ، ومناشدتها روسيا تقديم العون ، ودفعها كوشوط الى التمرد الصريح . فقد شعر الأخير عند انعقاد برلمانه فى دبرزن Debroczen بأن قوته قد بلغت حدا يسمح له بخلع الامبراطور الهابسبورجى وتعطيل الملكية وتنصيب نفسه حاكما واصدار اعلان باستقلال المجــر (١٤ أبريل) (١) . لقد بلغ مركز المجر درجة فائقة من القوة حتى أنها لم تهتز لهزيمة ملك سردينيا الفادحة فى نوفارا (٢٣ مارس) . بل ان كوشوط راح يحث جورجى على الزحف على فيينا ، وان يكن الأخير

---

(١) أرخ هــذا العنوان خطأ فى ١٩ مارس .

قد أبى الاقدام على هذه المخاطرة لأسباب عسكرية . على أنه لم يلبث أن تحرك فى أوائل مايو صوب بودابست فاستولى عليها بعد أسابيع ، ودخلها كوشوط مظفرا فى ٦ يونيو حيث راح يتمتع بضعة أسابيع بمظاهر السلطة البراقة . على أن مركزه كان فى الحقيقةمزعزعا. أما جورجى فكان عليما بضعفه العسكرى الذى يرجع الى قلة عدد رجاله وضآلة مؤنه . بيد أنه كانت هنالك مواطن ضعف سياسيةخطيرة كذلك . فجورجى والجيش كانا يؤمنان بالملكية الدستورية فى حين كان كوشوط يؤمن بالثورة ايمانا عاطفيا . وقد أثار تطرفه الشورى انزعاج الأعيان والطبقات المثرية ، وأخذت قيمة العملة الورقية التى أصدرتها الثورة تهبط يوما بعد يوم . ولعل جورجى كان على حق فى ظنه أن تنصيب ديكتاتور عسكرى هو وحده الكفيل بانقاذ البلاد . على أنه لم يكن يملك ، وهو المرشح الوحيد المحتمل لهذا المنصب ، أية فراسة سياسية ، كما أن كوشوط كان مصمما على الاحتفاظ بالسلطة المدنية الكاملة طالما أمكنه ذلك . وهكذا تأخر البت فى هذه المسألة البالغة الحيوية حتى فات الأوان ، فلم تجد الخطوة عند اتخاذها فتيلا فى انقاذ الموقف .

والحق أن نتيجة الحرب كانت قد تقررت فعلا . فقد عرف فى أول مايو أن قيصر روسيا قد استجاب لنداء النمسا وأنه يوشك أن يرسل الى المجر جيشا مستقلا كامل العتاد بقيادة الفيلد مارشال باسكيفتش Paskiévic وقد قدر لهذا التدخل أن يكون حاسما فى النهاية . وطالما ناقش المؤرخون دوافع القيصر . الا أنها تبدو فى الواقع بسيطة واضحة . فان نفرا غفيرا من البولنديين قد حاربوا فى صفوف الجيش المجرى ، وقد برز من هؤلاء كثيرون واحتلوا مناصب القيادة العليا فيه . والقوات الروسية كانت قد دخلت ترنسلفانيا فى مارس فطردتها منها القوات المجرية . وقد رابطت فرقة مجرية بالقرب من حدود

غاليسيا تحقيقا لهدف صريح هو تشجيع البولنديين على الثورة ضد النمسا . ولما كان القيصر نيقولا حساسا بصفة خاصة ازاء كل مايتعلق بالبولنديين ولما كان يؤمن بضرورة اتحاد جميع العواهل ضد الثوار فقد رأى أن يتدخل لقمع الثورة البولندية فى مهدها من ناحية وتعزيز الحق الالهى لحاكم شقيق ضد الثوار من ناحية أخرى ، وهما هدفان عزيزان على نفسه وسيكتب لهما التحقيق . فكان أن اجتمع العاهلان فى ٢١ مايو بوارسو واتفقا على خطة القتال (١) .

وقد تقرر أن يتم غزو المجر من ثلاث جهات : وذلك بأن يزحف هيناو Haynau القائد النمساوى الجديد من فيينا ، وجلاكيتش من زغرب ، فى حين يعبر باسكيفيتش جبال الكربات ليهاجم المجريين من المؤخرة . وهكذا ألفى جورجى نفسه فى موقف دقيق ، فقوات العدو تفوقه عدداً بدرجة تبعث على اليأس والضرورات السياسية تفرض عليه التمسك بالدفاع عن كوماروم وبودابست مما يشل يده عن الحركة . وقد تمكن جيلاكيتش رغم مامنى به من خسائر من اللحاق بقوات هيناو فى ١٤ يوليو ، وفى ١٨ منه دخل الجيش النمساوى الموحد بودابست . فانتقلت العمليات بعد ذلك الى تيسو Theiss أو Tisza . وقد تجنب جورجى فى براعة الاشتباك مع القوات الروسية التى يقودها باسكيفيتش ، ولكن هيناو لحق بالجيش المجرى الجنوبى فدحره دحرا تاما فى تيمزفار Temsvar (٩ أغسطس) .

---

(١) سأل نيقولا سفير النمسا بعد خلافه معها فى ١٨٥٤ عما اذا كان يعرف من هما أحمق ملكين فى تاريخ بولندة . ثم أجاب بنفسه على سؤاله كالآتى : « ان الاول هو الملك جون سوبيسكى John Sobieski الذى حرر فيينا من الحصار الذى ضربه عليها الاتراك (١٦٨٣) . أما الثانى فهو أنا ... انقذ بيت الهابسبورج » انظر كتاب ج . ردليش : «امبراطور النمسا فرنسيس جوزيف» (١٩٢٩) ص ١٥٦ .
J.Redlich : "Emperor Francis Joseph of Austria" (1929) p.156.

كان جورجى قد توقع الهزيمة وأبلغ كوشوط فى « أراد » Arad فى ١٠ أغسطس أنه سوف يستسلم اذا انتصر هينــاو فى تيمزفار . فأجاب كوشوط بطريقة مسرحية بأنه سيجهز على نفسه ان حــدث ذلك . وفى ١١ من نفس الشــهر وصلت أنبــاء الــكارثة التى حلت بالمجريين فى تيمزفار فاستعد جورجى للتسليم وطالب كوشوط بالتخلى عن الحكم بغية رفع مسئولية التسليم عن زعيم البلاد السياسى . ان الكثير من الغمــوض يكتنف المفاوضــات التى دارت بين الرجلين ، وقد أكد كوشوط فيما بعد أنه أمر جورجى بالاصرار على اســتقلال المجر الذاتى واتهمه بالخيانة وتسليم البلاد عمدا للعدو ، وهو اتهــام بالغ السخف ومن الجائز أن القصد منه كان مجرد ايجاد تبرير شعبى للكارثة التى حاقت بالمجر ، ذلك أن كوشوط كان يعلم تمام العلم ، شأن جورجى ، أن المقاومة باتت مستحيلة . (١) وحتى لو طالب جورجى باستقلال المجر الذاتى لما قبل هيناو أو باسكيفيتش أى مطلب سوى التسليم بلا قيد ولا شرط على أساس عسكرى بحت .

وفى ١٣ أغسطس سار جورجى ، أبرز القــــادة العسكريين الذين أنجبتهـــــم انتفاضـــــات ١٨٤٨ ، على رأس ما يربو على ٢٣،٠٠٠ رجل الى فيلاجوس Világos حيث استسلم للروس وألقى سلاحه فكتب باسكيفيتش الظـافر الى القيصر يقــول : « ان المجر تجثــو تحت أقدام جلالتكم » . على أن جيش جورجى وأمر التسوية المجرية

---

(١) وجه كوشوط اتهام الخيانة فى لحظة من الانفعال البالغ عند فراره من المجر . ومع انه لم يسحبه فيما بعد فان الكتاب الجادين لم يعودوا يؤيدونه . وينصب الاتهام الأساسى على أن كوشوط قد اشترط لاحتفاظ فى حالة التسليم ، بالاستقلال الذاتى للمجر . وحتى لو كان هذا صحيحا (ويحتمل الا يكون كــذلك) فان كوشوط كان يصر على شرط لم يكن بوسع جورجى أن يناله . انظر مجموعة كامبردج فى التــاريخ الحديث « و » وارد . المجلد الحــادى عشر ص ص ٢١٢ — ٢١٤ .
Sir A.W.Ward : "Cambridge Modern History", vol. XI. pp. 212-14

قد تركا كلاهما لهيناو ، فانصرف صاحبنا الى معاقبة الثوار . وقد تم انقاذ حياة جورجي نتيجة لتدخل القيصر ، ولكن قواده الثلاثة عشر (« شهداء أراد ») أعدموا شنقا أو رميا بالرصاص ، وألقى نحـو ٤٠٠ من ضباطه فى غياهب السجون . وأعدم باتثيانى Batthyány الذى كان رئيسا لوزراء المجر وما يربو على مائة من الساسة الآخرين أما كوشـوط فقـد صـنعوا له و للـكونت جوليـوس أندراسى Count Julius Andrássy وأربعة وسبعين شخصا آخر نماذج علقت على أعواد المشانق . وأنزلت بالمجريين شتى ضروب البطش والتشفى ، فى حين تركت الفظائع التى ارتكبها السلافيون والرومانيون فى حـرب العصابات دون ماعقاب . ان حكم هيناو الوحشى قد أكسبه اسـما مستعارا هو « الضبع » وجلب عليه ، عند زيارته لانجلترا بعد ذلك ببضع سـنوات ، عقـابا صارما على يدى السـائقين « باركلى » و « بيركينز » السختيين . ولا مراء فى أنه قد أظهر ضراوة لا داعى لها ، ولعله من المفيد أن يقارن المرء « الرأفة التى أبداها الشمال الظافر فى الحرب الأهلية الامريكية نحو ساسـة الجنوب وقواده ، بالأساليب الوحشية التى عمدت اليها النمسا فى المجر وايطاليا ١٨٤٩ .

لم يقدم كوشوط على الانتحار عندما حدث التسليم كما قال انه سيفعل . لقد دفن فى ١٧ أغسطس التـاج المجرى بالقرب من مدينة أورزفا Orsova الكائنة على الحدود وهرب من المجر التى لم تقع عليها عيناه بعد ذلك قط ، الى تركيا . فغدا صوتا بليغا يتردد صداه فى البيداء وراح يستعرض ، فى انجلترا وفى الولايات المتحدة ، قدرته الفذة على اثارة العواطف البشرية تلك القدرة التى جعلت منه الرجل الأول فى المجر . وقد عاش زهاء خمسين عاما وظل على عدائه الذى لا يلين للهابسبورج . وفى ١٩٠٢ حمل رفاته ليرقد فى وطنه وسط مظاهر من العاطفة لم تشهد لها المجر مثيلا من قبل . والحق أنه كان

بركانا ثائرا وأنه مارس سلطانا لا يوصف على النفوس . فالقوى المحافظة كانت لها سطوتها فى المجر ولولاه ماقامت للثورة قائمة .

وبحلول صيف ١٨٤٩ كان القضاء على الثورة تم تقريبا ، فرغم استمرار الكثير من القلاقل لم يعد ثمة مجال للشك فى أن السلطات القائمة ستتغلب فى النهاية على الثوار . لقد كانت الثورة أشبه بموجة أو هجمة من هجمات الفرسان تكتسح برهة من الزمن بقعة واسعة من الأرض دون مقاومة ثم لا تقوى على المحافظة طويلا على ما اكتسبته . وقد ردت على أعقابها بفعل القوة المادية وعاد الملوك الى عواصمهم بمجرد عودة الجنود الى طاعتهم . وكانت أول ضربة سددت الى الثورة هى الاستيلاء على براغ فى ١٧ يونيو والثانية سقوط فيينا فى نهاية أكتوبر والثالثة تأكيد سلطة ملك بروسيا من جديد على برلين فى نوفمبر . أما آخر مقاومة وأعندها ألا وهى مقاومة المجريين الذين أذكت العاطفة القومية نيران ثورتهم ، فلم تنته الا باستدعاء جيش أجنبى بل روسى . وفى جميع الحالات بدأت الثورة دون اسالة دماء ، أما انتصار الرجعيةفى جميع الحالات فقد تم بالعنف والقوة العسكرية. لقد انهزمت النزعات التحررية العاطفية والثورات الرقيقة الحالمة بل والانتفاضات الوطنية العنيفة كذلك أمام يد السلطة الحديدية وقوتها السافرة ، وبقى أن نتبين ما اذا كانت هذه الثورات قد ذهبت كلها سدى وما اذا كان يمكن للردة الرجعية أن تدوم .

الفصل الثالث عشر
الحكم الرجعى فى المانيا والنمسا والمجر
١٨٤٩ — ١٨٦٠

بدأ عام ١٨٤٩ فى ظلام دامس . كانت الملكية قد ردت الى سلطانها السابق فى بروسيا ، وتمكنت النمسا من اعادة النظام فى أقاليمها الألمانية ، وبذلك استردت الى حيز الوجود أكبر دولتين فى المانيا كيانهما . غير أن البرلمان القومى الألمانى ظل قائما ومعه الهيئة التنفيذية المركزية والنائب الامبراطورى ، كرمز حى للوحدة الألمانية وكجهاز مازالت تعلق عليه الآمال فى أن يحقق أحلام كل ذلك العدد الغفير من الألمان وأن يجعل من ألمانيا ليس مجرد اسم وانما أمة بمعنى الكلمة . فقد كانت الدول الصغيرة الملتزمة بسياسته من الكثرة ، وكان تأييد الرأى العام له من القوة بحيث يتعذر الاستهزاء به كلية وعلى الفور . لقد كان البرلمان على ذلك فى مركز يمكنه ، بل ومكنه فعلا ، من أن يفرض على النمسا قرارا خطيرا بالنسبة للمستقبل . فقد قررت الجمعية الوطنية بعد مناقشات طويلة عدم استبعاد النمسا من الاتحاد المزمع انشاؤه (أو الامبراطورية كما سميت غالبا) مع اشتراط استبعاد أى من أقاليم النمسا غير الألمانية (كالمجر وغيرها) من ذلك الاتحاد الألمانى الجديد . وهكذا عرضت الجمعية على النمسا مكانا فى الامبراطورية الألمانية الجديدة ولكنها اشترطت عليها ابقاء أقاليمها غير الألمانية (المجر .. الخ) خارج تلك الامبراطورية . فما كان من شفارزنبرج Schwarzenberg الا أن رد على هذا العرض فى ٣١ ديسمبر ١٨٤٨ بأن النمسا وجميع أقاليمها ستصبح فى المستقبل دولة مركزية ذات كيان عضوى واحد ، وأنها يجب أن تدخل البوند أو الاتحاد بهذه

الصفقة . واقترح بدلا من فكرة الامبراطورية الألمانية الجديدة التى رفضها كلية ، بعث البوند القديم على أن تصحبه هيئة تنفيذية أقوى . فأتاح رده لبروسيا فرصة عظيمة لتولى الزعامة فى ألمانيا ، فقد توجهت الجمعية الوطنية وقد آذى شعورها اقتراح شفارزنبرج ، الى بروسيا بحثا عن العطف والمعونة وبعد تلقى المزيد من الاهانات من شفارزنبرج أكملت الجمعية الوطنية دستورها ، واختارت ملك بروسيا امبراطورا لألمانيا (٢٧ـ ٢٨ مارس ١٨٤٩) . ولو كان فردريك وليم حاكما عظيما ، وهو مالم يكنه باعترافه الشخصى ، لفازت بروسيا ، يومذاك بالزعامة فى المانيا . الا أن فردريك وليم رفض بعد الكثير من التردد ، العرش المعروض عليه (٣ أبريل)[1] فضيع الغنيمة التى سوف يحظى بها خلفه فى يوم من الأيام .

كان رفض ملك بروسيا ضربة كبرى . ولكن قيام المانيا المتحدة ظل أمرا ممكنا بفضل التأييد الشعبى والخلافات الخطيرة القائمة بين النمسا وبروسيا . فان ثمانيا وعشرين دولة أعربت عن موافقتها الرسمية على قرارات الجمعية الوطنية القاضية بانشاء الدستور الجديد والامبراطورية الألمانية (٤ أبريل) ، فسارعت النمسا الى سحب ممثلها من فرانكفورت فى اليوم التالى ، فكان رد الجمعية أن أكدت من جديد تمسكها بالدستور . الا أن بروسيا لم تلبث هى الأخرى أن أنكرت على الجمعية سلطة اتخاذ هذه القرارات وسحبت ممثليها منها ، فكانت تلك بمثابة الخطوة الحاسمة . وقد ظلت الجمعية قائمة بعد ذلك وانتقلت من فرانكفورت الى شتوتجارت غير أن وجودها قد أضحى صوريا . فلم تلبث النمسا وبروسيا أن تولتا عنها فى ٣٠ سبتمبر ١٨٤٩ مهام السلطة الألمانية المركزية فانهيتا بذلك سلطة جمعية فرانكفورت ان لم يكن وجودها ذاته . وبسقوط الجمعية سقط

---

(١) لعل من الأصوب ان نقول انه ارجأ الامر الى اجل غير مسمى .

دستورها ، ذلك الدستور الذى كان بعيدا كـل البعد عن الدستور الألمانى الذى ولدته الانتصارات الألمانية فى ١٨٧٠ ، وان كان — من عدة أوجه — قريب الشبه بالدستور الذى ولدته الهزائم الألمانية فى ١٩١٨ ، فقد احتـوى على نفس التوكيد لحقوق الامبراطورية حيال حقوق الدول الألمانية ، وأتاح للعناصر الشعبية نفوذا قويا فى المجلس الأعلى(١) وقام بمحاولة جدية لادخال نظام التمثيل الشعبى وسعى الى اقرار الحرية الفردية باعتبارها حقا أساسيا من حقوق المواطن الألمانى .

وفى أبريل ومايو ١٨٤٩ نشبت ثورات أو حـركات تمرد عسكرية فى بادن وفى امارة « البلاتين على الراين » Rhenish Palatinate (وهى جزء من بفاريا) وفى سكسونيا . فأرسلت القـوات البروسية على الفور لاعادة النظام فى سكسونيا ، كما استخدمت فى قمع بعض الاضطرابات الجديدة — غير الخطيرة — فى بروسيا نفسها . ودخلت القوات البروسية كذلك بادن وامارة البلاتين البافارية Bavarian Palatintea وفرتمبرج . واذ كانت بروسيا تنتهج فى نفس الوقت سياسة التودد والصداقة نحـو بعض الدول الصغرى فقد تملـكت النمسا الشكوك والريب ، ولسـان حالها أنه لو تمكنت بروسـيا من اعادة النظام الى هـذه الدول فانها قـد تتمكن من السيطرة عليها ، واذا ما سيطرت على عدد كبير منها فانها — أى النمسا — لن تظل الدولة الأولى فى المانيا . كان شفارزنبرج مصمما فى قسوة لا تلين على اعادة البوند القديم وتوكيد سيادة النمسا فى المانيا من جديد وازاحة كل المشروعات الأخرى من طريقه باعتبارها عبثـا لا طائل من ورائه . ولم يكن بوسعه أن يحقق هذه الغاية دون أن ينزل ببروسيا مهانة تخطف الأبصار .

---

(١) ما يقـابل مجلس الشيوخ فى البـلاد التى تأخـذ بنظام المجلسين (المترجم)

وفى أواخر ١٨٥٠ أشعلت الاضطرابات التى قامت فى هيس — كاسل Hesse - Cassel عود الثقاب فوق برميل البارود . وشفارزنبرج لم يكن ليرضى بأن تكسب بروسيا المزيد من الهيبة باعادة النظام هناك. لقد عزم على أن تلعب النمسا ذلك الدور وتأهب لدخول هيس — كاسل بجيش نمسوى (تعززه فرق من بفاريا وفر تمبرج) قوامه ٢٠٠,٠٠٠ رجل . فأعلنت بروسيا التعبئة ردا على ذلك ، ووقع الصدام فعلا بين القوات البروسية والبفارية . ولكن فردريك وليم لم يلبث أن اضطرب وتراجع كعهده أبدا فى الأزمات وفى أولمتز Olmütz فأملى شفارزنبرج الحديدى الارادة على بروسيا تسوية لمسألة هيس تركت الفضل كله للنمسا وان تضمنت محاولة واهية لانقاذ ماء وجه بروسيا فى الظاهر (٢٨ نوفمبر ١٨٥٠) . وقبل نهاية العام تمكن شفارزنبرج من اعادة البوند أو الاتحاد القديم بزعامة النمسا طبعا كسابق العهد والزمان . فأجمعت الظواهر على أن النمسا قد غدت أقوى مما كانت فى أى وقت مضى وعلى أن الرجعية قد عادت فى شخصه لتحكم وتسود .

ان المهانة المؤسفة التى حاقت ببروسيا فى أولمتز تمثل أسفل درك بلغته فى هاوية الجبن والاستسلام. فقد بدا شفارزنبرج « مترنيخا » جديدا فى صورة أعظم ، وبدا أن بروسيا قد هانت ودس أنفها فى الرغام على نحو لا يقل عما حدث لها بعد « يينا » . بل ان الأمر قد انطوى هذه المرة على المزيد من الهوان . اذ كانت بروسيا مخلصة على الأقل لقضية الوحدة الإلمانية يوم أن قهرها نابليون ، أما الآن فقد بدأت بالوعد برفع لواء تلك القضية ولكنها لم تلبث أن خانت أولئك الذين آزروها وأذعنت لمطالب النمسا المتعالية . فبدت المانيا يومئذ أضعف ماتكون وأشد وهنا وتفككا. لقدأتيحت لبروسيا الفرصة كى تصبح الدولة الأولى فى ألمانيا ، وأتيحت لمليكها الفرصة لأن يضع فوق رأسه التاج الامبراطورى ، فكان كل مافعلته أن زادت الأغلال التى تقيد

ألمانيا وهي راقدة تحت أقدام شفارزنبرج احكاما على احكام . وبدا أن « مهانة أولمتز » سوف تجعل الوحدة الألمانية أبعد منالا من أى وقت مضى وتجرد بروسيا نهائيا من أهليتها لحمل لواء هذه الوحدة .

على أن هذه النظرة للأمور خداعة للغاية فى الحقيقة . فلئن كان شفارزنبرج قد تمكن حقا بفضل ارادته القوية وهمته التى لا تعرف كللا أو هوادة ، من تحقيق انتصارات دبلوماسية فى الخارج واقرار النظام فى الداخل ، فان الخطة التى رسمها لمستقبل الممتلكات الهابسبورجية كان مقدرا لها الفشل منذ البداية . لقدكان شفارزنبرج على حق فى سعيه الى تجربة شىء جديد ، ولكن الشىء الذى حاوله فعلا كان قد جرب من قبل وحكمت عليه التجربة بالفشل . كانت فكرته هى باختصار معاملة جميع أراضى النمسا والمجر ككتلة من المعدن المنصهر توضع فى قالب واحد وتطبع بطابع واحد ، فيجعلها تتحدث لغة واحدة وتتبع قانونا واحدا وحكومة واحدة وتذعن لسيد واحد . كان يريد أن يوحدها ويمركزها ويبسط سلطان البيروقراطية عليها . غير أن هذا المشروع جاء منافيا لطبيعة الأمور ، وقد حاول جوزيف الثانى تنفيذه عبثا من قبل فى ظروف أنسب وأشد ملاءمة . وحتى لو جاز أن تنبذ عظات التاريخ وتداس أمانى اثنى عشر عنصراً (١) ، فلم يكن ثمة احتمال فى أن تنجح الخطة مالم يتوفر لها عشرون عاما من السلم المتصل على الأقل . وقد تعرضت النمسا فى غضون ثمانية عشر عاما لهزيمتين ساحقتين ، جاءت ثانيتهما على يد بروسيا التى نقضت ، بعد معركة لم تدم الا ستة أسابيع ، حكم الادانة الذى صدر ضدها فى أولمتز .

---

(١) كان هنالك الى جانب الالمان سبعة عناصر سلافية هى التشيكيون والبولنديون والرثنيون The Ruthenes والكرواتيون والصربيون والسلوفاكيون والسلوفينيون وثلاثة عناصر لاتينية هى الرومانيون واللدنيون The Ladins والايطاليون وعنصران اجرباتيان Ugrian هما المجريون والزكلريون The Szeklers

وفى الواقع أنه كان بمقدور شفارزنبرج أن يسترضى العناصر المختلفة فى النمسا وأن يشل يد المجريين فى مملكة المجر . ولعل التوسع فى تطبيق نظام الحكم الذاتى على مختلف العناصر[1] كان أفضل خطة يستطيع انتهاجها . فان ذلك كان سيمكنه من حصر المجريين البالغ عددهم خمسة ملايين فى نطاق الأراضى التى يقطنونها وعزل السلافيين البالغ عددهم خمسة ملايين والرومانيين البالغ عددهم مليونين عن الكيان السياسى المجرى . وبذلك ينتزع من المجر موارد اقتصادية قيمة وسكانا أقوياء غرباء لتوضع ويوضعوا تحت امرة الهابسبورج . ولكن اصرار شفارزنبرج على سحق المجيار والسلافيين واخضاعهم على السواء لنير مشترك عده المجيار خطأ فاحشا . فكانوا يقولون ساخرين « ان ما يعطى لنا كعقاب يعطى لكم (أى للسلافين) كثواب » . وهكذا أفلتت الفرصة الذهبية لتشكيل الدولة النمساوية من جديد على أساس الحكم الذاتى المتحرر المعتدل . ولم يؤد السبيل الذى انتهجه شفارزنبرج الى كارثة فى الخارج فحسب بل أدى كذلك الى تسوية ١٨٦٧ Ausgleich فى الداخل ، وأوجد فى النهاية نظاما ثنائيا (النمسا — المجر) أصبح المجريون فيه العنصر الأقوى فى الواقع ، وهى نتيجة كان بوسع أية سياسة حكيمة أن تتفاداها بسهولة .

قد عملت الاجراءات التى بدأها شفارزنبرج وواصلها باخ لاقامة حكومة مركزية على تحطيم ملكية الهابسبورج بصورة مطردة طوال الفترة مابين ١٨٤٩ — ١٨٦٠ . فان تطرف الرجعية أدى فى الواقع الى بعث الاتجاهات القومية التى قمعت فى كل مكان عام ١٨٤٩ واعادت

---

(١) من الطريف حقا أن هذه الخطة هى فى جوهرها نفس الخطة التى تبناها فرانز فرديناند فى ١٩١٤ كما هو معروف . اذ كان مقتنعا بأن خير سبيل للابقاء على امبراطورية الهابسبورج هو الغاء النظام الثنائى وجعل جميع العناصر متساوية تحت حكم البيت النمساوى .

اليها الحيوية والنشاط. وقد احتدمت كراهية الهابسبورج فى أعنف صورها فى الأراضى الايطاليـة التـابعة للنمســا ، وان لم تقل شــدتها كثيرا بين المجريين والتشيكيين . ولما نزلت الجيوش النمساوية ساحة الحرب فى ١٨٥٩ و ١٨٦٦ لم يبد السلافيون ولا المجـريون أدنى استعداد للقتال من أجل الهابسبورج . ولا مراء فى أن مثل هذه السياسة التى وحدت بين المجريين والسلافيين ليست الا سياسة بالغة الحماقة .

لقد حكمت النمسا اذن على نفسها بالفشل عندما انتهجت سياسة مركزية فى الداخل لأنه كان من المحتوم أن يفضى ذلك فى النهاية الى الكوارث فى الخارج . كما أن من يتابع الأمور عن كثب يلاحظ كذلك أن السياسة النمساوية قد لقيت ، رغم انتصار النمسا الباهر فى أولمتز ، فشلا ذريعا حتى فى ألمانيا . حقا لقــد أصيبت بروسيا باذلال وقتى ، ولكن النمسا عجزت عن تحقيق برنامج شفارزنبرج الأشــمل . فلم تتمكن من ادخال أراضيها كلها كدولة موحــدة فى البوند ، كما كان يتمنى . وأخفقت كــذلك فى فض الزولفرين البروسى أو استبداله باتحاد جمركى عام يضمها . وعلى هذا فان مركز النمسا رغم انتصارها الوقتى كان فى الحقيقة خطيرا ومزعزعا .

ولعله يحسن بنا أن نجمل الآن نتائج أحداث ١٨٤٨ — ١٨٤٩ . لقد غمــر أوروبا الوسطى طوفان لا مثيل له من العواطف البشرية . ورغم أن المد أخذ ينحسر فيما بعد فقد ترك آثاره فى كل مكان وهى آثار لم تقو الأحداث غالبا على محوها وســددت ضربة قوية ، فى ألمانيـا وفى النمسا وفى المجر ، لنظام استعباد الفلاح وأصبحت الأرض الحرة الخالصة هى القاعدة بالنسبة له . وهكذا توافر للفلاحين فى شتى أرجاء أوروبا الوسطى قدر كبير من الحـرية الاقتصادية حتى بعــد عودة الطغيان السياسى فى أشد صوره .

كانت الدعوة الى التحرر التى ظهرت فى كل مكان حركة بورجوازية قبل كــل شىء . وكانت من النــوع العاطفى الرومانتيكى ، وكــان

زعماؤها بصفة عامة رجالا يفتقرون الى التجربة السياسية والتنظيم ؛ فبدا أن الحكم البوليسى فى برلين وفيينا قد تمكن باللجوء الى أساليب البطش والشدة من سحقها . وهذا القول قد يصدق فى بعض الحالات اذ لم يعد النشاط السياسى الى تعريض النظام القائم فى فيينا أو المانيا للخطر من جديد حتى سنة ١٩١٤ . ولكن جميع الحكام الألمان قد أرغموا على منح رعاياهم دساتير أو ادخال الأفكار المتحررة فى دساتيرهم القائمة فعلا ، فأدى ذلك الى الحد نوعا ما من سلطة الحكام والى نمو الحياة البرلمانية الحقة فى بعض الدول مثل بادن وبفاريا ، وحتى بروسيا نفسها قد اضطرت الى منح دستور أزعج حاكمها فى بعض المواقف ، الأمر الذى تبينه بسمارك فيما بعد[1] . ورغم أن معظم عواهل المانيا قد ظلوا على تشبثهم الشخصى بفكرة الحق الالهى فان عام ١٨٤٨ قد أدى الى تحرير رعاياهم من تلك الخرافة . فمنذ ذلك الحين فصاعدا أصبحت الاعتبارات القومية هى المحك الأول وأصبح الولاء يمنح للحكام على حسب كفايتهم أو قوتهم أو نجاحهم . فانتصار حكم بسمارك الاستبدادى فى بروسيا لا يرجع الى شيوع روح التصوف أو الى تقديس التاج وانما الى احترام الناس لهذا الحكم لما اتصف به من ذكاء وقوة وحكمة .

وقد حققت النزعة القومية ، وان تكن أقل ظهورا من نزعة التحرر فى ١٨٤٨ ، نجاحا أكبر فى اجتياز العاصفة . فلئن كان الحكم الرجعى الذى ساد بعد ١٨٤٨ قد تمكن من وقف تيار الوحدة القومية الألمانية فانه لم يقض عليه بحال من الأحوال . لقد شكل لألمانيا برلمان ألمانى وقامت بالفعل هيئة تنفيذية ألمانية ، وبات معظم الناس يشعرون أنهم

---

(١) ترك فردريك وليم وصية سرية لتتلى على كل من خلفائه يدعوهم فيها الى القضاء على الدستور ، وقد مزقت هذه الوصية بأمر القيصر وليم الثانى ملك بروسيا ، ولولا أن الدستور كان يعترض فى سبيل حكام بروسيا بصورة أو أخرى لما كتبت هذه الوصية أصلا ولا مزقت بعد كتابتها .

سوف يرون فى حياتهم عودة هاتين الهيئتين الى الوجود مرة أخرى ، على أن مواطن الضعف الداخلية فى النمسا وتعدد رعاياها الغرباء جعلهم يستبعدون احتمال قيادتها لألمانيا فى هذا الاتجاه . وقد كان بوسع من يراقب الأمور بنظر ثاقب أن يدرك أن الخطر الذى يتهدد النمسا انما يكمن فى قمعها للنزعات القومية داخل أراضيها . فأعرب بالمرستون فى ١٨٤٨ عن رأيه فى أن ممتلكات النمسا فى ايطاليا هى موطن ضعف يجدر بالنمسا التخلص منه ، وفى أن بوسعها ترضية المجر بمنحها حكما ذاتيا كريما . وكان بالمرستون مصيبا فى الناحيتين ، ولكنه لو توافرت له معرفة الحقائق التى نعرفها اليوم لمضى شوطا أبعد فقال ان التشيكيين لن يرضوا مطلقا حتى تتحقق أمانيهم القومية وان على النمسا ان شاءت لنفسها البقاء أن تسترضى حتى العناصر المغمورة مثل السلوفينيين والكرواتيين والصربيين . ولكن أحدا لم يكن ليحلم بالطبع فى ١٨٤٨ بأن الهابسبورج سيضطرون الى محاربة صربيا فى ١٩١٤ لأن مطامع اليوغوسلافيين باتت متعارضة مع وجود النمسا . على أنه سوف يقدر لخميرة القومية التى بدأت تعمل فى ١٨٤٨ أن تفعل فعلها فى شتى أرجاء أوربا الوسطى وأن تثير فى النهاية فورانا لاتسكنه الا حرب عالمية .

أكان بوسع أحد أن يرى فى ١٨٤٩ أن بروسيا هى التى سترفع لواء الوحدة الألمانية بعد عشرين عاما ؟ أغلب الظن أن الجواب بالنفى ، على أنه كانت هناك رغم ذلك شواهد طريفة يصح أن تسجل . فبروسيا ظلت ممسكة بنصف المانيا فى حبائل الزولفرين ، وأهالى بروسيا وجنودها لم يبدوا ، رغم تأثرهم بموجة الثورة ، بغضا ايجابيا لمليكهم بل ظل الملك والجيش والشعب يشكلون ذلك الكل العضوى الواحد المعروف باسم الدولة البروسية . وقد منح الملك البلاد دستورا تلاقى الى حد ما مع حاجات العصر والزمن ، ولم يجلب على نفسه العار بالغاء ذلك الدستور ونقض كلمته كما فعل امبراطور

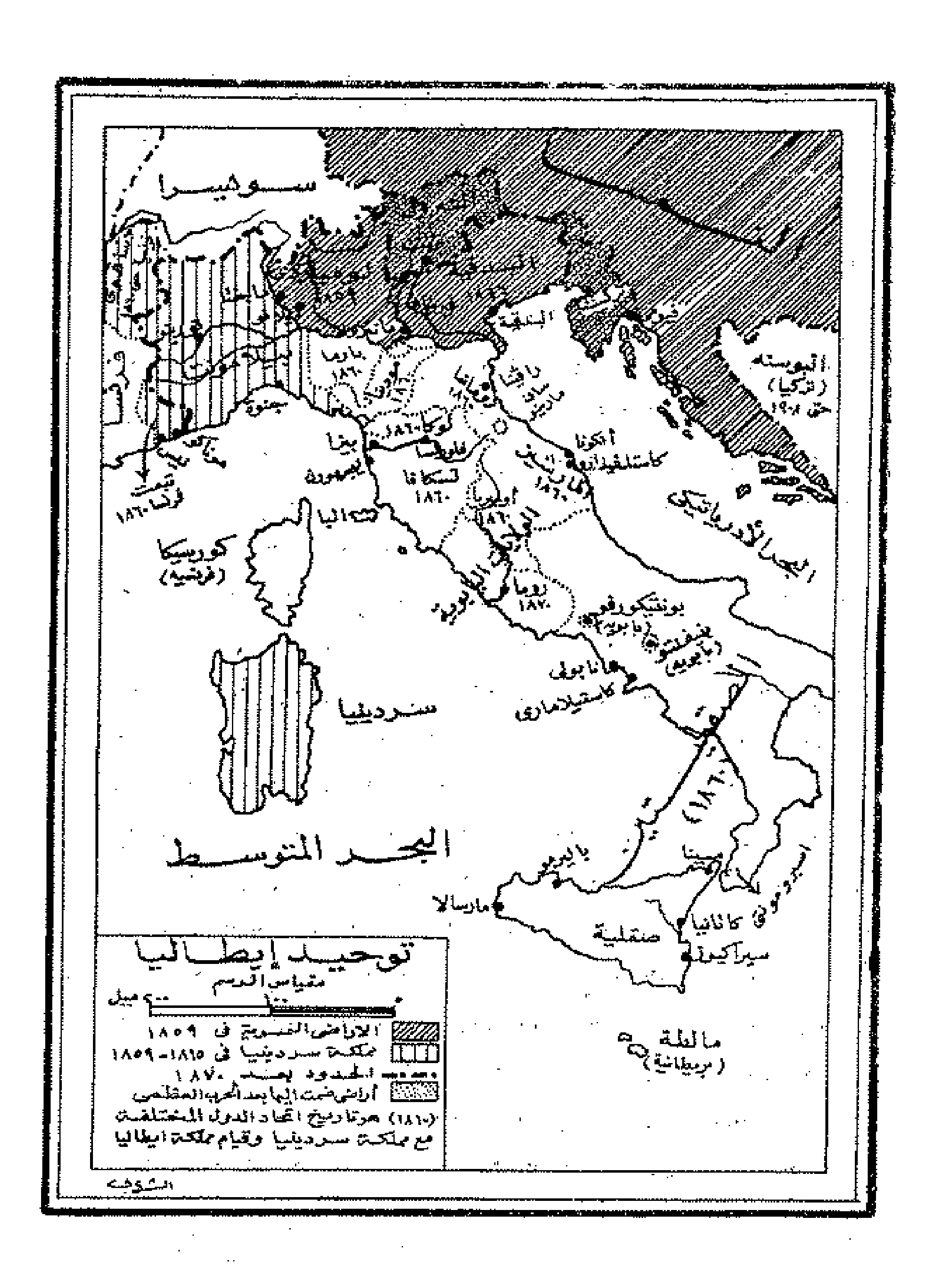
النمسا . لم يعد اذن ثمة ما يرجى من النمسا ولكن كان من الممكن أن يجيء من بروسيا شيء ، وشيء طيب يوم يمسك بزمامها رجال أشداء وقادة شجعان .

ولو رجع فردريك وليم الى التاريخ السابق لما فاته أن يذكر أنه قد مرت في تاريخ المانيا فترة عشر سنوات خدعت النمسا المتعالية العالم فيها بمكانتها أو دبلوماسيتها وأنزلت العار بحاكم بروسى ضعيف ، وما ان انتهت تلك الفترة حتى تولى زمام السلطة في بروسيا رجل قوى ضرب النمسا حتى دس أنفها في الرغام . ولقد أوشك التاريخ أن يعيد نفسه . واذا كان الملك قد عرف أن اسم الرجل الذى بدأ الحقبة الأولى من مجد بروسيا هو فردريك فانه كان يجهل أن اسم الرجل الذى سوف يكتب له أن يبدأ الحقبة الثانية هو وليم .

الفصل الرابع عشر
الحركات الثورية فى ايطاليا

أوضحنا من قبل أن ايطاليا كانت تشهد غليانا فكريا بالغ الخطورة على كل الحكومات القائمة فيها . فقد تمكنت المشاعر القومية وسيطرت على أفئدة جانب كبير من الطبقات المتعلمة وأصبح الشعور بأن ايطاليا التى كانت فى يوم من الأيام مقر دولة كبيرة تعد مثلا للمركزية يجب أن تحقق الوحدة المركزية من جديد ، كما تطرق نفس هذا الشعور بصورة مبهمة الى بقية السكان كذلك . كان بالبو (Balbo) قد أبرز فى تاريخه لإيطاليا تعلق البلاد بالأمل فى الخلاص من استعباد البرابرة لها ، وأشار جيوبرتى (Gioberti) فى كتابه الشهير Dei Primato moralee civile degli Italiani (١٨٤٣) الى البابوية بوصفها السلطة التى تقع على كاهلها مهمة اعادة تنظيم وتوحيد دول ايطاليا المختلفة ومنح الايطاليين زعامة أوروبا ، وبشر مازينى Mazzini بالقومية المتحالفة مع الديموقراطية على نحو جعله مرهوبا بوصفه عنصرا ثوريا خطيرا على كيان المجتمع والحكومات القائمة ولكن لم تظهر رغم هذا كله بادرة أى تغير كبير ، بل ظل مترنيخ يحكم فى ايطاليا بنفس السطوة التى يحكم بها فى فيينا ، دون أن يبدو فى الأفق ثمة احتمال بتبدل حال البلاد بحيث لاتعود مجرد ذلك « الاصطلاح الجغرافى » كما حلا له أن يصفها فى ١٨١٥ . ومع ذلك فان الخطوة الأولى فى حركة الثورة التى سيكتب لها أن تهز جميع عروش أوروبا تقريبا ، قد جاءت من هذه البلاد التى سادها الطغيان ، بل من ذلك المكان الذى كان يبدو أوثق رباطا بآراء الماضى من أى جزء آخر ونعنى به البابوية نفسها .

ففي يونيو ١٨٤٦ اختير الكاردينال ماستاى فريتى Mastai-Ferretti بابا فاتخذ لنفسه لقب بيوس التاسع . ورغم أنه لم يكن معروفا وقت اختياره الا فى دائرة محدودة فقد أصبح طوال العامين التاليين أبرز زعماء أوروبا ومحط آمال أحرارها ، ولقى من ضروب التقريظ والثناء مالم يلقه الا القليلون من الساسة فى العصور الحديثة . ثم جاءت ردته الى الرجعية فخابت فيه الآمال وبات يعتبر خائنا أكبر وعـدوا لتقدم البشرية . والحق أن الرجل كان بسيطا حسن النية صادقا فى حبه لايطاليا ونفوره من السيطرة النمساوية . فكان يقول « اننى أمثل ايطاليا وأمت لايطاليا » وقد تشرب من كتاب جيوبرتى فكرة تبنى البابا لقضية البلاد وتوليه قيادتها وتحريرها . وأرضى غروره الايمان بأن الأقدار قد اختارته هو لتلك المهمة العظيمة . ومع ذلك فقد قال أيضا فى صدق تام انه يجهل كل شىء عن السياسة . والحق أنه كان خالى الذهن تماما عما تتطلبه تلك المهمة من شجاعة وهمة وحكمة ، ولم يكن مدركا للأخطار المحيطة به . لقد أشعل ــ بمنتهى حسن النيـة ــ عود ثقاب ليوقد شمعة ، وسرعان ما اكتشف لفزعه الشديد أنه كان لحظتها داخــل مستودع بارود . فلا عجب أن حاول ــ مذعورا ــ الانسحاب من العمل الذى بدأه . على أنه قد عاش قبل ذلك عامين من الحماسة والأمل والتأييد الشعبى الفائق . كان أول عمل اتخذه بعـد اعتلائه كرسى البابوية هو اصدار عفـو عام عن المنفيين والمسجونين السياسيين ، ففسر ذلك ــ وسط الانفعال السائد فى أذهان الناس ــ بأنه علامة تدل على أنه المحـرر الذى اختـارته الأقـدار للبـلاد ، والرجل الذى سوف يدخل فى الولايات البابوية « الغاز والسـكك الحديدية والدستور » . وراحت الجماهير تحتشد بصـورة تلقائيـة لتهلل له وتصفق ، واتفق الرأى على أنه « رسول مبعوث لا لشـعبه فحسب وانما للعالم أجمع » . فلعبت برأسه مظاهر التأييد الشـعبى التى لاقاها وظنها تعنى أكثر من حقيقتها . وقد رأى السفير الفرنسى



سويسرا
جنوة
نيس
كورسيكا
(فرنسية)
سردينيا
البندقية
بارما
١٨٦٠
لوكا ١٨٦٠
فلورنسا
تسكانا
١٨٦٠
رافنا
انكونا
كاستلفيداردو
روما
١٨٧٠
نابولى
كاستيلاماري
بونتيكورفو
البوسنه
(تركيا)
البحر الأدرياتيكي
البحر المتوسط
بالرمو
ميسينا
مارسالا
صقلية
كاتانيا
سيراكيوز
مالطة
(بريطانية)
توحيد إيطاليا
مقياس الرسم
ميل
الاراضى النمسوية فى ١٨٥٩
مملكة سردينيا فى ١٨١٥-١٨٥٩
الحدود بعد ١٨٧٠
أراضى ضمت إليها بعد الحرب العظمى
(١٨٦٠) هو تاريخ اتحاد الدول المختلفة مع مملكة سردينيا وقيام مملكة ايطاليا

أن ثمة خطرا فى أن يظن البابا أن بوسعه « أن ينام على شعبيته كما لو كانت فراشا من الورود » .

ومع أن اجراءاته الأولى لم تمض بعيدا ، فانها كانت كلها فى الاتجاه المنشود . فقد أعقب العفو بتخفيف الرقابة على الصحف وتعديل طبيعة الحكومة التى كانت فيما مضى استبدادية كنسية خالصة . فأنشأ فى ابريل ١٨٤٧ مجلسا للدولة يختار هو أعضاءه من بين الأسماء التى يعرضها عليه حكام الأقاليم . وعين فى يونيو مجلسا للوزراء ليناقش — وان لم يكن ليراقب — تصرفات الحكومة البابوية . وأطلق سراح اليهود من « الغيتو » (١) فى روما . فبات الناس يتوقعون الكثير من وراء هذه الاصلاحات المعتدلة ، ويؤمنون بأنها نفذت بمشيئة البابا وحده فى مواجهة محيطه الرجعى .

أشعلت هذه الأحداث التى وقعت فى روما نيران الحماسة فى ايطاليا كلها . وانزعج مترنيخ انزعاجا بالغا ، لأنه كان قد تنبأ بكل شيء على حد قوله الا ظهور بابا متحرر . وأطلت « النزعات التحررية » برأسها (اذ كانت هذه التسمية تطلق فى تلك الحقبة حتى على الأفكار الثورية العنيفة كذلك) فى شتى أنحاء ايطاليا : فى صقلية وفى نابولى وفى توسكانيا وفى بارما وفى ميلانو وفى البندقية وحتى فى سافوى . وأصبح الشعار الذى يميز أنصار التحرر فى كل مكان هو التهليل للبابا . حتى لقد فرضت العقوبات الصارمة فى بعض الولايات على كل من تسول له نفسه أن يهتف باسم البابا بيوس التاسع . الا أن كل هذه الحماسة وذلك الأمل فى النصر المبكر للنزعات القومية التحررية كان مبنيا على الوهم . فان التغيرات التى أدخلت فى روما كانت فى حقيقتها أبعد ما تكون عن روح الثورة . فالبابا كان فى صميمه محافظا (« ما من بابا يمكن أن يكون متحررا ») والمهمة التى تصدى لها مهمة عسيرة

---

(١) الغيتو ghetto هو الاسم الذى كان يطلق على حى اليهود فى كل عاصمة أوربية (المترجم) .

تستعصى حتى على من كان ألمع منه ذهنا وأقوى ارادة . فمن الواضح أن القومية الايطالية لم تكن لترضى آخر الشوط بأى شيء يقل عن تنازل البابوية الكامل عن سلطتها الزمنية ، الأمر الذى لم يخطر لبيوس على بال . فلما كف عن الانسياق فى تيار الحماسة الشعبية عاد الى الدولة النمساوية يلتمس منها النجدة والمعونة .

ولعله يجمل بنا أن نتابع سيرة بيوس حتى نهاية طوره التحررى ، وان تكن ثمة حركات هامة قد بدأت قبل نهاية ذلك الطور فى جهات أخرى من ايطاليا ، فكان لها أثر حاسم على الأحداث فى روما ، التى لن تلبث أن تنزوى عن مكان الصدارة على المسرح الايطالى . لقد مضت الاصلاحات الموعودة شوطا ما الى الأمام ، فأنشيء مجلس بلدى لروما أخضعت له بعض المبانى العامة ، وعادت الحروف الشهيرة S.P.Q.R. الى الظهور من جديد على حوائط روما (١) . وقد دلت المظاهرات الحماسية التى قامت للترحيب بهذه الخطوات على أن التأييد الشعبى للبابا مازال باقيا على ماكان عليه دون نقصان . بل لقد انجرف أصحاب الآراء المتطرفة أحيانا فى نفس التيار ، فنشر مازينى خطابا مفتوحا أعرب فيه عن استحسانه لما فعله البابا « لأن ذلك سيؤدى الى اختصار الطريق ويوفر علينا الأخطار والدماء والكوارث ، ولأن ايطاليا ستوضع دفعة واحدة على رأس التقدم الأوروبى » . على أن البابا استخدم لغة كان يصح أن تلفت الأنظار الى عدم استعداده للمضى الى الحد الذى يرجوه منه الثوريون ، فقد تحدث فى خطاب عام عن تصميمه على التمسك بحقوق مجمع الكرادلة المقدس وحذر سامعيه من أن يشتط بهم الخيال فيتصوروا قيام دولة تتعارض مع سيادة البابا . والحق أنه بدأ ينزعج انزعاجا جديا لعواقب تصرفه تلك العواقب التى

---

(١) Senatus Populusque Romanus. مجلس شيوخ وشعب روما . المترجم

تمثلت فى الثورات التى أخذت تنشب فى شتى أرجاء ايطاليا . فأنشأ ينزوى عن التهليل العام ليحلم بنكسة رجعية .

ومع هذا فقد استمر تقدم الحـركة التحررية فى روما فترة وجيزة أخرى . ذلك أن الثورات التى نشبت فى جهات أخرى — فى نابولى وفى ميلانو وفى فرنسا — والتى أثارت رعب البابا الشديد قد جعلت توقفه فى تلك اللحظة ضربا من المحال . فأضحى دافعه الى المضى قدما هو الخوف لا الحماسة . وعلى هذا فقد عين وزارة معظم أعضائها من غير رجال الدين ثم عجل باصدار دستور فى مارس ١٨٤٨ . واستقبل الدستور بحرارة ولكن دون تمحيص ، فلم يفطن أحد الى دلالة ابقائه على مجمع الكردلة المقدس جزءا رئيسيا من النظام السـياسى ونصه على استحالة اقرار أى قانون يتعارض مع قوانين الكنيسة أو تقاليدها . الا أنه كان دستورا ذا مجلسين و « الدستور » كلمة كان لهـا فعل السحر فى تلك الحقبة .

أما قصة بقية مشروعات البابا الدستورية فأمرها مرتبط بصـفة مباشرة بالحرب التى شنتها ايطاليا الشمالية ضد النمسا والتى لابد أن ننتقل اليها بعد برهة . فقد أعلن البابا معارضته لفكرة الاشتراك فى الصراع ، فكان أن فقد على التو تأييد القوميين فى كل مكان (١) . وكان لا يزال يأمل فى تطبيق الدستور الذى أصدره ، ولكن السيطرة على زمام الموقف فى روما بدأت تؤول سراعا الى العناصر الميالة الى العنف . فقد اغتيل وزير البابا الأول « روسى Rossi » الذى كان يعطف على جوانب عدة من الاتجاهات التحررية أثناء توجهه الى مجلس النواب فى نوفمبر ١٨٤٨ ، وربما تم ذلك بتدبير الجناح الفوضوى من

---

(١) اذاع البابا فى ٢٩ ابريل خطبة رسمية ضمنها استنكاره لفكرة الاشتراك فى حرب ضد النمسا وان ذكر فيها ان قواته ستدافع عن سلامة دولة روما . وكانت القوات البابوية فى تلك اللحظة فى الأراضى البندقية .

الثوريين . فشاعت الفتنة فى روما ونبذ البابا ، وقد أخذ منه الرعب كل مأخذ ، فكرة تطبيق الدستور بروح متحررة ، ولم يلبث أن غادر روما ملتجئا الى جايتا Gaeta فى أراضى نابولى مخـافة أن يضطـر الى الاقـدام على مزيد من التنازلات . لقد رفض ضعفا منه ولا نقـول جبنا الدور الذى حاول الأحرار فرضه عليه . ولم يعد له أى نفوذ على النضال من أجل الحرية والوحدة الايطاليـة ولا عادت روما مركـز الصراع .

كانت ايطاليا مهيأة تماما لانتشار الحركة الثورية . ذلك أن جمعيات ايطاليا الفتاة السرية كانت قد اكتسبت الى صفوفها أعضاء كثيرين فى شتى أنحاء البلاد ، وكان أبناء الطبقات الوسطى عموما مجمعين تقريبا على تأييد مبدأ الوحدة القومية الايطالية فما ان سنحت الفرصة حتى اتخذت الحركة مظهرا شاملا وتلقائيا بمعنى الكلمة . واذا كان أعجب مافى الحركة أن اطلاق اشارتها الأولى جاء من روما وبوساطة البـابا نفسه ، فان مجىء الخطوة الحاسمة التالية من فرديناند ملك نابولى وصقلية لايكاد يقل عن ذلك عجبا . فما من جهة فى ايطاليا كانت تعانى من سوء الحكم وافتقار السكان الى التعليم أكثر من مملكة نابولى وصقلية ، ومامن حاكم كان أقل استعدادا للتأثر بنداء الدعوات القومية والدستورية من فرديناند الذى كان ، رغم تحليه بشىء من الطيبة وسماحة الخلق ، يضمر كراهية آل البوربون التقليدية لجميع الحركات الشعبية ويحس بأنه غريب فى بلاده . ولا نكاد نجد دافعا لنزوله على رغبات شعبه سوى الخوف . فان همهمات التـذمر كانت قد بدأت تسرى فى مملكته وأصبح اسم بيوس التاسع يتخذ تكأة فى نابولى ، كما فى سائر الجهات ، للمطالبة بتطبيق أساليب حكم أكثر تحـررا . ورغم أن فرديناند كان قد أقدم على بعض التنازلات الظاهرية أكثر منها حقيقة فان الأحداث لم تلبث أن تطورت تطورا جديا ، فقد صدر فى يناير ١٨٤٨ بيان فى بالرمو Palermo يطالب « باصلاحات تنفق

مع تقدم العصر وتتمشى مع رغبات أوروبا وايطاليا وفرنسا » وتحدد يوم ١٢ يناير موعدا لبدء الثورة ، ونشبت فعــلا فى ذلك اليــوم ، وسيطرت على بالرمو طوال خمسة عشر يوما قوة تضم بين صــفوفها أفرادا ينتمون الى كافة طبقات المجتمع بما فى ذلك الارستقراطية نفسها أما قوات الحكومة التى كانت شبه متمردة فلم تفلح فى مقاومةالعصاة واضطرت فى النهاية الى اخلاء المدينة . وسرعان ما امتدت الثورة ، وقد شجعها ذلك النجاح ، حتى شملت الجزيرة كلها . على أن القتال لم يكن عنيفا قط ، فلم تزد خسائر القوات الملكية عن خمسمائةشخص مابين قتيل وجريح .

وقد انزعج فرديناند للأنباء الواردة من بالرمو بأكثر مما يستدعى الأمر فيما يبدو ، الا أنه كان مدركا لضعف ســيطرة حكومتــه على الأهالى ، وكانت تعوزه الشجاعة الكافية والقــدرة على المبــادأة ، فاستسلم للخطر بلا كرامة ودون أن يخدع أحدا فى أمر دوافعه الى اتخاذ موقفه الجديد . لقد أصدر عفوا عن المسجونين السياسيين ولم يلبث أن أقر دستورا بالفعل . وقد كان أجل هذا الدستور قصــيرا للغاية بحيث أنه لا يستحق منا أن نوليه أى عناية وحسبنا أن نذكــر أنه قد خلا من مبدأ التسامح الدينى . على أنه كان كافيا على أية حال لأن يجعل من فرديناند منافسا فى الشعبية للبابا بيوس التاسع . كان له أثر مباشر على الحكومات الأخرى فى شبه الجزيرة . اذ لم يــكن بوسع الشمال أن يتخلف طويلا بعد أن سلك الجنوب المــزدرى به طريق الاصلاح .

كما كان أثره مباشرا فى دفع البابا الى منــح الولايات البــابوية الدستور الذى أشرنا اليه . كما حفز دعاة القومية فى توسكانيا الى العمل . لم تكن حكومة الدوق الأعظم ليوبولد الثانى من أشد حكومات ايطاليا جورا واستبدادا ، وكانت الصحافة فى تسكانا تمارس نفوذا كبيرا بالفعل . بدأ الدوق الأعظم بالاقدام على تنازلات صغيرة ، ولكن

هذه كانت أبعد ما تكون عن ارضاء أهالي فلورنسة ولجهورن وسائر مدن توسكانيا ، فانتهى به المطاف الى اصدار دستور فى فبراير ١٨٤٨ على غرار دستور نابولى .

ولم يكن الذى حدث فى تسكانا بذى أهمية كبيرة . اذ أنها لم تكن لتستطيع أن تنتهج سياسة مستقلة حقا الا فى أضيق الحدود . فان مستقبل ايطاليا بات مرهونا أساسا بنقطة واحدة : هل يمكن أن تتزعزع سلطة النمسا فى شمال شبه الجزيرة ؟ ومن هنا نجد أن مصير ايطاليا قد تقرر فى بيدمونت (وهى القاعدة الحقيقية لمملكة سردينيا) وفى لومبارديا حيث كانت النمسا تمارس سلطانا لم يكف الأهالى قط عن اعتباره أجنبيا وجائرا . كانت سردينيا بين الدول الايطالية أقلها ايطالية ، فمليكها شارل ألبرت كان يؤثر التحدث بالفرنسية على الايطالية ، والألفة العنصرية مابين أهليها وسكان جنوب الجزيرة كانت ضعيفة . كان وضع بيت سافوى الذى يحمل تاج مملكة سردينيا فى ايطاليا أشبه بوضع بيت الهوهنزلرن البروسى فى ألمانيا . ورغم أنهذه المملكة كانت نصف ايطالية فان سكانها كانوا أكثر تشربا للروح العسكرية من أقرانهم فى سائر جهات ايطاليا ، وأسرتها المالكة كانتعلى حظ وافر من الهمة والطموح . لقد كانت القوة العسكرية والحنكة السياسية المقترنة بقسط من النزاهة هى التى أدت الى الاعترافببيت سافوى ممثلا لأمانى ايطاليا القومية ، وقد أدت نفس الصفات تقريبا الى نتيجة مماثلة بالنسبة لبيت الهوهنزلرن فى ألمانيا . كان شارل ألبرت يتمتع بسمعة طيبة لما عرف عن مناوأته الصريحة للبيت الحاكمالنمساوى وكان قد أعرب من قبل عن أمله فى أن تتحد قوى ايطاليا كلها لطرد الأجنبى . ورغم أنه كان رجلا شجاعا تتسم شخصيته بمسحة صادقة من البطولة فان تصرفاته السياسية كانت مشوبة بالتردد البالغ حتى أنه سمى Re tentenna أى ملك التردد ووصفت سياسته بأنها سياسة التذبذب ، والتاريخ يعرفه بصفة عامة باسم « هاملت سافوى »وترجع

شدة تقلبه الى طبعه الشخصى من جهة والى ولائه الشديد للكنيسة الكاثوليكية من جهة أخرى ، ولكنها ترجع قبل كل شىء الى ريبته فى الاتجاهات التحررية بوصفها خطرا على وحدة الدولة ونشاطها . وقد كان يود لو استطاع أن يطرد النمساويين من ايطاليا دون التسليم للشعب بحقه فى الحرية السياسية ، ويتمنى أن يحكم ايطاليا المتحدة ملكا قويا ان لم يكن ملكا مستبدا . ولم يدرك الا بمر الأيام أن الحرية السياسية شرط لازم لتحقيق النصر القومى .

وقد غدا شارل ألبرت بالفعل محط أنظار الوطنيين الايطاليين . فقد كانت تصريحاته المؤيدة لقيام ايطاليا المتحدة قاطعة صريحة . وكانت الصحافة تتمتع فى « تورين » بقسط أوفر من الحرية مما تتمتع به فى أية جهة أخرى فى ايطاليا ، وكان الوطنيون المنفيون من ولاياتهم يجدون فيها مأوى وملاذا . وكان من أبرز كتاب الصحف فيها الكونت كافور Count Cavour الذى سيقدر له أن يضطلع بنصيب كبير من مهمة تحرير ايطاليا . كان يومذاك يرأس صحيفة البعث Risorgimento وهو الذى حض — فى اجتماع عقده رؤساء التحرير — لبحث الموقف، على المطالبة صراحة بالدستور مؤكدا لهم أن جميع الاصلاحات الأخرى التى يبتغونها ستنبع من الدستور ان لم تتضمنها بالفعل نصوصه . فتوجه هؤلاء برأيهم الى الملك ولكنهم لم يتلقوا ردا . على أن شارل ألبرت وجد نفسه مضطرا الى الاختيار بين موقف المقاومة الحازمة لرغبات شعبه أو الاستجابة الصريحة لها . ولما كان الموقف الأول يعنى الحرب الأهلية والاتحاد مع السلطة النمساوية البغيضة فقد اختار الثانى ، لا على مضض كما فعل فرديناند وليوبولد ، وانما عن سلامة قصد وحسن طوية . فأصدر فى فبراير ١٨٤٨ مرسوما أعلن فيه قرب منح الدستور ، ولم تمض أيام قلائل حتى صدر هذا الدستور الذى مالبث أن أودى به الى الحرب ثم النكبة والنفى والموت ، وان حمل ابنه الى عرش ايطاليا المتحدة فيما بعد . وقد أنشأ الدستور ملكية

دستورية مقيدة على غرار الدستور الانجليزى ، وكان صالحا للتطبيق لا فى مملكة سردينيا وحدها وانما فى مملكة ايطاليا التى لا تلبث أن تقوم ، وقد ظل هو الدستور المعمول به فى ايطاليا ، بعد ادخال تعديلات طفيفة عليه ، حتى جاء موسولينى .

لقد اشتعلت الآن نيران الثورة لا فى ايطاليا وحدها بل فى شتى أرجاء أوروبا . ففى فبراير ١٨٤٨ سقطت ملكية لوى فيليب فى فرنسا . وفى مارس فر الأمير مترنيخ أمام المظاهرات العدائية فى فيينا ، وكان قد حكم النمسا — وعن طريقها حكم ايطاليا — ردحا طويلا جدا من الزمن حتى بات من المحتم أن يؤدى سقوطه الذى أثبتت الأيام أنه نهائى الى أخطر العواقب . فقامت المظاهرات الشعبية على الفور فى ميلانو وأحاط الطلاب والصناع والصحفيون والتجار بالقلعة مضمرين نوايا عدائية . وتصادف أن نائب الملك كان متغيبا عن ميلانو فأقدم مساعده على بعض التنازلات ، ولكن هذه كانت أبعد ماتكون عن ارضاء مطالب الثوار . وسرعان مااتخذت الثورة شكلا واضحا وتنظيما محددا ، وتحقق لها بعد خمسة أيام من القتال العنيف طرد القوات النمساوية فأضحت المدينة العظيمة فى حيازة الوطنيين . وفى نفس الوقت تقريبا تم طرد حكومتى بارما ومودينا وقد كانتا نمساويتين فى حقيقة الأمر . وأهم من ذلك ثورة البندقية ضد حكامها النمساويين . فقد تمكنت من اطلاق سراح الزعيم الوطنى دانييل مانين Daniel Manin من السجن فتولى على الفور قيادة الحركة وأشرف على تشكيل حرس مدنى . واذ ذاك ألفت الحامية النمساوية نفسها محاطة بخصوم يفوقونها عددا الى حد يبعث على اليأس ، فاستقر رأى الحاكم على سحب جنوده من المدينة ، وقوبل رحيلهم بالهتاف للقديس مرقص وايطاليا وبيوس التاسع . على أنه لن تمض الا فترة وجيزة حتى يكف الناس عن الربط بين اسم البابا والآمال القومية !

لم يكن ثمة مفر من الحرب ، فان النمسا لن تقبل بكل تأكيد أن

تعتبر استسلامها المشين للايطاليين — وهم موضع ازدرائها — فصل الختام . ولا كان بوسع ميلانو والبندقيـة ولومبارديا أن تأمـل فى مقاومة جيوش النمسا بعد أن وصلتها الامدادات ، فأضحى كل شىء متوقفا على شارل ألبرت ومملكة سردينيا . وقد أبدى شارل فى شن الحرب ترددا أقل مما أبداه فى منح الدستور . فأصدر فى ٢٣ مارس بيانا لشعبى لومبارديا والبندقية أعلن فيه أن شعبه يعطف على كفـاح جيرانه البطولى ضد الظالمين وأنه قادم ليمنحهم تلك المعونة التى يتوقعها الأخ من أخيه والصديق من صديقه ، وأكد أنه يثق فى معونة الله «الذى أعطى ايطاليا بيوس التاسع ليرشدها الى السبيل لمعاونة نفسها » ، ثم نشر علم ايطاليا المتحدة المثلث الألوان ، فعبر الجيش السردينى المؤلف أساسا من جنود بيدمونتيين نهر تتشينو Ticino على الفـور وبات مصير ايطاليا معلقا على حكم السيف . وقد أثبتت الأيام أن سـيف النمسا كان أمضى وأبتر .

جاءت الحرب مخيبة لآمال الوطنيين . والحق أنه لم يكن لديهـم ما يعتمدون عليه سوى حماسة معظم المحاربين فى صفوفهم وغيرتهم الصادقة . فلم يكن لديهم تنظيم يُذكر خارج بيدمونت ، والعون الذى جاءهم من ولايات الوسط والجنوب كان ضئيل الجدوى . ومع أن شارل ألبرت قد دخل المعركة بجماع قلبه ، كما اتضح بجلاء عندما حلت النكبة ، ومع أن شجاعته الجسمانية كانت أصيلة لا يتطرق اليها اللوم ، فانه كان على حظ ضئيل من البراعة فى الفنون العسكرية ولم يجد من القواد من يبلى فى الحرب بلاء حسنا . أما النمساويون فكان مركزهم أفضل رغم المتاعب الداخلية التى كانت تزعزع دولتهم . فمع أنهم اضطروا الى الانسحاب أمام أول هجوم من الايطاليين فقد ظلوا يسيطرون فى الربـاعى الشهير (فيرونا وبيشييرا ولينياجو ومنتوا) Verona, Peschiera, Legnago and Mantua على مواقع حصينة أتاحت للجيش النمساوى طريقا مأمونا للاتصال بالنمسا وتلقى الامدادات. كما

وجدوا فى رادتسكى رغم تجاوزه الثمانين من عمره ، قائدا يعترف له ألد أعدائه بالبراعة والهمة (١) . وكان مستوى النظام والكفاية العامة لدى جيوش النمسا أعلى كثيرا منه لدى خصومها . فلم يكن ثمة مايحتمل أن ينقذ الايطاليين من الهزيمة الكاملة سوى انهيار السلطة النمساوية انهيارا كاملا شمال الألب .

كانت الولايات الايطالية تفتقر الى الوحدة الحقة . فالشعور المحلى كان قويا فى ميلانو وفى البندقية ، وفى دوقيات الوسط وفى نابولى وصقلية قبل غيرهما . ومعظم الولايات لم تكن على استعداد لاتباع نفسها لمملكة سردينيا ناهيك عن الاندماج فيها حتى أوشكت دفة الحرب أن تنقلب ضد هذه الولايات . وكان ثمة احتكاك بين ميلانو والبندقية ونزاع داخلى عنيف بين الجمهوريين والملكيين فى جميع الولايات . وقد قدم مازينى الى ميلانو آملا توجيه الحركة وجهة جمهورية ، اذ كان ايمانه بالجمهورية عقيدة لا تكاد تؤثر فيها أى اعتبارات تقوم على الحذر والفطنة . وتحت السطح كانت الجماعات الفوضوية تعمل ضد مازينى والملكيين معا . وقد أثيرت فكرة انشاء رابطة أو جامعة ايطالية، ولكنها لم تكن قط من الأفكار المحببة الى نفس شارل ألبرت فانتهت الى لا شىء . وقبيل نهاية الحرب صوتت ولايات عديدة لصالح الاندماج فى سردينيا ، وهى بياتشنزا Piacenza وبارما Parma ومودينا Modena وميلانو Milan والبندقية venice . ولكن تلك البادرة جاءت متأخرة عن أوانها فلم تنتج أثرا فعالا ، وان مهدت السبيل للخطوة التى سوف تتخذها جميع الولايات الايطالية بعد ذلك بعشر سنوات .

---

(١) تبين العبارة الشهيرة التى قيلت لرادتسكى (وهى ان النمسا كلها فى معسكرك) مدى شعور النمسا بحرج موقفها واعتمادها على النصر العسكرى .

تقهقر النمساويون بعد طردهم من ميلانو الى الشرق ، وأظهرت القوات الايطالية شجاعة فائقة فى بعض المواقف وحق لها أن تفاخر ببعض الانتصارات ، وأعظمها الاستيلاء على حصن بيتشييرا الهام Peschiera . ولكن سرعان ما أزفت النهاية عندما اكتمل استعداد رادتسكى لشن هجوم مضاد . فقد التحم بالايطاليين فى ٢٥ يوليو ١٨٤٨ فى ساحة القتال بكستوزا Custozza — وهى الساحة التى قدر لهم أن يصابوا فيها بضربة قاضية مرتين — فأنزل بهم هزيمة فادحة مما اضطر شارل ألبرت الى الانسحاب الى ميلانو . وقد حنق الميلانيون بالطبع لانهيار آمالهم ، وزادت الهزيمة من شدة احتكاكهم بالبيدمونتيين ، بل انهم راحوا يتهمون شارل البرت بخيانة القضية الوطنية . ولا نحسب أن الطريقة التى جعل الوطنيون يتقاذفون بها الاتهامات ساعة الأزمة من الأشياء التى تطيب لذكرها نفوس مؤرخى ايطاليا الحديثة . لقد دخل النمساويون ميلانو من جديد وسمحوا لشارل ألبرت والجيش السردينى بالانسحاب الى ماوراء الحدود ، فأعلن مازينى أن الحرب الملكية قد انتهت وأن الأوان قد آن لحرب الشعب أن تبدأ ، ورفع علما نقش عليه شعاره المفضل « الله والشعب » وانسحب غاريبالدى الى الجبال حيث راح يحلم بمواصلة القتال عن طريق حرب العصابات . ولكن أصبح جليا لمعظم الناس أن فرص نجاح مقاومة العدو قد ولت .

بقى علينا أن ننظر بايجاز فى مسلك حكام مختلف الولايات الايطالية أثناء تلك الحقبة الحافلة بالأمل والاضطراب ، فهو وحده الكفيل بأن يفسر لنا السر فى أن الوحدة الايطالية قد تمت عندما تحقق لايطاليا النصر فى النهاية لا عن طريق نظام اتحادى كذلك الذى اختارته ألمانيا — رغم أن الفروق المحلية بها فى اللغة والعنصر والطباع كانت أقل ضخامة منها فى ايطاليا — وانما باندماج ايطاليا كلها فى مملكة سردينيا . ذلك أننا لن نجد — اذا استثنينا شارل ألبرت — حاكما ايطاليا واحدا

أثبت اخلاصه الصادق لقضية الوطن ، فلا غرو اذن فى أن ايطاليا لم تجد عند انتصارها من يستأهل أن تبقيه فى خدمتها سواه .

وقد سبق لنا أن تتبعنا سيرة بيوس التاسع حتى فراره الى جايتا . لقد اختفى اسمه من يومها من فوق الأعلام وشرائط القبعات ومن هتافات الجنود الايطاليين فى المعارك . أما ملك نابولى فقد اغتنم — وهو الذى لم يخالجه قط ذلك الايمان الصادق الذى حفز بيوس التاسع الى مناصرة قضية ايطاليا والمبادىء الدستورية فى يوم من الأيام — اغتنم أول فرصة للانضمام الى صفوف الرجعية ، والحق أن الحركة الوطنية كانت تهدد بتمزيق أملاكه ، اذ لم تبد صقلية أدنى استعداد للقناعة بحقوق المساواة فى دستور نابولى . فقد أزال الأهالى تماثيل ملوك البوربون ، وأعلنوا أن صقلية ستشكل من ذلك الحين فصاعدا دولة مستقلة ، وسيطر التمرد على الجزيرة بأسرها ، وبلغ الأمر بالثوار ان عرضوا تاج دولتهم الجديدة على الابن الثانى لشارل البرت ، الذى رأى ، على أية حال ، أن الحكمة تقتضيه أن يرفضه . ولقد كان قبول فرديناند للدستور مبنيا على الرياء أصلا ، فلما استنكر البابا الحرب شجعه ذلك على التخلى عن كل تظاهر . وقد أعلن حقا بادىء الأمر أن « مشيئته الحازمة الثابتة » هى صيانة الدستور ، ولكنه أسرع الى سحب القوات التى كان قد أرسلها لمعاونة القضية الوطنية فى شمال ايطاليا . ثم أعطته الاضطرابات التى نشبت فى نابولى والتى وفق فى القضاء عليها بسهولة ، الذريعة التى يستند عليها لحل البرلمان وسحب الدستور من الوجهة العملية وشرع بعد ذلك فى غزو صقلية ، فاستولى على مسينا **Messina** وأنزل بأهاليها عقابا قاسيا . وقد أوقف تدخل الأسطولين الفرنسى والانجليزى استمرار العمليات الحربية ولكن بدا واضحا أن عودة النظام القديم الى مملكة نابولى باقليميها قد باتت وشيكة .

أما ليوبولد دوق توسكانيا الأعظم فلم يكن معدنه خسيسا بنفس

درجة فردينالد ملك نابولى ، وقد شاهدنا مدى السهولة التى حصلت بها توسكانيا على دستورها . وسرعان ماتم تشكيل البرلمان وألفت وزارة شعبية ، بل ان الدوق الأعظم مضى شوطا أبعد من ذلك فأعلن استحسانه لفكرة دعوة جمعية تأسيسية تتألف من ممثلى دول ايطاليا المختلفة لتقرر شروط الوحدة وقيام حكومة اتحادية فى ايطاليا ، وهى الفكرة التى بدا للكثيرين ، بما فى ذلك مازينى ، انها تتيح لايطاليا فرصة تحقيق حريتها ووحدتها بعد أن تحطمت قوات سردينيا فى القتال الذى انتهى فى كستوزا . وقد فشل هذا المشروع وكان من المحتوم له أن يفشل لأن سردينيا التى ظلت حتى فى هزيمتها أقوى الدول الايطالية طرا ، رفضت الأخذ به قطعيا . ولم يلبث البابا أن استنكره بعد قليل . فوجد ليوبولد دوق توسكانيا فى معارضة البابا سببا أو مبررا للتخلى لاعن فكرة « الجمعية التأسيسية » وحدها وانما عن القضية الوطنية بأسرها كذلك . فتوجه أولا الى سيينا Siena ثم فر من هناك الى جاييتا حيث انضم الى البابا فى أراضى ملك نابولى .وعلى هذا لن يجد دوق توسكانيا لنفسه مكانا فى ايطاليا الحرة التى ستقوم بعد عشر سنوات . ولم يكن الدور الذى لعبه دوقات الولايات الأقل شأنا بأفضل من دوره ، فلم تلبث مودينا وبارما أن تقبلتا عن طيب خاطر الحكم النمساوى الذى كانتا قد تخلصتا منه بعض الوقت .

أما سردينيا فقد سلكت مسلكا مختلفا تماما فجوزيت عنه خير الجزاء . لم تكن الهدنة التى وقعت اثر الاحتلال النمساوى لميلانو تسوية نهائية لمستقبل ايطاليا . فقد طالب البرلمان فى تورين باستئناف الحرب وهددت جنوه باعلان الجمهورية اذا قبلت شروط النمسا . فما كان من شارل ألبرت الا أن خرج من جديد ليواجه خصومه الظافرين على رأس قواته التى ثبط الفشل من عزائمها . ولما هزم الجيش البيدمونتى (فالجنود البيدمنتيون كانوا يؤلفون الدعامة الرئيسية للجيش السردينى) فى نوفارا Novara (٢٣ مارس ١٨٤٩) هزيمة

كاملة اقترنت بالشك فى خيانة بعض القادة ، أعلن شارل ألبرت أنه قد ضحى بكل مرتخص وغال فى سبيل ايطاليا ، وان كان الموت قد أخطأه فى ساحة الوغى ، وأنه لما كان قد غدا العقبة الرئيسية فى طريق الصلح فقد قرر النزول عن العرش . فتولى الملك ابنه فيكتور عمانويل ،وهجر الأب بلاده الى البرتغال حيث توفى بعد أشهر قلائل .

ومع أنه لم يكن بوسع فكتور عمانويل أن يتنبأ بأن القدر يخبىء له عرشا مجيدا هو عرش ايطاليـا المتحدة ، فانه قد فعل فى أيام حكمه الأولى أشياء كثيرة أمنت له ذلك العرش . فقــد أبى فى ثبات واصرار الاذعان لما تعرض له من الحاح فى المفاوضات التى أعقبت معركة نوفارا بالتخلى عن الدستور نظير منحه شروطا أفضل . وأشار فى بيانه الأول للشعب الى الأعداء المتربصين للدستور فى الداخل والخارج . مؤكدا تصميمه على الدفاع عنه . فكان بذلك الوحيد بين حكام ايطاليا الذى رفع لواء الحرية عاليا .

لم تبق الا بقعتان صمدت فيهما الثورة فوق التربة الايطالية : روما والبندقية . وعلينـا أن نوجز الآن هــذين الفصلين الرومانطيقيين من التاريخ الأيطالى ايجازا شديدا . لقد ترك فرار البابا «المدينة الخالدة» فى حال من البلبلة الشديدة . وعبثا حاول البابا أن يحكمها من منفاه . فقد قامت العناصر الأشد تطرفا ، ومنها مازينى ، الى المدينة . وسرعان ما أقيمت جمهورية ثورية وأنيط الحكم الى ثلاثى يتألف من مازينى وسافى Saffi وأرمللينى Armellini ، على أن مازينى وحده كان الموجــه الفعلى لسياسة الجمهورية . كمــا جاء غاريبالدى الذى صــار يعتبر بطــل ايطاليا المختار فوضع ســيفه تحت تصرف الحكومة الثلاثية . ومن روما راح غاريبالدى ومازينى يتحديان سلطة النمسا والبابا باسم الله وباسم الشعب .

لم يكن ثمــة على أى حال أمل فى هذا الصراع ، وكان متوقعا أن الجمهورية لن تلبث أن تنسحق بين قوات نابولى وقوات النمسا . الا

أن دولة ثالثة رأت أن تدخل الحلبة وتحسم الأمر بنفسها . كانت فرنسا لا تزال جمهورية يرأسها بونابرت الذى لن يلبث أن يتخذ لنفسه بعد قليل لقب نابليون الثالث ، وهو رجل كان قد وقف على أشياء عن الثورات الأيطالية وأظهر بعض العطف عليها . غير أنه كان فى حاجة الى تأييد الاكليروس ، وكان يخشى أن توطد النمسا سلطانها فى روما ، لهذا قرر التدخل وأرسل جيشا فرنسيا الى سفيتافيكيا Civita Vecchia لقلب الجمهورية واعادة الحكم الى البابا . وقد أساء القائد الفرنسى أودينو Oudinot تقدير قوة غاريبالدى بادىء الأمر ، فقوبل زحفه الأول بالصد العنيف . ولكن الامدادات لم تلبث أن وصلت الى الغزاة الأجانب كما قدم اليهم النابوليون بعض المعونة ، فسقطت المدينة فى أيديهم فى ٣٠ يونيو . وقد قرر غاريبالدى الأنسحاب الى الجبال قبل دخول الفرنسيين وجعل يناشد الايطاليين التطوع للحاق به : « اننى لا أعرض عليكم أجرا ولا سكنا ولا مؤنا وانما أعرض عليكم الجوع والظمأ والسير الاجبارى والقتال حتى الموت . فمن كان منكم يحب بلاده بقلبه لا بلسانه وحده فليتبعنى » . وقد استجاب لنداء البطولة عدد من المتطوعين لم يلبثوا أن طوردوا وشتتوا ولم يتمالك غاريبالدى نفسه من الفرار فى النهاية الا بعد عناء طويل ، ولكن الكثيرين ممن خرجوا من روما معه قد عاشوا ليلعبوا دورا فى النصر الذى تحقق بعد عشر سنوات .

أما البندقية نفسها فقد خلعت عن نفسها سبات القرون لتسهم فى الحركة الوطنية . ولقد شاهدنا كيف حفزتها أنباء الثورة فى ميلانو الى الأقدام على حركة مشابهة . وقد أثبت مانين Manin أنه زعيم عظيم . وأعلنت البندقية نفسها جمهورية مستقلة وراحت تتعاون مع الحركة فى ميلانو . ولما بدأ الحظ يعبس للقضية الوطنية وافق البنادقة على اقامة اتحاد وثيق مع ميلانو وبيدمونت يتزعمه شارل البرت . ولكن الجيوش النمساوية واصلت زحفها حتى النصر كما بينا . وقد

ظل البنادقة يحاربون على أية حال حتى بعد كستوزا ونوفارا . غير أن البندقية لم تعد تلك المدينة المنيعة التى كانتها فى عصر ما قبل اختراع المدفعية البعيدة المدى فقصفها النمساويون بقنابلهم وأنزلوا بها خسائر فادحة ، ثم جاءت الكوليرا لتزيد آلام الأهالى حدة على حدة . وأخيرا وفى ٢٤ أغسطس على وجه التحديد اعترف مانين أن الأستمرار فى المقاومة أضحى مستحيلا ، وانسحب الى منفاه وآلت المدينة الى الحكم النمساوى من جديد .

وهكذا انتهت الى الفشل التام محاولة ايطاليا الأولى لكسب وحدتها وحريتها . فانها لم تكن تملك يومئذ سوى الحماسة وبضعة زعماء عظام ، وقد صنعت الحماسة كل ما يمكن أن تصنعه وفعل الزعماء العظام القلائل — بنبل وشرف — كل ما يستطيعون فعله . ولكن الافتقار الى النظام والوحدة فى القيادة كان واضحا وكان قاضيا . كما أن ايطاليا لم تتلق عونا من أية جهة خارجية . ولئن كان شارل ألبرت قد أعلن بفخار واعتزاز أن بوسع ايطاليا أن تنقذ نفسها بنفسها Italia fara da se فان الكونت كافور الذى كان من أنصاره والذى يعد أكثر الساسة الأيطاليين حكمة واتزانا قد أعرب عن شكه فى قدرة ايطاليا على تقرير مصيرها دون معونة خارجية ، وأبدى اقتناعه بضرورة الاستعانة بسيف فرنسا ضد سيف النمسا ، ان وجد الى ذلك سبيل ، فراح يركز جهوده ومهارته السياسية لتحقيق تلك الغاية .

الفصل الخامس عشر
المسألة الشرقية وحرب القرم

القسم الأول ـ مسألة الشرق الأدنى ١٨٠٤ ـ ١٨٥٣

فى أواخر القرن الثامن عشر اتخذت مسألة الشرق الأدنى شكلها الحديث ، وقد حكمتها عوامل ثلاثة : هى ضعف الباب العالى المتزايد فى القسطنطينية وظهور عدد من القوميات المسيحية الصغيرة الفتية فى شبه جزيرة البلقان وأثر الأمرين على سياسة الدول العظمى . فقد تعرضت تركيا فى السنوات مابين ١٧٨٨ و ١٧٩١ لهجوم روسى نمساوى مشترك ، وتقدمت روسيا التى ما برحت تؤكد أنها حامية حمى المسيحيين فى الامبراطورية التركية حتى وصلت ميناء أوجزاكوف (Ogzakov) على البحر الأسود . فأنشأ « بيت » Pitt الأصغر يندد باسم انجلترا بخطر الزحف الروسى والتهديد القائم لسلامة تركيا . ومع أن البرلمان لم يؤازر « بيت » فى موقفه يومذاك الا أنه استن به قاعدة سوف يحتذيها خلفاؤه من بعده ، فما برح هؤلاء ينتهجون سياسة موالية لتركيا ومناهضة لروسيا طوال ما يقرب من تسعين عاما . وكذلك أظهرت اعتدالا ازاء تركيا فى ١٧٩١ فأعادت اليها معظم الأراضى التى انتزعتها منها بطريق الفتح ، وأخذت تسعى منذ ذلك الوقت الى حمايتها . ذلك لأن انجلترا والنمسا قد أدركتا فى ١٧٩١ أن تركيا أصبحت تشكل خطرا لا بسبب قوتها ، وانما بسبب ضعفها .

لقد بدأت روسيا تتسلل اذن فى فجر القرن التاسع عشر الى جنوب ساحل البحر الأسود شاخصة ببصرها على الدوام الى القسطنطينية باعتبارها الهدف النهائى . وربضت النمسا على جناحها كأنها كلب

حذر من كلاب الصيد يهدد بالقفز بمجـرد اشتباكها مع تركيا ، بينما راحت انجلترا ترقب الموقف من بعيد ، عاقدة العزم على حماية تجارة شرق البحر المتوسط والدفاع عن القسطنطينية نفسها ضـد الهجوم . وكانت المتاعب تبدأ دائما بقيـام محاولات من جانب قوميات البلقان الصغيرة لتوكيـد استقلالها عن تركيـا ، لا تلبث الدول العظمى أن تتدخل على أثرها لتنظيم أو تحسين أوضاع هذه القوميات . أما موقف تركيا فكان ثابتا لايتغير ، اذ كانت ترى فى تمرد « الرعايا » المسيحيين عليها تطـاولا لا يحتمل ، فكان الباب العـالى يسعى تارة الى سبق الحوادث باقامة المذابح — وهى مذابح كانت تزداد عنفا كلمـا زادت قواه وهنا — ويعمد تارة أخرى الى التهرب من تنفيذ الامتيـازات أو الأوضاع التى يكون قد اضطر الى منحها للأفراد أو العناصر المسيحية، فان الأتراك لم يمنحوا قط هـذه الاصلاحات والترضـيات لأى من هؤلاء الرعايا الا بضغط من الدول العظمى ، فاذا كانوا قد منحوها نظريا فقد حرصوا دائما قدر المستطاع على سحبها عند التطبيق . وقد أظهر الأتراك براعة محسوسة فى الايقاع بين الدول العظمى . وعلى هذا يمكننا أن نحدد عناصر المشكلة الثلاثة كالآتى : أولا حكومة شرقية قائمة فى أوروبا تسىء حكم ملايين المسيحيين وسلطانها آخذ فى الانهيار البطىء ، وثانيا مجموعة من الدول العظمى ، تسعى روسـيا وحدها من بينها الى التعجيل عموما بانهيـار تركيا . وأخيرا مجمـوعة من القوميات المسيحية الصـغيرة الخاضعة لتركيا قد طفقت تنظم وتعلم وتقوى نفسها تدريجيا بغية التخلص من النير التركى . وقد أسفر هذا الموقف ابان القـرن التاسع عشر عن ثورات لا حصر لهـا من جانب هؤلاء الرعايا ضد السلطان ، وثلاث حروب روسـية تركية ، وحربين اشتركت فيهما فرنسا وانجلترا علاوة على روسيا اما الى جانب تركيا أو ضدها . فاذا بدأنا بالرومانيين الذين يؤلفون احدى هذه القوميات التابعة ، وجـدناهم يسكنون اقليمى مولدافيا ووالاشـيا (البغدان

والأفلاق) (رومانيا الحديثة) (١) اللذين كانا يحكمان على اعتبار أنهما ولايتان منفصلتان لكل منهما وضع شبه مستقل ووال يختار من بين الأهالى . أما المناطق التى كان يتركز فيها يومذاك كل من الصربيين والبلغار واليونانيين فهى تقابل اجمالا الحدود المرسومة لأراضى هذه العناصر فى ١٩١٣ . وقد كانت الصرب واليونان أكثر خضوعا للقسطنطينية من مولدافياوولاشيا ، وان لم يقطن بأى منهما أتراك كثيرون . أما بلغاريا فقد كانت متاخمة للقسطنطينية ، ومن هنا السر فى تأخر تحررها عن الصرب واليونان .

وقد جاءت الشرارة الأولى فى سبيل حرية البلقان من الصربيين لا اليونانيين . اذ بدأت ثورتهم فى ١٨٠٤ بزعامة قره (الأسود) جورج Kara George سليل أسرة قره جورجفيتش Kargeorgevic الصربية ، فكانت قصة زاخرة بالمعارك البطولية والمذابح الدموية من الطرفين . وبعد ثمانية أعوام من الثورة تمكن قره جورج من تدعيم مركزه فحصل فى المعاهدة الروسية التركية ١٨١٢ ، على وعد بالاستقلال الذاتى لبلاده ، على أنه لم يلبث أن هزم فى ١٨١٣ وفر من البلاد . ثم أشعل منافسه وعدوه وقاتله فى النهاية ميلوس أوبرينوفيتش Milos Obrenovic ثورة أخرى فى ١٨١٥ فنجح على الفور فى توكيد استقلال الصرب الفعلى de facto وتمكن بعد الكثير من التسويفات المضنية من الحصول على دستور لبلاده والاعتراف به أميرا للصرب(٢) .

---

(١) ضمت رومانيا ، بالصورةالتى شكلت عليها فى ١٩١٣ ، كلا من مولدافيا وولاشيا وجانبا من دوبرجا the Dobruja ويقدر مجموع سكانها يومذاك بحوالى سبعة أو ثمانية ملايين نسمة . وقد تضاعف عدد سكانها بعد حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ واضافت الى اراضيها كلا من بسارابيا Bessarabia وبوكوفينا Bukovina وترانسلفانيا Transylvania رجانبا من المجر .

(٢) حصل ميلوس على التأكيدات الاساسية فى ١٨٢٩ وان كان تنفيذ المعاهدة قد استغرق سنوات طويلة .

وقد ظل كفاح الأبطال الفلاحين ضد الجيوش التركية التى تفوقهم عددا ثلاث مرات ، مغمورا لا يثير الا أقل الانتباه فى أوروبا . ولكن المشاعر تحركت فى جميع الدول العظمى عندما ثار اليونانيون فى ١٨٢٠ . فقد هاجت الخواطر فى روسيا لاعدام بطريرك القسطنطينية وللمذابح التى ارتكبت ضد المسيحيين اليونانيين . فشاع الخوف من أن تهاجم روسيا تركيا على الفور . وأسرعت النمسا وانجلترا الى اتخاذ التدابير اللازمة لتفادى ذلك الخطر . وقد ظل كاننج Canning ومترنيخ متفقين ، بضع سنوات ، من حيث المبدأ على أن الصراع بين تركيا وثوارها اليونانيين أمر لا يخص أحدا سواهما ، وأن واجب الدول العظمى هو أن تحد من ميدان الصراع فلا تسمح لأى منها باستخدام القوة . ذلك أن كاننج كان يؤمن بأن روسيا سوف « تلتهم اليونان ووراءها تركيا ! » ان هى حاولت تسوية النزاع بينهما بطريق الحرب . وقد استمر الموقف على هذا الحال من ١٨٢٠ حتى نهاية ١٨٢٥ . ثم حدث تحول ملفت للنظر . فقد استنجد السلطان بوالى مصر محمد على . فأرسل هذا ابنه ابراهيم على رأس جيش منظم الى المورة جاء نجاحه فائقا الى درجة حدت بروسيا أن تعلن أنه لابد من التدخل لانقاذ اليونانيين من الفناء .

وهنا قرر كاننج أن اشتراك انجلترا مع روسيا فى الضغط على تركيا هو السبيل الوحيد لتفادى الحرب . أما النمسا فقد رفضت الفكرة وآثرت الوقوف بمنأى عن الأمر . فوقعت انجلترا وروسيا اتفاقيةلهذا الغرض فى ٤ أبريل ١٨٢٦ تقرر بمقتضاها حث تركيا على عقد هدنة مع اليونانيين ومنحهم قدرا من « الحكم الذاتى » . على أن النية لم تكن قد اتجهت بعد الى استخدام العنف ، فان المعاهدة القاطعة فى شأن استخدام القوة حيال تركيا فى حالة رفضها الاصغاء الى اقتراح « الحلفاء » بقبول الهدنة واعطاء الاستقلال الذاتى لليونان لم توقع الا فى ٦ يوليو ١٨٢٧ وبعد انضمام فرنسا طرفا ثالثا فى التحالف . وقد

أدت هذه المعاهدة ـ بعيد موت كاننج ـ الى معركة نفارين (١٢ أغسطس ١٨٢٧) التى تحطم فيها الأسطول التركى المصرى على يد الأساطيل البريطانية الفرنسية الروسية المشتركة . فلم يعد مناص بعد هذه الكارثة الكبرى التى ألمت بتركيا من أن تنال اليونان لا حكما ذاتيا فحسب وانما استقلالا كاملا ، وان كان لموت كاننج أثر كبير فى أغلب الظن فى الشكل الذى اتخذه ذلك الاستقلال .

وفى أوائل ١٨٢٨ أقدمت روسيا على الخطوة التى حاول كاننج منعها بالذات فأعلنت الحرب على تركيا مباشرة وبمفردها[1] على أنه بالرغم من أن القيصر نيقولا قد أقدم على تلك الخطوة ضاربا عرض الحائط باعتراضات انجلترا وفرنسا ، فليس ثمة ما يدل على أنه كان يزمع يومذاك القضاء على الامبراطورية التركية أو حتى ضم اجزاء كبيرة منها على الفور .

وقد تمكن الجيش الروسى بعد عدد من الهزائم الأولية من الوصول الى أدرنة فى صيف ١٨٢٩ . فاتخذ قائده ديبيتش Diebitsch لنفسه ، رغم ضآلة جيشه وتدهور روحه المعنوية ، مظهر الفاتح ودعا الأتراك لعقد الصلح . فخارت عزيمة السلطان وقبل توقيع معاهدة أدرنة دون ابطاء (١٤ سبتمبر ١٨٢٩) ومع أن روسيا قد فازت فى تلك المعاهدة ببعض الأراضى فى آسيا على حساب تركيا مما أدى الى توسعها فى منطقة القوقاز ، فانها لم تحصل بل لم تحاول الحصول على كسب مماثل فى أوروبا . فظل نهر بروث الواقع الى أقصى شمال

---

(١) ذهب الحلفاء كما هو معروف جيدا الى أن معركة نفارين كانت «حادثا طائشا» ورفضت انجلترا طول الوقت اعتبار نفسها فى حالة حرب ضد تركيا . وفعلت فرنسا بالمثل وان تكن قد اتخذت فى ١٨٢٨ خطوة عنيفة هى ارسال قواتها لارغام تركيا على الجلاء عن المورة والواقع أن معاهدة لندن الموقعة فى ٦ يوليو ١٨٢٦ كانت من صنع كاننج ولم تحظ بموافقة خلفه « ولنجتون » Wellington أو فرنسا .

مولدافيا هو الحد الفاصل بينها وبين تركيا . ذلك أن سياسة روسيا في أوروبا لم تكن تسعى الى الضم وانما الى التغلغل السلمي .

ولما كانت فرنسا وانجلترا تخشيان أشد الخشية من تحول اليونان الى دولة تابعة لروسيا فقد اقترح ولنجتون رئيس الوزارة البريطانية تقسيمها الى نصفين بحيث تصبح أصغر وأضعف ما يمكن . بل لقد ذهب ابردين وزير الخارجية الى أبعد من ذلك فاقترح تقسيمها الى ثلاثة أقسام . ومن حسن الحظ أن ولنجتون وأبردين خرجا من الحكم وحل محلهما بالمرستون وجراى اللذان سلكا مسلكا أحكم ، فكان أن وسعت حدود اليونان بحيث تضم أرطه Arta وفولو Volo ، وأعلن استقلالها ومنحت قرضا وملكا (١٨٣٢) . وهذا الاعتراف من جانب روسيا وفرنسا وانجلترا باستقلال اليونان ، الذى شاركت فيه روسيا بمنتهى التردد ، يعتبر علما من أهم معالم تاريخ البلقان . وقد أظهرت تجربة السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر أن دول البلقان التى تنال استقلالها تغار عليه وتحرص على صيانته وتتمسك بمراعاة مصالحها الخاصة أولا ، وهذه قلما تتفق مع مصالح روسيا أو أية دولة أخرى من الدول العظمى . وهكذا يتبين أن الاعتراف باستقلال أى دولة من دول البلقان عن تركيا لم يكن فى الواقع الا سبيلا لمعاونتها على الاستقلال عن روسيا . فقد تخلصت اليونان من النفوذ الروسى فور حصولها على استقلالها . كذلك لم توفق روسيا بحال فى توكيد نفوذها فى والاشيا ومولدافيا ، فالرومانيون باتوا يضمرون لها أشد الكراهية وقد داوموا على اتخاذ هذا الموقف منها . أما الصرب فقد وفق أميرها الحاكم (ميلوس أوبرنيوفيتش) فى استخدام روسيا مخلب قط فى مشاحناته العديدة مع الأتراك .

ومن الغريب أن روسيا قد خرجت من التجربة بنتيجة مغايرة تماما بالنسبة لتركيا نفسها ، فلن يلبث نيقولا أن يفوز لها بنصر بدا عظيما

مذهلا . اذ تحولت سياسة روسيا بعد ١٨٢٩ ولمدة عشر سنوات على الأقل الى النقيض التـام من سياستها التقليدية الرامية الى مواصلة الزحف حتى القسطنطينية وضم كل ما تستطيع ضمه من الأراضى فى الطريق . وقصـة ذلك أن القيصر نيقولا عين فى ١٨٢٩ لجنة من كبار الساسة الروس لبحث نتائج انحـلال الامبراطورية التركية المتوقع . فأفتت اللجنة ، على عكس سياسة روسيا التقليدية ، بأن المحافظة على سلامة الامبراطورية التركية أمر مستحب . اذ رأت ببصيرة ثاقبة تكاد تقرب من النبوءة أن دولا بلقانية صغيرة ستنشأ اذا ما استمر انحلال تركيا ، وأن روسيا لن تتمكن من السيطرة على هذه الدول ، فى حين أن لها فى تركيا بوضعها الراهن اذ ذاك حقوقا تكفلها المعاهدات ونفوذا تستطيع أن تضاعفه عن طريق السيطرة الاقتصادية والتغلغل السلمى . وأشارت اللجنـة بأنه اذا شاءت روسـيا السعى لكسب المزيد من الأراضى فان عليها أن تتجه صـوب أرمنيا أو بغداد لا القسطنطينية . فأبدى نيقولا تأففه لأول وهلة ولكنه لم يلبث أن قبـل تقرير اللجنة ، فقامت سياسته طوال عشر سنوات على الابقـاء على الوضع الراهن والمحافظة على سلامة تركيا .

وقد أسر نيقولا بآرائه الى النمسا فنـال تأييد مترنيخ مدى عشر سنوات ، ولكن كبرياءه منعته من شرح سـياسته لانجلترا ، فاستمر بالمرستون فى مناوأته لروسـيا وايمانه بأنها تنوى ضم القسطنطينية والاسـتيلاء على الدردنيل . ولعله كان بوسع بلمرسـتون أن يخمن الحقيقة ازاء ما لمسـه من مظاهر الود بين النمسا وروسـيا ، ولكنه لم يفعل[1] .

---

(١) كان بالمرسـتون يعتقد من خطأ بالغ ان اتفاقية مونيشنجراتز Munchengrat (١٨ سبتمبر ١٨٣٣) هى فى حقيقتها عملية تقسيم لتركيا على يد النمسـا وروسيا ، وهذا دليل جـديد على ما للسرية من ضرر على الدول الاستبدادية .

والواقع أن فرنسا هى التى راحت تنتهج فى همة ونشاط سياسة تمزيق أوصال تركيا فى الفترة مابين ١٨٣٠ — ١٨٤١ ، ففى هذه الفترة استولت فرنسا على الجزائر وفيها أيدت ثورة مصر ضد تركيا وسعت عن هذا الطريق الى الحصول على العون لتحقيق مشروعاتها الخاصة بالبحر المتوسط . أما انجلترا فقد ظلت على حرصها المعهود على المحافظة على الامبراطورية العثمانية فجعلت تناوىء بطبيعة الحال مشاريع فرنسا .

كانت المشكلة الحقيقية تكمن فى مصر . كانت تبعية محمد على ، الباشا الطموح الجرىء ، للسلطان قد تحولت الى تبعية اسمية منذ أمد بعيد ، ولكنه أرسل مع ذلك قواته لمعاونة السلطان فى اخضاع اليونان . وكان قد فاز بولاية جزيرة كريت وأخذ يتطلع الى الفوز بولايات الشام علاوة على ولاية مصر . فأظهر السلطان غيرة وارتيابا وراح ينصت لمشورة أناس كانوا من خصوم محمد على الشخصيين ، فلما خيل لذلك الباشا الجرىء أنه بات فى خطر ، ولعل ذلك كان صحيحا بالفعل ، قرر أن يتوقى أية محاولة لطرده من مصر بمهاجمة السلطان والاستيلاء على دمشق وسائر بلاد الشام ، فاستدعى ابنه ابراهيم وأصدر اليه تعليماته بشن « حرب وقائية » ضد السلطان .

وفى نوفمبر ١٨٣١ غزا ابراهيم فلسطين بحرا وبرا على رأس جيش حسن النظام وان يكن صغيرا . وقد وفق فى زحفه توفيقا يضارع توفيق اللنبى فى ١٩١٨ . اذ سقطت بين يديه يافا وغزة والقدس فى تتابع سريع ثم توقف فترة من الزمن ، شأن نابليون ، أمام عكا ، ولكنه استولى عليها فى النهاية (مايو ١٨٣٣) . وسقطت دمشق فى يونيو وحلب فى يوليو فعبر ابراهيم سلسلة جبال طوروس ليحقق نصرا جديدا فى ممر بيلان ولما ينته نفس الشهر . ولم يكن نجاحه الدبلوماسى بأقل من نجاحه الحربى ، فقد تمكن من الظهور بمظهر الرجل المتحرر والتابع المخلص للسلطان فى آن معا . وفى ديسمبر

١٨٣٢ أرسل السلطان محمود آخر جيوشه لمحاربة ابراهيم ، فدحره ذلك المقاتل العظيم دحرا تاما فى قونية وبات السلطان تحت رحمة تابعه الثائر المظفر .

كان السلطان قد استحث انجلترا من قبل على أن تمد له يد العون ، ولكن بالمرستون لم يبد لحظتها ، على غير ما أثر عنه ، ميلا لمعاونة تركيا ، فكانت سياسة جريئة خطيرة معا(١) . ففى لحظة وقوع كارثة قونية وصلت الى القسطنطينية بعثة روسية ، واذا بالسلطان يتجه ساعة يأسه الى عدوه التقليدى طالبا العون . لقد ذكر أحد مستشاريه أن « الغريق يتعلق بالحية » فتعلق السلطان بروسيا . كان القيصر يكره « الثائرين » شأن السلطان مما سهل اتمام الصفقة . وفى فبراير ١٨٣٣ طالب « الغريق » رسميا بمساعدة « الحية » . فرسا فى ٢٠ فبراير أسطول بحرى روسى أمام شاطىء القسطنطينية ، وكانت تلك هى المرة الوحيدة التى ظهر فيها هناك مثل هذا الأسطول برضاء تركيا . وفى أبريل نزل ٦٠٠٠ جندى روسى الى الشاطىء الآسيوى المواجه للقسطنطينية ، فغدا السلطان بذلك فى مأمن . وراحت فرنسا وانجلترا تضغطان فى تلك الأثناء على تركيا للتراضى مع محمد على فنزل السلطان له فى أواخر أبريل ١٨٣٣ عن فلسطين وحلب ودمشق وسائر بلاد الشام ، وأذن له باحتلال موانىء أطنة ، وانسحب ابراهيم الى الشام فبدا أن الأزمة قد انتهت .

وكذلك شرعت روسيا فى سحب قواتها من آسيا ، ولكنها أرغمت سلطان تركيا قبل ذلك على توقيع معاهدة سرية معها . كانت معاهدة هنكيار سكلرسى (٨ يوليو ١٨٣٣) حلفا دفاعيا هجوميا بين الدولتين

---

(١) خالف سترانفورد كاننج سفير انجلترا فى القسطنطينية رأى «بلمرستون» ونادى فى تلك الاونة باتباع سياسة هى فى جوهرها نفس السياسة التى اتبعها بلمرستون فى ١٨٤١ .

فى واقع الأمر . وقد تنازلت روسـيا ، بموجب نص سرى لم يتسرب مضمونه الا تدريجيا ، عن حقوقها فى الحصول على المعونة العسكرية من تركيا نظير موافقة الأخيرة على اغلاق الدردنيل فى وجه السـفن الحربية « عند الحاجة » (كانت عبارة «عندالحاجة» تعنى فى الحقيقة عند طلب روسيا) ولو نفذت هـذه المعاهدة فعلا لغدت تركيا دولة تابعة لروسـيا بكل معانى الكلمة . وقد بدا يومذاك أن نيقولا بات يتحـكم من الوجهة العملية ، وان لم يكن بصفة علنية ، فى المضيقين والقسطنطينية والسلطان جميعا (١) . على أن نصره كان أكمل من أن يدوم والعقبات الماثلة فى الطريق كانت أعظم مما يتصور . فان دخول سفن روسيا الحربية فى المضيقين كان معنـاه الاشتباك فى حـرب مع انجلترا ، ثم ان فرنسـا كانت لديها أسـباب قوية لمناصرة مصر ضد السلطان . أما بالمرستون فقد راح يبدى تأييده المطلق لسلامة الباب العالى فى مواجهـة مصر ، فبات يتمتع بحظوة بالغة لدى السلطان . ولسان حاله فى ذلك أن السـلطان بمكن أن يستند فى المستقبل على انجلترا لا روسيا ان هو تمكن من التغلب على الخطر المصرى . وما دامت تبعيته لروسيا مقنعة فلن تكون به حاجة الى الشعور بالحرج عند التهرب من التزامات هنكيار سكلرسى .

وقد كان السلطان محمود على استعداد للغـدر بمصر مثلما كان عازما على الغـدر بروسيا . وقد تهيأت له الفرصـة لاحراز نصر على ابراهيم ، اذ سرعان ما استثار ابراهيم ، وهو الذى كان يفاخر بميوله التحررية ، عداوة رعاياه من أهالى الشام بطغيانه (٢) فأدرك السلطان

(١) مازال الجدال قائما حول معنى هذا النص السرى . ومن الملاحظ ان مضيق الدردنيـل يقع فى الطـرف الغـربى لبحر مرمرة . وان النص لايشير للمضيق الواقع فى الطـرف الشرقى أى مضيق البسفور .

(٢) نسى المؤلف ـ ولعله تناسى ـ أن يذكر دسائس عملاء الانجليز فى اثارة الاهالى على الحكم المصرى . (المراجع)

محمود أن أهالي الشام قد يثورون ضده اذ وجه قواده الضربات الى جناحه . ولا مراء في أن السلطان كان البادىء بالاستفزاز ، اذ أرسل في أبريل ١٨٣٩ جيشـا تركيا الى بيرة جك على نهر الفرات ، وجعله يعبر النهـر من ضـفته اليسرى الى اليمنى بحيث يتمكن من تسديد الضربات الى خطوط مواصلات ابراهيم بين فلسطين وموانى أطنه . فانزعجت الدول العظمى على الفور ، واتفق رأى فرنسا وبريطانيا على ايفاد أسطول مشترك الى البسفور في حالة دخول الروس تركيا . بيد أن الأوان قد فات ، اذ كان آخر عمل قام به السلطان قبل وفاته هو اصدار الامر الى قواده بمهاجمـة ابراهيم . تحـرك الأتراك لمقـاتلة ابراهيم في أوائل يونيو وسرعان ما تلقوا ضربات عنيفة ثلاثا تتابعت عليهم دون هوادة . ففي ٢٤ يونيو دحرهم ابراهيم عن بكرة أبيهم في نصيبين وأسر منهم ١٥٠٠٠ رجل بسلاحهم ومهماتهم . وفي أول يوليو مات محمود الشيخ فخلفه عبد المجيد الذى كان صبيا غريرا في السادسة عشرة من عمره . وعلى أثر ذلك مباشرة أبحر الأسطول العثماني الى الأسكندرية حيث استسلم لمحمد على متذرعا بأن القسطنطينية قد بيعت الى الروس . فأسكر محمد على الفخر بانتصارات ابنه وأسلحة مصر ، وحسب أنه يستطيع المحافظة على حكمه وغنائمه جميعا . ولكنه أساء التقدير على نحو خطير . فلئن كان بوسعه أن يتحدى تركيا أو حتى أوروبا فثمة شخص واحد لم يكن ليستطيع أن يتحداه ألا وهو بالمرستون .

واذا كان بالمرستون قد تردد في ١٨٣٢ فانه لم يتردد قط في ١٨٣٩ . لقد طفق السلطان الصبي يتذبذب بين الفزع والادلاء بالتصريحـات الطنانة ، وجعلت فرنسا تناصر مصر سرا ، بينمـا راح نيقولا يلعب لعبته الخاصة ، أما النمسا فكانت متهيبة تساورها الهواجس ولـكن

بالمرستون كان يملك ميزتين : تصميمه الشخصى وقوة بريطانيا البحرية وعلى هذا أسرعت بريطانيا الى ضرب الحصار على الاسكندرية رغم رفض فرنسا التعاون معها . وقد رد بالمرستون على هذا الرفض بالدعوة الى عقد مؤتمر للدول العظمى فى فيينا . فلما مضت المفاوضات فى بطء وتثاقل وتدخلت روسيا فى الأمر وعمدت فرنسا الى المماطلة الصريحة أمسك بالمرستون الزمام بيديه وساق القطيع الأوروبى فى اندفاع وحدة حتى داس مصر وفرنسا تحت أقدامه .

وفيما يلى مجمل لما حدث . دفع بالمرستون ، وقد توافرت لديه أسباب وجيهة للشك فى انحياز فرنسا الى صف مصر ، كلا من النمسا وبروسيا وروسيا الى توقيع اتفاقية معه فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ بلندن تقرر فيها أن تكون لمحمد على ولاية مصر الوراثية وولاية عكا مدى الحياة ، فاذا ما امتنع عن الجلاء عن بقية الأراضى التى فتحها وقبول ذلك العرض خلال عشرة أيام تركت له ولاية مصر وحدها (١) . وقد أحاطت بالاتفاقية صعوبتان أولاهما أنها قد وقعت فى غياب فرنسا والثانية أن اللجوء الى القوة سيكون ضروريا لفرض أحكامها على محمد على .

---

(١) بذلت كل من النمسا وبريطانيا العظمى وعدا قاطعا بتقديم المعونة البحرية لتركيا اذا رفض محمد على الشروط المعروضة عليه (المادة ٢) .

ونضيف أن معاهدة لندن تضمنت أيضا أن محمد على اذا أصر على الرفض فى مدى عشرة أيام أخرى نزعت منه ولاية مصر وساعدت الدول الموقعة تركيا عسكريا لأخضاع محمد على .

المعروف أن بالمرستون كان شديد الحقد على محمد على وكان يعتبره عميلا لفرنسا فى المشرق لجلب الروس الى المضيقين ، وامتد حقده الى مصر ، فعمل على تحطيم قوتها ونفوذها وخاصة فى المناطق التى اعتبرها (حساسية) للمواصلات الامبراطورية الى الهند وهى جنوب الجزيرة العربية وساحل الخليج العربى وقد وضعت انجلترا منذ ذلك الوقت أساس سياستها الاستعمارية فى تلك المناطق فاحتلت عدن (١٨٣٩) وأنذرت مصر بالانسحاب من منطقة الخليج العربى ووطدت سلطانها على الأمراء والمشايخ العرب فى تلك المنطقة عن طريق (المعاهدات) التى عقدتها معهم . (المراجع)

غير أن « بالمرستون » لن يلبث أن يظهر قدرته على التصدى لهاتين الصعوبتين بطريقته البشة المعهودة .

وقد وصف «جيزو» Guizot استبعاد فرنسا عندما أبلغه «بالمرستون» أنباء الاتفاقية ، بأنه « اهانة شنعاء » ، وأعلن « تيير » رئيس الوزراء أن العلاقات الطيبة مع انجلترا قد انهارت وراح يتعجل الاستعدادات العسكرية ، بينما انطلقت الصحافة الفرنسية كلها فى صراخ محموم . ولكن بالمرستون لم يؤمن قط بأن فرنسا يمكن أن تحاربه وقد أثبتت الأيام صدق ايمانه فى تلك المرة . اذ سرعان ماتبددت غضبة فرنسا باطلاق الكلمات النارية . وقد كان « سولت » Soult ذلك الرجل الطيب الهرم الذى تولى رئاسة الوزارة فى أكتوبر يدرك أن الحرب مع انجلترا ستعرض البيت المالك للخطر ، وفى تلك الأثناء حقق بالمرستون نصرا عظيما على خصمه الآخر .

ترك محمد على الأيام العشرة التى حددتها الدول العظمى ، تمر دون ابلاغ أى رد رسمى . فظهر أسطول بريطانى نمساوى أمام ساحل بيروت مطالبا بجلاء المصريين عن الشام (١١ أغسطس) . وفى ٩ سبتمبر قصف الأميرال ستوبفورد Stopford المدينة بقنابله وأنزل اليها قوة تركية . وفى ٩ أكتوبر تم له الاستيلاء عليها فهبت بلاد الشام على الفور ضد ابراهيم ، وتحرك الأسطول البريطانى الى عكا . ان تلك المدينة قد صمدت عامين أمام الصليبيين وستة أشهر أمام ابراهيم وشهرين أمام نابليون ، ولكن الاميرال ستوبفورد ، دمرها فى ٣ نوفمبر فى ثلاث ساعات ! وهكذا فوت اميرال بريطانى على ابراهيم غرضه للمرة الثانية (١) .

---

(١) منع السير أ . كودرنجتون Sir E. Codrington ابراهيم من فتح اليونان فى ١٨٢٧ بتدمير الاسطول التركى المصرى فى نفارين . (المراجع) : يؤسفنا ان يتحدث المؤلف الانجليزى هنا وفى امكنة اخرى من هذا الفصل عن عدوان البحرية الانجليزية بهذه اللهجة الحماسية !

واذ كان ابراهيم مدركا تماما لما للقوة البحرية من أثر وللخطر الذي يتهدد خطوط مواصلاته ، فقد تأهب للجلاء عن الشام فى عجلة . بل ان مصر نفسها باتت فى خطر . فقد استجمع السلطان الصبى أطراف شجاعته وخلع محمد على (١) . فاستقبل صاحبنا النبأ فى هدوء قائلا ان تلك هى المرة الرابعة التى يخلع فيها . وأعرب عن أمله فى التغلب بعون الله ورسوله على تلك المحاولة كما فعل فى المرات الثلاث السابقة . الا أنه غير لهجته عند ظهور الأميرال نابير Napier أمام الاسكندرية مهددا بلغة الحديد والنار . فقبل التسليم على الفور ووقع اتفاقية وعد فيها بالاذعان لرغبات الدول العظمى والجلاء عن بلاد الشام بشرط ضمان ولايته الوراثية لمصر (٢٧ نوفمبر) . وقد أبدى السلطان والدول العظمى بعض التردد فى قبول هذه النتيجة . ولكن « بالمرستون » أنفذ رأيه فى النهاية وانتصر على جميع معارضيه ، فاجتاز محمد على مأزق الخلع للمرة الرابعة ، وان أرغم على الاكتفاء بولاية مصر وحدها فى المستقبل . كانت التسوية نهائية دائمة ، فبدأ الناس يرون أن انتصارات أى حاكم شرقى آخر أو بعبارة أخرى انتصارات مراد الرابع Amurath على مراد الرابع ليست فى جوهرها الا انتصارات زائلة ، وهو مافاتهم أن يروه أولا . فأهالى الشام الذين رحبوا بابراهيم بوصفه مخلصا لم يلبثوا أن انقلبوا ضده بوصفه طاغية . ومحمد على الذى هدد القسطنطينية فى يوم من الأيام لم يتجاسر ثانية لا هو ولا ابنه على تهديد حتى فلسطين . ومصر التى جعلها محمد على وابراهيم أعظم من تركيا ، أمست أضعف منها فعلا فى غضون

---

(١) كان هذا خطأ بينا ومخالفة صريحة لشروط اتفاقية الحلفاء الموقعة فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ .

(المراجع) ليس فى خلع السلطان محمد على فى ذلك الوقت — بعد أن انقضت المهلة الأولى ثم الثانية مخالفة صريحة لاتفاقية لندن ، بل ان الخلع يتمشى وهذه الاتفاقية .

أربعة عشر عاما . ثم غدت فى ١٨٥٤ ، بعد أن حرمت من قادتها وأثقلت الديون كاهلها وبلبلتها المنازعات الداخلية ، أكثر ولايات الامبراطورية التركية وهنا وعجزا . أما فرنسا التى كانت تهدف الى اعطـاء بلاد الشام لمصر أو الاستيلاء عليها لنفسها فقد ضاع اعتبارها فى حين فاز بالمرستون بامتنان السلطان الدائم .

وقد اكتمل نصر « بالمرستون » بتوقيع اتفاقية فى ١٣ يوليو ١٨٤١ تعهدت بموجبها الدول العظمى والسـلطان بعدم السـماح بدخول « السفن الحربية التابعة لدول أجنبية » الى الدردنيل والبسفور . على أن روسيا ظلت تؤمن فى سريرتها بامكان التمسك بمبادىء معاهدة انكيار سكليسى وراحت تبدى شعورا وديا للغاية نحو انجلترا التى كانت تظنها مستغفلة فى الأمر كله . والواقع أن القيصر كان مخطئا فى ظنه تماما . فالسلطان كان يعتبره طاغوتا مغرضا اضطرته ظروف الخطر التى مر بها لطلب حمايته والرضوخ لتهديداته فى حين يستطيع الآن اللجوء الى انجلترا (المنزهة عن الغرض) لدرء شره ! . ولما كان نيقولا بعيدا كل البعد عن ادراك ذلك ، فقد سعى فى محادثته الشهيرة مـع اللورد ابردين وزير الخارجية البريطانيـة فى ١٨٤٤ (١) الى ايجـاد «تقارب» Reapproachement مع انجلترا والوصول الى تفاهم بالنسبة للمستقبل . ولا تترك أقواله فى تلك المحادثة مجالا للشك فى نواياه . فقد وصف السلطان بأنه « رجل مشرف على الموت » وأعرب عن رأيه

(١) خرج الأحرار (وبالمرستون) من الحكم فى ١٨٤١ فتولى بيل Peel رآسة الوزراء وابردين وزارة الخـارجية . ومحادثة ١٨٤٤ واردة فى «مذكرات ستوكمان» المجلد الثانى ، الصفحة ١٠٦ والصفحات التالية ، وكتاب مارتين «سيرة الأمير القرين» (وهـو اللقب الرسمى لزوج الملكة فيكتوريا — المترجم) المجلد الأول صفحة ٢١٥

Stockmar, "Memoirs" vol.II.pp.106 sqq., and Martin's "Prince Consort", vol.I.p.215.

انظر كتاب هـ تمبرلى «انجلترا والشرق الأدنى : بالقرم» الصفحات من ٢٥٣ الى ٢٥٧ (طبعة لونجمان ١٩٣٦)

H.Temperley : England and the Near East : The Crimea, pp.253—7 (Longmans. 1936).

فى أن امبراطوريته فى سبيلها الى الانحلال وانه يحسن اتخاذ الأهبة للأمر مقدما . وأبدى عزمه على الفوز بالقسطنطينية وموافقته على أن تحصل انجلترا نظير ذلك على مصر وكريت أيضا اذا شاءت . وقال نيقولا انه بهذا يبرهن على استعداده لمراعاة مبدأ التوازن الدولى واعطاء تعويض عادل لانجلترا .. ولقد صور هذا العرض بصورة مشوهة الى حد بعيد أثناء حرب القرم حين جعلت الصحافة الانجليزية المتعصبة لوطنها تصم القيصر نيقولا بأنه « كذاب أشر » وترسم انجلترا فى صورة الصليبى المدافع عن الحق . ولكن من الأمور الجديرة حقا بالتسجيل أن اقتراح نيقولا هذا الذى ينم عن حكمة وحنكة سياسية قد قدر له أن يقبل فعلا فى ١٩١٥ . اذ وافق السير ادوارد جراى فى تلك السنة على حصول روسيا على القسطنطينية ودافعه الى ذلك جلى واضح ، فقبرص ومصر كانتا قد باتتا بالفعل فى عداد الممتلكات البريطانية وقناة السويس وهى الطريق الى الهند أصبحت هى الأخرى فى أيد بريطانية . فلم يكن ثمة داع والأمر كذلك لامتناع بريطانيا عن تأييد مطالب روسيا فى القسطنطينية . ولما كانت الضمانات التى عرضت على انجلترا فى ١٨٤٤ لا تقل قوة عن تلك التى عرضت عليها فى ١٩١٥ فلا يبدو لنا أنه كان هناك مبرر لامتناعها عن قبول ذلك العرض من البداية .

أما سر رفضها فقد سبق أن شرحه « بالمرستون » فى غلظة وقسوة عام ١٨٣٩ حين قال « ان كل هذا الذى نسمعه يوميا عن تحلل الامبراطورية التركية وكونها جسما ميتا أو جذعا يابسا أو ما شابه ذلك انما هو هراء محض » (١) . لم يكن الوصول الى تسوية تقوم

---

(١) انظر كتاب « ب . جودالا » « بالمرستون » (١٩٢٦) صفحتى ٢١٢ـ٢١٣
P.Guedalla : Palmerston (1926), PP. 212-213.
(المراجع) يؤسفنا مرة أخرى أن تبدو النزعة الاستعمارية على لسان المؤلف فيعتبر عرض القيصر نقولا اقتسام تركيا ومصر بين انجلترا وروسيا .. « اقتراحا ينم عن حكمة وحنكة سياسية »

على التوفيق بين روسيا وانجلترا أمرا ممكنا اذن فى الوقت الذى يصفه فيه القيصر السلطان بأنه « رجل مشرف على الموت » فيرد« بالمرستون» « هراء ! » وهنا تكمن جرثومة حرب القرم .

القسم الثانى ـ حرب القرم

تشغل حرب القرم مكانا فريدا فى تاريخ أوروبا فى القرن التاسع عشر . ان الأساليب الحربية التى اتبعت فيها أشبه بأساليب العصر النابليونى منها بأساليب الفترة التى يوشك أن يبدأها مولتيكه Moltke والنظام العسكري البروسى . وقد استخدمت فيها السفن البخارية ولكن أهميتها لم تكن قد قدرت حق قدرها بعد . وكان البرق قد أدخل فى فيينا ولكن القسطنطينية والقرم كانتا لا تزالان أبعد من مداه أما النواحى المتصلة بتغذية الجيوش وأحوالها الصحية فكانت أقرب كلها الى طابع العصور الوسطى . وعلى هذا تعد حرب القرم آخر حرب دارت على نطاق واسع دون الاعتماد على امكانيات العلم الحديثة . واذا كانت أساليبها وأدواتها تبدو غريبة للطالب العصرى ، فإن أهدافها وديبلوماسيتها تبدو أغرب وأعجب . فنحن نجد أن القضايا الكنسية التى يصح أن تنسب الى عصر الحملات الصليبية قد ساهمت بنصيب وافر فى أسبابها ، وأن المنتصرين فيها لم يحققوا منها كسبا كبيرا ان كانوا قد خرجوا منها بشيء على الاطلاق . فالواقع أن سلامة تركيا لم تصن ولا تم ايقاف الزحف الروسى ايقافا دائما . ولسوف تنفق فرنسا وبريطانيا آلاف الأرواح وملايين الجنيهات فى حرب ١٩١٤ العظمى لالغاء بعض نتائج انتصارهما فى حرب القرم التى بذلتا لكسبها دماء وأموالا طائلة . على أن هذه الحرب تبدو لنا مع ذلك شيقة جدا من عدة أوجه . فهى تزودنا على الأخص بنموذج مفيد للغاية للكيفية التى تنشب بها الحروب ، ونحن نرى فيها تصرفات بعض

شخوص القصة مجردة تماما من المواربة والتظاهر بالدوافع الزائفة التى يحلو للديبلوماسيين التستر وراءها فى العادة .

وقد كانت لحرب القرم ، شأن جميع الحروب ، أسباب عديدة مجتمعة . ولكن أحوال شبه جزيرة البلقان كانت بين جميع هذه العوامل أكثرها أهمية على الاطلاق . كان الحكم التركى يمتد على شبه الجزيرة كلها فيما عدا مملكة اليونان الحرة . وقليلون هم الذين كانت لديهم فى تلك الحقبة أدنى فكرة — حتى بين الديبلوماسيين الأوروبيين — عن تلك الشبكة من العناصر والديانات واللغات التى تكتظ بها شبه الجزيرة . ولم يكن الحكم التركى متسما بالقسوة المتعمدة ، بل انه لم يكن يتسم بالقسوة على الاطلاق الا فى الأوقات التى يتعرض فيها لتحد خطير ، أو بعبارة أصح فى الأوقات التى يظن فيها الأتراك عن حق أو باطل أنه يتعرض لمثل هذا التحدى . ولم يكن هذا الحكم يتمثل فى جميع جهاته فى أكثر من حامية احتلال تحفظ — دون نجاح كبير — نوعا من النظام ، وتجبى الضرائب تاركة الأهالى الخاضعين لها يسيرون فيما عدا ذلك فى طريقهم الخاص ويتبعون أفكارهم الخاصة فى شئون الحياة الاجتماعية والدين . على أنه لا جدال فى أن الحكم التركى كان آخذا فى الضعف ، وفى أن كفايته العسكرية كانت آخذة فى التناقص مع ازدياد ملموس فى فساده . وهو لم يتأثر الا أدنى التأثر بالتقدم العلمى والصناعى الذى بدل طابع أوروبا الغربية تبديلا عظيما . وكان يضمر أشد النفور للحرية السياسية ولفكرة اشتراك الشعب فى تصريف شئون الحكم . وبازدياد ضعف تركيا ، بل وبسبب هذا الضعف الى حد ما ، أخذ أبناء القوميات والديانات الخاضعين لها يزدادون وعيا بذاتيتهم واحساسا بكيانهم . كان اليونانيون قد شقوا عصا الطاعة من قبل وأنشأوا دولتهم المستقلة . فلم يكن مناص من أن يثير المثل الذى ضربوه تحركات بين العناصر الأخرى . وقد وفرت المعاهدات الأخيرة لسكان ولايتى والاشيا ومولدافيا فيما وراء الدانوب ، الذين لم

يكونوا قد عرفوا بعد باسم الرومانيين ، قدرا كبيرا من الحكم الذاتى فراحوا يبدون لهفتهم الى الحصول على المـزيد . وكان الصربيون معتدين بتاريخهم العظيم غير قانعين بالقدر المحسوس الذى فازوا به من الحكم الذاتى من قبل . أما أهالى الجبل الأسود فكانوا لايزالون يحتفظون باستقلالهم فعلا وراء جبالهم الحصينة . ومع أن البلغـار والألبان والمقدونيين لم يكونوا قد أحسوا بعد بأن لهم كيانا مستقلا ، فان مناطقهم كانت تزخر بالاضطرابات الناجمة عن احساسهم بالفروق التى تفصلهم عن حكامهم . وكان الدين عاملا قويا من العوامل المثيرة للغليان فى بلاد المنطقة . فمع أن الشعوب المقهورة كانت تضم أعدادا كبيرة من المسلمين فان المسيحية هى التى كانت غالبـة فى شـكلها الأورثوذكسي أو اليونانى بين أكثرية هذه الشعوب ، وكان القيصر الروسى هو الرئيس الرسمى للكنيسة الأورثوذكسية . وما برح الدين يتخذ فى شبه جزيرة البلقان طابعا سياسيا قويا ، وهو ما يحدث غالبا فى البلاد التى يكون فيها النشاط السياسى المباشر مستحيلا .

كان عدم الاستقرار سمة ظاهرة على الموقف فى البلقان . وقـد بات محتملا أن تنشب فى احدى جهاته ثورة تقلب التوازن الدولى رأسا على عقب ، فجعلت الدول العظمى الواقعـة شـمال الدانوب ترقب الأحداث بقلق يمتزج فيه الخوف والطمع . فامبراطورية النمسا كانت مدينة بنشأتها لضرورة سد الطريق فى وجه أى غاز يأتى من مجـرى الدانوب الأدنى ، ووجودها كله كان مرتبطا أوثق الارتباط بمقـاومة سلطان تركيا . ومع أن دواعى الخوف من ذلك السلطان كانت قـد زالت فان خوفا جديدا قد أعقبه ، ألا وهو الخوف من الدولة التى يمكن أن تحل محل تركيا فى شبه جزيرة البلقان . كانت النمسا تتطلع الى كسب نفوذ فى البلقان اذ لم يكن كسب أراض منه ، وكانت تخشى من نوايا روسيا ومطامعها . ولم يكن ثمة شك على الاطلاق فى طبيعـة تلك المطامع . اذ كانت روسيا الدولة السلافية الكبرى ، وأكثرية سكان

البلقان كانت تتحدث بلغات سلافية ، وحتى البلغاريين الذين لم يكونوا سلافيين تماما كانوا قد اصطنعوا لأنفسهم لغة سلافية . ثم ان روسيا كانت لديها كما شاهدنا من قبل مبررات دينية للتدخل لصالح أعضاء الكنيسة الأرثوذكسية . وكانت تزعم أيضا أن لها حقوقا فى التدخل تكفلها المعاهدات ، وكان تحديد المدى الذى تطبق فيه هذه الحقوق موضع نزاع متصل . فقد تضمنت معاهدة كوتشك كنارجى Kutchuk Kainarji المعقودة بين روسيا وتركيا فى ١٧٧٤ مادتين أثار تفسيرهما خلافا كبيرا . فقد نصت احدى المادتين وهى المادة (١٤) على السماح لروسيا ببناء كنيسة مسيحية فى غلطه — وهى جزء من القسطنطينية — وبابقاء تلك الكنيسة تحت حمايتها على الدوام . ووعدت تركيا فى مادة أخرى وهى المادة (٧) بحماية الكنيسة والديانة المسيحية فى ممتلكاتها وبالسماح لسفراء روسيا بمخاطبة السلطات نيابة عن كنيسة غلطه . وقد ادعى الروس أن لهم بناء على هاتين المادتين حقا فى تمثيل الطوائف المسيحية فى البلقان وحمايتها . ولما كان من شأن الاعتراف بهذا الحق قيام خطر التدخل بصفة دائمة (فكر فيما كان يحدث لو كان للفرنسيين فى القرن الثامن عشر حق « حماية » كاثوليكى أيرلندا) فقد أصرت تركيا على رفض الاعتراف بهذا الحق المزعوم (١) .

وليس فى مطامع روسيا يومذاك مايتحتم وصفه بالشر أو الضعة . فلا مراء فى أن القيصر كان يرى أن واجبه الدينى القوى يملى عليه

(١) على أن الدول العظمى الاخرى وتذكر منها : النمسا ، المجر ، وبريطانيا العظمى على وجه التخصيص ، كانت قد أقرت منذ أمد طويل ان لروسيا حقا ما فى المسألة . فقد اعترف مترنيخ فى ١٨٢٣ بذلك ، وصرح كاننج بأن لروسيا حقا خاصا فى أسداء المشورة الودية نيابة عن مسيحيى تركيا فى زمن السلم . ولكنه تحفظ بابداء شكه فيما اذا كان هذا الحق « يمتد الى التدخل نيابة عن الرعايا الذين خرجوا من طاعة السلطان »

انظر كتاب هـ . تمبرلى «سياسة كاننج الخارجية» (١٩٢٥ ، ص ٣٢٥
H. Temperley: The Foreign Policy of Canning (1925), P.325.

بذل قصارى جهده من أجل أولئك الذين ينتسبون الى نفس الطائفة الدينية ويتحدثون نفس اللغة التى يتحدثها شعبه الروسى . على أنه لم يعد هناك أدنى شك على أية حال فى وجود تلك المطامع بعد المحادثة الشهيرة التى دارت فى يناير ١٨٥٣ بين القيصر نيقولا والسفير الانجليزى . كان القيصر صديقا قديما للورد أبردين رئيس الوزارة الانجليزية ، وكان على علاقة ودية للغاية بالسير هاملتون سيمور سفير انجلترا فى القسطنطينية وقد وصف القيصر تركيا فى تلك المحادثة التى رفع السفير كل مادار فيها الى لندن على الفور والتى أذيعت عند اندلاع حرب القرم ، وصفها بأنها بلد « آخذ فى الانهيار فيما يبدو » . وبأنها «رجل مريض للغاية » ، قد يموت بغتة بين أيديهم . فمن الأهمية بمكان أن يستقر الرأى على كيفية التصرف فى أراضيه قبل وقوع ذلك الحادث . وأشار الى امكان تسوية الأمر فيما بين انجلترا وروسيا دون ماحاجة الى قيام أى حرب . ثم ألمح بصراحة تكاد أن تكون تامة الى التسوية التى ينشدها ، ألا وهى استقلال دول البلقان تحت حماية روسيا ، واحتلال روسيا للقسطنطينية دون ضمها ، واستيلاء بريطانيا على مصر . كان هذا هو التقسيم الذى اقترحه القيصر لأراضى تركيا فيما بين بريطانيا وروسيا مع اسقاط فرنسا من الحساب (١) . ولكن بريطانيا

(١) لم يكن عرض القيصر الا تكرارا فى الواقع لمحادثة كان قد اجراها مع أبردين فى وندسور فى ١٨٤٤ ويبدو انه كان يعتقد ان الأخير يوافقه فى الرأى . ونص هذه المحادثة . منشور فى مذكرات ستوكمار . المجلد الثانى صفحة ١٠٦ . "Stockmar's Memoirs" vol. II. P. 106.

وكتاب مارتن «سيرة الأمير القرين» المجلد الأول صفحة ٢١٥
Martin's "Prince Consort" vol. I. P. 215.

وقد عرض امر هذه الصفقة على كل من تولى وزارة الخارجية البريطانية حتى عام ١٨٥٣ ، ولكن احدا منهم لم يقبلها قبولا صريحا ولم تصدق عليها اية وزارة . ومن المقطوع به أن دربى Derby قد رفضها باسم حكومته انظر كتاب هـ . تمبرلى « انجلترا والشرق الأدنى » الصفحات ٢٥٣ — ٢٥٧ .

H. Temperley : "England and the Near East" PP. 253-7.

لم تبد ميلا للتجاوب مع هذا المشروع ، اذ كان الاحتفاظ بسلامة تركيا سياسة بريطانية تقليدية ولم تكن لديها رغبة فى تبديلها . فلم تؤد تلك المحادثة الا الى اثارة أبلغ الشكوك ، ربما عن غير حق ، فى نوايا روسيا .

ثم ظهرت مسألة الأماكن المقدسة وهى مسألة كانت لها جديتها أو كانت تثير بعبارة أصح عواطف جدية . كانت تنصب على ادارة أماكن الحج فى القدس ولا سيما كنيسة الميلاد فى بيت لحم . وقد دأبت الحكومة التركية على حفظ التوازن بين الدعاوى المتضاربة للاتين أو الروم الكاثوليك من ناحية والأرثوذكس أو المسيحيين اليونانيين والروس من ناحية أخرى . وقد كان للحكومة الفرنسية حق تقليدى يرجع الى زمن الصليبيين فى أن تعتبر حامية للمسيحيين فى الشرق ، ولكن القياصرة بدءوا يتقدمون منذ نمو سلطان روسيا بدعاواهم الخاصة فى هذا الصدد . فكان أن عزز الشعور الدينى الصادق الخصومات القومية والمطامع السياسية ، وأثارت مسألة حيازة مفاتيح كنيسة بيت لحم ووضع نجمة فى مغارة المذود المقدس أشد العواطف تأججا .

على أن العالم لم يكن من الجنون بحيث تسوقه الى الحرب هذه القضايا وحدها فلم يتسم الموقف بالخطورة الا عندما أوفد القيصر الأمير منشيكوف Prince Menschikov — الذى كان من أبرز الشخصيات فى البلاط الروسى — الى القسطنطينية ليطالب لا بامتيازات حول هذه النقاط فحسب وانما بالاعتراف كذلك بما تزعمه روسيا لنفسها من حق اعتبارها حامية لمسيحيى شبه جزيرة البلقان . وقد لعب الدور الرئيسى فى الجانب الآخر اللورد ستراتفورد دى ردكليف Lord Stratford de Redcliffe (أسبغ كان ينج هذا اللقب على ستراتفورد فى ١٨٥٢) . كان ستراتفورد يكره روسيا ويخشاها ، ورغم أنه

كان يرى مواطن ضعف تركيا بجلاء تام فقد كان مصمما على دعم سيادتها واستقلالها ولو أدى ذلك الى الحرب . ولم يتوان عن تحمل جانب كبير من المسئولية بنفسه ، اذ كان الاتصال بلندن يحتاج الى وقت طويل لأن خطوط البرق لم تكن قد امتدت الى القسطنطينية بعد. لقد أقنع السلطان ببذل الترضيات للروس فى مسألة «الأماكن المقدسة» التافهة نسبيا مع التمسك برفض الاعتراف بحماية روسيا لمسيحيى البلقان ، تلك الحماية التى كان من شأنها أن تؤدى حتما الى ضياع استقلال تركيا . فغادر منشيكوف القسطنطينية فى مايو ١٨٥٣ احتجاجا على قرار السلطان ، وتلبد الجو على الفور بغيوم الحرب . ان الرأى القائل بأن الحروب تدور دائما من أجل مصالح اقتصادية لايجد تعزيزا يذكر فى أصول حرب القرم . ذلك أن المطامع والمخاوف والخصومات القومية هى الدوافع التى زجت الأمم فى تلك الحرب التى لن تلبث الأيام أن تظهر مدى عنفها .

كان انسحاب منشيكوف من القسطنطينية خطوة خطيرة الشأن ، وكادت الحرب التى تجمعت نذرها فى الأفق أن تقع فعلا عندما عبر جيش روسى فى يوليو ١٨٥٣ نهر بروث واحتل مولدافيا وولاشيا . واذ كان لا يزال من المستطاع تصوير عمل روسيا بأنه عمل لا يبلغ مبلغ الحرب الفعلية على اعتبار أن لها فى الولايتين حقوقا معينة تكفلها المعاهدات ، فقد بذلت الدبلوماسية محاولة أخيرة لتجنب نشوب القتال. كانت النمسا تتبع مجرى الأحداث باهتمام بالغ لأن الصراع كان قريبا من حدودها وفوق أراض كانت لها فيها مطامع ان لم نقل مطالب . فدعت الى عقد مؤتمر فى فيينا وصيغ فيه اعلان يهدف الى حماية المسيحيين فى البلقان دون الاقرار بحق روسيا فى التدخل . فبزغ الأمل برهة من الزمن فى امكان صيانة السلام . وقد رفضت تركيا قبول التصريح فى شكله البسيط ، أما روسيا فقد قبلته ولكنها أولته تأويلا خطيرا . ومابرحت العواطف تتأجج فى البلدين حتى أعلنت تركيا الحرب

ضد روسيا فى ٤ أكتوبر ١٨٥٣ . ومن الجائز أن اللورد ستراتفورد دى ردكليف قد حاول عبثا وفى آخر لحظة منعهـا من الاقـدام على تلك الخطوة (١) .

فما هى الدول التى ستخوض غمار القتال ؟ لم تكن دول أوروبا لتسمح بأن تدور الحرب ثنائية بين تركيا وروسيا وحدهما فان مصالحها المشتبكة فى الأمر كانت من الضخامة بحيث لا تسمح لها بذلك . وقد راحت النمسا ترقب النزاع عن كثب ، وبدا المرة تلو المرة أنها توشك أن تتدخل ولكنها لم تفعل ذلك قط . أما بروسيا فكانت حانقة، ولكن خذلانها ابان فترة الثورات كان قد أفقدها ثقتها بنفسها . وقد رأى بعض ساستها بما فيهم بسمارك الآخذ نجمه الآن فى الصعود ، أن مثل هذا الموقف الذى يشغل قوات روسيا واهتمام النمسا يتيح فرصـة القيام بدور حاسم هام ، ولكن مليكه أبى أن يتزحزح عن مـوقفه النفور من الدخول فى أية مغامرة ، فلم يكن لبروسـيا على ذلك أثر محسوس فى مجرى الحرب . بل جاء المتحاربون من جهات أبعـد . فسياسة انجلترا الخارجية التقليدية كانت تقـوم على تأييـد تركيـا والغيرة من روسيا معتقدة أن توسع سلطان الأخيرة فى البحر المتوسط من شأنه أن يهدد مصر والطريق الى الهند . وقد ساعد نفوذ بالمرستون والصحافة الانجليزية على اذكاء حمى الحرب فى نفوس الانجليز . أما فرنسا التى كانت حينذاك فى عهد الامبراطورية الجديدة ، فلم يـكن يلعب الرأى العام فيها مثل ذلك الدور الهام ، بل كان كل شىء متوقفا على نابليون الثـالث ، وكان هـذا قد أعلن فى كلمـات لا تنسى أن

(١) يثير مسلك ستراتفورد خلافا كبيرا . فقد شكا ابردين من « عدم أمانته » وأكد البعض انه كان يحث السلطان سرا على الدخول فى الحرب فى الوقت الذى كان يسعى فيـه من الوجهة الرسمية الى ثنائه عن ذلك . ولسنا على يقين من وجود جميع أوراقه السرية ، ولكن تردده فى طلب الأسطول يساعد على تبرئة ساحته .

« الامبراطورية تعني السلم » . على أن هناك عوامل قوية لم تلبث أن زجت به فى غمار تلك الحرب ، ألا وهى حرصه على المحافظة على هيبة فرنسا فى الشرق ، واعتماده على الحزب الكاثوليكى الكنسى فى فرنسا وقبل هذا كله احساسه الفطرى بضرورة منح البلاد ما تتوقعه من سمىّ نابليون — أى المجد والنصر . لقد اجتازت الأساطيل الفرنسية الانجليزية المشتركة الدردنيل فى نهاية أكتوبر ١٨٥٣ اظهارا لتأييد الدولتين الأدبى لتركيا . وبينما كانت هذه الأساطيل على مقربة من القسطنطينية حدث أن هاجم أسطول روسى أسطولا تركيا فدمره بالقرب من سينوب Sinope ، فرأت الدولتان الغربيتان الكبيرتان فى هذا العمل الطبيعى للغاية من أعمال الحرب ، اهانة لهما ، وسرعان ماجاءت الحرب الصريحة ، اذ أعلنتها فرنسا وبريطانيا على روسيا فى مارس ١٨٥٤ . وقد سجل ظهور الجنود الانجليز والفرنسيين حلفاء ورفاقا فى السلاح تحولا عظيما فى السياسة الأوروبية (قيل على سبيل المبالغة انها المرة الأولى التى يحدث فيها ذلك منذ الحروب الصليبية) ويمكن القول بأن تلك كانت بداية « الاتفاق الودى » الذى توطدت أركانه فى أوائل القرن العشرين .

كان الروس قد احتلوا ولايتى الدانوب [1] فغدا الهدف الأول للحلفاء هو اخراجهم منهما . وسرعان ماتحقق ذلك ، بل ان السرعة الفائقة التى تحقق بها هى السر فى أنه لم يعتبر اذ ذاك نصرا عظيما وسببا وجيها بالتالى لانهاء الحرب . اذ كان الروس قد ضربوا الحصار على سيلستريا Silistria على أمل العبور منها الى البلقان وشق طريقهم الى القسطنطينية ، ولكن تحصينها كان أمنع مما كانوا يتوقعون ولما كان موقف النمسا منذرا بالخطر طوال بقاء روسيا على الدانوب ،

---

(١) اى مقاطعتى مولدافيا وولاشيا اللتين تقابلان — على وجه التقريب رومانيا بالصورة التى عرفت بها فى ١٩١٣ ، وكان يحكم كلا منهما حاكم منتخب من الاهالى فى ظل السيطرة التركية ، يلقب بالأمير أو الهوسبودار =

فقد قرر الروس التخلى عن الحصار وانسحبوا كلية من الولايتين ، فأرسلت النمسا حامية للمحافظة عليهما ريثما يتم الصلح فتسلمان الى تركيا . ولولا أن الحرب كانت قد أثارت مشاعر عنيفة فى النفوس لأتى السلم اذ ذاك ، ولكنه كان سيبدو نهاية خاملة لكل تلك الاستعدادات الهائلة . وقد تم الاتفاق بعد تبادل الرسائل مع النمسا على نقاط أربع يتلخص فيها برنامج الحرب ألا وهى :

١ — الغاء الحماية الروسية على الأقاليم الدانوبية .

٢ — حرية الملاحة فى الدانوب .

٣ — اشراك تركيا اشراكا تاما فى « التوازن الأوروبى » .

٤ — تخلى روسيا عن رعايتها المنفردة لمسيحيى البلقان .

لابد اذن أن تستمر الحرب ولكن على أى مسرح ؟ لقد ثبت — كما حدث مرارا من قبل — أن اكتشاف موطن الضعف الحقيقى فى أراضى تلك الدولة الشاسعة المفككة النظام هو أمر من الصعوبة بمكان . ورغم أن الكوليرا كانت قد ظهرت بالفعل فى صفوف الحلفاء وأخذت تحصد الأرواح بصورة مروعة ، ورغم أن الجيوش الانجليزية والفرنسية لم تكن على استعداد كاف للاشتباك فى معركة كبرى ، فقد قررت القيادة — تلبية لالحاح الحكومات — شن الهجوم على قاعدة سباستبول البحرية على ظن أن المهمة ستكون سهلة ميسرة ، وذلك باستخدام قوة الحلفاء البحرية فيؤدى ذلك الى القضاء على السيطرة الروسية فى البحر الأسود ، وهو أحد الأهداف الصريحة التى كان الحلفاء يستهدفونها فى الحرب .

وفى سبتمبر ١٨٥٤ هبطت قوات الحلفاء — وهم الأتراك والفرنسيون والانجليز — فى أوباتوريا Eupatoria شمال سباستبول . فبدأ المارشال سان أرنو Marshal Saint Arnaud واللورد راجلان Lord Raglan

=Hospodar وقد احتلتهما روسيا عسكريا أكثر من مرة منذ بداية القرن التاسع عشر .

زحفهما صوب المدينة نفسها . وفى ٢٠ سبتمبر التقيا بالقائد الروسى منشيكوف الذى كان مرابطا على الضفة الشمالية لنهر ألما Alma وبعد قتال عنيف أظهر فيه « الزواف » الفرنسيون مضاء واندفاعا يقابل أساليب الانجليز الأكثر أناة وتدبيرا ، تحققت هزيمة الروس الكاملة وبات الطريق مفتوحا الى سباستبول . ولعل الخطأ الذى ارتكبه الحلفاء فى تلك اللحظة كان أكبر أخطائهم العديدة ابان تلك الحملة ذلك أنهم لم يهاجموا المدينة على الفور مع أن القائد الروسى تودلبين Tode lben كان يرى أنه أعجز من أن يقاوم مثل هذا الهجوم ، ولا هم بذلوا أية محاولة لاقامة حصار على الضفة الشمالية للنهر الذى تقع عليه سباستبول ، بل شرعوا بدلا من ذلك فى حركة التفاف شاقة طويلة الى جنوب المدينة حيث أقاموا معسكرهم . فما كان من تودلبين الا أن استغل بذكاء وبراعة المهلة التى أتاحوها له ليشيد فى عجلة استحكاماته التى أوقفت المحاصرين عند حدهم من سبتمبر ١٨٥٤ حتى سبتمبر ١٨٥٥ .

وقد تميز الحصار العظيم ببعض الخصائص الفريدة . فهو لم يكن قط حصارا بالمعنى المفهوم . اذ لم تبذل فيه أية محاولة جدية لقطع اتصالات المدينة بروسيا . فرغم أن الهجمات كانت تشن مرارا على المخازن والامدادات الا أن وصول الرجال والمؤن الى سباستبول من روسيا بعد رحلة طويلة شاقة لم ينقطع طوال فترة الحصار . وكان الأمير منشيكوف يرابط على رأس جيش كبير فى المنطقة الجبلية شرقى المدينة ، فراح يهدد من هنالك الجيوش المحاصرة تهديدا متصلا ويشن عليها الهجمات منزلا بها خسائر فادحة أحيانا . كانت خطة الحلفاء تقضى بالاستيلاء على سباستبول لا عن طريق تجويعها وانما بقصفها بالقنابل ثم شن الهجوم المباشر عليها . وكان تفوق الحلفاء البحرى هو الدعامة الأولى التى ارتكز عليها الحصار كله ، ولكن دور البحرية المباشر فى القتال كان ضئيلا ، فلم تستطع أساطيل الحلفاء أن تنزل

بالروس خسائر فادحة بمعنى الكلمة لا فى بحر البلطيق ولا فى البحر الأسود . وقد تم اغراق الأسطول الروسى فى مدخل ميناء سباستبول فباتت أساطيل الحلفاء عاجزة عن دخوله ، وكان مرمى مدفعيتها أقصر من أن يصـل الى المدينة من خارج المدخل ، فعمد الحلفاء الى دك استحكامات تودلبين بمدفعيتهم من الجنوب ثم هاجموا قلاعه المتداعية وراح منشيكوف يرقب الموقف فى تلك الأثنـاء محاولا قطع الحصار من الخارج . كان السؤال البالغ الأهمية هو : هل يتمكن الحلفاء من شق طريقهم الى المدينة أم لا ؟

لم يكن ثمة شك فى تفوقهم العسكرى . فلما حاول منشيكوف فى ٢٣ أكتوبر قطع اتصالهم بقاعدتهم البحرية فى بلاكلافا **Balaclava** تمكنوا من صده ، وان سقطت فى يده طواب هامة وتعين عليهم اختيار طريق جديد يشيدونه بأنفسهم . ولما شن هجوما جديدا على الانجليز فى ٥ نوفمبر فى أنكرمان **Inkerman** تمكنوا بالاشتراك مع حلفائهم الفرنسيين من صده فى النهاية . ولما هاجم فى ١٦ أغسطس ١٨٥٥ الفرنسيين والسردينيين (سنشاهد بعد هنيهة ملابسات دخولهم فى الحرب) رد على أعقابه مرة أخرى بعد قتال عنيف . غير أن هذه الهجمات لم تضع هباء بحال من الأحوال ، فقـد عرقلت الهجـوم على المدينة بصورة جدية وأدت الى تأجيله أكثر من مرة .

وقد وقفت فى طريق الهجـوم صعوبات شتى : فأولا لم يظهـر فى صفوف الحلفـاء أى قائد عظيم . فالقـوات الانجليزية كان يقودها اللورد راجـلان حتى وفاته فى يونيو ١٨٥٥ . وكان قـد حارب فى ووترلو ولعـله كان مسنا الى درجة لا تسمح له بمواجهـة ظروف الحرب الجديدة . وقد خلفـه الجنرال سمبسـون الذى لم يكن يحظى بمثل سمعة سـلفه الطيبة . أما الفرنسيون فكان يقودهم فى البداية سان أرنو الذى كان قد لعب دورا هاما فى الانقـلاب فى بلاده ، ولما اختطفته الكوليرا فى سبتمبر ١٨٥٤ ، خلفه كانروبير Canrobert

أولا ثم بليسييه Pélissier وقد زاد من مشاكل القيادة ماكان يظهر من حين لآخر من تباين فى الأهداف بين الفرنسيين والانجليز ، على أن أحــدا من قواد الحلفاء لم يظهــر نبوغا أو ابتكارا . ولعل « تودلبين » المهندس الروسى المنحــدر من أصل ألمانى هو القــائد الوحيد من الجانبين الذى كسب لنفسه الأعجاب والتقدير . ثم انه كان على الحلفــاء أن يحاربوا عدوين بدا فى وقت من الأوقات أنهما أشد مراسا من الروس ألا وهما المرض والمناخ . فقد ظهرت الكوليرا فى مراحل الحرب الأولى ، ورأى فيها البعض مبررا لمعارضة الذهاب الى القرم أصلا . وقد هاجم الوباء المعسكرات القائمة أمام سباستبول بضراوة مروعة ، ولم يكن أقــل فتكا بالرجال فى ثكنات القــاعدة والمستشفيات . وتعد الطريقة التى راحت تهاجم بها فلورنس نايتنجيل Miss Florence Nightingale ذلك العدو الرهيب حتى قهرته ، تعد من فصول البطولة الفذة فى التاريخ الانجليزى . لقد أنقص المــرض عدد القوات المهاجمة الى حد خطير وأضعف الروح المعنوية فى صفوف القوات التى لم يمسسها . ثم جاء الشــتاء ــ الشتاء الروسى ــ الذى لم تتخذ لمواجهته الاحتياطات . ان الحرب العظمى (الأولى) نفسها لا تقدم لنا فيما قدمت من صور التعاسة والشقاء صوراً أبشع وأكثر اشاعة للانقباض فى النفس من صورة تلك الخنادق المتجمدة والمخيمات البائسة التى خيم عليها شبح الكوليرا فوق المرتفعات القائمة أمام سباستبول ، حتى لقد بدا فى وقت من الأوقات أن استمرار الحصار سيغدو مستحيلا ازاء لعنتى البرد والــكوليرا ، اذ هبط عــدد الانجليز القادرين على القتال حتى وصــل فى وقت من الأوقات الى ١١٫٠٠٠ وقــد كابد الروس أهوالا مماثلة ، بل ربما أهوالا أعظم وأكسبتهم شجاعتهم وقوة احتمالهم اعجاب أعدائهم اعجابا لا يشوبه حقد أو ضغينة .

سار الزحف على سباستبول وسط كل هــذه الصعاب سيرا أبطأ بكثير مما كان متوقعا فى بداية الأمر . ولما أخفق قصف الحلفاء العنيف

المتواصل فى الفتـرة مابين ١٧ و ٣٠ أكتوبر ١٨٥٤ فى زحزحة الروس عن مواقعهم ، أدرك الناس لأول مرة أن الجيوش « انما جاءت لتقضى ثمة فصل الشتاء » .

وقد نشطت الدبلوماسية ابان الشتاء ، وراحت تجاهد لاجتذاب حلفاء جدد فى المعركة ضد روسيا . الا أن النمسا أبت الاستجابة لأى اغراء . وقد عقـدت الدول العظمى مؤتمرا فى فيينا استمر من مارس حتى مايو ١٨٥٥ . وكان القيصر الروسى نيقولا قد توفى أثناء الحصار فخلفه اسكندر الثانى . وقد أوفد هذا الأخير مندوبا عنه الى فيينا وقبلت روسيا اتخاذ « النقاط الأربع » أساسا للمفاوضة ، فبدا فى لحظة من اللحظات أن السـلام قد يأتى فعلا . ولكن الدبلوماسية نادرا ما تجـدى فى وقف القتـال اذا ما بدأت الحرب ، قبل أن يتم تسديد ضربة حاسمة من هذا الجانب أو ذاك ، وهو قول ثبتت صحته هذه المرة أيضا . فلئن كانت النمسا قد رأت أن الترضيات التى أبدى الروس استعدادهم للتنازل عنها كافية ، ورفضت بالتالى الاشتراك فى الحرب ، فان فرنسا وبريطانيا وتركيا قد صممت على مواصلة القتال . وقد عثرت هذه الدول على حليف فى جبهـة لا تخطر على بال . كان كافور فى ذلك الحين وزيرا لمملـكة غريبة الاسـم ، هى « مملـكة سردينيا » . ولم تكن للأراضى الايطالية التى تشملها تلك المملكة أية مصلحة مباشرة فى حرب القرم ، ولكن كافور كان يضع نصب عينيه هدفا أبعد . كان يتمنى أن يرى مليكه على رأس ايطـاليا المتحدة . وقد رأى أن ارسـال القوات السردينية الى القـرم سيعزز مطالب سردينيا فى أن تعتبـر ضمن الدول العظمى ، ويكسبها حقا فى تأييد فرنسا ، ويفسح لممثلها مكانا على مائدة مؤتمر الصلح . فكان أن بعث الى القرم ١٥٫٠٠٠ جندى ايطالى .

وما ان بدأ الشتاء ينجلى حتى عاد الهجوم على القلاع من جديد . وقد تحققت بعض المكاسب وان باء الهجوم المشترك الذى اختير له

موعد يوافق ذكرى معسركة ووترلو (١٨ يونيو) بفشل ذريع كلف الحلفاء كثيراً . وقد أدت وفاة اللورد راجلان فضلا عن الهجوم الذى تعرضت له خطوط الحلفاء وأسفر عن موقعة سرنايا Cernaya ، الى تأجيل موعد الهجوم النهائى . وبعد قصف عنيف بدأ فى ٥ سبتمبر واستمر لمدة ثلاثة أيام (ماكان ليسمى عنيفا لو أنه حدث ابان الحرب العظمى !) افتتح الهجوم فى ٨ سبتمبر . ومع أن الانجليز قد فشلوا فى هجومهم على قلعة ردان Redan ، الا أن الفرنسيين (بقيادة ماكماهون) تمكنوا من الاستيلاء على قلعة ملاكوف ولم يعد من المستطاع طردهم من ذلك الموقع الذى يسيطر على المدينة . فخرج الجيش الروسى منها لينضم الى قوات منشيكوف . ودخل الحلفاء فاستولوا على القلاع والميناء وعدد كبير من المدافع والمستشفيات التى اكتظت بجموع بائسة من الجرحى والمرضى الروس الذين تعذر نقلهم فتركوا ليواجهوا مصيرهم فى أبشع الظروف (٨ سبتمبر ١٨٥٥) .

لم يكن فى سقوط سباستبول ما يستتبع بالضرورة انهاء الحرب . فاستمرت بالفعل ردحا قصيرا من الزمن ، وتمكن الروس فى نهاية المطاف من احراز نصر ما باستيلائهم على قلعة قارص فى آسيا الصغرى من القوات التركية التى يقودها ضباط من الانجليز . الا أن ما كابدته روسيا من خسائر وارهاق مالى قد جعل الصلح أمراً مرغوباً فيه للغاية[1] . ولما كان القيصر الجديد حريصا على منح بلاده السلم فقد تم توجيه الدعوة بوساطة النمسا لعقد مؤتمر فى باريس .

لقد صمدت العلاقات بين بريطانيا العظمى وفرنسا لضغط الحرب على أفضل ما يرام . فلقد ظهرت حقا بعض الخلافات فى الرأى حول

---

(١) من المفارقات الطريفة بين حرب القرم وحرب ١٩١٤ العظمى أن الحكومة الروسية استمرت طول حرب القرم فى دفع الفوائد لحملة سندات القرض الروسى من البريطانيين ، بينما حالت الحكومة البريطانية دون محاولة رغبة المجر دفع الفوائد لحملة السندات البريطانيين فى ١٩١٥ على أساس أن ذلك يعتبر « متاجرة مع العدو » .

سير العمليات ، كما وجهت بعض الانتقادات السياسية ولكن الامر لم يكن بذى بال . على أن الامبراطور الفرنسى قد بدأ يظهــر فتورا فى علاقاته مع انجلترا أثناء مؤتمر الصلح فى باريس متجها بعطفه واعجابه الى الروس أعدائه السابقين . فان مزايا عقد تحالف روسى فرنسى قد بدأت تداعب تفكيره فى تلك الآونة . وقــد دام المؤتمر زهاء ثمانيــة أسابيع .

ولسوف نتناول بالنظــر أولا — وان خرجنــا بذلك عن الترتيب الزمنى — بعض النقاط التى لاتعد ذات صلة مباشرة بالمسألة الشرقية . فأولا أعربت الدول العظمى المشتركة فى المؤتمر — بناء على اقتراح من اللــــورد كلارندن Lord Clarendon عن رغبتهــــا فى أن تلجأ الدول «الى المساعى الحميدة لدولة صديقة عظمى» قبل اللجوء الى الســلاح . فيالها من معالجــة بالغة العقم والتــردد لأعظم المشــاكل الأوروبية جميعا ! على أن الخطوة جديرة بالتسجيل فعلا باعتبارها من المظاهر الدالة على أن مسألة التنظيم الدولى وحكمة اللجوء للتحكيم منعا لقيام الحــرب كانتا قد بدأتا تستوقفان أنظار أوروبا منذ ذلك التاريخ المبكر .

تلا ذلك اصــــدار « التصريح » الخطــير الخاص بالقــــانون البحرى وتنظيم الحرب البحرية الذى وافقت فيه بريطانيا العظمى أخيرا على شروط ظلت تقاومها أمدا طويلا . وتعتبر النقاط التى تضــمنها التصريح من النقــاط القانونية الدقيقة . فقــد ألغى نظام الترخيص للمراكب الفردية بمصــادرة مراكب العــدو Privateering وحظر الاستيلاء على البضائع المحايدة التى يحملها العدو . وقرر أن الحصار « لابد أن يكون فعالا ليكون ملزما » ، فلم يعد من المستطاع تطبيق نظام الحصار العام من النوع الذى أعلنته بريطانيا ضد نابليون .

كانت تلك المحاولة شريفة المقصــد لتنظيم الحرب البحرية وصبغها بالصبغة الانسانية ، غير أن « مهربات الحرب » اصطلاح أثبتت الأيام

مرونته ، وقد تعلم الناس من حربى ١٩١٤ و ١٩٣٩ الشك فى امكان اضفاء الصبغة الانسانية على شىء هو بحكم طبيعته مجرد من الانسانية .

كانت مهمة المؤتمر الحقيقية هى البت فى مستقبل تركيا والحد من تقدم روسيا (أى نفس الشىء ولكن من زاوية أخرى) . ولقد حقق المؤتمر الكثير بالفعل فى هذا المضمار ، وان لم يبلغ مجموع ما حققه مبلغ التسوية النهائية . فقد قرر حيدة البحر الأسود بحيث لا يسمح فيه بظهور سفينة حربية أو اقامة منشآت حربية أو بحرية . كما قرر اغلاق المضيقين فى وجه السفن الحربية الأجنبية ، وأكد المؤتمر استقلال تركيا وأنه ليس لأية دولة من الدول العظمى حق التدخل بين السلطان ورعاياه ، وضمن امتيازات مولدافيا وولاشيا والصرب ولكن تحت سيادة تركيا فى جميع الحالات ، وأحاط المؤتمر علما « بنوايا السلطان الكريمة تجاه رعاياه » دون تفرقة على أساس الدين أو العنصر ، كما قدرما للمقترحات التى ضمنها السلطان أخيرا من « قيمة كبرى » .

وهكذا تم انهاء الحرب وانقاذ تركيا من الهلاك الذى كانت مهددة به بلا جدال . وبات من المنتظر أن تغدو من هذا التاريخ فصاعدا (ان أجدت الديبلوماسية والمعاهدات فى ذلك شيئا) بلدا متحدا مستقلا متسامحا تقدميا ، يلحق سراعا بركب الحياة الدستورية كما عرفها الغرب ويتخلى عن المذابح والفساد وينضم — على قدم المساواة الى سائر أعضاء الجماعة الدولية[1] Comity of nations فلنلق الآن

---

(١) Comity of nations اصطلاح يقصد به اصلا مجموعة قواعد المجاملة الدولية ويستخدم كذلك فى الاشارة الى مجموعة الدول التى تطبق فيما بينها هذه القواعد لذلك آثرنا ترجمته هنا بعبارة «الجماعة الدولية» (المترجم) .

(امكرر) — كان قبول تركيا فى «الجماعة الدولية» عملا جديدا لا نظير له

نظرة الى السنوات القليلة المقبلة لنرى نتائج هذه الخطط كلها .

لم تلبث الآمال التى علقت على الاصلاحات التركية ان خابت جميعا ، فالأتراك لم يكونوا يؤمنون بها ، وقد كانت جموع الشعب تفتقر الى ضبط النفس ومراعاة الغير ، وهما الشيئان اللذان يتوقف عليهما وحدهما نجاح النظم الحرة فى التطبيق ، أما المساواة الدينية فكانت ماسة بالأساس الذى قامت عليه الحياة الاسلامية منذ نشأتها (١) وقد كان السماح للجميع بالدخول على قدم المساواة فى الخدمة العسكرية ضمن الاصلاحات الموعودة ، ولكن معظم الرعايا المسيحيين كانوا ينفرون من الخدمة العسكرية ويؤثرون دفع البدل ، والأتراك

من قبل . وهو يرجع بوضوح الى رغبة كل من فرنسا وبريطانيا والنمسا فى تخليص تركيا من سيطرة روسيا الدينية او تدخلها (راجع الحاشية (١) ص٤٢٢) على أن الدول العظمى ككل قد رأت فى الواقع ضرورة اتخاذ تدابير مدروسة لحماية مصالحها داخل الامبراطورية التركية .

(١) المراجع : هذه العبارة تحتاج الى ايضاح

فأولا : ان تقسيم المجتمع العثمانى الى طوائف دينية أو « ملات » قصد به تنظيم (وضع) كل طائفة بالتزاماتها وحقوقها ومن أهم هذه الحقوق ان تقوم كل طائفة على تدبير شئونها بنفسها دون تدخل من السلطات الحاكمة ، ولهذا فان الطوائف المسيحية كانت تتمتع — فى ظل الحكم العثمانى — بقدر من الحرية أكبر مما كانت تتمتع به فى ظل الحكم البيزنطى .

ثانيا : وقد حفظ هذا اللون من الحكم للطوائف المسيحية كيانها القومى والثقافى ، حتى كان ظهور الروح القومية فى القرن التاسع عشر فوجدت تلك الطوائف الدينية كيانها مصونا ، وعلى أساسه بنت حياتها القومية المستقلة .

ثالثا : ترتب على ذلك اللون من الحكم انه لم يكن ثمة مجال لنزاع دينى يؤدى الى اضطهاد فى الوقت الذى امتلأ فيه التاريخ الأوربى بأحداث الاضطهاد الدينى ، لا ضد المسلمين واليهود فقط ، بل ضد المخالفين للمذهب « المسيحى » الرسمى للدولة ، حتى كان القرن التاسع عشر وشرعت الدول الطامعة فى الدولة العثمانية تثير بدسائسها نزعات التعصب الطائفى، فوقعت المذابح والاضطهادات .

كانوا يرون أن الفوز بنقود هؤلاء أفضل من الفوز بخدماتهم (١) . بل لقد بلغت خيبة الأمل حـدا دفع البعض الى التصريح بعد مضى بضع سنوات بأن الوعد بالاصلاح قد انتهى الى شيء واحد : هو خلق عدد من المناصب الجديدة لا أكثر ولا أقل . أما الاحتجاجات والشكاوى فلم تكن تسفر عن شيء سوى تأكيد المسئولين لحسن نيتهم والوعد باجراء التحقيق اللازم . وفى ١٨٦١ اعتلى عبد العزيز العرش التركى ، فوعد باجراء اصلاحات كثيرة منها خفض المصروفات والقضاء على الفساد واكتفاؤه بزوجة واحـدة . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فلم يلبث السلطان ان أنشأ لنفسه «حريما» قوامه ٩٠٠ زوجة (٢) بما يستتبعه ذلك من تضخم فى مصروفات البلاط . ولقد قال اللورد ستراتفورد «ان تركيا لا يمكن أن تظل طافية على سطح الماء فاما أن تسبح أو تغرق » ولكن السلطان كان يرى فيما يبدو رأيا آخر .

وبينما كانت تركيا تطفـو نحو الهاوية أخـذت القوميات التابعة تنتفض انتفاضات أثارت المتاعب فى كثير من الأحيان لأبنائها وجيرانها فضلا عن حكامهـا . كانت اليونان قد تمتعت حتى تلك الآونة بما يربو على عشرين عاما من « الحـرية » ، ولكنها خيبت الـكثير من الآمال التى علقت عليهـا . وثمة عوامل عديدة كانت تقف ضـدها . فرقعتها كانت صـغيرة ، وحدودها كانت تعرضـها لشتى الأخطار ، وماضيها ووضعها كممثلة لجميع من يلقبـون أنفسهم باليونانيين كانا يجتذبانها نحو مطامع خطيرة . وقد كرس مليكها « أوتو » Otto نفسه للعمل فى اخـلاص بالغ من أجل خير البـلاد ، ولكنه أخفق فى اكتساب تأييد الأمة وولائها . اذ كان الرأى العام اليونانى أميل الى

---

(١) أعيد فى ١٨٦٩ قصر التجنيد صراحة — فى الامبراطورية التركيـة على المسلمين دون غيرهم .

(٢) كذا ! لعل المؤلفين يقصدان «جارية» (المراجع)

الروس منه الى الحلفاء ابان حرب القرم ، فجلب « أوتو » على نفسه كراهية الشعب لرفضــه الاشتراك فى مغامرة طائشة لاعلان التمرد فى الأراضى التركية . وفى ١٨٦٢ نشبت ضده ثورة فى البلاد ، ورغم أنه تمكن من قمع تحــركاتها الأولى فقد ألفى نفســه مضطرا للتنازل عن العرش . وقد خلفه الملك جورج الذى كان ينحدر من أصل دانيمركى . ورغم أن بريطانيا قد أتاحت له ، بنزولها لليونان عن الجزائر الأيونية Ionian Islands فرصا أفضل للنجاح فان مهمته بدت شــائكة للغاية . فالجيوش كانت فى حالة عصيان تقريبا ، وحياة البلاد السياسية كانت أبعد ما تكون عن الاستقرار ، ومشــاعر الشعب كانت تثيرها أبلغ اثارة أنباء المقاومة المســتمرة ضد السلطان فى مختلف أنحــاء ممتلكاته ، والى هذه ينتقل بنا البحث .

أحرز سكان الأقاليم الشمالية الغربية ـــ الصرب والجبل الأسود ـــ تقدما محســوسا نحو الاستقلال . فقــد ضمنت معاهدة باريس حق الصرب فى الحــكم الذاتى تحت سيادة تركيا . وقد ظلت هناك بضع حاميات تركيــة ـــ فى قلاع بلغــراد وغيرها من البلدان ـــ يعيش فى حمايتها عــدد من الأتراك . ولكن الصربيين باتوا مصممين على زيادة الحريات التى كسبوها . وكان معظمهم من الفــلاحين الأشداء الذين يتعيشون أساسا من تربية الخنازير وبيعها ، ويؤلفون خامة عسكرية جيدة تستطيع الاتيــان بشتى أعمــال البطولة والجســارة . على أن فعاليتهم كانت تضعفها المنازعات المحليــة العنيفة وتحفزهم لمتابعــة المشاجرات العائلية بروح الثأر والانتقام ، والتنافس القائم على رئاسة الدولة بين عائلتى أوبرينوفيتش وقره جورجيفتش اللذين ذكرنا طرفا من سيرتهما من قبل . كان اسكندر قره جورجفيتش يحكم الصرب فى زمن حرب القرم ، وقد ظهر للكثيرين من أبناء شعبه بمظهر من ضيع باحجامه الفرصة التى أتاحتها الظروف للاقدام ، كما تعرض لمتاعب جمة

مع شعبه فى أمر ادخال بعض أشكال الحرية الدستورية . وفى ١٨٥٩ استعصت عليه مواجهة الموقف فتنازل عن العرش وطالب « السكوبشتينا » The Skupshtina — وهو الاسم الذى كان يطلق على برلمان الصرب العاصف — برجوع ميلوس أوبرينوفيتش وكان قد مضى على طرده من العرش عشرون عاما . ورغم أن عودته قد تمت بموافقة تركيا فقد أظهر استقلاله عنها باعلانه وراثية حكمه على غير مشيئة السلطان ، فخلفه عند موته فى ١٨٦٠ ابنه ميخائيل . ولقد اعتلى عرش الصرب ملوك أوفر من هذا الأخير بطولة وأكثر رومانطيقية ، ولكن أحدا منهم لم يفقه فيما أحرز من نجاح . فقد نظم الحكومة والجيش وأضفى على الصرب مظهر الدولة الأوروبية المتمدينة . وبذلت فى عهده جهود ضخمة من أجل تعليم الصربيين وتنمية ثقافتهم ، فطهرت اللغة من الشوائب وجمعت الأساطير بعناية لتصبح مبعث فخار للشعب ومصدر الهام للشعور الوطنى . ولكن الأهم من هذا كله — من حيث أغراض هذا الكتاب — أن نلاحظ ما أحرزه شعبه ، بتحقيق جلاء الحاميات التركية ، من تقدم عظيم فى طريق الاستقلال ، فقد بلغ السيل الزبى بوقوع عدد من حوادث قتل الأفراد الصربيين على يد الجنود الأتراك وقصف الأتراك المرابطين بقلعة بلغراد للمدينة ، فنال ميخائيل تأييد الدول الكبرى ، مما أدى فى النهاية الى انسحاب جميع القوات التركية فلم يبق لسلطة تركيا فى الصرب من أثر سوى رفع العلم التركى بجوار العلم الصربى فوق أسوار بلغراد . وقد وضح أن الصرب لن تلبث أن تقدم على خطوة جديدة قبل مضى زمن طويل ، ورأى بعض الدبلوماسيين أن هذه الخطوة ستكون الاندماج فى النمسا أو روسيا ، ولكن الصربيين أنفسهم لم يكونوا فى مزاج يسمح لهم باستبدال سيد بآخر .

أما امارة الجبل الأسود فكان يسكنها شعب وثيق القرابة بالصربيين.

عنصرا ولغة . وقد حافظت هذه الولاية الجبلية الصغيرة على استقلالها عن تركيا دائما ، وان لم يعترف الأتراك قط بهذا الاستقلال كحق لها . وقد حاول الاتراك فى ١٨٥٨ فرض دعاواهم على أهالى الجبل الأسود بالقوة ولكن هؤلاء هزموهم وسط الجبال وأنزلوا بهم خسائر فادحة فى معركة جراهوفو Grahovo التى تستحق أن تدرج فى صف واحد مع معركة ماراثون Marathon ومورجارتن Morgarten باعتبارها عملا من أعظم أعمال البطولة التى قام بها رجال يدافعون عن حريتهم ضد الغزاة . ولكن الخطر التركى ظل ماثلا ، فكان ميخائيل يسعى الى تحقيق اتحاد أوثق بين الصرب والجبل الأسود عندما اغتيل فى ١٨٦٨ . ولقد كان ميخائيل رجلا على قسط وافر من المقدرة والطموح ، وكانت مشروعاته تمتد الى ماوراء الجبل الأسود والصرب وترمى الى تشكيل شكل من أشكال جامعة بلقانية ضد تركيا . فعقد لهذا الغرض معاهدة سرية مع ممثلى البلغاريين الذين كانوا من رعايا تركيا المغلوبين على أمرهم ، وأقام علاقات ديبلوماسية وثيقة مع كل من رومانيا واليونان ، وهذه كلها وقائع ثابتة يمكن القطع بصحتها بالاضافة الى ما يستطيع المرء أن يتوصل اليه بطريق الاستدلال ، الا أن وفاة ميخائيل قد انتهت بهذه المشروعات البعيدة المدى الى لاشىء .

ظل سلطان تركيا ينحسر فى الصرب والجبل الأسود ، شأنه فى كل مكان ، تارة ببطء وأخرى بسرعة حتى مجىء الحرب العظمى الأولى . أما فى ولايتى الدانوب (ملدافيا وولاشيا) فكان الحكم التركى أضعف منه فى الصرب والجبل الأسود نفسيهما ، وقد أصيب فيهما بخيبة مماثلة . اذ نقلت معاهدة باريس الحماية المفروضة على كل منهما — مع الابراز المتعمد لضمير المثنى — من تركيا الى الدول العظمى مجتمعة : وكان الديبلوماسيون يرمون بذلك الى الفصل بين الولايتين بحيث تظلان ضعيفتين ، والى منعهما من تحدى سيادة تركيا . ولكن الشعور

القومى لدى هــذا الشعب الرومانى الغــريب كان قويا رغم تكوينه المتباين وانقسامه الاجتمــاعى الظاهر، فالبون كان شاسعا بين المدن والريف ، والرومانيون الأصليون كانوا يختلفون اختلافا بيناعن الأقلية اليهودية الضخمة ، ولكن الجميع كانوا يتحدثون باللاتينية التى يعد احتفاظهم بها عبر العصور الوسطى أمرا بالغ الغرابة . وقد كانوا جميعا فخورين بحضارتهم اللاتينية يعتبرون أنفسهم ممثلى الثقافة الغربيــة وسط الهمجية السلافية ويسيرون قدر المستطاع على منوال باريس فى أفكارهم الاجتماعيةوالسياسية . ولقد قررتمعاهدة باريسالعملعلى انشاء دولتين منفصلتين لكل منهما دستورها الخاص ،ورفض السلطان السماح للولايتين بالاتحاد تحت اسم رومانيا ، فكان أقصى ما استطاعتا الحصول عليه هو اطلاق اسم « الولايتين المتحدتين » عليهما وتشكيل لجنــة مشتركة لتنظيم الشئون التى تعنيهما معا . ولــكن الرومانيين استطاعوا التحايل على تحقيق مطلبهم رغم أنف تركيا وأوروبا . اذ كان على كل ولاية أن تختار رئيسها أو « هسبودارها »،فاختارتالولايتان رجلا واحدا هو نبيل مولدافى اتخذ لنفسه لقب « اسكندر الأول أمير رومانيا » وأعلن قيام الأمة الرومانية وتوحيــد البرلمانين . ونظــرا لانشغال أوروبا بمسائل أخرى فى تلك اللحظة تم قبول الأمر الواقع ، وغدت بوخارست عاصمة رومانيا المتحدة . وقد أثبت الحاكم الجديد أنه من أعظم حكام البلقان . فقد راح يتابع الأحداث فى الغرب ولاسيما فى فرنسا ، عن كثب ، ويرسم سياسته ـــ فيما هو واضح ـــ على غرار سياسة نابليون الثالث ، بل ان طريقته فى تنفيــذها تحمل أيضا بعض الشبه « بالانقلاب » الذى دبره الأخير فى فرنسا . وقد اقترنت باسمه ثلاثة تدابير كبرى : أولها أنه لاحظ أن الأديرة تملك نسبة ضخمة من أراضى رومانيا ، فعمد بسلسلةمن الاجراءات الى تحويلهذه الأراضى كلها تقريبا الى أغراض مدنية ، ومنح رومانيا فى الوقت نفسه قــدرا كبيرا من الاستقلال الدينى.وثانيها اجراءاته الخاصة بحيازة الأراضى،

وقد قوبلت اقتراحاته الأولى فى هذا الصدد بمقاومة من البرلمان ، فما كان منه الا أن طرد الأعضاء بالقـوة وطلب من الشعب أن يختـار فى استفتاء عام بينه وبين البرلمان فأيدته فى الاستفتاء أغلبية تثير لضخامتها الشبهات هى ٦٨٢٫٠٠٠ صـوتا ضد ١٫٠٠٠ فقط فعمد الى تمليك الأراضى للفلاحين على نطاق واسع ، كما حررهم فى الوقت نفسه من الأعباء « الاقطاعيـة » التى ظلوا يدفعونها حتى تلك الآونة . فـكان العمل الذى حققه أشبه بما حققته الثورة الفرنسية ولكن دون أراقة دماء . أما ثالث هذه التدابير الكبرى وآخرها فهو اصـداره لقانون التعليم المجانى الالزامى ، وما زالت رومانيا الحديثة تستند حتى يومنا هذا الى الأساس الذى وضعه .

ولكن المدن لم تستسغ مابدا لها من استئثار الريف بجل اهتمامه ، وحنقت عليه طبقة الأشراف أشد الحنق لقضائه على امتيازاتها ، وراح رجال الدين ينظرون الى معالجته المستبدة للمسائل الكنسية نظرتهم الى انتهاك صارخ للحرمات المقدسة . فكان أن دبرت ضده ثورة ـــ فى البلقان تصنع الثورات بسهولة لا يكاد يوجد لها نظير فى أى مكان آخر ـــ انتهت بتنازله عن العرش عندما ألفى قواته قد تخلت عنه . وقد جد المتآمرون فى البحث عن أمير أجنبى ، فوجـدوا بغيتهم فى شخص الأمير شارل هوهنزلرن سيجمارنجن Prince Charles of Hohenzollern Sigmaringem الذى كـــان ينتمى الى أسرة ملك بروسيا وان جمعته صلات القربى بنابليون الثالث كذلك وحظى بتأييده (١) . وقد قبل ، استجابة لنصيحة بسمارك ، العرش المعروض عليه . وأذيع أن ٦٨٥٫٠٠٠ صوتوا له فى الاستفتاء مقابل ٢٢٤ ضده . لقد كان وجود هوهنزلرنى على عرش رومانيا أمرا هاما ابان حـرب

---

(١) خالع اسكندر الاول (كوزا Cuza) فى فبراير ١٨٦٦ واختير شارل فى مايو .

١٨٦٦ ، وقد يليق بنا أن نشير هنا الى أن شقيقه ليوبولد هو الذى لعب دورا بارزا جدا فى الأحداث التى أدت الى الحرب الفرنسية البروسية عام ١٨٧٠ . ولا حاجة بنا لأن نتابع أحداث البلقان بأكثر مما فعلنا ، وحسبنا أن نقول انه لم يعد ثمة احتمال كبير فى أن تعود تركيا الى احتلال مركزها السابق كالدولة المعترف لها بالسيادة الفعلية على شبه جزيرة البلقان . اذ أن أقاليم البلقان قد أخذت تنفصل عن الحكم التركى اقليما بعد آخر ، ولم تلبث عدوى الانفصال أن انتقلت من شبه الجزيرة الى سائر العناصر والأقاليم فى خارجها .

الفصل السادس عشر
بعث ايطاليا وتحقق الوحدة الإيطالية

لم يلبث قول نابليون الثالث ان الامبراطورية تعني السلم أن تعرض لامتحان جديد . وفي هذه المرة أيضا تعد آراء الامبراطور ومصالحه الشخصية مسئولة الى حد بعيد عن نشوب الأعمال الحربيـة التي ساقت جيوش فرنسا ثانية الى تلك الساحة الشهيرة من ساحات القتال ألا وهي شمال ايطاليا . وهذه الحرب الجديدة تختلف من عدة أوجه اختلافا بينا عن حرب القرم ، فقد حسمتها معركتان هامتان ، ولم تسبب نزاعا طويلا كذلك الذي سببته حرب الخنادق الطويلة حول سباستبول. وهي فوق هذا كله أول حرب تدور بصراحة حول مبدأ القومية الذي أصبح الطابع الجديد المميز للمشكلات الدولية في القرن التاسع عشر . فالقومية هي الكلمة التي باتت توقد الحماسة في النفوس والتي تعلق بها العصر تعلقا كاد يصل الى حد الخرافة . وهي تعد من ناحية استمرارا وتكملة للعملية التي كانت تسري منذ عصر الاصلاح الديني ، فقـد تراجعت كافة المؤسسات التي تمثلت فيها الوحدة الانسانية الى المؤخرة أو سقطت (زالت الامبراطورية وفقدت الكنيسة نفوذها السـياسي القديم) وغدت الدولة هي الوحدة التنظيمية التي لها كل الأهمية ، ولم تعد تعترف بأية سيادة تعلو سيادتها أو تقر بأي حد لسلطانها . على أنه بازدياد أهمية الدولة وسلطانها تجلت أهمية النظر في الأساس الذي يرتكز عليه هذا السلطان . كانت الحـركة الدستورية التي تزعمتها انجلترا قد بلغت من العمر ما يربو على مائتي عام وأحرزت انتصارات كبرى . فقد انتشرت الدعوة الى تحقيق الوحدة بين الدولة والشعب وقيام مشاركة ايجابية بين الحكومة والأهالي ، ونالت هـذه

الدعوة الاعتراف والتأييد فى أحوال كثيرة . فنشأت عن ذلك قضية جديدة : ماهى الصفات التى ينبغى توفرها فى الشعب كى يؤلف دولة؟ وهل تعد أية مجموعة من الأفراد مهيأة لحياة الدولة ؟ لقد صحا الناس على وعى واحساس جديدبمعنىالقومية.وتجلى هذا الوعىوالاحساس الجديد أقوى ماتجلى لا بين تلك الأمم التى فازت من قبل بقدر موفور من الاستقلال القومى والوحدة مثل الفرنسيين أوالانجليز أو الأسبان، وانما بين تلك الأمم التى لم تظفر بعد بدولة قومية والتى ألفت نفسها نتيجة للتطور التاريخى ، مختلطة بأمم أو قوميــات أخرى فى نفس الدولة .

أثبت الشعور القومى قوته فى شبه جزيرة البلقان على غموضـــه البادى فى كثير من الحالات . وبلغ هذا الشعور مبلغ العاطفة الدينية لدى أعداد هائلة من البولنديين . وكان له شأن كبير فى اخفاق الوحدة بين هولندة وبلجيكا . على أن البلدين اللذين أسفر فيهمـــا هـــذا الشعور عن أبرز النتائج السياسية والعسكرية هما ألمانيا وايطاليا . كانت ألمانيا قد جزئت ثم جزئت أجزاؤها مرارا منذ العصور الوسطى . ولم يكن تكوينها الغامض الذى يضم التشيكيين وبعض البولنديين وعناصر أخرى غير ألمانية بالذى يرضى الرغبة القومية فى الوحدة . أما ايطاليا فكانت حالتها أسوأ من ذلك وأدهى . اذ كانت قد فازت بقدر موفور من الوحدة القومية فى ظل نابليون فلم تنس تلك التجربة ، ولكنها أصبحت توصم اعتبارا من ١٨١٥ بأنها مجـــرد « اصـــطلاح جغرافى » وآلت السيطرة عليها من جديد الى الأباطرة النمساويين . ولقد شاهدنا كيف انتهت الى الفشل ــ أو الفشل الظاهرى على الأقل ــ المحاولات التى بذلتها فى ١٨٤٨ ، ولكن هذا الفشل لم يؤد الى اخماد الاحساس القومى بل لعله قد عززه وأحياه . كانت هناك حقـــا فروق ضخمة بين سكان شبه الجزيرة من حيث العنصر والطباع،فثمة بون شاسع من اللغة والتطور التاريخى بين اللومباردى والصقلى .

الا أن القومية — الأمر الذى أصبح واضحا لنا الآن — هى مسألة شعور أكثر منها مسألة حقيقة موضوعية . وهنا يجدر بنا أن نشير الى عظمة شعوب ايطاليا السالفة والى الذكريات الباهتة لأيام الامبراطورية الرومانية وأشعار دانتى وفنون عصر النهضة وعلومه بوصفها جميعا من الأشياء التى ساعدت على بقاء الشعور بأن الايطاليين انما يؤلفون شعبا عظيما واحدا ، فكل مامن شأنه اثارة كبرياء الايطاليين الوطنى قد ساهم فى تعزيز رغبتهم فى أن تكون لهم دولتهم الخاصة بهم . ولكن تأثير مازينى يفوق فى أهميته كل تأثير آخر على العقل الايطالى . فالدعوة الى القومية الايطالية لم تكن عنده وعند أتباعه مسألة نابعة من التحليل والمنطق وانما من الايمان الدافق الذى يكاد يبلغ مبلغ العقيدة الدينية . ولقد كان قيام ايطاليا المتحدة الحرة الديمقراطية الجمهورية هو الهدف الأوحد الذى طغى على كل ماعداه فى نفسه والمثل الأعلى الذى مابرح ينادى طوال حياته بضرورة السعى اليه بكل الوسائل ومهما كان الثمن . وقد تمسك بكل نقطة من نقاط برنامجه هذا ، فلم يكن ارساء دعائم الديموقراطية فى ايطاليا واقامة الجمهورية فى ربوعها بأقل أهمية فى نظره من تحقيق وحدتها وحريتها . ولم يكن ليستطيع أن يروض نفسه على قبول هبة الوحدة والحرية من يد الامبراطور أو ملك سردينيا . ولا يفوتنا أن نضيف الى ذلك أنه قد استطاع أن يمتد ببصره الى ماوراء القومية ، ليحلم بانتظام أمم أوروبا الحرة طواعية واختيارا فى رباط أعظم هدفه التعاون السلمى .

وقد بدت أحلامه هذه بل أية أحلام أخرى غايتها قيام الوحدة الايطالية ، أبعد ماتكون عن التحقيق فى منتصف القرن . فقد عادت النمسا لتتحكم من جديد بعناد وحماقة بل وفى كثير من الأحوال بقسوة مبعثها الخوف . ولم يقتصر حكمها على أملاكها الخاصة فى سهل لومبارديا ، فدوقيات الوسط باتت خاضعة هى الأخرى لنفوذها ، والبابا أنشأ يتطلع الآن اليها بحثا عن العطف الصادق بدلا من فرنسا ،

أما ملك نابولى فقد أظهر من قبل مدى اعتماده على فيينا . واذا كان استرضاء النمسا للأهالى الخاضعين لها أمرا عسيرا على كل حال فانها لم تبذل أية محاولة جدية فى هذا السبيل . وقد حدث أن أنيط الاشراف على لومبارديا فى ١٨٥٧ الى « مكسمليان » ، شقيق الامبراطور فرنسيس جوزيف الأصغر ، الذى سيلعب دورا مفجعا للغاية فى المكسيك فيما بعد . وكان مكسمليان يعطف عطفا حقيقيا على الأفكار المتحررة ، فقام بمحاولة صادقة لاصلاح الادارة ، ولكن فيينا لم تلبث أن تبرأت من أعماله وشددت التنكيل ماليا وعسكريا على البنادقة وأهالى ميلانو أكثر من ذى قبل .

ولقد ولدت من مملكة سردينيا ايطاليا الحرة المتحدة . نشأت هذه المملكة الغريبة الاسم فى جبال سافوى ، أما قوتها الحقيقية فكانت تكمن فى الوديان العليا لنهر ألبو وفى بيدمونت . ولم تكن مملكة ايطاليا خالصة ، وقد انتهجت فى الماضى سياسة ضيقة الأفق قوامها الحرص على مصلحة بيتها المالك دون غيرها . ولم يكن فى تاريخها أو تاريخ بيتها المالك حتى مجىء ثورات ١٨٤٨ ثمة ما يرشحها لتكون حاملة لواء الحرية والوحدة الايطالية ، ولكنها أرست دعائم عظمتها المقبلة بانضمامها فى ١٨٤٨ الى ميلانو فى مقاومة النمسا ، وقبل كل شىء بمنحها شعبها دستورا تحرريا بمعنى الكلمة . ولما تولى فكتور عمانويل عرشها بعد شارل ألبرت بذلت المحاولات الضخمة لاغرائه بسحب الدستور وحكم الولاية حكما مستبدا ، فأجاب عليها بقوله « لسوف أرفع العلم المثلث الألوان عاليا وبيد ثابتة » . والى هذا التصميم يرجع الفضل فى فوزه بعرش ايطاليا المتحدة . فقد اختار أن يقف فى صف ايطاليا وفى صف الحرية ونأى بنفسه عن كل صلة بالنمسا وأهدافها ، فنال جزاءه الحق .

وسيظل اسمه دائما مقترنا أوثق الاقتران باسم كافور الذى بدأ « وزارته الكبرى » عام ١٨٥٢ . كان الكونت كافور ابنا لنبيل

بيدمونتي شديد الولاء للمبادىء الاستبدادية .وكان أبوه يعده لخدمة الجيش الا أنه اعتنق منــذ باكورة شبابه آراء تحــررية متقدمة ، وهجر الجيش . وقد ســافر كثيرا ودرس الحياة السياسية فى كل من فرنسا وانجلترا بعناية خاصــة . وقامر وخسر جانبا كبيرا من ميراثه على موائد اللعب . وبدا فى وقت من الأوقات أنه يوشك أن يتخلى تماما عن فكرة الاشتغال بالسياسة ليتفرغ لزراعة ضياع أبيه ، الا أن العمل السياسى لم يلبث أن ناداه من جــديد فلبى النداء . وقد أظهر أثناء عضــويته فى البرلمان السردينى معــرفة واسعة بشئون أوروبا السياســية واستبشارا عظيما بمستقبل بيدمونت وايطــاليا . وراح يعلن أن رسالة دولة سردينيا هى « أن تجمع حولها كل القوى الحية فى ايطاليا وتقود وطننا الى المصير السامى الذى ينتظره » وطفق يشير فى استحسان الى ما أقــدم عليه ساسة انجلترا من ترضــيات لمطالب شعبهم ، داعيا الى اتباع سياسة الثقة فى الشعب بوصفها آمن سياسة . وكانت بعض التدابير قد اتخذت فى بيدمونت قبل صعوده الى الحكم للحد من الامتيازات القانونية والماليــة للكنيسة . فلما أصبح رئيسا للوزراء فى ١٨٥٢ بعد أن تولى منصبا ثانويا فى ١٨٥٠ كان حل الأديرة من أول التدابير التى اتخذها . وقد فاز لنفسه بصيت ذائع بوصــفه من دعاة التحرر بالمعنى الذى كانت تستخدم به هذه الكلمة فى ذلك الحين ، وقد كان صادقا حقا فى ميوله التحررية ، الا أنه كرس نفسه لقضية القومية الايطالية قبل غيرها . وكانت غايته هى نفس غاية مازينى بل نفس غاية أغلب عظمــاء الايطاليين منذ أمد طويل ، ألا وهو قيام ايطاليا الحرة المتحدة . ولكن السمة التى كانت تنفرد بها سياسته هى الواقعية[1] وادراك الصعوبات العملية التى تنطوى عليهــا المشكلة .

---

(١) كانت الواقعية هى الطــابع الغالب على سياسة كافور كلها . وقد كان يعطف أشــد العطف على الآراء الانجليزية فى الشئون المالية والادارية

فهو لم يكن يؤمن بأن ايطــاليا تستطيع بلوغ هدفهــا بمفــردها أو بالحماسة وحدها ، فراح يبحث عن الحلفــاء مستخدما فى ذلك كافة أساليب الديبلوماسية الحاذقة التى لا يقف فى طريقها وازع . وقد جلب على نفسه بأساليبه التى كان ميالا لاستخدامها عداوة مازينى الشديدة فلم يكن مازينى يعترف له حتى بصفة الأمانة وكان يحلو له أن يسميه «المحرر المستوزر الذى يرشد سيده الى السبيل لمنع وحدة ايطاليا» . ثم ان مازينى لم يكن يؤمن حتى بجدوى خططه من الوجهة العملية ، ولو فرض أنهــا كانت مجدية فانه كان أميل الى استنكارها بوصفها استبدالا للمادية بالمثالية والدين ، وللخيانة بالديموقراطية ، وهبوطا بالحركة كلها الى مستوى أدنى ، ولم يجد النجاح فتيلا حين واتاه ، لقد كان مازينى يحلم بدنيا جديدة فلم يقدم له كافور سوى الدنيــا القديمة ذاتها فى شكل جديد .

وقد هيأت حرب القرم الفرصــة لكافور ليضرب ضربة من ضرباته لديبلوماســية الموفقة . لم يكن لايطاليــا حقا أية مصلحة فى النزاع القائم بين روسيا والحلفــاء ، ولكن أعداء روسيا كانوا فى مسيس الحاجة الى العــون والتأييد ، فاذا دخلت سردينيا الحرب الى جانبهم ظهرت بمظهــر الدولة الأوربية الهــامة وأصبح لها حق الجلوس فى المؤتمر الذى يتولى وضع شروط الصلح وربمــا اعادة رسم خريطة أوروبا كلهــا . وعلى ذلك توجه الجنــود السردينيون الى القرم ، وحاربوا بنجاح مرموق فى معركة سرنايا **Cernaya** مثبتين بذلك أن الهزيمة التى منى بها الايطــاليون فى معركة نوفارا لم يكن مردها الى عجز فى طبيعتهم عن القتال . وقد قال أحد العسكريين البيدمونتيين

بالصورة التى طبقت عليها فى عهد السير روبرت بيل **Sir Robert Peel** وينبغى ألا نسمح للشــهرة الدائمة التى نالتها سياسته الخارجية بأن تنسينا برنامجه للاصلاح الداخلى بما تضمنه من تحسينــات كبرى فى النواحى المالية والادارية .

يومذاك « ان ايطاليا ســوف تصنع من هذا الطين » (طين خنــادق سباستبول) . وهــذه الكلمات تعبر أفصح تعبير عن هــدف كافور الأساسي . وقد أتاح مؤتمر باريس لكافور بالفعل الفرصــة التي كان يتمناها للمجاهرة بشكاوى ايطاليا . وقد نال تأييدا حارا من كلارندون وزير الخارجيــة الانجليزية ، واستمع المؤتمر لبيان رسمي عن سوء الحكم في ايطاليا جنوبا وشــمالا وعن الأخطار الدولية الناشئة عن ذلك . وهــكذا أصبحت سردينيا جزءا معتــرفا به من نسيج أوروبا الديبلوماسي . ولقد كانت المهمــة التي كرس لها كافور حياته ووقف عليها دهاءه هي اعادة تشكيل ذلك النسيج بحيث تدخله ايطاليا الحرة المتحدة .

ولم يكن كافور يعتد كثيرا بعبارة Italia farà da sè (ان ايطاليا ستتولى أمرها بنفسها) التي تباهي بها البعض في فترة سابقة ، اذ كان له في الأمر رأى قاطع هــو أن ايطاليا اذ تتولى الأمر بنفسها لن تتمكن من بلوغ الهــدف المنشود ، فجعل شــغله الشاغل كسب محالفة فرنسا لايطاليا في كفاحها . وكان نابليون الثالث قد عرف في شبابه طرفا من الحركة الثورية في ايطاليا . وقد اجتذبه الى صف كافور عطفه الصادق على مبدأ القومية الذي ما برح يدعو له في اخــلاص . ولكن الأمر اقتضى كل دهاء كافور وحنكته لتحويل هــذا العطف المبهم الى عمل محدود والحيلولة دون تراجع نابليون عندما تجلت أخطار المهمة .

وفي ينــاير ١٨٥٨ وقع اعتــداء القيت فيه القنــابل على نابليون والامبراطورة بينما كانا في طريقهما الى دار الأوبرا . وقد نجوا من الحادث ولكنه أسفر عن قتل واصابة كثيرين . واعتقل على أثره عدد من الايطاليين ومالبث التحقيق أن كشف أن اليد الأولى في المؤامرة لايطالي يدعى أورسيني . ورغم أن هذا كان على صلة وثيقة بمازيني في يوم من الأيام فقد تعذر اثبات عطف مازيني على محاولة الاغتيال . وقد أعلن أورسيني أنه انما أقدم على فعلته لاعتقــاده أن نابليون قد خان قضية

ايطاليا ، وكتب من سجنه رسالتين الى الامبراطور يناشده فيهما العمل على تحرير ايطاليا ، وكانت صيحته الأخيرة من فوق خشبة المقصلة « لتحيا ايطاليا ! » . وبدلا من أن تؤدى تلك الأحداث الى ابعاد نابليون عن قضية ايطاليا نراها قد أدت — على مافى ذلك من غرابة بادية — الى زيادة قربه منها ، وما لبث أن اتخذ فى يونيو ١٨٥٨ الخطوة التى تعد حاسمة بمعنى الكلمة .

كان نابليون ميالا الى ابقاء دفة الشئون الخارجية فى يديه والتصرف فى بعض الأحيان دون علم وزرائه المسئولين . فبعث برسالة الى كافور عن طريق مصدر من مصادره الخاصة يبلغه فيها أنه يزمع قضاء الصيف فى بلومبيير Plombières وأنه يسره أن يراه هناك . فأدرك كافور لتوه ما يكمن وراء هذه الدعوة البسيطة المظهر من أمور جليلة ، وكتب الى أحد أصدقائه يقول « ان الدراما تقترب من ذروتها » . وتم اجتماعه بالامبراطور يومى ٢١ و ٢٢ يوليو حيث أجريا محادثات طويلة فى قصر نابليون أولا ثم فى نزهة طويلة حول المدينة قاد فيها نابليون العربة بنفسه . كانت الحرب هى هدف المتآمرين . (فقد كانا فى الحقيقة متآمرين مهما يكن من مثالية أهدافهما) . وقد وعدت فرنسا بتأييد سردينيا فى حرب ضد النمسا على شرط أن يتولى كافور ايجاد الذريعة التى تبرر مسلك فرنسا فى نظر أوروبا ، وفى هذه الحرب يتم طرد النمساويين من شبه الجزيرة الايطالية ، فيؤلف الشمال مملكة ايطالية برئاسة فكتور عمانويل ، ثم ترتبط البلاد كلها بعد ذلك برباط اتحادى يرأسه البابا . كان كافور يعلم حق العلم أنه لن يتمكن من بلوغ هذه النتيجة دون سيف فرنسا ونابليون . فماذا عساه أن يكون الثمن ؟ لا مراء فى أن نابليون سيرحب بخدمة قضية يؤمن بها ايمانا صادقا ، وفى أنه سيفوز بمكانة عظيمة تدعم عرشه وذلك أمر له أهميته البالغة . ولكن هل تراه يكتفى بذلك ؟ لقد طلب أيضا جزءا ماديا هو التنازل لفرنسا عن سافوى ونيس (سافوى مهد

البيت المالك والدولة السردينية ، ونيس مسقط رأس غاريبالدى !)
وموافقة فكتور عمانويل على تزويج ابنته البالغة من العمر ستة عشر ربيعا الى ابن عمه الأمير نابليون . ولن يلبث المستقبل أن يثبت مدى مافى اصراره على هذه الشروط أو أى شروط أخرى من مجافاة للحكمة والسداد . فلربما كان بوسعه أن يتحاشى كارثة ١٨٧٠ لو لم يسىء الى مشاعر الايطاليين الذين ساهم مساهمة كبرى فى تحقيق حريتهم . ولكن علينا أن نذكر أنه كان مضطرا لتبرير مسلكه أمام الفرنسيين لا أمام الايطاليين وحدهم .

لقد فاز كافور اذن بالوعد الذى كان يصبو اليه بدخول فرنسا الحرب الى جانبه ، وبقى عليه أن يشعل تلك الحرب على نحو تبدو معه كأنها عمل عدوانى من جانب النمسا ، وقد توفرت لديه مرارا أثناء سعيه لتحقيق تلك الغاية أسباب للشكوى من الامبراطور شريكه فى المؤامرة ، ذلك أن الفتور كان يعقب نوبات الحماسة دائما عند نابليون . وقد سارت الأمور على ما يرام حتى نهاية ١٨٥٨ فقد وقعت فى ديسمبر من تلك السنة معاهدة سرية بين فرنسا وسردينيا سميت حلفا دفاعيا ، وتقرر فيها أن تقدم فرنسا لحليفتها فى حالة الحرب ٢٠٠٫٠٠٠ رجل وأن تعمل على اجلاء النمسا عن ايطاليا . فأحس كافور بالثقة والطمأنينة ، وكتب يقول « لقد وضعنا النمسا فى مأزق لن تستطيع الافلات منه دون اطلاق المدافع » . وعم الانفعال شمال ايطاليا ، وراح الناس يهتفون لفكتور عمانويل ومملكة ايطاليا وينادون « فلتحيا الحرب ! » .

ورغم هذا فقد مرت خلال الشهور التالية لحظات بدا فيها أن فرصة الحرب تكاد أن تفلت من يد كافور . فمع أن نابليون قد صرح للسفير النمساوى فى عيد رأس السنة أنه يأسف لأن « علاقاته بالامبراطورية النمساوية لم تعد طيبة كسابق عهدها » ومع أن كتيبا صدر بموافقته بعنوان « نابليون وايطاليا » ينادى من جديد بمبدأ

بالقومية مشيرا الى انطباقه على المانيا وايطاليا جميعا ، فان الحماسة للحرب لم تظهر فى فرنسا اللهم الا فى صفوف الجيش نفسه ، بينما راحت بريطانيا — وروسيا الى حد أقل — تدعو الى تسوية المشكلة الايطالية بوساطة مؤتمر أوروبى . ولما كان عقد مثل هذا المؤتمر من « الافكار » التى نادى بها نابليون من قبل فقد تعذر عليه أن يرفض النظر فى أمره ، ولم تستقر ارادته على حال مما حدا بكافور الى اليأس . وبدا فى لحظة من اللحظات أن السلم بات محققا ، فقال كافور « لم يعد أمامى الا اطلاق الرصاص على نفسى » . ثم وقع فى تلك الآونة حادث مازال يحيط بأسبابه الكثير من الغموض . ولعل النمسا كانت قد سئمت التسويفات الطويلة ، ولعلها قد تلقت من آيات الولاء من أنحاء مختلفة من ممتلكاتها ماشجعها على سلوك المسلك الذى سلكته . ومهما يكن من أمر فقد وجهت انذارا نهائيا الى تورين تطالبها بنزع سلاحها « فى غضون ثلاثة أيام » ، وأرسلت فى ١٩ أبريل ١٨٥٩ قواتها الى بيدمونت . ولا نكاد نجد مغامرا عسكريا أو حاكما مستبدا رحب بنشوب حرب بمثل الحماسة التى أبداها يومذاك كافور الذى كان مدنيا وسياسيا برلمانيا يستند سلطانه كله الى التأييد الشعبى والنظام الديموقراطى . لقد صاح قائلا « ان الزهر قد ألقى والتاريخ قد صنع » . ورغم أن الامبراطور النمساوى أعلن أنه انما يحارب من أجل « حقوق كافة الشعوب والدول ومن أجل أقدس النعم التى وهبتها البشرية » فقد ساد الشعور بأنه هو الذى خرق السلم . وسرعان مانادى برلمان بيدمونت بفكتور عمانويل دكتاتورا على البلاد وبدأت الحرب .

وقد أثارت الحرب الايطالية اهتمام معظم الدول العظمى فى أوروبا . وكثر الحديث عن التدخل ، وراح الناس يتساءلون فى قلق عن الموقف الذى تزمع اتخاذه كل من بريطانيا وروسيا . ولكن الموقف الذى كان أجدر بالتساؤل فى الحقيقة هو موقف المانيا وبروسيا . فالنمسا كانت

تعد ، رغم تعدد أجناس سكانها ، دولة المانيـة أولا وقبل كل شيء ، وكانت تقف على رأس الاتحـاد الألماني فلم يكن متوقعا من بروسيا رغم شـكاواها من النمسا أن ترى هزيمـة جيوشها على يد القوات الفرنسية والايطالية دون أن تحرك ساكنا . وعلى هذا وضع الجيشان الاتحـادي والبروسي على أهبـة الاستعداد للحرب ، ولم تتمكن الديبلوماسية النمساوية بادىء الأمر من اغرائها بالمضي الى أبعـد من هذا الحد ولكن احتمال التدخل الألماني أو البروسي ظل ماثلا على أية حال أمام نابليون الثالث وكان له أكبر الأثر على تصرفاته .

ومهما يكن من أمر فقـد تعين على الجيوش النمساوية أن تتحمل عبء هجـوم الأعداء وحدها ودون حلفاء . وقد أظهـر العسكريون النمساويون شجاعة حميدة ، وفاز أحد القواد وهو الجنرال «بنيدك» Benedek بسـمعة طيبـة لحسن ادارته لدفة القتـال . الا أن جيشه كان يتألف من خليط من أبنـاء قوميات مختلفة لا تشعر بأن لها مصلحة في القضية التي يدور من أجلها القتال ، والمناصب العليا فيه كانت مقصـورة على النبلاء . ومع أن الجيوش الفرنسية قد تأخرت في دخول ايطـاليا عما كان متوقعـا فان الموقف هناك كان في صالح القضية الوطنية الى أبعد حد . فقد عمت الهبات التلقائية شمال ايطاليا . فثار الأهالي في أراضي مودينا ، وطـردت بارما حاكمها . كما قامت حركات بالغة الأهمية في توسكانا وعاصمتها فلورنسة ، ذلك أن بيت لورين Lorraine الذي خلف آل ميدتشي the Medicis في القرن الثامن عشر لم يكن قد ضرب لنفسه جذورا عميقةفي الأرض ، فعقدت فلورنسة اجتماعات شعبية كبرى تردد فيها الهتاف « للحرب والاستقلال وفكتور عمانويل » ، وناشـد الأهالي ملك سردينيا أن يقبل تنصيبه ديكتاتورا عسـكريا على توسكانا . ومع هذا كله فاننا نستطيع أن نرى في هذا الموقف أول بادرة من بوادر تلك الصـعاب التي قضت فيما بعد على شعبية نابليون الثالث لدى الايطاليين . ولعلهم

قد أساءوا فهمه ، ولكنهم بدأوا يظنون الظنون على أية حال فى حماسته لاندماج توسكانيا فى مملكة سردينيا ، وأخذت الشكوك تساورهم فى أنه يبيت لتلك البلاد نوايا أخرى ، ويحلم برؤية الأمير جيروم وقد ارتقى عرش الدوقية على نحو ما . وقد امتدت الحماسة للقضية الوطنية جنوبا حالما أحرزت القوات المتحالفة انتصاراتها الأولى: فطردت القوات البابوية من رومانا Romagna والمفوضيات the Legations وترددت هتافات الأهالى للوحدة مع ايطاليا ولفكتور عمانويل . ولئن كان الأمل قد تبدد فى انضمام بيوس التاسع للقضية الوطنية فقد بذلت المحاولات لاجتذاب نابولى — أو « الصقليتين » اذا شئنا أن نسميها باسمها الصحيح — الى تلك القضية اذ كان فرديناند الثانى قد توفى لتوه فسعى الوطنيون الى كسب ابنه فرنسيس الثانى ، على أن جهودهم ذهبت أدراج الرياح ، فقد أصر الملك الشاب الذى كان متزوجا بشقيقة امبراطورة النمسا على التمسك بسياسة أبيه رغم ما أبداه بعض الوزراء والأهالى من عطفه على القضية .

ورغم أن نابليون الثالث قد استشار جومينى Jomini الذى كان من قواد نابليون الأول فى أمر الخطة التى يتبعها فى القتال فانه لم يكن قد استقر على رأى نهائى عند وصوله الى الميدان ، ولم تنم قيادته للحملة عن أية موهبة بارزة . وقد أظهر النمساويون ترددا لا يقل عن تردده ، وتباطأت قواتهم فى دخول المعركة ، وكان قائدهم الأعلى هو الكونت جيلاى Count Gyulai الذى يدين — فيما يعتقد — بترقيته الى هذا المنصب متخطيا من هم أقدر منه لصلاته بالبلاط . أما فى الجانب الايطالى فقد تركزت الأبصار على « صيادى الألب » قبل سواهم ، وهم جماعة رائعة من المحاربين غير النظاميين ضمت أكثر الوطنيين حماسة فى ايطاليا ، ويقودهم غاريبالدى الذى أضحى الرأى العام يعتبره ملحمة نابضة من ملاحم الوطنية وأسطورة

حية من أساطير الجسارة والاقدام . على أن نابليون لم يكن يضمر له حبا ، ولعله كان بوسعه أن ينتفع من مواهبـــه العظيمة على نحو أكمل مما فعل . وقد أبدى غاريبالدى عندما أخذت القوات المتحالفة تتقدم فى أراضى ميلانو ، نشاطا طيبا فى الميسرة وسط سفوح الألب ، ولكن عبء القتال الأكبر وقع على كاهل الفرنسيين ، ومن الواضح — دون اقلال من شأن شـــجاعة الجيش الايطـــالى واخلاصه الفـــائقين — ان القضية الوطنية كانت ستصادف متاعب جمة لولا مؤازرة الجيـــوش الفرنسية لها . ولعل الحكمة كانت تقتضى من النمساويين أن يتبعوا الرأى القائل بوجوب اتخاذ موقف الدفاع وراء حصون « الرباعى » الشهير ، ولكنهم آثروا الدفاع عن أراضى دوقيـــة ميلانو ، فكان أن اشتبكوا مع أعدائهم فى معركتين كبريين تقرر فيهما مصير الحرب . ففى ٤ يونيو دارت معركة ماجنتا **Magenta** وبعد قتال عنيف وقع عبؤه على عاتق الفرنسيين وحدهم تقريبا هزم النمساويون ولكنهم لم يتفرقوا بل عمـــدوا الى التقهقر صوب « الرباعى » . على أن الغلبة صارت من جديد للرأى المنادى بالاقدام ، فالتحم الفريقان مرة أخرى فى ٢٤ يونيو فى معركة أضخم من ماجنتا عند سولفرينو **Solferino** المتاخمة جنوبا لبحيرة جاردا كان النزال دمويا مهلـــكا . وقد أحرز الفرنسيون والايطاليـــون نصرا كاملا فى الوسط والميمنة ، وصـــمد النمساويون فى ميمنتهم بقيادة بنيديك فى شجاعة واصرار فلم ينسحبوا الا عندما تأكدت خســـارة المعركة فى جبهات الميدان الأخرى . وبلغت خسائر الجانبين عدة آلاف ، وزادت الأنباء الواردة عن عجز الأجهزة الطبية عن مواجهة الموقف من بشاعة الصورة التى ارتسمت فى الأذهان عن المعركة وكانت سببا فى ظهور فكرة الصليب الأحمر .

واذا كانت النمسا قد منيت فى سولفرينو بهزيمـــة فادحة جدا فان الضربة التى تلقتها لم تكن تعد من الشدة بحيث تحسم القتال كله .

ومع ذلك فان القتـــال قد توقف بالفعل عند هـــذا الحد نتيجة لمسلك نابليون الثالث . فما هي دوافعه ؟

كانت الحـــرب نصرا عظيما له . وعام ١٨٦٠ قد شاهد ذروة قوته وسمعته في أوروبا . فقـــد وصفه الكثيرون بالبراعة الدبلوماســية الخارقة ، وخيل اليهم أنه سوف يبني لنفسه سلطانا في أوروبا لا يقل عن سلطان نابليون الأول . فهو قد تمكن في حرب القـــرم من صد سلطان روســـيا وتثبيت أقدام تركيا من جـــديد ، وها هو ذا يسحق النمسا ويدعو ايطاليا الحـــرة الى الخروج الى حيز الوجـــود . وقد استقبل عند دخوله ميلانو بعد معركة ماجنتا بآيات التمجيد ومظاهر الترحيب التي لم يحظ بمثلهـــا الا فاتحون قلائل . فلقيتـــه الجماهير المتحمسة « محررنا ومخلصنا وراعينا » ونثرت نســـاء ميلانو الزهور في طريقه . وقد ضاعفت كلماته من تلك الحماسة . اذ قال انه لن يفعل شيئا « لفـــرض مشيئته على شعب ايطاليـــا » وأهاب بالايطاليين أن « اغتنموا الفرصة السعيدة السانحة أمامكم ، فان حلمكم بالاستقلال يوشك أن يتحقق اذا برهنتم على جدارتكم به ، فلتتحدوا في مجهود عظيم واحد لتحرير بلادكم » .

وقد استنشق نابليون البخور الذي أحرق له بغبطة لا خفاء فيها . على أن حماسة الايطاليين لم تلبث أن تبدلت شـــكا وسرعان ما انقلب امتنانهم نفورا . ولقد كان نابليون دائمـــا مغامرا حالما تعوزه القدرة على تمييز الممكن من غير الممكن ، تلك القـــدرة التي تعد من ألزم لوازم السياسي المحنك . فـــكان خياله يصـــور له مشاهد رائعـــة وانتصارات مجيدة وان لم يرشده قط الى الطريق السوي لتحقيقها . ونحن نراه طوال حياته يقدم ثم يحجم تحدوه الرغبة في بلوغ الهدف ويثنيه الخوف من الوسيلة التي لا مفر لبلوغه من اللجوء اليها .

وقد توفرت لديه وسط أمجاد الحملة الايطالية أسباب كثيرة للقلق . اذ كان للمجد ثمن لابد أن يدفعه . وقد تركت المجزرة التي شاهدتها

ساحة القتال فى سولفرينو انطباعا عميقا فى مخيلته . ثم انه قد تبين أن قياد الأيطاليين ليس بالسهولة التى كان يتصـــورها . فقد انهارت كل الخطط التى رسمها لمستقبل توســـكانا ازاء اصرار التوسكانيين على أن يكونوا ســادة مصيرهم ، وهو لم يكن فوق هذا كله جنديا قديرا رغم الاسم الذى يحمله ، وانما كانت ملـــكاته تكمن فى اتجـــاه آخر : فى قدرته على تكوين ائتلافات دبلوماســـية غير متوقعة ، وفى قوة تأثيره على مخائل الرجال . لقد كانت لديه اذن أســـباب وجيهة للرغبة فى انهاء الحـــرب ، ولكن خوفه من العاصـــفة التى توشك أن تهب عليه من المانيا كان سببا أقوى من كل ما تقدم . فرغم أن بروسيا كانت على خصومة مريرة مع النمسا ، فانها لم تكن لتستطيع أن تنظر بعين الرضا الى اذلال دولة المانية على يد فرنسا وايطاليا . وكان جيشها قد وضع من قبـــل على أهبة الاستعداد للحـــرب ، فسارعت الآن الى تعبئة جميع قواتهـــا والمطالبة بمنحها قيـــادة الجيش الألمانى ، ودعت بريطانيا وروسيا للانضـــمام اليها فى عرض الوساطة على المتحاربين . فبدا جليا أن الجيوش الفرنسية قد تلزم قبل مضى وقت طويل لحماية حدود الراين .

وعلى هـــذا وطد نابليون العزم على انهاء الحرب ، وراح يتصرف فى سعيه الى تحقيق تلك الغاية ــ كعادته ــ تصرفا أقرب الى تصرف المتآمر منـــه الى تصرف رجـــل الدولة . فبينما كان الجميع يتوقعون تجدد القتال ، أوفد نابليون الجنرال فليرى Fleury فى بعثة خاصة الى مقر قيادة الامبراطور النمساوى فرنسيس جوزيف ليقترح عليه عقد هـــدنة تمهيدا للصلح . فأبدى العاهل النمسوى استعدادا طيبا لتلقى عروضه . ذلك أن الخسائر التى تكبدها جيشه كانت فادحة ولكن هذه لم تكن السبب الوحيد . فالمجر كانت تنـــذر بالثورة والحاجة تدعو الى توفير القوات اللازمة لقمعها . ثم ان احتمال تدخل بروسيا لم يكن ملائما بالمرة للدبلوماسية النمساوية لما سيصحبه حتما

من تنازلات لبروسنيا فى المانيا لم يكن فرنسيس جوزيف راغبا فى القيام بها بحال . وعلى هذا اجتمع الامبراطور النمساوى بنابليون فى فيلافرانكا Villafranca وسرعان ما وضعت مقدمات الصلح[1] . وقد تم الاتفاق على تسليم لومباردیا الى نابليون ليتولى تسليمها بدوره الى فكتور عمانويل ، وعلى تأييد فرنسا والنمسا بعد ذلك لقيام اتحاد ایطالی برئاسة البابا الأسمية ، واستمرار تبعية البندقية للنمسا مع اشتراكها فى الاتحاد الايطالى وعودة حكام مودينا وبارما وتوسكانا الى مناصبهم ، وحث البابا على ادخال الاصلاحات فى الأراضى التابعة له ، وعقد اجتماع يضم ممثلى جميع الدول المعنية لاقرار هذه المقترحات وتطويرها .

ونحن نعلم أن تلك الخاتمة كانت بداية لاستقلال ايطاليا ووحدتها وأن البناء لم يلبث أن اكتمل بسرعة فائقة . ولكن الأمر بدا فى نظر الكثيرين من الايطاليين اذ ذاك وكافور قبل سواه ، خيانة لقضيتهم وقضاء على آمالهم وانكارا لحريتهم ووحدتهم المنشودتين . وغلب اليأس على كافور فقال « لن يأتى هذا السلم بشىء . ولسوف أنقلب متآمرا ثوريا ولا تنفذ هذه المعاهدة » . واستقال من رئاسة الوزارة بعد مشهد عاصف مع مليكه . ولكن سرعان ما لاح له الأمل من جديد ، اذ وقعت فى وسط ايطاليا أحداث مدهشة .

فلم يكن الأهالى فى توسكانيا ومودينا وبارما ورومانا على استعداد للسماح للامبراطورين بتسليمهم الى حكامهم القدماء من جديد . وقد كان بينهم نفر من القادة الوطنيين الذين أبلوا بلاء حسنا فى خدمة القضية وان طغت شهرة كافور وغاريبالدى ومازينى على شهرتهم . فقد رفع فارينى Farini صديق كافور الحميم ، راية القومية عاليا

---

(١) وقعت الهدنة فى ٨ يوليو واعقبها توقيع مقدمات الصلح فى فيلافرانكا فى ١١ يوليو دون استشارة سردينيا .

فى مودنيا وبارما . ولعب ريكازولى Ricasoli فى توسكانا دورا أهم وأبرز . فكان أن أصدرت الجمعية النيابية فى فلورنسة بيانا باجماع الأصوات أعلنت فيه « رغبة توسكانيا فى أن تصبح جزءا من دولة ايطالية قوية تحت الحكم الدستورى لفيكتور عمانويل » (أغسطس ١٨٥٩) . فأبدى فكتور عمانويل عطفه على هذه الرغبة وأشاد « بالمثل الرائع » الذى ضربته توسكانيا فى «الاعتدال والوحدة» قائلا انه سيعرض مطالبها فى المؤتمر القادم . وبنفس القوة طالبت بارما ومودينا وبولونا بالاتحاد مع مملكة فيكتور عمانويل ، فلم يسعه فى البداية الا الاعراب عن عطفه ليس الا ، وقد أحبطت معارضة نابليون الاقتراح الداعى الى تعيين أمير من بيت سافوى وصيا على أراضى ايطاليا الوسطى .

ومالبثت الأيام أن أكدت صعوبة تحقيق المشروعات التى تضمنتها مقدمات الصلح الموقعة فى فيلا فرانكا . فلقد اجتمع ممثلو فرنسا والنمسا وسردينيا فى زيورخ ، وألحقت لومبارديا بسردينيا ، ولكن البابا لم يبد أقل استعداد للقيام بالدور المرسوم له فى تشكيل الاتحاد الايطالى ، واستمرت القلاقل فى ولايات ايطاليا الوسطى تنذر بالخطر ، فاتجهت النية الى احالة تسوية هذه المسائل الى مؤتمر آخر يعقد فى باريس ويضم الموقعين على صلح فيينا . ولكن هذا المؤتمر لم ينعقد قط . فقد رفض البابا الاشتراك فيه بأى حال من الأحوال بعد أن صدر فى فرنسا بموافقة الامبراطور كتيب يعلن وجوب انقاص أراضيه الى أقل حد ممكن ، وأبدت النمسا معارضة لاتقل عن معارضته ، فلم يعد ثمة مفر من التخلى عن فكرة عقد المؤتمر .

ولم يبق كافور خارج الحكم طويلا . اذ عاد الى رئاسة الوزارة فى يناير ١٨٦٠ وقد مارس حتى من قبل عودته نفوذا كبيرا على مجريات الأمور . وقد راح يسعى الى تسوية مسألة ايطاليا الوسطى عن طريق المفاوضة السرية مع نابليون مباشرة . ونحن نذكر أن نابليون كان قد

طالب بادئ الأمر بسافوى ونيس ثمنا لتحالفه مع سردينيا ، ولكنه لم يعمد الى المطالبة بسداد هذا الثمن لأنه لم يف بنصيبه من الصفقة . فاذا آلت الآن دوقيات الوسط الى فيكتور عمانويل حق له أن يفعل ذلك . ورغم أن النزول عن سافوى ونيس يعد ضربة مروعة لمشاعر الايطاليين فقد استقر رأى كافور على ضرورة اتمامه ، وتم الاتفاق على اتباع طريقة نابليون المفضلة وذلك باجراء استفتاءات فى كل من ايطاليا وفرنسا . وقد فازت الوحدة مع مملكة فيكتور عمانويل بأغلبية هائلة فى توسكانيا وبما يشبه الاجماع فى سائر الجهات . ورغم أن اسم المملكة الرسمى كان لايزال « سردينيا » فقد باتت تعرف باسم « ايطاليا » وأظهرت تصميما على اثبات جدارتها بهذا الاسم . ثم جاء دور التصويت فى سافوى ونيس . ففاز مبدأ الانضمام الى فرنسا فوزا كاملا الى حد يبعث على الريبة ، اذ أعلنت سافوى بأغلبية ١٣٠ر٥٣٨ صوتا ضد ٢٣٥ فقط ، ونيس بأغلبية ٢٤ر٤٤٨ ضد ١٦٠ فقط ، رغبتهما فى الانضمام للامبراطورية الفرنسية ، فبدا انتصار نابليون فى تلك اللحظة أعظم من انتصار كافور . ولكنه فقد فى الواقع امتنان الايطاليين الذين باتوا يشعرون أنه تقاضى الثمن ، وياله من ثمن جزاء الخدمات التى أداها . وقد اتسم تنفيذ حركة اندماج أقاليم ايطاليا الوسطى فى ايطاليا المتحدة (اذ من الجلى أن سردينيا لم تكن سوى خطوة أولى نحو تكوين ايطاليا) بالهدوء وضبط النفس والوقار رغم الحماسة الدافقة البادية فى كل مكان . فبدا أن الطبع السياسى للجمهورية الرومانية القديمة قد عاد للظهور فى ايطاليا الجديدة التى أنشأها فيكتور عمانويل وكافور .

لقد فازت هذه السلسلة العجيبة من الأحداث لايطاليا المتحدة بقاعدة راسخة فى شمال شبه الجزيرة ووسطها ، ولكن هذه القاعدة لم تكن تمثل الا مايزيد قليلا على نصف شبه الجزيرة كلها ، وبقى أن تضم كل من البندقية وروما ومملكة نابولى الى أراضى ايطاليا الحرة

حتى يتم تحقيق حلم الوحدة القومية المنشودة . كان البـابا بيوس التاسع قد تخلى عن كل أثر من آثار ميوله التحررية السابقة ، وبات يطلق الآن على الاتجاهات التحررية والقومية والديمقراطيـة كلمـة « الثورة » ، ويعتبرها خطرا على الكاثوليكية لايعدله الاخطر الاسلام فى العصور الوسطى ، ولكن أهالى الولايات البابوية كانوا متبرمين ، وقد أبدى جانب كبير منهم عطفهم على الآراء التى انتصرت فىالشمال. أما فى نابولى فقد ارتقى العرش فرنسيس الثانى كما ذكرنا من قبل فى ١٨٥٩ ، ولم يكن طاغية قاسيا مجردا من كل عطف على الآراءالجديدة، ولكنه ورث مهمة تستعصى فى أغلب الظن على أى حاكم مهمـا تكن مقدرته . ومن العسير علينا بصفة خاصة أن نتفهم ظروف مملكة نابولى وصقلية ، فثمة فوارق كبرى فى الطباع بين الأهـالى هناك وأقرانهم فى شمال أوروبا . فجمهرة الشعب فى الجنوب كانوا من الأميين غير المتعلمين الذين لم يبدوا الا أقل الاهتمام بالثـورة السياسـية التى تجتاح البلاد . وسلطان الكنيسة على النفوس كان عظيما جدا ، فكان الأهالى متعلقين برسومها وعقائدها تعلقا صادقا وان لم يصدر عن وعى والجمعيات السرية ــ ولا سيما جمعية كامورا Camorra الشهيرةــ كانت مصدر خطر دائم يعرقل اقامة مجتمع يحترم القانون . وكانأحد وزراء الملك الرئيسيين على اتصال وثيق بتلك الجمعية ، فجاء انحيازه الى صف الغزاة عاملا حاسما فى الصراع . على أن ثمة قطاعا منالسكان كان لا يقل فى حماسته للحرية الايطالية عن سكان لومبارديياوتوسكانيا ومهما يكن من أمر فان تفسير الصقليين للحرية والوحدة ظل ردحا من الزمن أمرا بعيدا عن الوضوح كل البعد . فلم يكن مؤكدا بحال أنهم سيرضون بضـياع استقلال نابولى وصقلية واندماجهما فى مملـكة سردينيا ، حتى لو اتخذت الأخيرة لنفسها اسم ايطاليا ، فقد كان ثمـة حزب قوى يرغب فى قيام شكل من أشكال الاستقلال الذاتى .

وقد أصبح التآمر والتمرد سمتين ثابتتين من سمات الموقف فى تلك

المملكة الجنوبية ، وقد شجعهما ايما تشجيع نجاح الوطنيين فى الشمال. وكان الملك فرنسيس مدركا للخطر المحدق به ، فراح يفكر فى امكان اجراء اصلاحات ترضى المشاعر القومية لشعبه . ولـكن غاريبالدى سبق بالهبوط فى أرض صقلية قبل أن يتخذ فرنسيس أية خطوة جدية فى هذا السبيل . وبهبوطه بدأت أعظم وأنجح مغامرة شاهدتها أوروبا فى القرن التاسع عشر . ويتعين علينا لكى نجد شبيها لها أن نعـود القهقرى الى مغامرات روبرت جيزسكار Robert Guiscard النورماندى فى نفس البقعة تقريبا أو الى حملة كورتيز على المكسيك فى مطلـع القرن السادس عشر . انها تعد حقا قصة مذهلة من قصص البطـولة والتآمر . وقد استحوذ غاريبالدى على أنظار أوروبا كلها وما زال يستأثر باهتمام كل من يقرأ تاريخ تلك الفترة . فان الشجاعة والبراعة اللتين أظهرهما فى قيادته لقواته غير النظامية ، وحماسته النبيلة لقضية ايطاليا ، وبساطة طبعه وسمو خلقه ؛ كل هذه قد أنطبعت على أحداث تلك السنوات بنفس الوضوح الذى انطبع به قصوره السياسى وجهله بالكثير من القـوى التى كانت تهيمن على العالم الأوروبى فى ذلك الزمان . وكان على صلة ضعيفة بمازينى الذى رأى فى هذه الحركات الجنوبية فرصة لاقامة ايطاليا الحرة المتحدة على أساس مختلف عن ذلك الأساس الملكى الدستورى الذى انتصر فى الشمال . فقـد كان مازينى يأمـل فى رؤية « الله والشـعب » ترتفع فى مواجهـة راية ايطاليا وفيكتور عمانويل ، ويحلم بانشاء نظام جمهورى أو على الأقل بداية لذلك النظام فى الجنوب . ولما تحقق النصر للوحدة الايطاليـة جاءت فى صورة بعيدة كل البعد عن تلك التى كان ينشدها مازينى ، حتى أنه أعلن أن عينه « لن تقر بعد اليوم فى ايطاليا ، فقد قتلت تلك البـلاد روحى بازدرائها لكل المثل العليا » . ولقـد اجتذب سيف غاريبالدى المصقول أنظار الناس جميعا ، فلم يكد أحد يذكر فى تلك الآونة الأهمية البالغة لمسلك كافور وحكومة مملكة سردينيا (كان

هـذا لا يزال اسمها الرسمى) . على أن انضمام نابولى وصقلية جاء ثمرة لجهود كافور مثلما جاء ثمرة لجهود غاريبالدى . فقد علم كافور بأمره قبل وقوعه ، وذكر لغاريبالدى أنه « عندما يكون الأمر أمر مشروعات من هذا القبيل فان أحدا لن يسبق الكونت كافور اليها مهما تكن جسارتها » . ولم يكن غاريبالدى يرتاح قط الى العمل مع كافور ، بل كان يبغضه ويرتاب فيه كل الريبة ، ولكن ضرورة الحصول على تأييده قد تجلت فى كل فصل من فصول الرواية المجيدة . وقد منحه كافور هذا التأييد بشجاعة ودون أن يشعر فى ذلك بأى حرج . فلم يعرف عن الديبلوماسية أنها استخدمت الألفاظ المزدوجة المعانى وانصاف الحقائق بل والأكاذيب الصريحة بصورة أبرع من تلك التى استخدمها بها كافور . ان وحدة ايطاليا التى طالما حلم بها دانتى قد تحققت ولكنها أنجزت ، ولا سيما فى طورها الأخير ، بروح مكيافيللى (١) .

وفى ٥ مايو ١٨٦٠ غادر غاريبالدى ميناء جنوة بسفينتين و ١١٣٦ متطوعا وزعت عليهم أثناء الرحلة القمصان الحمراء التى قدر لها بطريق الصدفة المحضة أن تنال كل تلك الشهرة الذائعة فى أوروبا . وفى ١١ مايو نزل مع رجاله الى البر فى مارسالا Marsala . ولم تكن هذه العصبة الصغيرة كفوا بطبيعة الحال لمنازلة الحاميات الملكية فى صقلية ، فأضحى كل شىء متوقفا على نوع التأثير الذى يحدثه غاريبالدى على مخيلة الصقليين ولهذا لم يعد ثمة جدوى للتبصر والحذر ، وانما أصبحت الشجاعة المتهورة أسمى مراتب الحكمة ، تلك الشجاعة

---

(١) فى ١٨٧٠ هنأ السياسى الاسبانى كاستلر Castelar راتازى Rattazzi خليفة كافور ، على انجاز الوحدة الايطالية التى « لم يتمكن سافونا رولا من تحقيقها بالتضحية بنفسه فى سبيل الله ، ولا مكيافيللى بمنح نفسه للشيطان ! » . أما كافور فلم يمنح نفسه لاحد وانما احسن الاستفادة من الدين والدنيا معا .

المتهورة التى كان غاريبالدى يتمتع منهـا بأوفر نصيب . شرع على الفور فى الزحف على بالرمو ، التى كانت المقر الرئيسى لحكومة نابولى ، والفضل فى النصر العجيب الذى أحرزه خارج بالرمو واستيلائه بعد ذلك على المدينة نفسها انما يرجع الى براعة قيادته وشجاعة رجاله وتأييد الصقليين وما أبداه لانزا Lanza قائد حامية بالرمو من ضعف مزر ، كما يرجع الى شىء من حسن الحظ والتوفيق العجيب . وقد حدد هذا النصر الأول مصير القتال فى صقلية ، وسرعان ما ألفى الملك فرنسيس نفسه بلا أعوان هناك خارج حصن مسيينا . ولكن غاريبالدى لم يلبث أن وطد العزم على تسديد ضربة أجرأ وأشد جسارة ، ذلك أن أحداث صقلية أثارت حركات مشابهة فى نابولى ، وراح القوميون هناك يناشدون غاريبالدى العون . أما فكتور عمانويل فقد نهاه عن اجتياز المضيق ، وان أوحى له فى الوقت نفسه بالعبارات التى يستخدمها ، لرفض أوامره . نزل غاريبالدى فى أقصى الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة ، ومن هناك زحف على نابولى مارا بمناطق مهيأة بطبيعتها للمقاومة ، دون أن يصادف فيها أدنى مقاومة . لقد خان الملك فرنسيس الكثير من وزرائه وجنوده ولم يبق على الولاء الصادق له أحد تقريبا . فما كان منه الا أن غادر نابولى قاصدا جايتا فى ٦ سبتمبر فدخلها غاريبالدى فى اليوم التالى وبلغت حماسة الشعب حدالهوس . اذ كان انتصار المحرر ذى القميص الأحمر خارقا حقا ، وقد تقبله فى تواضع جم وبساطة عظيمة . أما نهاية القصة فتختلف اختلافا بينا عن بدايتها . فقد حل الدبلوماسى محل الجندى مما يمنعنا من مواصلة سردها على أنها مجرد ملحمة من ملاحم البطولة .

لقد تتبع كافور ما حدث فى صقلية ونابولى بمزيج من الغبطة والقلق . فلئن كان سقوط عرش الملك البوربونى قد أدخل السرور الى قلبه فانه كان حريصا كل الحرص على تبين الوضع الجديد الذى

سيحل محل ذلك العرش . حقــا ان غاريبالدى ما برح يعلن أنه انما يعمل باسم ايطــاليا وفكتور عمانويل ، ولكن تفســيره العملى لهذا الشعار لم يكن قاطعا بحال . فقــد رفض أن يعلن على الفور انضمام صقلية الى مملكة سردينيا ، ولعله كان ثمــة اعتبارات عسكرية بررت ذلك . ومهما يكن من أمر فان المستقبل لم يكن قد اتضح بعد بصورة مؤكدة . فمازينى وأتباعه كانوا يعملون من أجــل اقامة جمهورية . وثمة حزب قوى كان يرغب فى منح نابولى وصقلية مركزا مستقلا نوعا ما داخل ايطاليا الحرة المتحدة . وقد ظل هنالك بعض الاحتمال فى أن يسترد أنصار الملــكية البوربونية قواهم ، فقد ظــل الملك فرنسيس صامدا فى جايتا ، وأخذت خيبة الأمل التى لم يكن ثمة مفر من أن تأتى فى أعقاب الحرية ، تمده ببعض التأييد . ولم يكن كافور يثق بقدرة غاريبالدى الذهنية على معالجة الموقف ، فبدا له أن الأوان قد آن كى يأخذ مليكه دورا صريحا فى الرواية التى ما برح يمارس فيهــا نفوذا بالغ الأهمية وان يكن مستترا . كما رأى أن الفرصــة ليست متاحة فقط لانجاز تســوية مستقبل نابولى وانما ليضيف أيضا الى أراضى ايطاليا جانبا على الأقل من الأراضى البــابوية التى طالما تطلعت اليها الأبصار .

وقد أحس بيوس التاسع بالخطــر الداهم ، اذ أن بوادر الثورة كانت قد بدأت فى الـ « مارش » (١) وفى أومبريا Umbria . وكانت الحكومة البابوية قد أخفقت تماما فى كسب تأييد الأهالى منذ أحداث ١٨٤٩ . الا أن الجيش البــابوى كان قــد زيد عددا وأدخلت عليــه تحسينات كبــيرة . وكان يتألف من رجــال جاءوا من بلاد مختلفــة ولاسيما فرنسا وأيرلندة وبلجيكا ، وكان يقــوده الجنرال لاموريسيير Lamoriciére الذى كان قد أبلى بلاء حســنا فى خــدمة الجيش الفرنسى . ثم ان الحــكومة البابوية كانت تحظى بالاعتراف العــام

(١) the Marches وهى منطقة فى وسط ايطاليا متاخمة للأدرياتيكى وتقع بين آبروزى abruzzi واميليا Emilia (المترجم)

بوصفها جزءا من النظام الدولى فى أوروبا ، فكان من العسير ايجاد مبرر مقبول لمهاجمتها . ومهما يكن من أمر فقد أعلن كافور فى رسالة وجهها الى بيوس التاسع أن ملك سردينيا يجد لزاما عليه « من أجل الانسانية » أن يمنع قوات البابوية من اخماد الحركات الشعبية فى اومبريا بالقوة . (قال كافور فى مناسبة أخرى :« لو فعلنا من أجل أنفسنا ما نفعله من أجل بلادنا لكنا أوغادا أى أوغاد ! »). وبهذه الذريعة دخل الجيش الايطالى الولايات البابوية حيث دحر الجيش البابوى فى كاستلفيداردو Castelfidardo بعد قتال مشرف لقوات الجنرال لاموريسيير . ثم واصلت قوات فيكتور عمانويل الزحف الى أراضى نابولى حيث آلت اليها السلطة التى ظل يمارسها ، حتى ذلك الحين ، غاريبالدى بوصفه ديكتاتورا على البلاد . وقد أعلن غاريبالدى بادىء الأمر أنه لا يثق بكافور وأنه يعلن الانضمام الى مملكة فكتور عمانويل حتى يتم ضم روما ، وبدا ثمة خطر وقوع صدام بين القمصان الحمر والقوات النظامية . ولكن هذا الخطر لم يلبث أن تبدد . وقد أرغم الملك فرنسيس على التخلى عن جايتا والانسحاب الى روما . وقابل غاريبالدى فيكتور عمانويل فشكره الأخير بحرارة على كل ما فعله ، بيد أنه رفض كل جزاء مظهرا بذلك نكرانا للذات يكاد أن يكون منقطع النظير ، وآثر الانزواء فى بيته بجزيرة كابريرا Caprera ثم أجريت الاستفتاءات فى نابولى وصقلية والاراضى البابوية التى ضمت مؤخرا ، فأعلن الأهالى بالأغلبيات الساحقة المألوفة رغبتهم فى الانضمام فورا الى « مملكة فكتور عمانويل الدستورية » .

واجتمع أول برلمان ايطالى فى تورينو فى فبراير ١٨٦١ . وفى مارس صدر مرسوم دستورى جديد يتألف من مادة واحدة : « يتخذ فكتور عمانويل الثانى لنفسه ولخلفائه من بعده لقب ملك ايطاليا » . لقد تحقق أعز أحلام الحرية فى أوروبا . ولسوف نرى فيما بعد كيف تم انضمام البندقية الى أراضى ايطاليا فى ١٨٦٦ وروما فى ١٨٧٠ .

الفصل السابع عشر
تطور الامبراطورية الفرنسية

اضطرنا الحديث عن حرب القرم وأحداث ايطاليا الى ذكر الكثير عن نابليون الثالث وسياسته الخارجية . وسوف نحاول هنا أن نتتبع تطور تاريخ فرنسا الداخلي حتى عام ١٨٦٦ .

كان نابليون الثالث مغامرا استولى على السلطة بالعنف منتهكا بذلك الدستور الذى أقسم يمين الولاء له . وما برحت ذكرى الانقلاب عالقة به « كالثقل الحديدى العالق برسغ المذنب » ، ولكن حكمه نال فى سنواته الأولى تأييد عناصر ضخمة قوية من المجتمع الفرنسى . وما فتىء أهالى الريف يمنحونه تأييدهم المتصل حتى سقوطه . وقد رأت فيه الطبقات المشتغلة بشئون المال – فى ميادين الصناعة والتجارة والبورصة – خط دفاعها ضد الاشتراكية والارهاب الأحمر . ونظر اليه الحزب الكاثوليكى – الذى يشكل عنصرا هاما فى الحياة السياسية الفرنسية – بعين الرضا الصريح فى البداية . وهكذا بدأت تجربته فى الحكم بداية ميمونة ، ولو دام نجاحها لتركت أثرا عظيما على التفكير السياسى الأوروبى وتطور النظم السياسية .

وقد كان بوسع الامبراطور أن يعتمد على نفر قليل من الأعوان المخلصين ، ومنهم شركاؤه فى مؤامرة الانقلاب ، مورنى Morny وبرسينى Persigny ووالوسكى Walewski وقلائل غيرهم ، ولكنه كان محدثا فلم يكن من اليسير أن يتقبله الناس ممثلا حقيقيا للتراث النابليونى ، ولم يكن بوسعه أن يركن الى ولاء تلقائى يذكر . فتعين عليه أن يسعى لاحراز انتصارات براقة . ورغم زعمه أن

« الامبراطورية تعنى السلم » فان اسـمه والتراث النابليونى مابرحا يدفعانه الى انتهـاج سياسة المغامرة واظهـار القوة . ذلك أن فرنسا كانت ستغفر له الكثير بل قد تغفر كل شيء ان هو منحها المجد والرخاء ، على أن الهزيمة من أى نوع كانت كفيلة بالقضاء عليه .

ولم يكن على صلة بأحـد من أفراد أسرة نابليون الأكبر اللهم الا الملك السابق جيروم وابنته ماتيلدة وابنه جيروم . ولكنه لم يكن ليأمل فى الحصول على عون كبير من هؤلاء ، فقـد اتخذ جيروم الصغير لنفسه سيماء الديموقراطى المناوىء للكنسيين ، وظل مصـدر متاعب لا تنقطع للامبراطور . ورغم أن نابليون الثالث قد نال حق تعيين من يخلفه فقد جعل يتطلع الى الزواج لانجاب وريث يدعم مركزه ويضمن استمرار حكمه . وقد راودته ردحا من الزمن فكرة مصـاهرة بيت أو آخر من البيوت المالـكة فى أوروبا ولـكنه تبين أنه لن يكون موضع ترحيب منها طالما حامت الشـكوك حول استتباب عرشه . ولقد ذكرنا من قبل كيف أنه تزوج آخر الأمر فى ١٨٥٣ من أوجينى دى مونتيجو وهى سيدة أسبانية جميلة من أسرة نبيلة وان لم تكن من سلالة أمراء . وقد سلكت فى المركز السامى الذى رفعت اليه بغتة ودون توقع مسلكا متسما بالكياسة والوقار . ورغم أنها لم تنس بلدها فقد باتت تعتبر نفسها فرنسية أولا وقبـل كل شيء . وقد كانت كاثوليكية متمسكة بكاثوليكيتها ، وخصما عنيدا للآراء التحررية ، ولما أنجبت ولى العهد الامبراطورى جعلت تنظر الى سياسة فرنسا من حيث مساسها بمصير ابنها قبل كل اعتبار آخر . وفى الواقع أن أثرها السيىء على مستقبل الامبراطورية قد صـور بصورة مبالغ فيها وان جاز أن نستثنى من ذلك مسلكها فى ١٨٧٠ . فان مصير لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت قد ظل ماثلا أمامها على الدوام وترك أثرا ملحوظا على تصرفاتها .

لم تظهر بادىء الأمر معارضة رسمية تذكر لنابليون ، فان أعمال النفى والتشريد التى أعقبت الانقلاب كانت قد لقنت الناس درسا فى

خطورة المعارضة ، والجمعية كانت مجردة من كل سلطة ، أما الصحافة فكانت تراقب عن كثب وتعطل دون ابطاء ان هي تجاسرت على انتقاد العهد الجديد . بيد أن هذا الهدوء لم يكن ليدوم طويلا ، والامبراطور كان مدركا لقوى المعارضة الكامنة تحت السطح مباشرة . فهناك الملكيون بجماعتيهم : الشرعيون the legitimists الذين يناصرون البوربون القدماء والأورليانيون الراغبون في عودة الأسرة التي طردتها ثورة ١٨٤٨ من الحكم . كان ممثل أنصار الملكية القديمة هو الكونت دي شامبور Comte de Chambord الذي كان رجلا متزمتا مستقيما الى أبعد حد يعتبر الملكية جزءا من عقيدته ولا يضمر أية رغبة شخصية في الفوز بالعرش ويأبى السعي الى كسبه بطريق المساومة . وكان مقيما في فروسدورف في النمسا ، ولم يكن لحزبه في تلك الآونة شأن يذكر . أما الأورليانيون فكانوا يحظون بتأييد أقوى بكثير داخل فرنسا وخارجها على السواء ، وقد درج أمراء هذا البيت على اعلان عطفهم على الكثير من آراء العصر المتحررة . على أن مكمن الخطر الحقيقي كان يتمثل في المعارضة الجمهورية التي كانت تتمتع — رغم عجزها عن الافصاح عن وجودها في الجمعية أو الظهور سافرة في الصحف — بتأييد أهالي المدن الكبرى ولا سيما باريس . ففي هذه المدن صادف نابليون أكبر الفشل ، اذ أخفقت كل محاولاته لاجتذابها الى صفه أو حتى التخفيف من عداوتها . ثم ان معظم قادة الفكر الفرنسيين كانوا أيضا من مناهضيه . لقد فاز حقا بتأييد المؤرخ الروائي بروسبير ميريميه Prosper Mérimée والمؤرخ ديوري Duruy ولم يعارضه لامارتين ، ولكن هؤلاء جميعا كانوا يمثلون قوة واهية بالقياس الى قوة الأسماء التي وقفت ضده : تيير وميشليه Michelet ولوي بلان ورينان Renan وجورج ساند وقبل هؤلاء جميعا فكتور هوجو الذي أبى الاستفادة من قرار العفو الذي أصدره الامبراطور وراح يهاجمه من منفاه في جزر بحر

المانش أو بلجيكا فى كتـابات كانت لهـا أهمية بالغـة على الصعيد الأوروبى .

وقد حقق النظام الامبراطورى النجاح المرجو فى الانتخابات العامة عام ١٨٥٧ . فلا ريب فى أن نتيجة حـرب القرم قد أكسبت العهـد النابليونى تأييدا صادقا من جانب الكثيرين ، ثم ان الأوضاع السائدة كانت تطبق على أنفاس المعارضة الى حد يدفعنا الى التعجب من تمكنها من ايفاد نائب واحد الى الجمعية ناهيك بالنواب الخمسة الذين نجحوا عملا وبذلوا غاية الجهـد فى انتقاد تدابير الحـكومة ، وكان أبرزهم أولفييه Ollivier وجول فافر Jules Favre وداريمون Darimon على أن الضربة الخطيرة الأولى التى زلزلت مركز نابليـون قد جاءته من سياسته الايطالية التى أثارت عليه الكنسيين الذين أيدوه بحرارة من قبل . فقـد آذى شعورهم أن يروا بيت سـافوى البغيض يرتفع بفضل تأييد فرنسا الى مكانة لن تلبث أن تقوده الى عرش ايطاليا . ثم ان مسئولية نابليون الثالث عن الهزيمـة التى حاقت بقـوات البابا فى كاستلفيداردو وانتقاص أراضيه الى درجة لا تكفى لدعم سلطانه ، لم تكن أقل كثيرا من مسئولية كافور . فأصبحت صـحافة الكنسيين — وعلى رأسها صحيفة (العالم) L'Univers تعارض سياسة الامبراطور بعنف لا يقل عن معارضة الجمهوريين . ولم يظفر نابليون بعد ذلك قط بتأييـد قلبى مطلق من جانب الـكنسيين . واذا كانت سياسته الايطالية قد أفقـدته تأييد هؤلاء الكنسيين فانها لم تكسبه تأييد القوميين فى ايطاليا أو الأحرار فى بلاده . فقد شاهدنا كيف اتهمه الايطاليون بأنه قـد خذلهم ونقض العهـد الذى أعطـاه لكافور فى بلمبيير . أما الأحرار الفرنسيون فلم يغفروا له قط تأييده لبقاء سلطة البابا ، وقد ازدادت معارضتهم له عنـدما تعرض غاريبالدى فى ١٨٦٢ للصد والأسر فى أسبرومونت Aspromonte أثناء محاولته الوصول الى الولايات البابوية لضمها الى صف القضية الوطنية .

كما أنه جلب على نفسه عداء الطبقات المشتغلة بشئون المال وعلى الأخص طبقة المنتجين الصناعيين . اذ كان يضمر الكثير من العطف على النتائج الاقتصادية والأهداف الاجتماعية لحركة حرية التجارة التى كتب لها النصر فى انجلترا . وحدث أن سافر كوبدن Cobden الى باريس فى ١٨٦٠ ليعرض عليه مزايا عقد معاهدة تجارية تتضمن تخفيض التعريفة الجمركية على البضائع الانجليزية عند دخولها فرنسا . وقد أبدى كوبدن عظيم تقديره « لاستقامة الامبراطور وعدالته » ، وأفصح عن ايمانه بأنه معنى أصدق العناية بالتخفيف عن الفقراء . وطد نابليون العزم على عقد المعاهدة دون اعتبار للرأى العام الفرنسى الذى كان يعارض المشروع فى رأى كوبدن . وكان نابليون يسعى بذلك الى اقامة علاقات ودية أوثق مع بريطانيا التى ما برح يعلق على محالفتها أعظم الأهمية . ولكنه أخفق فى تحقيق هذا الغرض وجلب على نفسه عداء الطبقات المشتغلة بالمال التى طالما منحته حتى ذلك الوقت تأييدها الحار باعتباره حاميها من قوى الفوضى .

ولابد أن نشير هنا أيضا — وان خرجنا بذلك بعض الشيء عن الترتيب الزمنى — الى مغامرته المكسيكية الكبرى التى ساهمت بنصيب وافر فى فشل حكمه . فلن تجد حادثا أشد من تلك المغامرة دلالة على شخصية الرجل وأساليبه وعلى خياله الحاد المنطلق وأسلوبه فى الخلط بين الوهم والواقع ، وطريقته فى تناول المشروعات بحماسة بالغة ثم طرحها جانبا فى اشمئزاز حالما تظهر أول صعوبة .

كانت المكسيك غارقة فى فوضى شاملة . فلم تنعم منذ استقلالها فى ١٨٢٣ الا بأضأل نصيب من الحكم المستتب ، ولكن جواريز Juarez نصب نفسه رئيسا لها فى أوائل ١٨٦١ وأعلن وقفه دفع الفوائد على ديون بلاده لمدة عامين . فما كان من الدائنين الذين كانوا ينتسبون الى جنسيات مختلفة ، وان كان معظمهم من الفرنسيين والأسبان والانجليز ، الا أن توجهوا الى حكوماتهم يناشدونها العون .

كان الموقف الى هذا الحد بسيطا لا تعقيد فيه ، ولكن خيال نابليون رأى وراءه فرصا كبرى . ذلك أن الحرب الأهلية كانت تمزق أوصال الولايات المتحدة الأمريكية ، وخيل الى المراقبين الأجانب أن اخماد مقاومة الولايات الجنوبية بات مستحيلا . فلم يعد ثمة مايدعوها الى التمسك بمبدأ مونرو الذى يمنع الدول الأوروبية من الحصول على أى أملاك جديدة فى أمريكا (١) . ومن هنا قد تسنح الفرصة لانشاء دولة فى المكسيك تخضع لسيطرة الدول الأوروبية العظمى وتقف حاجزا منيعا فى وجه الأنجلو سكسونيين ، « ذلك الشعب العدوانى الذى سيجتاح أمريكا كلها ثم العالم بأسره ان لم يوقف عند حده » . وحتى لو لم تكن هذه الدولة فى يد الفرنسيين فانها قد تستخدم فى كسب حلفاء لهم قيمتهم لفرنسا . ومن يدرى فربما كانت تلك بداية فصل جديد فى تاريخ العالم .

أبحرت الى فيراكروز Vera Cruz بعثة فرنسية أسبانية بريطانية مشتركة لتقوم بالضغط على المكسيك حتى تدفع الفوائد المطلوبة على ديونها ، ولكن سرعان ما تبين أن الأمر سوف يقتضى دخول البلاد ، فما كان من بريطانيا وأسبانيا الا أن انسحبتا بأعذار مختلفة تاركتين لفرنسا فرصة العمل بمفردها ، الأمر الذى كان حاكمها على أتم استعداد له . بيد أن المهمة جاءت أصعب مما كان متوقعا ، فقد أبدت بوبلا Puebla مقاومة ناجحة للغزاة ، ولم يتمكن هؤلاء من بلوغ العاصمة المكسيكية الا فى صيف ١٨٦٣ .

وفى تلك الآونة خطرت لنابليون فكرة نابهة هى عرض عرش « امبراطورية المكسيك » ـــ كان ذلك هو الاسم الذى اختاره للدولة

---

(١) انظر كتاب دكستر بيركنز « مبدأ مونرو ١٨٢٦ – ١٨٦٧ » ص ٣١٨ والصفحات التالية طبعة بالتيمور سنة ٩١٣٣
Dexter Perkins: The Monroe Doctrine, 1827-67, pp.318 sqq. (Baltimore, 1933).

الجـديدة ــ على مكسميليان شـقيق فرنسيس جوزيف امبراطور النمسا ، وكان هذا رحالة كثير الأسفار وعالما مرموقا يعتنق ــ فيما يظن ــ آراء متحررة فى الشئون السياسية . وقد رمى نابليون بتلك الخطوة ــ فيما رمى ــ الى كسب صـداقة النمسـا وربما محالفتها وبعد شىء من التباطؤ قبل مكسميليان العـرض دون اعتبار لنصائح فرنسيس جوزيف وبريطانيا ، فساندته القائد الفرنسى فوارى Forey على رأس جيش قوامه ٢٣٫٠٠٠ رجل . واستقبل بحماسة ظاهرية عند وصوله الى مدينة المكسيك .

على أن هـذه « البروج المشيدة فى الهـواء » لم تلبث أن انهارت سراعا وبصورة مفجعـة . ذلك أن أعوان مكسميليان انقسموا على أنفسهم فى حين وطد خصـومه العزم على مقاومته . وقد أضحى من الجلى الآن أن الغلبة فى الحرب الأهلية الامريكية قد صارت للشمال الذى أبى الاعتراف بالنظام الجديد فى المكسيك لمخالفته لمبدأ مونرو . كما أن نابليون نفسه مالبث أن سئم ــ على طريقته المعهودة ــ ذلك المشروع الذى تحمس له كل الحماسة بادىء الأمر ، اذ أنه بدأ يسبب له خيبة أمل متصـلة ويجلب عليه باهظ النفقـات . وقد حل بازين Bazaine ــ الذى سـيقدر له أن يكتسب فيمـا بعـد شهـرة بغيضة ــ محل فوراى ، ووطد نابليون العزم على سحب القـوات الفرنسية وترك مكسميليان آملا أن يدرك الأخـير حكمة الانسحاب (فبراير ١٨٦٧) . ولكن مكسميليان رفض أن يتراجع واستمر يحارب أعداءه بشجاعة ردحا قصيرا من الزمن حتى يونيو ١٨٦٧ حين اضطر الى الاستسلام للقوات الأهلية فى كيرتارو Queretaro ، وأعدم فى ساحة تلك المدينة . فكانت تلك النهـاية ضربة عنيفة لهيبة نابليون استعصت على العلاج بعد ذلك .

لقد سبقنا مجرى الأحداث فى فرنسا بعدة سنوات ، فيجمل بنا أن نعود الآن الى حيث كنا . لقد شاهد نابليون بعين الانزعاج صعود مد

المعارضة فى وجهه فسعى منذ تاريخ مبكر هو ١٨٦٠ الى استرضاء الرأى العام بتعديل الطابع الاستبدادى لحكمه . فخفف بعض الشيء من غلواء رقابته على الصحف ، وصرح لمجلس الشيوخ والجمعية التشريعية بمناقشة سياسة الحكومة مرة فى العام الواحد . ومنح الوزراء « بلا وزارة » — أى غير المكلفين بمهام ادارية محددة — مقاعد فى الجمعية كى يتولوا شرح سياسة الحكومة والدفاع عنها ، وسمح بتسجيل مناقشات الجمعية ونشرها . على أن هذه التنازلات قد شجعت المعارضة بطبيعة الحال دون أن تسترضيها ، تلك المعارضة التى مافتئت تطالب بدستور حر على النمط الانجليزى وبمسئولية الوزراء أمام الجمعية لا أمام الامبراطور ، وما انفكت تهاجم طريقة تصريف الشئون المالية للامبراطورية .

وقد أتاحت انتخابات ١٨٦٣ فرصة هامة للحكومة لاختبار قوتها . فعملت على السيطرة عليها بكل وسيلة ، وأخذ برسينييه **Persigny** على عاتقه الحصول للامبراطور على أغلبية طيبة ، وأطلق للعمل كل الأجهزة المألوفة . ومع هذا كله جاءت النتيجة مخيبة للآمال . فلئن كانت الحكومة قد فازت حقا بأغلبية كبيرة فقد ازدادت قوة المعارضة داخل الجمعية من خمسة أعضاء الى خمسة وثلاثين عضوا ، ولم تجد جهود برسينييه فتيلا فى حمل مدينة باريس على انجاح ولو مؤيد واحد من مؤيدى الحكومة ، وظهرت بين الأعضاء مجموعة جمهورية صريحة قوامها سبعة عشر عضوا يتزعمهم قادة من طراز بيرييه **Berryer** وجول سيمون **Jules Simon** وفافر وقبل هؤلاء جميعا تيير الذى دخل الحلبة البرلمانية من جديد ، وبلغ مجموع الأصوات التى أعطيت ضد الحكومة مليونى صوت . لقد تبدت النذر جلية أمام أعين أوروبا .

وقد خطا عضوان بارزان خطوات لها أهميتها للالتقاء مع نابليون . كان تيير أعظم ساسة فرنسا وأكثرهم تمتعا بالتقدير والاحترام ، وقد طالب فى خطاب مأثور باعطاء فرنسا ما أسماه « الحريات الضرورية »

ـ أى الحـريات الدستورية التى كان يحظى بهـا الانجليز فى ذلك العصر ـ وأعلن أنه سـيؤيد الامبراطورية اذا تحقق ذلك ، وان يكن مصمما على عدم الانخراط فى خدمتها بأى حال من الأحـوال . وعلى مالخطوته من أهمية فقد فاقتها فى الأهمية المباشرة خطوة اميل أوليفييه Emile Ollivier الذى كان بحكم تقاليـد أسرته مرتبطا بحزب الأحرار . وقـد كابد أبوه النفى بسبب آرائه وكان هـو واحدا من أقوى « الخمسة » بيانا ، أولئك « الخمسة » الذين ظلوا ردحا من الزمن ممثلى المعارضة الوحيـدين فى الجمعية . ولكنه كان على ذلك معتدلا محافظا بطبعه ، فلما تقدم نابليون باقتراح من شأنه اضفاء صفة الشرعية على بعض « الاتحـادات » العمالية ـ على خـلاف التقاليد المعمول بها فى فرنسا منذ عهد الثـورة الكبرى ـ صمم أولفييه على معاونته . ذلك أنه لم يكن يلتزم على حد قوله بمبدأ «كل شيءأولا شيء على الأطلاق » الذى كان يراه مبدءاخطرا ، بل كان يرضيه الحصول على النزر اليسير كل يوم .

وبهذا النظام المعـدل الذى مازال يتسم بالمركزية الشديدة وتحكم السلطان وان بدت عليه بعض آثار لاتجاه تحـررى ، واجهت فرنسا صعوبات الحرب الدانمركية والحرب النمساوية البروسية . وهـذا النظام هـو الذى تعين عليـه أن يتحمل ضغط الصـدمة بل الفاجعة المكسيكية . ولسوف نتناول فيما بعد ديبلوماسية فرنسا أثناء الحرب النمساوية البروسية وبعد انتصـار بروسيا فى تلك الحرب . ويهمنا الآن أن نتناول تطور الدستور الفرنسى حتى عشية نكبة الامبراطورية ـ أى حتى الحرب الفرنسية البروسية .

تظاهر نابليون بالاستخفاف بانتصارات بروسيا الباهرة . وأكد فى بلاغ رسمى ايمانه بمبدأ القومية ، ولكنه ذكر أيضا أن فرنسا ستبذل مافى وسعها لزيادة قواتها المسلحة وللعمل على ابقاء ألمانيا فى المستقبل على ماهى عليه من انقسام . فناقض القول الثانى الأول ونم القـول

الثالث أما عن خوف فرنسا أو عن نزعتها الحربية . على أن بلاغه لم يجد شيئا فى تسكين خواطر الفرنسيين ، فقد أعلن تيير أن سادووا Sadowa هزيمة كبرى لا تقل خطورة على فرنسا عن معركة بافيا Pavia التى وقعت قبل نحو ثلاثة قرون ونصف ، ولا مراء فى أن الكثيرين كانوا يوافقونه الرأى .

وقد أخذت فرنسا تراجع أمورها اثر انتصار الجيش القومى البروسى . كان النظام الفرنسى قائما على التجنيد بالقرعة ، أى اجراء القرعة بين جميع الصالحين للجندية واعفاء من لم تقع عليهم القرعة من جميع الأعباء العسكرية ثم تدريب هؤلاء المجندين تدريبا صارما لمدة سبع سنوات واعدادهم ليكونوا جنودا محترفين . وقد جرت العادة على مقارنة ذلك النظام بالنظام البروسى والزعم بأن البروسيين ليسوا — بالقياس الى جنود فرنسا — الا هواة لن يثبتوا فى ميدان القتال أنهم أفضل كثيرا من قوات «حرس وطنى» أدخلت عليه بعض التحسينات ولكن سادوا بدلت ذلك كله ، فقد بات واضحا للجميع أن الجيش الفرنسى يجب أن يعزز وأن النظام الفرنسى يجب أن يعدل . وأبدى البعض ، وعلى رأسهم تروشو Trochu (الذى سيصبح فيما بعد قائدا لباريس فى الحصار الكبير عام ١٨٧٠) رغبتهم الشديدة فى الأخذ بالنظام البروسى القائم على الخدمة العسكرية الاجبارية للجميع ، ولكن الرأى العام الفرنسى لم يكن مهيأ لقبول ذلك . وفى النهاية تقرر اطالة مدة الخدمة العسكرية وتأليف احتياطى جديد باسم الحرس المتحرك garde mobile . غير أن عاصفة ١٨٧٠ هبت على فرنسا ولم يتم تطبيق هذه التعديلات تطبيقا كاملا .

أما النظام السياسى فكانت عملية اعادة بنائه أشمل . فقد تجلت الحاجة الماسة الى عمل شىء ما . واستخدمت الصحافة القدر الأكبر من الحرية التى منحتها لشن هجوم بالغ العنف والمرارة على نابليون . فاستعرض هنرى روشفور Henri Rochefort فى صحيفة « لا لانترن »

La Lanterne قدرته الهائلة على السخرية دون ماحرج ، وأظهر ديليسكلوز Delescluze حدة فى النقد لا تكاد تقل عن تلك التى أظهرها مارا فى سالف الأيام . وكشف جامبيتا Gambetta فى دفاعه عن ديليسكلوز عندما قدمته الحكومة للمحاكمة عن مواهب فذة فى الخطابة واثارة الخواطر . لقد أخذت الآراء والعواطف التى انطلقت أيام كوميون باريس تختمر تحت السطح مباشرة . وكان نابليون قد تخلى فى ١٨٦٩ عن بعض التدابير التى كان يستخدمها من قبل للتحكم فى نتائج الانتخابات . ومع أن المناطق الريفية قد ظلت على تأييدها له فان المدن الكبرى قد انتخبت نفرا من أعنف خصومه . وقد نال أنصاره أغلبية المقاعد فى المجلس ولكن عدد الأصوات التى أدلى بها الناخبون ضده بلغ ثلاثة ملايين صوت ، فأحس الامبراطور أن دعائم حكمه أخذت تميد تحت قدميه .

وعلى هذا وطد نابليون العزم على اتخاذ خطوة جريئة والشروع فى اقامة نظام جديد تماما أعلن عنه عند افتتاحه لدورة الجمعية الجديدة. كان قراره ذاك بمثابة خطوة كبرى فى اتجاه النظام البرلمانى الانجليزى الذى اعتبره نابليون فى يوم من الأيام نظاما عفى عليه الزمن ، اذ تضمن النظام الجديد السماح للمجلس باصدار مايشاء من التشريعات وبالرقابة على الميزانية بشتى تفاصيلها ، وأباح الجمع بين عضوية الهيئة التشريعية ومناصب الوزارة ، فبدا أن النظام الوزارى الانجليزى المستند الى تأييد أغلبية برلمانية يوشك أن يطبق . وقد حددت لمجلس الشيوخ اختصاصات وثيقة الشبه باختصاصات مجلس اللوردات . وأضيفت فقرة قد تعنى الكثير أو القليل ألا وهى أن الامبراطور يحتفظ لنفسه بالحقوق الخاصة التى أسبغها عليه الشعب والتى تعد لازمة للمحافظة على النظام والجماعة . وفى يناير ١٨٧٠ طلب نابليون الى اميل أولفييه الذى اشتهر فى يوم من الأيام بحماسته للاتجاهات التحررية أن يشكل الوزارة . فحمل أولفييه نابليون على طرح نظامه

الجديد للتصويت الشعبي كما فعل باقتراحاته السابقة . ودعا جميع ناخبي فرنسا الى التصويت بنعم أولا على بيان بتأييدهم للاصلاحات التحررية التي أدخلها الامبراطور على الدستور بمعاونة الهيئات الدستورية الرئيسية فى الدولة . وقد نظر أولفييه الى النتيجة بعين الرضى التام . حقا ان المدن الكبرى لم تبد أى تراجع عن معارضتها الراسخة ، اذ صوت فى باريس ١٨٤،٠٠٠ بلا و ١٣٨،٠٠٠ فقط بنعم ، كما وقفت ليون ومارسيليا وتولوز جميعا ضد الحكومة ، ولكن عدد المؤيدين فى فرنسا كلها بلغ ٧،٣٥٨،٠٠٠ بينما لم يزد عدد المعارضين على ١،٥٧١،٠٠٠ . ومع أن الممتنعين عن التصويت كانوا أكثر من المعارضين ، فان أولفييه كان اجمالا على صواب فى اعتباره أن النتيجة نصر كبير لما أصبح يسمى بـ « الامبراطورية السمحة » (١) . فلو توفرت سنوات قليلة من الهدوء والسلم لغدا هنالك بعض الاحتمال على الأقل فى أن يقود النظام الجديد فرنسا سلميا الى الحياة الدستورية البرلمانية برئاسة أو دون رئاسة نابليون . ولكن الطوفان جاء ولما تتح لفرنسا الفرصة لفهم النظام الجديد أو ادراك السبيل لانجاحه !

ولابد أن ننتقل بسرعة الى بحث الموقف فى أوروبا الوسطى ، هذا الموقف الذى يمثل مؤخرة الصورة التى تحتل فيها الحرب الفرنسية البروسية مكان الصدارة ، على أننا سنلقى أولا نظرة على العلاقات بين نابليون وايطاليا باعتبارها فرعا جانبيا هاما من التيار الرئيسي للأحداث . لقد قيض لنابليون فيما يبدو ألا يجنى مطلقا أى ثمار لنفسه أو لفرنسا من سياسته الايطالية كلها على حسن مقاصدها وضخامة ثمارها لايطاليا فى أكثر الأحيان . كان نابليون قد وعد فى اتفاقية سبتمبر ١٨٦٤ بجلاء الحامية الفرنسية عن روما ، وقدم ملك ايطاليا تأكيدا بأن فلورنسة لا روما هى التى ستتخذ عاصمة للدولة الايطالية

---

(١) Liberal Empire

الجديدة . ولكن ما ان انسحبت القوات الفرنسيــة فى ديســمبر ١٨٦٦ حتى بدأت برضاء غاريبالدى حركة لغزو روما وضمها . ومن الواضح أن قوات الزواف المرابطة بالأراضى البابوية كانت أعجز من أن تواجه مثل هذا الموقف الطارىء ، وكانت الحاميــة الفرنســية لا تزال فى مرسيليا فكان أن أعيدت الى سفنها ، فوصلت ايطاليا فى الوقت المناسب للانضمام الى القوات البابوية والحاق الهزيمة بالغاريبالديين فى منتانا Mentana . فراح الأحرار الايطاليون يندون اثر ذلك الحادث بنابليون بمرارة أشد من أى وقت مضى . وحدث أن أعلن قائد الحامية دى فاييه De Failly أن البندقية الفرنسية الجديدة « تشاسبو » ، « قــد فعلت الأعاجيب » ، فوجد الناقدون فى هذه الملاحظة نوعا من الوحشية البالغة . وعلى هذا لن تجد فرنسا ساعة محنتها استعدادات لمعاونتها من جانب مملكة ايطاليا التى فعلت من أجل انشائها كل مافعلت (١) .

وقد شغلت الامبراطورية الفرنســية فى شــهورها الأخيرة كثيرا بمسألة أخرى تتصل بروما . فقد دعا البابا مجمعا عالميا (٢) جــديدا الى الانعقاد فى ١٨٦٩ . وكان قد أعرب من قبل فى عبارات لا تقبــل الشك أو التأويل عن معارضته للآراء العصرية التحررية والديموقراطية فبات مؤكدا أن المجمع الجديد سيصدر مراسيم من شأنها أن تغضب أصحاب الآراء المتحررة سواء فى ايطاليا أو فى غيرها من الجهــات ، وذهب الكثيرون الى وجوب استخدام فرنسا لما يتيحه لها مركزها من نفوذ خاص لمنع اجتماع المجمع ، ولكن أولفييه لم يعر هذه الآراء أذنا

---

(١) أعلن م . روهر M. Rouher فى ٤ ديسمبر ١٨٦٧ عند استجوابه فى الجمعية باسم الحكومة انها لن تسمح «مطلقا» باحتلال بريطانيا لروما ونظرا لأن بسمارك لم يتخذ نفس الموقف ، فقد حدا هذا التصريح فى البرلمانى الفرنسى بايطاليا الى الميل نحو بروسيا بدلا من فرنسا ، وحال دون ابدائها أى اهتمام جدي بالمفاوضــات التى أخذ يجريها نابليون ابتداء من عام ١٨٦٨ لعقــد تحالف فرنسى نمسوى ايطالى .

(٢) Ecumenical Council

مصغية فانعقد بالفعل . وفى اللحظة التى كانت العلاقات بين فرنسا وألمانيا تتدهور فيها تدهورا ينذر بنشوب حرب كبرى بين البلدين ، كان المجمع العالمى يناقش مسألة عصمة البابا . وحينما فرغ المجمع من تلك المناقشة وأعلن فى ١٨ يوليو ١٨٧٠ أن البابا يكون معصوما « عندما يحدد بسلطته الرسولية وأثناء مباشرته لرسالته بوصفه المعلم الأعظم لجميع المسيحيين ، ماينبغى أن تستمسك به الكنيسة العالمية فى شئون العقيدة أو الأخلاق » كانت الحرب قد بدأت فعلا .

الفصل الثامن عشر
ألمانيا حتى حرب الأسابيع السبعة
١٨٤٨ — ١٨٦٦

جاءت نتيجة ثورات ١٨٤٨ و ١٨٤٩ مخيبة الى أبعد حد لآمال جميع « الأحرار » فى ألمانيا وأوروبا . فلم يتحقق شىء مما كانت تصبو اليه حركة التحرر . فقد ظلت النمسا تحكم شعوبها المتنوعة حكما استبداديا باطشا .ولم تقترب ألمانيا من الوحدة القومية ولم تظفر بحكم قائم على رضاء الشعب . حقا لقد قدر لألمانيا بعد ذلك أن تقطع شوطا كبيرا فى سبيل الوحدة القومية فيما لا يتجاوز كثيرا العشرين عاما ، ولكن كان يتعين على مبادىء التحرر السياسى أن تنتظر زمنا أطول كثيرا قبل أن تحرز أى نصر حقيقى فوق أرض ألمانية .

وقد كان نظام الحكم فى النمسا نظاما استبداديا بكل معانى الكلمة من ذلك النوع الذى أبدت جميع حكومات أوروبا ميلا الى الأخذ به حالما كف الخوف عن ارغامها على تقديم الترضيات لشعوبها . فسرعان ما ألغيت جميع المكاسب التى حققتها الثورات ، فسحب نظام المحلفين وأضحى الوزراء من جديد مسئولين أمام الامبراطور رأسا ، وأعيد ادخال عقوبة الجلد فى تطبيق القوانين بل وسع نطاق تطبيقها ، وبات الارتياب فى الشعب طابعا سائدا فى جميع دوائر الحكومة .

ولم يحدث تغير أساسى يذكر حتى قيام الحرب الايطالية عام ١٨٥٩ . على أن التغير الذى طرأ بعدها على طابع الحكم كان كاملا . فالهزيمة العسكرية لابد أن تؤدى حتما الى زعزعة أية حكومة ذات طابع عسكرى . وعلى هذا لم يعد ثمة مناص من ادخال بعض التعديلات على

نظام الدولة الأساسى . ولـكن مامن بلد كان يلقى عنـاء فى وضع الدساتير مثل النمسا بأجناسها العديدة المتنافسة ، وخليطها المتضارب من اللغات والأديان ، وتقاليدها العريقة فى الحكم العسكرى . فالمجر كانت تمثل مشـكلة دائمـة برفضها الاعتراف للأجنـاس التابعـة لها بحقها فى أن يكون لها الكيان القومى المستقل الذى تطلبـه هى لنفسها . ثم كانت هناك أيضا مشكلة طراز الدستور الجديد : أيكون مركزيا قائما على الوحدة الكاملة أم اتحـاديا يعترف لـكل قوميـة بذاتيتها الخاصة ؟ لقد وجد كل من الأسلوبين أنصـارا ، وان كادا يستويان فيما يثيران من صـعوبات . وفى أكتـوبر ١٨٦٠ أصـدر الامبراطور بأمر ملكى عرف باسم «منحة أكتوبر The October Diploma دستورا قصد له أن يكون دستورا متحررا . وبموجبه تقرر تشكيل مجلس امبراطورى (رايخسرات Reichsrat) يضم بعض الأعضاء المنتخبين ويختص ببحث جميع المسائل التى تمس الامبراطورية بأكملها ، الى جانب برلمانات اقليمية (لاندتاج Landtage) تتولى معالجـة المسائل ذات الصبغة المحلية الخالصة . فكانت تلك تجربة كبرى فى ميدان الحكم المحلى . كما تقرر تهـدئة خواطر المجريين بالاعتراف بلغتهم — لغة الماجيار — لغة رسمية . ومالبث العام التالى (١٨٦١) أن جاء بمزيد من الترضيات ، اذ تقرر الأخذ بنظام أقرب الى النظـام التمثيلى الصحيح . ولولا أن ذلك كله كان مقضـيا عليـه بالزوال السريع لبحثنا بعض تفاصيله باهتمام ، غير أن النقاط الجديرة بالنظر قليلة معدودة . وقد رحب العنصر الألمانى فى الدولة بالدستور الجديد ، وعلى الأخص بذلك الجزء الذى يتيح للصحافة حرية أفسح (فى تلك الفترة دخلت النمسا عهـد الصحافة) ، بينما لم تظهر العنـاصر غير الألمانية ترحيبا صادقا به فى أى مكان ، وقد عارضه المجريون اجمالا معارضة صريحة ورفضوا التعاون فى تنفيذه ، ولكن الأمل فى نجاحه لم ينقطع حتى جاءت حرب ١٨٦٦ فتعين على النمسا أن تتصرف بعض

الوقت عن تجارب الحكم الى مهمة الدفاع .

على أن القوة الدافعة للأحداث فى أوروبا الوسطى لم تكن توجد فى النمسا وانما فى بروسيا وألمانيا ، والى بروسيا يجب أن تتوجه الآن بعنايتنا . كان النظام البروسى أكفأ كثيرا من النظام النمساوى وان لم يزد عنه تحررا . فعندما أطلق مجنون الرصاص على الملك فى ١٨٥٠ ، اتخذت الحكومة من ذلك الحادث ذريعة لفرض المزيد من اجراءات القمع الصارمة . فشددت القيود على تطبيق نظام المحلفين ، ووضعت الصحف تحت المراقبة الدقيقة وبسطت سيطرتها المباشرة على عــدد كبير منها ومما يذكر أن (رياض الأطفال Kindergarten) التى أنشأها فروبيل Froebel قد عطلت للشبهة فى أن لها هدفا سياسيا . وكان القول يتردد صراحة بأن بروسيا ليست دولة دستورية وانما هى دولة الموظفين والعسكريين . وقد بدا فى وقت من الأوقات أن الاتحاد (الزولفرين) يوشك أن يختفى وسط موجات الرجعية . فقد أبدت الولايات الجنوبية ميلا الى الاتحاد مع النمسا ، ولكن بروسيا كانت تمانع بشدة قيــام أى نوع من الاتحاد التجارى مع غريمتها الكبرى فى ألمانيا . على أن ذلك الخطر مالبث أن تبدد . فقد اتسع الزولفرين بانضمام هانوفر اليه وجددت مدته اثنى عشر عاما أخرى فى ١٨٥٣ .

كان الأسطــول الألمــانى من المنشآت قصيرة الأجــل وقد اعتز به الثوريون الألمان أيما اعتزاز . ولسوف يقدر له فيما بعد أن يوقظ فى نفوس الألمان أزهى الآمال . ولكن البقاء لم يكتب له فى عهد الردة الرجعية . كان الأسطول الألمانى قد خرج الى حيز الوجود بالفعــل ، ورابط فى بريمرهــافن Bremerhaven ، وكان فى نظر الكثيرين ، رمزا لانفتاح مجال جديد أمام الطاقات الألمانية . غير أن الحماسة لوجوده خبت بعــد الفشل الذى منيت به الحركة القوميـــة ابان الثورة ، فأعلن الدايت الاتحادى حله ، ثم بيع فى المزاد .

وفى ١٨٥٨ انطفأ ذهن الملك البروسى تماما ، فخلفه أخوه وليم وصيا

على العرش أولا فى ١٨٥٨ ثم ملكا بعد وفاته فى ١٨٦١ . وقد خيل الى البعض أنه أقل رجعية من سلفه . والحق أنه كان أكثر استقامة وأصفى بصيرة وأوفر قدرة ، الا أنه كان أبعد مايكون عن التحرر . ولقد تحدث باللهجة الهوهنزلرنية الأصيلة عند تتويجه فقال « انى أول ملك يرتقى العرش منذ ارتكازه الى النظم الحديثة ، ولكنى لا أنسى أن العرش جاءنى من الله وحده وأننى تسلمته من بين يديه (١) » . وكان يبدى بعض العطف على أمانى الألمان فى الوحدة القومية ، فلم تلق « الجمعية القومية National Association » بشعارها المأخوذ عن شيللر « اتحدوا ، اتحدوا ! » معارضة منه . على أنه لم يكن يضمر أى ميل للنظم المتحررة أو يبدى أى ايمان بها . لقد كان بحق خلفا لفردريك الأكبر وان كان آنس طبعا . وقد كان يدخر حماسته الصادقة للجيش ، وينظر الى جميع المشاكل بعين الجندى وسرعان ما أوقعه تعضيده للجيش فى نزاع مع ممثلى الدولة .

وقد توفرت له أسباب وجيهة للظن بأن بروسيا تحتاج الى جيش أقوى مما كان عندها . فان المهانة التى تعرضت لها فى أولمتز كانت لاتزال ماثلة فى الأذهان ، ثم ان الطابع العسكرى كان يغلب على تاريخ بروسيا كله ، ولم يكن ثمة مجال للتفكير فى تغيير ذلك الطابع . ولقد وجد الملك فى تلك اللحظة الدقيقة عونا كبيرا من وزير حربيته « رون » وهو أحد صانعى بروسيا الحديثة . فقد كان هذا المنظم الحقيقى للنصر يؤمن بمصير بروسيا ومصير ألمانيا كعقيدة دينية ويعتقد اعتقادا راسخا بأن الجيش البروسى هو الأداة التى تحقق لبروسيا المصير الذى ينتظرها . فلم يكن الجيش فى نظره يمثل مجرد القوة فحسب وانما الأخلاق والدين كذلك . ولقد أبدت الجمعية رغبتها فى الاقلال من

---

(١) كان واحد من الملوك البروسيين القلائل الذين توجوا ، ومن الامور التى تفصح عن اتجاهه أنه توج نفسه بنفسه .

استعداد بروسيا العسكري بخفض مدة الخدمة من ثلاث سنوات الى سنتين . ولكن رون تقدم بمشروع عكسي تماما يقضي ببقاء مدة الثلاث سنوات مع اضافة أربع سنوات أخرى يقضيها المجند في الاحتياطي . كما قرر احداث تعديلات في النظم العسكرية وادخال البندقية ذات الابرة ضمن أسلحة الجيش . ولم ترفض الجمعية هذا كله رفضا قاطعا ، ولكنها كانت تزمع بوضوح انتقاده وتعديله .

ثم جاءت الانتخابات العامة في ١٨٦١ ، ففاز أنصار التقدم بالأغلبية، وكانوا يطالبون بشتى ضروب الاصلاحات التحررية التي كان من شأنها أن تدفع بروسيا في طريق للتطور مناقض تماما لما كان يريده رون ، اذ كانوا يدعون الى التوسع في تطبيق نظام المحلفين ،واصلاح المجلس الأعلى من مجلسي البرلمان ، وتحرير التعليم من كل نفوذ كنسي ، والمسئولية الوزارية أمام البرلمان، وقبل هذا كله خفض مدة الخدمة العسكرية الى سنتين . وهكذا أصبح الملك يواجه تحديا صريحا لا يقل عن التحدي الذي واجهه شارل الأول على عهد البرلمان المديد (١) . وما لبثت كل الشكوك أن تبددت عندما طلب رون الى الجمعية في سبتمبر ١٨٦٢ التصويت على اقتراحاته الحربية جملة ، فرفضتها الجمعية بأغلبية ٣٠٨ أصوات ضد ١١ صوتا . وهكذا رد ممثلو الأمة على تحدي الملك ردا يكاد أن يكون اجماعيا . ولو استنبأنا التاريخ الانجليزي والفرنسي لقال لنا ان الملك لابد وأن يذعن حتما وان القدر يدخر لألمانيا شكلا من أشكال الحياة الدستورية قد

---

(١) Long Parliament وهو البرلمان الانجليزي الذي انعقد من نوفمبر ١٦٤٠ حتى مارس ١٦٥٣ ثم عاد للانعقاد فترة وجيزة خلال عام ١٦٥٩ ثم حل في ١٦٦٠ ، كما تطلق نفس التسمية على البرلمان الثاني في عهد شارل الثاني الذي انعقد من عام ١٦٦١ حتى عام ١٦٧٨ (المترجم)

تناله بطريق الثورة . ولكن مصير ألمانيا جاء على عكس ذلك تماما فلا رون ولا سيده فكرا فى الامتثال لرغبات الجمعية وان تكن فكرة التنازل عن العرش قد راودت وليم بصفة جدية . ولكنه كان مصمما — طالما ظل ملكا — على ألا يتخلى عن تلك التدابير التى بدا له أن وجود الدولة قد يتوقف عليها . وقد حدثه رون عن امكان القيام بانقلاب واستمرار الحكومة فى مباشرة سلطاتها وذلك بأن تجمع بالقوة الضرائب التى رفضت الجمعية اقرارها ، ولكن فكرة أخرى كانت تجول فى خاطر رون . اذ كان يعرف بسمارك منذ زمن وكان يكن اعجابا كبيرا لشخصه وآرائه ، وقد شعر أنه الآن الرجل الوحيد الذى يصلح لقيادة سفينة بروسيا وسط العاصفة التى توشك أن تهب فى تلك اللحظة . فحمل الملك على التخلص من الوزارة القائمة (كان رئيسها الاسمى هو الأمير أدولف هوهنلوهى Prince Adolph Hohenlohe ووضع أمانة الحكم فى يد بسمارك. وكان بسمارك فى ذلك الحين ممثلا دبلوماسيا لبلاده فى باريس ، وكان قد وصل اليها لتوه ، حين أصدر الملك تعليماته الى رون باستدعائه . فأرسلت اليه برقيتان أكدت ثانيتهما ضرورة عدم التأخر « للخطورة البالغة » . فحضر بسمارك الى برلين على الفور وقابل الملك ، ووعد بتأييد الاجراءات المتخذة لاعادة تنظيم الجيش ، فأدى هذا الوعد الى تخلى الملك نهائيا عن فكرة التنازل عن العرش . وقد أعلن بسمارك من جانبه معارضته الأكيدة الراسخة لمطالب البرلمان بقوله : « خير لى أن أهلك مع الملك من أن أتخلى عن جلالتكم فى صراعكم مع الحكم البرلمانى » . وهكذا باتت الحلبة معدة لاشتباك بالغ الخطورة .

وقد فاز بسمارك والملك . فهزمت المبادىء البرلمانية وفقدت اعتبارها ودخلت ألمانيا ذلك السبيل الذى قادها — عبر انتصارات مذهلة فى ميدان القتال وفى قاعة المجلس — الى الدمار الذى أنزلته بها حربان كبيرتان مهلكتان . ولكى نفهم السر فى أن الصراع الداخلى البالغ

الأهمية الذى دار فى ١٨٦٢ ، قد انتهى الى تلك النتيجة ، لابد لنا أن نذكر أن بسمارك لم يهاجم البرنامج الشعبى بأكمله . وانما على العكس حقق بسمارك نصف ذلك البرنامج وهو بالذات النصف الذى كان البروسيون يصبون اليه قبل سواه فى أغلب الظن . ذلك أن الحركة القومية لم تكن تجاهد من أجل قيام حكم دستورى فقط وانما من أجل تحقيق الوحدة القومية كذلك . وقد أفلح بسمارك فى حمل ألمانيا على التجاوز عن المطلب الأول باعطائها المطلب الثانى بأكمله ممزوجا بجرعة مسكرة من المجد العسكرى .

وقد كان بسمارك شخصية معروفة فى الدوائر الحكومية عندما تلقى قرار تعيينه رئيسا للوزارة . وقد مثل بروسيا فى «دايت فرانكفورت» عندما كانت الحاجة ماسة الى رجل قوى يأبى الإذعان لمزاعم النمسا فى السيادة على كافة الولايات الألمانية الأخرى . وحكيت قصص طويلة — وبعضها على الأرجح من نسج الخيال — عن بروده ونجاحه الخارق فى ذلك . وكان قد شاهد بمرارة وحسرة استسلام الملكية أيام ثورة ١٨٤٨ . وأخبر الملك فى كتاب شخصى أنه يستطيع الاعتماد على الجيش وأن القوى الشعبية ليست بالقوة التى يتصورها . وقد درجت الأجيال التى خلفته فى ألمانيا على اعتباره بطل الأمة العظيم فى ميدان العمل والاقدام ، ولكنه لا يعد فى بعض النقاط الهامة شخصية فريدة بالمرة . فأولا كانت آراؤه ونزعاته تستند الى أساس من الايمان الدينى الراسخ . وقد روى عنه أنه قال « لو لم أكن مسيحيا لكنت جمهوريا » . ثم انه لم يكن يدين الا بالقليل ، ان كان يدين بشىء على الاطلاق ، للدراسة الأكاديمية التى تدين لها ألمانيا الحديثة بالكثير . كان قد التحق بجامعة جوتنجين Göttingen ، ولكنه أهمل دراساته فيها غير آسف . وصار يتحدث بعبارات لاذعة عن أثر التعليم الجامعى الضار واتجاهه الى الحد من الأصالة الفردية . وكان ينظر الى السياسة الأوربية دائما من زاوية بروسية أكثر منها ألمانية .

فكان يقول : « انمــا نحن بروسيون وسنظل بروسيين » . فلم تكن الوحدة الألمانية فى نظره الا امتدادا لسلطان بروسيا . وهو يكاد يخلو من كل صفات « الأوروبى الصالح » الذى راح تاليران يبحث عنــه دون طائل فى مؤتمر فيينا . ولم يكن معروفا تقريبا خارج دائرة البلاط والحكومة . بل حسبه البعض من الأحــرار ذوى الميول الخطرة الذين ينادون بالتحالف مع فرنســا . الا أنه أعلن على الفور استعداده لمحاربة الآراء الدســتورية . ولما ألمح الملك الى أوجه الشبه بين الموقف الذى يواجهه وبين التاريخ الانجليزى مشيرا الى مصــير شارل الأول الذى كان ماثلا فى الأذهان ، لم يحفل بسمارك من التشبيه بل قال « لسوف أسقط مثل اللورد ســترافورد Lo   raf ford وتسقطون جلالتكم لا مثل لويس السادس عشر وانمــا مثل شارل الأول . انه شخصية تاريخية محترمة للغاية » (١) .

وسرعان ماظهرت مشكلة عويصــه تحتاج الى الحل . فقد نصبت النمسا نفسها متحدثة بلسان حــركة التحرر الألمانية ، ودعت بروسيا لايفاد مندوبيها الى فرانكفورت لبحث خطــة لاقامة اتحاد فيدرالى ألمانى . كانت الخطة تنطوى على مقترحات طريفة ، منها انشاء «حكومة ادارة Directory » تتألف من ممثلى ست دول تكون من بينها بصفة دائمة بروســيا والنمسا وبفاريا ، وتأليف مجلس اتحادى وجمعية اتحــادية . فأبدى الملك ميلا لقبــول الدعوة حرصا منه على التعاون دائما مع النمسا ، ولو نظرنا للمسألة من زاوية « أوروبية » ، لوجدناه بلا جــدال على صواب . الا أن الدســتور الجديد كان من شأنه أن يحد من حرية بروسيا فى التصرف ، فرفض بسمارك قبوله . وكان فى العادة ينفــذ مشيئته على مشيئة مليكه . وقد كان أن وافق

(١) ونحن نراه يردد نفس المعنى حتى فى السنوات المتأخرة من حياته إذ قال لوليم الثانى فى معرض النصح ان ملك بروسيا يجب ان يموت شــاكى السـلاح ولا يستسلم لمطالب الديمقراطية .

الملك بعد صراع طويل أضناهما معا — على الامتناع عن قبول الدعوة فتقضي رفض بروسيا التعاون على المشروع كله . لقد كان التنافس بين بروسيا والنمسا على زعامة ألمانيا حقيقة جلية ، ورأى الكثيرون أن الأمر سينتهى لا محالة الى الاحتكام للسيف .

ثم جاءت المشكلة البولندية . فبولندة لم تكن قد استسلمت لاجراءات القمع التى عمدت اليها السلطات بعد ثورة ١٨٤٨ . وحلم الاستقلال الوطنى لم يكف عن مراودة أذهان الطبقات المستنيرة . وما برح هؤلاء يرجعون بأبصارهم الى ماضيهم وسط ضباب من الرومانطيقية والأسى ، ويرون أن بولندة يجب أن تعود الى كل ماكانت عليه فى القرن السادس عشر . وقد انطوت معاملة القيصر اسكندر الثانى لبولندة على الكثير من النوايا الطيبة . فقد كان يرغب فى تحرير رقيق الأرض وايجاد طبقة من الفلاحين الذين يعترفون بجميل روسيا ويردونه ولاء خالصا لرباط بلادهم بهـا . ومما يؤسف له أنه قرن هـذه المشروعات ببعض التدابير التى تمس الطبقات الوسطى والعليا فى بولندة بصورة مباشرة ، ونخص منها بالذكر فرض الخدمة العسكرية عليهم . وبذلك أصبح على الطبقات المرتبطة بالحركة الوطنية أن ترى أبناءها يدفعون دفعا الى صفوف الجيش الروسى فى الوقت الذى يترك فيه الفلاحون فى حقولهم ، الأمر الذى لم يلبث أن أدى الى نشوب ثورة فى بولندة أحرزت بعض النجاح أولا ثم تقدمت الى ماوراء حدود بولندة داخل أراضى روسية خالصة . ولكن انتصار روسيا كان محققا مالم تتدخل أوروبا .

على أن احتمال التدخل الأوروبى لم يكن مستبعدا ، اذ كان اسم بولندة يلهب خيال جميع « الأحرار » فى ذلك الزمان . وقدعم الانفعال باريس ، وكانت المشاعر فى انجلترا فى صف بولندة بصورة قاطعة . ولو أظهرت بروسيا أدنى استعداد للتعاون مع دول الغرب العظمى ، لواجهت روسيا احتمال قيام ائتلاف بالغ الخطورة . ولكن بسمارك

كان يعارض على طول الخط تأييد الثائرين أيا كانوا ، ويحس احساسا قويا بأن بروسيا ستحتاج فيما ينتظرها من منازعات لصداقة روسيا . فلم يعــر احتجاجات الأحرار الألمان والجمعيــة البروسية ، ولا حتى اعتراضات ولى العهد البروسى ، أدنى اهتمام ، بل راح يؤكد للقيصر الروسى عطف بروسيا وتأييدها ، فكان أن أفلحت روســيا فى اخماد الثورة البولندية . وظل التفاهم مع روســيا الذى قام على هذا النحو من أعمدة السياسة البروسية طوال المــدة الباقية لبسمارك فى توجيه دفتها ، ولم يظهر القيصر من جانبه نكرانا لذلك الجميل .

أرغى البرلمان البروسى وأزبد . وصار أصحاب الآراء المتحررة فى ألمانيا يعتبرون بسمارك عدوهم الأول . وتردد الشك فى أنه سيستطيع أن يمضى بسياسته الى النصر فى مواجهة معارضة البروسيين الشاملة . غير أن مشكلة شلزفيج هولشتين **Schleswig-Holstein** التى أدت الى اندلاع حربين أنقذته من المأزق .

وهذه المشكلة تعد مضرب المثل فى الغموض والابهام ، فهى أشبه ما تكون بمحاكمة قانونية معقدة يتغير رأى المشاهد فيها كلما استمع الى مرافعات المحامين عن أطراف الدعوى . كانت الدانمرك مملــكة عريقة محتــرمة تربطها أواصر القــربى بعدد من البيوت المالــكة فى أوروبا . وكان سكانها يفقون من حيث الاجتهاد والذكاء والشخصية على قدم المساواة مع أكثــر سكان أوروبا تقدما . بيــد أن حدودها الجنوبية كانت منــذ أمد طويل مصــدر متاعب لها زادت حــدة فى السنوات الأخــيرة . فعليها تقع مقاطعتــا شلزفيج وهولشتين اللتان لا تشكلان ــ فيما هــو معترف به ــ جزءا من الدانمرك وان ارتبطتا منذ أمد بعيد بعرش الدانمرك . وقــد كان الطابع الدانمركى غالبا فى شلزفيج التى منحت « دييتا » مستقلا . ولكن هولشتين كانت ألمانية الى حد بعيد ، وكانت تشكل فى سالف الأيام جزءا من الامبراطورية

الرومانية المقدسة التى راح الألمـان فى تلك الآونة يتذكرون عهدها بحسرة رومانطيقية . وقد اعترفت معاهدة فيينا بعضوية هولشتين فى الاتحاد الألمانى ومع أنها كانت منفصلة عن شلزفيج فقـد كانت لهما وزارة واحـدة . وبنمو الاحساس بالقومية الألمانية فى ألمانيا ، أخذت الآمال تساور الألمان فى ايجاد وسيلة ما لادماج « الدوقيتين » معا فى الدولة الألمانية . وقد أشرنا من قبـل الى اضطرابات ١٨٤٨ ، وقلنا ان محاولة الدوقيتين الانسلاخ عن الدنمرك قدسحقت ، ثم سويت المشكلة الدنمركية برمتها فى معاهدة لندن ١٨٥٢ تسوية كان المأمول أن تكون نهائية . ولقد نصت تلك المعـاهدة أولا على أن يخلف ملك الدنمرك الحالى ــ الذى لم ينجب وريثـا ــ زوج ابنة شقيقه كريستيان أمير جلوكسبورج Christian, Prince of Glücksburg ، وذلك فى جميع ممتلكاته كما هى ، على أن هـذه الممتلكات تشمل الدوقيتين . ونصت مادة أخرى على أن المعاهدة لا تؤثر بحال فى علاقة هولشتين بالاتحاد الألمانى . وقد وقعت المعاهدة الدول الخمس العظمى ــ فرنسا وبروسيا والنمسا وروسـيا وبريطانيا . لكن « دييت » فرانكفـورت رفض اقرارها بوصفه الجهاز «الناطق بلسان» الاتحاد الألمانى ، كما رفضها فردريك أوف أوجستنبورج المطالب الآخـر بعرش الدنمرك . ولكن أحدا لم يأخذ الدييت مأخـذا جديا ، ولم يـكن من المحتمل أن يزج بأوروبا فى أتون الحرب مطالب فرد بالعرش ان تمسك الموقعون على المعاهدة بموقفهم .

وارتقى الملك الجديد كريستيان التاسع العرش الدانمركى بالفعل فى ١٨٦٣ ، فكان من أول أعماله التصديق على الترتيبات التى اتخذها سلفه لاصدار دستور جديد يوحد ممتلكاته متجاهلا الاستقلال الذاتى التقليدى للدوقيتين . وقد كانت عضوية هولشتين فى الاتحاد الألمانى من العوامل التى أدت الى النتائج المشئومة لهـذا الاجراء . فقد زود ألمانيا التى كانت حساسة بصفة خاصة لما يحدث فى الدوقيتين بالسبب

الذى تحتــاجه لاشــعال الحــرب . فــكان أن أعلن فردريك أوفه أوجستنبورج مطالبتــه بعرش الدانمرك ، وأيده فى ذلك « دييت » فرانكفورت .

كان الموقف فى ذاته بسيطا — اذا أسقطنا من الحســاب أنه اتخذ سببا مباشرا لاشعال الحرب — فهو لايخرج عن وجودنزاع حول عرش الدانمرك ، وخلاف بين الدانمرك والاتحــاد الألمانى على الدوقيتين . وقد خرجت الدانمرك من الأمر خاسرة ، ولكن الاتحــاد لم يكن هو الفائز . فمن سخريات القدر أن المغانم قد عادت على بروسيا والنمسا وكلتاهما من الدول التى وقعت معــاهدة لندن واعترفت بحق الأمير كريستيان فى اعتلاء عــرش الدوقيتين . الا أن الوقوف على سر هذا التطور الغريب ليس عسيرا ، ذلك أن الدول القــوية هى التى تكسب غالبا من مشاحنات الدول الضعيفة . ولقد كانت قوة بروسيا وتصميم بسمارك وبراعته هى العامل الحاسم فى ذلك النزاع الذى بلبل أوروبا.

احتج فردريك أوفه أوجستنبورج ، كما ذكرنا ، على ارتقاء الأمير كريستيان عرش الدانمــرك اثر وفاة الملك وطالب لنفســه به ، وبحث « الدييت » الألمانى الموضوع ثم قرر تأييــده ونظرا لأن الدييت لم يكن قد وافق قط على معاهدة لندن ، فقد كان مطلق اليد تماما . وعلى هذا أصــدر أوامره « بالتنفيذ الاتحــادى » وبعبارة أخــرى قرر « الدييت » تدعيم قراره بالقوات الهزيلة التى كانت تحت امرته . ولعل الدانمرك كانت تستطيع الصــمود فى وجه هذه القــوات ، لولا أن محاربين أشد بأسا قد دخلوا الحلبة . ذلك أن بروسيا والنمسا ما كانتا لتقفان موقف المتفرج وتتركان هذه القرارات الكبرى بين يد الدول الصغرى . ولم تسمح لهمــا الغيرة القائمة بينهما بترك الأمر لتتصرف فيه كل منهما على حدة . فأسرع بسمارك الى عقد تحالف مع النمسا ، أعلنت بروسيا على أثره أنهما ستكونان المنفذتين لمشيئة « الدييت » . ورغم أن الدولتين كانتــا قد وقعتا معــاهدة لندن فانهمــا لم تضمنا

تنفيذها ، فزعمتا أن لهما حرية التصرف فى الموقف الجديد الذى نشأ وفقا لما تريان فيه مصلحتهما . وعلى هـذا سحب الجيش الاتحادى ودخل أرض الدانمرك بدلا منه جيش نمساوى بروسى مشترك .

نظرت أوروبا الى هـذه الخطوة بعين الانزعاج والعطف العام على تلك الدولة الصغرى التى تعرضت لهجوم دولتين كبريين . وما نحسب أن الدولتين الغازيتين كانتا ستمضيان فى عملهما لو ووجهتا باحتجاج أوروبى عام . ولكن أوروبا لم يكن لها فى تلك الآونة وجود اللهم الا كوحدة جغرافية وثقافية . وفكرة « الوفاق الاوروبى » European Concert التى ظهـرت فى أوائل القرن التاسع عشر ، باتت عديمة الأثر الا فيما يتصل بتركيا ، والى درجة محـدودة فقط . أما أفكار القـرن العشرين التى تمثلت فى عصـبة الأمم أولا ثم فى الأمم المتحدة ثانيا فلم تكن قد ولدت بعد . ولم تكن هناك دولة بذاتها أو مجموعة من الدول على استعداد للتدخل . فالنرويج والسويد جعلتا تتابعان الموقف بعين العطف على الدانمرك ، الا أنهما لم تحركا ساكنا مما أثار استياء ابسن البـالغ (١) . واستخدم بالمرستون عبارات يفهم منها أن بريطانيا لن تقف مكتوفة الأيدى حيال غزو الدانمرك ، ولكنه لم يتجاوز حـد الكلام ، فعندما آن أوان الجـد لم تؤيده المعارضة ولا الملـكة وانقلبت عليه أغلبية أعضاء وزارته . لقد شهر بلمرستون سيفه فى وجـه خصم أقـوى منه ، وأخـذ نجمه يأفل بصعود نجم بسمارك . أما نابليون الثـالث فكان مشـغولا بالمسألة المكسيكية الشائكة ، ولم يكن فى تلك اللحظة على عـلاقة طيبة ببريطانيا . ثم انه كان قد نصب نفسه مدافعا عن مبدأ القومية ، والأعذار كانت تلتمس للدولتين الألمانيتين باعتبـار تصرفهما خطوة نحو الوحـدة القوميـة الألمانية . وهكذا حالت أقواله وأفعـاله بالنسبة لايطاليا دون تصديه لبروسيا والنمسا فى ألمانيا . لم يبق اذن الا روسـيا ، ولكن بسمارك

(١) Ibsen شاعر ومؤلف مسرحى نرويجى ذو شـهرة عالمية وقد عاش فى الفترة مابين ١٨٢٨ — ١٩٠٦ (المترجم).

كان قد ضمن حيادها بموقفه من الثورة البولندية .

وعلى هذا سارت الحرب الى نهاية سريعة مؤكدة . وقد أظهر الجنود النمساويون — فيما شاع — تفوقا على البروسيين . ولما باتت هزيمة الدانمرك محققـة دعى مؤتمر للاجتماع فى لنـدن ، ولكن الشروط التى عرضـها المنتصرون كانت أقسى من أن تسمح بتسوية الموقف ، فكان أن استمرت الحرب حتى تم طـرد الحكومة الدانمركيـة من أراضيها الأصلية مما اضطرها الى قبول الشروط التى أملاها العـدو الظافر ، وهى شروط تثير الدهشة والعجب . فالمفروض أن بروسـيا والنمسا كانتـا تتصرفان بوصفهما منفذتين لمشيئة الاتحـاد الألمانى ومصلحة فردريك أوف أوجستنبورج ، ولـكن موكليهم خرجوا من الأمر صفر اليدين ، بينما استأثرتا همـا بكل شيء . لقد ضربت هذه الشروط عرض الحائط بمصالح أوروبا وقواعد الانصـاف الدولية دون خفاء أو مواربة . فقد أعلنت معـاهدة الصلح التى تعجل عقدها بسمارك — اذ كان أخشى مايخشاه دائما هـو تدخل مؤتمر أوروبى — أعلنت تخلى ملك الدانمرك « عن جميع حقوقه على دوقيات شلزفيج وهولشتين ولاونبرج Lauenburg لصالح صاحبى الجلالة ملك بروسيا وامبراطور النمسا (١) ». لقد أغفل الاتحاد الألمانى اغفالاتاما ،

(١) المادة الثالثة من معاهدة فيينا الموقعةفى ٣٠أكتوبر ١٨٦٤ بين النمسا وبروسـيا والدانيمرك . هـذا وقد أعطت اتفاقية جاسـتين Gastein Convention فى ١٤ أغسطس ١٨٦٥ ، شلزفيج لبروسـيا وهولشتين للنمسا على أن يكون لهما حق ادارتها فقط ثم نقلت معاهدة براغ فى ٢٣ أغسطس ١٨٦٦ بنص المادة الخامسة جميع حقوق النمسا الى بروسيا ولكنها أشارت باجراء استفتاء عام فى منطقة شمال شلزفيج للبت فى أمر عودتها الى الدانيمرك . وقد جعل بسمارك يماطل فى اجراء هذا الاستفتاء ، فلم يتم شيء فى أمره حتى ١٩١٩ . ثم نصت المواد ١٠٩ — ١١٤ من معاهدة فرساى على اجراء هذا الاستفتاء . وقد اجرى فعلا وفيه قررت المنطقة الشمالية من شلزفيج العودة الى الدانيمرك ، فاعيدت اليها .

وأهملت مساعى انجلترا وفرنسا للتدخل فى التسوية ، وعومل دوق أوجستنبورج الذى تدخلت بروسيا والنمسا نيابة عنه فيما بدا ، بازدراء تام . وقد أجرى فى برلين بحث فى الوضع القانونى لوراثة عرش الدانمرك ، أعلن على أثره أن كرستيان التاسع هو الوريث الشرعى الوحيد للتاج الدانمركى والدوقيتين جميعا وأن له بناء على ذلك مطلق الحق فى التنازل عنهما فى المعاهدة . وهكذا لم يبق على النمسا وبروسيا أن تقدما حسابا لأحد عن احتلالهما للدوقيتين .

وفى هذه الأحداث المتشابكة تكمن بوادر تلك الأوضاع فى أوروبا التى لن تلبث أن تقودها الى حربين أوروبيتين كبيرتين ، ثم الى الحرب العالمية الأولى بعد ذلك بأربعين عاما . « لقد خذلت انجلترا وفرنسا ، وخذلت فرنسا وانجلترا وخذلت كلتاهما أوروبا ، فأصبح النصر من نصيب بسمارك وحده . لقد تحسس قلب فرنسا وتبين ضعف نبضاته ، وأدرك قصور انجلترا عن الحركة ، وشل يد روسيا بذكريات المشكلة البولندية » .

وهكذا وقعت شلزفيج وهولشتين بلا حول ولا قوة بين يدى النمسا وبروسيا . وقد طفق كل من الشريكين ينظر منذ البداية الى الآخر بعين الريبة والعداء . فلم يحمل احتلالهما المشترك للدوقيتين بين طياته عنصر الدوام ، ولن يلبث أن يؤدى قبل أن يمضى عليه عامان الى قيام حرب كبرى بينهما . حقا ان الحالة فى أوروبا كانت غير مستتبة وثمة مشاكل عديدة كان يمكن أن تؤدى الى نشوب الحرب ، الا أن القوة الدافعة الى الحرب قد تمثلت بلا كبير شك فى قوة وطموح بروسيا ووزيرها العتيد . فقد كان الحلم الذى لم يبرح مخيلة بسمارك قط هو توحيد ألمانيا على يد بروسيا وبسط السيطرة البروسية عليها ؛ وكانت تقاليد النمسا ومزاعمها هى العقبة الكأداء فى سبيل تحقيق ذلك الحلم .

أما المشكلة التى ساعدت على تحقيق خطط بسمارك فقد ظهرت فى الطرف الآخر من كتلة أراضى أوروبا الوسطى . اذ كانت الحكومة

الايطالية جنوب الألب تحرص كل الحرص على كسب أراض جديدة رغم الصعوبات التى تلاقيها فى ادارة الأراضى التى فازت بها مؤخرا . وكانت روما هى المدينة والأرض المشتهاة قبل غيرها ، ولكن فرنسا كانت تقف حجر عثرة فى الطريق اليها . وكانت ايطاليا قد وقعت فى سبتمبر ١٨٦٤ معاهدة مع فرنسا وعدت فيها بالامتناع عن مهاجمة روما وباتخاذ فلورنسة عاصمة لها بدلا منها ، وبناء على تلك الشروط وعدت فرنسا بسحب حاميتها من روما . على أنه اذا كانت روما قد حرمت على مملكة ايطاليا فان البندقية لم تحرم . حقيقة أن البندقية كانت من عدة أوجه منفصلة سواء من حيث التاريخ أو الطباع عن بقية ايطاليا ، الا أنها كانت راغبة فى الاندماج فى ايطاليا ، وكانت ايطاليا تشعر بأن وجودها لن يكتمل طالما ظلت البندقية تحت حكم الهابسبورج . وقد شرع بسمارك الذى كان يدرك أن بلاده مقدمة على صراع مع النمسا فى مفاوضة ايطاليا ، فتوصل معها بشىء من الصعوبة الى اتفاق على أن يدخل البلدان بجميع قواهما المعركة ضد النمسا فى حالة نشوب الحرب معها ، وعلى أن تمتنع بروسيا عن عقد الصلح حتى تحصل ايطاليا على البندقية . ولكن ما القول فى فرنسا ؟ ان نفوذها قد يكون حاسما . فنابليون الثالث كان لا يزال يتطلع الى اعتباره الفيصل بين السلم والحرب فى أوروبا . لقد قام بسمارك فى أكتوبر ١٨٦٥ بزيارته الشهيرة له فى بياريتز Biarritz ، وهناك تمكن فى جو من المرح الظاهرى من ضمان حسن نية فرنسا . كان نابليون يعيش فى عالم من الأحلام فقال : « ان بروسيا وفرنسا هما من بين بلدان أوروبا البلدان اللذن تكاد تتماثل مصالحهما » . قالها ولن تمضى خمس سنوات حتى تقع معركة سيدان !

وقد بدا فى وقت من الأوقات أن الحرب توشك أن تقع فى ١٨٦٥ ، فقد أثارت شركة النمسا وبروسيا فى الدوقيتين صعوبات ومشاكل عديدة ، ولكن اتفاقية جاستين لم تلبث أن «رأبت الصدع من الظاهر»

فى أغسطس فاقتسم الشريكان الغنائم ، وتقرر أن تتولى بروسيا ادارة شلزفيج وهى الدوقيـة الأقرب الى الشمال ، على أن تتولى النمسا ادارة هولشتين وهى الدوقية التى يغلب عليها الطـابع الألمانى . لقد كان الموقف شائكا ولـكنه ما كان ليستعصى على الحل السلمى اذا ما توفرت الرغبة القوية فى السلام .

على أن الموقف السياسى داخل بروسيا قد ساعد على ابعاد احتمال انتهاجها لسياسة السلام . ذلك أن معارضـة الأحرار لم تتوقف عن مهاجمة بسمارك وجميع أعماله ، وان تكن التسوية الدنمركيةقدوفرت بعض دواعى الرضى — اذ انتهت الى وضع الدوقيتين من ذلك الحين قصاعدا فى أيد ألمانيـة . وقد تقدمت هذه المعارضة فى فبراير ١٨٦٦ بمشروع قرار بلوم الحكومة لملاحقتها بعض أعضاء الجمعية ، فعادت من جديد ذكرى شارل والبرلمان المديد التى لم تكن قد برحت الأذهان قط ، وأقر لوم الحكومة بأغلبية ٢٦٣ صوتا ضد ٣٥ صوتا . فماكانمن بسمارك الا أن عطل الجمعية مؤقتا ثم حلها . ومن الغـرابة بمكانأن القلاقل السياسية الداخلية قد قوت من عزيمـة بسمارك بدلا من أن تفت فى عضده .

وقد وقع الصـدام مع النمسا حول التأييد الذى قيل انهـا أبدته لمطالب فردريك أوف أجستنبورج . ذلك أن النمسا وبروسـيا كانتا تتبعان فى ادارة المقاطعتين سـياسة مختلفة تماما . فقـد بذل الممثل النمساوى قصارى جهـده لكسب مودة أهالى هولشتين ، ووصف فى أحاديثه مطالب فردريك أوف أوجستنبورج بأنها لم تعد باطلة . بينما راحت بروسيا تحكم منطقتها بيد من حديد دون أن تقيم وزنا لمشاعر الشعب وأمانيه . فلما عقد اجتماع فى ألتونا Altona — الواقعة بالقرب من هامبورج وفى المنطقـة الخاضعة للنمسا — تأييدا لمطالب أوجستنبورج ، اعتبرت بروسـيا ذلك عملا عدائيا ، وعـذرا كافيا لاشعال نيران الحرب التى ما برح موجهو السياسة البروسية يتنبأون

بها ويتطلعون اليها منــذ زمن وهو أمر يمكن أن نجزم به دون أدنى شك . حقيقة أنه ما من حرب تنشأ عن سبب واحــد أو نتيجة لتصرف فرد واحد ، فهناك دائما أسباب ثانوية وعوامل مساعدة عديدة . ولكن من الأمور المؤكدة أن بسمارك ومولتكه ورون كانوا فى ١٨٦٥ راغبين فى قيام حرب مع النمسا لاعتقادهم بضرورتها لمصالح بروسيا وسياستها فى ألمانيا . ثم ان التغلب على المتاعب الداخلية والمقاومة العنيفة التى تبديها المعارضــة البرلمانية لم يكن مستطاعا ، فيما يبدو ، الا بهذه الطريقة . وقد وصف مولتكه تلك الحرب فيما بعد بأنها « حرب تطلعت اليها الأبصار قبل وقوعها بأمد طويل ، ودبرت عن قصــد ، واعتبرها مجلس الوزراء ضرورية لا لتحقيق توسع اقليمى وانما لضمان زعامة بروسيا فى ألمانيا ». وقد أدرك بسمارك أيضا أن مركزه الشخصى كان متوقفا على نتيجة الصراع فقال « لو فشلت لقذفت بى عجائز النساء الى البالوعة مشيعا بلعناتهن » .

لقد كان لمصــير شلزفيج وهولشتين أهمية كبرى ، ولكنه سرعان ما تراجع الى مؤخرة الصــورة . ذلك أن الأفق أخــذ ينذر بنشوب حرب بين دولتين عسكريتين كبيرتين ، فراح ساسة أوروبا يبحثون فى قلق محموم المشاكل التى قــد تنجم عن مثل هــذا الموقف . وما أكثر النوايا الطيبة والخطط الرامية لمنع الحرب التى أعلنتها الدول غير المعنية بالأمر بصفة مباشرة ، فى الوقت الذى أخذت تتأهب فيه للظفر بمغنم ما سواء من أرض أو نفوذ اذا ما نشبت الحرب فعلا . على أن الجو السائد كان مفعما بالتنافس والريبة بل والخــوف قبل كل شىء ، مما وضع أشد العراقيل فى وجه المحاولات التى بذلت لصيانة السلام . وقد كان «للدييت» الألمانى بفرانكفورت بعض الحق فى أن يعتبر حكما فى النزاع ، ولكن بروسيا والنمسا لم تكونا على استعداد لقبول أى تدخل من جانبه . فكان أن سارت أوروبا ، على نحــو شاهدته مرارا من قبل وستشاهده ثانية من بعد ، بخطى مترنحة الى الحرب عبر متاهة

من المقترحات والمقترحات المضادة ومشروعات نزع السلاح والدعوات الى تسوية الموقف عن طريق مؤتمر . على أن بسمارك لم يزعزع قط لافى ايمانه بأن السيف هو السبيل الوحيد لحل المعضلة ولا فى عزمه على اللجوء اليه ، فلم يكن أمام الملك وليم الا الاذعان شيئا فشيئا لارادة وزيره القوى .

وثمة أمر واحد كان مؤكدا وسط الحيرة والغموض ألا وهو أن ايطاليا ستحصل على البندقية مهما حدث . فبروسيا قد وعدت بألا تعقد صلحا الا بهذا الشرط . والنمسا من جانبها قد أعربت ــ حرصا منها على كسب حياد فرنسا قبل كل شيء وتأييدها أيضا اذا أمكن ــ عن استعدادها للتنازل عن البندقية حتى لو سارت الحرب فى صالحها فى ايطاليا وألمانيا . على أن وازع الشرف العسكرى قد منعها من تسليمها الى ايطاليا فى التو واللحظة والحيلولة بالتالى دون اشتراك ايطاليا على أى وجه فى الحرب المقبلة .

وقد بدا أن الامبراطور الفرنسى هو الذى يمسك الميزان بين يديه . فلم تتوقف المفاوضات بينه وبين النمسا وبروسيا وايطاليا . وظل الموقف الذى ستتخذه فرنسا غير مؤكد حتى آخر لحظة رغم مقابلة بسمارك الشهيرة مع نابليون فى بياريتز . وكان الامبراطور قد وقع فريسة للداء الذى ثبط ــ فيما يبدو ــ همته وأضعف عزيمته منذ ذلك الحين حتى وفاته . فلم يكن ــ على النقيض من بسمارك ــ يرى شيئا بوضوح وجلاء ولم يكن متأكدا من رغباته الخاصة ، بل كان يعيش فى عالم من المشروعات الغامضة التى هى خليط من الحقائق والأوهام ، ورغباته كانت عديدة متضاربة فهو يريد أن يظهر فرنسا بمظهر حارسة السلم فى أوروبا ، وهو يريد أن يفعل شيئا من أجل قضية القومية التى طالما بشر بها ، وهو يريد أن يساعد ايطاليا فى الطريق الى الوحدة ، وهو يريد قبل هذا كله أن يحقق لفرنسا فى حالة نشوب الحرب كسبا ما على حدود الراين اذا وجد الى ذلك سبيلا . وكان

يعتقد أن قوات بروسيا والنمسا متكافئة تقريبا وأن الحرب ستكون على ذلك حربا طويلة غير حاسمة ، وأن سيف فرنسا فى النهاية هـو الذى سيتدخل لترجيح احدى الكفتين . وقد أخذ يتجه قبيل اندلاع نيران الحرب اتجاها واضحا الى صف النمسا . فوقع معها فى يونيـو ١٨٦٦ اتفاقا وعدت فرنسا بمقتضاه بالتزام جانب الحياد وبذل قصارى جهدها لابقاء ايطاليا أيضا على الحياد ، بينما وعدت النمسا بتسـليم البندقية لايطاليا فى نهاية الحرب أيا كان مجراها وبالتشاور مع فرنسا حول أية تغييرات فى الدستور الألمانى أو فى توازن القوى بين أعضائه

وقد شهد « دايت » فرنكفورت آخر مراحل النزاع الدبلوماسى ، فقد أثارت اتفاقية جاستين حفيظة الدول الألمانية الصغرى على النمسا وبروسيا جميعا . ولكن نفوذ هذه الدول على مجرى الأحداث كان ضئيلا . فقد باتت الكلمة الأخيرة ، كما رأى ترايتشك Treitschke فى سرور بالغ ، للقوة لا للآراء والأصوات ، ولقد أظهرت الحـرب الدانيمركية مدى ضآلة نصيب « الدايت » من القوة . وكانت فكرة اصلاح الدستور الألمانى قد أخذت تداعب ذهن بروسيا منذ بعض الوقت . فعمدت فى يونيو ١٨٦٦ الى تقـديم اقتراح محـدد بحـل « الديت » القائم والغاء الدستور ، وانتخاب جمعية وطنية جـديدة للنظر فى وضع دستور قومى تستبعد منه النمسا والأراضى النمساوية. فأجابت النمسا على ذلك باعلانها أن بروسيا قد خرقت معاهدة فيينا واتفاقية جاستين ، وراحت تدعو الى تعبئة الجيش الاتحادى ضدها . وقد حصل الاقتراح النمساوى على سبعة أصوات ضد ستة . وكانت بفاريا وسكسونيا وهانوفر وبادن ضمن مؤيدى النمسا . واحتـج سافينى Savigny مندوب بروسيا رسـميا على تصرف النمسـا باعتباره تصرفا غير دستورى ، وأكد من جديد انتهاء الدستور القائم واستعداد بروسيا للتعاون فى وضع دستور جديد . ولكن ذلك كله كان عبثا لا طائل من ورائه الى أن يفصل فى الموقف قرار عسكرى . وقد جاء ذلك القرار الحاسم بسرعة فائقة غير متوقعة بالمرة .

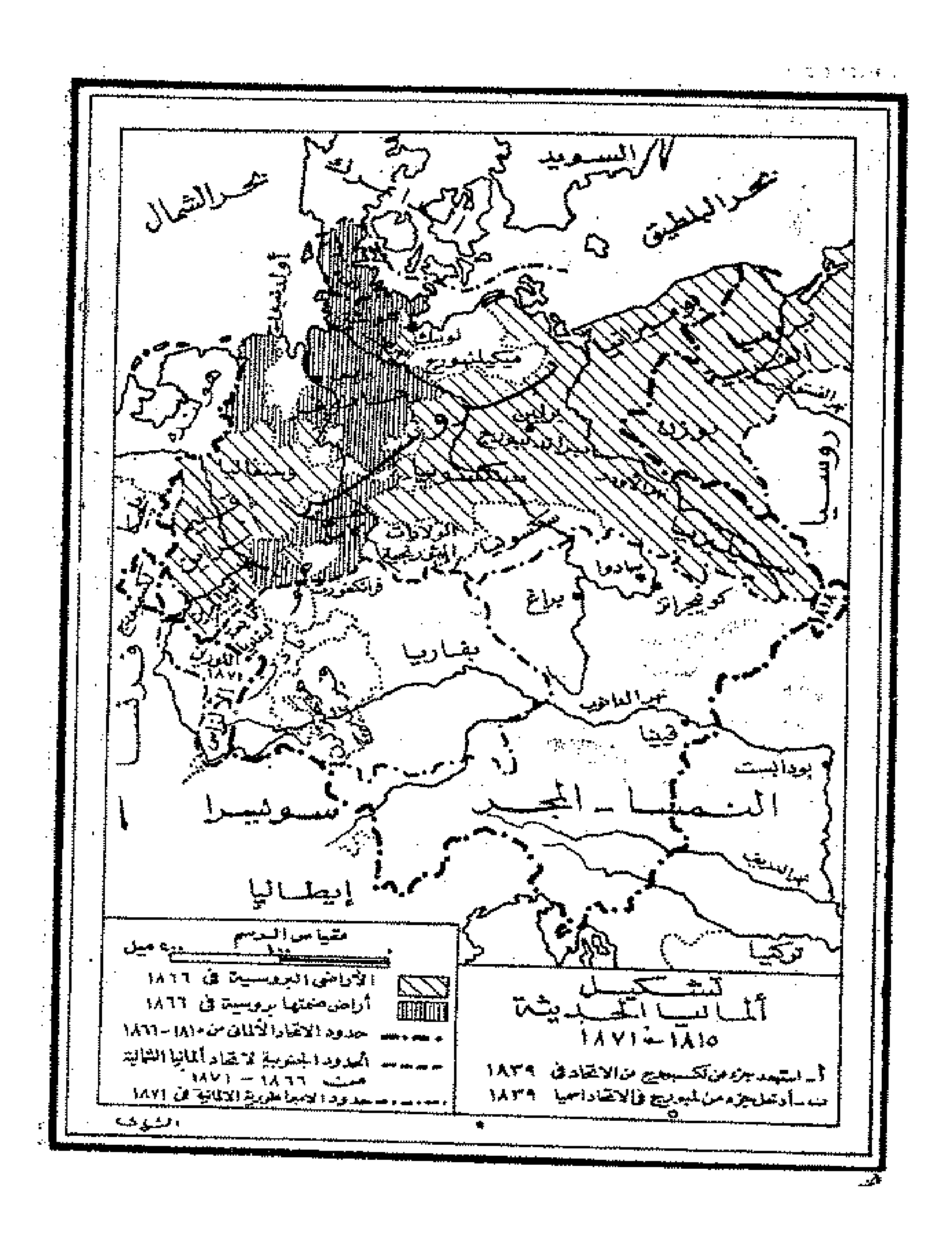
الفصل التاسع عشر
هزيمة النمسا واقتراب الحرب مع فرنسا

راحت أوروبا ترقب الحرب بين بروسيا والنمسا بعين الدهشة.وكان الرأى السائد هو أن فرصة النمسا فى النصر أقوى من فرصة غريمتها ذلك أن النظام العسكرى البروسى لم يكن وضع موضع التجربة وشاع الاعتقاد بأن الجنود البروسيين الذين لم يقضوا فى الخدمة العسكرية الا فترة صغيرة لن يثبتوا أمام الجنود النمساويين ذوى التدريب الطويل والتقاليد العسكرية العريقة أنهم أكفأ كثيرا من قوات « حرس وطنى » . وكان نابليون الثالث يأمل أن يكون الصراع متكافئا حتى يتيح له فرصة التدخل ويمكنه من الظهور مرة أخرى بمظهر جالب السلم والنصر .

ولكن الصورة الفعلية التى قدمتها الحرب جاءت مخالفة تماما لما كان متوقعا . فقد أدى الجهاز العسكرى البروسى دوره بدقة رهيبة ، وثبت أن البندقية ذات الابرة سلاح يفوق بندقية الشاسبوت الفرنسية، وقد تعرضت استراتيجية مولتكه حقا لبعض النقد ، ولا مراء فى أن الصراع بدا فى بعض اللحظات متكافئا تماما ، وفى أنه كان يمكن لأى ثقل صغير يلقى فى الكفة الأخرى أن يرجحها ويؤدى الى انهاء الحرب نهاية مغايرة . على أنه اذا كان الحظ قد لعب دورا فانه قد لعبه فى صالح بروسيا وحدها . فانتصر مولتكه دون أن يصادفه مقاومة جدية تذكر وقد أديرت الحملة بالأسلوب الذى أصبح يعرف فيما بعد باسم الأسلوب البروسى الكلاسيكى . فلم يحدث أى تأخير فى بدء القتال ، وكان كل شىء معدا من قبل ، فتمكنت بروسيا من اتخاذ

موقف الهجوم منذ اللحظة الأولى ، وتقررت النتيجة بعد ثلاثة أسابيع . قامت الحرب في ١٤ يونيو عقب الجلسة الأخيرة من جلسات الدييت الألماني . وتعين على بروسيا أن تواجه قوات عدوين : فهنالك الجيش النمساوى فى بوهيميا ، والجيش الهانوفرى الذى كانت خطته تقضى بالانضمام الى البافاريين والألمان الجنوبيين . وفى ٢٨ يونيو — أى بعد أسبوعين تماما من اعلان الحرب — وقع الجيش الهانوفرى فى براثن العدو فقضى عليه قضاء مبرما فى لانجنسالزا Langensalza . وبعد ذلك بخمسة أيام (٣ يوليو) التحم مولتكه بالجيش النمساوى فى ساحة القتال التى يطلق عليه المؤرخون الانجليز عادة اسم سادوا ويسميها المؤرخون الألمان كونيجراتز Koniggratz . وقاتل النمساويون بقيادة بنيديك Benedek ببراعة وعناد ، ومرت لحظات جعل بسمارك يرقب فيهاوجه مولتكه بعين القلق محاولا أن يقرأ فيه مايشير الى مصير اليوم . على أن وصول ولى العهد البروسى الى ميمنة الجيش النمساوى بعد مسيرته الشهيرة ، مالبث أن قرر مصير اليوم ووهب النصر للبروسيين .

وقد اضطرت النمسا بسبب تحالف ايطاليا مع بروسيا الى الاحتفاظ بقوة ضخمة جنوب الألب كان يمكن أن تكون لها فائدة كبرى فى سادوا . ولم يظهر الايطاليون مهارة تذكر أمام الأرشيدوق ألبرخت Archduke Albrecht فى سهل لومبارديا ، وقد انتهى بهم المطاف الى الهزيمة الفادحة . ففى ٢٤ يوليو سحقت قواتهم فى كستوزا Custozza وهى الموقع الذى منيت فيه أمانى الوطنيين الايطاليين فى مرة سابقة بضربة شديدة . كما منى الأسطول الايطالى الذى كان تفوقه على الأسطول النمساوى مؤكدا فيما يظن ، بهزيمة فادحة فى معركة ليزا Lissa ولو أن ايطاليا كانت تقف بمفردها لتبددت جميع ثمار عام ١٨٥٩ . ولكن بسمارك كان قد وعد بالامتناع عن عقد الصلح مالم تنل ايطاليا البندقية . فكان أن أكمل نصر البروسيين فى سادوا



السويد
بحر البلطيق
بحر الشمال
روسيا
مكلنبورج
بافاريا
براغ
فيينا
بودابست
نهر الدانوب
النمسا - المجر
سويسرا
إيطاليا
تركيا
فرنسا
مقياس الرسم
ميل
الأراضي البروسية في ١٨٦٦
أراضي ضمتها بروسية في ١٨٦٦
حدود الاتحاد الألماني من ١٨١٥-١٨٦٦
الحدود الجنوبية لاتحاد ألمانيا الشمالية
حيث ١٨٦٦ - ١٨٧١
حدود الامبراطورية الالمانية في ١٨٧١
تشكيل
ألمانيا الحديثة
١٨١٥ - ١٨٧١
أ - استبعد جزء من لكسمبرج من الاتحاد في ١٨٣٩
ب - أدخل جزء من ليمبرج في الاتحاد أيضا ١٨٣٩

العمل الذى أنجز فى ماجنتا Magenta وسولفيرينو Solferino

ولم يكن انتهاء الحرب بعد سادوا مؤكدا . فان هزائم الايطاليين والمطامع العسكرية لمولتكه وملك بروسيا كانت تشير بالأحرى الى أن القتال سيستمر حتى يتم الزحف على فيينا . والفضل فى انتهاء القتال واجراء مفاوضات الصلح بعد أن أحرزت الجيوش البروسية بعض التقدم فى زحفها نحو هدفها ، يكاد يرجع الى بسمارك وحده . فهو لم يثبت قط أنه أستاذ فى الدبلوماسية كما أثبت خلال السنوات الأربع بين ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ، ولا يصح أن نصف ما أظهره فى تلك الفترة بأنه مجرد براعة دبلوماسية بل هو من قبيل الحنكة السياسية الأصيلة كذلك . لقد كانت وحدة ألمانيا بزعامة بروسيا هى الفكرة التى تحتل المقام الأول بين أفكاره . وهذه الوحدة لم تكن لتتحقق بالنصر العسكرى على جيوش هى فى جوهرها جيوش ألمانية . لقد كانت مصالحة الألمان الجنوبيين أمرا لازما ، وكان من الضرورى أن تعامل النمسا على نحو لا يدفعها الى النظر الى بروسيا نظرة الحقد الذى يطغى على كل ماعداه من الاعتبارات . ثم ان بسمارك كان يخشى أمرا آخر ألا وهو تدخل الامبراطور الفرنسى . ولئن كانت الأيام قد أثبتت حقا أن الصراع جاء أبعد مايكون عن التكافؤ الذى كان يأمله نابليون الثالث ، فانه قد ظل حريصا على أن تقبله الدولتان وسيطا ، وقد أرسل السفير الفرنسى بنيديتى Benedetti الى مقر القيادة البروسية فى نيكولسبورج Nikolsburg لهذا الغرض . وبسمارك يحدثنا فى فصل شيق للغاية من كتابه « خواطر وذكريات »[١] عن الأسباب التى حدت به الى الاصرار على عقد الصلح . ومحور تفكيره يتمثل فى هذه العبارة « ان علينا أن نفرغ بسرعة ، قبل أن تجد فرنسا

---

(١) "Reflections and Reminiscenes" الفصل العشرون من الترجمة الانجليزية الصادرة فى ١٨٩٨ .

وقتا لممارسة الضغط الديبلوماسى على النمسا » . وعلى هـذا أجبر الملك على التخلى على مضض عن فكرة الزحف الى فيينا وقبول شروط بدت له فى أول الأمر غير كافية بالمرة . ووقعت معـاهدة براغ فى ٢٣ اغسطس ١٨٦٦ فآلت البندقية والأراضى الملحقة بهـا الى ايطاليا . اذ سلمتها النمسا لنابليون ـ الذى أسعده أن يلعب دورا ما فى الدراما العظيمة ـ ليقوم بتسليمها لايطاليا . ولقد جرح هـذا الاجراء كبرياء الايطاليين جرحا بالغا وجاء مثلا جديدا على عجز نابليون عن كسب تأييد ايطاليا بعد كل مافعله من أجلها . وأعلنت المادة الرابعة من المعاهدة أنه لم يعد للنمسا أن تطالب بالمساهمة بأى نصيب فى تنظيم ألمانيا . وتقرر بموجبها تشكيل « اتحاد ألمانيا الشمالية » وربط دول ألمانيـا الجنوبية فى كيان دولى مستقل . وتقرر أن تذهب شلزفيج وهولشتين الى بروسيا وان تضمنت المعـاهدة نصا لم ينفذ قط باعادة جزء من شلزفيج الى الدانيمرك اذا أعرب هذا الجزء عن رغبتـه فى ذلك فى استفتاء عام . لقد عاد الجنود ظافرين الى برلين ، وأثبت مولتكـه عبقريته كجندى وأظهر الملك وليم شيئا من عظمته الشخصية ، ولكن العقل المدبر من أول الأمر الى آخره كان عقل بسمارك .

وقد تفاوتت المشاعر فى أوروبا حيال هذه الأحداث الجسام من بلد لآخر . فقد قوبلت فى بريطانيـا بارتياح عام . وأدلى اللورد ستانلى Lord Stanley وزير الخارجيـة بتصريح سيبرز المستقبل أهميـة كلماته : « اذا كنتم تعبرون المحافظة على السـلم معنا أى اهتمـام ، فعليكم أن تتجنبوا مسائل ثلاثا : مصر والقسطنطينية وبلجيكا » . أما فى فرنسا فقد اعتبر نصر بروسيا كارثة كبرى . فقد قضى انتصـار بروسيا فى سادوا على تفوق فرنسا فى أوروبا . فقال الماريشال راندون Randon « ان فرنسـا هى التى هزمت فى سـادوا » . وقال تيير « ان ماحدث ليعد بالنسبة لفرنسا أعظم كارثة نكبت بها طوال أربعمائة

عام » — أى منذ نهاية حرب المائة عام . ولا مراء فى أن نابليون الثالث شعر بأعمق الحزن لانتصار بروسيا . ولكنه حاول اخفاء غمه بقــوله ان ذلك النصر هو نصر لمبدأ القومية الذى طالما دافع عنه بحماســة . وأضاف الى ذلك ، فى شىء من التناقض ، أن ألمانيا قد قسمت الى ثلاثة أقسام مستقلة وأن كل قسم على حدة يعد أصغر حجما من فرنسا ، وأعلن صراحة أن فرنســا ستحول مستقبلا دون قيام أى اتحاد جديد بين هذه الأقسام ، وأنها ستعمل على اعادة تنظيم جهازها العسكرى . كمــا أعرب عن أمله فى الحصول لفرنســا على تعــويض ماعن الزيادة الضخمة فى سلطان بروسيا ، تمشيا مع فكرة التوازن الدولى . ولكن المرض كان قد اشتد به فى تلك الآونة ، فتعين عليه أن يترك لوزرائه جانبا كبيرا من المسئولية فى تصريف شــئون فرنســا الديبلوماسية . ومجريات النشاط الديبلوماسى فى تلك الفترة تثبت امتيــاز بسمارك الخارق فى كافة النواحى ، فقد كان يعرف مايريد وكان يعرف طريقه للحصول عليه ، وقد أظهر فى القوة والنعومة ، وفى الأمانة والخداع ، تفوقا أكيدا على الديبلوماسيين الفرنسيين الذين واجههم فبدوا أمامه هواة يتبارون مع أستاذ لا يشق له غبار .

وقد أوعز نابليون أولا وقبل عقد الصلح بين بروسيا والنمسا ، الى بنيديتى سفيره فى بروسيا أن يشير الى أن فرنسا قد تستمال الى قبول ضم بروسيا للأراضى التى تنوى ضمها فى ألمانيا ، اذا ماسمح لها (أى لفرنسا) أن تمد حــدودها الى الراين بل وأن تضــع يدها على مينز Mainz كذلك . ومعنى هذا أن تضم فرنسا أراضى ألمانية خالصــة من حيث الأصل والطباع . وفضلا عن ذلك فان جزءا من هذه الاراضى كان تابعا لبافاريا ، زعيمة الألمان الجنوبيين ، التى كانت فرنسا تحرص على كسب ودها بصفة خاصة . وقد تعمد بسمارك ألا يظهر بادىء الأمر نفوره التام من هذه المقترحات ، بل حث بنيديتى على تقــديم بيــان

رسمى بمطالب فرنسا . وما ان تم ذلك حتى جوبهت تلك المطالب بالرفض القاطع ، فأعلن ملك بروسيا أنه لن يتخلى بحال من الأحوال عن قرية ألمانية واحدة وأنه يؤثر على ذلك المغامرة بدخول حرب جديدة . فاضطر الامبراطور الفرنسى الى سحب مقترحاته لأنه لم يكن مستعدا لفرضها بقوة السلاح . وكانت تلك صدمة مهينة للدبلوماسية الفرنسية لم يقف أمرها عند هذا الحد ، فقد أبلغ بسمارك المقترحات الفرنسية الى مراسل صحيفة « لو سييكل Le Siécle الفرنسية فنشرتها على الملأ وعرفها العالم أجمع . وهكذا لقن الألمان الجنوبيون درسا ، لقنوا أن يروا فى نابليون صديقا خئونا ، وأن يروا فى بروسيا المدافع الصلب عن وحدة ألمانيا وسلامتها بل وسلامة تلك الدول التى كانت تحارب ضدها (١) . ولم يعد بوسع نابليون أن يلجأ فى تبرير مسلكه هذه المرة الى مبدأ القومية الأثير عنده .

لقد فشلت فرنسا فى الحصول على تعويض على حدودها الشرقية ، فهل يكون حظها أسعد فى الشمال ؟ لقد حذرها بسمارك من مغبة الاقتراب من الأراضى الألمانية ، فهل تراه يذود عن أراضى بلجيكا بنفس الصلابة ؟ كان مد حدود فرنسا الى الشمال حلما من أحلام ساستها مدى قرون طويلة . وكان جانب كبير من البلجيكيين يتحدثون بلسان فرنسى . ولم تكن بلجيكا دولة عريقة وانما كانت من الدول التى أنشأتها الدبلوماسية الأوربية منذ زمن قريب نسبيا . وكان بسمارك

---

(١) وقعت المعاهدات البروسية مع دول المانيا الجنوبية فى تلك الأونة اى قبل صلح براغ . وقد نصت المادة الرابعة من معاهدة الصلح هذه على ان حدود اتحاد المانيا الشمالى الجديد تقع « شمال خط نهر المين Main بينما نصت المعاهدات التى وقعتها بروسيا مع الدول الجنوبية على امتداد النفوذ البروسى جنوب ذلك النهر مما يدفعنا الى القول بأن المادة الرابعة من معاهدة براغ قد انتهكت من قبل أن توقع على ما فى ذلك القول من تناقض ظاهر .

قد استخدم عبارات يفهم منها — على مابدا — أن احتلال فرنسا لبلجيكا لن يعتبر حتما عملا عدائيا لبروسيا . فصدرت التعليمات لبنيديتي بعرض هذه الفكرة الجديدة على الحكومة البروسية.ويحيط بهذه الواقعة وتفاصيلها الكثير من الغموض وتضارب الأدلة . بل ان تاريخها نفسه ليس مؤكدا بحال وان ساد الاعتقاد بأنها كانت فى أغسطس . على أنه من المؤكد أن بنديتي قد عرض الفكرة بالتدريج ، ثم قدم لبسمارك فى النهاية اقتراحا مكتوبا بأن تساعد بروسيا فرنسا وتحميها من التدخل الأجنبى فى حالة غزوها لبلجيكا . الا أن الموقف فى أوروبا كان يتطور باستمرار لصالح بروسيا مما أدى الى تضاؤل أهمية حصولها على معاونة فرنسا . وعلى هذا رفض بسمارك فكرة توسع فرنسا صوب بلجيكا بنفس الحزم الذى رفض به تعويضها على حدود الراين . وقد احتفظ بأصل المشروع الذى قدمه بنيديتى ، ثم استخدمه بعد ثلاث سنوات ليحدث به أثرا حاسما فى لحظة حرجة . فعندما نشبت الحرب فى ١٨٧٠ بين فرنسا وألمانيا وظهر الخوف من انحياز الرأى العام الانجليزى الى صف فرنسا ، أعطى بسمارك الوثيقة الى مراسل صحيفة التايمز The Times ، وبنشرها تبين القراء الانجليز أن الأمبراطور الفرنسى كان يسعى فى وقت من الأوقات الى انتهاك حياد تلك الأراضى البلجيكية التى طالما قدروا أن استقلالها أمر لازم لمصالحهم ، فأدى ذلك الى تحول مشاعر الانجليز لصالح ألمانيا .

لقد حرم على فرنسا بلوغ حدود الرين كما حرمت عليها بلجيكا . ولكن ما القول فى لوكسمبورج ؟ ان ضم الدويلة الصغيرة سيعد نصرا عظيما ، وربما أمكن أن يتم دون اثارة معارضة رجل الدولة البروسى العظيم . كانت دوقية لوكسمبورج مجموعة غريبة حقا من المتناقضات . فقد كان معترفا بها كدولة مستقلة ، وكان ملك هولندة هو دوقها الأعظم بحكم الوراثة . ولكنها كانت فى الوقت نفسه عضوا

فى الاتحاد الألمانى والزولفرين ، وكانت هناك حامية بروسية تحتـــل منذ ١٨١٥ قلعتها المنيعة على سبيل الوقاية من أى هجوم تشنه فرنسا على ألمانيا .

وقد تولى وزير خارجية فرنسا دى موستييه De Moustier أمر هذه المفاوضات الدقيقة . كان ملك هولندة يعانى من صعوبات مالية ، ولا يحقق فائدة حقيقية من حكمه الاسمى لأهالى لوكســمبورج الذين يتحدثون الفرنسية ولا يتجاوز عددهم مائتى ألف نسمة . فعرضت عليه فرنسا مبلغا من المال على سبيل التعويض ولكنه طالب بالمزيد ، فعارض نابليون فى ذلك ثم أذعن فى النهاية . وقد كان يمكن للمشروع أن يتم فتواجه أوروبا وبروسيا بالأمر الواقع لو لم يضـيع نابليون الوقت فى المســاومة ، ولو لم ير ملك هولندة ضرورة اخطار الدول العظمى الموقعة على ضمان حيــاد لوكسمبورج فى ١٨٣٩ بالمقترحات المعروضة . واذ كانت بروسيا ضمن هذه الدول فقد طرح الموضــوع الذى كان بسمارك قد عرفه من قبل بصفة شخصية على الحــكومة البروسية بصفة رسمية . فثارت ثائرة المشاعر القومية الألمانيــة التى ألهبها وعززها الانتصار على النمسا ، ضد هذا الاقتراح الذى يرمى الى تسليم أرض قد تعد ألمانية الى منافسهم الأكبر . ورفضت بروسيا الموافقة على الاتفاق المزمع عقده ، فانهار المشروع من أساسه . وبدا أن ذلك قد يؤدى الى نشوب حرب كانت ستلقى ترحيبا من القادة العسكريين فى بروسيا ومن حزب كبير فى ألمانيا . ومهما يكن من أمر فقد ارتفعت أصـــوات تنادى بالتوفيق ، فكتبت الملكة فكتوريا الى ملك بروسيا فى هذا الشأن ، واستخدمت روسيا كذلك نفوذها من أجل السلم . وكان بسمارك نفسه ضد الحرب . ومن ثم فقد عقــدت تسوية بشأن لوكسمبورج ، لم تتضمن الا سحب الحامية البروسية التى لم يعد لبقائها أى مبرر فيما هو جلى . الا أن الحرب كانت قد

أوشكت على الوقوع . وقد قال مولتكه « ما من شيء كان سيلقى منا الترحيب مثل الحرب ، وهى آتية لا محالة على كل حال » . واصطبغت المشاعر فى ألمانيا وفرنسا على السواء بصبغة العداء المرير .

وهكذا بينما كانت فرنسا تبذل المحاولات المرتبكة الفاشلة لاستعادة مكانتها واسترداد هيبتها فى أوروبا ، أخذت بروسيا تزداد قوة على قوة وراحت تعبد الطريق الذى ستمضى منه فى غضون أربع سنوات من معركة سادوا ، الى الوحدة فى ألمانيا والتفوق فى أوروبا .

لقد تحدث صلح براغ عن قيام دستور اتحادى لألمانيا الشمالية . وقد أصبحت بروسيا صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة هناك . فقد تعين على هانوفر أن تدفع ثمن تحالفها مع النمسا ودول ألمانيا الجنوبية فى الحرب الأخيرة ، بفقدان استقلالها وضم أراضيها الى بروسيا . أما دول ألمانيا الشمالية الأخرى مثل أولدنبورج Oldenburg ومكلنبورج Mecklenburg وبرونسويك Brunswick وأنهالت Anhalt وكوبورج — جوتا Coburg-Gotha ودتمولد Detmold فكانت عاجزة عن ابداء أية معارضة لمشيئة بروسيا . ولو شاء بسمارك أن يضمها جميعا لما لقى مقاومة تذكر ، وقد أشار عليه البعض بأن يتخذ لألمانيا الجديدة شكل الدولة المركزية الموحدة بدلا من الرابطة الاتحادية . الا أن ذلك كان ينطوى على مخالفة لمنطوق معاهدة براغ ، فى حين أن تفوق بروسيا كان أعظم من أن يثير الخوف من قيام أية منافسة جدية لها من سائر الدول الألمانية . كما أن هذا الاقتراح من شأنه أن يثير الصعوبات فى وجه قيام اتحاد بين ألمانيا الشمالية والجنوبية ، الأمر الذى كان بسمارك يعقد عليه أعظم الآمال .

وقد ظهرت تكهنات كثيرة حول الشكل الذى سيتخذه الدستور الجديد . ونشطت فى وضعه عقول كثيرة ، ولكن النفوذ الحاسم كان لبسمارك . وقد جاءت النتيجة شيئا جديدا فى تاريخ أوروبا الدستورى ،

ألا وهى ظهور دولة اتحادية من نوع لم يسبق له مثيل فى أوروبا . وقد التزم واضعو الدستور أهدافا معينة هى قيام دولة جديدة ، لا مجرد اتحاد أو رابطة تضم دولا قائمة بالفعل ، وأن تكون الكلمة العليا فى هذه الدولة الجديدة لبروسيا ، وأن تستند الحكومة التنفيذية الى الملك لا الى أغلبيات متقلبـة فى الجمعية ، وفوق هـذا كله، ألا تقف آية صعوبات دستورية فى وجه انضمام الدول الجنوبيـة الى شـقيقاتها الشمالية اذا ما رغبت فى ذلك فى أى وقت من الأوقات . وقد تم العمل على وجه السرعة فصدر فى يوليو ١٨٦٧ دستور مكن بسـمارك من تحقيق جميع أغراضه .

وفيه تقرر أن تكون رئاسة الاتحاد وراثية لملك بروسيا وهو الذى يعين موظفيه ويراقبهم عن طريق المستشار . وهذا المستشار ليس رئيسا للوزارة يستند الى تأييد الجمعية ولا ندا من الوجهة القانونية للوزراء الذين يرأسهم ، وانما هو يستند اسـتنادا كليا الى الملك ، والوزراء يعتبرون مرءوسيه لا زملاءه . وقد كان اختيار بسمارك ليكون أول مستشار أمرا محتوما شأنه شأن اختيار وليم ملك بروسيا ليكون أول رئيس للاتحاد .

وتقـرر أن يتألف مجلس الاتحـاد (البوند سرات Bundesrat) من ممثلين عن دول الاتحاد المختلفة .وهؤلاء يمثلون حكومات الدول لا شعوبها . وقد حدد الدستور عدد الأصوات التى تملكها كل دولة . فكان لبروسيا سبعة عشر صوتا ، بينما لم يكن لأية دولة أخرى أكثر من أربعة أصـوات . وعن طريق هـذا المجلس سيطرت بروسيا على سياسة ألمانيا الشمالية ودستورها .

أما المجلس الآخر وهو دييت الاتحاد ، فقد تقرر أن يكون انتخابه « بطريق الاقتراع السرى العـام المباشر » . الا أن مظهر الدسـتور الديموقراطى قد شوه تمـاما فى التطبيق . على أنه يجمل بنا أن نترك

القصة هنا لنعود فنتابعها عند ادماج هذا الدستور فى دستور الامبراطورية الألمانية فى ١٨٧١ .

وما ان بدأ تطبيق الدستور حتى بات جليا أن بسمارك قد أحرز نصرا هاما آخر . ذلك أن معركة سادوا لم تسفر عن هزيمة النمساويين فحسب بل أسفرت كذلك عن هزيمة المعارضة الداخلية لسياسة بسمارك فى بروسيا ودول ألمانيا الشمالية . فلقد وهب بسمارك الألمان المجد العسكرى واعجاب أوروبا بدلا من الحرية . ولقد نالوا عوضا عن كل ماهو غير شرعى فى تصرفاته ، فصاروا يعتبرونه على مر الأيام بطل ألمانيا القومى ، وسرعان ما انكمشت المعارضة لسياسته حتى لم يعد لها شأن يذكر .

وثمة نصر آخر كان ينتظره . فالدول الجنوبية كانت قد حاربت فى صف النمسا وضد بروسيا ، فراح الساسة الفرنسيون يمنون أنفسهم بالأمل فى تفاقم عداوتها لبروسيا نتيجة للهزيمة ، وفى أنهم قد يتمكنون من الاعتماد عليها كقوة مناوئة ثابتة فى جنب بروسيا . ولكن العكس هو الذى حدث . فلقد قاربت بينها وبين بروسيا عوامل عدة هى اشتراكها معها فى قومية واحدة هى القومية الألمانية وارتباطها بها فى الزولفرين ، ودفاع بسمارك عن مصالحها ضد فرنسا وهو ما أشرنا اليه من قبل ، واعجابها بالمجد العسكرى الذى أضفته بروسيا على اسم ألمانيا . وما كان الجنوب ليستطيع أن يوفر لنفسه القوة لو أنه وقف بمفرده . وقد عرف بسمارك كيف يسهل على هذه الدول تغيير موقفها . ووجد العون من بعض ساستها وخاصة فارنبولر Varnbuler من فورتمبرج Wurtemberg فكان أن وقعت معاهدات هجومية ودفاعية بين بروسيا وكل من هذه الدول على حدة ، مما يعنى دخول ألمانيا أى حرب تالية جبهة عسكرية موحدة .

ان أهم ما يعنينا فى هذه السنوات هو متابعة تجمع القوى التى أدت الى الصدام الكبير بين فرنسا وألمانيا فى ١٨٧٠ . ولكن علينا أن نعود أولا الى النمسا لنرى التغير الهائل الذى طرأ على طابع تلك الدولة وتنظيمها .

لقد أخفقت جميع المحاولات التى بذلت لاصلاح دستور الممتلكات الهابسبورجية فى تحقيق الاستقرار المنشود للدولة . فالقوميتان الرئيسيتان — الألمانية والمجرية — كانتا تقفان وجها لوجه وتصطف خلفهما أو تحت حكمهما ما يقرب من اثنتى عشرة قومية أخرى . ولم تلق المحاولات التى بذلت لاخضاع جميع أقسام الدولة لبرلمان مركزى واحد ، قبولا فى كافة الصور التى اتخذتها . وكان الامبراطور قد شرع قبل نشوب الحرب مع بروسيا فى ١٨٦٦ فى التفاوض لاسترضاء المجريين وارساء دعائم الدولة على أساس جديد . فلما جاءت ضربة سادوا القاصمة عجلت من هذه العملية . فلو أن أمد الحرب قد طال للقى البروسيون عونا كبيرا من العناصر المتذمرة فى الدولة ولا سيما المجريين . ولم يكن البيت المالك النمسوى ليستطيع أن يعلق أى آمال على مستقبله مالم يوفق الى اقرار تفاهم الند للند مع المجر ، ومما يذكر بالفضل للامبراطور فرنسيس أنه استطاع أن يدرك تلك الحقيقة . ولقد أسهم أجل اسهام فى تحقيق أهدافه الجديدة رجلان قديران أولهما الكونت بيوست Count Beust الذى استدعاه الى مجالسه وكان حتى ذلك الحين فى خدمة ملك سكسونيا ، فكان بذلك بعيدا عن التأثر بالأهواء والاحن التى كانت تعترض أى حل للمشكلة النمساوية . أما الثانى فهو فرنسيس ديك Déak الذى تقدم بمطالب المجر فى ثبات اقترن بالاعتدال وخلا من كل أثر للاندفاع

الثورى[١] . وقد تعين على هذين الرجلين أن يكافحا الآراء المتطرفة بين أتباعهما . ولقد كان حكم المجريين لعدد من القوميات التابعة — من الرومانيين والصربيين والكرواتيين والسلوفاكيين — وحرصهم الشديد على ألا يتيحوا لها أية فرصة للاحتجاج أو الثورة عاملا يسر انجاز التسوية . فكان أن عقدت فى ١٨٦٧ التسوية التى عرفت باسم The Ausgleich [٢] فأنشأت نظاما ثنائيا يقوم على المساواة الكاملة بين دولتين تكون السيطرة على الشئون الداخلية للألمان فى احداهما وللمجريين فى الأخرى .

وعلى أثرها توج فرنسيس جوزيف رسميا ملكا على المجر لأول مرة . وقسمت ممتلكاته الى قسمين يفصل بينهما نهر ليثا Leitha ، وهو رافد ضئيل الأهمية من روافد الدانوب ، وأصبح لكل قسم ادارة مستقلة وحكومة خاصة — واحدة فى بشت Pesth والأخرى فى فيينا — تتولى كافة شئونه الداخلية (فسرت عبارة الشئون الداخلية تفسيرا فضفاضا) وأصبح فرنسيس جوزيف يحمل فى النمسا لقب الامبراطور وفى المجر لقب الملك . وباتت الاشارة اليه علنا فى المجر باسم الامبراطور جريمة تقع تحت طائلة القانون . وقد قامت الى جوار هاتين الحكومتين حكومة ثالثة تتولى الشئون الحربية والخارجية

(١) كانت فى المجر مدرستان من مدارس الفكر السياسى : مدرسة كوشسوط Kossuth التى انتهت الى الثورة والمطالبة بخلع آل هابسبورج ، ومدرسة زيشينى Szechenyi الذى كان محافظا بناء حتى أن فكرة «الملكة المشتركة» Combined Monarchy قد داعبت ذهنه فى وقت من الأوقات . وكان ديك ممثلا لمدرسة زيشينى فكان ينادى بالنظام الدستورى المعتدل القائم صراحة على النموذج الانجليزى — ولقد قال لفرنسيس جوزيف انه لا يطلب بعد سادوا أكثر مما كان يطلبه قبلها أى وضعا دستوريا حقيقيا لبلاده .

(٢) ومعناها بالعربية « التسوية » (المترجم) .

والمالية التى تمس الحكومتين وتتصرف فى هــذه النواحى نيابة عن الدولتين . وقد عرفت هذه الحكومة الثالثة التى تعد أقوى من النمسا ومن المجر كل على حدة باسم المملكة المشتركة Common Monarchy

ويعتبر هــذا النظــام الثنــائى آية من آيات التوفيق والحــكمة السياسية . ولقد منح النمسا والمجــر زهاء نصف قرن من الهــدوء والاستقرار النسبيين . ولكنه أحل من حيث الجوهر حكومتين قوميتين استبداديتين محل واحدة . فالوضع الجديد لم يشبع الأمانى القومية للتشيكيين والســلوفاكيين والبولنــديين والرومانيين والــكرواتيين والصربيين ، ولم تجد هذه القوميات ما يرضيها فى مبادىء الدستور الديموقراطية المتحررة فى ظاهرها . فراحت بوهيميا تطــالب بالمساواة مع المجــر واستغلت الاحتفال بالذكرى المئوية الخامسة لميــلاد هس Huss للمناداة بحقوقها . كمــا تفشت القلاقل وعم التذمر بين التشيكيين والروثينيين . ولئن كانت هذه الحركات موجهة ضد الأغلبية الألمانية فى دولة شمال ليثيا Cis-Leithan State (كان هذا الاسم يطلق عليها أحيــانا) فان المجريين فى جنوب ليثيــا Trans-Leitha لم تنقصهم المتاعب . فالكرواتيون والصربيون والرومانيون كانوا حانقين أشد الحنق على النير المجرى ، وقد ظل تذمرهم مصدر تهديد مستمر للدولة الثنائية حتى جاءت الحرب العظمى عام ١٩١٤ فسلطت الأضواء القوية على كــل الاحن والضغائن القوميــة التى ظلت تعتمل داخل « النمسا ـــ المجــر » الى أن انتهت بالقضــاء على تلك « المملكة ـــ الامبراطورية » .

وعلى هذا يمكننا أن نجمل الوضع فى أوروبا الوسطى عام ١٨٦٧ كما يلى : أصبح اتحــاد ألمانيا الشمالى يسيطر على ألمانيــا شمال نهر المين ، بينما ظلت ألمانيا الجنوبية تتألف من مجموعة من الدول المستقلة وحققت الممــلكة المشتركة التى أقامتها تســوية ١٨٦٧ الانسجام بين النمسا والمجــر بدرجة تفوق أى وقت مضى ، وبدا من المحتمل أنهــا

ستشكل قوة توازن قوة ألمانيا الشمالية التى سيطرت عليها بروسيا . أما ايطاليا فكانت قد فازت باستقلالها وان لم تحقق وحدتها الكاملة بعد ، اذ ظلت روما — وهى العاصمة التقليدية — خارج أراضى المملكة الايطالية . ومهما يكن من أمر فان الوضع كان أبعد ما يكون عن الاستتباب . ففى جميع القطاعات كانت توجد عناصر غير مستقرة تتطلع الى حدوث تغيير فى المستقبل . وقد سنحت لها الفرصة بمجىء الحرب الفرنسية البروسية التى قامت حول مشكلة أسبانيا .

* * *

كانت أسبانيا الممثلة الأولى « للنزعات التحررية » فى أوائل القرن ، وكان دستور ١٨١٢ الأسبانى شعارا يلتف حوله الأحرار فى أنحاء عديدة من أوروبا . الا أن الحكم الدستورى لم يسر فى التطبيق سيرا حسنا أو سهلا فى شبه الجزيرة الأسبانية . فالوزارات كانت تتغير والبرلمانات (كورتيز Cortes) تتعاقب فيما يبدو فوق السطح الخارجى للدولة فقط ، أما تحت السطح فكانت تكمن حركة ثورية تناصر اشتراكية بل وفوضوية المفكرين الفرنسيين والألمان . ورغم وجود الأحزاب السياسية فقد كانت الخصومات والمطامع الشخصية هى القوة المحركة الرئيسية بين المشتغلين بالسياسة . وقد أثبت الجيش وأثبتت الكنيسة مرارا أن قوتهما تفوق قوة الحكومة . وكانت كل حكومة جديدة تصعد الى الحكم تقيم فى البلاد ديكتاتورية عسكرية . وقد ظل اقرار الحرية الدينية أمرا متعذرا اللهم الا بالاسم حتى نهاية القرن التاسع عشر بسبب مقاومة الكنيسة الكاثوليكية الشديدة ونفور الأهالى من كل خروج على العقيدة الرسمية .

ومع أن بلوغ الملكة ايزابيلا سن الرشد قد أعلن فى ١٨٤٣ فان

السلطة الفعلية ظلت طوال السنوات العشر التالية — وحتى بعد زواج الملكة من ابن عمها فرنسيس — فى يد الملكة الأم كريستينا ، وكانت الخصائص الرئيسية للحكومة هى كاثوليكيتها المتطرفة ووقوفها فى وجه أى اصلاح . وقد نشبت فى ١٨٥٤ ثورة بمساندة الجيش — كما هو الحال دائما تقريبا فى الثورات الأسبانية — فأيدها معظم السياسيين الذين يزخر بأسمائهم تاريخ أسبانيا البرلمانى المضطرب فى السنوات الخمس عشرة التالية وعلى رأسهم نارفاييز **Narvaez** واسبرتيرو **Espartero** وأودونيل **O'Donnel** ، وسيقت الملكة الأم كريستينا الى المنفى . فبدت تلك بداية لحقبة أكثر تحررا .

على أن التغير الذى طرأ على طابع الحكومة لم يكن فى الواقع كبيرا ولابد من أن يعزى جانب كبير من المسئولية عن متاعب أسبانيا خلال السنوات التالية ، الى الملكة ايزابيلا نفسها . فقد كانت متعلقة بالخزعبلات أكثر منها بالدين الصحيح ، ولم تخل حياتها الخاصة قط من الفضائح الشنيعة ، وهى لم تظهر الى ذلك شيئاً من الوطنية الصادقة أو البصيرة السياسية . وقد دأبت على تبديل الوزارات ، فكانت تعهد بالحكم تارة الى نارفاييز الذى كان محافظا استبداديا وأخرى الى أودونيل زعيم « اتحاد الأحرار » الذى كان يلقى عسرا فى تصريف شئون الحكم فى ظل الملكة ، فكان ميالاً بالتالى الى تغيير شخصية الحاكم . وثمة شخصية أخرى كانت بارزة فى ميدان السياسة فى ذلك العصر هى شخصية بريم **Prim** الذى نال سمعة عسكرية طيبة فى الحرب المراكشية وكان قاطعا فى رأيه بأن الملكة ايزابيلا يجب أن تذهب . وقد مات أودونيل فى ١٨٦٧ ومات نارفاييز فى ١٨٦٨ . وأدت محاولة الحكومة اعتقال القواد المنتمين الى المعارضة ونفيهم ولا سيما أعضاء « اتحاد الأحرار » ، الى حدوث الانفجار . فوقف الأسطول والجيش ضد الملكة التى لم تكن تستحق ، ولم تجد فعلا ،

أى تأييد ايجابى . فما كان منها الا أن لاذت بالفرار (٣٠ سبتمبر ١٨٦٨)، فأعلن الثوار انهاء حكمها على البلاد .

وقد كان فى أسبانيا حزب جمهورى ، غير أنه رؤى أن من الأفضل تجنب استفزاز الدوائر الأوربية باعلان الجمهورية ، واستقر الرأى على اقامة ملكية دستورية . ولكن أين يمكن العثور على ملك ؟ لم يكن العرش الأسبانى مريحا لشاغله فلم يقدم اغراء كبيرا لأمراء أوروبا . وقد تناول البحث أو فوتح فى الأمر سبعة مرشحين . وأخيرا ساد الاعتقاد فى يوليو ١٨٧٠ بأن المشكلة قد حلت وأن الأمير ليوبولد أوف هوهنزلرن سيجمارنجن Prince Leopold of Hohenzollern Sigmaringen قد أغرى بقبول التاج . وهذا الترشيح هو الذى هيأ السبب المباشر لقيام الحرب الفرنسية — الألمانية التى بدأت فعلا فى ١٥ يوليو ، بالرغم من أن الأمير ليوبولد سارع الى الغاء ترشيحه عندما تبين شدة العاصفة التى يثيرها . ولم يعد ثمة مناص من استئناف البحث عن ملك مرة أخرى . ولئن كان بريم قد وفق فى نوفمبر ١٨٧٠ الى استمالة دوق أوستا Duke of Aosta ابن ملك ايطاليا لقبول التاج الأسبانى ، فان هذا الملك الجديد رفض بعد سنتين من الحكم المضطرب الاستمرار فى منصبه الشائك وتنازل عن العرش . فأعقبت ذلك تجربة قصيرة للنظام الجمهورى تلتها العودة الى النظام القديم فى شخص الفونسو بن ايزابيلا . وفى عهده اقتربت أسبانيا من الاستقرار الدستورى .

* * *

وقد بدا الموقف الدولى فى منتصف صيف ١٨٧٠ هادئا هدوءا فريدا حتى لقد قيل للورد جرانفيل Lord Granville عند تقلده منصب وزير الخارجية أثر وفاة اللورد كلاريندون ، أنه ليس ثمة بالأفق الدولى

ما ينبيء بقرب هبوب أية عاصفة . وكان اميل أولفييه قد تولى رئاسة الحكومة فى فرنسا ، وكان مخلصا لقضية السلم فعقد العزم على تجنب العراك مع ألمانيا ، ومع هذا كله فان الحرب أعلنت على ألمانيا فى ١٥ يوليو . ولا تزال أسباب هذا التغير المفاجيء موضع نقاش حاد . فكل من المؤرخين الألمان والفرنسيين يذهب مخلصا الى أنهـا كانت حـربا دبرها الأعداء وأن صفحة بلاده بيضاء من أية نيـة سـيئة أو مسلك استفزازى . فنابليون الثالث هو فى نظر الألمان شرير المأساة الذى أحس بترنح عرشه فراح يسعى الى تثبيته باحراز نصر على العدو القومى لبلاده . بينما يرى الفرنسيون وراء الأمر كله يد بسمارك تفرض على فرنسا حربا لا تريدها لغـرض فى نفسه هو استكمال بنـاء الوحـدة القومية الألمانية ومهما يكن من أمر فثمة حقائق معينة لا تقبل الجدل تكمن وراء الحشد الهائل من التفاصيل التى لجأ اليها كل من الطـرفين لتعزيز وجهة نظره . فالتوتر بين البلدين كان بلا شك كبيرا ، وطموح ألمانيا وغيرة فرنسا وخوفها كانت بواعث لا جدال فى أهميتها ، والنظام الدولى فى أوروبا لم يكن ليهييء سـبيل التسوية السـلمية للمشاكل العديدة التى تنجم عن الخصومة بين دولتين عظميين . وممـا يذكر أن أحـد الساسة الفرنسيين شـبه البلدين بقاطرتين تسيران فى اتجاهين مضادين على شريط واحد ، وخلص من ذلك الى أن التصادم بينهمـا واقع لا محالة .

وقد بلغ الخصام ذروته بظهور مشكلة العرش الأسبانى . وليس هنـاك الآن أدنى شـك فى أن ترشـيح ليوبولد أوف هوهنزلرن سيجمارنجين قد تم بموافقة بسمارك وتأييده . فقد نوقش هذا الترشيح فى اجتماع غير رسمى عقد فى برلين برئاسة ملك بروسـيا وحضـور بسمارك ومولتكه ورون ، وانتهى البحث الى رفضه وقتئذ . ولم تمض برهة وجيزة من الزمن حتى أعيد بحثه فيما بين بسمارك وبريم سرا ودون علم الملك وليم . وقد كان الأمير ليوبولد على صلة قرابة بعيدة

بملك بروسيا ، وكان كاثوليكيا ، وكان شقيقه قد نصب مؤخرا أميرا على رومانيا ، فرؤى أن اعتلاءه العرش الأسبانى سيحقق كسبا عظيما لبروسيا من الوجهتين السياسية والتجارية . وخشى الفرنسيون الأمر لنفس الأسباب . فقد رأوا فيه بعثا لامبراطورية شارل الخامس التى ظلت فرنسا تحاربها مدى قرنين من الزمان . ولذلك صمم وزير الخارجية الفرنسية دى جرامون De Gramont عند تلقيه برقية من برلين تفيده بقبول ليوبولد للتاج صمم على المقاومة بكل وسيلة ، وصرح منذ البداية أن اصرار بروسيا على الترشيح سوف يعنى الحرب . وقد حاول أولا الاحتجاج بالطرق الدبلوماسية العادية فى برلين ، ولكن بسمارك كان متغيبا عن العاصمة ولم يكن هناك من يستطيع أن يولى المطالب الفرنسية عناية جدية . فقوبل الاحتجاج بالزعم بأن المسألة ليست الا مسألة عائلية تخص آل هوهنزلرن وحدهم ، وبالتأكيد الكاذب بأن الحكومة البروسية تجهل كل شىء عنها [1] . واذ كان دى جرامون يخشى ضياع الوقت وقبول البرلمان الأسبانى لليوبولد قبل أن يبلغه اعتراض فرنسا فتظهر فرنسا بعد ذلك بمظهر من تسىء الى أسبانيا ، فقد قرر عرض الأمر على الجمعية الفرنسية . فألقى فى ٦ يوليو خطابا قصيرا كان قد عرضه على مجلس الوزراء من قبل ونال موافقته عليه ، أوضح فيه فى عبارات تحمل طابع الجد أن فرنسا ستعتبر الامتناع عن سحب الترشيح سببا للحرب . وتبعه أولفييه فأعلن فى كلمات ليست أقل خطورة : « ان الحكومة ترغب فى السلم ورغبتها فيه حارة ، ولكنه ينبغى أن يكون سلما مشرفا » .

---

(١) ونضرب مثلا لذلك بالتأكيد الذى أعطاه فون تايل VonThile وكيل وزارة بسمارك الذى كان ممن حضروا الاجتماع الذى اشرنا اليه آنفا !

وتلبد الجو بغيوم الحرب وان بدا فى بعض اللحظات أن هذه الغيوم توشك أن تنقشع . فقد نشطت الوساطات من أربع جهات على الأقل لحمل الأمير ليوبولد على سحب ترشيحه ، وفى ١٣ يوليو جاءت الأنباء السارة بموافقته على ذلك . وبدا أن بروسيا تراجعت ازاء التهديد الفرنسى ، فقال تيير ان الانتقام لسادوا قد تحقق . وقال جيزو ان ذاكرته لا تعى نصرا دبلوماسيا أعظم من ذلك النصر .

ثم جاءت الغلطة الانتحارية . فقد تقرر فى اجتماع لمجلس الوزراء عقد فى سان كلو دون أن يحضره رئيس الوزراء أميل أولفييه (ما أبعد فرنسا يومذاك عن الحكم الدستورى الصحيح !) عدم الاكتفاء بترك الموضوع عند هذا الحد والمطالبة بضمانات ضد تجديد الترشيح وصدرت الى بنيديتى ، السفير الفرنسى فى برلين ، تعليمات بأن يطلب من ملك بروسيا مباشرة أن يقرن سحب الترشيح باسمه أولا وأن يتعهد ثانيا بالامتناع عن تأييد ترشيح الأمير الهوهنزلرنى اذا ما أثير من جديد . وقدم بنيديتى هذين المطلبين فى ايمز Ems فى ١٣ يوليو . ولما تلقى الملك عصر اليوم نفسه أنباء رسمية بامتناع ليوبولد عن ترشيح نفسه أرسل الى بنيديتى يخبره بأنه يعتبر المسألة منتهية . فلاحت فرصة السلم فى الأفق من جديد .

ولكن مسلك بسمارك هو الذى تسبب فى نشوب الحرب وسط جو منبىء بالتسوية . اذ كان يعتقد أن الحرب واقعة لا محالة ان آجلا أو عاجلا وأن وقوعها فى مصلحة بروسيا وألمانيا . الا أنه كان ميالا للتريث حتى تسنح الفرصة لاظهار فرنسا بمظهر الدولة المعتدية ، ولم يكن راضيا عن مسلك الملك فى المفاوضات فبيت النية على الاستقالة على سبيل الاحتجاج ، واجتمع بزميليه الكبيرين مولتكه ورون على مائدة العشاء فى ١٣ يوليو ببرلين وأبلغهم قراره . وأثناء العشاء وردت برقية من الملك تخبره أن بنيديتى قدم مطالب لا يمكن قبولها ، وأنه علم بعد الظهر بصفة رسمية بسحب ترشيح الأمير

ليوبولد ، وأنه أرسل بناء على ذلك ياورانه ليخبر بنيديتى أن المسألة تعد منتهية وأنه لا يستطيع أن يقابله ثانية بخصوص هذا الموضوع . فبدا لبسمارك ورفاقه أن ما حدث يعد استسلاما مهينا لفرنسا ورانت عليهم السكآبة . على أن البرقية تضمنت التصريح لبسمارك بابلاغ الحادث الى الصحافة ، فأعد لذلك نصا عرضه على زميليه . ولاشك أن هذا النص قد انطوى على تحريف للأصل ، لأنه عزا رفض الملك مقابلة بنيديتى ثانية لا الى تلقيه أنباء قاطعة بسحب ترشيح ليوبولد وانما الى طبيعة مطالب السفير . ولم يكن هذا النص على حد قول مولتكه بمثابة نداء للمفاوضة ، وانما كان دعوة للنزال وقبولا للتحدى . وقد أبلغ النص للصحافة ووزع على المفوضيات البروسية فى ألمانيا فى نفس الليلة ، فأثار انفعالا بالغا فى شتى أنحاء ألمانيا .

وقد أحدثت رسالة بسمارك أثرا لا يقل ازعاجا فى الرأى العام فى باريس وسائر فرنسا فكان أن وقعت الحرب لا بسبب ما حدث فى ايمز وانما بسبب التصوير الزائف لما حدث . ولم تبذل أية محاولة لتبين صدق ذلك التصوير من كذبه . بل عالج ساسة فرنسا — بما فيهم أولفييه المسالم — مسألة تمس حياة الملايين بالأسلوب الذى تتم به المبارزات الفردية . لقد أهينت فرنسا وتلقت صفعة على صدغها ، فالشرف يقتضى اعلان الحرب فورا . وانتهى الاجتماع الذى عقده مجلس الوزراء فى ١٤ يوليو بالتصويت الاجماعى مع الحرب . وفى ١٥ يوليو أيدت الجمعية هذا القرار . ولم يرتفع صوت مخالف واحد تقريبا ، وان يكن تيير قد طلب المزيد من التفاصيل الدقيقة لما دار فى ايمز ورأى أولفييه آماله العزيزة فى السلم تنهار أمام عينيه ، ولكنه تقبل الحرب «عن طيب خاطر» على حد قوله لأنه كان مرتاح الضمير .

وبالطبع كانت هناك أسباب للحرب أعظم وأعمق من « عبث » بسمارك ببرقية ايمز ، الا أن التبليغ الذى أعده بسمارك للصحافة فى تلك الليلة على مائدة العشاء فى برلين كان بالفعل الشرارة التى أشعلت

نيران هذه الحرب العظمى التى ستفضى الى حرب ١٩١٤ الأعظم منها بمراحل . ولو أن مهلة قصيرة قد أتيحت لتهدأ الأعصاب الثائرة وتفتر العواطف الجامحة ، ولو أن القضية قد أحيلت الى حـكم خارجى مما قد يسكن من ثورة الكرامة الجريحة ، لو أن شيئا من هذا قد حدث لأمكن تفادى نشوب الحرب على الأقل بالصورة التى جاءت بها .

الفصل العشرون
الحرب الفرنسية - الألمانية وآثارها

كان الاعتقاد السائد فى أوروبا أن فرنسا هى التى ستخرج ظافرة من الحرب العظمى التى بدأت لتوها . فسمعة فرنسا العسكرية كانت سامقة ، والجنود الألمان يعتبرون أفقر الى التدريب العلمى من الجنود الفرنسيين ، ولاعتبارات شتى أسقط انتصارهم على النمسا من الحساب . غير أن الفرنسيين لم يحرزوا فى القتال الدائر أية انتصارات هامة ، بل سارت الحرب وفق الخطة التى رسمتها ألمانيا الى أبعد حد . وقد سدد الهجوم الأول الذى اتسم بالاندفاع الشديد ضربة عنيفة الى مقاومة الفرنسيين لم تنهض منها قط . ولئن كان حصار باريس قد استمر وقتا أطول مما كان متوقعا ، فان بسمارك قد نجح على أية حال فى الوصول بالحرب الى النهاية المنشودة بدون انعقاد أى مؤتمر أوروبى ، وهو ما كان يخشاه أكثر من أى شىء آخر . وليس من العسير علينا أن نتبين العناصر الأساسية لنجاح الألمان : فالجيش الألمانى كان معدا ومنظما على أسس علمية ، وقد درس الألمان جميع مشاكل الحرب دراسة وافية ، والقيادة كانت موحدة فى يدى مولتكه الذى اشتهر من قبل بحسن توجيهه لدفة الحرب النمساوية . وكان الجيش الألمانى مستعدا للقتال بفضل توزيعه الاقليمى قبل أن يكتمل استعداد الجيش الفرنسى بزمن طويل ، وتفوقه العددى فى المراحل الحاسمة الأولى من الحرب كان ظاهرا ، فقد قدر عدد الجنود الألمان فى الجبهة فى المعارك الأولى بنحو خمسمائة ألف رجل مقابل مائتى ألف فرنسى . وقد كان تفوق هؤلاء الجنود على خصومهم فى المدفعية

وأعمال الاستطلاع والمعلومات الجغرافية مؤكدا . وفضلا عن ذلك فقد اجتاحت ألمانيا موجة هائلة من الحماسة أخمدت الروح الحزبية تماما ، في حين كانت الآراء في الجانب الفرنسي موزعة . وقد تولى الامبراطور الفرنسي القيادة بنفسه ، على أن توجيهه لدفة القتال ظل اسميا بسبب اعتلال صحته ، ولا شك في أن الحماسة كانت ستجتاح البلاد لو كللت رايات فرنسا بالنصر ، ولكن ما ان جاءت الهزيمة الأولى حتى برزت الانقسامات الداخلية . وهكذا دارت الحرب بين الوحدة والعلم ووضوح القصد من ناحية وبين الانقسام والأساليب التقليدية وتبدل الخطط من الناحية الأخرى . وقد أسندت القيادة فى الألزاس لماكماهون Mac Mahon وفى اللورين الى بازين Bazaine الذى كان يعد بادىء الأمر بطلا قوميا ، فلم تكد الحرب تقرب من نهايتها حتى صار يعتبر أحمق أو خائنا .

وفى ٦ أغسطس ١٨٧٠ هاجم ولى العهد الألمانى ماكماهون فى وورث Wörth فأنزل به هزيمة أدت الى فتح الألزاس للغزو الألمانى وقد تقهقر ماكماهون بفلوله المتداعية صوب شالون Châlons وفى نفس اليوم هزم بازين وجيش اللورين عند شبيشيرين Spicheren كانت تلك الأحداث خطيرة بل مروعة . فما هو المسلك الباقى أمام القادة الفرنسيين ؟ وماذا عساهم فاعلون ؟ كانت الفكرة الأولى هى التقهقر صوب باريس بحيث تدور المعركة التالية فى جيرة العاصمة ، وهى فكرة لاقت ومازالت تلاقى استصواب الخبراء العسكريين عامة . ولكن الاعتبارات السياسية ما برحت تتغلب طوال الحملة على الاعتبارات العسكرية ، وهو ماحدث هنا أيضا . فقد أدت الأنباء السيئة الواردة من الجبهة الى سقوط وزارة أولفييه ، فأنيط الحكم الى الكونت باليكاو Count Palikao الذى كان جنديا قديما عديم الخبرة السياسية وشيخا فى الخامسة والسبعين من عمره . فأصبحت الكلمة الأولى فى كل ما يتصل بسير الحرب للامبراطورة أوجينى طوال

عهــده الى أن أطاحت الــكارثة بالامبراطورية . وقــد كان من شأن التقهقر صــوب باريس أن يؤدى ــ فيما يعتقد ــ الى القضــاء على الحكومة الجديدة . فكان أن اقتنع الامبراطور وبازين بضرورةالدفاع عن متز Metz ، ولكن ضربات الألمان توالت واحدة بعد أخرى . فقد طورد الجنود الفرنسيون أولا الى الداخل عند بورنى Borny شرقى متز ثم قامت الجيوش الألمانية بحركة التفاف جنوب متز بقصد تطويقها وعزل بازين وجنوده . فقام بازين فى عزيمــة فاترة بمحاولة للافلات من الفخ انتهت الى الفشل بعد سلسلة من الاشتباكات تعرف عادة باسم معركة جريفلوت Gravelotte وعلى هذا حوصر بازين مع جيش يربو عدده على ٢٠٠٫٠٠٠ رجل . وقد تمكن نابليون نفسه من الافلات وتخلى عن القيــادة التى لم يعد قادرا على مباشرة أعبائها . وأثبتت جميع العمليات تفوق الألمان الظــاهر فى القيادة وفى صفوف عامة الجند ، فى النظام وفى المبادرة ، فى الســلاح وفى الجلد .

وباتت فرنسا مهددة بكارثة مروعة ، على أن قيادتها كانت تستطيع باتباع سياسة حكيمة أن تمنحها الأمل وتطيل أمد الحرب حتى تدخل الحلبة دول أوروبية أخرى : كان ماكماهون الذى تنازل له الامبراطور عن القيادة مرابطا بالقرب من شالون على رأس قوة ضخمة وان تكن خائرة العزيمة . وقد قرر ماكماهون التقهقر نحو باريس حتى يحصل على كل ما يمكن الحصول عليه من امدادات ويحارب معركته القادمة بمساندة مدافع حصون العاصــمة ، وهو قرار له حكمة لا تنكر ، الا ان الاعتبارات السياسية قد تغلبت عليه هذه المرة أيضا . فقد أحست الامبراطورة أن هناك ثورة فى دور الاعداد ، وأن انسحاب الامبراطور والتخلى عن البطــل الشعبى بازين سيعجلان بوقوعها . وكانت تخشى من هذه الضربة على زوجها وعلى ابنها ولى العهد الامبراطورى أولا وقبل كل شىء . وعلى هذا اتخذ فى باريس قرارا أبلغ الى ماكماهون ،

بضرورة انقاذ ميتز وبازين بأى ثمن . وقبل ماكماهون القـرار على مناقضته لرأيه الشخصي الأصوب . ولعل سلسلة الأحداث التالية كانت كفيلة فى ذاتها بالقضاء على فرنسا ، على أنه لو فرض أنه كانت أمامها فرصة واحدة للنجاح فان تلك الفرصة كانت تكمن فى سرعة تنفيـذ الخطة ووضوحها . ولكن الخطة كانت تتغير فى الجانب الفرنسى تغيرات تفوق الحصر ، بينما راح مولتيكه يشرف على تحركات الألمان فى يقظة وانتباه مستفيدا من كل خطأ من أخطاء العدو . وقد سار ماكماهون نحو سيدان من الطريق الشمالى ، متحاشيا قدر اسـتطاعته ملاقاة العدو فوصلها فى ٣٠ أغسطس . وكان أمل الفرنسيين فى بلوغ ميتز قد تبدد اذ ذاك ، فقوة الألمان كانت أضخم بمراحل وكانوا قد احتـلوا جميع الكبارى . ثم ان بازين لم يقدم الا أضأل العون للجيش الذى جاء لنجدته . بيد أن الأمل لم يكن قد انقطع فى تمكن الجيش ، أو جزء كبير منه ، من العودة الى باريس عن طريق ميزيير Mézières ولكن ماكماهون أخطأ ، رغم تصميمه على تنفيذ تلك الخطة ، فى تقدير مدى اقتراب الخطر ، فتمهل فى وقت كانت لكل دقيقة فيه أهميتها . وقد شن الألمـان هجومهم فى صـباح غرة سبتمبر . ولم يبـق أمام الفرنسيين الا طريق واحد للتراجع ، وقد صمم ماكماهون على اتخاذه، غير أنه جرح فى أوائل المعركة ، فحل محله فى القيادة بأمر حكومة باريس « ويمبفين » Wimpffen الذى كان لا يزال يحلم بامكان تحقيق النصر. وقد طوردت القوات الفرنسية الى داخل المدينة فى كل حدب وصوب ، وراحت المدفعية الألمانية تصب نيرانها المستمرة عليهـا . وفى سـاعة متأخرة من اليوم نفسه استسـلم الامبراطور والجيش بأكمـله لملك بروسيا ، وبلغ عدد الأسرى ١٠٤٠٠٠ أسير .

قوبلت أنباء الكارثة بالانكار والتكذيب فى باريس بادىء الأمر . ولكن باليكاو أذاع فى ٣ سبتمبر نبأ تسلمه برقية من الامبراطور هذا

نصها : « لقد هزم الجيش وأسر ، وأنا نفسى أسرت » . كانت الأسرة النابليونية تعيش على تراث المجد العسكرى العالق باسمها ، فلما أتت الهزيمة لم يعد ثمة مفر من انهيارها ، وبات نشوب ثورة ما أمرا محققا ، فانعقدت الجمعية آملة السيطرة على الموقف والامساك بمقاليد الأمور بين يديها ، وان أبدى البعض رغبته فى الابقاء على سلطة الامبراطورة ولو اسميا ، على أن مراجل الثورة كانت تغلى فى باريس، والأعضاء لازالوا يتداولون فى الأمر . وقد كان من واجب قوات الحرس الوطنى أن تحمى قاعة اجتماعهم ولكنها انضمت الى الثوار الذين اقتحموا القاعة والأروقة . وحين همت الجمعية بالتصويت فى غمرة الفوضى . على قرار بانهاء حكم أسرة نابليون وقف جول فافر مناديا بأن دار البلدية Hotel de Ville هى المكان الصحيح لمثل هذا القرار الثورى ، وأقنع الجمهور بالزحف الى هناك . وفى البلدية كان يوجد حزب جمهورى دستورى معتدل ، وحزب آخر أكثر تطرفا ارتبط فى الأذهان بالكوميون فيما بعد . واستبعادا لهذا الحزب الأخير من الحكم ، قدم اقتراح بتشكيل حكومة مؤقتة تتألف من جميع نواب مديرية السين ، بما فى ذلك أولئك الذين انتخبوا عن هذه المديرية أولانهم انتقلوا الىدائرة انتخابيةأخرى . وهكذا أمسكت باريس الدفة بين يديها ، ولم تستشر بقية فرنسا فى الأمر . وقد اختير تروشو Trochu وزيرا للحربية وجول فافر للخارجية وجامبتا Gambetta للداخلية . وسميت الحكومة الجديدة «حكومةالدفاع الوطنى» . ولم يرد ذكر لكلمة الجمهورية ولا كان هناك أى مساس بالامبراطورة أوجينى ، الا أن ذكريات ثورات باريس كانت تثير فزعها ومصير مارى انطوانيت ظل ماثلا على الدوام أمام عينيها ، فتركت القصر واستطاعت أن تجد مأوى للبلتها لدى طبيب أسنان أمريكى فى

الضواحى ، وفى الصباح التالى شقت طريقها الى منفاها فى انجلترا حيث أقامت بقية عمرها .

لقد كسب الألمان الحرب . فهل تراها تنتهى عند هذا الحد ؟ ان بسمارك قد أظهر من قبل بصيرة ديبلوماسية ثاقبة بانهاء الحرب مع النمسا فى أقرب فرصة ممكنة . فهل تراه يسلك نفس المسلك فى هذه الحرب التى هى أعظم من سابقتها ؟ لقد قهرت ألمانيا الامبراطورية الفرنسية ، فهل تراها تقر السلم مع الجمهورية الفرنسية ؟ لم يكن هناك فيما يبدو مايحتم عدم حدوث ذلك ، ولو جاءت النهاية على الفور لمنح بسمارك أوروبا السلم وجعل التحالف بين فرنسا وألمانيا أمراً ممكنا ، ولسار مجرى التاريخ الأوروبى فى طريق مختلف عن طريق القلاقل والاضطرابات الذى سارت فيه ألمانيا وأوروبا فعلا مدى ثلاثة ارباع قرن من الزمان . ولكن بسمارك كان قد بدأ يهيىء الرأى العام الألمانى لضم الألزاس واللورين مما سبب استحالة اقرار السلم أو التوفيق بين البلدين .

ولما أخذت القوات الألمانية تدق أبواب العاصمة الفرنسية قرر جول فافر أن يطلب مقابلة خصمه العظيم بسمارك ، وتمت المقابلة فى ١٨ سبتمبر بفرير Ferrieres بالقرب من باريس . وقد أوضح فيها بسمارك أن ألمانيا تطالب بأراضى الراين قائلا « انكم ماكنتم لتتورعون عن الاستيلاء على ضفاف الراين منا ، رغم أن الراين لا يمثل حدودكم القومية . أما نحن فاننا نسترد أراضينا ونعتقد أننا بهذا نضمن لأنفسنا السلم فى المستقبل » . ولكن جول فافر أعلن أن فرنسا لن تتنازل عن شبر واحد من أراضيها أو حجر واحد من حصونها ، وبذلك بات السلم مستحيلا . وقد التقى الرجلان مرة أخرى وذرف فافر الدموع أمام خصمه الحديدى الارادة ، ولكنه لم يستطع الفوز منه بأى تنازل فكان أن استمرت الحرب

ولم يضف الألمان شيئا ذا بال لانتصاراتهم طوال الفترة الباقية من الحرب . فلم يقوموا بأية محاولة للاستيلاء على باريس بالهجوم المباشر بل ظلوا قانعين بإحكام الحصار عليها وصد المحاولات التى تبذلها حاميتها للافلات من هذا الحصار . اذ كانوا يعتقدون أن نقص الموارد الغذائية سيؤدى الى تسليم عاجل ، فأثارت مقاومة المدينة الطويلة التى استمرت من ٣٠ سبتمبر الى ٢٨ يناير ، فى نفوسهم الضيق والدهشة . ولم تكن باريس تعانى نقصا فى الرجال : فقد كان بها ٨٠٠٠٠ من قوات الجبهة بما فى ذلك اللواء البحرى ؛ و ١١٥٠٠٠ من قوات الحرس المتحرك Garde Mobile وهى قوات شبه احتياطية كانت تنتخب ضباطها بنفسها وسرعان ما أصبحت مضرب المثل على سوء النظام ، وحوالى ٣٥٠٠٠٠ على الأرجح من رجال الحرس الوطنى الذين كانوا ينتخبون أيضا ضباطهم بأنفسهم ولم يكن لديهم أدنى استعداد للخضوع لأى نوع من النظام . وقد تولى القيادة تروشو الذى كان يهاب الباريسيين فلم يحاول أن يفرض عليهم التدابير الصارمة التى يتطلبها الموقف . لقد توفرت لباريس الشجاعة والوطنية والحماسة ولكن النظام كان يعوزها ، وقد كانت غلطة تروشو الكبرى أنه لم يصر على فرضه فرضا .

أما خارج العاصمة فقد توفر لفرنسا باعثان على الأمل . فقد غادر جامبتا ، وهو أحد الشبان القلائل فى حكومة كانت تتألف فى معظمها من المسنين ، باريس فى منطاد لينظم الحرب فى الأقاليم . وقد استطاع هذا الشاب الذى يعد الشخصية البطولية الوحيدة فى الحرب من الجانب الفرنسى ، أن يفاخر عن حق بأن اليأس لم يتطرق الى قلبه قط ، وقد أعطى الأمل لفرنسا كذلك . ولئن كان المطاف قد انتهى بمساعيه الى الفشل فان ذكرى محاولته قد أتاحت لفرنسا أن تعود ببصرها الى تلك الشهور المفجعة بشىء من الفخار لا الانكسار فقط . وقد تلقى

أجل العون من مهندس يدعى فريسنيه Freycinet الا أن الفضل الأول فى النتائج الباهرة التى حققها انمـــا يرجع لهمتـــه هو وبلاغتـــه وحماسته المؤثرة كأنها العدوى تسرى فى النفوس . فقد أفلح فى تكوين جيش قوامه ٦٠٠,٠٠٠ رجل وجهزه بالسلاح والغذاء الذى اشترى معظمه من انجلترا . وتمكن من العثـــور على بعض القواد الممتازين حقـــا مثـــل دوريـــل دى بالادين d'Aurelle de Paladines وفيـــدرب Faidherbe وشـــانزى Chanzy قبل ســـواه . وفى ١٩ نوفمبر هاجم دى بالادين الألمان فى كولمييه Coulmiers شمال أورليان Orleans فأحرز نصرا كبيرا . وقد رفع هذا النصر — وهو النصر الحقيقى الذى أحرزه الفرنسيون ابان الحرب ، رفع من روح الجنود المعنوية الى حد كبير ، فبدأ الفرنسيون يحلمون بطرد الألمان من فرنسا كما طردوا الانجليز من قبل على يد جان دارك فى وقت بدا فيه المستقبل أشد اظلاما فى وجه فرنسا (١)

ولكن ثمة عاملا ثالثا كان يتوقف عليه كل شىء ألا وهو بازين وميتز اذ كان يترتب على صمودهما شل جيش ألمانى كبير عن الحركة ،وكان واجب بازين الواضح أن يصمد حتى آخر لحظة . ولا يزال مسلكه الفعلى مثار نقاش كبير . فهو لم يتقبل الحكومة الجديدة قط بولاء صادق ، وتفكيره لم يكن منصبا على الحرب نفسها قدر ماكان منصبا على ماينتظر أن يليها من الأحداث . فكان يتحدث عن جيشه على أنه الجيش الذى سيقدر له أن يكون « موئلا للنظام » ، ويأمل فى القيام

---

(١) كانت تلك هى المناســـبة الوحيـــدة التى ترددت فيها القيادة العليا للجيش الالمـــانى او اساءت معالجة الموقف . ولقـــد اشار سير لونزديل هال Sir Lonsdale Hale فى كتابة « حرب الشعب » الى أن التـــكهن بتحركات الجيوش النظـــامية المألوفة ومقاومتهـــا كان أيسر من التكهن بالتحركات الهوجاء المباغتة التى كانت تقوم بها جيوش جامبيتا الغفيرة العدد المفتقرة الى النظام .

بدور مشابه لدور مونك Monk (١) وفى أن يتم رد الأسرة الامبراطورية الى الحكم على يديه . ولكن مسلكه فى الحصار لايجد من يدافع عنه ، وكانت الهجمات التى حاول شنها على المحاصرين فاترة . وقد كان رجال جيشه بل وسكان ميتز المدنيون أنفسهم يرون ضرورة مواصلة القتال ولم تكن المؤن قد نفدت تماما ، عندما سلم نفسه وجيشه البالغ ١٧٣٫٠٠٠ رجل للعدو فى ٢٧ أكتوبر ١٨٧٠ .

واذا جاز القول بأن صيحة جامبيتا « لقد خاننا بازين » لم تكن فى محلها ، فانه كان على حق لا مراء فيه عندما قال انذلك السيل الجارف من الجنود الألمان الذى انهمر عليه من ميتز كان كفيلا بالقضاء على كل خططه . وقد حوكم بازين بعد الحرب وأدين بتهمة التقصير فى أداء « كل مايفرضه الواجب والشرف » ، وصدر عليه حكم الاعدام ولكن هذا الحكم مالبث أن خفف الى السجن عشرين عاما . وقد تمكن من الفرار ومات فى أسبانيا عام ١٨٨٨ .

ورغم أن الفرنسيين بذلوا جهدا كبيرا فى القتال فان الحظ لم يبتسم لهم من تلك اللحظة فصاعدا . وقد أظهر شانزى مواهب عسكرية رفيعة فى قيادته للقتال فى الغرب ، ولكن زمام الجنود أفلت من يديه فهزم فى لومان Le Mans وسرح جيشه . ولم يصادف فيديرب حظا أفضل فى الشمال ، وهو يعد أيضا جنديا ممتازا بمعنى الكلمة ولكن روح جنوده المعنوية كانت منهارة فهزم فى ١٩ يناير بالقرب من سان كونتين Saint Quentin هزيمة نهائية فاصلة . وفى الجنوب الشرقى حاول بورباكى Bourbaki ، وهو من قواد الامبراطورية القدامى ، انقاذ بلفور Belfort التى كان الفرنسيون يدافعون عنها ببسالة

---

(١) جورج مونك جنرال انجليزى عاش فى الفترة مابين ١٦٠٨–١٦٧٠ (المترجم)

ضد الحصار الذى يعمل الألمان على ضربه عليها . وقد انضم اليه فى ذلك غاريبالدى الذى هب لنجدة الفرنسيين فى محنتهم . الا أن بطل الحرية الايطالية أخفق اخفاقا ذريعا فى تحقيق الآمال التى عقدت على اسمه . فقد فعلت به السن مافعلت ، ووجد الجنود الألمان بعيدين عن التأثر بالوسائل التى نجحت معه نجاحا باهرا فى صقلية وايطاليا . وعندما جاءت الهدنة كانت محاولة بورباكى فى هذا الاقليم قد انتهت الى الفشل ، ولكن شروطها لم تتضمن ، نتيجة اهمال جول فافر ، أية اشارة الى جنوده ، فكان أن طوردوا الى سويسرة حيث ألقى ٨٠٫٠٠٠ منهم سلاحهم بعد أن عضهم الجوع وهدهم الصقيع .

كان الهدف الصريح لكل هذه العمليات فى الأقاليم هو تخفيف الحصار عن باريس . فلم يكن ثمة مناص من أن يؤدى فشلها الى استسلام العاصمة . وقد بذلت القوات المحاصرة أولا عدة محاولات للافلات ولكن دون طائل . وكانت أكبرها المحاولة التى بذلت فى ٣١ نوفمبر بقيادة ديكرو Ducrot الذى أعلن أنه « لن يتراجع » مهما حدث . وقد حققت المحاولة بعض المكاسب الأولى ، ولكن هذه المكاسب ضاعت بعد برهة وجيزة فاضطر ديكرو الى التراجع رغم وعده . وأخيرا استقر رأى الألمان على قصف المدينة بالقنابل ولكن ذلك لم يفت فى عضد الأهالى . وقد بذلت آخر محاولة لشق الحصار فى ١٩ يناير ولكنها باءت أيضا بالفشل الذريع . وكان الأمل قد انقطع تماما فى نجاح جيوش الأقاليم وأوشكت المؤن الغذائية على النضوب ، فتوجه جول فافر لمقابلة بسمارك فى فرساى ووقعت الهدنة فى ٢٨ يناير . وقد رفض بسمارك الاعتراف بأهلية « حكومة الدفاع الوطنى » للتحدث باسم فرنسا . فتقرر اجراء انتخابات على الفور لتشكيل جمعية جديدة تجتمع فى بوردو للنظر فى قبول شروط الصلح أو رفضها .

وهكذا انتهت الحرب ، ولكن الحركات الدبلوماسية والسياسية الهامة التى صاحبتها وأعقبتها قد أضافت المزيد الى دلالتها التاريخية .

لقد دارت الحرب مبارزة ثنائية بين الخصمين العظيمين . وكان أخشى ما تخشاه ألمانيا وأعظم ماتأمله فرنسا هو أن تتدخل أوروبا فتتطور الحرب الى حرب أوروبية تستدعى الجيوش الألمانية من قلب فرنسا . وأسدى القيصر الروسى ، الذى كانت صداقته من الأهداف الثابتة التى حرص على تحقيقها بسمارك ، أجل الخدمات لألمانيا فى هذا الصدد . فشكره بسمارك علنا فيما بعد لمنعه تطور الحرب الى حرب أوروبية عامة .

ولم يكن بين الساسة الفرنسيين من يحظى على الصعيد الأوروبى بمثل السمعة الرفيعة التى كان يحظى بها تيير . فقد أدرجته غزارة علمه وسعة بيانه وترفعه عن سياسة نابليون الثالث ، فى عداد أبرز الشخصيات الأوروبية . وقد قبل فى سبتمبر ١٨٧٠ الدعوة التى وجهتها اليه «حكومة الدفاع الوطنى» للطواف بحكومات أوروبا للعمل على كسب عطفها ومعاونتها لفرنسا : كان الرجل مسنا وكانت المهمة شاقة عسيرة ، ولكنه نفذها بهمة ونشاط ، وليس يعيبه أنها فشلت . وقد وجد شعور النمسا — المجر وديا ولكنه أحس بضعفها ، ولمس من انجلترا تشبثا بعزلتها عن أوروبا ، ومن روسيا انحيازا الى بروسيا ، ومن ايطاليا اسرافا فى عبارات الود الذى يشوبه الحرص على عدم اثارة عداوة بروسيا . وقد حاول عند عودته التفاوض لعقد هدنة يمكن الرجوع أثناءها الى رأى الشعب الفرنسى ، ولكن محاولته فشلت ازاء رفض الألمان السماح بتموين المدينة المحاصرة .

وقد بدا فى لحظة من اللحظات أن روسيا قد تساعد عن غير قصد على انقاذ فرنسا من محنتها . ذلك أن الدول الأوروبية العظمى الظافرة فى حرب القرم — وعلى رأسها فرنسا وبريطانيا — كانت قد فرضت على

روسيا فى « معاهدة باريس » نصا يعلن حياد البحر الأسود ويحرم روسيا بالتالى من حق اقامة أية منشآت حربية أو بحرية فيه . ولعله لم يكن منتظرا من روسيا أن تصبر طويلا على هذا النص على أية حال . ومهما يكن من أمر فانها قد وجدت فى تلك اللحظة التى دس فيها أنف فرنسا فى الرغام فرصتها السانحة ، فأعلنت انهاء المعاهدة . وقد كانت فرنسا أعجز حقا من أن تفرض تنفيذها فرضا ، ولكن البعض رأى فى تصرف روسيا تحديا مباشراً لبريطانيا لابد وأن ترد عليه . غير أن جلادستون رئيس الوزارة البريطانية حينذاك رأى فى الأمر رأيا آخر ، اذ كان مصمما على المحافظة على السلام ما أمكن ، فبعث برسول الى بسمارك فى فرساى — ومما يشهد على عظم مكانة بروسيا أنه قد رؤى من الضرورى استشارة القطب البروسى فى مثل هذه المسألة التى لم تكن تعنى بروسيا بصفة مباشرة . وتم ايجاد مخرج من المأزق بدعوة مؤتمر الى الانعقاد فى لندن انتهى الى انقاذ ماء وجه بريطانيا باصدار تصريح بأنه ليس لأى دولة أن تلغى من جانبها أية معاهدة تكون طرفا فيها وبالاشارة مجددا الى القواعد التى تحكم اغلاق مضيقى البسفور والدردنيل . على أن المؤتمر لم يبذل آية محاولة للابقاء على حياد البحر الأسود ، ولم يشترك فيه مندوب فرنسا الا فى الجلسة الأخيرة . وهكذا أهملت فرنسا فرصة عظيمة — فيما يعتقد — لعرض قضيتها ضد بروسيا أمام المؤتمر أو اشعال « حريق أوروبى عام » قد يمكنها من أن تجنى لنفسها منه مغنما

ولقد تحقق لبسمارك قبيل عقد الهدنة وفى اللحظة التى بات فيها النصر على فرنسا محققا ، هدف من أعز أهداف حياته باتحاد معظم الأراضى الألمانية فى امبراطورية تحتل فيها بروسيا مركز الصدارة . فقد وحد الانتصار الساحق الذى أحرزته القوات الألمانية شمال ألمانيا وجنوبها ، وطغى — فى تلك اللحظة على الأقل — على كل ماكان بينهما

من احن قديمة وقبل أن يتم هذا الاتحاد جرت مفاوضات دقيقة تولاها بسمارك بنفسه بالطبع . ذلك أن ملك بروسيا كان قد رفض فى ١٨٤٩ قبول لقب امبراطور ألمانيا عندما عرضته عليه أيد بدت فى نظره ملوثة بالديموقراطية ، وسوف يكون من الضرورى تفادى تكرار نفس الخطأ هذه المرة ، وعلى هذا تم اقناع ملك بافاريا بأن يتقدم بنفسه الى ملك بروسيا بهذا العرض . وقد ظهرت بعض الصعوبات التى تعين حلها قبل انجاز الأمر . فملك بروسيا كان فخورا بلقبه الملكى ولم يكن يطيب له النزول عنه لقاء الفوز بلقب الامبراطور البراق ، ولم يجد فى اقناعه بالتخلى عن هذا الاعتراض الا الحاح بافاريا . ثم كانت هناك مسألة تحديد اللقب الذى يحمله الحاكم الجديد . أيكون « امبراطور ألمانيا» أم « الامبراطور الألمانى » ؟ وقد أثارت هذه المسألة انفعالا بالغا لدى بعض رجال السياسة ، وسويت آخر الأمر باختيار لقب « الامبراطور الألمانى » على اعتبار أنه لا يتضمن معنى السيادة على أرض ألمانيا .
كما راح النـاس يتساءلون عن العـلاقة بين هـذه الامبراطورية والامبراطـورية الرومانية المقدسة القديمة التى اختفى شبحها الأخير فى ١٨٠٦ . فهل يعتبر الأمر انشاء لامبراطورية ألمانية جديدة أم اعادة للامبراطورية القديمة ؟ ولم يستقر الرأى على شىء فى هذا الصدد ، وان أجمـع الساسـة والمؤرخون على وجود اسـتمرار فعلى بين الامبراطوريتين القديمة والجديدة . ووقع المشهد الختـامى فى قاعة المرايا بفرساى فى ١٨ يناير ١٨٧١ حيث نودى بوليم امبراطورا ألمانيا ، وأعلن ولى العهد أن « حالة خلو العرش التى دامت خمسة وسـتين عاما قد انتهت ، والحقبة الرهيبة التى مضت دون عاهل قد ولت » .
أما الملك نفسه فلم يبد ترحيبا كبيرا بوضعه الجديد . بل وصف بأنه ظل « مكتئبا » طوال اليوم ، وقد صارح الملكة برغبته فى « التخلى عن العرش والنزول عن كل شىء » لولى العهد .

ولم يثر اللقب الجديد أية مشاكل دستورية . ذلك أن احتمال انضمام دول ألمانيا الجنوبية كان قد روعى عند وضع دستور اتحاد ألمانيا الشمالية . فكان أن اتخذت بافاريا وفرتمبرج وبادن أماكنها الى جانب بروسيا وسكسونيا دون أن يثير ذلك الا أقل الاعتراض .وأعلن مؤرخ بروسى أن الدم المشترك الذى يراق فى المعارك الظافرة انما هو أقوى رباط .

ولعل بسمارك لم يكن راغبا فى قيام دولة ألمانية قومية موحدة قدر رغبته فى تحقيق زعامة بروسيا للدول الألمانية . ولقد قام الصرح الجديد على هذه الفكرة على أية حال ، فحمل الدستور الجديد (١٨٧٣) طابع الانفصال والتجزئة الغالبين على الاتحاد الألمانى من قبل ، ولم يكن الوضع الجديد فى حقيقته الا تطبيقا لدستور اتحاد ألمانيا الشمالية الذى وضع بعد الحرب النمساوية البروسية ، على سائر أنحاء ألمانيا . فتزعم ملك بروسيا ومستشاره بسمارك الرابطة الاتحادية الجديدة ، كما كانا فى ١٨٦٦ ، وأطلق على التنظيم الجديد اسم الامبراطورية الألمانية . ولم يكن هذا الرئيس الذى سمى القيصر الألمانى[1] لا قيصر ألمانيا ، فى الواقع الا رئيسا وراثيا للاتحاد . أما مفتاح سلطته الحقيقية فكان يكمن فى كونه ملكا على بروسيا ، وهى دولة تعدل فى مساحتها مساحة الدول الأعضاء فى الامبراطورية الجديدة مجتمعة بل وتفوقها أهمية . لقد كان الامر أشبه بشرذمة من الحيوانات المنتظمة فى سرب للصيد يتصدرها جميعا ذئب رمادى ضخم هو بروسيا يجرى فى أعقابه أبناء آوى من أمثال بافاريا وسكسونيا وفرتمبرج ، ويسير فى ركابه خمسة وثلاثون حيوانا أصغر تتفاوت أحجامها بين الجرذان الكبيرة والفئران الصغيرة .

وقد ظلت حقوق الدول الصغيرة مصونة من الوجهة النظرية

---

(١) German Kaiser

فالبوند سرات Bundesrat أو المجلس الأعلى الذى تتركز فيه السلطة التشريعية كان يتألف من ثمانية وخمسين عضوا ، ليس لبروسيا منهم الا سبعة عشر عضوا ، وان تكن قد استطاعت أن تحصل لنفسها فى النهاية على ثلاثة أصوات أخرى . وبذلك كان يمكن للدول الأخرى أن تشكل أغلبية ضد بروسيا فى أعمال التشريع العادية . غير أنه بالنظر الى المادة ٧٨ التى كانت تنص على ابطال أى تعديل للدستور اذا اعترض عليه أربعة عشر عضوا فقد أصبح لبروسيا حق الفيتو الدائم على كل تعديل للدستور (١) . ثم ان بروسيا كانت من الوجهة العملية تؤلف بممثليها الذين يتبعهم عادة ممثلو الدول الصغرى ، جبهة متماسكة تكفل لها انفاذ مشيئتها فى معظم الأحيان فى أعمال التشريع العادية كذلك . ولقد كان البوندسرات Bundesrat هيئة محافظة الى أبعد حد على كل حال .

أما الريخستاغ Reichstag أو المجلس الشعبى فهو يعد آية من آيات بسمارك . كان أعضاؤه الـ ٣٩٧ ينتخبون بطريق الاقتراع السرى العام ولكنه كان رغم مظهره الديموقراطى مقيدا فى الحقيقة من جميع الوجوه . فنفوذه كان أضعف وخبرته فى تسيير الأمور كانت أقل كثيرا من البوند سرات . ورغم أن المستشار الاتحادى وأعضاء وزارته كانوا يحضرون جلساته ، فانهم لم يكونوا يعتمدون فى بقائهم فى مناصبهم على تأييده ولم يكن عليهم أن يستقيلوا اذا ماخذل التدابير التشريعية التى يقترحونها عليه . وأنصبة الدول فى الجيش كانت محدودة باتفاقات سابقة مع كل دولة على حدة ثم أدمجت فى صلب الدستور ، فلم يكن من المستطاع تغييرها الا بتعديل الدستور وكل

---

(١) كانت الأصوات تؤخذ فى البوندسرات على أساس الدول الأعضاء لا الأفراد . فاذا ادلت بروسيا مثلا بصوتها مع المشروع المعروض او ضده اعتبر هذا الصوت مساويا لسبعة عشر صوتا .

ما كان يملكه الريخستاغ هو التصويت بالرفض على أى اقتراح بزيادة هذه الأنصبة . ونظرا لأن ألمانيا لم يكن لهـا أسطول ولا مستعمرات تقريبا فى ١٨٧٣ فقـد أصبح الريخستاغ يملك فى السـنوات التالية سلطة التصويت على تزويدها بالامدادات وكان بوسعه أن يرفض ذلك متى شاء . أما سلطته على السياسة الخارجية فكانت ضئيلة ، اذ كانت المعاهدات الديبلوماسية والتجـارية على السواء تعقد فى العادة لمدد أطول من مدة الريخستاغ الواحد بقصد الحيلولة صراحة دون تعرضها للنقد عند اجراء الانتخابات . وهكذا لم يكن ثمة مجال كبير لتوكيد رقابة البرلمان على المسائل الهامة . وقد زاد من ضعف سلطة الريخستاغ انقسامه الدائم الى أحزاب عديدة ، مما جعل معارضة الحكومة أمرا من الصعوبة بمكان . لقـد كان الألمانى يفتقـر فى ١٨٧٠ الى العقلية البرلمانية ، ولم تظهر حتى ١٩١٤ أية دلائل على أنه كون تلك العقلية . وكان عضو الريخستاغ العادى يتذبذب فى موقفـه من الحكومة بين الطاعة العمياء والمعارضة المتحزبة . ومع ذلك فقد استطاع الريخستاغ رغم كل هذه القيود أن يثبت وجوده فى بعض الأحيـان ! ومرت بكل من بسمارك ووليم الثانى لحظات أحسا فيها باستحالة تجاهله .

وهكذا سوى بسمارك أمر الحكم الداخلى فى ألمانيا باعطائها مجلسا أعلى مؤلفا على أساس الدول ومجلسا أدنى ديموقراطى المظهر مؤلفا على أساس عددى ، ودستورا يخرج الكثير من المسائل من اختصاص المجلسين ولا يمكن تغييره دون موافقة بروسيا . لقد أقام بناء ألمانيا كله على قاعدة محافظـة راسخة . وباتت بروسـيا تمثل بنفوذها وأموالها وقوتها « الشريك المتحكم » بكل معانى الكلمة . أما الأعضاء الآخرون فأحرى بنا أن نسميهم مديرى أقسام لا أعضاء فى مجلس ادارة مؤسسة « بسمارك وشركاه » . ولقد ظل بسمارك فى الواقع فوق مسـتوى الهجوم والنقد طوال نصف جيل .

لقد عقدت الهدنة حتى تتاح الفرصة لانتخاب مجلس نيابى فرنسى تعرض عليه شروط الصلح لرفضها أو ابرامها . وكانت فرنسا قد كلت الحـرب بصفة عامة وان تكن بعض الأصـوات قد ارتفعت تطـالب باستمرارها . فجامبتا كان يؤمن بضرورة مواصلة القتال ، وقد اقتضى الأمر استخدام القوة للتغلب على معارضـته . وفديرب وشانزى ناديا بأن المضى فى القتـال لازال ممكنا ولعلهما كانا يؤمنـان بذلك فعلا . ولكن فرنسا كانت تواقة الى السلم . وكانت قضية السلم هى القضية الوحيدة التى طرحت فى المعـركة الانتخابية ، وقد جاء معظم النواب المنتخبين ممن تعهـدوا بالعمل على انهاء الحـرب . واجتمع الأعضاء الستمائة فى بوردو حتى يكونوا بعيدين عن التأثر بنفوذ الجيش الألمانى . وعين تيير الذى نجح فى ست وعشرين دائرة « رئيسا للسلطة التنفيذية للجمهورية الفرنسية » . ورغم أن جول فافر ظل متوليا وزارة الخارجية فقد أصبح التوجيه الفعلى للمفاوضات فى أيد آمن هى أيدى تيير الذى توجه فور انعقاد الجمعية فى بوردو ، لمقابلة بسـمارك فى فرساى . ولم يكن أمامه مجال كبير للمفاوضـة طالما لم يكن مستعدا للمخاطرة باستئناف الحرب . وكان رأى بسمارك قد استقر على المعالم العامة للصلح . فصمم على ضم الألزاس ومعظم اللورين ، ورغم أنه لم يكن يمانع شخصيا فى اعادة مدينة ميتز وقلعتها الى الفرنسيين ، فانه أذعن فى النهاية لالحاح العسكريين وأصر على ضرورة نزول الفرنسيين عن ميتز وستراسبورج كذلك . وتمسك بأن تدفع فرنسا تعويضا كبيرا وان يكن تيير قد وفق الى خفض الرقم من مائتين وأربعين مليون جنيه أسترلينى الى مائتى مليون . وتضمن الصلح المعروض شروطا عديدة بشأن دفع التعويض — ثم شددت هذه الشروط بعد قيام الكوميون فى باريس — وبشأن الاحتفاظ بحامية احتلال ألمانية ريثمايتم تنفيذ شروط الصلح . على أن هناك نقطة واحدة حصل فيها تيير على تنازل هام .

اذ كانت النية متجهــة بادىء الأمر الى ضم بلفور Belfort الى ألمانيا بالاضافة الى ستراسبورج وميتز ، وكانت لبلفور قيمــة كبرى باعتبارها تتحكم فى مدخل بالغ الأهمية من مداخــل فرنسا من ناحية جنوب ألمانيا . فهدد تيير باستئناف الحرب ان أصر الألمان على تخلى الفرنسيين عنهـا ، وفى النهاية وافق بسمارك بعد التشاور مع الملك ومولتكه على تركها للفرنسيين ، اذا وافق تيير على السـماح للجنود الألمان بدخول باريس دخول الظافرين . كان هـذا الاقتراح البديل مستغربا من المستشار الذى اشتهر بواقعيته ، وقد قبله تييرعلى الفور .

وأسرع تيير بالعودة الى بوردو ليعرض هذه الشروط على الجمعية ومع أن رفضـها كان مستحيلا فان بعض الأصـوات قـد ارتفعت بالاحتجاج العنيف عليها . وكان كيلر M. Keller قد أعلن باسم الألزاس واللورين « رغبتهما التى لاتتزعزع فى أن تظلا فرنسيتين » . فلما تليت الشروط وقف ممثلو الاقليمين السليبين يعلنون أن ما حدث يعد « استهانة بكل مبادىء العدالة واساءة منكرة لاستخدام السلطة » ويكررون القول « بأن أية معـاهدة تتصرف فينا دون موافقتنا تعد باطلة كأن لم تكن » . كما صدرت احتجاجات عنيفة من جانب بعض ممثلى باريس كذلك . فقد أعلن هؤلاء أن الجمعية فقدت صفتها فى تمثيل البلاد بعد أن مزقت أوصالهاوسلمت اقليمين من أقاليمها للعدو ، واستقال الكثيرون منهم أثر ذلك . وممن اسـتقالوا فيكتور هوجو الذى ما برح اسمه يذكر مقرونا بالتبجيل فى كافة أنحاء أوروبا . ويجدر بنا أن نذكر هنا تلخيصه للموقف : « هناك أمتان أوروبيتان ستصبحان رهيبتين من الآن فصـاعدا ، الأولى لأنهـا انتصرت والثانية لأنهـا هزمت » .

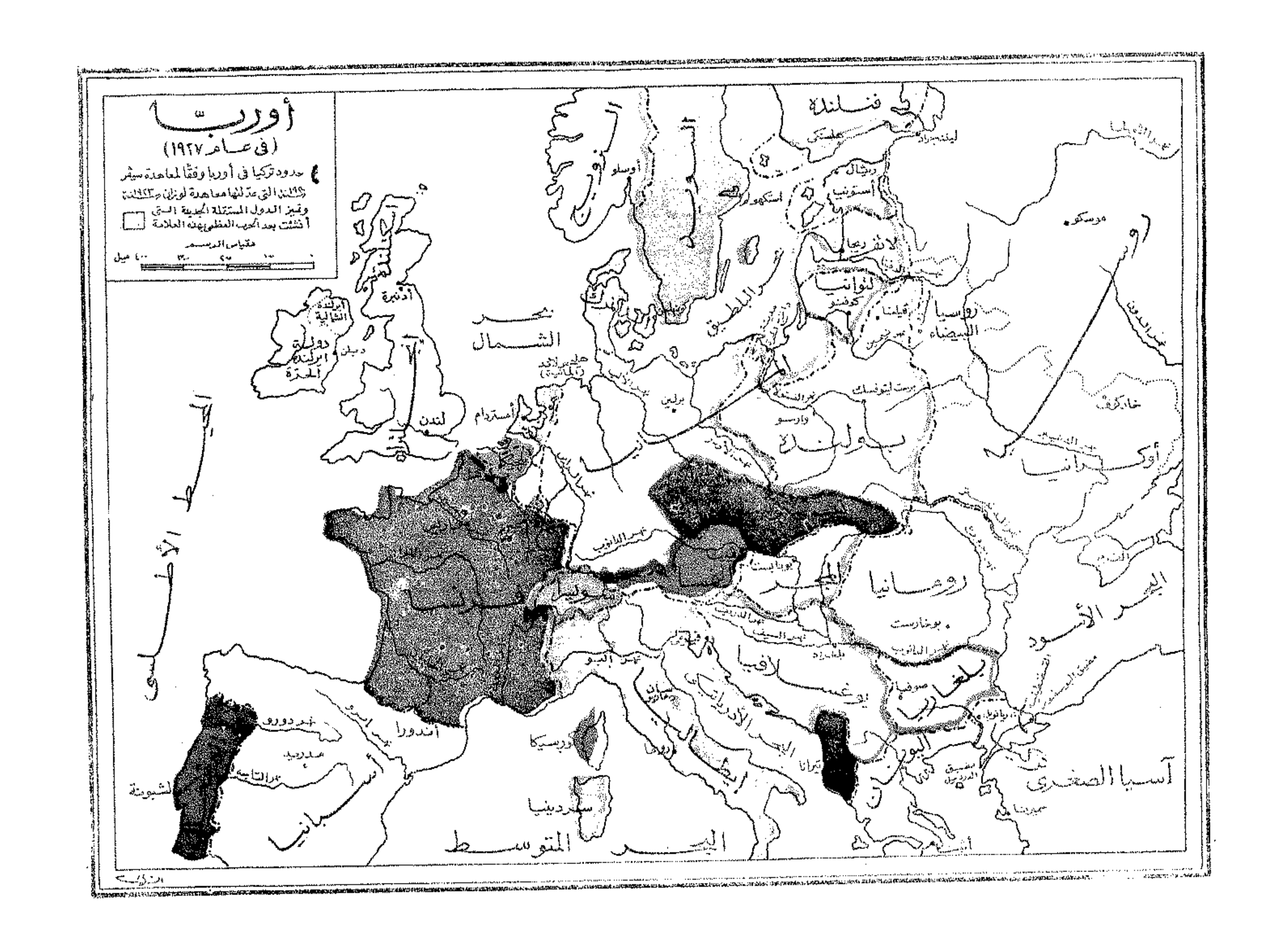
وقد تم التصديق على المعاهدة فى أول مارس . ثم وقعت فى صورتها النهائية فى ١٠ مايو بفرانكفورت . ودخل باريس ثلاثون ألف جندى

ألمانى ، ولبثوا بها فترة قصـيرة موغرين بوجودهم صدور الباريسيين التى لن تلبث أن تنفجر فى تمرد رهيب[1] .

---

(١) ملحوظة :

أدت الحرب فيما أدت الى انسحاب الفرنسيين من الأراضى البابوية (١٩ أغسطس ١٨٧٠) ودخول قوة ايطالية ضخمة الى روما (٢٠ سبتمبر) واتحادها مع ايطاليا فى ٣ اكتوبر اثر استفتاء اجرى لهذا الغرض ٠



أوربا
(في عام ١٩٢٧)
حدود تركيا في أوربا وفقًا لمعاهدة سيفر
وتميز الدول المستقلة الجديدة التي
أنشئت بعد الحرب العظمى بهذه العلامة
مقياس الرسم
٠ ١٠٠ ٢٠٠ ٣٠٠ ٤٠٠ ميل
فنلندة
أستونيا
لاتفيا
لتوانيا
روسيا البيضاء
بولندة
أوكرانيا
روسيا
موسكو
بحر الشمال
بحر البلطيق
أوسلو
استكهولم
أدنبرة
ايرلندة الشمالية
دولة ايرلندة الحرة
دبلن
لندن
أمستردام
برلين
وارسو
فرنسا
أسبانيا
لشبونة
أندورا
كورسيكا
سردينيا
البحر المتوسط
رومانيا
بوخارست
بلغاريا
صوفيا
يوغسلافيا
البحر الأدرياتيكي
تيرانا
البحر الأسود
آسيا الصغرى
المحيط الأطلسي

الفصل الحادى والعشرون
قيام الجمهورية الفرنسية الثالثة

لقد انتخبت الجمعية فى بوردو لغرض واحد هو اقرار الصلح مع ألمانيا ، فذهب الكثيرون الى أنها ليست مكلفة بأى عمل آخر وأنها يجب ان تنحل بمجرد الفراغ من توقيع الصلح . غير أن فرنسا كانت تواجه الكثير من المشاكل الملحة ، وقد بدا أن من الخطورة بمكان اجراء انتخابات عامة جديدة ولم تمض على الانتخابات الأخيرة الا فترة وجيزة . فأصرت الجمعية على اعتبار نفسها جمعية مطلقة السيادة تولدت عن اختيار الشعب الفرنسى ولها بالتالى أهلية البت فى أية مسألة تنشأ . وكانت أهم هذه المسائل مسألة شكل الحكومة التى تتولى مقاليد البلاد فى المستقبل . كان الثلثان على الأقل من أعضاء الجمعية الستمائة من أنصار العودة الى شكل من أشكال الملكية سواء فى صورتها الشرعية أو الأورليانية أو الامبراطورية . الا أن المطاف قد انتهى بهذه الجمعية الملكية النزعة الى اقامة الجمهورية . وتلك هى الظاهرة المتناقضة التى اتسم بها التاريخ الفرنسى فى السنوات العشر التالية .

كان لثورة كوميون باريس أثر هام . فلقد كان هناك تناقض ظاهر بين باريس والأقاليم منذ قيام الثورة الكبرى فى ١٧٨٩ فصاعدا . فباريس كانت فى العادة تقدمية راديكالية فى حين ظلت الأقاليم محافظة . والفلاحون خاصة كانوا على استعداد دائما لرفض أى اجراء يبدو لهم ماسا بسلامة أراضيهم أو معرضا اياها للخطر . ولقد

استطاع النابليونان الأول والثالث الاعتماد على مؤازرة جمهرة الفلاحين الذين نصبا من نفسيهما حاميين لهم . أما باريس فقد ظلت متشيعة للجمهورية في عناد واصرار رغم جميع محاولات نابليون الثالث . وقد قاست المدينة الأمرين في أثناء الحصار، وساورها الاحساس بأنها عوملت أسوأ معاملة في معاهدة الصلح . فقد أثار دخول القوات الألمانية الشعور العام الذي صار نهبا كذلك للمخاوف بشأن مستقبل البلاد السياسي . اذ ساد الاعتقاد بأن الجمعية ستقيم ملكية ، فهبت باريس تحتج احتجاجا مهيبا على ذلك . فالخوف من اعادة الملكية كان — في رأي ثيير نفسه — من بين الأسباب التي جعلت من ثورة الكوميون أقواها جميعا . وكان عدد ضخم من المواطنين الموسرين قد ترك المدينة بعد الهدنة مما أضعف العنصر المحافظ بين الأهالي . ثم ان الحرس الوطني لم يكن قد جرد من سلاحه ، بل احتفظ رجاله بأسلحتهم وتنظيمهم فقاموا بالدور الرئيسي في الانفجار لاسيما في أحداثه الأولى .

مابرحت باريس زاخرة منذ ١٨٤٨ بالحماسة للأفكار والنظريات المختلفة في شتى المسائل الاجتماعية . وقد كان لكل من سان سيمون وفوريبه أنصاره ، على أن الاشتراكية باتت الشعار المفضل وان كانت تعني كالعادة برامج مختلفة باختلاف الأشخاص . وكان كتاب ماركس « رأس المال Das Kapital » قد نشر منذ ١٨٦٧ ولكنه لم يكن قد بدأ يحدث تأثيرا كبيرا على العقل الفرنسي . واذا كان ماركس قد هلل حقا للكوميون باعتباره فاتحة حركة كبرى لاحداث تغيير عالمي فان برنامج رجال الكوميون Communists [1] الفعلي لم يحمل أثرا يذكر لآرائه . ولقد اتسمت أقوال معظم زعمائهم بالتنديد بنظام المركزية

---

(١) وهو الاسم الذي اتخذه الشيوعيون فيما بعد (المترجم) .

فى الدولة . فكانوا يقولون « ان المركزية تعنى الاستبداد » . ومع أن الوقت لم يكن يسمح بالتفكير الواضح أو التخطيط الدقيق ، فقد كان للثوار هدف رئيسى هو استقلال كوميونات فرنسا أو مجالسها البلدية مع اتحادها فى كل واحد وتنظيمها على أساس جماعى . وذلك أمر يوضحه بيان الكوميون الذى نشر فى ٢٠ أبريل عام ١٨٧١ :

« ماذا تريد (باريس) ؟ انها تريد الاعتراف بالجمهورية وتدعيمها باعتبارها الشكل الوحيد للحكم الذى يتمشى مع حقوق الشعب ... وتريد تعميم الاستقلال الذاتى الكامل للكوميون فى كافة أرجاء فرنسا ... فلا يحد من استقلال الكوميون الذاتى شىء الا حق الاستقلال الذاتى المماثل للكوميونات الأخرى ... ان أولئك الذين يتهمون باريس بأنها ترمى الى تحطيم وحدة فرنسا التى حققتها الثورة انما هم مخدوعون أو مخادعون للبلاد ... ان الوحدة السياسية كما تريدها باريس هى الالتقاء الحر لجميع المبادرات المحلية » .

لقد كانت باريس مدينة ضخمة تضم قوميات عديدة ، وكانت الدولية من الخصائص الجوهرية للكوميون . فلا غرو أن وجدنا بين الشخصيات البارزة فيه (لم يكن هناك قط زعيم بالمعنى المعروف) عددا من الأجانب فقد كان ديليكلوز Delescluze وفيلكس بيا Felix Pyat فرنسيين وكانا يمثلان الجناح الأكثر اعتدالا ، بينما كان كلوزيريه Cluseret فرنسيا أمريكيا اشترك فى الحرب الأهلية الأمريكية . وكل من دومبروفسكى Dombrowski البولندى ولاسيسليا La Cecilia الايطالى لعب فيه دورا بارزا بعض الوقت .

ويمكننا أن نؤرخ بدء الحركة بيوم ١٨ مارس . كانت الجمعية قد انتقلت من بوردو الى فرساى لأسباب عدة منها توقعها للانفجار . وكان عدد القوات التى تأتمر بأمر تيير صغيرا جدا لا يتجاوز ٣٠٫٠٠٠ جندى . وقد أصدر اليهم الأمر بازالة عدد من المدافع من مونمارتر ، وهى مدافع كان أهالى باريس قد نصبوها فى أثناء الحصار ثم رفضوا تسليمها . ولما

هم الجنود بتنفيذ الأمر أحاط بهم جمهور هائل منعهم من نقل المدافع.
وقد رأى تيير أن عدد الجنود فى باريس ليس كافيا لحفظ النظام بالمرة وأن التيار قد يجرفهم ، فأصدر اليهم الأمر بالجلاء عن المدينة .
وبحلول يوم ٣٠ مارس كانت باريس قد تركت لنفسها ، واستمر الصراع حتى ٢٨ مايو أى حوالى شهرين . وقد وقعت مسئولية اخماد الثورة وفتح باريس من جديد على كاهل تيير بوصفه رئيسا للحكومة التنفيذية . وكان قد بلغ الرابعة والسبعين من عمره ، ولكنه كان يبدى دائما اهتماما كبيرا بتنظيم العمليات الحربية وتوجيهها ، وقد ظلت عزيمته وثقته بنفسه كاملتين لم يبد عليهما أى وهن . وكان قد خدم كما رأينا بيت أورليان وكان يفضل من الوجهة النظرية الملكية الدستورية على غرار الملكية الانجليزية على الجمهورية ، ولكنه كان قد قطع على نفسه عهدا رسميا بألا يسعى الى التأثير على الجمعية فى قرارها بأية طريقة غير عادلة . وكانت ثقة جميع الأحزاب به مكسبا كبيرا لفرنسا فى تلك الأزمة . وقد وفق الى اقناع المارشال ماكماهون ، وكان قد أبل من الجرح الذى أصابه فى سيدان ، بقبول القيادة العليا .
وقد رفض تيير دون ماتردد عرض ألمانيا بمد يد العون له ، الا أنه أعاد الى الوطن بطريق البحر من هامبورج ١٠٠٠٠٠ أسير من أسرى الحرب الفرنسيين ، وهؤلاء هم الذين قاموا بالدور الأكبر فى اخماد الثورة .
على أن عدد الجنود الذين توفروا له لاخضاع المدينة الكبرى لم يزد قط على ١٥٠٠٠٠ جندى . وقد تبددت كل فرص الكوميون فى النجاح، ان تكن هناك أية فرص ، بسبب المنازعات والمنافسات المستمرة بين السلطات . كانت السلطة من الوجهة الاسمية فى يد الكوميون (أو المجلس البلدى) الذى انتخب فى ٢٦ مارس ، وكان لونه ثوريا خالصا.
وقد أناب عنه فى مباشرة الجانب الأكبر من سلطاته لجنة مكونة من خمسة أعضاء سميت لجنة « الأمن العام » وآلت السيطرة الكاملة

عليها فيما بعد لديليكلوز . ولكن الحرس الوطنى كان يشكل فى الحقيقة قوة مستقلة وقد انتخب لجنة مركزية رفضت الانصياع للكوميون .

وقد أبدى أنصار الكوميون أول الأمر ثقتهم بالنصر وأملهم بأن معجزات الثورة الفرنسية الأولى ستتكرر ، وبأن سائر المدن الكبرى فى فرنسا ستخف لنجدتهم وبأن قضية الحرية والبعث الاجتماعى التى يناضل من أجلها جنودهم ستحدوهم الى بذل جهود تفـوق طـاقة البشر . ولكن شيئا من هذا لم يحـدث ، بل اتضـح من اشتباكات الباريسيين الأولى مع جنود فرساى انهم لا يمكن أن يأملوا فى التغلب على جنود فرنسا المدربين حتى وان تكن هزيمة الحرب الألمانية قد زعزعت من روحهم المعنوية . وقد أحسن ماكماهون اعداد مدفعيته . فشاهد الجنود الألمان ، وكانوا لا يزالون يعسكرون خارج باريس ، قصف المدينة المحاصرة للمرة الثانية بالقنابل . وقد بدأ الهجوم المنظم فى ٢٩ أبريل واستولى المهاجمون على قلعتين هامتين فحدد للهجـوم العام يوم ٢٣ مايو . على أن باريس لم تكن لتستطيع أن تقاوم حتى ذلك التاريخ . لقد صدرت بيانات لا حصر لها وأعدت تشريعات طيبة ، ولكن المشاحنات بين الزعماء كانت دائمة متصلة . وقد حل روسل Rossel محل كلوزريه Cluseret فى منصب القيادة العسكرية ، ثم حل محل روسل ديليكلوز الذى كان موفور الشجاعة منزها عن الغرض ، ولكن ذلك لم يجد شيئا فى تحسين القوة المحـاربة . ولم يشترك السواد الأعظم من الباريسيين فى صف الكوميون أو ضده . وأخيرا وردت فى ٢١ مايو اشارة من الاستحكامات الى الجنـود بأن أسوار المدينة قد هجرت ، فأشرف تيير على دخول الجنود الى ضواحى باريس دون أن تلقى أية مقاومة .

على أن الأيام كانت لاتزال تخبىء ماهو أشد وأنكى ، فقد اعتصم الثوار بشوارع باريس الرئيسية ونصبوا فيها المتاريس واستماتوا فى

الدفاع عنها ، فلم يتم الاستيلاء عليها الا بعد قتال بالغ الوحشية من الجانبين . وقد استخدم البترول فى اشعال النيران ببعض مبانى باريس العريقة فأتى الحريق على عدد من أشهرها ، ونخص منها بالذكر دار البلدية والتويلرى . وفى ٢٤ مايو قتل الثوار عددا من الرهائن بينهم رئيس الأساقفة احتجاجا على المعاملة التى لقيها نفر من رجالهم على يد جنود فرساى . ولم يتم سقوط آخر المتاريس الا فى ٢٨ مايو . ثم تلا ذلك انتقام بشع مع مراعاة الشكل القانونى أحيانا ودون مراعاته أحيانا أخرى . فأعدم كثيرون وسيقت جموع غفيرة الى المنفى فى المستعمرات المخصصة للمجرمين . ويلخص هانوتو Hanotaux المؤرخ والسياسى الفرنسى نتائج تلك الحركة فى الكلمات التالية : « قدر عـدد الذين هلكوا فى ذلك الاشتباك الرهيب بسبعة عشر ألف جندى ... وبلغ مجموع المواطنين الذين فقدتهم باريس ثمانين ألفا (١) » . وقد ظلت ذكرى الكوميون حتى الحرب العظمى الأولى عاملا مؤثرا فى السياسة الفرنسية يحول دون تصالح الأحزاب ويصبغ الحياة السياسية بروح المرارة وترقب الخطر ، على أن أحداث باريس قد ساهمت على الأرجح أكبر مساهمة فى تأمين قيام الجمهورية . فلقد أظهر الكوميون تصميم عاصمة فرنسا العنيف على ألا تشهد عودة الملكية .

وقد تركت هزيمة الكوميون الجمعية وجها لوجه أمام مهامها الكبرى ، وكانت أولاها تسوية أمر العلاقات مع الألمان . اذ كان من الضرورى أن توقع المعاهدة ، وأن يدبر المال اللازم لدفع التعويض كيما يتم جـلاء القوات الألمانية عن البلاد . وقد أفادت فرنـسـا كثيرا من شـخصية

---

(١) جبرييل هانوتو : « تاريخ فرنسا المعاصر » الجزء الأول الصفحات من ٢١١ — ٢١٤ .

Gabriel Hanotaux: "Histoire de la France Contemporaine", vol. I. pp. 211-214.

ثيير وسمعته فى التعامل مع بسمارك الذى كان ميالا الى استخدام نبرة الارتياب والصرامة مع فرنسا . وقد وقع الصلح النهائى فى ١٠ مايو ١٨٧١ بفرانكفورت كما أسلفنا ، ولكن القوات الألمانية كانت لا تزال تحتل مديريات عديدة ، وقد تقرر أن تبقى فيهما حتى تتمكن فرنسا من جمع المبلغ المطلوب منها ، وكان ثيير على دراية كبيرة فى الشئون المالية ، وكان يحظى بسمعة طيبة فى عالم المال ، فتم جمع المبلغ بسهولة مذهلة ، وراحت ألمانيا تنظر بعين الريبة والاستياء الى ابلال فرنسا الذى حدث بسرعة غير متوقعة ، فقد تم الجلاء قبل الموعد المتوقع له بسنتين ، ولكن شروط الصلح نفذت بأمانة ، فرحل الجنود الألمان وأعلنت الجمعية أن ثيير قد « استحق تقدير الوطن » .

كان ذلك نصرا كبيرا للرئيس الشيخ ، ولكنه أدى على الفور الى قيام معارضة أشد عنفا له فى الجمعية . فلقد كان وجوده ضروريا جدا للمفاوضات مع ألمانيا بحيث لم يكن هناك أى مجال للتفكير فى زحزحته من منصبه حتى تتم . أما الآن فقد أصبح من المحتم ايجاد حل نهائى لمشكلة دستور فرنسا المقبل ، ولم يكن موقف الرئيس فى هذه المشكلة مما يرضى عنه أعضاء الجمعية اللهم الا نفر قليل منهم . واذا كان ثيير قد وعد بألا يسعى الى التأثير بصورة غير عادلة على الجمعية فى قرارها ، فانه لم ير أن ذلك الوعد يمنعه من ابداء النصح ، فلم يفوت مناسبة لاستخدام حقه بوصفه رئيسا فى مخاطبة المجلس فى أى موضوع يعن له . لقد كان يتحدث كثيرا حقا ولعله يجمل بنا أن نضيف أنه كان يتحدث ببراعة كبيرة مما أدى الى تقييد ذلك الحق فيما بعد بنص صريح . وقد كانت آراؤه واضحة تمام الوضوح ، فقد كان يفضل الملكية الدستورية ذات النمط الانجليزى على الجمهورية ، الا أنه كان يعتقد أن الموقف الراهن يجعل من قيام الملكية ضربا من المستحيل . فكان يقول : « ان جميع الحكومات القائمة ، هى الآن مهما تعددت

أسماؤها حكومات جمهورية فى جوهرها » و « اذا لم تشاءوا عبور المانش فاعبروا الأطلنطى » . لقد أصر على أن الأحداث أعطت فرنسا نظاما جمهوريا بالفعل وأن اقامة أى نوع من الملكية يعد فى الظروف القائمة ثورة بمعنى الكلمة .

بيد أن النزعة الملكية كانت غالبة على الجمعية ، فلم يكن منتظرا منها أن تقبل الحل الجمهورى عن طيب خاطر . ولم يكن هنـاك الا القليلون ممن ينادون علنا بعودة الامبراطورية ولو كان نابليون الثالث على قيد الحياة لجاز أن تبذل محاولة ما فى هذا الاتجاه ولكنه مات فى انجلترا . فلم يعد هناك الا منهاجان وشخصان يتنازعان ولاء الملكيين ، أولهما الكونت دى بارى Comte de Paris الذى يمثـل تقاليد بيت أورليان الدستورية ، وهو رجل خبر الدنيا وكان يعتنق — فيما يعتقد — آراء متحررة . والثانى هنرى كونت دى شامبور Henri, Comte de Chambord الذى انعقدت عليه آمال الشرعيين المتشبثين بحق الوراثة غير القابل للالغاء وبضرورة قيام رباط وثيق بين العرش والهيكل (أى بين الدولة والكنيسـة) ، وكان هـذا الأمير يعيش بالقرب من فيينا وكان مجردا من الأطماع السياسية ، فلم يكن تواقا الى ارتقاء منصة الحكم فى فرنسا أو مستعدا للتضحية بمبادئه السياسية أو الدينية من أجل تلك الغاية . ولقد أثارت العلاقات بين هـذين الحزبين الملكيين صعوبات بالغة فيما بعد ، ولكن الهدف الأول فى تلك الآونة كان التخلص من تيير . وعلى هذا قدم للجمعية مشروع قرار ، هو فى حقيقته قرار بسحب الثقة من الحكومة ، بالاعراب عن « الأسف لأن سياسة الحكومة ليست محافظة على وجه قاطع » ، فانبرى تيير يدافع عن قبوله للنظام الجمهورى بقوله « ان مبعث تفكيرى هو أن قيام الملكية بعد اليوم من جهتكم وجهتى أمر مستحيل فى الواقع تمـام الاستحالة ، فليس هناك سوى عرش واحد ولا يمكن لثلاثة أشخاص

آن يجلسوا عليه فى آن واحد » . غير أن المجلس صوت ضده بأغلبية ضئيلة فاستقال .

وخلفه فى الرئاسة المارشال ماكماهون الذى جرح فى سيدان وتولى قيادة الجيش ضد الكوميون . ولم يكن قد خاض غمار السياسة من قبل ، ولكنه كان معروفا بميوله الملكية وولائه للكنيسة . وكان عاطلا من ذكاء الفكر والقول ، وقد تناقلت الألسن فى باريس نوادر ارتباكه وسوء تصرفه فى المجتمعات ، ولكن الجميع كانوا يعترفون باستقامته وأمانته وجدية قصده . وكانت الجمعية قد قاست الكثير من ألمعية تثير فرحبت بالتغيير . كانت المهمة الموكولة اليه واضحة جلية ، ألا وهى الاشراف على عملية اقامة الملكية ، وقد كانت تلك أمنيته الخاصة وأمنية أتباعه ، بيد أن الذى حدث فعلا هو أن الجمهورية تأسست فى عهده !

ولم يكن متصورا أن تقوم الملكية دون صراع عنيف حتى لو التأم شمل الملكيين . على أن جميع المحاولات التى بذلت لضم صفوفهم قد ذهبت أدراج الرياح . فقد توجه الكونت دى بارى لمقابلة الكونت دى شامبور ، ولما كان هذا الأخير منقطع الذرية فقد بدا الحل الطبيعى أن يحكم هو أولا ثم يخلفه بيت أورليان . ولكن ماذا عساها أن تكون المبادىء التى يحكم شامبور على أساسها ان صار ملكا ؟ أيصمم على التنكر لكل ماكانت تعنيه الثورة الفرنسية أم تراه يرضى بقبول بعض مبادئها ؟ لقد تركزت المشكلة يومذاك فى علم البلاد بوصفه رمزا . فهل يتمسك الكونت دى شامبور بعلم بيت البوربون الأبيض التقليدى — علم هنرى نافار ولويس الرابع عشر — أم تراه يقبل العلم المثلث الألوان بما له فى الأذهان من ارتباطات بالثورة والمجد الحربى ؟ لقد رفرف هذا العلم حقا فى معركة أوسترلتز ، ولكنه رفرف أيضا الى جوار

المقصلة عندما هوت على عنق لويس السادس عشر . ان العلم ليس الا رمزا ، غير أنه رمز هام ، وقد كان فى نظر الكونت دى شامبور رمزا دينيا ، فمانع من تبنى العلم المثلث الألوان ممانعة المسيحى فى استبدال الهلال بالصليب . وبذلت الجهود لحمله على العدول عن قراره وترددت الشائعات بأنه قد عدل عنه فعلا ، الا أن رده النهائى كان أنه لا يستطيع التضحية بشرفه . فشعر الناس أن قيام الملكية بات مستحيلا فى ظل تلك الظروف ، وروى عن ماكماهون أنه قال ان رفع العلم الأبيض فوق دار البلدية كفيل بأن يؤدى الى « انطلاق بنادق الشاسبوت من تلقاء ذاتها » — أى أن الثورة ستنشب على الفور . وقد سعى الكونت الى حل الاشكال بالحضور بنفسه الى فرساى عسى أن تحدث معجزة لصالح القضية التى يمثلها . وكان يتعشم أن يزوره ماكماهون على الأقل ، الا أن ماكماهون رأى — رغم أنه كان يشايع الكونت — أن فى قيامه بزيارة المطالب بالعرش خروج على كرامة منصبه كرئيس للجمهورية وعلى اليمين التى أداها بهذه الصفة ، فما كان من الكونت دى شامبور الا أن استقبل أشياعه وزار باريس حيث ألقى نظرة عابرة على أطلال قصر التويلرى ثم قفل راجعا الى النمسا . وباتت قضية الملكية خاسرة . ولكن الجمعية لم تتوصل الى اتخاذ القرار الكريه الا ببطء وعلى مضض . فمنحت أولا المارشال ماكماهون « السلطة التنفيذية » لمدة سبع سنوات ، وعينت لجنة للتوفر على دراسة المشروعات الدستورية . وقد تقدمت اللجنة اليها بقرارات مختلفة قوبلت بالرفض . ولكن نتائج الانتخابات الفرعية جعلت تأتى ضد أنصار الملكية على طول الخط ، فكان لها أثر ملحوظ على الجمعية . وقد جاء القرار الحاسم فى ٣٠ يناير ١٨٧٥ عندما طرح للتصويت تعديل تقدم به نائب يدعى والون Wallon لتحديد طريقة انتخاب رئيس الجمهورية ، فأقرته الجمعية بأغلبية صوت واحد ، وبهذه

الأغلبية التي ليس أقل منهـا أغلبية تقرر أن تصبح فرنسا جمهورية .

ثم وضعت سلسلة من القـرارات حددت شكل هـذه الجمهورية الفرنسـية الثالثة . ان الدسـتور الجديد لم يكن واحـدا من تلك الدساتير المنطقية المرتبـة التي أحبتها فرنسـا كثيرا ، بل جاء حصيلة سلسلة من التوفيقـات والحلول الوسطى التي أقرتهـا الجمعية على مضض وان كانت تأمل ألا يكتب لها الدوام . وقد قال أحـد الذين ساهموا بدور بارز في المناقشة «ان عامل الصدفة هو الذي كان يحكمنا»
"Le hasard fût notre maitre"

لقد تقرر لفرنسا أن تصبح جمهورية يرأسها رئيس ينتخبه المجلسان (مجلس النواب ومجلس الشيوخ) في جلسة مشتركة . وقد أبديت ضد هذه الطريقة حجج قـوية ، ولكن الحجة الوحيدة التي كانت في صالحها كانت كافية : ذلك أن البديل الوحيد لها ألا وهو انتخـاب الرئيس بطريق الاستفتاء العام ، قد أتى من قبل بنابليون الثالث الى الحكم في ١٨٥١ فلم يكن مستبعدا بالمرة أن يسفر مرة ثانية عن نتيجة مماثلة . وعلى هذا أقرت تلك الطريقة التي أسلمت فرنسا الى سلسلة من رؤساء الجمهورية عرفوا بضآلة الشأن وضعف السلطان السياسي وأصبح مركز رئيس الجمهورية في الدستور الفرنسي مماثلا تقريبا لمركز ملك بريطانيا وسلطاته (١) .

---

(١) الفارقان الوحـيدان هنا ان الرئيس الفرنسي يرأس جلسـات مجلس الوزراء وهو مالايفعله ملك بريطانيا ، وان الاول ينتخب لفترة محدودة بينما الآخر يتولى منصبه بالوراثة . ومن الأمور التي لها دلالتها أن كل رئيس حاول الاسهام بدور شخصي مباشر في شئون السياسة قد سقط ، ومثال ذلك ماحـدث لماكماهون وجريفي Grévy وميليران Millerand ولما كان الملك يستطيع ان يمارس أحيـانا بحكم دوامه تجـاربه نفوذا حقيقيا على سياسة بلاده فقد يصح القول بأنه يجسد أقوى سلطانا من رئيس الجمهورية .

وأعطى حق الانتخاب العام لكل من تجاوز العشرين من الرجال . وحددت مدة مجلس النواب بأربع سنوات ، ومجلس الشيوخ بتسع سنوات . وتقرر بادىء الأمر أن يضم هذا المجلس الأخير خمسة وسبعين عضوا يعينون مدى الحيــاة ، الا أن النص الخاص بذلك ما لبث أن ألغى . أما الباقون فقد تقرر أن يجرى انتخابهم بطريقة عجيبة ، يقوم بالدور الأول فيها مندوبون تعينهم خصيصالهذا الغرض مجالس فرنسا البلدية ، مما حــدا بجامبتا الى تسميته « المجلس الأعلى لكوميونات فرنسا » . وفازت الأقاليم بقدر كبير من الحــكم الذاتي ، وان تبنت الجمهورية الجديدة نظاما تميزت به الامبراطورية الأولى ألا وهو نظام المأمورين Prefects الذين يعدون خلفاء للنظار Intendants في الملكية القديمة . وهؤلاء تعينهم الحكومة المركزية التي تدير شئون فرنسا على نحو أكثر مركزية وأقل تأثرا برأى الشعب عما هو مألوف في انجلترا .

جاء النظام الجديد قريبا جــدا بصفة عامة من النظام الانجليزى ، وقد أمل الكثيرون من أعضــاء الجمعية في أن يخلى الرئيس مكانه في الوقت المناسب لملك دستورى . كما ظهــر الأمل في الأخذ بنظــام مماثل لنظــام الوزارة ومجلس الوزراء الانجليزى[١] . غير أن الأيام أثبتت أن هنــالك فروقا ضخمة بين النظــام البرلماني الفرنسي والنظام الانجليزى . فالوزارات الفرنسية كانت أقل استقرارا من الوزارات في انجلترا . فقد تعاقبت على فرنسافي الفترة مابين ١٨٧٣و١٨٨٨ تسع عشرة وزارة،أي أن متوسط مدة الوزارة الواحدة كان أقل من العام الواحد،بينما لم يزد عدد الوزارات التي تعاقبت على انجلترا في نفس الفتــرة على

(١) ministerial and cabinet system فمن المعروف ان الوزارة في انجلترا نوعان فهنــاك أعضــــاء الوزارة الذين يتــألف منهم مجلس الوزراء babinet members ثم الوزراء العــاديون الذين لايعتبرون أعضاء في مجلس الوزراء . (المترجم)

خمس وزارات . وليس الفارق الوحيد أن مدة الوزارات الفرنسية فى الحكم كانت أقصر من مــدة الوزارات الانجليزية ، فان قدرتها على السيطرة على أنصــارها وعلى الجمعية فى مجموعها كانت كذلك أقل كثيرا مما هو مألوف فى انجلترا . ومرد ذلك ليس الى طباع الفرنسيين فقد جرت العادة فى القــرن السابع عشر على مقارنة ولاء الفرنسيين الثابت بنزعات الانجليز الثورية الجامحة . ولهذا السبب استن لويس الرابع عشر لنفســه قاعدة الامتناع عن الدخول فى أى علاقات تترتب عليها التزامات مع الحكومة الانجليزية . ولكننا نستطيع أن نرد عدم استقرار الوزارات الفرنسية ولو جزئيا الى العوامل التالية : أولا : ان تنظيم الأحزاب السياســية الفرنسية لم يبلغ من الصرامة ما بلغــه فى انجلترا . فأعضاء الأحزاب الفرنسية لا يلتزمون بمبدأ الولاء للحزب كما يلتزم به أعضاء الأحزاب الانجليزية ، فهم أكثر استعدادا للتصويت ضد أحزابهم ، وهذا الاتجاه يعد سببا ونتيجة فى الآن نفسه لتعــدد الأحزاب . أما سبب هذا الاختلاف فى موقف الأعضــاء من أحزابهم فمسألة أخرى ليس لنا أن نتصدى لها هنا . ثانيا : ان سقوط الوزارة فى فرنسا لم يكن يستتبع اجــراء انتخابات عامة . وقــد كان من حق الرئيس نظريا أن يأمر بحل مجلس النواب بعد الحصول على موافقة مجلس الشيوخ ، ولكن ذلك لم يحدث فى الحقيقة الا نادرا . وعلى هذا لم يكن من المحتم أن يؤدى طرد الوزارة من الحكم الى نفس العواقب الخطيرة بالنسبة للعضو التى يؤدى اليها بالنسبة لمثيله فى انجلترا ، فلم يكن يتعين عليــه أن يواجه على الفــور معركة انتخابية جــديدة غير مضمونة النتائج وان تكن مضمونة التكاليف (١) . ثالثا مكنت هذه

---

(١) فشلت المحاولة التى قام بها مسيو دومرج M. Doumergue لتحقيق التماثل بين الدستور الفرنسى والدســتور البريطانى من حيث سلطة الحل ، وانتهت الى استقالته فى نوفمبر ١٩٣٤ .

الحقيقة مجلس النواب الفرنسى فى مجموعه من أن يلعب دورا أكثر فاعلية فى تصريف شئون الحكم من مثيله فى انجلترا حيث يتولى حزب الأغلبية تصريفه جميع الأعمال تقريبا . ففى فرنسا كان الوزراء هم الذين يتقدمون عادة بمشروعات القوانين ولكن تطورها بعد ذلك ونجاحها أو فشلها كان يتوقف بدرجة أكبر كثيرا على المجلس بأكمله عاملا عن طريق لجانه أو مكاتبه التى لم تكن تشكل على أساس حزبى . فكان المجلس وهو مدرك لضخامة سلطانه — ينظر فى شىء من عدم الاكتراث النسبى الى سقوط الوزارة الحزبية التى عهد اليها بالسلطة التنفيذية منذ زمن وجيز .

وهكذا تأسست الجمهورية واستمرت على قيد الحياة حتى قضى عليها طوفان ١٩٤٠ . بيد أنها جاءت بطريق الصدفة المحضة تقريبا وكان لها فى الخفاء أعداء كثيرون . فقد ظلت الأحزاب الملكية قائمة رغم أن أنصار الامبراطورية لم يتمكنوا بعد وفاة ولى العهد الامبراطورى من الاتفاق على شخصية من يرشح لخلافته ، ورغم أن وفاة الكونت دى شامبور لم تؤد الى توحيد صفوف الشرعيين والأورليانيين . والرئيس ماكماهون لم يبد أدنى استعداد لقبول ما كانت تعنيه الجمهورية فى نظر معظم أنصارها من قيام عهد أساسه الديموقراطية والمساواة . بل كان يرمى الى الاحتفاظ ، بالتحالف الوثيق مع الكنيسة والاستعانة بجميع أدوات الحكم ، بمقاليد السلطة التنفيذية فى يديه وحكم البلاد دون الرجوع لمجلس النواب . والحزب الكنسى أو الكاثوليكى كان قويا للغاية وهو لم يقبل الجمهورية قط . وقد كان ماكماهون أشد اخلاصا لمبادىء هذا الحزب منه للمبادىء الملكية نفسها ، فراح يدعم سلطان الكنيسة فى ظل الجمهورية . وقد وقعت المشاحنات والمنازعات المتكررة بين الكنيسة والدولة وان دارت حقا حول المسائل التعليمية قبل المسائل السياسية ، وباتت المهمة الماثلة

أمام الجمهورية هي السيطرة على السلطة التنفيذية ، وتوكيد سلطتها على الكنيسة الكاثوليكية واحباط الجهود التي يبذلها — في السر والعلن — الملكيون على اختلاف أنواعهم .

وتعد الانتخابات العامة التي أجريت عام ١٨٧٧ معلما بارزا من تاريخ التطور السياسي لفرنسا . فقد رضخ ماكماهون حقا للوزارات الجمهورية ولكنه فعل ذلك على مضض . وقد راح ثيير حتى وفاته ومن بعده جريفي Grévy وفيري Ferry وفوق هؤلاء جميعا جامبتا يثيرون الخواطر من أجل تفسير أكثر ديموقراطية . ولكن ماكماهون تصدى لنظرية الأخير القائلة بأن « سلطة المجلس مطلقة لا يحدها شيء » معلنا « ضرورة الاحتفاظ باستقلال رئيس الجمهورية في حدود الدستور » . وانتهى به الأمر الى حل المجلس وطرح الخلاف على الناخبين في ١٨٧٧ . وقد حاول ، شأن نابليون الثالث ، أن يضمن لنفسه الأغلبية باستخدام شتى ألوان التأثير لصالح المرشحين الذين يريدهم . ولكن النتيجة جاءت فشلا ذريعا له . اذ عبرت البلاد عن تأييدها « لآراء جامبتا » بأغلبية ساحقة وعلى الأخص في جنوبي فرنسا وشرقها . وقد رفض ماكماهون باديء الأمر أن يذعن لرغبات الناخبين أو يستقيل ، وظل يشغل منصب الرئاسة ردحا آخر من الزمن . ولكن استمرار الموقف على ماهو عليه كان مستحيلا . فاستقال في يناير ١٨٧٩ ، أي قبل أن يضطره الدستور الى ذلك بسنة كاملة .

وجاء اختيار خلفه نصرا للجمهورية ، اذ وقع هذا الاختيار على جول جريفي Jules Grévy ، وهو رجل من أبناء الطبقة المتوسطة عرف بشدة عطفه على الفلاحين دون انحياز الى الملكية أو ميل الى اعلاء شأن الكاثوليكية . وقد أخذت البلاد تحرز في تلك الآونة تقدما كبيرا في الصناعة والتجارة ، وأقدمت من جديد على تحقيق مشروعات

استعمارية . كان احتمال استيلائها على تونس قد نوقش فى برلين فى أثناء المؤتمر المنعقد هنـــاك . وقد رأى بسمارك أن الاقدام على مغامرات خارجية من شأنه أن يصرف فرنسا عن الامعان فى التفكير فى ماضى الألزاس واللورين ومستقبلهما . فكان أن احتلت فرنســـا تونس فى ١٨٨١ . وفى ١٨٨٤ بسطت سيطرتها على مدغشقر ، وبدأت الحـــركة التى انتهت بالاستيلاء على تونكين Tonking فى ١٨٨٢ . وقد راحت جمهرة الشعب فى فرنسا تنظر الى هذه المغامرات بعين الانزعاج مقارنة اياها بالحملة المكسيكية التى كان لها أكبر الأثر فى القضاء على حكم نابليون الثالث . وفى الداخل كانت المنازعات مع الكنيسة حول اعداد برنامج قومى للتعليم هى أهم ما يلفت النظـــر . وقد لعب فيرى Ferry الذى تعـــــد وزارته أطول وزارة شاهدتهـــا فرنسا منـــذ سنوات عديدة (من فبراير ١٨٨٣ الى مارس ١٨٨٥) الدور الأكبر فى اعداد هذا البرنامج . وللعمل الذى أنجزه أهمية قصوى ، فقد وضع — متأثرا الى حد بعيد بالنموذج الألمـــانى — نظـــاما كاملا للتعليم الحكومى العلمانى فى مراحله الثلاث : الابتدائية والثانوية والجامعية ، وكان له أبعد الأثر على تطور فرنسا المقبل . ولا يفوتنا أن نذكر كذلك أن المجلس قد انتقل فى ١٨٨٠ من فرساى الى باريس التى اتخذها مقرا دائما له . وفى العام التالى صدر عفو شامل عن أولئك الذين اشتركوا فى ثورة الكوميون . وبذلك بذلت محاولة لرأب الصدع الذى أحدثته ثورة كوميون باريس فى ١٨٧١ بين الأحـــزاب والطبقـــات . وبدأت الدولة تتخذ تدريجيا طابعا ديموقراطيا صريحا . فألغيت فى ١٨٨٦ قاعدة شغل خمسة وسبعين مقعدا بمجلس الشيوخ بالتعيين مدى الحياة ، تلك القاعدة التى كان يعتز بهـــا ماكماهون أيما اعتزاز . وأصبحت جميع مقاعد مجلس الشيوخ تشغل من ذلك التاريخ فصـــاعدا بالانتخاب . كما روعيت المساواة بدرجة أكبر فى طريقة الانتخاب . وكفلت الحرية

للصحافة واتسعت حدودها . ومنح المواطنون حرية الاجتماع مما أدى الى تكوين نقابات عمالية على النسق الانجليزى . واتسع استقلال البلديات باعطاء المجالس البلدية فى كل مكان عدا باريس حق اختيار رؤسائها أو عمدها mayors على أن طابع الدولةظل مع ذلك متسما بسطوة ومركزية أشد كثيرا مما هو مشاهد فى انجلترا ، وظل المأمورون (prefects) كما لا يزالون حتى يومنا هذا ، يشكلون جزءا أساسيا من دولاب الحكم فى فرنسا .

وقد كانت معظم هذه التغيرات من الأشياء التى جاهد من أجلها جامبتا الذى يمثل أكثر من أى شخص آخر مبادىء الجمهورية الراديكالية ، على أن آراء ذلك الرجل الذى وصفه تيير ذات مرة بأنه « مخبول يهذى » كانت تنطوى دائما على عنصر محافظ ، وقد أخذت عباراته تزداد اعتدالا على مر الايام ، وقد أسندت اليه فى نوفمبر ١٨٨١ رياسة الوزارة ، غير أن وزارته لم تدم أكثر من ثلاثة شهور ولم تترك أثرا باقيا فى حياة فرنسا . وفى الانتخابات العامة ١٨٨٥ لم يعد ثمة صراع صريح بين الملكيين والجمهوريين ، ولئن كان المحافظون قد فازوا بسبب انقسام الجمهوريين بعدد كبير من المقاعد فان الجمهورية ذاتها لم تتعرض لأى خطر جدى .

وقد انتخب جريفى للرياسة لمدة ثانية ، ولكنه رأى فى ١٨٨٧ ، أثر اكتشاف فضيحة مالية ماسة بشرف زوج ابنته ، ان الحكمة تقتضيه أن يستقيل . وقد شاهدت الشهور الأخيرة لرياسته بداية الحركة البولانجية Boulangist movement وهى الحركة التى اكتسبت المزيد من الأهمية فى ظل خلفه الرئيس كارنو Carnot ، وان يكن من الأليق بنا أن نعرض لها هنا فى ايجاز . ان الكثير من الغموض مازال يحيط حتى يومنا هذا بنشأة هذه الحركة وتنظيمها ، ولكن

طابعها العام واضح جلى . فلقد كانت محاولة أخيرة بذلها الكارهون على اختلاف الأسباب للجمهورية البرلمانية الديموقراطية ، من أجل تعديل الدستور . ولم يكن الوضع الذى يحل محلها واضحا بحال من الأحوال ولكن أنصار بولانجيه Boulanger كانوا مجمعين على ضرورة تدعيم السلطة التنفيذية والاقلال من تدخل الجمعية فى شئون الحكم ! وهو أمر كان يمكن أن يؤدى اما الى قيام جمهورية أقرب الى النموذج الأمريكى واما اتاحة الفرصة لمغامر جديد من طراز نابليون الثالث لينصب نفسه حاكما واما عودة أحد البيوت المالكة القديمة . ولا شك فى أن الجنرال بولانجيه نفسه لم يكن ليستطيع السيطرة على زمام تلك الحركة لأمد طويل . وهو لم يكن أبله كما تصوره خصومه ، فهو رجل أبلى بلاء حسنا فى خدمة الجيش وشغل فى وقت من الأوقات منصبا محترما هو منصب وزير الحربية ، على أن خير تزكية له كانت قدرته على اثارة خيال الشعب ومظهره الشخصى الأنيق وحصانه البديع وبلاغته الرنانة الغامضة . وقد بدأت شهرته فى أوساط الشعب اثر حادث من حوادث الحدود . فقد ألقى الألمان القبض دون سند شرعى على ضابط فرنسى يدعى شنايبل Schnaebele ورأى الفرنسيون أن جريفى لم يتخذ موقف الحزم اللازم ازاء هذا الحادث . فما كان من بولانجيه الا أن نصب من نفسه متحدثا باسم القومية الفرنسية وحظى فى ذلك بمساندة « رابطة الوطنيين » . ولكنه لم يكتف بذلك ، بل مضى الى حد المطالبة بتغيير الدستور من أساسه وقد لخص برنامجه فى عبارة « حل الجمعية وتعديل الدستور بوساطة جمعية تأسيسية تنتخب خصيصا لهذا الغرض » . لقد بدا الخطر على الدستور الجمهورى جسيما حقا برهة من الزمن ، وعمد البولانجيون الى التأثير على الناخبين بوسائل مستعارة من أمريكا لم تعرفها فرنسا

من قبل ، فقد جعلوا يرشحون زعيمهم فى كل دائرة تخلو ، فكان أن انتخب فعلا فى كثير من الدوائر بأغلبية ضخمة ، بل انه انتخب فى باريس ذاتها ، ولكنه أخفق فى التأثير على مناطق الجنوب والشرق الثابتة على مبادئها الجمهورية . وقد انتهت الحركة الى الفشل نتيجة ضعف الجنرال بولانجيه نفسه والاجراءات القوية بل العنيفة التى اتخذتها الحكومة ضده . فقد عمدت الى تعديل قانون الانتخاب واتهام بولانجيه « بالتآمر على سلامة الدولة » فهرب من فرنسا وانتحر بعد ذلك ببرهة وجيزة فى بروكسل . فكانت النتيجة العامة لحركته هى تعزيز الشعور بقوة النظام الجمهورى واستتبابه فى فرنسا .

تصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣٦	٧	تطبيقاً	تطبيقها
٥٠	١٦	هم أهم	هي أهم
٥٥	١٢	أبو السياسى	أبو السياسة
٧٨	١٠	الســـمادة	السيادة
٧٩	٢٣	Jllustrative	Illustrative
٨٠	٢٠	الأمم	الأمة
٨١	١٥	المطق	المطلق
٩٢	٢٠	غريتان قديتان	غريتين قديتين
١٠٦	٨	محاميوه	محاموه
١٢٢	٦	بأسـاليب	بالأساليب
١٢٤	١٥	الثلاثاء	الثلاثين
١٤١	٢	انهيارهم	انبهارهم
١٩٩	١٣	منهم	منها
٢٠٤	٢٨	Whitwite	Whitworth
٢٢٥	٥	« بألم »	« بالم »
٢٣٢	١٨	Tugendbunt	Tugendbund
٢٨٩	١٩	Acmbridge	Cambridge
٣٥١	٣	والمفامرة	والمغامرة
٣٦٣	١١	وزيزاً	وزيراً
٣٦٧	٢٧	أنقذ	وكلاتا أنقذ
٣٨٩	١	لجهرون	لجهورن
٤١٢	٢٤	حساسية	حماسة
٤٥٩	١	ولمرب	ولعب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٧٩	٢٢	بريطانيا	إيطاليا
٤٧٩	٢٤	البرلمانى	البرلمان
٤٨٤	٢٤	واحد	واحداً
٥٥٥	٢٤	تجاربه	وتجاربه
٥٥٦	٢٥	Babinet	Cabinet

جاء فى متن الكتاب فى أكثر من موضع اسم « تيير » وصحته « تيير »

القاهرة
مطابع دار الكتاب العربي بمصر
محمد حلمي المنياوي

